تفسير البالبساني
المعروف
في حسن البيان
تأليف
المرحوم العلامة الشيخ محمد ابن الشيخ
طه البالبساني (رحمه الله عليه)
١٣٣٦هـ/١٩١٨م - ١٤١٥هـ/١٩٩٥م
الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م
دار أحياء التراث العربي

حسن البيان
في
تفسير القرآن

تأليف

المرحوم العلامة الشيخ محمد بن الشيخ طه الباليساني

(رحمة الله عليه)

المجلد الخامس

(هذا التفسير)

قام بجمعه وإدخاله الحاسوب على حسابه الخاص والإشراف عليه
والتصحيح الأولي الأستاذ المساعد الدكتور حسين الباليساني

وقام بالمراجعة والتصحيح النهائي وبعض الأحاديث وبعض التعليقات في
الهامش الأستاذ الدكتور أحمد الباليساني، وكلاهما نجلا الشيخ المفسر.
نسأل الله لهما العفو والعافية والأجر والثواب.

دار إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان
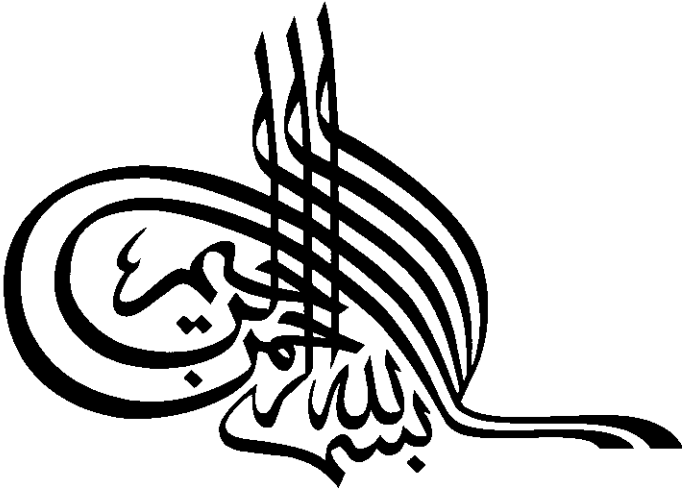
سورة سبأ

(مكيّة، وهي أربع وخمسون آية، نزلت بعد سورة لقمان، سمّيت بهذا الإسم لما فيها من ذكر حال قبيلة سبأ).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

(الحمد) أي الوصف بجميع صفات الكمال و بالكمال المطلق والأكمل في وصف يحقّ الثّناء به كلّ ذلك **(لله)** وحده، ثمّ أورد الله تعالى سبب ذلك الحمد وبرهن عليه بدلائل، فقال جلّ وعلا: **(له)** كلّ **(ما في السّموات)** أي العالم العلويّ **(والأرض)** أي وجميع ما في العالم السّفلي، فمن كان له هذان العالمان مُلكاً ومِلكاً وخلقاً فالكمال الأكمل له، هذا في الدّنيا **(وله الحمد في الآخرة)** أي يوم القيامة أيضا، حيث هو الّذي يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ويثبت من يشاء **(وهو الحكيم)** في كلّ ما يفعل من الثّواب والعقاب والمغفرة والعذاب **(الخبير)** بكلّ مايفعله العباد ممّا يثابون عليه أو يعاقبون **(يعلم ما يلج)** يدخل **(في الأرض)** من البذور والمياه والموتى مثلا **(وما يخرج منها)** من الإنبات والمعادن والأشجار وغير ذلك **(وما ينزل من السّماء)** من الأمطار والثّلوج والبرد والصّواعق والبركات والمصائب **(وما يعرج)** أي يصعد **(فيها)** إليها من الشّياطين فترجم، والأعمال الصّالحة فتدوّن لتثاب وغيرها **(الرّحيم)** متّصف بالرّحمة ولهذه الصّفة هو **(الغفور)** يغفر لمن يشاء لا لسبب آخر.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى ما يتعلّق بذاته أراد أن يذكر ما يتعلّق بيوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

بعد أن أشار الله تعالى في الآيتين السّابقتين بمجيء السّاعة بقوله وله الحمد في الآخرة، وأشار إلى الدّليل على مجيئها بقوله: **(له مافي السّماوات وما في الأرض)** لأنّ من له هذا الكون لابدّ وأن يكون له نظام وشريعة، والنّظام يقتضي الثّواب والعقاب، وأنّهما لا يوجدان في الدّنيا كليّاً إذ من يموت من الظّالحين دون عذاب، و من يتوفّي من الصّالحين دون ثواب، فلا بدّ من أن يأتي لذلك يوم يلقى فيه كلّ عاقبة عمله، وذلك يوم الحساب ليتحقّق عدل الله تعالى، ولذا في هذه الآية قال تعالى: **(وقال الّذين كفروا)** بدين الله وشريعته **(لا تأتينا السّاعة)** ولذلك لا يخافون من كلّ جريمة ولا يبالون بكلّ سيّئة **(قل)** أيّها النّبيّ وأيّها المسلم لهم **(بلى)** تأتيكم السّاعة **(وربّي)** قسمي أنّها **(لتأتيكم)** وأقسم بالرّب هنا لا باسم آخر لأنّ الرّب يتضمّن معنى التّربية، والتّربية يقتضي الإمتحان، والإمتحان يقتضي الاكرام والإهانة، وقد قيل قديماً عند الامتحان يكرم المرء أو يهان، فيقتضي ذلك أن تأتي السّاعة لامتحان النّاس فيه بالنظر إلى أعمالهم وحسابهم عليها وجزائهم وفقها، وكأنّ هنا من يسأل: فمن الّذي يعلم أعمالهم ليحاسبوا عليها؟ فقال الله تعالى: **(عالم الغيب)** أي ربّي الّذي هو عالم بكلّ ماغاب **(لا يعزب)** أي مايغيب عنه **(مثقال ذرّة)** من كلّ ما يوجد أو يفعل في السّماوات ولا في الأرض **(ولا أصغر من ذلك)** من مثقال ذرّة **(ولا أكبر)** فليس شيء من ذلك **(إلّا)** وهو مسطّر ومبيّن **(في كتاب مبين)** واضح يقرؤه كلّ أحد.

ثمّ أراد الله تعالى ذكر عاقبة هذا اليوم فقال: **(ليجزي)** اللّام لام عاقبة أنّ عاقبة هذا اليوم ومايجري فيه هو أن يجزي الله **(الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** جزاءهم، ثمّ

بيّن الله تعالى جزاءهم؛ فقال جلّ وعلا: **(أولئك لهم مغفرة)** من الذّنوب **(ورزق كريم)** أي مقدّر ومحترم في الجنّة **(والّذين سعوا في آياتنا)** أي شريعتنا وأحكامنا ليبطلوها أو يعطّلوها عن التّطبيق **(معاجزين)** أي مريدين ومعتقدين عجزها أي عجز شريعتنا عن تأمين الحياة وتمشيتها ومسايرة الظّروف **(أولئك لهم عذاب من رجز)** أي من العذاب السّيّئ **(أليم)** ذلك العذاب.

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

ذكر الله تعالى وأشار إلى الدّليل العقلي على حقيقة ما جاء به الرّسول من وحدة الله ومجيء يوم القيامة، وأراد تعالى أن يذكر الدّليل النّقلي على ذلك أيضا، فقال جلّ وعلا: **(والّذين أوتوا العلم)** وهم أهل الكتاب الصّادقون التّابعون للحقّ والمحبّون له كعبد الله بن سلام ومن حذا حذوه. فهؤلاء كلّهم يقولون لك أيّها النّبيّ إن **(الّذي أنزل اليك من ربّك)** من القرآن وما فيه من الأخبار بوحدة الله وبمجيء يوم القيامة **(هو الحقّ)** الموافق للواقع وللكتب السّماوية والتّوراة **(ويهدي إلى صراط)** أي منهج وشريعة **(العزيز)** أي الغالب على الانتقام ممّن ينحرف عنه **(الحميد)** أي المثني عليه في تشريعاته وأحكامه وثوابه لمن طبقها، وعقابه لمن انحرف عنها.

ثمّ اشار الله تعالى إلى أنّ استبعاد الكافرين للحياة بعد الموت جعلهم يكذّبون الرّسول ويستهزؤون به، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

(وقال الّذين كفروا) بالسّاعة ومجيئها لغيرهم من النّاس**(هل ندلّكم على رجل ينبّئكم)** بخبر عجيب جاء وهو**(إنّكم إذا مزّقتم)** أي مزّقتم في القبر**(كلّ ممزّق)** وأصبحتم ترابا فبعد ذلك إنّكم **(لفى خلق جديد)** فتعاد إليكم الحياة وتبعثون، وما ندري كيف يقول هذا القول**(أفترى)** أي أكذب**(على الله كذبا)** قصدا**(أم به جنّة)** أم مجنون فيقول ما

يقول ولا يبالي حيث لا يدري الصّدق من الكذب. فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا: **(بلى)** أي ليس بمحمّد جنّة أي جنون ولا يكذب على الله في قوله بالسّاعة ويوم القيامة: **(بل الّذين لا يؤمنون بالآخرة)** هم **(في العذاب)** يوم القيامة**(والضّلال البعيد)** عن الحقّ في الدّنيا، وذكر الضّلال بعد العذاب هو من باب ذكر السّبب بعد المسبّب، أي أنّ عذابهم في الآخرة مسبّب عن ضلالهم في الدّنيا، وأخّر ذكر المسّبب عن السّبب وإن كان السّبب مقدمّاعلى المسبّب لمراعاة الفاصلة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أهمّ بعض ما يدلّ على قدرة الله تعالى القاهرة، وأنّ صاحب هذه القدرة لا يصعب عليه البعث والإحياء بعد الموت فقال تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

(أفلم يروا) أي ألم ينظروا ليعلموا مدى قدرة الله تعالى**(إلى مابين أيديهم)** أي إلى أمامهم وخلفهم من الآيات الموجودة **(من السّماء)** من العلوّ **(والأرض)** أي من السّفل وإنّنا**(إن نشأ نخسف بهم الأرض)** كما يسمعون هذه الاخبار في حالهم وفي ماضيهم من خسفنا الأرض ببلاد وعباد **(أو نسقط عليهم كسفاً)** قطعاً**(من السّماء)** كالصّواعق كما يسمعون ذلك في حالهم وما فيهم من سقوط الصّواعق المهلكة للنّاس **(إنّ في ذلك)** أي في القدر الموجود من الآيات في السّماء والأرض وممّا في خسف بعض الأماكن وإسقاط الصّواعق **(لآية)** كافية في الدّلالة على أنّ الله قادر على الإحياء بعد الموت إلّا أنّه آية **(لكلّ عبد)** يتفكّر في الآيات فيدرك مدلولاتها **(منيب)** يرجع إلى الحقّ ويخضع له **(ولقد آتينا داود منّا فضلا)** نعما كلّها معجزات وآيات تدلّ على قدرة الله الّتى يقدر بهذه القدرة على إحياء الموتى. فالمعجزة الأولى أنّا أمرنا الجبال وقلنا لها **(يا جبال أوّبي)** أي سبّحي**(معه)** أي مع تسبيح داود، فكانت الجبال تسبّح مع داود ويسمع النّاس صوتها كما قال تعالى في آية أخرى: (إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق﴾

سورة ص الآية /١٨. فلا داعي إلى تفسير آخر لهذه الآية، كما فسّر بعض المفسّرين.

(والطّير) مفعول معه لقوله أوّبي أي ياجبال سبّحي مع الطّير حيث كانت الطّير حينما تسمع صوت داود (عليه السلام) تقف وتسبّح مع تسبيحه، وكان ذلك لحسن صوته وبأمر من الله تعالى، قال ابن كثير وفي الصّحيحين أنّ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمع صوت أبي موسى الأشعري (رضي الله عنه) يقرأ من اللّيل فوقف فاستمع لقراءته، ثمّ قال (صلى الله عليه وسلم): (لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود)[1]. والآية الثّانية: **(وألّنا له الحديد)** أي جعلنا الحديد في يديه ليّنا مثل العجين يفعل به مايشاء بدون نار ومطرقة وأمرناه **(أن أعمل سابغات)** أي دروعاً من الحديد وعلمناه صنعتها وقلنا له **(وقدّر في السّرد)** أي في صنع حلقات الدّرع، فلا توسّع إلّا بقدرها يدخل فيه الرّمح ولا تضيق ما يوجب ثقل الدّرع وذلك أنّ داود (عليه السلام) كان يبدّل ثيابه بالنّهار ويتنكّر فيخرج ويلتقى الرّكبان فيسألهم عن سيرته ويقول: كيف هي سيرة داود؟، فلا يسأل أحداً إلّا أثنى عليه خيراً في عبادته وسيرته وعدله، فبعث الله ملكاً في صورة رجل فلقيه داود (عليه السلام) فسأله عن سيرته فقال: هو خير النّاس لنفسه ولأمّته إلّا أنّ فيه خصلة لو لم تكن فيه كان كاملاً، قال: ماهي؟ قال: يأكل ويطعم عياله من بيت مال المسلمين، فلذلك نصب داود في الدّعاء إلى ربّه عزّ وجلّ أن يعلمه عملاً بيده يستعين به ويغني به عياله، فعلّمه الله تعالى صنعة الدّروع وألان له الحديد، فكان يعمل الدروع فيبيع فيتصدق بثلث ثمنها ويصرف ثلثها على نفسه وعياله ويمسك ثلثها إلى أن يعمل قسماً آخر، **(واعملوا)** يا داود وأهله **(صالحاً)** من الأعمال شكراً على هذه النعم **(إني بما تعملون بصير)** فأجازيكم عليها في الآخرة. فالعالم العلويّ من السّماوات والنّجوم والكواكب والشّموس والأقمار والسّحب والصّواعق والثّلوج والبرد والأمطار، والعالم السّفلى من الأرض وما يأتي عليها من الخسف والنّسف والدّمار وما فيها من الجبال والتّلال والصّخور والأحجار والمياه من العيون والآبار والأنهار والبحار والرّياح والصّحارى والوديان والنّبات والأشجار والحيوانات والزّواحف والإنسان والطّيور والمعادن والرّكاز، كلّ هذه الأمور آيات على قدرة الله الّتي لا يصعب عليها إحياء الموتى في القبور، إلّا أنّ الآية باعتبار المجموع لا الأجزاء، وإلّا فالآيات الكائنة في السّماء والأرض لا تدخل تحت الإحصاء، وكذلك

---

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٩٢٥ الحديث رقم ٤٧٦١.

تسبيح الجبال والطّير مع داود (ﷺ) وسماع النّاس لذلك حسب المورود، وألنّا الحديد له وتعلّمه الدّروع والسّرود لآيات على أنّ الله يقدر أن يحيي الموتى وهو على كلّ شيء قدير.

ثمّ اراد الله تعالى أن يذكر آيات آخرى فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

(ولسليمان) أي وآتينا وسخّرنا لسليمان**(الرّيح)** بدليل قوله تعالى: ﴿ولسليمان الرّيح عاصفة تجرى بأمره حيث شاء﴾ سورة الأنبياء الاية ٨١. عطفاً على قوله ﴿وسخّرنا مع داود الجبال .... الخ﴾، وبدليل قوله تعالى: ﴿فسخّرنا له الرّيح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب﴾ سورة ص الآية/ ٣٦، فسخّر الله تعالى لسليمان الرّيح تجري بعرشه **(غدوّها)** أي ذهابها بعرشه في الصّباح إلى الظّهر **(شهر)** أي مسافة شهر **(ورواحها شهر)** أي سيرها من الظّهر إلى الغروب شهر أيضاً، ولا عجب في ذلك فإنّه صنعت في المعامل ما تتحرّك وتشتغل بالماء،وطائرات وسفن وسيّارات تتحرّك بالنّار، فلا عجب أن توجد سفن تسير في الجو بالهواء كالطّيارات **(وأسلنا)** أي أذبنا وليّنا **(له)** لسليمان **(عين)** ينبع **(القطر)** أي النّحاس فكان يعمل منه ما يشاء **(ومن الجنّ)** أي وسخّرنا له من الجنّ **(من يعمل بين يديه بإذن ربّه)** أي بأمره تعالى **(ومن يزغ)** أي يمل عن أمرنا من العمل لسليمان **(نذقه من عذاب السّعير)** أي يحترق **(يعملون)** أي الجنّ **(له)** لسليمان **(مايشاء من محاريب)** من مباني **(وتماثيل)** جمع تمثال وهو الهيكل **(وجفان)** جمع جفن وهي ما يطبخ أو يضع فيها الأكل، وكانت الجفان في الكبر **(كالجواب)** جمع جابية وهي الحوض الكبير **(وقدور)** جمع قدر **(راسيات)** ثابتات، وقلنا لسليمان وأهله وذوي قرابته **(اعملوا آل داود)** من الصّالحات **(شكراً)** لله تعالى على هذه النّعم **(وقليل من عبادي**

الشّكور) فيؤدّي حقّ النّعم بالشّكر عليها، والشّكر حقيقة هو صرف النّعم فيما أحبّ الله ومنعها من الصّرف فيما لا يرضى به، فعاش سليمان مارزقه الله تعالى من العمر **(فلمّا قضينا عليه الموت)** وقرّرناه عليه الموت، مات والتقى روحه بالملأ الأعلى ولكن **(ما دلّهم)** أي ما أعلم النّاس وأطلعهم **(على موته إلّا دابّة الأرض)** وهي الأرضة، حيث مات سليمان في محرابه واضعاً جبهته على عصاه، وكان لا يقدر أحد أن يدخل عليه المحراب حتّى هو يقعد ويخرج فكانت الأرضة **(تأكل منسأته)** عصاه **(فلمّا خرّ)** أي وقع سليمان على الأرض لأنّ المنسأة انكسرت لضعفها بعد أكل الأرضة منها، فحينئذ علموا بموته وكذلك **(تبيّنت الجنّ)** أي علمت **(أنّ)** أي أنّ الشّان أنّهم **(لو كانوا)** أي الجنّ **(يعلمون الغيب ما لبثوا)** مدّة موت سليمان إلى علم النّاس بموته بعد أكل الأرضة عصاه **(مالبثوا في العذاب المهين)** وهو تسخيرهم من قبل سليمان، حيث لو علموا موته لتفرّقوا فورا، فعلموا أنّهم لا يعلمون الغيب. فإيتاء الله تعالى هذه الآيات والمعجزات لسليمان (عليه السلام) دليل على قدرة الله، وأنّه لا يعجز عن إحياء الموتى يوم القيامة.

ثمّ أراد الله تعالى أن ينذر منكري الرّسول (صلى الله عليه وسلم) بأن يذكر لهم قصّة قبيلة سبأ، فقال ابن كثير: كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التّبايعة جمع تبّع منهم، وبلقيس صاحبة سليمان (عليه السلام) من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وفي عيشهم، واتّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تعالى إليهم الرّسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق الله ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ماشاء الله تعالى، ثمّ أعرضوا عمّا أمروا به فعوقبوا بإرسال السّيل عليهم والتّفرق في البلاد شذر مذر. وقال سيّد قطب (رحمه الله): وسبأ اسم لقوم كانوا يسكنون اليمن الجنوبي، وكانوا في أرض خصبة مازال بقية منها إلى اليوم، وقد ارتفعوا في سلّم الحضارة حتّى تحكّموا في مياه الأمطار الّتى تأتيهم، فأقاموا خزّاناً بين جبلين جعلوا على فم الوادي بينهما سدّاً فيه عيون تفتح وتغلق، وخزنوا الماء بكميّات عظيمة وراء السّد، فكان لهم فيها مورد مائي عظيم قد عرف بسدّ مأرب، فأصبحت لهم جنان عن اليمين وعن الشّمال، فأمروا أن يستمتعوا بهذه النّعم شاكرين لله بتوحيده وعبادته، فكفروا النّعمة وبطروا، فأرسل الله تعالى سيل العرم، فأهلك جنّتيهم، وفي هذا قال تعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ

ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

(لقد) أي بعزّتي **(لقد كان لسبأ في مسكنهم)** بلدتهم باليمن **(آية)** دالّة على قدرة الله تعالى ووفير إنعامه عليهم، وتلك الآية هي أنّه كانت لهم **(جنّتان)** أي بساتين كثيرة، ولاتّصال بعضها ببعض أصبحت كأنّها جنّتان **(عن يمين)** من الوادي **(وشمال)** الوادي، وقيل لهم من قبل رسل الله تعالى **(كلوا من رزق ربّكم)** هذا الّذي وسعه عليكم **(واشكروا له)** فوحدّوه واعبدوه واعملوا بشريعته، وفوق مامنحكم من الأرزاق فقد منحكم بنعمتين عظيمتن وهما **(بلدة طيّبة)** في هوائها، فكانت كما يقال بلدة لابقّ ولا بعوض ولابرغوث ولاحيّة ولاعقرب فيها، ويمرّ الغريب بها فيموت مافي ثيابه من قمّل وبراغيث لطيب هوائها **(وربّ غفور)** يغفر زلّاتكم أن تعبدوه وتوحّدوه **(فأعرضوا)** بعد مدّة عن عبادة الله وشريعته وبطروا فأرسلنا عليهم **(سيل العرم)** إضافة السّيل العرم من إضافة الموصوف إلى صفته، أي السّيل العارم أي الشّديد الّذي لا يطاق، فأزال السّيل السّد وفاض الماء وأهلك الجنّتين **(وبدلناهم)** أي وأعطيناهم **(بجنتيهم)** أي بدّل جنّتيهم **(جنّتين)** أخريين **(ذواتي أكل)** مأكول **(خمط)** مر بشع **(وأثل)** هو الطّرفاء **(وشيء من سدر)** وهو النّبق **(قليل)** جدّا ذلك النّبق **(ذلك)** التّبديل **(جزيناهم)** عاقبناهم به **(بما كفروا)** ما مصدريّة تؤوّل ما بعدها مصدراً، أي بسبب كفرهم **(وهل)** الاستفهام للإنكار فيكون هل بمعنى ما أي **(ومانجازي)** ومانعاقب **(إلّا الكفور)** أي شديد الكفر أو الّذي زاد في الطّغيان، فبقوا مدّة هكذا، وكان بينهم وبين الشّام قرى كثيرة متقاربة يسيرون فيها للتّجارة إلى الشّام، فلم يشكروا هذه النّعمة أيضاً، بل كانوا يدعون الله أن يباعد بين قراهم، فاستجاب الله دعاءهم غضباً عليهم، ففرّقهم تفريقاً كثيراً جدّاً كما قال تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

(وجعلنا بينهم وبين القرى الّتي باركنا فيها) وهي قرى الشّام **(قرى ظاهرة)** بعضها من بعض لتقاربها فكانت المسافة بينها قريبة **(وقدّرنا فيها)** أي فيما بين كلّ قريتين **(السّير)** تقديراً لا يتعبون فيه وأمرناهم أمر تكوين **(سيروا فيها ليالي وأيّاماً آمنين)** إلى أن تصلوا إلى الشّام لا تصيبكم مفازة تتيهون فيها أو تعطشون أو تجوعون أو تسلبون فيها، بل تقيلون في قرية وتروحون في أخرى إلى الشّام، فلم يشكروا هذه النّعمة أيضاً **(فقالوا ربّنا باعد بين)** مراحل**(أسفارنا)** لنركب فيها ونتزوّد لها فنفاخر في الدّواب والأساليب **(وظلموا أنفسهم)** بهذا الدّعاء **(فجعلناهم)** متفرّقين **(أحاديث)** لا يذكرون إلّا في الحكايات، وزالت وحدتهم وشوكتهم **(ومزّقناهم)** أي فرقناهم**(كلّ ممزّق)** أي تمزيقاً كبيراً، فذهبت كلّ قبيلة إلى جهة، فلحق غسّان بالشّام، والأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة، والأوس والخزرج إلى يثرب، ولحق آل خزيمة بالعراق**(إنّ في ذلك)** الّذي وقع على قوم سبأ **(لآيات)** لدلالات على أنّ الطّغيان والبطر والخروج عن دين الله تعالى سبب الدّمار والإنحطاط، ولكنّ ليست آية إلّا **(لكلّ صبّار)** على حكم الله **(شكور)** نعمه فإنّهم هم الّذين يعتبرون بها، وأمّا من سواهم فهم كالأنعام بل أضلّ سبيلاً **(ولقد صدق عليهم إبليس ظنّه)** أي قوله ظنّاً حيث قال: **(فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين)** فصدق قوله هذا على قوم سبأ فأغواهم **(فاتّبعوه إلّا فريقاً من المؤمنين)** بقوا على إيمانهم **(وما كان له)** لإبليس**(عليهم من سلطان)** من قوّة بقهرهم بها على الكفران والغواية **(إلّا)** أنّه كان يوسوس فيهم ويحبّب إليهم الشّر فتركناه على هذه الوسوسة **(لنعلم)** أي ليتحقّق علمنا الأزلي كما هو في الخارج، فيتبيّن **(من يؤمن بالآخرة)** يوم القيامة **(ممّن هو منها في شكّ وربّك على كلّ شيء)** من الإيمان والكفر والطّاعة والفسق **(حفيظ)** يحفظه ولا ينساه فيعاقب صاحب كلّ ذنب حسب ما يليق به في الآخرة أو في الدّنيا والآخرة معاً.

ثم بعد أن أنذر الله تعالى المشركين بما جرى على قوم سبأ أراد أن يناقشهم النبي في عقيدتهم فقال تعالى:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

(**قل**) أيّها النّبيّ وأيّها الموحّد للمشركين وصارحوهم فقل: (**ادعوا**) أتركوا الأصنام والآلهة والأرباب (**الّذين زعمتموهم**) اعتقدتموهم آلهة وشركاء (**من دون الله**) تعالى فادعوهم في أيّ حاجة من حوائجكم، هل يقدرون على قضائها؟ كلّا فإنّهم (**لا يملكون**) أي لا يقدرون أو لا يملكون السّلطة على(**مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض ومالهم فيها**) في هذه الكائنات (**من شرك**) مشاركة لله تعالى (**وماله**) ومالله (**منهم**) من هؤلاء الآلهة ولا ممّا سوى ذاته، سواء كان تلك الآلهة أو غيرها(**من ظهير**) من مساعد ومعاون في خلقه وتقديره وتدبيره، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تعبدون غير الله؟ وتطيعون من سواه إلّا فيما أمر به؟، وإن أردتم أنّ هؤلاء وإن لم يستطيعوا شيئاً إلّا أنّهم يشفعون لنا عند الله تعالى فاعلموا أنّه (**لا تنفع الشّفاعة عنده**) عند الله تعالى ولا يقبلها(**إلّا لمن أذن له**) أن يشفع له، ولا ياذن أن يشفع للكافر ولا للمشرك (**حتّى**) أي أنّ الشّدة تبلغ حدّا لا تنفع الشّفاعة المقيّدة بالإذن (**حتّى إذا فزع**) أي أذهب الخوف عن قلوبهم بتخفيف الشّدة فحينئذ (**قالوا**) أي أهل المحشر (**ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ**) وهو أنّ الشّفاعة تكون للموحّد والمؤمن خاصّة لا للكافر والمشرك (**وهو العليّ**) في قضائه لا يردّه أحد (**الكبير**) فلا شفاعة لمن ادّعى الكبرياء لنفسه أو لغيره سوى الله تعالى (**قل**) لهم (**من يرزقكم**) بإنزال المطر (**من السّماوات و**) إنبات النّباتات من (**الأرض**) فهم يسكتون حيث يعلمون ويعتقدون أنّه هو الله لا شركاؤهم، فأجب أنت عنهم (**قل الله**) فإذا كان الأمر كذلك فكيف تعبدون غيره ولا يستحقّ العبادة إلّا من بيده الرّزق أي خلقه وهبته (**وإنّا**) بعقيدتنا هذه (**أو إيّاكم**) بعقيدتكم تلك (**لعلى هدى أو في ضلال مبين**) ولم يبيّن المهتدي من الجانبين ليتفكّروا فيعلموا من هو المهتدي.

ثمّ أراد الله تعالى أن يعلّمهم الرّسول أو الدّاعي أنّه إنّما يريد بدعوتهم إلى التّوحيد لنفعهم وخيرهم وإلّا فلا يضرّه شركهم فقال تعالى:

﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(قل) لهم (**لاتسألون**) أنتم عمّا أجرمنا، فلماذا تكرهون دعوتنا وتمنعون النّاس من قبولها؟ (**ولا نسأل**) نحن (**عمّا**) كنتم (**تعملون**) فلكلّ ذنبه ولكلّ جزاؤه، فلتكن هناك حريّة في العقيدة والدّعوة، ولا يكره أحد غيره على دعوته ولا يمنعه منها (**قل**) إن ما تعملون من معاداة الإسلام وصدّ النّاس عن التّوحيد لا يكون دون عاقبة واستجواب من الله تعالى بل (**يجمع بيننا**) أي بيننا وبينكم (**ربّنا**) يوم القيامة (**ثمّ**) بعد الجمع (**يفتح**) يحكم (**بيننا بالحقّ**) بأن ينعم على المحقّ ويعذّب المبطل (**وهو الفتّاح**) الحاكم (**العليم**) بكلّ حقّ وباطل، فإنّ عمل بالحقّ أو بالباطل لا يخفى عليه شيء (**قل أرونى**) أي أخبرونى عن (**الّذين ألحقتم به**) أي بالله فعبدتموهم هل هم آلهة يستحقّون العبادة (**كلّا**) وإنّكم على باطل (**بل الله هو العزيز**) الغالب على كلّ شيء (**الحكيم**) في كلّ ما يفعل، فهو الحقيق بالعبادة لاغيره. ثمّ سلّى الله تعالى رسوله وأعلمه أنّه ليس عليه إلّا التّبليغ والتّبشير والإنذار، وليس عليه أن يهتدي النّاس، فإنّ ذلك يعود إلى اختيارهم وإرادة الله تعالى فقال: (**وما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس بشيرا ونذيرا**) وما أرسلناك إلّا كافة بمعنى جميعا، تأكيد للنّاس، والتّقدير وما أرسلناك إلّا بشيرا ونذيرا للنّاس كافّة، قدّم كافّة للاهتمام، وذلك لأنّه لو كان مبعوثا لهؤلاء النّاس خاصّة فله بعض الحقّ أن يتعب أو يغتمّ لضلالهم، ولكنّ دعوته عامّة فإن أبى هؤلاء فهناك من يقبلها من النّاس الآخرين، فالدّعوة لا تفقد أتباعها وإنّ الّذين يفقدون الدّعوة هم الأخسرون (**بشيرا**) لهم بالجنّة إن آمنوا (**نذيرا**) بالعذاب إن أبوا، وإنّ عاقبة هذا التّبشير والإنذار ووقت تنفيذه يأتى ولا شكّ فيه (**ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون**) أي لا يؤمنون بذلك ويستهزؤون حينما تنذرهم كما قال تعالى:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(ويقولون) لكم استهزاء **(متى هذا الوعد)** أي وعد العذاب والنّعيم **(إن كنتم صادقين)** أيّها المؤمنون في قولكم هذا، فعيّنوا وقته **(قل)** لهم أيّها المسلم **(لكم ميعاد يوم)** معيّن عند الله تعالى **(لا تستأخرون عنه)** إذا جاء **(ساعة)** لحظة واحدة **(ولا تستقدمون)** إذا لم يأت.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قولهم فيه وقولهم في حقّ الآخرة، وإنكارهم لها ولوحدة الله تعالى، أراد أن يذكر قولهم في حقّ هذا القرآن فقال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

(وقال الّذين كفروا) باليوم الآخر **(لن نؤمن بهذا القرآن)** فيما يخبر من مجيء السّاعة **(ولا)** نؤمن أيضاً **(بالّذي)** جاء **(بين يديه)** أي قبل القرآن وهو التّوراة فيما يخبر عن يوم القيامة، ثمّ أراد تعالى أن يذكر حال هؤلاء يوم القيامة فقال جلّ وعلا: **(ولو ترى)** أيّها السّامع الحال **(إذ)** أي وقتما **(الظّالمون موقوفون)** فيه **(عند ربّهم)** للحساب، وجواب لو لرأيت أمرا عجيبا، ثمّ بيّن ذلك الأمر العجيب فقال جلّ وعلا: **(يرجع بعضهم)** أي يردّ بعضهم **(إلى بعض القول)** ويتجادلون **(يقول الّذين استضعفوا)** وهم الرّعيّة **(للّذين استكبروا)** وهم الرّؤساء **(لولا أنتم)** ومنعكم إيّانا من الإيمان **(لكنّا)** في الدّنيا **(مؤمنين)** بالإسلام ودخلنا فيه **(قال الّذين استكبروا)** جوابا **(للّذين استضعفوا أنحن صددناكم)** أي منعناكم **(عن الهدى بعد إذ جاءكم)** والاستفهام للإنكار، أي نحن ما منعناكم **(بل كنتم)** أنتم باختياركم **(مجرمين)** فكفرتم بالإسلام واتّبعتمونا **(وقال الّذين استضعفوا)** جوابا للّذين **(استكبروا بل مكر)** أي لم نكن مجرمين باختيارنا بل مكركم في

اللّيل والنّهار ومحاولاتكم السّيئة صدّتنا عن الإيمان **(إذ)** كنتم دائماً **(تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا)** شركاء فنتّبعهم ونعمل بحكمهم ونترك حكم الله تعالى **(وأسرّوا)** أي وأخفى الفريقان **(النّدامة)** على مافعلوا في الدّنيا من الكفر والعصيان والانحراف عن شريعة الله تعالى وذلك **(لمّا رأوا العذاب)** ووقعوا فيه **(وجعلنا الأغلال في أعناق الّذين كفروا)** السّادة والمسودين جميعاً وسحبوا في النّار **(هل)** أي ما **(يجزون)** هذا الجزاء **(إلّا)** حسب **(ما كانوا يعملون)** فكان حقّ الجزاء وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله (ﷺ) ويذكر له أنّ هذا سنّة الله في الرّسل كلّهم أنّهم يؤذون ويكذبون، ثمّ يكون لأعدائهم الذّل ولهم وللمؤمنين بهم النّصر والسّيادة وحسن العاقبة؛ فقال جل وعلا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(وما أرسلنا) من رسول **(في قرية)** من القرى **(إلّا قال مترفوها)** أي المنعمون فيها، وهم الرّؤساء والأثرياء وأصحاب المصالح، فقال كلّ هؤلاء للرسل **(إنّا)** جميعاً **(بما أرسلتم به)** من الدّين **(كافرون)** ولا نؤمن به ولا بك **(وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا)** منك وممّن تبعك أيّها الرّسول فلا نطمع فيك في الدّنيا فنتّبعك لأجل مالك أو قوّتك **(وما نحن بمعذّبين)** في الآخرة فنؤمن بك خوفاً من ذلك، حيث لا نعتقد بالآخرة أيضاً **(قل إنّه ربّي)** هو الّذي **(يبسط الرّزق)** أي بوسعه **(لمن يشاء ويقدر)** له فعليكم أن يكون بسبب سعة رزقكم أن تشكروا الله فتؤمنوا به وتوحّدوه **(ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون)** فيسوقهم الجهل إلى مقابلة المنعم بالكفران.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ كثرة الأموال والأولاد ليست سبباً للقرب من الله تعالى والنّجاة من العذاب إلّا من جعل الأموال والأولاد سبباً لصالح الأعمال فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ

يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

(وما أموالكم) كلّها **(ولا أولادكم)** جميعاً **(بالّتي)** بالدّرجة الّتي **(تقرّبكم عندنا زلفى)** أي تقريب حبّ وإكرام **(إلّا من آمن)** واستعمل الأموال والأولاد وفق الإيمان **(وعمل صالحاً)** بتلك الأموال والأولاد **(فأولئك)** الّذين يؤمنون ويعملون الصّالحات ويستعملون أموالهم وأولادهم في صالح الأعمال **(لهم جزاء الضّعف)** من إضافة الموصوف إلى الصّفة، أي جزاء الضّعف بمعنى المضاعف الواحد إلى العشرة إلى سبعمائة، والله يضاعف أكثر من ذلك لمن يشاء وذلك **(بما)** بسبب **(ماعملوا وهم في الغرفات)** في الجنّة **(آمنون)** من كلّ مكروه ومؤذ **(والّذين)** أي ولكن **(الّذين يسعون في)** إبطال **(آياتنا)** أحكامنا وشريعتنا **(معاجزين)** يعتقدون عجزنا عن عذابهم **(أولئك في العذاب محضرون)** معذّبون. ثمّ ذكر الله تعالى أنّ العبد يجب أن لا يخاف من الفقر فيمنعه ذلك عن الإنفاق، فإنّ الرّزق بيد الله وأنّه يوسّع على من أنفق في الخير ولا يضيّقه بذلك، فقال جلّ وعلا: **(قل إنّ ربّي)** هو الّذي **(يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده ويقدر)** أي يضيف **(له)** لمن يشاء **(وما أنفقتم من شيء)** فيما أمر الله تعالى به **(فهو)** أي الله **(يخلفه)** يعوّضه ويأتي بخلفه **(وهو خير الرّازقين)** فلا يضيق على من أنفق ماله في سبيل دينه ورضاه.

ثمّ ذكر الله تعالى محاكمتهم يوم القيامة وتبرّي معبوديهم عنهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(ويوم) أي واذكر لهم يوم **(يحشرهم)** يجمعهم الله تعالى **(جميعاً)** المشركين والملائكة، حيث كان المشركون يعبدون الأصنام على أنّها تماثيل للملائكة، وأنّ الملائكة بنات الله تعالى، ففي الحقيقة هم يعبدون الملائكة فيجمعهم الله تعالى **(ثمّ**

يقول) تعالى **(للملائكة أهؤلاء)** المشركون **(إيّاكم كانوا يعبدون)** يطيعون في عبادتهم لكم هل أنتم أمرتموهم بذلك **(قالوا)** أي الملائكة **(سبحانك)** أي تنزّهت ياربّ عن أن يستحقّ العبادة أحد غيرك فكيف نأمرهم بعبادة غيرك **(أنت وليّنا من دونهم)** فلا موالاة بيننا وبينهم **(بل كانوا يعبدون)** أي يطيعون **(الجنّ)** وهم الشّياطين، فهم كانوا يأمرونهم بهذه العبادة **(أكثرهم بهم)** بالجنّ **(مؤمنون)** مصدّقون فيما يوسوسون فيهم **(فاليوم لا يملك بعضكم)** وهم المعبودون سوى الله تعالى **(لبعض)** وهم العابدون **(نفعاً)** شفاعة وإنقاذاً من العذاب **(ولا ضرّاً)** وهو العذاب بل كلّ ذلك بيد الله **(ونقول للّذين ظلموا)** حيث أشركوا **(ذوقوا عذاب النّار الّتي كنتم بها تكذّبون)** ذوقوا ما كنتم تكذّبون بها في الدّنيا وهو العذاب بالنّار فادخلوها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى أنّه لم يعذّبهم دون تبليغ وإنذار، بل إنّهم بلّغوا وأنذروا، فكذّبوا وكفروا؛ فحقّ عليهم العذاب فقال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

(وإذا تتلى عليهم آياتنا) أي دلائل وحدتنا وكانت تلك الآيات **(بيّنات)** واضحات الدّلالة على التّوحيد **(قالوا ما هذا)** الّذي يدعونا إلى هذه العقيدة وهو الرّسول **(إلّا رجل يريد أن يصدّكم)** يمنعكم **(عن)** عبادة **(ما كان يعبد آباؤكم)** إيّاه **(وقالوا ما هذا)** الّذي يدعوننا إليه هذا الرّجل **(إلّا إفك)** عقيدة باطلة **(مفترى)** افتراه الرّجل **(وقال)** هؤلاء **(الّذين كفروا للحقّ)** وهو القرآن وأدلّته الدّالة على رسالة الرّسول وحقيقة مايدعو إليه **(لمّا)** بعد أن **(جاءهم)** أتى به إليهم الرّسول (ﷺ) **(إن هذا إلّا سحر مين)** واضح.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه تليت عليهم دلائل واضحة على بطلان الشّرك فتركوا ما عليه دليل واضح واتّبعوا ماليس عليه دليل، فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

(وما آتيناهم) أي المشركين **(من كتب يدرسونها)** فيجدون فيها ما يأمرهم بالشّرك **(وما أرسلنا إليهم قبلك)** يا محمّد **(من نذير)** يأمرهم بالشّرك اذاً فكيف يشركون. ثمّ أنذرهم الله تعالى فقال جلّ وعلا: **(وكذّب الّذين من قبلهم)** رسلهم **(وما بلغوا)** أي أهل مكة **(معشار ما آتيناهم)** أي الأمم السّابقة من القوّة والمال وطول العمر **(فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير)** أي نكيري أي عذابي لهم من التّدمير والدّمار، فليعتبر هؤلاء بهم فلا يكذّبوا الرّسول (ﷺ) وليؤمنوا به حفظاً لهم من العذاب.

﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾

ثمّ أمر الله تعالى رسوله محمّداً (ﷺ) أن يعظهم مواعظ ويبلّغهم بلاغات فيها منهج واضح ودعوة بالصّدق والإخلاص بعيدة كلّ البعد عن التّهم، فقال جلّ وعلا: **(قل)** يا محمّد للنّاس **(إنّما أعظكم)** وأدعوكم إلى العمل **(بـ)** خصلة **(واحدة)** وهي أن لا تنكروا دعوتي بدون رؤية وتفكّر فيها، ولا تكذّبوني بدون تريّث وأطلب **(أن تقوموا)** أي تعملوا **(مثنى)** إثنين إثنين **(وفرادى)** وفرداً فرداً **(ثمّ تتفكّروا)** في كلامي وفي دعوتي وفي شخصي لتعلموا أنّه **(ما بصاحبكم)** الّذي وثّقتم به قبل وأتمنتم به ووصفتموه بالصّادق الأمين والحاذق الفهيم فهو مابه **(من جنّة)** جنون ولتعلموا **(أنّه هو)** أي ما هو **(إلّا نذير لكم من بين يدي)** أي من قبل مجيء **(عذاب شديد)** فإن آمنتم زال ذلك العذاب وإلّا فهو واقع بكم، هذا لأنّ حاله وكلامه ودعوته يشهد كلّ ذلك على صدقه لمن تفكّر فيه دون تعصّب وكبر وحسد وتقليد **(قل)** لهم **(ما)** كلّ ما **(سألتكم من أجر)** مقابل هذه الدّعوة **(فهو لكم)** ولا تؤتوني شيئاً حيث ما أريد منكم أجراً **(إن أجري إلّا على الله وهو على كلّ شيء شهيد)** فينصر المحقّ ويثيبه ويذلّ المبطل وينتقم منه **(قل إنّ ربّي يقذف)** أي يلقي **(بالحقّ)** بالمنهج الحقّ إلى أنبيائه وإليّ وهو **(علّام الغيوب)**

فيضيع المنهج حسب علمه هذا **(قل جاء الحقّ)** وهو نظام التّوحيد وشريعة الله **(وما يبدئ)** وما يظهر **(الباطل)** وهو نظام الشّرك وقوانين الشّر وتقاليد الجاهليّة شيئاً **(وما يعيد)** له ميزانا وثباتا في الأرض **(قل)** هذا ما أقول لكم وأبلغكم وإنّي **(إن ضللت)** باتّباعي هذا المنهج **(فلا أضلّ إلّا على نفسي)** ويتحقّق ضرر هذا الضّلال بي فقط **(وإن اهتديت)** إلى الحقّ فليس من جهدي وذكائي بل **(فبما يوحي إليّ ربّي)** لاعلم لى إلّا منه ولا فضل ولا حسن إلّا منه **(إنّه سميع)** يسمع تبليغاتي هذه كلّها وموقفكم منها **(قريب)** فلا يجهل من حالنا شيئاً وهو يحكم بيني وبينكم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حالهم وندامتهم يوم القيامة فقال:

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾﴾

(ولو ترى) أيّها النّبيّ وأيّها النّاظر والرّائي حال هؤلاء الكافرين **(إذ)** وقتما **(فزعوا)** أي اهتزّوا خوفاً **(فلا فوت)** لا مهرب لهم من العذاب **(وأخذوا)** للسّوق إلى العذاب **(من مكان قريب)** من قبورهم **(وقالوا)** في ذلك الوقت **(آمنّا به)** بالرّسول وبالدّين **(وأنّى)** يمكن **(لهم التّناوش)** أي أخذ ثمرة الإيمان **(من مكان بعيد)** وهو الآخرة؛ لأنّ ثمرة الإيمان يكون بالإيمان في الدّنيا وقد بعدت الدّنيا منهم **(وقد كفروا به)** حينما كان ينفعهم الإيمان **(من قبل)** من قبل هذا الموقف وهو وقت كونهم في الدّنيا **(و)** كانوا **(يقذفون)** محمّدا ودعوته **(بالغيب)** بماغاب عنهم، فيقولون هو ساحر وهذا سحر أو إفك مفترى. إلى آخر ماكانوا يقولون في حقّ الإسلام ورسوله، وقد كان قولهم هذا **(من مكان بعيد)** عن الحقّ **(وحيل)** يوم القيامة **(بينهم وبين)** الإنتفاع وقبول **(ما يشتهون)** في ذلك الوقت وهو الإيمان **(كما فعل)** ذلك **(أتباعهم)** من أمم الرّسل الكافرة **(من قبل)** من قبلهم. فكلّ من كفر برسول يؤمن به يوم القيامة ويودّ لو قبل منه، ولكن لا يقبل منهم حيث **(إنّهم)** في الدّنيا **(كانوا في شكّ)** إنكار وكفر **(مريب)** مضلّ لغيرهم لا لأنفسهم فقط، وفي هذا الوقت يندم من يندم ويخسر من يخسر، فطوبى لمن فاز فيه ورزق الخير وحسن الخاتمة، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وأمّته أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

سورة فاطر

(مكيّة وآياتها خمس وأربعون نزلت بعد سورة الفرقان، سمّيت بفاطر لأنّها صدّرت بقوله: الحمد لله فاطر السّماوات والأرض).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

(الحمد لله) أي العظمة والكمال كلّه **(لله)** وحده **(فاطر)** خالق **(السّماوات)** العالم العلويّ كلّه **(والأرض)** والعالم السّفليّ جميعه، خلق كلّ ذلك من عدم **(جاعل الملائكة رسلا)** إلى الأنبياء وإلى تدبير أمور الأرض من عمارتها أو تدميرها **(أولي)** أي ذوات **(أجنحة)** جمع جناح، فللملائكة أجنحة **(مثنى)** لبعض جناحان **(وثلاث)** ولبعضهم ثلاثة أجنحة **(ورباع)** ولبعضهم أربعة **(يزيد)** الله تعالى **(في الخلق)** فهو لا يزال يخلق **(ما يشاء)** وباستمرار الزّمان **(إنّ الله على كلّ شيء)** يريد خلقه **(قدير)** ذو قدرة لا يعجز عن خلقه، ولقدرته هذه **(ما يفتح الله)** بقدرته **(للنّاس من رحمة)** من نعمة **(فلا ممسك لها)** غيره **(وما يمسك)** ويمنع ويقطع من نعمة **(فلا مرسل له)** أي لما يمسك **(من بعده)** أي من دونه **(وهو العزيز)** أي الغالب على أمره **(الحكيم)** في إرساله للنّعم، وفي

إمساكها لا يفعل شيئاً من ذلك إلّا لحكمة (**يا أيّها النّاس اذكروا نعمت الله عليكم**) من الحياة والسّمع والبصر والصّحة (**وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها**) أي لا تستطيعون إحصاء نعم الله عليكم؛ فاذكروا هذه النّعم بتوحيده في العبادة والحكم والخلق والتّأثير والتّشريع وتفكّروا (**هل**) يوجد (**من خالق غير الله**)، فإذا تفكّرتم تعلمون أنّه لا يوجد غير الله (**يرزقكم**) بإنزال المطر (**من السّماء**) وإنبات النّبات والأشجار (**من الأرض**)، فإذا كان الأمر كذلك فاشهدوا أنّه (**لا إله**) أي لا يستحقّ العبادة والطّاعة (**إلّا هو**) إلّا الله (**فـ**) بعد هذا التّفكر و الاعتراف (**أنّى**) كيف (**تؤفكون**) تصرفون عن عبادته تعالى وتوحيده إلى الشّرك.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى ما يتعلّق بذاته من التّوحيد أراد أن يذكر ما يتعلّق برسوله (ﷺ) وبالآخرة، فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٤ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾

(**وإن يكذّبوك**) يا محمّد فلا تحزن، فإنّ هذه من سنّة الرّسل حيث (**فقد كذّبت رسل**) كثيرون وعظام (**من قبلك وإلى الله ترجع الأمور**) كلّها في الدّنيا، فينصرك عليهم ويذلّهم وفي الآخرة أيضاً، فينعم عليك وعلى اتّباعك وينتقم منهم (**يا أيّها النّاس إنّ وعد الله**) بثواب المؤمن وعقاب العاصي ومجيء السّاعة لذلك (**حقّ فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا**) فتحملكم على المعاصي (**ولا يغرّنّكم بالله**) أي بعفو الله (**الغرور**) وهو الشّيطان فيوسوس ويحمل النّاس على المعاصي بحجّة أنّ الله غفور رحيم، نعم إنّه غفور ولكنّ ليست المغفرة واجبة عليه، وشديد العقاب أيضاً، ولست تدري بأيّ وصف من هذين الوصفين يتجلّى عليك، ثمّ إنّه غفور لمن تاب وما تدري هل ترزق التّوبة أم لا ؟ فلا تعص اعتماداً على هذه الأمور الّتي يغرّك الشّيطان بها، فإنّ الشّيطان **عدوّك** ولا يريد إلّا ما يضرّك، كما قال تعالى :

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ

﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝٨﴾

(**إنّ الشّيطان لكم**) يا أبناء آدم عدوّ لا يريد لكم إلّا الشر(**فاتّخذوه عدوّاً**) فلا تتّبعوه (**إنّما يدعو حزبه**) إلى المعاصي والكفر (**ليكونوا من أصحاب السّعير**) معه لا لمنفعتهم، ثمّ بين الله تعالى ما لاتّباع الشّيطان وما لغيرهم، فقال جلّ وعلا: (**الّذين كفروا**) أعدّ من الله (**لهم**) في يوم القيامة (**عذاب شديد**) جدّاً (**و**) لكنّ (**الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات**) وفق الإيمان وحسب شريعة الله تعالى (**لهم**) عند الله تعالى (**مغفرة**) من الذّنوب (**وأجر**) وثواب (**كبير**) وكثير. ثمّ بيّن الله تعالى أنّه لا يساوى بين الكافر والمؤمن والصّالح والطّالح يوم القيامة، فقال جلّ وعلا: (**أفمن زيّن له سوء عمله**) أي عمله السّيىء فزيّن الشّيطان له ذلك (**فرآه حسناً**) فما تندّم وما تاب عنه إلى أن مات عليه، أفهذا كمن رأى سوء عمله قبيحا فتركه ولم يعمل، أو تاب عنه وندم، هل يستوي هذان الفريقان كلّا حيث (**فإنّ الله يضلّ**) أي يحكم بالضّلال على (**من يشاء**) وهو الّذي يرى سوء الأعمال حسناً وينتقم منه (**ويهدي**) أي ويحكم بالهداية على (**من يشاء**) وهو الّذي يرى العمل السّيئ قبيحا وينعم عليه، وسوء العمل وحسنه مربوط بالشّريعة فما رأته حسناً فهو حسن ومالا فلا (**فلا تذهب نفسك عليهم**) أي على ضلال من ضلّ (**حسرات**) أي ذات حسرات أي متحسّرة حيث (**إنّ الله عليم بما يصنعون**) فلا يوفّقهم ولا يهديهم جبراً، بل يبقيهم على ما اختاروه من الضّلال في الدّنيا وينتقم منهم يوم القيامة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دليلاً على إمكان الحياة بعد الموت ومجيئها فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾

(**والله**) هو الّذي (**أرسل الرّياح**) أي قدّر ونظّم أرسالها (**فتثير**) الرّياح حينما تأتي وتنشر (**سحابا فسقناه إلى بلد ميّت**) يابسة وقفت قواها الإنباتيّة عن الإنبات ليبوستها (**فأحيينا به**) أي بالمطر النّازل من السّحاب (**الأرض**) فتحرّكت قواها الإنباتيّة (**بعد موتها**)

يبوستها فأنبتت (**كذلك**) مثل ماترى دائما، مستمرّا من يبوسة الأرض وموت نباتاتها ثمّ إخراج النّباتات مرّة أخرى من بذورها يكون (**النّشور**) أي إحياء الإنسان وبعثه بعد موته، فالإنسان أيضاً نبات ينبت ثمّ يجنى ثمّ ينبت مرّة أخرى، ولا صعوبة في ذلك بالنّسبة إلى قدرة الله تعالى الّذي وجده أوّل مرّة، ثمّ إنّ الرّسول حينما يتلو آيات القرآن ويذكر آيات توحيد الله ومجيء السّاعة كان بعض القلوب تدرك الحقيقة وتنفتح للايمان، إلّا أنّه كان يمنعه من ذلك عزّته في قومه وسيادته فقال تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

(**من كان يريد العزّة**) فليؤمن بالله وليعبده حيث (**فللّه العزّة جميعاً**) وبيده إعطاؤها لمن يشاء، ثمّ بيّن سبب إيتائه العزّة للنّاس، فقال جلّ وعلا: (**إليه**) أي إلى الله تعالى (**يصعد الكلم الطّيب**) وهي كلمة التّوحيد والحقّ والعدل، فيكرم الله تعالى صاحبها ويعزّه (**والعمل الصّالح يرفعه**) الله إليه فيعزّ صاحبه (**والّذين يمكرون**) أي يعملون السّيئات ويحيكون المؤامرات ضدّ الإسلام ورسوله (**لهم عذاب شديد**) جدّاً في الآخرة (**ومكر**) وعمل (**أولئك**) السيّئ (**هو يبور**) أي يهلك ويزول؛ فلا يستطيع الباطل أن يظهر على الحقّ، إنّ عمل أهل الحقّ واجتهدوا للحقّ بالإخلاص فلا يذلّ المسلمون إلّا إذا قعدوا عن العمل أو قصّروا فيه أو خانوا أو آثروا الدّنيا على الدّين.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى آيات قدرته في الآفاق من كيفيّة خلقه للمطر وإيجاد النّبتات وإفنائها ثمّ إيجادها مرّة أخرى، أراد أن يذكر آيات قدرته في الأنفس فقال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

(**والله خلقكم من تراب**) لأنّ التّراب يصير نباتاً وأشجاراً، ومنها الحبوب والأقوات والفواكه، ومن القوت والفواكه الغذاء ومن الغذاء الدّم ومن الدّم توجد النّطفة (**ثمّ**)

خلقكم الله **(من نطفة)** وهي المني تقذف في الرّحم فتصير علقة، ثمّ تصير مضغة غير مصوّرة، ثمّ تصير مصوّرة **(ثمّ)** بعد التّصوير **(خلقكم أزواجاً)** ذكراً وأنثى **(وما تحمل من أنثى)** سواء كانت إنساناً أو غيره حملاً **(إلّا بعلمه)** وتقديره **(وما يعمّر)** أو ما يزداد من عمر **(معمّر)** وهو الّذي يعيش كثيراً **(ولا ينقص من عمره)** من الّذين يموتون قبل المعمّرين **(إلّا)** يكون ذلك الحدّ من التّعمير والنّقص منه مسطوراً **(في كتاب)** وهو اللّوح المحفوظ **(إنّ ذلك)** التّقدير والعلم بهذه الأمور كلّها وتقديرها **(على الله يسير)** سهل جدّا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر آيات قدرته في عالم البحار فقال تعالى:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

(وما يستوي البحران) أي لا يتّحدان في حقيقتهما وخصائصهما بالرّغم من أنّ كليهما من ماء ويلتقي أحدهما بالآخر؛ فيتّصل به ولا يؤثّر أحدهما على الآخر ولا يدخل شيء من أحدهما في الآخر، ولكلّ منهما طبع خاص فإنّ **(هذا عذب)** أي حلو ماؤه **(فرات)** شديد العذوبة **(وهذا)** الآخر **(ملح)** أي مالح ماؤه **(أجاج)** مرّ، وفيهما لكم نعم كثيرة حيث **(ومن كلّ)** منهما **(تأكلون لحماً طريّاً)** من الأسماك **(وتستخرجون)** منهما **(حلية)** أسباب حلية أي زينة **(تلبسونها)** كالدّرر والمرجان وسائر المجوهرات **(وترى الفلك)** حينما تنظر إلى البحرين **(مواخر)** جمع ماخرة سمّي الفلك مواخر لأنّها تمخر الماء أي تشقّها حينما تمشي في البحر، وإلهكم الله تعالى صنع هذه المواخر لتسافروا بها على البحر**(لتبتغوا)** تطلبوا **(من فضله)** من رزق الله تعالى بالتّجارة وغيرها من مقاصد الأسفار **(و)** أنعم تعالى عليكم بهذه النّعم **(لعلّكم تشكرون)** أي لكي تشكروه بالعبادة والتّوحيد.

ثمّ وجّه الله تعالى أنظار الإنسان إلى آيات قدرته فيما صنع بين السّماء والأرض فقال تعالى:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

(يولج اللّيل في النّهار) حيث يأتى بالضّوء شيئاً فشيئاً فيستولي على ظلام اللّيل تدريجيّا إلى أن يستره فكأنّه يدخله فيه **(ويولج النّهار فى اللّيل)** فيأت الظّلام شيئاً فشيئاً ويستولي على ضوء النّهار تدريجيّا إلى أن يخفيه **(وسخّر الشّمس والقمر)** فأوقفهما في هذا الفضاء لعمليّة الإضاءة والإنارة والإظلام وإيجاد اللّيل والنّهار **(كلّ)** من الشّمس والقمر **(يجري)** يعمل **(إلى أجل)** وقت **(مسمّى)** معيّن ومحدود عند الله تعالى **(ذلكم)** الّذى خلق الأمطار والنباتات والأشجار، وخلقكم من تراب ثمّ من نطفة، وخلق البحرين وما فيها من اللّحوم والمجوهرات، وخلق اللّيل والنّهار والشّمس والقمر، وهذا الكون كلّه هو**(الله ربّكم)** لاربّ لكم سواه **(له الملك)** التّصرف في هذا الكون كيف يشاء **(والّذين تدعون من دونه)** فتعبدونهم **(لا يملكون)** شيئاً ولو شيئاً قليلاً **(من)** مثل **(قطمير)** في القلّة، والقطمير هي لفافة نواة التّمرة فلا ينفعونكم شيئاً فإنّهم **(إن تدعونهم)** أي تنادوهم وتستغيثوا بهم في قضاء الحاجات ودفع النّوازل ورفعها **(لا يسمعون دعاءكم)** وهذا في الأصنام لأنّها جمادات لا تسمع شيئاً **(ولو سمعوا ما استجابوا لكم)** أي لا يقدرون على الاستجابة، هذا في بعض الأشخاص من النّاس أو الملائكة أو الجنّ الّذين يدعونهم في قضاء الحوائج، فهم يسمعون ولا يقدرون على شيء **(ويوم القيامة يكفرون)** ينددون**(بشرككم)** ويتبرّأون منه ومنكم **(ولا ينبّئك)** بأحوال الدّنيا والآخرة **(مثل خبير)** بها وهو الله تعالى.

ثمّ بعد هذه الدّعوة الملحّة من الله تعالى ورسوله إلى عبادة الله وحده وعدم الإشراك به فكان بعض النّاس يتوهّم أنّ الله تعالى بحاجة إلى عبادة النّاس له ومفتقر إليها تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

(يا أيّها النّاس أنتم الفقراء) والمحتاجون **(إلى الله)** وإلى عبادته لأنّ في عبادته صلاحكم وسعادتكم في الدّارين **(والله هو الغني)** عنكم وعن عبادتكم، فإن عبدتموه لا يزيد في ملكه شيء، وإن كفرتم لا ينقص من ملكه شيء **(الحميد)** المحمود في ذاته، سواء حمدتموه أنتم أو لا. ثمّ بيّن الله تعالى مدى غناه عنهم فقال **(إن يشأ يذهبكم)** يفنيكم كلّكم **(ويأت بخلق جديد)** بدلكم.

ثمّ بعد أن رأى رسول الله (ﷺ) إلحاح الوحي في الدّعوة إلى الإيمان وإصرار الكافرين على ضلالهم، خاف أن يسأل هو عن ضلالهم ويعذّب في ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

(ولا تزر) أي ولا تحمل **(وازرة)** أي نفس حاملة فلا تحمل **(وزر)** حمل نفس **(أخرى)** أي لا يعذّب أحد بذنب غيره، فكلّ مسؤول عن ذنبه لا عن ذنب غيره **(وإن تدع)** أي تطلب وتترجّى نفس **(مثقلة)** بالذّنوب فتدعو غيرها أن يساعدها فتأتي **(إلى حملها)** أي حمل بعضها عنه **(لا يحمل منه شيء)** أي لا يقبل الله تعالى ذلك ولا يحملها شيئاً من ذلك **(ولو كان)** الدّاعي **(ذا قربى)** من الّذي يدعوه، وهو يحبّ أن يحمل عنه، فلا تخف أيها النّبيّ من أوزار القوم، فلا يصيبنّك منها شيء، ثمّ إنّك لم تأت ليؤمن كلّ النّاس بل **(إنّما أنت تنذر)** إنذاراً مفيداً ومستجاباً **(الّذين يخشون ربّهم)** أي استعدادا، ولهم قابليّة الخشية من ربّهم **(بالغيب)** وهم ملتبسون بالغيب عنه تعالى لا يرونه **(وأقاموا الصّلاة)** أي عندهم حبّ لأن يعقدوا بينهم وبين ربّهم صلة بالصّلاة، والحاصل أنّ إنذارك لا يؤثّر إلّا في القلوب الطّيبة الطّاهرة والمستعدة الإيمان **(ومن تزكّى)** أي تطهّر عن الكفر والذّنوب **(فإنّما يتزكّى)** يتطهّر **(لـ)** نفع **(نفسه)** فقط لا لك ولا لله، حيث **(وإلى الله المصير)** أي مصيره ومرجعه فيثيبه على تزكّيه وينعم عليه.

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ الدّعوة والإنذار لا يؤثّر في كلّ قلب وفي كلّ أحد فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾

(**وما يستوي الأعمى والبصير**) أي كما لا يستوي الأعمى والبصير في الإدراكات (**ولا الظّلمات ولا النّور**) في الإظهار والإجلاء (**ولا الظّل ولا الحرور**) في الإنبات للنّباتات (**وما يستوي الأحياء ولا الأموات**) في الأفعال، فكذلك لا يستوي كلّ القلوب في الاستعداد لقبول المواعظ والإرشاد والاهتداء إلى الحقّ، فلا تستطيع أنت أيّها النّبيّ أن تسمع كلّ أحد إنذارك إسماع استجابة بل (**إنّ الله**) تعالى (**يسمع**) إسماع استجابة (**من يشاء**) وهم أصحاب القلوب الطّيّبة المحبّة للخير(**وما أنت بمسمع**) إسماع استجابة (**من**) هم كالّذين ماتوا ومكثوا (**في القبور**) فلا يستجيبون (**إن أنت إلّا نذير**) فوظيفتك وواجبك الإنذار فقط، ولست مسؤولاً عن اهتدائهم، بل إنّ ذلك موكول إلى الله تعالى، وقد أدّيت أنت واجبك فلا عليك الوزر ولا اللّوم بعد ذلك في ضلالهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله على تكذيب القوم وعدائهم له، فقال تعالى:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

(**إنّا أرسلناك بالحقّ بشيراً**) بالجنّة لمن آمن (**ونذيراً**) بالعذاب لمن كفر، وليست رسالتك شيئاً غريباً وعجيباً، بل إنّ هذه من سنّة الله تعالى في الكون وفي العباد، حيث (**وإن**) أي وما يوجد (**من أمّة**) من الأمم (**إلّا خلا فيها**) سلف أن جاء فيهم (**نذير**) رسول أنذرهم وبشّرهم، وذلك من وجود الإنسان على الأرض إلى يومك هذا (**وإن يكذّبوك**) فلا تحزن حيث (**فقد كذّب**) الأمم (**الّذين من قبلهم**) أي من قبل قومك كذّبوا رسلهم (**ثمّ جاءتهم رسلهم بالبيّنات**) بالمعجزات شاهدة على صدقهم (**وبالزّبر**) الّتي تخبر بمجيئهم (**وبالكتاب المنير**) أي المثبت أنّه من الله تعالى (**ثمّ**) بعد كلّ ذلك أصرّوا على الكفر والتّكذيب ولذلك (**أخذت الّذين كفروا**) وكذّبوا الرّسل (**فكيف**) الاستفهام للتّعجب أي فعجيباً (**كان نكير**) أي نكيري وعذابي لهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر من دلائل قدرته ما يصل المتفكّر فيها إلى الإيمان بالله ووحدته فقال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

(**ألم تر**) أي ألم تنظر أيّها الإنسان نظر فكر واستدلال إلى (**أنّ الله أنزل من السّماء**) أي من السّحب (**ماء**) وهو المطر(**فأخرجنا به**) بذلك الماء حينما اختلط بالتّراب (**ثمرات**) كثيرة من النّباتات والأشجار (**مختلف ألوانها**) أي ألوان الثّمرات وطعومها وفوائدها (**ومن الجبال**) عطف على لفظ الجلالة أي ألم تر أنّه (**ومن الجبال**) توجد (**جدد**) أي ذو جدد وهي الطّرق (**بيض**) بعض الجبال (**وحمر**) بعضها (**مختلف ألوانها**) إلى الصّفرة وبالشّدة والضّعف في تلك الألوان (**وغرابيب**) أي وبعضها كالغرابيب جمع غراب لأنّها (**سود**) مثلها (**ومن النّاس والأنعام والدّواب مختلف ألوانه**) أي ألوان البعض من البعض (**كذلك**) كاختلاف الثّمار والجبال (**إنّما يخشى الله من عباده العلماء**) أي الّذين يتفكّرون في آيات قدرة الله وعظمته؛ فيعرفون عظمته وقدرته وحقّه على العباد من طاعته وعبادته (**إنّ الله عزيز**) أي قويّ وغالب على الانتقام من الّذين لا يخشونه (**غفور**) لمن عرفه ويخشاه فيوحده ويعبده ويطيعه.

تنبيه مهم: من تفكّر في الأمور الّتي ذكرت في هذه الآيات يصل إلى معرفة الله وقدرته ووحدته بالبداهة لأنّه:

أوّلاً: حينما نظر الانسان إلى مصنع الأمطار ويرى أنّ البحر وضع بحيث تؤثّر فيه أشّعة الشّمس فيتبخّر كثير من مائه، فيصعد هذا البخار و يتكاثف في الهواء فيصير سحاباً، فيحرّك الرّياح إلى مواضع ثمّ تضغط السّحب بعضها على بعض فينزل منها الماء وهو المطر، فإذا رأى هذه العمليّة يتيقّن بأنّ هذا المصنع لابدّ من أن يصنعه عالم قدير وهو الله تعالى. فإنّه لو رأيت قدراً وضع على تنور من النّار وملء ماء فغلى ذلك الماء وكان فوهة القدر مسدودة وخرجت منها أنبوبة تدخل قدراً آخر بارداً وترى أنّ ماء القدر

الموضوع على التّنور يصير بخاراً ويخرج هذا البخار من الأنبوبة إلى القدر وهناك يبرد فيعود ماء. وهذه عمليّة تجري لأخذ الرّوائح من الورد، أو لاستخراج الدّهن من بعض النّباتات. فلو قيل لك إنّ هذا القدر كان موجودا بطبيعته، وإنّ هذا التّبادل يجري طبعا ولم يكن أحد دبّر هذه العمليّة وصنعها لقلت للقائل أنّك لمجنون وبالفعل هو مجنون، كذلك من يقول أنّه وضع الأمطار ووضع البحار هكذا وصعود البخار منها وتحولّه سحاباً يتقطّر منه الماء فيصير مطراً أن يكون هناك صانع صنع هذه الصّنعة فلا شكّ أنّه مجنون.

ثانياً: إنّ النّباتات والاشجار كلّها نشأت أوّل مانشأت من الماء الّذى يختلط بالتّراب، وإنّ هذا الماء والتّراب لهما حقيقة واحدة لا اقتضاء لها في ذاتها لوجود أي نوع خاصّ من النّباتات والأشجار، فإنّه لو كان لها اقتضاء لنوع منها لوقعت الكلّ على هذا النّوع، ولمّا تعدّدت. فتقسيم النّباتات والأشجار إلى أنواع مختلفة وإعطاء كلّ نوع نوعاً مختلفاً من الثّمر شكلاً ولوناً وطعماً لا بد وأن يكون من هو خارج عن طبيعة الماء والتّراب عالم خبير قدير وهو الله تعالى، وكذلك يقال في الإنسان والأنعام والدّواب بأنّ حقيقتها واحدة ..... الخ.

ثالثاً: إنّ الجبال كلّها من التّراب ولا اقتضاء له في حدّ ذاتها إلى لون من الألوان والّا لصارت كلّها على لون واحد، فتقسيمها إلى ألوان مختلفة من السّواد والبياض وغيرها، وطبائع متغايرة من الصّلابة واللّين لابدّ وأن يكون من فاعل قدير عالم خبير خارج عن طبيعة الجبال والتّراب وهو الله تعالى. فإذا عرف المرء الله تعالى بهذه الأمور علم أنّ له قدرة قاهرة وعلماً وافراً فيتيقّن أنّه لا شريك له. فإنّ الشّريك إنّما يكون لعجز عن عمله أو جاهل. وتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. والحاصل أنّ كلّ ما في الأرض وما عليها هو من الماء والتّراب وأنّهما لا اقتضاء لهما لأى نوع من الأنواع الموجودة في الأرض. وإلّا لصارت جميع الأنواع نوعاً واحداً لأنّ الاقتضاء الذّاتي لا تتعدّد ولا تتكثّر. فتقسيم ما يوجد من التّراب والماء إلى أنواع وألوان وخصائص وميّزات وجعل بعضها إنساناً وبعضها أنعاماً أو دواب أو نباتات أو اشجاراً أو معادن، وتقسيم هذه الأشياء إلى أفراد متخالفات لا يكون إلّا من فاعل خارج عن الأرض والماء والتّراب عليم قدير وهو الله تعالى، وللتّوضيح نذكر لك مثالاً فنقول: لو دخلت مخزنا لنجّار ترى فيه أبوابا وكراسيّ وسررا وشبابيك ومنضدات إلى غير ذلك من أشياء

أخرى وكلّها من الخشب فلا شكّ أنّ هذا التّنوع ليس من ذات الخشب، فإنّ الخشب لا اقتضاء له في حدّ ذاته إلى واحد من هذه الأنواع، وإلّا لما تكثّرت، فتعلم أنّ هناك صانعاً خارجاً عن طبيعة الخشب قام بتقسيم الخشب إلى هذه الأنواع وهو النّجار، وعلى هذا الضوء نقول: أنّ الكون كلّه من شيء واحد وهو المادّة والمادّة ليس لها اقتضاء لشيء من الأشياء، والّا لصارت الاشياء كلّها شيئاً واحداً، فتقسيم المادة إلى أفلاك وشموس ونجوم وكواب وأرض وهواء ومياه وجبال ونباتات وأشجار وحيوان ومعادن لا بد وأن يكون ناشئا عن فاعل عليم قدير خارج عن المادّة وهو الله الّذي خلق المادّة وقسّمها إلى هذه الأقسام، وأعطى كلّ قسم ما أراد من خواصّ ومزايا. فإنّ قيل: إنّ الطّبيعة قسّمت هذا التّقسيم، قلنا: إذا أردت بالطّبيعة الطّبيعة الجامدة الصّماء فهي لا تستطيع أن تعمل شيئاً بداهة لأنّ العمل يحتاج إلى الحياة والعلم والقدرة. وإن أردت بالطّبيعة كائناً حيّاً مريداً عالماً قديراً مختاراً فذلك هو الله. وما اختلفنا إلّا في الإسم، وإنّما لا يجوز أن يقال لله طبيعة لأنّ أسماء الله توقيفيّة. وإلّا فالطّبيعة بهذا التّفسير تكون هو الله والله تعالى أعلم.

ثمّ انّه تعالى بعد أن ذكر حال المكذّبين للرّسل وعذابهم أراد أن يذكر حال المؤمنين وثوابهم فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾﴾

(إنّ الّذين يتلون كتاب الله) الكوني وهو الكائنات فيتفكّرون فيها و الكتاب القولي وهو القرآن فيتدّبرونه ونتيجة لذلك آمنوا **(وأقاموا الصّلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم)** فيما يحبّ الله أن ينفق فيه فينفقون على المحتاجين والفقراء ومصالح الإسلام والمسلمين **(سرّاً وعلانية)** فهم **(يرجون)** يأملون **(تجارة)** صالحة **(لن تبور)** لن تهلك ولن يخسر صاحبها، ثمّ ذكر الله تعالى ثمرة تلك التّجارة فقال جلّ وعلا: **(يوفيهم الله أجورهم)** ثوابهم **(ويزيدهم من فضله)** فيجزي مقابل واحد بعشرة إلى سبعمائة فأكثر **(إنّه)** أي الله **(غفور)** لهؤلاء يغفر زلّاتهم **(شكور)** يجزيهم على أعمالهم بالنّعيم المقيم.

ثمّ بعد أن أثبت الله وحدته وقدرته وأنّه يجب عبادته أراد أن يبيّن كيفيّة عبادته فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾

(**والّذي أوحينا إليك**) أيّها النّبيّ (**من الكتاب**) وهو القرآن (**وهو الحقّ**) فاعملوا به فهو منهجكم وهو يبيّن كيفيّة عبادة الله وقد جاء (**مصدّقاً لما**) للشّرائع الّتى جاءت (**بين يديه**) قبله كشريعة نوح و إبراهيم وموسى وعيسى (**إنّ الله بعباده لخبير**) بأقوالهم (**بصير**) بأعمالهم، فما كان موافقاً للقرآن يثيبهم عليه وما كان مخالفاً يعاقبهم عليه (**ثمّ**) بعد أن أوحيناه إليك الكتاب (**أورثنا الكتاب**) أي أعطيناه (**الّذين اصطفيناهم**) اخترناهم للعمل بالقرآن (**من عبادنا**) وهم المسلمون فانقسموا ثلاثة أقسام: (**فمنهم ظالم لنفسه**) وهو المؤمن الّذي لا يعمل بالقرآن تكاسلاً لا إنكاراً، فإنّ المنكر كافر فهذا يدخل النّار إلى أن يتطهّر ثمّ يخرج فيدخل الجنّة (**ومنهم مقتصد**) وهو الّذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً. فإنّ زادت حسناته سيئاته أو ساوتها فهو ناج، وإنّ زادت سيئاته حسناته يعذّب بقدر مازاد من سيّئاته ثمّ ينجو (**ومنهم سابق بالخيرات**) وهو من لا ذنب له فيدخل الجنّة بدون حساب (**بإذن الله**) أي سابق بالخيرات بتوفيق الله تعالى (**ذلك**) أي السّبق إلى الخيرات (**هو الفضل الكبير**) لا فضل أكبر منه (**جنّات**) أي جزاء هؤلاء العباد الّذين اصطفيناهم من الأقسام الثّلاثة (**جنّات عدن**) أي محلّ إقامة لا خروج منها فكلّهم يدخلون الجنّة، إمّا بدون حساب كالسّابقين، وإمّا بعد التّطهر بالعذاب كالصّنفين الآخرين (**يدخلونها يحلّون فيها من أساور**) جمع أسورة (**من ذهب**) تلك الأساور (**ولؤلؤاً**) أي

ويحلّون لؤلؤاً **(ولباسهم فيها)** في الجنّة **(حرير)** من حرير **(وقالوا)** أي المؤمنون بعد ما دخلوا الجنة **(الحمد لله الّذى أذهب عنّا الحزن)** أي كلّ حزن حيث لا حزن في الجنّة، أو المراد أنّهم كانوا يخافون العذاب فلمّا دخلوا الجنّة أذهب الله خوفهم هذا **(إنّه ربّنا لغفور)** حيث غفر لنا **(شكور)** يجزي الحسنات بالأضعاف **(الّذي)** أي الله الّذي **(أحلنا)** أنزلنا **(دار المقامة)** أي الدّار الّتي لا خروج منها **(من فضله)** وإلّا فعملنا لا يساوي شيئاً ممّا أنعم به علينا كما قال الرّسول (ﷺ): (لايدخل أحدكم الجنّة بعمله إلّا من حقّه الله برحمته، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلّا أن يتغمّدني الله برحمة)[1] لأنّ الأعمال كلّها لا تساوي نعم الدّنيا، ثمّ إنّ الأعمال كلّها بتوفيق الله وخلقه فمن أين يستحقون الثّواب عليها؟ **(لا يمسّنا فيها)** في الجنّة **(نصب)** أي تعب **(ولا يمسّنا فيها لغوب)** أي مشقّة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المؤمنين أراد أن يذكر حال الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾

(والّذين كفروا لهم نار جهنّم) يدخلونها فيبقون فيها **(لا يقضى عليهم)** لا يحكم عليهم فيها بالموت **(فيموتوا)** ويستريحوا من عذابها **(ولا يخفّف عنهم من عذابها كذلك)** أي مثل هذا العذاب **(نجزي كلّ كفور)** بالله وبرسله **(وهم)** أي الكفّار **(يصطرخون)** أي يستغيثون **(فيها)** في جهنّم ويقولون **(ربّنا أخرجنا)** منها، فإن تخرجنا إلى الدّنيا **(نعمل صالحا غير الّذى كنّا نعمل)**، فيقول الله تعالى لهم **(أولم نعمركم)** أي نحييكم في الدّنيا **(ما)** مقدارا من الزمن **(يتذكر فيه)** في ذلك المقدار من العمر **(من**

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢١٦٩ الحديث رقم٢٨١٦، مسند الإمام أحمد ٢/ ٢٥٦ الحديث رقم ٧٤٧٣ واللفظ له.

تذكّر) فما تذكّرتم بالرّغم من تنبيهنا وإنذارنا حيث **(وجاءكم النّذير)** فأنذركم فلم تسمعوا إنذاره فلم يبق لكم عذر بعد ذلك **(فذوقوا)** العذاب حيث **(فما للظّالمين من نصير)** ينقذهم من العذاب **(إنّ الله عالم غيب السّماوات والأرض)** فعلم كلّ ما فعلتم **(إنّه عليم بذات الصّدور)** وعليم كلّ مانويتم فهذا جزاء ما عملتم وما قصدتم من الإفساد في الأرض وهتك حرمات الله تعالى.

ثمّ أعلن الله تعالى قدرته واستغناءه عن النّاس وعن إيمانهم فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

(هو الّذى جعلكم خلائف) يأتي بعضكم خلف بعض **(في الأرض)** فيعمّرها ويعمل فيها **(فمن كفر فعليه كفره)** فيضرّه فقط ولا يضرّ غيره **(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلّا مقتاً)** غضبا من الله تعالى**(ولا يزيد الكافرين كفرهم إلّا خساراً)** وهو ضياع النّعيم في الآخرة وجلب العذاب فيها. ثمّ أراد تعالى أن يبيّن أنّ أهل الشّرك ليس لهم دليل على شركهم لا من العقل ولا من النّقل فقال جلّ وعلا: **(قل)** أيّها الموحّد للمشركين **(أرأيتم شركاءكم الّذين تدعون)** إيّاهم وتعبدونهم **(من دون الله أرونى)** أخبروني **(ماذا خلقوا من الأرض)** والاستفهام للإنكار أي ماخلقوا شيئاً **(أم لهم شرك في)** خلق **(السّماوات)** كلّا. فإذن ليس لديهم دليل أو حجّة عقليّة في عبادتهم لهم. ثمّ نفى الله تعالى أن يكون دليل نفي أيضاً فقال جلّ وعلا: **(أم أتيناهم كتابا)** أمرناهم فيه بالشّرك **(فهم على بيّنة)** حجّة شركهم كلّا، لأنّ كلّ الكتب السّماوية جاءت تأمر بالتّوحيد وتنهى عن الشّرك. فلا دليل إذن **(بل إنّ)** ما **(يعد الظّالمون بعضهم)** وهم أئمّة الضّلال **(بعضاً)** وهم الأتباع **(إلّا غروراً)** ما يغرّون به النّاس كذباً وافتراء.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن قدرته الّتى تنفي كلّ شريك له وحلمه على النّاس في شركهم فقال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾

(**إنّ الله**) هو الّذي (**يمسك السّماوات والأرض**) ويحفظهما (**من أن تزولا**) وتنعدما (**ولئن**) وبعزّتي(**لئن زالتا**) بأمره (**إن**) ما (**أمسكهما**) وأبقاهما (**من أحد من بعده**) أي لا يقدر أحد على ذلك، فإذا كان الأمر كذلك وقدرة الله تعالى بلغت هذا الحدّ، وليس لأحد قدرة على شيء فمن عبد غيره يستحقّ العقوبة فوراً إلّا (**أنّه**) أي الله تعالى (**كان حليما**) لا يعجّل بالعقوبة ليتنبّه النّاس فيتوبوا (**غفوراً**) لهم إذا تابوا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن كذب المشركين وخلفهم في الأيمان والعهود، فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

(**وأقسموا بالله جهد**) أشدّ (**إيمانهم وقالوا**) أي قسما بما نقدسّه (**لئن جاءهم نذير**) رسول منهم كما جاء الأمم رسول (**ليكوننّ أهدى من إحدى**) أي من كلّ (**الأمم**) ولكن نقضوا هذا اليمين وحنثوا فيه حيث (**فلّما جاءهم نذير**) وهو رسول الله (ﷺ) (**ما زادهم**) مجيئه (**إلّا نفوراً**) بعداً عن الهدى والإيمان، ثمّ بيّن الله تعالى ذلك النّفور فقال جلّ وعلا: (**استكبارا**) أي استكبروا استكباراً (**في الأرض**) فلم يؤمنوا (**و**) مكروا (**مكر**) هم (**السّيىء**) ضدّ الرّسول وما جاء به (**ولا يحيق**) يحيط ضرر (**المكر السيّئ إلّا بأهله**) فهم يتضرّرون من ذلك، حيث يذلّون في الدّنيا ويخسرون الآخرة، وهنا كان سائلا يقول: فمتى يتضرّرون بمكرهم السيّئ وقد فعلوا ما فعلوا من إيذاء المسلمين ومعاداة الرّسول (ﷺ)؟ فقال تعالى: (**فهل**) الاستفهام للإنكار فيكون هل بمعنى ما أي، ما (**ينظرون**) ينتظرون (**إلّا سنّت**) الله تعالى في (**الأوّلين**) المكذّبين للرّسل حيث عذّبهم، فإنّ هذه السّنة تأتيهم حيث (**فلن تجد لسنّت الله**) أي عادته في تعذيب الكافرين

(تبديلاً) فهي جارية مدى الأزمان وفي كلّ الأمم **(ولن تجد لسنّت الله تحويلاً)** أي منعا لها، وأنّها تأتي إلّا أنّه لكلّ أمّة أجل ولكلّ أجل كتاب.

ثمّ أمرهم الله تعالى بالنّظر في عاقبة الأمم السّابقة ليعتبروا فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

(أو لم يسيروا) والسّير سيران سير في البلاد للعلم بحال الأمم من آثارهم، وسير في كتب التّاريخ الّتي تخبر عنهم، فليسيروا أحد السّيرين **(فينظروا)** ويعلموا **(كيف عاقبة الّذين من قبلهم)** من الهلاك والدّمار نتيجة الكفر والضّلال والفسق والفساد في الأرض والإبتعاد عن شريعة الله تعالى. وهؤلاء الأمم **(كانوا أشدّ منهم)** من منكري الإسلام ورسوله **(قوّة)** فلم تمنعهم قوّتهم ولم تحفظهم من عذاب الله حيث **(وما كان الله ليعجزه من)** تنفيذ أيّ **(شيء)** أراده لا في السّماوات ولا في الأرض **(إنّه كان عليما)** بمن يستحقّ العذاب ومن لا يستحقّه **(قديرا)** على تنفيذ عذابه فيمن يستحقّه، وكأنّ سائلاً يقول: فلماذا لا تعجل بعقوبتهم؟ فقال جلّ وعلا: **(ولو يؤاخذ الله النّاس)** فيعذّبهم حالاً **(بما كسبوا)** من المفاسد وعجّل بعقوبتهم فوراً **(ما ترك على ظهرها)** على ظهر الأرض **(من دابّة)** أي شيء **(ولكن)** لا يؤاخذهم فوراً بل **(يؤخّرهم إلى أجل مسمّى)** الوقت المعيّن لعذابهم **(فإذا جاء أجلهم فإنّ الله كان بعباده بصيراً)** فيذلّ الكافرين وينصر المؤمنين في الدّنيا ويعذّب الكافرين في الآخرة وينعم على المؤمنين بالنّعيم المقيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فطوبى لمن رزقه الله تعالى الإيمان وحسن الخاتمة. اللّهم ارزقنا برحمتك يا أرحم الرّاحمين.

قد تشرفت أنامل هذا الفقير بإكمال هذا القسم من التّفسير ليلة الثّلاثاء بعد انتهاء المؤذّن من أذان العشاء في ٢٢/جمادى الأولى/١٤٠٨، وكانت البداية من سورة الفاتحة في ٢٤/ شعبان/ ١٤٠٨، إلّا أنّ سورة يوسف كتب قبل هذا القسم، وأنا الفقير إلى

لطف ربّه القدير محمّد بن الشّيخ طه الباليساني. وصلّى الله على المولى محمّد وعلى آله وصحبه وأمتّه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، ربّ اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب آمين.

ســـورة يــس

(مكيّة إلّا الآية (٤٥) فمدنيّة وآياتها ثلاث وثمانون نزلت بعد سورة الجنّ. وفي بعض التّفاسير أنّ كلّها مكيّة وبدون أستثناء هذه الآية، هذا وقد تكلّمنا على معاني ألفاظ: السّورة، الآية، المكيّة، المدنيّة وغير ذلك في (القول المنصف تفسير سورة يوسف) بما يغني عن الكلام هنا، فلذلك. تركت شرح هذه الأمور وبدأت ببيان فضيلة هذه السّورة).

(فضـيلة سورة يـس)

قد وردت في بيان فضيلة هذه السّورة الشّريفة أحاديث كثيرة نذكر بعضاً منها:

الحديث الأوّل: ذكر أبن كثير في مقدّمة تفسير هذه السّورة أنّه: قال البزار: حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عبّاس (رضي الله عنه) أنّه قال: قال النّبيّ (ﷺ): (لوددت أنّها في قلب كلّ إنسان من أمّتي) يعني سورة يس وذلك لكثرة فضلها. وقال بعض العلماء: إنّ من خصائص هذه السّورة أنّها لا تقرأ على أمر عسير إلّا يسّر الله تعالى.

الحديث الثّاني: عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: (من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له)[1] وعلّق صاحب التّاج (رحمه الله) على قوله (ﷺ): (غفر له) فقال: ظاهر الحديث غفر له ذنوبه كلّها إلّا حقوق العباد؛ فإنّه لا يبرأ المرء منها إلّا بأدائها أو بمسامحة أصحابها. هذا، وأقول: يغفر له حقوق العباد أيضاً إذا تعذّر أو تعسّر عليه الأداء أو المسامحة من أصحابها؛ فإنّ الله تعالى غفور رحيم ويؤدّي عنه حقوقهم

(١) صحيح ابن حبان ٦/٣١٢ الحديث رقم ٢٥٧٤.

كما هو الشّأن في التّائب التّوبة الصّحيحة، والحاجّ الحجّ المبرور، وبشرط أن لا يرتكب الآثام، اعتماداً على ذلك حيث قال تعالى: ﴿فلا تغرّنّكم الحياة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور﴾ سورة لقمان الآية/٣٣. أي لايحملنّكم الغرور وهو الشّيطان على الذّنوب بسبب رحمة الله تعالى ومغفرته، فمن قال: أفعل ما أفعل ثمّ أتوب أو أحجّ أو أقرأ سورة يس فهو هالك، وهذه دسيسة من دسائس الشّيطان يحمل بها النّاس على الخطايا والذّنوب.

الحديث الثّالث: ذكر في التّاج عن معقل بن يسار (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: (قلب القرآن يس لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلّا غفر له اقرؤوها على موتاكم)[1] وقال في التّاج رواه احمد وأبو داود والنّسائي وأبن حيان وصحّحه، وينبغي هنا أن نعلم هل المراد بقوله (ﷺ): (اقرؤوها على موتاكم) الأموات الحقيقيون ومن هم ماتوا فعلاً فتكون قراءة القرآن مشروعة على الأموات قبل الدّفن وبعده، أو المراد بموتاكم هم الّذين أشرفوا على الموت ويسمّى بـ (المحتضر) فحينئذٍ لا تكون القراءة مشروعة على الأموات فعلاً. وأنّ هذه المسألة تتفرّع على مسألة أخرى وهي: هل ينتفع الميت بعمل غيره أم لا؟

فلذلك نسرد لك أقوال العلماء حول هذا الموضوع:

الأوّل: قال صاحب التّاج في شرحه لهذا الحديث ما هذا نصّه: (على موتاكم) أي الّذين حضرهم الموت وأشرفوا عليه، لأنّهم يستأنسون بقراءة هذه السّورة لما فيها من ذكر الله تعالى وأحوال البعث والقيامة والجنّة والنّار وما اشتملتا عليه، ولما فيها من التّحذير من فتنة الشّيطان ولأنّها قلب القرآن، فالقراءة مشروعة على المحتضر فقط لا على الأموات الحقيقيين. كذا قال جماعة. وذلك تبعاً لعمل السّلف الصّالح لأنّهم لم يكونوا ليقرؤوا القرآن على الأموات، وهذا القول هو ظاهر كلام مالك والشّافعي وجمهور من تمذهب بمذهبهما. وقال الإمام أحمد وبعض المالكيّة وبعض الشّافعية وبعض الحنفيّة أنّ القراءة على الأموات فعلاً مشروعة كالقراءة على المحتضر، وتنفع الأموات لعموم قوله (ﷺ): (على موتاكم) وعدم تخصيصه بالأحياء أو الأموات فيشملهما معاً، وينبغي الاعتماد على هذا القول للأمور الآتية:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/ ٢٦ الحديث رقم ٢٠٣١٥، سنن النسائي الكبرى ٦/ ٢٦٥ الحديث رقم ١٠٩١٣.

أوّلاً: إنّ لفظ الموتى في الحديث نصّ فيمن مات فعلاً وتناوله للحيّ المحتضر لا يكون إلّا مجازاً، ولا يجوز ارتكاب المجاز إلّا بقرينة صرفه عن معناه الحقيقي ولا قرينة هنا، كذا قاله الشّوكاني. قال المحبّ الطّبري: إنّ العمل بعموم الحديث وهو الظّاهر بل هو الحقّ لحديث الدّارقطني من دخل القبور فقرأ (قل هو الله أحد) إحدى عشرة مرّة ثمّ وهب ثوابها للأموات أعطي من الأجر بعدد الأموات.

ثانياً: إنّ من حكم القراءة التّخفيف على من يقرأ عليه، وهو كما يطلب للمحتضر يطلب للميت أيضاً، حيث ورد في مسند الفردوسي ما من ميت يموت فيقرأ عنده سورة [يس] إلّا هوّن الله تعالى عليه. وقال الإمام أحمد (رضي الله عنه): كانت المشيخة يقولون: إذا قرأت [يس] لميت خفّف عنه بها.

ثالثا: القياس على السّلام المطلوب على الموتى في زيارة القبور، فإذا كان الميت يأنس بالسّلام الّذي هو من كلام البشر فكيف لا يأنس بكلام الله جلّ جلاله.

رابعاً: القياس على قراءة الفاتحة في صلاة الجنازة وإلّا كان تحكّماً.

خامساً: إنّ السّكينة والرّحمة تنزلان في محلّ قراءة القرآن، والميت والمحتضر بل كلّ مخلوق في أشدّ الحاجة إلى رحمة الله تعالى وسكينته.

سادسا: القياس على الصّلاة على النّبيّ (ﷺ) فإذا كان النّبيّ وهو أفضل خلق الله تعالى وأكملهم يرتقي في الكمالات بسبب صلاة الأمّة عليه، فكيف لاينتفع الأموات بقراءة القرآن لهم.

سابعاً: في الحديث: أنّ رجلاً كان في سفر مع رفقة فضرب خباءه على قبر وهو لا يشعر أنّه قبر، فسمع أنّ إنساناً فيه يقرأ تبارك الملك حتّى ختمها، فذكر ذلك للنّبيّ (ﷺ) فقال (ﷺ): هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب القبر[١]. فإذا ثبت قراءة القرآن من الميت في قبره فكيف نمنعها من الحيّ على القبر؟ بل هو أولى. فالمانع من القراءة على الميت ليس له دليل. والمعلوم في الشّرع أنّ النّفي والإثبات لابدّ له من دليل. ولعلّ مالكاً والشّافعي لم يصحّ عندهما حديث (اقرؤوا يس على موتاكم) وإلّا لقالا به لما اشتهر عنهما أنّهما قالا: إذا صحّ الحديث فهو مذهبي[٢] وإنّ عمل السّلف

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٦٤ الحديث رقم ٢٨٩٠.

(٢) مواهب الجيل في شرح مختصر الشيخ خليل ٣/ ٢٠٤، المجموع للنووي ١/ ٩٢،

لايخصّص العمومات. وأقول: كما وأنّ العدم لا يكون دليلاً، وهذا الخلاف كلّه فيما لم يهب القارىء ثواب القراءة للميت بقوله: اللّهم بلّغ وأوصل مثل ثواب ما قرأته إلى فلان، وإلّا كان نوعاً من الدعاء والدّعاء ينتفع به الميت بلا خلاف، لما صحّ من قوله (ﷺ) في سؤال القبر: (إستغفروا لأخيكم وسلوا له التّثبّيت فإنّه الآن يسأل)[١] ولا يردّ قوله تعالى: ﴿وأنَ لَيْسَ لِلْأنسانِ إلّا ما سَعى﴾[٢] لأنّها واردة في حقّ الأمم السّابقة لا أمّتنا. أو هي واردة في حقّ الكافرين، أو خصّصت بغير ما ورد فيه الحديث كالدّعاء والصدّقة والقراءة، وفي هذا إقناع لمن كان له إنصاف، ومن أراد تأييد مذهب فليذهب كما يشاء. إنتهى ما قاله التّاج ج١/ ص٣٣٨.

الثّاني: ما قاله السّيد سابق في فقه السّنة وهو أعمّ وأشمل ممّا في التّاج فننقل ما قاله السّيد سابق (رحمه الله تعالى وإيانا) قال: من المتّفق عليه أنّ الميت ينتفع بما كان سبباً فيه من أعمال البرّ في حياته. لما رواه مسلم وأصحاب السّنن عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث، صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[٣] وروى ابن ماجه عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: (إنّ ممّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علّمه ونشره، أو ولداً صالحاً تركه، أومصحفاً ورّثه أو مسجداً بناه، أو بيتاً بناه لابن السبيل أونهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحّته وحياته تلحقه من بعد موته)[٤]. وروى مسلم عن جرير بن عبدالله أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: من سنّ في الإسلام سنّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيّئةً كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء[٥].

وأمّا ما ينفع الميت به من أعمال غيره فهو ما يلي:

١: الدّعاء والاستغفار له وهذا متّفق عليه لقول الله تعالى: ﴿والّذين جاؤوا من

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/٥٢٦ الحديث رقم ١٣٧٢.

(٢) سورة النجم. ٣٩.

(٣) صحيح مسلم ٣/١٢٥٥ الحديث رقم ١٦٣١.

(٤) سنن ابن ماجة ١/٨٨ الحديث رقم ٢٤٢.

(٥) صحيح مسلم ٢/٧٠٥ الحديث رقم ١٠١٧.

بعدهم يقولونَ رَبَّنا اغْفِرْ لَنا ولإخْوانِنا الّذين سَبَقونا بالايمان. ولا تَجْعَلْ في قُلوبِنَا غلّاً لِلَّذين آمنوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحيم﴾ سورة الحشر الآية/ ١٠ ـ ولأنّ الرّسول (ﷺ) حفظ منه أنّه كان يدعو ويقول: (أللّهم أغفر لحيّنا وميّتنا) ولانّ السّلف مازالوا يدعون للأموات ويسألون لهم الرّحمة والغفران دون إنكار من أحد منهم فصار ذلك إجماعاً.

٢: الصدّقة وقد قال النّووي: الإجماع على أنّ الصدقة عن الميت تقع له ويصله ثوابها، سواء كانت من ولده أو غيره، وذلك لما رواه أحمد ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رجلاً قال للنّبيّ (ﷺ): أنّ أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفّر عنه أن أتصدّق عنه قال(ﷺ): (نعم). وعن الحسن عن سعد بن عبادة أنّ أمّه ماتت فقال: يا رسول الله أفأتصدّق عنها قال رسول الله (ﷺ): (نعم.)[١].

٣: الصّوم: لما رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس (رضي الله عنه) أنّه قال: جاء رجل إلى النّبيّ (ﷺ) فقال: يا رسول الله أنّ أمّي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضيه عنها؟ قال (ﷺ): لو كان على أمّك دين أكنت قاضيه عنها؟ قال: (نعم)، قال (ﷺ): (فدين الله أحقّ أن يقضى)[٢].

٤: الحج: لماروواه البخاري عن ابن عباس (رضي الله عنه): أنّ امرأة من جهينة جاءت إلى النّبيّ (ﷺ) فقالت: إنّ أمّي نذرت أن تحجّ فلم تحجّ حتّى ماتت أفاحجّ عنها؟ فقال (ﷺ): حجّي عنها، أرأيت لو كان على أمّك دين أكنت قاضيه؟ أقضوا فالله أحقّ بالقضاء[٣].

٥: الصّلاة: لماروواه الدارقطني (رضي الله عنه) أنّ رجلاً قال: يا رسول الله أنّه كان لي أبوان أبرّهما في حالة حياتهما فكيف لي ببرّهما بعد موتهما؟ قال (ﷺ) إنّ من البرّ بعد الموت أن تصلّي لهما مع صلاتك وأن تصوم لهما مع صيامك[٤].

٦: قراءة القرآن: وهذا رأي الجمهور من أهل السّنة، وقال النّووي المشهور من

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٢٥٤ الحديث رقم ١٦٣٠.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٨٠٤ الحديث رقم ١١٤٨.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٦٥٦ الحديث رقم ١٧٥٤.

(٤) حديث ضعيف معضل مرسل / انظر مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٦/ ٣٥٥.

مذهب الشّافعيّ: أنّها لا تصل، وذهب أحمد ابن حنبل وجماعة من أصحاب الشّافعي إلى أنّها تصل، فالاختيار أن يقول القارىء بعد فراغه من القراءة: (أللّهم أوصل مثل ثواب ما قرأته إلى فلان مثلاً). وفي المغني لابن قدامة: قال أحمد بن حنبل (رحمه الله): الميت يصل إليه كلّ شيء من الخير للنّصوص الواردة فيه، ولأنّ المسلمين كانوا يجتمعون في كلّ بلدة ويقرؤون ويهدون لموتاهم من غير نكير فكان إجماعاً. قال ابن القيّم (رحمه الله) في زاد المعاد: أنّ العبادات قسمان: ماليّة وبدنيّة وقد نبّه الشّارع بوصول ثواب الصّدقة على وصول سائر العبادات الماليّة .ونبّه بوصول ثواب الصّوم على وصول ثواب جميع العبادات البدنيّة، وأخبر بوصول ثواب الحجّ على وصول المرّكب من الماليّة والبدنيّة، فالأنواع الثّلاثة ثابتة بالنّص وبالقياس، ويشترط في كلّ عمل يعمل عن الميت أن تنوي العمل عنه أوّل البدء بالعمل كما لا يخفى، (إنتهى ما للسّيد سابق) ج١/ ص ٥٦٧/ من فقة السّنة.

الثالث: من أقوال العلماء قال الشّوكاني (رحمه الله) **في نيل الاوطار ج ٤/ ص ١٤٢ ماهذا نصّه:** (وقد أختلف في غير الصّدقة، أي أنّ وصول الصّدقة إلى الميت لا خلاف فيه، بل إنّما الخلاف في غيرها من أعمال البرّ هل يصل أم لا؟ فذهب المعتزلة إلى أنّه لا يصل إليه شيء، وأستدلّوا بعموم قوله تعالى: ﴿وأَنْ لَيْسَ لِلإنسانِ إلّا ما سَعى﴾، وقال (رحمه الله) في شرح الكنز: إنّ للإنسان أن يجعل ثواب عمله لغيره صلاةً كانت أو صوماً أو حجّاً أو صدقةً أو قراءة قرآن أو غير ذلك من جميع أنواع البرّ، ويصل ذلك إلى الميت وينفعه عند أهل السّنة، والمشهور من مذهب الشّافعي وجماعة من أصحابه أنّه لا يصل إلى الميت ثواب قراءة القرآن فقط، أي يصله غيرها من أعمال الخير كلّها. وذهب أحمد بن حنبل وجماعة من العلماء وجماعة من أصحاب الشّافعي إلى أنّه يصل كسائر الأعمال، كذا ذكره الإمام النّووي في الأذكار. هذا والحاصل أنّ الشّوكاني يؤيّد وصول ثواب كلّ عمل، ويذكر أحاديث للاستدلال بها على ذلك هي نفس الأحاديث الّتي ذكرها السّيد سابق، فلا حاجة إلى إعادتها.

الرّابع: ما قاله الشّيخ ابن تيميّة (رحمه الله) في فتاواه ج/24 ص314، وإليك نصّ عبارته : أمّا الصّدقة عن الميت فإنّه ينتفع بها باتّفاق المسلمين، وقد ورد بذلك أحاديث صحيحه عن النّبيّ (ﷺ). وأمّا الصّيام عنه وصلاة التّطوع عنه وقراءة القرآن، فهذا فيه قولان أحدهما: ينتفع بها وهو مذهب أحمد وأبي حنيفة وغيرهما، وبعض أصحاب الشّافعي وغيرهم.

وثانيهما: لا تصل إليه، وهو المشهور من مذهب مالك والشّافعي وقال في فتاواه ج/ 24 ص/366، ما هذا نصه: وأمّا القراءة والصّدقة وغيرهما من أعمال البرّ فلا نزاع بين علماء السّنة والجماعة في وصول ثواب العبادات الماليّة كالصّدقة والعتق، كما يصل إليه أيضاً الدّعاء والاستغفار والصّلاة عليه صلاة الجنازة والدّعاء عند قبره. وتنازعوا في وصول الأعمال البدنيّة كالصّلاة والصّوم والقراءة، والصّواب أنّ الجميع يصل إليه، وذكر أحاديث على ذلك هي نفس الأحاديث المارّ نقلها عن السّيد سابق. وأوّل قوله تعالى: ﴿وأَنْ لَيْسَ لِلإنسانِ إلّا ما سَعى﴾ فقال: إنّ معنى الآية الكريمة أنّه لا يملك إلّا سعيه ولا يستحقّ غير ذلك، وأمّا سعي غيره فهو لغيره، كما أنّ مال الغير للغير إلّا إنّه إذا أهدى له أو تبرّع به له جاز وأصبح ملكه، إنتهى. وأقول: ويمكن أن نقول: أنّ معنى الآية أنّه ليس لإنسان إلّا سعيه استحقاقاً ومن جهة عدل الله تعالى، وأمّا ما يكتب له من عمل الغير فهو من فضل الله تعالى والله ذو فضل عظيم.

هذا ما عرضت عليك من أقوال العلماء وليطمئن قلبك بإذن الله تعالى أيّها القارىء الكريم وأقول: قد تبيّن ممّا حرّرنا أنّ الأصحّ هو أنّه يصل ثواب كلّ عمل خيري من الغير إلى الميت، وإنّما المعتزلة ومن نحا نحوهم أنكروا ذلك لاعتمادهم على العقل والحكم في الأمور الدّينيّة حسب عقولهم، فقالوا :إنّ العبادة شرّعت لكسر النّفس، ولا تنكسر النّفس بانكسار نفس أخرى، وأخطأوا في ذلك، فإنّ العبادات وأمور الآخرة والثّواب والفضائل لامجال للعقل في إدراكها، وإنّما طريق معرفتها النّقل، وقد ثبت بالنّقل، فلم يبق للإنكار أيّ مجال. هذا ومن هنا نأتي على المقصود الأصليّ من تفسير السّورة الكريمة بإذن الله تعالى فنقول: قال تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لقد تكلمنا عنى معنى الإستعاذة والبسملة في كتابنا (القول المنصف تفسير سورة يوسف) بما فيه الكفاية فلا داعي للإعادة.

﴿يسٓ ۝١﴾

في تفسير هذه الآية الكريمة قال بعض المفسرين أنّ (**يس**) إسم للرّسول الكريم ﷺ فيكون منادى محذوف الياء؛ فالتّقدير يا يس، إلّا أنّ هذا القول ليس بسديد لوجهين:

الأوّل: أنّ أسماء الرّسول (ﷺ) قد جمعت وليس فيها أنّ ياسين أسمه.

الثّاني: أنّه لو كان اسماً ومنادى محذوف الياء لوجب أن يكتب (ياسين) لا (يس) كما لا يخفى على من إطلع على رسم كتابة القرآن الكريم وغيره. وقد حمل هذا البعض على هذا القول أنّه خاطب الرّسول (ﷺ) بعده دون ذكر اسم آخر له؛ فيكون (يس) اسمه، ويردّ على ذلك أنّه بعد قوله (حم عسق) خوطب الرّسول (ﷺ) أيضاً، فيلزم أن يكون (حم عسق) اسماً للرّسول أيضاً، ولم يقل بذلك أحد.

وقال بعض آخر (يس) معناه يا إنسان، والمقصود منه الرّسول فإن (ﷺ) سين في اللّغة السّريانية بمعنى الإنسان، ونسب ذلك إلى ابن عبّاس (رضي الله عنه).

ولكنّ هذا أيضاً غير وجيه وذلك لأمرين:

الأوّل: أنّ القرآن عربيّ، فيجب أن لا يكون فيه لفظ غير عربيّ، فإن قيل: إنّ هذا اللّفظ قد عرّب وصار عربيّاً كالقرطاس مثلاً قلنا: فإنّ كان الأمر كذلك لوجب أن يوجد في قواميس اللّغة العربيّة أنّ سين هو الإنسان، ولا يوجد ذلك، فإنّ كلّ اسم عرّب قد أدرج في قواميس اللّغة العربيّة.

الثّاني: لو كان كذلك لوجب أن يكتب ياسين، فإنّه ليس في رسم الكتابة لا في القرآن ولا في غيره أن يحذف الألف من ياء النّداء ويدرج مع المنادى في الكتابة.

وقال بعضهم: معناه يا أنيسين تصغير إنسان في لغة طي، فإنّهم يقولون: سين في أنيسين للإختصار، والمراد به الرّسول (ﷺ)، وهذا أيضاً ليس بوجيه لوجهين:

الأوّل: أنّ رسم الخطّ لا يصدّقه، حيث إنّ حرف النّداء لا يحذف ألفه ولا يتّصل بما بعده.

الثّاني: أنّ القرآن نزل بلغة قريش لا بلغة طي كما لا يخفى، فالحقّ أنّ هذه الآية الكريمة عبارة عن حرفين مقطّعين من حروف الهجاء، أحدهما الياء والآخر السّين، وقد جاءت الحروف المقطّعة في أوائل بعض السّور فرادى مثل: (ص) و(ق) و(ن)، وثنائيّة مثل: (طه) و(يس) و(حم) و(طس) وثلاثيّة مثل: (الم) و(الر) و(طسم)، ورباعيّة مثل: (المر) و(المص)، وخماسيّة مثل: (كهيعص) و(حمعسق)، وأنّ معاني ومدلولات هذه الحروف واضحة، فإنّها أسماء لمسمياتها فالياء مثلاً: اسم للحرف الأوّل من لفظ (يسرح) والسّين: اسم للحرف الثّاني منه، وهكذا في باقي الحروف الواردة في باقي السّور، وإنّما

اختلف المفسّرون في بيان المقصود من الآيتين بهذه الحروف في أوائل هذه السّور، فذهبوا إلى مذاهب شتّى ذكرتها في (القول المنصف) إلّا أنّ الّذي نقوله هنا شيئان:

أحدهما: إنّ الأصحّ هو أنّ الله تعالى أتى بهذه الحروف للاستدلال بها على أنّ القرآن الكريم من الله تعالى وليس من صنع محمّد أو غيره من البشر، وأنّ محمّداً رسول الله تعالى ويكون الاستدلال بها بوجهين:

الأوّل: هو أنّ الله تعالى يقول: أيّها العرب: إنّ هذا القرآن مؤلّف من الحروف الّتي ليست غريبة وأجنبيّة عنكم، بل هي حروفكم الّتي تؤلّفون منها خطبكم وأشعاركم وكلماتكم، فإن لم يكن هذا القرآن من الله تعالى فأتوا بمثل أقصر سورة منه بلاغةً وفصاحةً وروعةً وجمالاً في الصّياغة وحسن البيان والتّعبير ومن نفس الحروف، فحيث ما أستطعتم ذلك فآمنوا بأنّه من الله تعالى، وأنّ محمّداً رسول الله هذا، وقد عبّر الله تعالى عن هذا الاستدلال صراحة في قوله: ﴿وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتي وقودها النّاس والحجارة أعدّت للكافرين*﴾ سورة البقرة الآيتان/ ٢٣، ٢٤ ـ (وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا) وهومحمّد (فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم) أي كلّ من يعينكم على ذلك (من دون الله إن كنتم صادقين) في قولكم: إنّ هذا القرآن من قول البشر وليس من الله تعالى. ثمّ قال تعالى: (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّار الّتي وقودها النّاس والحجارة أعدّت للكافرين).

الثّاني : هو أنّ كلّ أنسان يستطيع أن يتكلّم أو يتلفّظ بمثل هذه الحروف، فمثلاً أنّ كلّ إنسان يستطيع أن يقول: (يسرح) فإذا قال: (يسرح) فقد تلّفظ وتكلّم بالياء والسّين والرّاء والحاء، ولا يعرف أن يعبّر عن هذه الأسماء لهذه الحروف إلّا الكاتب أو القارئ والدّارس، وكلّ النّاس كانوا يعلمون أن محمّداً (ﷺ) لم يكن في يوم من الأيام ليكتب شيئاً أو يقرأ شيئاً من ذلك، بل كان أميّاً محضاً، فحينما يأتي ويعبّر عن هذه الأسماء وبعد أربعين سنة من عمره، فليس معنى ذلك إلّا أنّه أوحي إليه وتعلّم ذلك من الله تعالى، فيعلم بذلك أنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسول الله، ويدلّ على هذين الوجهين أنّ السّور الّتي تأتي هذه الأحرف في أوائلها مصدرّة كلّها بالأخبار عن أنّ هذا القرآن من الله تعالى، أو أنّ محمّداً رسول الله (ﷺ) .

ثانيهما: الّذي أقوله هو أنّ الحكمة في الإتيان ببعض هذه الحروف فرادى وبعضها

ثنائيّة وبعضها ثلاثية وبعضها رباعيّة وبعضها خماسيّة هي ما ذكره الامام الرّازي (رحمه الله) في تفسيره الكبير في تفسير هذه السّورة فقال: أمّا هذا فمفاده إعلم أنّ الحكمة في ذلك هي أنّ الله تعالى فرض من العبادات ما يعقل ويفهم فائدته ومعناه وحكمته، كالوضوء والغسل مثلاً، فإنّ فائدتهما معلومة وهي النّظافة، وكالزّكاة أيضاً فإنّ فائدتها معلومة وهي إسعاف الفقراء والتّأليف والتّحبيب بينهم وبين الأغنياء، وفرض الله تعالى أيضاً أشياء لا يفهم معناها كعدد الرّكعات في الصّلاة مثلاً أو اختلافها قلّة وكثرة. فكذلك أنزل تعالى من القرآن آيات واضحة الدّلالة على معناها وهنّ الآيات المحكمات، وأنزل آيات لا يفهم معناها وهنّ الآيات المتشابهات، وذلك امتحاناً للنّاس هل يؤمنون بما فرض أو بما أنزل سواء فهم المعنى منه أم لا، اتّباعاً للرّسول ولما أمر به تعالى أم لا يؤمنون، وقد ذكر الله تعالى ذلك في قوله: ﴿والّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات، فأمّا الّذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنه وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلّا الله، والرّاسخون في العلم يقولون آمنّا به كلّ من عند ربّنا وما يذكر إلّا أولوا الالباب﴾ سورة آل عمران الآية/ 7 ـ إنتهى ما قاله الإمام (رحمه الله) ولله تعالى أعلم، هذا . وإنّ الكلام على الآيات المتشابهات وتأويلها وعدم تأويلها وغير ذلك فصّلناه في القول المنصف ما يثلج به الخواطر وتقرّ به العيون والحمد لله تعالى.

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

وصف الله تعالى القرآن بالحكيم لأنّه مليء بالحكمة، ولأنّه دليل ناطق لها، وأقسم تعالى بالقرآن لمحمّد على ما أخبره به في قوله: **(إنّك لمن المرسلين)** ولكنّه في الحقيقة ليس هذا إخباراً لمحمّد، لأنّ الأخبار يساق إلى من لاعلم له بمضمون الخبر، وأنّ محمّداً لم يكن جاهلاً بكونه رسولاً، فيحتاج إلى إخباره وإعلامه بذلك، ولم يكن منكراً لهذا الخبر؛ فيحتاج إلى تأكيد هذا الخبر له بالقسم والجملة الاسميّة، وإن التّحقيقيّة، فإنّ القاعدة أنّه لا يؤكّد الخبر إلا للمنكر له. بل إنّ هذا الإخبار موجّه إلى النّاس كافّة، وإلى مشركي مكّة خاصّة الّذين كانوا في أشدّ الإنكار لأن يكون محمّد رسول الله، فلذلك أكّد تعالى هذا الخبر أشدّ توكيد، حيث أكدّه بالقسم وإنّ ودخول اللّام على الخبر والجملة الاسميّة. إلّا أنّه وجّه هذا الخبر إلى محمّد وخوطب هو به ليكون تسلية له،حيث إنّه (ﷺ) كان يؤلمه إنكار قومه هذا الإنكار الشّديد لأن يكون هو رسولاً من الله تعالى، فسلّاه الله تعالى بهذه الآيات الكريمة، وأخبره فيها بأنّه رسوله، وأنّ عدم

إيمان هؤلاء لا يضرّه ولا يخلّ برسالته، وأنّه ليس عليه سوى الإنذار والتّبشير، وليس عليه أن يؤمن النّاس أو لا، فمن آمن فلنفسه ومن كفر فعليها، ولا داعي إلى أن يغتمّ بكفر الكافرين وإنكار المنكرين، فإنّ أمرهم إلى الله تعالى، وأنّه هو الّذي ينتقم منهم ويعاقبهم على كفرهم هذا.

مسألة: إنّ قوله تعالى: (والقرآن الحكيم ....الخ)، وإن كان في الظّاهر قسماً على ما قلنا إلّا أنّه في الحقيقة ليس قسماً، بل هو استدلال بالقرآن على أنّ محمّداً رسول من الله تعالى، فيكون المعنى أنّ الله تعالى يستدلّ بالقرآن على أنّ محمّداً رسول، ويقول إنّ القرآن شاهد عدل وبرهان قاطع وحجّة واضحة ودليل ساطع على أنّك يامحمّد من المرسلين، إلّا أنّه أخرج هذا الدّليل مخرج القسم لعلاقة بين الدّليل والقسم في أنّ كلّا منها ممّا يثبت به الدّعوى ويصدق به الخبر، والحكمة في إخراج الدّليل في صورة القسم هي أنّه لو ذكر الدّليل في صورته لم يكن للنّاس كثير الرّغبة في استماعه، ولكنّ القسم حيث لا يكون إلّا لأمر عظيم يكون أدعى لاستماع النّاس له وإصغائهم إليه؛ فذكر القسم وأتبع بما هو دليل على المقسم عليه لذلك، قال الإمام الرّازي (رحمه الله) ليس هذا مجرّد الحلف وإنّما هو دليل خرج في صورة اليمين لأنّ القرآن معجزة ودليل لكونه (ﷺ) مرسلاً، فإن قيل: فلم لم يذكر في صورة الدّليل وما الحكمة في ذلك؟ قلنا: إنّ ذكره في صورة اليمين ربّما لا يقبل عليه السّامع ولا يقبله فؤاده، فإذا ابتدىء به على صورة اليمين واليمين لا يقع إلّا على أمر عظيم تتوفّر الدّواعي على الإصغاء إليه، فصورة اليمين تقبل إليها الأسماع، ثمّ لكونه دليلاً يقع في القلوب، إنتهى ما قاله الامام مع تبديل في بعض عباراته للتّوضيح والاختصار.

فالقرآن الكريم ممّا يستدلّ به على رسالة محمّد (ﷺ)، بل هو أكبر دليل وأوضح حجّة وأصدق برهان على أنّ محمّداً نبيّ مرسل من الله تعالى، إذ من تفكّر في القرآن وتدبّره لا يسعه إلّا أن يؤمن بأنّ القرآن هو من عند الله تعالى، وأنّ محمّداً رسول الله وذلك من وجوه:

الوجه الأول: بلاغته:

إنّ التاريخ شاهد وجميع النّاس كانوا يشهدون بأنّ محمّداً (ﷺ) لم يكن في يوم من الأيام ممارساً للخطابة أو الشّعر أو القراءة أو الكتابة وإنّما كان أمّيّاً، ولم يعرف منه شيء من هذه الأمور إلى أن بلغ عمره أربعين سنة، ثمّ لمّا بلغ أربعين فاجأ النّاس

بكتاب بلغ في البلاغة حدّاً لم يستطع الشّعراء والخطباء والبلغاء كلّهم أن يعارضوا هذا الكتاب ولو بمثل أقصر سورة منه، مع حرصهم الشّديد على ذلك، وقد تحدّاهم القرآن:

أوّلاً: أن يأتوا بعشر سور مثل القرآن فلم يستطيعوا ذلك كما قال تعالى: ﴿أم يقولون أفتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وأدعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ سورة هود الآية/ ١٣. ثمّ تحداهم أن يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مثل القرآن، فلم يستطيعوا ذلك أيضاً كما قال تعالى: ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من أستطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ سورة يونس الآية/ 38/، وقال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٣. ومع هذا التّحدي الشّديد وحرصهم المفرط في ذلك لم يستطيعوا أن يعارضوا هذا الكتاب ولو بمثل أقصر سورة منه، فهذا يدلّ بوضوح على أنّه من الله تعالى، حيث لو كان من البشر لما عجز هؤلاء البلغاء والخطباء والشّعراء كلّهم عن أن يأتوا بما يعارضون به القرآن وبما يشابهه بلاغةً وفصاحةً ورونقاً وجمالاً في البيان والتّعبير، فثبت بذلك أنّ القرآن من الله تعالى، وقد شهد بذلك أعداؤه من مشركي مكّة وصناديد قريش، ففي تفسير القرطبيّ (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) أنّه لما نزل قوله تعالى: ﴿حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم• غافر الذنب وقابل التّوب شديد العقاب ذي الطّول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ سورة غافر الآيات/ ١، ٢، ٣ ـ سمع ذلك الوليد بن المغيرة من الرّسول (ﷺ) حينما كان يقرؤها فقال الوليد: والله لقد سمعت من محمّد كلاماً ماهو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة،وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر، فقالت قريش: صبأ الوليد لتصبونّ قريش كلّها، وكان يقال للوليد: ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزيناً فقال له مالي أراك حزيناً، فقال: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها كبر سنّك ويزعمون أنّك زيّنت كلام محمّد وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما، فغضب الوليد وتكبّر وقال: أأنا أحتاج إلى كسر محمّد وصاحبه، فأنتم تعرفون قدر مالي، واللّات والعزّى ما بي حاجة إلى ذلك، وإنّما أنتم تزعمون أنّ محمّداً مجنون فهل رأيتموه قطّ يخنق؟ قالوا :لا والله، قال: وتزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه نطق بالشّعر قطّ؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنّه كذاب، فهل جرّبتم عليه كذباً قط؟ قالوا: لا والله، قال: فتزعمون أنّه كاهن، فهل رأيتموه أنّه تكهّن قطّ؟ ولقد رأينا للكهنة أسجاعاً

وتخالجاً، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله. وكان النّبيّ (ﷺ) يسمى الصّادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكّر في نفسه ثمّ نظر ثمّ عبس فقال: ما هو إلّا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين الرّجل وأهله وولده ومواليه، فأنزل الله تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالاً ممدوداً * وبنين شهودا * ومهّدت له تمهيداً* ثمّ يطمع أن أزيد * كلّا إنّه كان لآياتنا عنيداً * سارهقه صعوداً * إنّه فكّر وقدّر* فقتل كيف قدّر* ثمّ قتل كيف قدّر * ثمّ نظر* ثمّ عبس وبسر* ثمّ أدبر واستكبر* فقال إن هذا إلّا سحر يؤثر* إن هذا إلّا قول البشر* سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر* لا تبقي ولا تذر * لوّاحة للبشر* عليها تسعة عشر*﴾ سورة المدثر الآيات ١١ ـ ٣٠. وذكر ابن هشام في السّيرة [ج/١ ص٢٧٠] أنّ الوليد ابن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان ذا سنّ فيهم، فقال: يا معشر قريش إنّه قد حضر الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم في الموسم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذّب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به، قال: أنتم فقولوا أسمع. قالوا: نقول كاهن. قال: لا والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولابسجعه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ماهو بمجنون لقد رأينا المجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر، قال: ماهو بشاعر لقد عرفنا الشّعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشّعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: ماهو بساحر، لقد رأينا السّحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولاعقدهم، قالوا: فما نقول: يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنّ لقوله لحلاوة وإنّ أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عرف أنّه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء يقول سحراً يفرّق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وعشيرته. فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبل النّاس حين قدموا الموسم لا يمرّ بهم أحد إلّا حذّروه إيّاه وذكروا له أمره، فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة وفي ذلك من قوله (ذرني ومن خلقت وحيدا) إلى آخر الآيات. وقد ذكر ابن كثير الرّوايتين. وإنّي أقول: لامنافاة بين الرّوايتين فلربما كانت الحادثتان، فتكلّم الوليد في كلّ حادثة بما ترى، هذا وإنّ الرّوايات الّتي تدلّ على أنّ صناديد قريش كانوا يعرفون حسب سليقتهم أنّ هذا القرآن ليس من البشر، بل إنّه من الله تعالى كثيرة ومذكورة في كتب السّير، إلّا أنّهم منعهم من الإيمان بالقرآن واتّباع محمّد (ﷺ) التّعصب القبلي أو خوف سلب

الرّياسة منهم، أو المنافع الّتي كانوا يكسبونها من سدانة الآلهة الباطلة أو تقليد الآباء والأجداد، وغير ذلك من الأسباب الّتي كانت تحملهم على عدم الإيمان وعدم الدّخول في الإسلام، وقد ذكرت تلك الأسباب كلّها والدّلائل عليها في (تفهيم الأمّة تفسير جزء عمّ) في سورة التّكوير عند تفسير قوله تعالى: (إنّ هو الّا ذكر للعالمين) فراجعه تجد فيه ما يثلج البال وتقرّ به الأعين إن شاء الله تعالى.

الوجه الثّاني: إخباره عن الأمور الماضية:

من الوجوه الّتي تدلّ على أنّ القرآن من الله تعالى هو ما أخبر به القرآن عن الأمور الماضية مطابقاً لما في التّوراة والكتب السّماوية السّابقة غير المحرّفة، رغم أنّ هذه الأمور كانت مخفيّة إلّا على المختصّين من أحبار أهل الكتاب، وكلّ النّاس كان يعلم من أنّ محمّداًﷺ كان أميّاً ونشأ في أمّة بعيدة كلّ البعد عن العلم بمثل هذه الأمور وبهذه الكتب السّماوية، هذا وإليك أمثلة في هذا الموضوع:

الأوّل: ذكر القرطبي والخازن في تفسيرهما وإبن هشام وإبن كثير في السّيرة: أنّ قريشاً بعثوا النّضر بن الحارث وعقبة بن معيط إلى المدينة وإلى أحبار اليهود وقالوا لهما: سلاهم عن محمّد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتّى قدما المدينة فسألا أحبار اليهود عن رسول الله (ﷺ) ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض مايقول وقالا: إنّكم أهل التّوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت الأحبار: سلوه عن فتية ذهبوا في الزّمان الأوّل ماذا كان أمرهم؟ فقد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماذا كان نبؤه؟ وسلوه عن الرّوح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتّبعوه فإنّه نبيّ، وإن لم يفعل فإنّه رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فاقبل النّضر بن الحارث وعقبة بن معيط حين قدما مكّة على قريش فقالا: يا معشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم، أن تسالوه عن أشياء، فإن أخبركم فهو نبيّ وإن لم يفعل فهو متقوّل. فجاؤوا رسول الله (ﷺ) فقالوا: يا محمّد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدّهر الأوّل قد كانت لهم قصّة عجيبة، وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الرّوح ماهي؟ فقال رسول الله (ﷺ): أخبركم بما سألتم غداً ولم يستثن فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله (ﷺ) فيما يزعمون خمس عشرة ليلة ولا يأتيه جبريل حتّى أرجف أهل مكّة، وقالوا: وعدنا محمّد غداً وهذه خمس عشرة ليلة لا يخبرنا

بشيء! حتّى حزن رسول الله (ﷺ)، ثمّ جاء جبريل (ﷺ) من عند الله تعالى بسورة الكهف فيه خبر ما سألوه عنه من أصحاب الكهف وذي القرنين الرّجل الطّواف وبخبر الرّوح في قوله تعالى: [ويسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً] سورة الإسراء الآية/ ٨٥.

الثاني: سأله اليهود عن: سبب إنتقال آل يعقوب إلى مصر؟ وعن ماجرى على يوسف؟ فنزل عليه سورة يوسف (عليه السلام) وفيها قصّة يوسف وبيانها أحسن بيان، مع بيان سبب إنتقال يعقوب وبنيه الى مصر.

الثّالث: كان الرّسول (ﷺ) يناقش اليهود في أحكام موجودة في التّوراة فتكون كما يقولهاﷺ. ذكر القرطبي أنّه قال ابن عباس (رضي الله عنهما) أصاب يعقوب (عليه السلام) عرق النّساء، فوصف له الأطبّاء أن يتجنّب لحوم الإبل فحرّمها على نفسه فقالت اليهود: إنّما نحرّم على أنفسنا لحوم الإبل لأنّ يعقوب حرّمها، وأنزل الله تحريمها في التّوراة فكذّبهم الله تعالى وردّ عليهم، فأنزل قوله تعالى: [كلّ الطعام كان حلاً لبني اسرائيل إلّا ما حرّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتّوراة فاتلوها إن كنتم صادقين﴾ - سورة آل عمران الاية/ ٩٣ - قال الزّجاج: إنّ في هذه الآية أعظم دلالةً على نبوّة محمّد (ﷺ) حيث أخبرهم أنّه ليس في التّوراة هذا التّحريم، وأمرهم أن يأتوا بالتّوراة فلم يأتوا بها لئلا يفتضحوا، وعرفوا أنّ محمّداً عرف ذلك بالوحي.

الرّابع: عبّر القرآن الكريم عن حاكم مصر في قصّة يوسف (عليه السلام) بالملك في حين أنّه عبّر عنه في قصّة موسى بفرعون، وقد عثرت الآثار نتيجة الحفريّات على تاريخ مصر القديمة فوجدت فيه أنّ أهل مصر كانوا يسمّون الحاكم إذا كان منهم بفرعون، وإذا كان من غيرهم ومن المستولين عليهم يسمّونه بالملك، فكان الحاكم في زمن موسى (عليه السلام)، منهم ولكنّه كان في زمان يوسف من الهكسوس الّذين استولوا عليهم وإستعمروهم. فمن أين عرف محمّد هذا التّعبير الدّقيق والّذي لم ينكشف إلّا في هذه السّنوات الأخيرة نتيجة التّنقيب الّذي قام به علماء الآثار وعثورهم على هذا التّاريخ المجهول إلى يوم تنقيبهم وعثورهم عليه؛ فيدلّ ذلك على أنّ القرآن هو من الله تعالى.

الخامس: إنّ القرآن يقول في سورة يوسف (عليه السلام): ﴿وألفيا سيّدها لدى الباب﴾ فعبّر عن زوج المرأة بالسّيد لا بالزّوج، حيث لم يقل وألفيا زوجها لدى الباب. وقد ثبت نتيجة التّنقيب والحفريّات الّتي قام بها علماء الآثار وعثورهم على تأريخ مصر أنّ

أهل مصر كانوا في زمان يوسف (عليه السلام) يقولون لزوج المرأة: سيّدها لا زوجها، فمن أين عرف محمّد هذا الإصطلاح الّذي لم يعرف إلّا بعد كشف علماء الآثار هذا التّأريخ في السّنوات الأخيرة.

والأمثلة من هذا الوجه كثيرة اكتفينا بهذا المقدار، ومن تدبّر القرآن الكريم يرى العجب العجاب من هذا الوجه ممّا لا يبقي له مجالاً إلّا أن يقول أشهد أنّ هذا القرآن من الله وأنّ محمّداً رسول الله.

الوجه الثّالث: الإخبار عن أمور في المستقبل:

وقد كان القرآن الكريم ينزل ويخبر عن أمور في المستقبل فتقع تلك الأمور كما أخبر عنها القرآن الكريم وأذكر لك من هذا الوجه أمثلة أيضاً: .

الأوّل: إنّ الفرس غزوا الرّوم فغلبوهم ففرح بذلك مشركوا العرب وقالوا: إنّ الفرس لا كتاب لهم مثلنا، وإنّ الرّوم لهم كتاب مثلكم أيّها المسلمون لأنّهم كانوا نصارى، فلننتصرن عليكم كما أنتصر الفرس على الرّوم، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ألم غلبت الرّوم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون• في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ سورة الروم الآية/ ٢،١. فراهن أبوبكر المشركين بعدما جاء هذا الوحي وقال: إنّ الرّومان سينتصرون، فقال المشركون: إجعل لنا أجلاً، فقرّر لهم ثلاث سنين، فقال له النّبيّ (ﷺ): زد في الرّهان وأمدد في الأجل فإنّ البضع من ثلاث إلى تسع، ففعل أبوبكر ما قاله الرّسول (ﷺ)، ثمّ انتصر الرّوم على الفرس في السّنة التّاسعة وفرح المؤمنون. ومن أدقّ ما أخبر به القرآن هنا أنّه قال: (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله). وثبت في التّأريخ أنّ الرّوم انتصروا على الفرس في اليوم الّذي أنتصر المؤمنون على المشركين في حرب بدر الكبرى، فمن أين عرف محمّد هذين النّصرين في المستقبل والمقارنين في الوقت والسّاعة، فاشهد بأنّ القرآن من الله تعالى وأنّ محمّدا رسول الله.

الثّاني: قال تعالى: ﴿سنلقى في قلوب الّذين كفروا الرّعب بما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانا و مأواهم النّار وبئس مثوى الظّالمين﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٥١. قال في التّفاسير: إنّ أبا سفيان ومن معه أرتحلوا يوم أحد متوجّهين إلى مكّة، فلمّا بلغوا بعض الطّريق ندموا وقالوا: بئس ماصنعنا قتلناهم حتّى إذا لم يبق إلّا الشّريد تركناهم،؟

إرجعوا إليهم فاستأصلوهم. فلمّا عزموا على ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرّعب حتّى رجعوا عمّا همّوا به، وبقي هذا الرّعب إلى أن فتح الرّسول الجزيرة العربيّة كلّها، والتّأريخ شاهد بأنّ كلّ واقعة حدثت بعد نزول هذه الآية كانت الهزيمة لجيش المشركين والنّصر لجيش الرّسول (ﷺ) .

الوجه الرّابع: الإخبار بما في قلوب المنافقين و كشف ما في نفوسهم:

وأذكر لك من هذا الوجه فقرات عدة وكما يلي:

الأول: قال تعالى: ﴿وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الامر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا﴾ سورة آل عمران الآية/ ٥٤. قال في التفاسير: وذلك أن المنافقين قال بعضهم لبعض في حرب أحد: لو كان لنا عقول لم نخرج مع محمد إلى قتال أهل مكة ولم تقتل رؤساؤنا هنا، وقيل كانوا يقولون: لو كنا على الحق ماقتلنا ها هنا، فأخبر الله تعالى الرسول بما قالوا وكشف مافي نفوسهم، فمن أين علم محمد هذا السر؟ لو لم يكن هذا القرآن من الله تعالى.

الثاني: قال تعالى: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكاذبون﴾ سورة المنافقون الآية/١. ذكر في التفاسير والسير: أن سبب نزول هذه السورة هو أن رسول الله (ﷺ) غزا بني المصطلق على ماء يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل فازدحم أجير لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقال له: جهجاه مع حليف لعبد الله بن أبي بن سلول يقال له: سنان على ماء بالمشلل. فصرخ جهجاه بالمهاجرين وصرخ سنان بالأنصار فلطم جهجاه سناناً فقال عبدالله بن أبي أوقد فعلوها والله ما مثلنا ومثلهم الا كما قال الأولون: [سمن كلبك يأكلك] أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، أراد بالأعز نفسه وبالأذل محمداً (ﷺ)، فسمع ذلك زيد بن الأرقم فأخبر بذلك الرسول (ﷺ) فجاء عبد الله فأنكر ذلك وحلف للنبي (ﷺ)، فعذره الرسول (ﷺ). قال زيد فلامني الناس وقالوا: ماتركت حتى كذبك الرسول، فوجدت في نفسي حزناً كثيراً فنزلت السورة وتتابعت الآيات في ذم المنافقين إلى أن قال تعالى: ﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لايعلمون﴾ فصدق القرآن زيداً وكذب المنافقين وكشف أسرارهم ومافي قلوبهم. والآيات من هذا القبيل

كثيرة لو تدبر فيها المفكر لا يجد مجالاً إلا أن يقول أشهد أن هذا القرآن من الله تعالى.

الوجه الخامس: الإخبار عن علوم الكون وأسراره:

جاء القرآن والنّاس جاهلون بعلوم الكون وأسراره، فكان يخبر عن أشياء لم يكشفه العلم إلّا بعد أمد بعيد، ولا يزال العلم يكشف ما أخبر به القرآن ويصدّقه يوماً بعد يوم، ولنذكر لك من هذا الوجه أمثلة أيضاً:

الأوّل: قال تعالى: ﴿هو الّذي جعل الشّمس ضياءً والقمر نوراً وقدّره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب﴾ سورة يونس الآية/ ٥. أي جعل الشّمس مضيئةً والقمر منيراً، وثبت في اللّغة أنّ المضيء يقال لما يكون إشراقه من ذاته كالسّراج وأنّ المنير يقال لما لا يكون له إشراق وإنّما يأخذ الإشراق من الغير فيعكسه لغيره كالمرآة. وحين نزل القرآن لم يكن النّاس عالمين بأنّ الشّمس مشرقةً بالذّات وأنّ القمر لا إشراق له، بل يستفيد النّور من الشّمس فيعكسه للعالم إلى أن ترجمت علوم الأفلاك من اليونانيّه إلى العربيّه في زمان الدّولة العباسيّة، فكشف علم الفلك هذه الدّقة الّتي أخبر بها القرآن قبل زمن بعيد، فهل درس محمّد في كليّة جغرافية السّماء؟ كلّا، بل هذا من الله تعالى.

الثّاني: قال تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ سورة النازعات الآية/ ٣٠ ـ أي جعل الأرض دحيةً والدّحية هي البيضويّة وقد كشف العلم ذلك بعد نزول القرآن بقرون، فهل درس محمّد في كليّة جيولوجيّة ليتعرّف على شكل الأرض؟ كلّا، بل هو من الله تعالى.

الثّالث: قال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث] سورة الزمرالآية/٦. ويأتي علم التّشريح ليثبت أنّ جدار الرّحم يتكوّن من طبقات ثلاث: الممباريّة والأمنيونيّة والخربونيّة، فهل درس محمّد في كليّة الطّب ليعلم ذلك؟ كلّا بل هو من الله. وقال تعالى: ﴿يا أيّها النّاس إن كنتم في ريب من البعث فإنّا خلقناكم من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ من علقةٍ ثمّ من مضغةٍ مخلقةٍ وغير مخلقةٍ﴾ سورة الحج الآيه/ ٥. وقال: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثمّ جعلناه نطفةً في قرار مكين * ثمّ خلقنا النّطفة علقةً فخلقنا العلقة مضغةً فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثمّ أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ سورة المؤمنون الآيات/ ١١ ـ ١٣. هكذا أخبر القرآن قبل أربعة عشر قرناً، ثمّ بعد قرون كثيرة أثبت العلم أنّ

التّراب يصير غذاءً وأنّ الغذاء يتولّد منه المني، وهو المراد بالنّطفة ثمّ بعد مدّة يصير المنيّ في الرّحم دماً متجمّداً يعلق باليد إذا مسسته، ثمّ بعد مدّة تصير العلقة مضغةً غير مخلّقة أي غير مصوّرة ثمّ بعد مدّة تصير مخلّقةً ومصوّرةً ثمّ ينبت منه العظام، ثمّ يأتي اللّحم فيستر العظام ثمّ إلى أن يولد، هكذا يأتي العلم ويكشف ما أخبر به القرآن قبل أربعة عشر قرناً ويصدّقه، فهل درس محمّد في كليّة التّشريح والتّوليد؟ كلّا بل إنّه من الله تعالى.

الرّابع: قال تعالى: ﴿سبحان الّذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لا يعلمون﴾ سورة يس الآية/٣٦.

فتخبر هذه الآية بأنّ كلّ ما ينبت من الأرض من الشّجر والنّبات زوج، أي ذكر وأنثى، وإنّ الثّمر من نتيجة تلقيح الأنثى من الذّكر، وإنّ اللّقاح تقوم به الرّياح فتأخذ البذر من الذّكر وتوصله إلى الأنثى، وأخبر القرآن عن ذلك أيضاً في قوله تعالى: (وأرسلنا الرّياح لواقح فاسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾ سورة الحجرالآية/ ١٢، أي أرسلنا الرّياح تلقّح النّباتات والأشجار فيتولد من ذلك الحبوب والثّمار، هذا وقد فسّر البعض لواقح بقوله: أي حاملة لسحب ممطرة، ولاتنافي بين التّفسرين، فإنّ الرّياح تقوم بالعمليّتين ولا تمانع بينهما.

الخامس: قال تعالى: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ سورة النحل الآية/٨ ـ فتخبر الآية الكريمة بأنّ الله تعالى على استمرار الزّمان يخلق أشياء للرّكوب والزّينة غير الخيل والبغال والحمير، ثمّ جاء الزّمان وصدّق هذا الخبر. فخلق الله تعالى القطارات والطّائرات والسّيارات، والله أعلم أنّه يخلق في الأزمنة المقدمة إلى يوم القيامة من هذه الأسباب.

السّادس: قال تعالى: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ سورة النحل الاية/ ٨٠، فتشير الآية إلى أنّ الأثاث كالفراش والمتاع كالثّياب يتّخذ من أصواف الأنعام وأوبارها وأشعارها إلى زمان، ثمّ بعد ذلك يتّخذ من أشياء أخرى، وقد صدّق الأيّام هذا؛ فإنّ اليوم أكثر ما يتّخذ ذلك هو من القطن أو المواد النّفطية أو الإسفنج، وسوف لا ندري ممّا يتّخذ الأثاث والمتاع في الأزمنه الآتية والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

السّابع: قال تعالى: ﴿تسبّح له السّموات والأرض بحمده ومن فيهنّ ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنّه كان حليماً غفوراً﴾ سورة الإسراء الآية/ ٤٤. فتخبر الآية بأنّ كلّ شيء له نطق وكلام وتسبيح إلّا أنّ الإنسان لا يفقه ولا يسمع تسبيحهم، وقد أثبت العلم الحديث في الآونه الأخيرة بأنّ الأشجار والنّباتات يتحاورون فيما بينهم، ولها لغة وسوف يتقدّم العلم ويثبت أنّ الحجر والأرض والسّماوات لها نطق ولغة ومحاورة أيضاً، ويظهر معجزة القرآن حينما يقول: ﴿وإن من شيء إلّا ويسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[١] ويقول: ﴿يومئذ تحدّث﴾ أي تتكلّم الأرض ﴿أخبارها بأنّ ربّك أوحى لها﴾ سورة الزلزلة الآية/ ٤، أي أنطقها، ولا يقال هذا في الآخرة لأنّه لا فرق في الممكن والمحال بين الدّنيا والآخرة، فما كان ممكناً هناك فممكن اليوم، وماهو محال اليوم فمحال هناك أيضاً، وقد ثبت أنّ الحصى سبّحت في يد رسول الله (ﷺ) وأنّ كلّ شجر وحجر يمرّ به كان يسلّم عليهم بالنّبوّة، فكلّ هذه الأشياء تنطق إلّا أنّ العادة جرت بعدم سماعنا لنطقها، فالمعجزة وهي خرق العادة لم تكن في نطق الحصى وإنّما هي في السّماع، فالنّطق موجود إلّا أنّ السّماع لم تجر العادة به، فسماع نطق الحصى وتسبيحها في يد الرّسول خرق لهذه العادة، وهي معجزة، وإنّ المعجزة إنّما هي في حدود الممكنات ولا تظهر في المحالات بتاتاً كما هو المقرّر في علم الكلام.

هذا وإنّ من تدبّر في القرآن وآياته وطبّقها مع علوم الكون وأسراره، يقف حائراً أمام عظمة هذا القرآن، حيث يجده مليئاً بهذه الأسرار، ومنها ما لم يكشفه العلم إلى الآن، وإن ما ذكرنا هو عشر معشار هذه الأسرار، فهل تعتقد يا أخي أنّ محمّداً الأمّي الّذي بعث في أمّة أميّة قد درس هذه الأسرار حتّى أصبح أستاذاً في كلّ علم؟ أم أنّ الّذي خلق هذا الكون هو الّذي علّم محمّداً هذا القرآن، فبهذا ثبت حقّاً أنّ القرآن لدليل واضح على أنّ محمّداً مرسل، ولذلك أقسم الله تعالى في الظّاهر واستدلّ في الحقيقة بالقرآن الحكيم على أنّ محمّداً مرسل وقال: (والقرآن الحكيم إنّك لمن المرسلين) هذا بالرّغم ممّا في القرآن من بيان الأخلاق الرّفيعة والصّفات الحميدة والأحكام النّاصعة والمعاملات العادلة في الأمور الفرديّة والإجتماعيّة والإداريّة والسّياسيّة وفي كلّ نواحي حياة الأمّة والفرد، وما ترك القرآن والسّنة شيئاً إلّا ووضع له خطّةً حسنةً وكيفيّةً معقولةً

(١) الإسراء . ٤٤.

ونظاماً عادلاً ودستوراً دقيقاً ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سورة الانعام الآية/ ٥٩. فاقرأ يا أخي الإسلام وادرسه واقرأ القرآن وتدبّر فيه، وتتبّع الحديث وسيرة الرّسول وكلّ ذلك فطبّقه مع العقل الكامل ومع العلم، فحينئذٍ لا يبقى لك مجال إلّا وأن تقول: أشهد أنّ هذا القرآن من الله وأنّ محمّداً رسول الله، وكم من مستشرق اهتدى إلى الإسلام وكم من فلاسفة الغرب اعتنق الإسلام من هذا الطّريق، فاقرأ يا أخي شهادات الأجانب للدّين الإسلامي وغيره ممّا كتبه غير المسلمين لتعلّم عظمة الإسلام وعظمة الرّسول وعظمة القرآن، والفضل ما شهدت به الأعداء. هذا ما استطعنا عرضه في هذا المقام وأنّه وإن كان قليلاً إلّا أنّ العاقل تكفيه الإشارة، ولتكن هذه ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السّمع وهو شهيد.

* * *

ولنأت الى تفسير الآيات الكريمة فنقول:

﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾

المرسلين جمع مرسل، والمرسل والرّسول واحد، إذ هو فعول بمعنى مفعول، أي مرسل (مشتق) من الرّسالة. والرّسالة في اللّغة بمعنى السّفارة بين طرفين، وفي الشّرع هي السّفارة بين الله تعالى وعباده لتبليغهم أحكامه ودينه وشريعته، والنّبيّ أصله نبيء مشتقّ من النبأ، بمعنى الخبر، فعيل بمعنى فاعل، أي مخبر عن الله تعالى، قلبت الهمزة ياءً وأدغم في الياء فصار نبيّاً، وقيل: أصله نبيو من النّبوة بمعنى الرّفعة لأنّ النّبيّ رفيع القدر، قلبت الواو ياء فادغم في الياء فصار نبيّاً، أقول: والأوّل هو الصّحيح، لأنّه يقال تنبّأ فلان وفلان يتنبّأ ولم يرد تنبو ويتنبو فلان في هذا المعنى، أي معنى النّبوّة بمعنى الرّسالة. والفرق بين النّبيّ والرّسول هو قيل: أنّ النّبيّ من أوحي إليه بتبليغ شريعة من قبله ولم يكن له كتاب، والرّسول من كان له كتاب. ويردّ على هذا أنّ الرّسل ثلاثمائة وثلاثة عشر، كما عدّه الحديث والكتب مئة وأربعة، فأذا وزّعت عليهم الكتب لا يكون لكلّ رسول كتاب. فقيل. وهذا أصحّ: أنّ النّبيّ من أوحى إليه أن يعمل بشريعة من قبله وليس له كتاب ولا نسخ لما قبله، كيوشع (عليه السلام)، والرّسول من له كتاب أو نسخ لبعض ما قبله. والحاصل: أنّ الرسول أعلى درجة من النّبيّ، فكلّ رسول نبيّ وليس كلّ نبيّ

رسولًا. وقيل: لا فرق بينهما بل هما مترادفان، وقيل: هذا غير صحيح لأنّ الله تعالى قال في حقّ موسى (ﷺ): ﴿واذكر في الكتاب موسى إنّه كان مخلصاً وكان رسولاً نبيّاً﴾ ـ سورة مريم الآية/ ٥١ ـ وقال في اسماعيل (ﷺ): ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنّه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيّاً﴾ سورة مريم الآية/ ٥٤. فلو كانا مترادفين لزم أن توجد الزّيادة في القرآن وهو باطل. أقول: وبالمعنى الأوّل يلزم الزّيادة أيضاً لأنّ الرّسول متضمّن لمعنى النّبوّة، فحينما قال الرّسول يلزم منه أن يكون نبيّاً أيضاً فيكون ذكر لفظ نبيّاً في الآيتين زائداً، فلا مخلّص من هذا الأعتراض إلّا أن نقول: أنّ نبيّاً في هاتين الآيتين من النّبوة بمعنى الرّفعة، فالمعنى كان رسولاً رفيع القدر عالي الرّتبة عند الله تعالى والله تعالى أعلم. فانظر إلى شرح المواقف وحاشية الكستلي على شرح العقائد للتّفتازاني في مبحث الرّسالة والنّبوّة لزيادة الإطّلاع في هذا الموضوع.

مسألة: إختلف النّاس في إرسال الله تعالى الرّسل إلى عباده بين الجواز والوجوب والإمتناع، فذهب المتكلّمون إلى الجواز بمعنى أنّ الإرسال وعدمه متساويان بالنّسبة إلى الله تعالى لا ترجيح لأحدهما على الآخر إلّا بإرادته، فإرساله الرّسل إنّما هو بمجرّد إرادته، وذلك رحمة بالعباد ببيان طريق الصّلاح ليسلكوه وسبيل الفساد ليتجنّبوه. وعند الأشعريّة إرسال الرّسل واجب لا بمعنى الوجوب العقلي الّذي يدّعيه المعتزلة، بل بمعنى أنّ حكمة الله تعالى تقتضي ذلك، وترجّح الإرسال على عدمه، وهذا مثل الوجوب في قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً﴾ سورة مريم الآية/ ٧١، أي حتماً حتّمه الله تعالى على نفسه للحكمة المنوطة بذلك. وقالت المعتزلة: إنّ إرسال الرّسل واجب على الله تعالى وجوباً عقليّاً بناءاً على قاعدتهم، وهو أنّ الأصلح للعبد واجب على الله تعالى، وأنّ الأصلح للعباد هو أن يرسل الرّسل إليهم ليبلّغهم بما يصلح وما يضرّهم، وادّعى السّمنيّة[1] امتناع الرّسالة بحجّة أنّ الرّسول لا يمكن له أن يعلم أنّ الّذي يقول له أرسلناك أنّه هو الله تعالى أو واحد من الجنّ .

هذا، **وإنّي أرى**: أنّ الحقّ هو قول الأشعريّة، فإنّ من خلق هذه السّماوات وما فيها

(١) السمنية طائفة من فلاسفة الخراسان والهند لا يؤمنون إلّا بالمحسوسات فينفون النظر والإستدلال / شرح العقيدة الطحاوية ٣/ ٢٩٨

من الكواكب والشّمس والأقمار والنّجوم وهذه الأرض، بما فيها من جبال وبحار ونبات وحيوان وأشجار ومعادن لا تحصى من هذه الموجودات كلّها لأجل الإنسان، ولأجل أن يستطيع أن يعيش على هذه الأرض، ثمّ خلق الإنسان وأسكنه هذه البسيطة، والإنسان هو الإنسان الّذي يختلف أفراده في ميولهم وأحاسيسهم ونزعاتهم والّذي لا بدّ وأن يقع بين أفراده تنازع وتنافر وخصام ومنافسة على الحياة، فلا يعقل أن يهمل الله تعالى هذا الإنسان وأن لا يضع له نظاماً يفرض عليهم أن يعيشوا على وفقه، وأن يحلّوا مشاكلهم به وأن يفصلوا بين المتخاصمين حسب حكمه وقراراته؛ فإنّا نرى رئيس قرية يضع نظاماً لأهل قريته ورئيس دولة يضع قانوناً لمن هو تحت إمرته، فكيف يترك الله تعالى هذا الخلق دون نظام ودستور، ودون شريعة وأحكام، وهو أحكم الحاكمين، فلابدّ وأن يضع نظاماً لهم، وقد أشار في القرآن الكريم إلى هذا الدّليل العقلي الّذي يدلّ على وضع الله تعالى نظاماً لخلقه، ودستوراً لعباده فقال تعالى: ﴿فما يكذّبك بعد بالدّين * أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ سورة التين الآية/ ٨،٧، أي فما يحملك على أن تكذّب بأنّ الله قد وضع نظاماً، وأنّه يحاسب النّاس على إمتثالهم لهذا النّظام أو عدم أمتثالهم، ويعاقبهم على ذلك أو يثيبهم، أليس الله بأحكم من كلّ حاكم وأكبر من كلّ رئيس، فإذا كان كلّ حاكم يضع دستوراً لمن تحت رئاسته، فهل يعقل أن يترك الله عباده وهو ملك الملوك أن لا يضع لهم نظاماً ! كلّا، ثمّ كلا. وقال تعالى: ﴿أفحسبتم أنّما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١١٥ ـ أي هل أعتقدتم أنّا خلقناكم وتركناكم دون نظام وشريعة ودستور، وهل اعتقدتم (أنّكم إلينا لا ترجعون) أي لا ترجعون إلينا بعد الموت لمحاسبتكم حسب اتّباعكم لنظامنا وشريعتنا فنثيبكم على اتّباعه ونعاقبكم بقدر الانحراف عنه، إن هذه العقيدة الّتي تمسّكتم بها باطلة ومخالفة للعقل السّليم والطّبع المستقيم. وللحكمة والمصلحة العامّة. وقال تعالى: ﴿إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنّهار لآيات لأولي الألباب﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩٠، أي أنّ في خلق هذا النّظام البديع والكون العجيب لدلائل على وجود الله تعالى على قدرته وعلى وجود شريعته. وأنّ هذه الدّلائل الموجودة وواضحة لأصحاب العقول وأرباب الفكر السّليم ﴿الّذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السّماوات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩١، أي أنّ أصحاب العقل والتّفكير الّذين يذكرون الله تعالى ويريدون أن يبرهنوا على وجوده يوقنوا بقدرته فيذكرونه هكذا قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وللوصول

إلى ذلك ينظرون (ويتفكّرون في خلق السّموات والأرض) فيسوقهم ذلك التّفكير إلى أنّ هذا الكون المليء بما يبهر العقول وبما يعجب كلّ ذي فهم صحيح لا يمكن أن يوجد بدون خالق قدير، فيؤمنون بالخالق العظيم، ثمّ بعدما آمنوا بهذا الخالق العظيم يتفكّرون ويعلمون أنّ من خلق هذا النّظام التّكويني البديع لا يعقل أن لا يضع لمن يعيش فيه نظاماً تكليفيّاً يؤمّنون به حياتهم ويحلّون به مشاكلهم ويفصلون به خصامهم ويربطون به علاقاتهم ومعاملاتهم ومعايشهم، وبذلك يؤمنون بأنّه لابدّ وأنّ الله تعالى وضع النّظام لهذا الخلق فيؤمنون ويقولون: (ربّنا ما خلقت هذا باطلاً) أي ما خلقت هذا الكون عبثاً وبدون نظام وشريعة وأحكام، ثمّ بعد ذلك يعلمون أنّ كلّ نظام يقتضي أن يكون ثواب لمن اتّبعه وعقاب لمن أنحرف عنه، وحيث إنّ هذا الثّواب والعقاب لا يوجدان في الدّنيا كلّياً فإنّ كثيراً من المحسنين يموتون دون أن يروا ثواباً لإحسانهم، وكثير من الظّالمين يموتون دون أن يلقوا عقاباً على جرائمهم، فلو ذهب الاثنان سواء لما تحقّق عدالة الله تعالى عن ذلك، فلذلك لابدّ وأن يأتي يوم يثاب فيه المطيع ويعاقب فيه العاصي، وبذلك يؤمنوا بالحشر والحساب والعذاب ويقولون (سبحانك فقنا عذاب النّار) أي تنزّهت عن أن تعمل عبثاً بل إنّ لك نظاماً وثواباً وعقاباً فقنا ربّنا عذاب النّار. وبهذه الطّريقة تصل العقول السّليمة وأولوا الألباب إلى الإيمان بالله وبشريعته تعالى، والإيمان باليوم الآخر وبالحشر والحساب والثّواب والعقاب، فإذا آمن بالشّريعة فيؤمن بالرّسالة بلا توقّف وارتياب، فإنّ شريعة الله تعالى لا يتوقّف ولا يطلّع عليه كلّ أحد، بل إنّما يختار الله تعالى أناساً ويعلّمهم شريعته ويوحى إليهم دستوره ونظامه، وهم يبلّغون النّاس بما أوحي اليهم من شريعته ، قال تعالى: ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكنّ الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسوله وإنْ تؤمنوا وتتّقوا فلكم أجر عظيم﴾ سورة آل عمران الاية/ ١٧٩، فالكون يدلّ على الخلق والخالق يدلّ على المالكيّة والملكيّة لخلقه والملكيّة تقتضي السّياسة والسّياسية تقتضي النّظام والنّظام يقتضي الرسّل لتبلغه وتبليغه، فالرّسالة ثابتة بالعقل والتّفكير في الكون والخلق (فتبارك الله أحسن الخالقين)، هذا وإنّ الخلاف بين المتكلّمين والقائلين بجواز الرّسالة والأشاعرة القائلين برجحانها ووجوبها للحكمة، وبين المعتزلة القائلين بالوجوب عقلاً، يكاد أن يكون الخلاف لفظيّاً، فالكلّ يريد تنزيه الله تعالى. وأمّا قول السّمنية القائلين بامتناع الرّسالة بحجّة أنّ الرّسول لا يعرف الّذي يقول له اخترتك لرسالتي هل هو الله تعالى أو أحد من الجنّ فممنوع. مستدلاً بأنّ الرّسول يعرف ذلك بأدلّة قائمة عنده المثبّتة، لأنّ هذا من

الله تعالى أو بأنّ الله تعالى يخلق فيه علماً ضرورياً بذلك، ويؤكّد ذلك إظهاره تعالى المعجزة على يده هذا. وانظر في شرح المواقف في باب السّمعيات وحاشية الكستلي على شرح العقائد للتفتازاني عند قوله وفي إرسال الرّسل حكمة، ترى ما يشفي غليل الصّدور. فإرسال الرّسل ضرورة إجتماعية تقتضيها حكمة الله تعالى ومراعاته لمصالح العباد ولا ينكرها إلّا الجهلة ومن ليس له عقل سليم.

* * *

دفع شبهة: قد يقال إنّ العلماء والمفكرين والعقلاء من أفراد الإنسان، يستطيعون أن يقوموا بوضع القوانين والنّظم الّتي تتكفّل بتنظيم حياة الإنسان الإداريّة والإجتماعيّة والسّياسيّة والإقتصاديّة، وغير ذلك من رفع الخصومات وحلّ النّزاع والمشاكل الّتي تقع بين أفراد المجتمع، وبين المجتمعات بعضها مع بعض كما هي الحال اليوم؛ فإنّها وضعت قوانين يحكم القضاة بها ويحلّون بها المشاكل والخصومات، فاذن لا حاجة إلى إرسال الرّسل وإتيانهم بالنّظام من الله تعالى، وإنّ هذه ديدنة كثير من مثقّفي عصرنا، وهذا ودسّيسة إستعماريّة أبعدت المسلمين بها عن دينهم وشريعتهم، فتزلزل كيانهم وأصبحوا كما ترى أذلّاء تحت نير الأجنبيّ الحقود، فنقول في جواب هذه الدّيدنة: إنّ القانون الوضعي لا يفي بحاجة الإنسان ولايحلّ مشاكله ولا ينظّم حياته مثل ما ينظّم نظام الله تعالى، ويتكفّل بحلّ مشاكل الإنسان ويعطيه السّعادة في الحياة وذلك لوجوه:

الوجه الأوّل: إنّ نظام الله تعالى ينظّم علاقة العبد بربّه ويعرّفه بخالقه ويبيّن له كيفيّة الإيمان به وكيفيّة القيام بحقوقه وأداء شعائره. ولكنّ القانون الوضعي غافل ومهمل لهذه النّاحية. فلاعلاقة له بتنظيم علاقة العبد بربّه، ولا يهمّه أن يكون المرء ملحداً أو كافراً أو مشركاً أو مؤمناً بالله، كما لايهمّه أن يؤدّي المرء شعائر الله تعالى أم لا، فالمرء في القانون الوضعي حرّ بالنّسبة إلى أن يؤمن بالله أو لا يؤمن به، وبالنّسبة إلى أن يؤدّي شعائره أو لا، وقد قيل قديماً:

يساق للسّجن من سبّ المليك ومن سبّ الإله فإنّ النّاس أحرار

ولا يخفى أنّ عدم الإيمان بالله تعالى من أعظم ما يفسد الإنسان ويسوقه إلى عدم الإتّزان في الحياة، وعدم الإعتدال في الأمور، لأنّ عديم الإيمان يجد فراغاً في قلبه وضميره ووعيه وتفكّره، فيحاول أن يسدّ هذا الفراغ بما يضرّ وما يفسد أكثر ممّا ينفع ويفيد.

الوجه الثّاني: أنّ شريعة الله تعالى تنظّم علاقة الإنسان بنفسه أيضاً، فيأمره بالأخلاق الحسنة وتربّيه على الأعمال الفاضلة، وتردعه عن الأخلاق السّيئة، وتنهاه عن الأعمال الرّذيلة، فبذلك تقوّم سلوكه وتحسن آدابه وتنظّم حياته على السّعادة والخير والعزّة والكرامة، قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكّاها﴾ سورة الشمس الاية/ ٩. ولكنّ القانون الوضعي لاعلاقه له بهذه النّاحية أيضاً؛ فلا يهمّه أن يكون الفرد سفيهاً أو سكّيراً أو مقامراً أو زانياً أو متكبّراً أو معجباً بنفسه إلى آخر الصّفات الرّذيلة الّتي يجب أن يتطهّر الإنسان منها، بل القانون الوضعيّ يجعل حبل الإنسان على غاربه من هذه النّاحية، فلا يقوّم سلوكه ولا يحسّن أخلاقه ولا يخفى أنّ أكثر الجرائم إنّما هي نتيجة تمادي النّاس في الشّهوات دون قيد أو شرط، وعدم تخلقهم بالأخلاق الحسنة، فبذلك يخسر و يخيب قال تعالى: ﴿وَقَد خَابَ مَنْ دَسّاها﴾ سورة الشمس الاية/ ١٠.

الوجه الثّالث: أنّ القانون الوضعي إنّما ينظّم علاقة الإنسان بغيره من الجانب السّلبي فيمنعه من الإضرار به والتّعدي عليه ورفع الخصام، ولكنّ الجانب الإيجابي من مواساته وإعانته والقيام بسدّ حاجاته وبذله ممّا لديه من القوّة والمال والجاه في سبيل إسعافه، فكلّ ذلك لاتجده في القانون الوضعي من الأمر به والحثّ عليه، ولكنّ الشّريعة الالهيّة تأمر بذلك كلّه وتحثّ العبد عليه وتربّيه على الشّعور بهذا الواجب الإجتماعيّ فيقول الرّسول (ﷺ): (خير النّاس من نفع النّاس)[١] وقال أيضاً: (ليس بالمؤمن الّذي يبيت شبعان وجاره جائع إلى جنبه)[٢] وقال أيضاً: (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)[٣] وفسّر نصرة الظّالم بمنعه من الظّلم[٤]، وقال تعالى: ﴿وتعاونوا على البرّ والتّقوى ولاتعاونوا على الأثم والعدوان واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب﴾ سورةالمائدة الآية/ ٣، إلى غير ذلك من الآيت والأحاديث الّتي تأمر الإنسان بالإحسان إلى أخيه الإنسان، وتوجب عليه إعانته بالمال والقوّة والجاه، هذا وإن فعل القانون شيئاً من ذلك فإنّما هو مقابل مصلحة أو منفعة أو....أو....أو.......الخ.

---

(١) لم أجده حديثا.

(٢) المستدرك على الصحيحين ٢/ ١٥ الحديث رقم ٢١٦٦.

(٣) سنن البيهقي الكبرى ٦/ ٩٤ الحديث رقم ١١٢٨٩.

(٤) في تكملة الحديث: (قيل يا رسول الله نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما قال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه)/ المصدر نفسه.

الوجه الرّابع: أنّ القانون الوضعي إنّما يضعه فرد من أفراد الإنسان أو جماعة من أفراد الأمّة، وأنّ الشّريعة يضعها الله سبحانه وتعالى. وأنّ الإنسان مهما بلغ من العلم والثّقافة فلا يبلغ علمه شيئاً من علم الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ٨٥، فالله تعالى هو الّذي خلق الإنسان وأوجده وهو الّذي يعلم ما يضرّه وما ينفعه وما يصلح له وما يفسد وما يحسن وما يقبح، فبعلمه هذا وضع الشّريعة والنّظام للانسان، فكيف يقارن علم الانسان النّاقص بعلم الله تعالى الكامل أو يفضّل عليه، إنّ هذا لضلال مبين، قال تعالى: ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللّطيف الخبير﴾ سورة الملك الآية/ ١٥. أي يعلم ما يفيد النّاس وما يضرّه وما يفسده الّذي خلقه وأوجده وهو اللّطيف الّذي يعلم دقائق الأمور، الخبير الّذي يطّلع على الظّواهر من الأمور وبواطنها. فلا يصل علم جميع الخلق إلى جزء ولو قليل جدّاً من علم الله تعالى بمصالح العباد، ولذا قال تعالى: ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ سورة الاسراء الآية/ ٨٨.

الوجه الخامس: إنّ الانسان مهما بلغ من العلم والمعرفه والثّقافة فلا يزال معرّضاً للغلط والخطأ والسّهو والنّسيان، فلا يخلو ما يضعه من القوانين من الأخطاء؛ ولذلك نرى القوانين الوضعيّة يعتريها التّعديل والتّقويم سنة بعد سنة أو في أقلّ من سنة أو أكثر منها، ولكنّ شريعة الله تعالى لا يعتريه أي خطأ فلا يعتريه التّعديل ولا التّقويم.

الوجه السادس: إنّ عقول النّاس مختلفة ومتباينة في النّظر والتّفكير، فحينما يرى بعض النّاس هذا الشيء حسناً مثلاً وهذا قبيحاً يرى بعضهم عكس ذلك، فلا يمكن أن يتّفق النّاس على وضع قانون يوحّد النّاس ويجعلهم أمّةً واحدةً، وأنّ غاية الانسان وهدفه الأعلى وهدف الشّرائع والمبادئ كلّها هو توحيد أبناء الإنسان وجمعهم تحت رايةٍ واحدةٍ لخدمة البشريّة و تعمير الأرض، وإنّ شريعة الله أقرب إلى جمع النّاس وجعلهم امةً واحدةً يتعاون بعضهم بعضاً في الخير وفي ما يفيد الانسانيّة جمعاء، وإلى هذا أشار تعالى في قوله: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ سورة النساء الآية/ ٨٢ ـ أي لو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

الوجه السّابع: إنّ كلّ إنسان ينتمي إلى قوم أو بلد وأنّه يعرف مصالح ذلك القوم وذلك البلد وما يضرّهم وما ينفعهم، ولا يطّلع على مصالح جميع البلاد الأخرى

والأقوام الآخرين؛ فلا يستطيع أن يضع نظاماً يفي بحلّ مشاكل كلّ البلاد وكلّ الأقوام، ولكنّ الله تعالى يطّلع على مصالح كلّ قوم وكلّ بلد، فشريعته تصلح لحلّ مشاكل كلّ إنسان وكلّ بلدة وكلّ قوم، فهو نظام كامل وشامل ومتكامل وعامّ للبشريّة كلّها. كما لا يخلو الإنسان عن عاطفة وميل وانحياز إلى قومه وبني جلدته أو إلى قوم آخر دون قوم، فلا يخلو قانونه الّذي يضع من الإنحياز والتّجافي عن الحقّ فيما يتعلّق بحقوق الأقوام والأمم، فلا يتكفّل قانونه بثّ العدل بين النّاس جميعاً، ولكنّ الله تعالى نسبته إلى كلّ النّاس سواء، وأنّه ربّهم وخالقهم فلا ينحاز إلى قوم دون قوم أو أمّةٍ دون أمّةٍ، وإنّما يحكم بالتساوي بينهم في الحقوق دون أن يرجح جانباً على آخر أو يعطي حق أمةٍ لأمةٍ وإنّما يأمرهم أن يعيشوا جميعاً كأمّةٍ واحدةٍ يتعاون بعضهم بعضاً في العمل والبناء، وأن يحسن بعضهم إلى بعض عند الحاجة والاقتضاء قال تعالى: ﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير) سورة الأحزاب الآية/ ١٣ ـ فبهذا تكون شريعة الله تعالى نزيهة وبعيدة كلّ البعد عن الإنحياز ومجانبة العدل، بخلاف قوانين البشر الّتي تفرق بين الأبيض والأسود وبين و .... و....... و، الى آخر ما نرى ونسمع ونعلم.

الوجه الثّامن: إنّ الشّريعة الإلهيّة تخلق في الإنسان رادعين يمتنع بهما المرء عن ارتكاب الجريمة: رادع الخوف من معاقبة السّلطة التّنفيذيّة في الدّنيا إن اطّلعت على جريمته، ورادع الخوف من عذاب الله تعالى يوم القيامة، ويعلم جيّداً بأنّه إن تخلّص من عقاب السّلطة التّنفذيّة في الدّنيا بواسطة قوّة أو إختفاء أو رشوة أو غير ذلك من الأسباب المعروفة والمتداولة بين النّاس للتّخلص من المعاقبة على الجريمة عند السّلطة، يعلم جيداً أنّه إن تخلّص من هذا فإنّه لايتخلّص من عقاب الله يوم القيامة؛ فإنّه يعلم أنّ كلّ شيء مسجّل عليه ويوم القيامة يحاسب عليه، ولا يغيب من ذلك شيء فيلقى عصارة ما اقترفه من الجريمة يوم القيامة دون أن يتخلّص منه دون شك وارتياب، فبذلك تقلّ الجرائم جدّاً، ولكنّ القانون الوضعي ليس فيه إلّا رادع الخوف من عقاب السّلطة والتّخلص من ذلك ممكن وسهل وبأسباب كثيره؛ ولذلك لا يمنع القانون الوضعي النّاس عن الجرائم إلّا نادراً. ولذلك كثرت الجرائم حينما ألبتعدت النّاس عن شريعة الله، وذلك واضح كلّ الوضوح.

الوجه التّاسع: إنّ الإنسان يندفع بنفسه إلى تطبيق شريعة الله تعالى وبدون تأثير

خارجي لأنّه يعتبر ذلك عبادة، ويأمل من وراء ذلك الثّواب من الله تعالى، ويخاف من العقاب عند عدم تطبيقه، ولا يوجد شيء من ذلك في القانون الوضعي كما لا يخفى، فتكون الشّريعة سبباً لقطع الجرائم أكثر وأكثر جدّاً من القانون الوضعي.

الوجه العاشر: إنّ البشريّة لا تخلو من التّنافس والحزازات بين الأقوام والأجناس، وأنّ الّذي يضع القانون العام لابدّ وأن ينتمي إلى قوم أو إلى أمّة، فمن ليس من قومه لا يروق لهم، بل يستنكف أن يخضع لقانون ودستور وضعه من هو من غير جنسه، ولكنّ الله تعالى نسبته إلى كلّ النّاس سواء، فلا يستنكف أحد من الخضوع لدستوره ونظامه كما هو واضح ومعروف.

هذا ما تيسّر لنا عرضه في هذا المقام والله الموفق وهو يهدي السّبيل.

* * *

﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤﴾

فيه ثلاثة أقوال:

الأوّل: أنّه خبر ثانٍ لـ (إنّ) فالتّقدير إنّك على صراط مستقيم.

الثّاني: إنّه حال من الضّمير المستتر في (لمن)، والتّقدير إنّك لحاصل من المرسلين حال كونك على صراط مستقيم.

الثّالث: وهذا عندي الأصحّ أنّ على متعلق بالمرسلين، فالتّقدير إنّك لمن المرسلين أي من الّذين أرسلوا على صراط مستقيم، وهو الإسلام وإنّ محمّداً (ﷺ) وجميع الأنبياء قبله أرسلوا على طريقة الإسلام ودين الإسلام، فإنّ الإسلام هو دين الله تعالى في الأزل إلى الأبد، وهو الصّراط المستقيم. قال تعالى: ﴿إنّ الدّين عند الله الإسلام، وما اختلف الّذين أوتوا الكتاب إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم، ومن يكفر بآيات الله فإنّ الله سريع الحساب﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٩. وقال تعالى: ﴿وماكان إبراهيم يهوديّاً ولا نصرانيّاً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ سورة آل عمران الآية/ ٦٧. وقال تعالى: ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ سورة آل عمران/ ٨٥. وقال تعالى: ﴿أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم

وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون﴾ سورة البقرة الآية/١٣٣. وقال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلّا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدّنيا وإنّه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمت لربّ العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيّ إنّ الله اصطفى لكم الدّين فلا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون *﴾ سورة البقرة الآيات/١٣٠-١٣٢. وقال تعالى: ﴿شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً والّذى أوحينا إليك، وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدّين ولا تتفرّقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾ سورة الشورى الآية/١٣.

فظهر من هذه الآيات الكريمة أنّ الإسلام هو دين الله في الأزل إلى الأبد، وأنّه هو دين جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى يوم القيامة، وأنّ الله تعالى لا يقبل غير هذا الدّين وأنّ هذا الدّين هو الدّين الأزلي الخالد، وأنّه لو استقام النّاس على هذا الدّين أولّ يوم لما احتاج النّاس إلّا إلى إرسال رسول واحد، ولكن لمّا تغيّر النّاس وغيّروا وحرّفوا الدّين أرسل الله تعالى رسولاً ليرجع بالنّاس إلى دينهم الصّحيح والعقيدة الحقّة، ولهذا كثر الأنبياء والمرسلون (عليهم السّلام) قال تعالى: ﴿كان النّاس أمّةً واحدةً﴾ أي ثمّ اختلفوا ﴿فبعث الله النّبيّين مبشّرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقّ ليحكم بين النّاس فيما اختلفوا فيه، وما اختلف فيه إلّا الّذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم، فهدى الله الّذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقّ بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ سورة البقرة الآية/ ٢١٣. فجاء الأنبياء والرّسل تترى إلى أن جاء محمّد (ﷺ) فختمت الرّسالة به، ووعد الله تعالى أن يحفظ دينه من التّحريف والتّبديل كما قال تعالى: ﴿إنّا نحن نزّلنا الذّكر وإنّا له لحافظون﴾ ـ سورة الحجرالآية/٩، وإنّما يأتي بعد محمّد (ﷺ) المجدّدون من أمّته فيزيلون ما لصق بهذا الدّين من انحرافات وخرافات، وينشرون حقيقة دينه وأصالته كما قال (ﷺ): (إنّ الله يبعث على رأس كلّ مئة سنة من يجدّد لها دينها)[1] وقال (ﷺ): (لا تزال طائفة من أمّتي ظاهرين على الحقّ حتّى يأتي أمر الله)[2].

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤/٥٦٧ الحديث رقم ٨٥٩٢.

(٢) صحيح مسلم ٣/ ١٥٢٣ الحديث رقم ١٩٢٠.

تنبيه: حينما نقول إن الإسلام هو دين الله الخالد، وهو الّذي أمر به الأنبياء والمرسلين جميعاً، فإنّما نريد بذلك عقائده وأصوله وأحكامه الأساسيّه، وأمّا بعض فروعه فقد يأتي عليه التّغيّر والنّسخ والتّبديل، قال تعالى حكاية عن سيّدنا عيسى (ﷺ): ﴿ومصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة ولأحلّ لكم بعض الّذي حرّم عليكم وجئتكم بآية من ربّكم فاتّقوا الله وأطيعون﴾ سورة آل عمران/ ٥٠. فالأصول والقواعد والعقائد وأسس الأديان الصّحيحة غير المحرّفة متّحدة كما قال تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾ سورة آل عمران/ ٦٤. فاتّضح ممّا حرّرنا أنّ الإسلام هو دين الله الخالد، وهو الصّراط المستقيم الّذي سلكه الأنبياء وأرسلوا عليه، وأرسل محمّد (ﷺ) على هذا الصّراط المستقيم الّذي لاعوج فيه ولا انحراف عن الحقيقة الّتي تستسيغها العقول السّليمة والقلوب الطيّبة، وهو صراط الله تعالى الّذي أمر النّاس أن يسلكوه، وبالحياة عليه واتّباعه ونشره وتطبيقه، وإنّ كلّ مبدأ وعقيدة ودستور ونظام غير الإسلام فهو طريق الشّيطان يجب على المسلم اجتنابه والابتعاد عنه قال ابن مسعود (رضي الله عنه): خطّ لنا رسول الله (ﷺ) خطّاً وقال هذا سبيل الله، ثمّ خطّ خطوطاً عن يمينه وعن يساره وقال هذه سبل، على كلّ سبيل شيطان يدعو إليه، ثمّ قرأ (ﷺ): قوله تعالى: ﴿وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتّقون﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٥٣. وسمّى الله تعالى الإسلام بأنّه صراط مستقيم لأنّه كما أنّ الصّراط المستقيم لا يضلّ سالكه ويصل إلى المنزل، فكذلك الإسلام من سلكه لا يضلّ ويصل إلى الحقّ وإلى رضائه وإلى الجنّة، ومن سلك غيره ضلّ إلى جهنّم وبئس المصير. وأنّ الإسلام باستقامته هذه ينفذ في القلوب والعقول، فإنّ من درس الإسلام كما هو لا يجد نفسه إلّا مسلماً له ومؤمناً به ويعتنقه. هذا والحقّ يقال أنّه ما شوّه الإسلام إلّا عرضه على غير حقيقته وفهمه على غير أصالته وأخذه ممّن ساء فهمه له، وإساءة المسلمين في تطبيقه وعدم العمل به، وانحرافهم عن مقاصده وقواعده وعن أحكامه وأخلاقه وأعماله الأصيلة، يقال: إنّ أحد فلاسفة الغرب في أمريكا درس الأديان كلّها فلم يعجبه إلّا الإسلام فأسلم، ثمّ أراد أن يرى الإسلام في بلاد المسلمين ويعيش معهم، فسافر إلى بلدة من بلادهم، فلمّا وصل البلدة ورأى أهلها رجع فوراً وقال: إنّي اقتنعت بالإسلام بعد دراستي له وفهمه إياه، ولو درست الإسلام من هؤلاء المسلمين لما أسلمت قطّ فهؤلاء ليسوا مسلمين.

فهكذا أصبح الإسلام وهكذا أصبح المسلمون. هذا وإنّ المسلمين الأوّلين كانوا يجلبون النّاس إلى الإسلام بأعمالهم الطيّبة وأخلاقهم الحسنة، وبصدقهم وأمانتهم ووفائهم[١] وإلى غير ذلك من صفات الإسلام الفاضلة، ولكنّ اليوم أصبح النّاس يبتعدون عن الإسلام بسبب أعمال المسلمين السّيئة وأخلاقهم الرّذيلة ومعاملاتهم القبيحة، فلا حول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم.

* * *

﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

قرىء **(تنزيل)** بالنّصب كما هو قراءة حفص، فيكون مصدراً ومفعولاً مطلقاً لفعل محذوف يدلّ عليه السّياق، تقديره نزّل هذا القرآن تنزيل العزيز الرّحيم. أو يكون مفعولاً به لفعل محذوف، ويكون مصدراً بمعنى المفعول فيكون أعني بالقرآن منزّل العزيز الرّحيم. وقرىء بالرّفع أيضاً فيكون مصدراً بمعنى المفعول أيضاً وخبراً لمبتدأ محذوف تقديره هو أي القرآن منزّل العزيز الرّحيم. وقرىء بالجرّ على أنّه صفة القرآن المارّ ذكره، فالمعنى والقرآن الموصوف بأنّه منزّل العزيز الرّحيم، فيكون مصدراً بمعنى المفعول أيضاً، هكذا قال المفسرون، وعلى كلّ تقدير من هذه التّقادير يكون المبحوث عنه بقوله تنزيل العزيز الرّحيم عند هؤلاء المفسّرين هو القرآن الكريم المارّ ذكره في قوله: (والقرآن الحكيم)، ولكنّي أقول: الأحسن على كلّ التّقادير المارّ ذكرها أن يكون المبحوث عنه هو الصّراط المستقيم، المذكور في قوله: (على صراط مستقيم) لأنّه هو الأقرب. فانّ المراد بالصّراط المستقيم المنهج والشّريعة والنّظام، فيكون المعنى إنّك لمن المرسلين الّذين أرسلوا على منهج مستقيم وشريعة مستقيمة لا عوج فيها ولا نقص ولاخلل. وإنّ هذا المنهج نزل من عند الله العزيز الرّحيم، ويكون ذلك برهاناً على استقامة ذلك المنهج، فكأنّه تعالى يقول: إنّ هذا هو الصّراط المستقيم، لأنّه نزل من عند الله العزيز الرّحيم، فكيف لا يكون مستقيما وصحيحاً وعدلاً وحقّاً لا يشوبه الخلل والنّقصان، وهو من عند أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأصدق الصّادقين، وبهذا

(١) فقد انتشر الإسلام في جنوب شرق آسيا كأندنوسيا وماليزيا عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يذهبون للتجارة إلى هناك، فأثروا بحسن خلقهم في أولئك الأقوام وحملوهم على الإسلام بأخلاقهم...

التّفسير يشمل ماثبت بالسّنة من الأمور الدّينيّة كما يشمل ماثبت بالكتاب، وإنّي بعد ماحرّرت هذا الكلام رأيت ابن كثير ذهب هذا المذهب وقال مثل ماقلت، فشكرت الله تعالى على ذلك، هذا. وفي قوله العزيز الرّحيم وعد ووعيد؛ لأنّه ذكر قبله أنّ هذا المنهج والنّظام جاء من عند الله تعالى، وكلّ نظام يقتضي الإحسان إلى من يمتثله ويطبّقه، والعقاب لمن يتهاون به ويهمله. فقال العزيز أي الغالب الّذي لا يعجزه شيء عن عقاب من انحرف عن هذا الصّراط المستقيم، فينتقم منهم الرّحيم بالّذين يمتثلون ويعملون به فيثيبهم وينعم عليهم، ثمّ بيّن الله تعالى أنّه لماذا أرسل محمّداً على هذا الصّراط وأنزل عليه هذا المنهج المستقيم فقال مخاطباً له: **(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون)** أي لتخوّف قوماً عن سوء عاقبة ما هم عليه من الشّرك والجهالة، ولترشدهم إلى التّوحيد ودين الله تعالى وأحكامه (ما أنذر آباؤهم) إن كانت ما نافية فالمعنى لتنذر قوماً لم ينذر آباؤهم من قبل ماجئت ولم يرشدوا، فحينئذٍ يكون الفاء في (فهم غافلون) للتّفريع والسّببية أي فبسبب عدم إنذار آبائهم وعدم أرشادهم وكونهم على فترة فبسبب ذلك كلّه هم غافلون عن توحيد الله والتزام دينه وشريعته، وعلى هذا التّقدير أنّ أهل الفترة غير معذّبين حيث قال تعالى: ﴿وماكنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الاية/ ١٥. وإن كانت ما مصدرية يكون التّقدير لتنذر قوماً إنذاراً مثل إنذار آبائهم على لسان إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) وحينئذٍ يكون الفاء للتّعليل، فالمعنى لتنذرهم إنذاراً مثل إنذار آبائهم لأنّهم غافلون عن هذا الإنذار، وعلى هذا التّقدير إن كانت غفلتهم ناشئة عن الجهل بالإنذار لقدم العهد ومرور الزّمان وعدم المذكّرين والمرشدين فلا يعذّبون أيضاً، لأنّهم معذورون، وإنّما يكون المعذّب منهم الطّبقة الّتي تسبّبوا في التّبديل والانحراف والغفلة. وإن كانت غفلتهم ناشئه عن اتّباع الهوى مع العلم بالحقّ فيعذّبون. ومن هنا نقول: إنّ معنى قول الرّسولﷺ للسائل أين أبي (إنّ أبي وأباك في النّار)[1] المراد بأبيه عبدالله على التّقدير الأخير، وإلّا فالمراد أحد آبائه الّذين تسبّبوا في التّبديل والتّحريف. وهذا هو الأصحّ، والله تعالى أعلم.

والخلاف بين المحدّثين والفقهاء في حقّ آباء الرّسول (ﷺ) في أنّهم ناجون أم لا؟

(١) صحيح مسلم ١/ ١٩١ الحديث رقم ٢٠٣. ونصه: (عن أنس أن رجلا قال يا رسول الله أين أبي قال في النار فلما قفى دعاه فقال إن أبي وأباك في النار)

موجود فالفقهاء قالوا بنجاتهم والمحدثّون قالوا بعذابهم، وذكرت هذا النّبذة للتّنبيه على وجود هذا الخلاف، ولأقول أنّه لاداعي إلى هذا الخلاف حيث لايتعلّق بهذا الموضوع غرض في الدّين، فالأولى تفويض أمرهم إلى الله تعالى وترك المناقشة فيه وهنا ينشأ سؤالان:

السّؤال الأوّل: قوله تعالى: (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم.....الاية) المراد بالقوم قوم الرّسول (ﷺ) وهم أهل مكّة أو العرب كلّهم، فكيف يقال أنّه بعث للأمم كلّهم. قلنا ليس المراد بـ (قوماً) قوم الرّسول فقط بل المراد كلّ الأقوام؛ لأنّ قوماً نكرة فتفيد العموم، فإن قيل: النّكرة لا تفيد العموم إلّا إذا وقعت في سياق النّفي، وهنا لا يوجد نفي بل هو إثبات، قلنا: إنّ النّكرة في سياق الإثبات تفيد العموم أيضاً بدلالة قوله تعالى: ﴿علمت نفس ما أحضرت﴾ سورة التكوير الآية/ ١٤. أي علمت كلّ نفس ما أحضرته، وقوله تعالى: ﴿علمت نفسٌ ما قَدَّمَتْ وأخرت﴾ سورة الانفطار الآية/ ٥، أي علمت كلّ نفس ما قدّمت من عمل وأخرته.

ومثل هذه الأمثلة في القرآن كثيرة. فتدبّر لتطّلع على الحقّ سيّما وأنّ هنا توجد قرينة تصرف القوم إلى العموم، وهي قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين﴾ سورة الأنبياء الآية/ ١٠٧. وقوله تعالى ﴿وما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس بشيراً ونذيراً ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ سورة سبأ الآية/ ٢٨.

السّؤال الثّاني: إنّه قال تعالى: (لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم) فلا يشمل إنذاره أهل الكتاب لأنّهم أنذر آباؤهم، قلنا: إنّ هذا السؤال لا يتوجّه على تقدير كون ما مصدريّة؛ لأنّ المعنى لتنذر كلّ الأقوام إنذاراً مثل ما أنذر آباؤهم. وأمّا اذا كانت ما نافية فلا يمكن حمل (آباؤهم) على جميع الطّبقات، لأنّ كلّ الطّبقات يرجعون إلى ذريّة نوح وقومه وهم أنذروا. بل يجب حمل الطّبقات على الآباء الأقربين الّذين فقدوا التّوحيد الصّحيح وتغيّر دينهم وتبدّل. فأهل الكتاب الموجودون في حين بعثته أيضاً كانوا لم ينذر آباؤهم الأقربون بالدّين الصّحيح والتّوحيد الخالص، ثمّ إنّ علّة الإنذار هو أنّهم غافلون عن الدّين الصّحيح والتّوحيد الخالص، فيشملهم الإنذار كما يشمل غيرهم.

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

بعدما أمر الله تعالى الرّسول (ﷺ) بالإنذار وتبليغ ما أمره الله تعالى بتبليغه، ودعا

النّاس إلى الإيمان بالله ونبذ الكفر والإشراك بالله، ودعاهم إلى اعتناق الإسلام دين الله الخالد، فقابله النّاس بالتّكذيب والاستعلاء والعتوّ والضّلال، فشقّ عليه كفرهم وضلالهم، فكان يحزن بذلك كثيراً، لأنّه كان يحبّ هداية النّاس ويعزّ عليه ضلالهم، كما قال تعالى في وصفه: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ سورة التوبة الآية/ ١٢٨، فكان حرصه هذا وكراهته لضلال النّاس يحمل قلبه الشّريف حزناً وهمّاً، فأراد الله تعالى أن يخفّف عنه بعض هذا الهمّ؛ فقال تعالى: **(لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون)** أي لقد ثبت القول على أكثرهم واستحقّوا العذاب فهم لا يؤمنون فلا تحزن عليهم، هذا والقول الّذي حقّ عليهم هو قوله تعالى: ﴿ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها﴾ سورة السجدة الاية/ ١٣٢، أي لو شئنا هدينا كلّ نفس جبراً إلّا أنّ الجبر ليس من عادتنا، ومن لم يرد الهداية لم نهده جبراً، وبذلك الاختيار وعدم مشيئة بعضهم الهداية، حينما قال الشّيطان لله تعالى: ﴿قال فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين﴾ سورة ص الآية/ ٨٢-٨٣. فقال تعالى: ﴿فالحقّ والحقّ أقول لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك أجمعين﴾ سورة ص الآية/ ٨٤-٨٥. وقال تعالى: ﴿وتمّت كلمة ربّك لأملأنّ جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين﴾ سورة هود الآية/ ١١٩، وإنّ هذا القول أي هذا القرار وهذا الحكم صدر من الله تعالى بسبب اتّباع النّاس للشّيطان، كما صرّح بذلك في سورة (ص)، وحيث إنّ أكثر النّاس يتّبعون الشّيطان حقّ هذا القول عليهم. فالفاء في (فهم لا يؤمنون) للتّعليل بالمعنى ثبت عليهم القول بالعذاب لأنّهم لايؤمنون، لا للسّببية، ليكون المعنى حيث حقّ عليهم إرادة الله بعذابهم لا يؤمنون، لأنّ عدم الإيمان وتبعيّة الشّيطان سبب لهذا القول، وليس هذا القول سبباً لعدم إيمانهم، ليلزم من ذلك جبر الله تعالى النّاس على الكفر، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً. فحاصل المعنى يامحمّد لا تحزن بسبب عدم إيمانهم، فإنّي أخبرك بأنّ أكثرهم لايؤمنون، وبسبب ذلك حقّت كلمة العذاب عليهم، فلا تحزن ولا تذهب نفسك حسراتٍ عليهم، وإنّ واجبك هو الإنذار فقط، وليس عليك هدايتهم فإنّها عائدة إلى اختيارهم، فإذا اختاروها خلقها الله تعالى لهم، وإلّا فلا. وبذلك أطمأنّ قلب الرّسول واستقرّ وبدأ ينذر قومه ولا يحزنه كفر من كفر بل (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ولكلّ من هؤلاء مصيره ونتيجته وعاقبته والله على كلّ شيء قدير .

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾

شبّه الله تعالى حال هؤلاء الكافرين في عدم رؤية طريق الحقّ وسلوكه بحال الإبل الّتي جعل في عنقها غلّ ووصل الغلّ من كثرته أو كبره إلى الذّقن؛ فأصبح رأسها مرفوعاً إلى السّماء وعينها إلى الأعلى؛ فلا ترى أمامها من الطّريق ولا تهتدي إليه، ونسب الجعل إلى ذاته تعالى وذلك لأنّ الله تعالى جعل من عادته أن يخلق المسبّبات بعد الأسباب، فمن دخل البحر دون علم السّبح خلق الله تعالى له الإختناق، ومن دخل النّار خلق له الإحتراق، ومن ضرب نفسه بطلقة خلق له الموت، وأنّ هذه الحالة من الإقحام حصلت لهم بسبب استكبارهم وعتوّهم وعنادهم وتقاليدهم الموروثة، فسبب كلّ ذلك ضلالهم، وأنّ خلق الله تعالى لهم الضّلال مثل ضلال الإبل المغلولة الّتي لا تهتدي إلى الطّريق، وكذلك القول في قوله جلّ وعلا:

﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾

أي أنّ أعمالهم الخبيثة ونيّاتهم السّيئة وكبرياؤهم وعتوّهم وحرصهم على تقاليدهم الباطلة وحسدهم لهذا الدين تسبّب لأن جعلنا حالهم كحال الّذي وقع في مستنقع، وجعل أمامه سدّ وخلفه سدّ؛ فلا يستطيع الخروج من هذا المستنقع بسبب هذين السّدين، وأنّ السّدين حجبا عنهما رؤية ما وراءها **(فأغشيناهم)** أي فجعلنا على أبصارهم حجاباً عن رؤية ما وراء السّدين فهم لا يبصرون، فهؤلاء وقعوا في الكفر بسبب ما ذكر من صفاتهم، وأصبح حالهم كحال من أمامه سدّ وخلفه سدّ، وحجب عنهم الحقّ والإيمان فلا يبصرونه ولا يدركونه أبداً.

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

(وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون) أي ولكون حالهم كما ذكر استوى في حقّهم الإنذار وعدمه في عدم الفائدة، حيث هم لايؤمنون مهما أخلصت وأكثرت من إنذارهم وتخويفهم ونصحهم وإرشادهم **(إنّما تنذر من اتّبع الذّكر)** أي إنّما يفيد إنذارك وينتفع به من أحبّ الحقّ وسعى له، وأحبّ الموعظة فاستمع إليها، وأراد الهداية ليهتدي والرّشاد ليسترشد **(وخشي الرّحمن بالغيب)** أي وخاف من الله تعالى في داخل قلبه، فأراد أن يعرف دينه وأحكامه ليعمل ويعيش على وفق دينه وحسب مقتضى

شريعته، هذا وإنّما فسّرنا نفي الإنذار بنفي فائدته لأنّ نفي الإنذار غير صحيح، لأنّ الرسول (ﷺ) كان عليه أن ينذر الكلّ ودون أن يعلم من ينتفع به ومن لا ينتفع، وكان لا يعلم ذلك إلّا بعد الإنذار، وحينما يرى من يقبل الإنذار ومن لا يقبله، ففائدة الإنذار هي أن يتميّز الخبيث من الطّيب والضّال من المهتدي، فحاصل معنى الآيات الكريمة أنّ الله تعالى يقول للرّسول (ﷺ) أنّه يجب عليك الإنذار، وليس معنى الإنذار أن يؤمن كلّ من أنذرته، بل فمنهم من يؤمن ومنهم من لايؤمن أبداً، ففائدة الإنذار هي أن يتميّز الضّال من المهتدي والشقيّ من السّعيد، وليس عليك إلّا الإنذار فقط، وأمّا هداية النّاس فلست مسؤولاً عنها، بل إنّما ذلك موكول إلى اختيارهم وخلق الله لهم ذلك. هذا وإنّ الّذين يحبّون الإنذار **(فبشره بمغفرةٍ)** كثيرةٍ من الله تعالى **(وأجر كريم)** أي ثواب جزيل وذي مقدار كثير. هذا وإنّ هذا الأمر يشمل كلّ مسلم ومسلمة وكلّ واعظ وناصح وداعية، أي أنّه يجب عليهم الدّعوة إلى الله تعالى وإلى اتّباع شريعته، وليس لهم أن يثبّطهم عن الدّعوة عدم استجابة النّاس للدّعوة وعدم الاتّعاظ بالوعظ والإرشاد، فإنّ ذلك لا يكون عذراً في تركهم الدّعوة. بل إنّ هذا من نتيجة دسائس الشّيطان، فإنّ كثيراً من المسلمين حتّى ومن العلماء يتركون الدّعوة بحجّة أنّهم لايجدون الاستجابة من النّاس، وقد غفل هؤلاء أنّ من واجبهم الدّعوة استجاب النّاس لها أم لا؟ وقد نبّه الله تعالى على ذلك بقوله جلّ وعلا: ﴿واذ قالت أمّة لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٦٤، أي نعظهم لنعتذر بذلك إلى الله تعالى ونقول: ياربّنا قد أدّينا واجبنا ووعظنا وما علينا إلّا ذلك. على أنّ المواعظ لا تخلو عن الفائدة بل (ولعلّهم يتّقون) أي ويرتجى وينتظر من الوعظ أن يتّقي النّاس، فإن لم يكن كلّهم فبعضهم قال تعالى: ﴿فذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين﴾ فعلى الدّعاة الدّعوة والإرشاد، ويجب أن لا يمنعهم من ذلك عدم استجابة النّاس. فإنّ واجبهم الدّعوة لا استجابة النّاس لها، فبالدعوة يخرجون هم من التّبعة والمسؤوليّة أمام الله تعالى، وتبقى التّبعة على المدعوّين والّذين لايستجيبون لها.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾

بعد ما أمر الله تعالى ورسوله أن يبشّر الّذين يتّبعون الذّكر والإنذار والموعظة بمغفرة وأجر كريم، فكأنّ قائلاً يقول فمتى هذه المغفرة وهذا الأجر الكريم، فقال

تعالى: (**إنّا نحن نحيي الموتى**) أي وفي ذلك اليوم تكون هذه المغفرة وهذا الأجر (**ونكتب**) أي ونكتب في الدّنيا (**ماقدّموا**) من الأعمال القبيحة أو الحسنة الوقتيّة والّتي تفعل وتنتهي (**وآثارهم**) وكذلك نكتب الأعمال الّتي تبقى كأثر بعدهم، سواء كانت من الصّالحات كصدقات جارية خلفوها أوسنّة حسنة أحيوها ونشروها، أو بدعة أماتوها، أو كانت من الأعمال السّيئة مثل سنّة سيّئة نشروها أو بدعة أذاعوها أو ضلالة روّجوها، ولا يضيع ولا ينسى كلّ ذلك حيث (**وكلّ شيء أحصيناه**) أي كلّ شيء من أعمال العباد من خيرها وشرّها حسنها وقبيحها (**أحصيناه**) بمعنى عددناه وأنهينا تعداده وسجلناه (**في إمام**) أي في كتاب (**مبين**) واضح ظاهر يقرؤه كلّ من ينظر إليه، وسمّى ذلك الكتاب إماماً لأنّ الإمام من يُتّبع ويُقتدى به، وأنّ ذلك الكتاب يتّبع ويقتدى به، حيث على وفقه يثاب المطيعون ويعاقب المنحرفون، فتكون هذه الآية وعداً للمؤمنين بالثّواب ووعيداً للكافرين والعصاة بالعذاب والعقاب، والفرق بين العدّ والإحصاء أنّ الإحصاء هو إنهاء العدّ وبلوغه إلى النّهاية وحينما لا يبقى شيء إلّا وعدّ وحسب، بخلاف العدّ فإنّه لا يستلزم الإنتهاء.

سؤال: إنّ الله يعلم كلّ شيء، ولا يخفى عليه من أعمال العباد شيء صغيرها وكبيرها قليلها أو كثيرها حسنها وقبيحها، فلماذا هذا الإحصاء ولماذا هذا الكتاب ؟

الجواب: يريد الله تعالى بذلك أن يظهر للنّاس عدله، وأنّه لا يظلم أحداً، ولأن يعترف المجرمون بأنّهم يستحقّون هذا العقاب، ولهذه العلّة نفسها يجمع الله تعالى النّبيّين والشّهداء على أعمال العباد كما قال تعالى: ﴿وجيء بالنّبيين والشّهداء وقضيَ بينهم بالحقّ وهم لا يظلمون﴾ سورةالزمرالآية/ ٦٩، ولا يكتفي الله تعالى بذلك، بل سيُنطق أعضاء العبد فتشهد أعضاؤه عليه بما فعل بها كما يأتي ذلك في هذه السّورة قوله تعالى: ﴿اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون﴾، هذا وقبل أن نبدأ بتفسير المجموعة الآتية من الآيات الكريمة نذكر القصّة الّتي تدور هذه الآيات حولها ونذكّر النّاس بها ليعتبروا بها.

* * *

القصة: جاء رسولان من الله تعالى إلى قرية من القرى في الزّمان الغابر. فقام الرّسولان بدعوة النّاس إلى عبادة الله تعالى واتّباع شريعته ونبذ ما هم عليه من عبادة الأصنام، فكذّبهما أهل القرية ولم يؤمنوا بهما ولم يستجيبوا لما جاءا به من دين الله

تعالى وشريعته، وأصبحوا يستهزئون بهما وبدينهما، فعزّزهما الله تعالى برسول ثالث فقالوا لأهل القرية: (إنّا إليكم مرسلون). فأنكر أهل القرية أن يكون رسل الله تعالى من البشر، وقالوا ما أنتم إلّا بشر مثلنا فلا رسالة لكم، ولم لا يأتي الرّسول من الملائكة. وأنّ الله تعالى ما أنزل عليكم من شيء إن أنتم إلّا تكذبون في دعواكم الرّسالة، قالت الرّسل لهم: أنّ الله تعالى يعلم إنّا إليكم لمرسلون وما علينا إلّا أن نبلّغكم بلاغاً واضحاً، وقد فعلنا ذلك، فنحن أدّينا واجبنا وخرجنا من المسؤوليّة وبقي العتب والمسؤوليّة عليكم أنتم فقط، قال لهم أهل القرية: إنّا قد أصابنا الشّؤم بسبب دعوتكم هذه حيث منع منّا المطر، ولئن لم تتركوا هذه الدّعوة لنقتلنّكم برمي الحجارة عليكم وليمسّنّكم منّاعذاب مؤلم جدّاً، قالت الرّسل: إنّ شؤمكم من عندكم لعدم إيمانكم وعدم قبولكم هذه الدّعوة، فما أصابكم هو سبب كفركم وتكذيبكم لنا، أإن وُعظتم ودُعيتم إلى الحقّ تتشاءمون منّا وتهدّدوننا بالقتل؟ إنّ هذا لشيء منكر وعجيب، حيث كان من واجبكم أن تلبّوا دعوتنا وتؤمنوا بما جئنا به من عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام والآلهة الباطلة الّتي لا تنفع ولا تضرّ. ثمّ في خضم هذا النّقاش جاء رجل من الطّرف الأبعد من المدينة ويمشي سريعاً، وكان من الّذين يثق به القوم فقال لهم: ياقوم اتّبعوا هؤلاء المرسلين، إتّبعوا الّذين لا يطلبون وراء دعوتهم أجراً ولا مالاً ولا منصباً؛ وذلك علامة صدق لكلّ داعية في دعوته، وإنّ هؤلاء عرفوا الحقّ ووصلوا إليه وهم مهتدون، وأيّ حجّة لي ولكم حينما نترك عبادة الله وشريعته، وأنّه الّذي خلقني وخلقكم وإليه ترجعون أنتم وأنا، فينتقم منّا على أن تركنا دينه وعبادته وسلكنا غير سبيله وعبدنا غيره، وذلك دون حجّة وبرهان، أأتخذ وأعبد من دون الله تعالى آلهةً لا تنفع ولا تضرّ شيئاً، وأنّه إن أرادني الله تعالى بضرّ وأصابني ببلاء لا تفيد شفاعتهم شيئاً ولا تدفع عنّي أي بلاء وضرر، فإنّي إذا اتّخذتهم وعبدتهم وهم بهذه الصّفة من الضّعف وعدم النّفع والضّرّ فإنّي لفي ضلال مبين وجهالة واضحة في هذه العبادة واتّخاذ هذه الآلهة. ثمّ توجّه الرّجل إلى المرسلين وقال لهم: إنّي آمنت بربّكم الّذي تدعون إليه فاسمعوني أنتم أيّها الرّسل وأيّها الملأ المحشود في هذا المكان. فبعدما أعلن الرّجل إيمانه هجم عليه النّاس فقتلوه، فلمّا قتل قيل له من قبل الله تعالى: ادخل الجنّة بسبب جهادك هذا واستشهادك في سبيل الدّعوة إلى الله. فلمّا دخل الجنّة قال: ياليت قومي يعلمون بما حقّني الله تعالى من نعمته، وبما أكرمت به من عند الله تعالى من النّعيم الدّائم والحياة السّعيدة الخالدة، يا ليتهم يعلمون ذلك ليؤمنوا فيفوزوا بما فزت به من

الثّواب الجزيل والنّعيم الّذي لا يفنى ولا يزول، وبعد أن قام القوم بهذه الجريمة من قتل هذا الرّجل الدّاعي إلى الله تعالى ولم يرسل الله تعالى عليهم جنداً من ملائكة السّماء ليهلكهم، وما كان تعالى بحاجة إلى ذلك بل إنّما أرسل عليهم صاعقةً فماتوا كلّهم وأصبحوا خامدين ومن هنا تنتهي هذه القصّة.

* * *

تنبيه مهم: ماهي هذه القرية ومن هم الرّسل؟ ذكر أكثر المفسّرين أنّ القرية هي أنطاكيه، وأنّ الرّسل كانوا رسل عيسى (عليه السلام)، وقد مشى ابن كثير على هذا القول أوّل الأمر ثمّ كرّ راجعاً وفنّد هذا الرّأي عند تفسيره في قوله تعالى ﴿إن كانت إلّا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾ وإليك نصّ عبارته مع بعض التّغيير للتّوضيح فقط فقال: وقد تقدّم عن كثير من السّلف أنّ هذه القرية هي انطاكية وأنّ الثّلاثه كانوا رسل عيسى (عليه السلام) كما نصّ عليه قتاده وغيره ولكن في ذلك نظر من وجوه:

الوجه الأوّل: أنّ ظاهر القصّة يدلّ على أنّ هؤلاء كانوا رسل الله تعالى لا رسل عيسى (عليه السلام) لأنّ الله تعالى قال: ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما فعزّزنا بثالث﴾ ولم يقل: إذ أرسل عيسى أو إذ أرسل إليهم، ثمّ إنّهم قالوا حينما كذبوهم: ﴿ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون﴾ ولم يقولوا عيسى يعلم ....الخ.

الوجه الثاني: إنّ الرّسل لو كانوا رسل عيسى لقالوا عبارة تناسب وتشير إلى أنّهم من عند المسيح (عليه السلام).

الوجه الثّالث: إنّهم لو كانوا رسل المسيح لما قال القوم لهم ﴿إن أنتم إلّا بشر مثلنا﴾ لأنّهم كانوا يستبعدون أن يكون البشر رسلا من الله ولا يستبعدون أن يكون البشر من عند بشر.

الوجه الرّابع: إنّ أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح (عليه السلام) وكانت أوّل مدينة آمنت بالمسيح على آخر أهلها، ولهذا كانت إحدى المدائن الأربع الّتي فيهن بطارقه وهنّ القدس وأنطاكية والأسكندريّة والقسطنطينيّة، فإذا تقرّر أنّ أنطاكية أوّل بلدة آمنت فكيف يلائم ما ورد في قوله تعالى: أنّهم كذّبوا وأنّهم أهلكوا بصيحة واحدة.

الوجه الخامس: إنّ قصّة مجيء رسل المسيح إلى أنطاكية كانت بعد نزول التّوراة.

وقد ذكر أبو سعيد الخدري وغير واحد من السّلف (ﷺ) أنّ الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التّوراة لم يهلك أمّةً من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم، بل أمر المؤمنين بعد ذلك بقتال المشركين، وذكروا ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للنّاس وهدىً ورحمةً لعلّهم يتذكّرون﴾ سورة القصص الآية/ ٤٣. فعلى هذا يتعيّن أنّ هذه القرية قرية أخرى غير أنطاكية، أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصّة مدينة أخرى غير هذه الموجودة المشهورة، فإنّ هذه لم يعرف أنّها أهلكت لا في الملّة النّصرانيّه ولا قبل ذلك. أمّا الحديث الّذي رواه الحافظ أبو القاسم الطّبراني حدثنا الحسين بن إسحاق التّسترى حدثنا الحسين بن أبي السّرى العسقلاني حدثنا حسين الأشقر حدثنا ابن عيينه عن أبى نجيح عن مجاهد عن أبن عبّاس (ﷺ) عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: (السّبق ثلاثة: فالسّابق إلى موسى (ﷺ) يوشع بن نون، والسّابق إلى عيسى (ﷺ) صاحب(يس) والسّابق إلى محمّد (ﷺ) علي ابن أبي طالب) فهذا الحديث منكر لا يعرف إلّا من طريق حسين بن أشقر وهو متروك. والله تعلى أعلم. انتهى مافي ابن كثير مع بعض تغيير لعباراته للتّوضيح والإختصار، هذا وإنّ الحقّ هو ماقاله ابن كثير (ﷺ) لما ذكر من الأدلّة ولأنّ كلّ قريةٍ ذكرت في القرآن أنّها أهلكت لم تعمّر بعد أبدا، قال تعالى: ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنّهم لا يرجعون.﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٩٥. هذا. ولنأت إلى تفسير الآيات الكريمة بإذن الله تعالى.

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

(واضرب لهم مثلاً) أي واذكر لهم يا محمّد على سبيل المثال حال (أصحاب القرية) وهم أهل قرية أهلكت قبل (إذ جاءها المرسلون) أي حالهم الّذي تلبّسوا بها وقت ماجاءهم المرسلون أذكر لقومك يا محمّد حال هؤلاء، فإنّ حال قومك يشبه حالهم في الإنكار والتّمرد على رسول الله والبقاء على الضّلال، اذكر لهم ليعتبروا ويتّعظوا وليخافوا من أن يصيبهم ما أصاب أصحاب هذه القرية.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(إذ ارسلنا اليهم إثنين) أي اذكر حالهم وقت أن أرسلنا إليهم رسولين من عندنا ليدعوهم إلى عبادة الله تعالى ونبذ ما هم عليه من عبادة الاصنام **(فكذبوهما)** فقابلوا

الرسولين بالتكذيب ولم يؤمنوا بهما كرسولين من عند الله تعالى ولم يستجيبوا لما يدعوان إليه من الإيمان بالله وحده وأنه لاشريك له **(فعززنا بثالث)**]أي فقوينا الرسولين برسول ثالث أرسلناه إليهم فإن قول الثلاثة أدعى إلى القبول وأقوى في الحجة والبرهان **(فقالوا إناإليكم مرسلون)** أي فقال الرسل الثلاثة للقوم إنا إليكم مرسلون من الله ندعوكم إليه وإلى عبادته والتمسك بشريعته وأحكامه.

﴿قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾

(قالوا ما أنتم إلّا بشر مثلنا) قالوا إنّكم لستم إلّا بشراً مثلنا وأنا نعتقد أنّ البشر لا يصلح للرّسالة **(وما أنزل الرّحمن من شيء)** أي وما أنزل عليكم من شيء لتبلّغونا به، فلم لم يأت الملائكة من عند الله تعالى بهذه الرّسالة، وزعموا أنّ الرّسول لا بدّ و أن يكون ملائكة وأن البشر لا يصلح للرّسالة، أو قالوا ذلك تعنّتاً ثمّ قالوا **(إن أنتم إلّا تكذبون)** أي لستم أنتم على حال إلّا حال الكذب والأفتراء على الله في دعواكم الرّسالة من عنده.

﴿قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾

(قالوا) أي قال لهم الرّسل **(ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون وما علينا إلّا البلاغ المبين)** وقد بلّغناكم وأدّينا ما علينا من البلاغ ولم يبق العتب إلّا عليكم.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾﴾

(قالوا إنّا تطيّرنا بكم) أي قال القوم للرّسل إنّا تشاءمنا منكم وأصابنا الضرّ من شؤمكم حيث منع منّا المطر **(لئن لم تنتهوا)** من هذه الدّعوة **(لنرجمنّكم)** أي نقسم بمقدّساتنا لئن لم تتركوا هذه الدّعوة لنقتلنّكم بأن نرمي الحجارة عليكم حتّى تموتوا **(وليمسّنّكم منّا عذاب أليم)** أي ليصيبنّكم منّا عذاب موجع.

﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

(قالوا طائركم معكم) أي قال الرّسل للقوم إنّ شؤمكم معكم وما أصابكم فبسبب كفركم وشرككم **(أإن ذكّرتم)** أي أإن وعظناكم ودعوناكم إلى الحقّ تهدّدوننا بالقتل وتتشاءمون منّا، هذا ليس من الحقّ **(بل أنتم قوم مسرفون)** أي لكنّكم قوم تجاوزتم

الحدّ في الطّغيان والبغي، ولذلك تهدّدون من يدعوكم إلى الحقّ بالقتل والعذاب.

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾﴾

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) أي وأتى من الطّرف الأبعد من البلدة نفسها رجل يمشي سريعاً، فتوجّه إلى القوم ونصحهم **(قال ياقوم اتّبعوا المرسلين)** أي اقتدوا بهديهم وامشوا على طريقتهم.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

أي اتّبعوا الّذين لا يطلبون منكم مقابل دعوتهم مالاً ولا يريدون منكم ثمناً، فإنّه من علامات الدّعوة الصّادقة أنّ أصحابها لا يرجون من ورائها منفعة دنيويّة ولا فائدة ماليّة، فمن كان كذلك فدعوتهم حقّ **(وهم مهتدون)** أي هم وصلوا الحقّ وسلكوا سبيله ثمّ قال لهم **(وما لى لا أعبد الّذي فطرني)** أي وأيّ سبب ودليل لي ولكم حينما لا أعبد ولا تعبدون الّذي خلقني وخلقكم **(وإليه ترجعون)** أنتم وأنا، فيعاقبنا على ترك عبادته وعدم اتّباع شريعته، وترك العمل بها، ثمّ استفهم استفهام تعجّب من حال الّذين يتركون عبادة الله تعالى ويعبدون غيره من الأصنام والأوثان وغيرها، فقال تعالى: **(أأتّخذ من دونه آلهةً)** أي أأعبد من دون الله تعالى آلهةً واتّخذهم واعتقدهم أنّهم آلهة وهم لا ينفعون ولايضرّون، بل **(إن يردن الرّحمن)** أي إن يردن ويصبن **(بضرٍ)** ببلاءٍ أو مصيبةً **(لا تغن عني)** أي لا تدفع عني **(شفاعتهم شيئاً)** من ذلك البلاء وتلك المصيبة **(ولا ينقذون)** أي ولا ينقذونني ولا ينجونني من ذلك البلاء **(إنّي إذاً)** أي إنّي إذا عبدت تلك الآلهة وهم بهذا الحال من الضعف وعدم الفائدة **(لفي ضلال مبين)** أي لفي ضلال ظاهر وواضح، فإنّ العبادة يجب أن تكون لمن ينفع ويضرّ ويقتدر على دفع الشرّ وجلب الخير لعابديه، ثمّ توجّه الرّجل إلى الرّسل والقوم، وأعلن إيمانه وقال: **(إنّي آمنت بربّكم فأسمعون)** أي فاسمعوني أيّها الرّسل وأيّها القوم المجموع والملأ المحشود، وهكذا يجب على المسلم أن يعلن إسلامه وإيمانه، وأن لا يخاف في ذلك لومة لائم،

ولا يخرج المرء عن النّفاق إلّا بالجهر بالإسلام والتّبرّي عن الكفر من جميع جوانبه، وعدم المسايرة مع أهله مهما كانت الظّروف والحالات.

هذا ثمّ بعد أن آمن الرّجل هجم النّاس عليه فقتلوه، فجازاه الله تعالى على هذا الإستشهاد وهذه التّضحية بإدخاله الجنّة فورا، كما قال جلّ وعلا:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

(قيل ادخل الجنّة) أي قيل له من قبل الله بعد ما استشهد **(ادخل الجنّة)** أي فوراً، ولمّا عرج بروحه إلى خالقه تمنّى الرّجل وقال: **(ياليت قومي يعلمون)** أي يا ناس ليت قومي يعلمون بهذه المغفرة الّتي حفّني الله تعالى بها **(وجعلني من المكرمين)** وبهذا الاكرام الّذي أكرمني به الله، وذلك ليؤمنوا فيفوزوا بما فزت وينجوا ممّا يستحقّونه من العذاب الأليم. وهكذا يجب أن يكون المسلم وأن يحبّ الخير حتّى لأعدائه، ويتمنّى النّعمة لقاتليه، ولهذا كان الرّسولﷺ يقول: (اللّهم اهد قومي فإنّهم لا يعلمون)[١] كما ويجب أن يضحّي المسلم مثل الرّجل في سبيل الجهر بالحقّ والدّعوة إلى الله.

وبسبب قتلهم لهذا الرّجل غضب الله تعالى عليهم وأهلكهم ولم يكن الله تعالى بحاجة إلى إرسال جيش من الملائكة لأهلاكهم، كما قال جلّ وعلا:

﴿۞وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾

(وما أنزلنا على قومه) أي وما أرسلنا إلى قومه **(من بعده)** من بعد إستشهاده **(من جندٍ من السّماء)** بجيش من الملائكة من السّماء لإهلاكهم **(وما كنّا منزلين)** أي وما كنّا بحاجة إلى إرسال ذلك الجيش، بل أرسل الله تعالى عليهم صاعقةً واحدةً فماتوا كلّهم وأصبحوا خامدين لا أنفاس لهم، كما تخمد النّار، كما قال جلّ وعلا:

﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾

(إن كانت إلّا صيحةً واحدةً) أي لم تكن المصيبة الّتي أهلكتهم إلّا صاعقةً واحدةً

---

(١) الأحاديث المختارة ١٠/ ١٤.

أصابتهم **(فاذا هم)** كلّهم **(خامدون)** ميّتون لا أنفاس لهم، فخمدوا كما تخمد النّار بتقدير الملك الجبّار، وهكذا يفعل الله تعالى بكلّ جبارٍ عنيدٍ، ولكلّ أمّةٍ أجل ولكلّ أجل كتاب، أو يقال في معناه صاح عليهم ملك فإذا هم خامدون، وكلا المعنيين جائز.

(تنبيهات)

التّنبيه الأوّل: يفيد قوله تعالى: (إتّبعوا من لا يسألكم أجراً) أنّ من علامة صدق الدّاعي في دعوته أنّه لا يطلب من جرّاء دعوته أجراً، ولا يجمع في طلبها مالاً، ولا يرجو من ورائها جاهاً ولا سلطانا، وأنّ هذه صفة الصّادقين في الدّعوة والإرشاد، وقد كان كلّ المرسلين يعلنون للنّاس أنّهم لا يريدون من تبليغهم وإرشادهم أجراً ولا منفعةً من النّاس قائلين: ﴿وما أسالكم عليه من أجر إن أجري إلّا على ربّ العالمين﴾ سورة الشعراء الآية/ ١٠٩. وهذا رسولنا (ﷺ) يأتي وفد من قريش إلى عمّه أبي طالب ويقولون: إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وشتم آباءنا وسفّه أحلامنا، فافصل بيننا وبينه، فإن كان يريد مالاً جمعنا له حتّى يكون أثرى النّاس فينا، وإن أراد سلطاناً ملّكناه علينا، وإن أراد النّساء زوّجناه أحسن بناتنا، وإن كان به مرض جمعنا له أطبّاء يعالجونه. فعرض ذلك أبو طالب على رسول الله (ﷺ)، فقال يا عمّاه والله لو وضعوا الشّمس في يميني والقمر في يساري لما تركت هذا الأمر أو أهلك دونه. ونراه حينما شكّل الدّولة الإسلاميّة وأمره الله سبحانه وتعالى بجمع الزّكاة والصّدقات حرّم الصّدقات والزّكاة على نفسه وأقربائه لكيلا ينتفع هو ولا أقرباؤه من هذه الدّعوة لئلا يلتصق بالدّعوة التّهمة، ولتبقى الدّعوة لله دون أجر وانتفاع منها، وكان رزقه ومعيشته كفافاً، ولم يدّخر يوما من الأيام درهماً ولا ديناراً، وكان من عادته (ﷺ) إذا صام لا يفطر حتّى يعلم أنّه لا يوجد في بيته درهم ولا دينار إلّا وقد صرفه على المحتاجين، وفي يوم من الأيام كان صائماً، فحينما حان وقت الإفطار وسأل: هل في البيت دينار أو درهم؟ قالوا: يوجد ديناران فأخّر الأفطار ولم يفطر إلى أن أخبروه بأنّه جاء فقيران وصرف لهما الدّيناران فأفطر بعد ذلك، فعاش كذلك مدّة حياته، وتوفّي ودرعه كان مرهوناً في مقابل دين، وأنّه لو أراد المال لجمعه إلى أن يصير أغنى النّاس، فإنّه في حين أنّه كان نبيّاً كان رئيس دولة، وما أسهل لرئيس الدّولة أن يجمع ويدّخر الأموال إن أراد ذلك. هكذا كان الرّسول (ﷺ)، وقد نهج الخلفاء الرّاشدون والعلماء العاملون هذا المنهج، فلم يجمع أحدهم مالاً ولم يدّخروا ديناراً ولادرهماً بسبب دعوتهم وعلمهم، بل عاشوا كفافاً وماتوا خفافاً. هذا وإنّ

من علامة الدّعاة الغير الصّادقين في دعوتهم أنّهم يتّخذون الدّعوة والإرشاد إلى الدّين وسيلة لجمع حطام الدّنيا، وأنّهم يأكلون الدّنيا بالدّين، ويعيشون في أترف حياة، ويجمعون أموالاً طائلةً ويدّخرونها؛ كلّ ذلك بسبب ما يسمّى بالإرشاد والسّلوك والتّسليك، وقد أوعد الرّسول (ﷺ) هؤلاء بأشدّ العذاب ووصفهم بالّذين يأكلون الدّنيا بالدّين.

التّنبيه الثّاني: يفيد قوله تعالى: (وهم مهتدون) أنّه من شرط الدّاعية أن يكون مهتدياً أي عالماً بشريعة الله تعالى، وعارفاً بأحكامه مطلعاً على كتاب الله وسنّة رسوله، ومطبّقاً لذلك على نفسه ومن تحت أمره وإرشاده، ولا يجوز للجاهل أن يقوم بالإرشاد ولا يجوز لأحد أن يتّبعه، فإن لم يعرف الطّريق لنفسه كيف يدلّ غيره عليه، أو كيف يقود الأعمى البصير أو الأعمى، بل واشترط كبار مشايخ الطّرق أن يكون المرشد بالغاً درجة الإجتهاد في العلم وإلّا فلا يصلح للإرشاد وتربية المريدين، فلا يجوز اتّباعه والتّمسك به وقد ذكر الرّسول (ﷺ) إحدى علامات السّاعة فقال: (يتّخذ النّاس رؤساء جهّالاً يستفتونهم فيفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون)[1] ولقد صدق رسول الله ﷺ فإنّ ما اجتمع النّاس عليهم من المرشدين في هذا اليوم أكثرهم الجهلة بالدّين أصحاب البدع والأهواء عشّاق الدّنيا والجامعين لحطامها[2].

---

(١) صحيح ابن حبان ١٥/ ١١٨ الحدجيث رقم٦٧٢٣.

(٢) يقصد من يسمون أنفسهم بشيوخ التصوف أو الطريقة، والحقيقة أن مشيخة التصوف حالة باطلة وادعاء غير شرعي. لأن التصوف بمعنى التدين أي الإتصاف العملي بالدين شرعي لكل أحد أن يمارسه بل يجب على المسلمين أن يتصفوا بالدين عمليا وسلوكيا وهو ليس خاصا بأحد دون غيره، لأن الإسلام ليس حكرا على أحد. أما التشيخ بمعنى أن ينصب شخص نفسه على الناس شيخا يدّعي أنه يتميّز عنهم بصفات دينيّة يستلزم تقديره أو تقديسه وتقبيل يديه و رجليه والتّمسح به وطلب الدّعاء منه، كما يدّعي أنّه يوصل النّاس إلى الله تعالى. ويتوجّه إلى قلوبهم فيغيرها بتأثير مغناطيسي أو ليزري إلى التّقوى والإيمان، ويشفع لهم يوم القيامة ويجيب عن مريديه الملكين جواب القبر بعدما يموت و يوضع في القبر إلى غير ذلك من الأكاذيب والإفتراءات على الدّين والّتي ما أنزل الله بها من سلطان، وكل ذلك باطل ومخالف لنصوص الكتاب الكريم والسّنة الصّحيحة، فضلا عن أنّ التّشيخ فيها ادّعاء تزكية للنفس وهو مخالف لقوله تعالى (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى). النجم. ٣٢. وقوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٤٩) انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا). النور. ٤٩ و٥٠.. بل في الإسلام علماء يعلّمون النّاس أمور دينهم دون ادعاء وتزكية، ويجب عليهم أن يلتزموا بما=

التّنبيه الثّالث: يفيد قوله تعالى: (ومالي لا أعبد الّذي فطرني وإليه ترجعون) أنّ العبادة يجب أن تكون للّذي خلقك ووهب لك الحياة في الدّنيا، وأن يكون الرّجوع إليه يوم القيامة للحساب وهو الله تعالى وحده، فلا تجوز عبادة غيره تعالى، ومن عبد غيره فقد أشرك بالله وإن كان مؤمناً بالله، أو ملحداً إن كان لا يؤمن به.

التّنبيه الرّابع: في معنى العبادة: ورد لفظ العبادة في القرآن الكريم وفي أحاديث رسول اللهﷺ، وهي مشاعة على ألسن النّاس، وإنّ كلّ مسلم يعترف بأنّه لا يجوز العبادة لغير الله تعالى، وإنّ من عبد غيره فهو مشرك، إلّا أنّ أكثر النّاس لا يعلمون معنى العبادة وما حقيقتها؛ فلذلك يجب أن نشرح هنا معنى العبادة، فنقول: إنّ العبادة وردت في القرآن الكريم لمعنيين:

الأوّل: هو أنّ تسجد لشيء أو شخص، أو تصلّى له أو تذبح له النّذور والقرابين، أو أن تعتقد فيه أنّه ينفع أو يضرّ بالسّلطة الغيبيّة، وفي خارج دائرة الأسباب والمسبّبات، وهذا المعنى مفهوم من قوله تعالى حكاية عن سيّدنا ابراهيم (عليه السلام): (إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ سورة مريم الآية/ ٤٢، لا يرفع عنك ضرراً ولا يجلب لك نفعاً، فإنّ والد ابراهيم كان يسجد ويذبح للأصنام ويعتقد فيهم أنّهم ينفعونه ويضرّونه ومن قوله تعالى: ﴿قل) أي يا محمّد (إنّي لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً﴾ سورة الجن الآية/ ٢١. أي فإنّ النّفع والضرّ كلّه بيد الله تعالى وحده، ولا يستطيع ذلك أحد خارج دائرة الأسباب مطلقاً، ولا في دائرة الأسباب إلّا بإذن الله وإرادته وخلقه لذلك. والأسباب قد تكون ماديّة وهي معلومة، وتكون روحيّة وهي الدّعوات والتّضرع إلى الله تعالى والطّلب منه أن ينفع فلاناً أو يضرّه.

الثّاني: هو الإطاعة: فالإطاعة والإمتثال يجب أن تكون لله وحده، ولا يجوز أن يطع أحد غيره، وهذا المعنى مفهوم من قوله تعالى: ﴿أرأيت من اتّخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾ سورة الفرقان الاية/ ٤٣. أي أرأيت من جعل هواه إلهاً له فعبده ولا شكّ أنّه لا يسجد أحد لهواه، بل إنّما يطيعه ويعمل حسبما يريد منه هواه، فالعبادة هنا

يعلمون ويكونوا أمناء على هذا الدّين قدر طاقتهم ليكونوا موضع ثقة النّاس واطمئنانهم لأنّ العلماء ورثة الأنبياء...وهم شيوخ العلم والعمل لا من يسمون أنفسهم بشيوخ التّصوف والطّريقة، لأنّ الأخيرين إن كانوا علماء عاملين فبهم ونعم وينبغي أن يكونوا شيوخ علم خالين من الإدعاءات الباطلة، وإن كانوا غير ذلك فلا حاجة للأمّة بهم لأنهم يضرّون ولا ينفعون ويفسدون ولا يصلحون.

بمعنى الإطاعة، وكذلك يفهم هذا المعنى من قوله تعالى في هذه السّورة ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدوّ مبين) فإنّ النّهي هنا عن إطاعة الشّيطان، فإنّه لا يوجد أحد يسجد أو يصلّي أو يذبح له، بل إنّما يطيعه فيما يوسوس، فالعبادة بكلا المعنيين يجب أن تكون لله تعالى وحده، فمن عبد غير الله تعالى بأحد المعنيين فهو مشرك بالله، إن عرف الله وإلّا فملحد، ويأتي زيادة توضيح لذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم....الخ﴾ في هذه السّورة وإن شاء الله تعالى.

* * *

﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يخبر الله تعالى عن حال العباد بأنّه ممّا يجب أن يتحسّر عليه كلّ إنسان، وأن يحزن عليه كلّ ذي بصيرة؛ لأنّ حالهم هو أنّهم ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزئون بدل أن يؤمنوا به ويعزّروه ويوقّروه وينصروه، فهذا الحال بحقّ ممّا يُتحسّر عليه، فلهذا قال تعالى: **(يا حسرة على العباد)** أي ياحسرة شديدة تعالى للنّاس وليتحسّروا على العباد فإنّهم **(ما يأتيهم من رسول)** بإستمرار الزّمان **(إلّا كانوا به يستهزئون)** بدل أن يؤمنوا به ويتّبعوه.

لطي ـ فة: كان سياق العبارة أن يقول تعالى: (ما يأتيهم من رسول إلّا يكونون به يستهزئون) إلّا أنّه عدل عن هذا السّياق وقال (ما يأتيهم) إشارة إلى أنّ مجيء الرّسل مستمرّ مع امتداد الزّمان إلى حال مجيء الرّسول (ﷺ)، ثمّ حوّله على الماضي بقوله: (إلّا كانوا به يستهزئون) لئلا يتوهّم أنّه يأتي بعد الرّسول (ﷺ) رسل آخرون، ولم يقل: ما أتاهم من رسول إلّا كانوا به ....الخ ليخبر أنّ الحسرة شاملة لأمّة محمّد أيضاً، وأنّها ليست على الأمم الماضية فقط، فإنّهم أيضاً استهزؤوا بمحمّد هذا النّبيّ العظيم، بل إنّ ذكر القصّة والإعلان عن الحسرة عليهم إنّما جيئ به ليتّعظ به أمّة الرّسول (ﷺ)، ولأنّ يخافوا فيؤمنوا لأن ينجوا من الحال الّذي يتحسّر عليهم منه.

فيا حسرة علينا أيّها الأمّة، إذ تركنا تعاليم محمّد واستهزأنا به، فقد أصبح الإسلام

عند أكثر أهل العصر رجعيّةً وخرافةً، وأصبحت عقيدة الكفر والرّجوع إلى الحالة البهيميّة تقدّماً وتمدّناً ورقيّاً، فيا حسرة علينا ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العظيم.

* * *

ثمّ ألفت الله تعالى أنظار هذه الأمّة إلى ما جرى على الأمم السّابقة من الهلاك نتيجة لتمرّدهم على رسلهم وتكذيبهم إيّاهم؛ ليعتبروا بهم فيؤمنوا بالنّبيّ (ﷺ) قبل أن يصيبهم ما أصابهم من العذاب في الدّنيا قبل عذاب الآخرة، فقال مستفهماً استفهام الإنكار والتّوبيخ **(ألم يروا كم)** أي لم يتفكّروا ويتذكّروا في أحوال الأمم السّابقة **(أهلكنا)** ألم يعلموا أنّنا أهلكنا كثيراً قبلهم **(من القرون)** من أهل القرون السّابقة **(أنهم اليهم لا يرجعون)** وأنّهم لا يرجعون إليهم في الدّنيا، ولكنّهم سيرجعون يوم القيامة للحشر والحساب كما قال تعالى: **(وإن كلّ لما جميع لدينا محضرون)** أي وأن كلّهم يجمعون ويحضرون لدينا يوم القيامة للمحاكمة والمحاسبة على ما عملوا، وذكر ذلك وعيداً للكافرين بالعقاب، ووعداً للمؤمنين بالثّواب، ولئلّا يتوهّم الشّقيّ أن من أهلك فقد نجا واستراح، وليعلم أنّ وراء هذه الحياة حياةً أخرى يحاسب فيها المرء ويجزى على وفق ما عمل في الدّنيا، ويعاقب الكافر على كفره والفاسق على فسقه، وبهذا يستدلّ ويقول الشّاعر:

ولو أنّا إذا متنا تركنا ... لكان الموت راحة كلّ حيّ

ولكنّا إذا متنا بعثنا ... ونسأل بعد ذا عن كلّ شيء

تنبيه: في هذه الآية الكريمة قراءتان:

الأولى: تشديد اللّام في **(لّما)** فعلى هذه القراءة تكون **(أن)** نافية وبمعنى ليس، ولمّا حرف إستثناء بمعنى إلّا، فالتّقدير ليس كلّهم إلّا جمعيهم لدينا محضرون يوم الحساب.

الثّاني: تخفيف اللّام في (لمّا) فعلى هذه أن مخفّفة من الثّقيلة، واسمها ضمير الشّأن المقدّر، وكلّ مبتدأ، وما في لمّا زائدة واللّام فيها للتّأكيد، وجميع خبر لكلّ، ولدينا متعلّق بمحضرون مقدّم عليه، أو بجميع ومحضرون خبر ثان لكلّ، وهذه الجملة كلّها خبر لضمير الشّأن المقدّر، فالمعنى أنّ الشّأن أنّ كلّهم مجموعون لدينا ومحضرون. ومآل القراءتين واحد من حيث المعنى والمفاد.

* * *

خاتمة: إنّ الله تعالى يذكر قصص بعض الأوّلين وما جرى عليهم في القرآن الكريم، وذلك لأمور:

الأوّل: ليكون تسلية للرّسول **(قبلهم من القرون)** وإعلاماً له بأنّ الرّسل والأنبياء السّابقين لاقوا من أممهم مثل ما يلاقي هو من أمّته من التّكذيب والاستهزاء إلّا أنّهم صبروا، فكانت العاقبة والنّصر لهم، فليصبر هو أيضاً كما صبروا، فإنّ النّصر له في العاقبة حتماً.

الثّاني: ليكون وعداً للمؤمنين بالنّصر والغلبة، وبأنّ عاقبتهم لسعيدة جدّاً، وأنّ الدّائرة سوف تدور على أعدائهم الكافرين.

الثّالث: ليكون وعيداً للكافرين بأنّه سيصيبهم العذاب والتّنكيل مثلما جرى على من قبلهم من الأمم نتيجة لتكذيبهم الرّسل وعدم الإيمان بهم.

الرّابع: ليعتبر النّاس من الأجيال المتتابعة بمن سبقهم، ولكي لا يعدلوا عن دين الله تعالى ومنهجه مخافة أن ينزل بهم ما نزل بمن سبقهم من العذاب والتّنكيل، كما صرّح تعالى بهذه الفائدة بعد كثير من القصص منها: قوله تعالى بعد أن ذكر أنّ الله تعالى عاقب فرعون وأهله فقال: ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ قال: (إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى) - سورة النازعات الآية/ ٢٥،٢٦ - أي لعبرة لمن يخشى عقاب الله مدى الدّهور والأعصار إلى أن ينقضي الأعصار والدّهور.

الخامس: لأن يكون معجزةً لرسول الله (قبلهم من القرون) فإنّ محمّدا الّذي كان أميّاً ونشأ في أمّة أميّة لا علم لهم بالأمم السّابقة ولا بالكتب السّماوية الّتي تخبر عن أحوال هذه الأمم، يأتي محمّد هذا وبعد أربعين سنة من عمره يخبر عمّا جرى على الأمم وأحوالهم وأحوال المرسلين إليهم، وبدقائق من الأمور الّتي خفيت على أصحاب الإختصاصات من الأحبار والرّهبان، فلا شكّ في أنّ ذلك يدلّ على أنّ الرّسول (قبلهم من القرون) لم يطّلع ولم يصل إلى هذا العلم وهذه المعلومات الدّقيقة إلّا بوحي من الله تعالى، فبذلك تكون معجزة دالّة على رسالة محمّد (قبلهم من القرون).

* * *

تمهيد:

اعلم أنّ الآيات السّابقة من أوّل السّورة إلى هنا كانت تدور كلّها حول أحوال الرّسل والرّسالة. وتخويف الّذين لايتّبعون الرّسل ولا يؤمنون بهم، ولا يطبّقون الشّريعة الّتي جاؤوا بها. هذا ولا يخفى أنّه ممّا يحمل النّاس على تكذيب الرّسل وعدم الإيمان بهم هو أنّ الرّسل يأتون بأمور خارجة عن الحسّ والمشاهدة، مثل وجود الله تعالى وقدرته القاهرة، وأنّه لاشريك له ومثل الإخبار عن مجيء يوم القيامة والإحياء بعد الموت. وأنّ هذه الأمور كلّها لا يدركها الإنسان إلّا بالتّفكير فيها والاستدلال عليها بنظر العقل الّذي يوصل بالمرء إلى التّصديق والإيمان بها، فلذلك أراد الله تعالى أن ينبّه الإنسان على بعض الدّلائل الّتي تدلّ على وجود الله تعالى وعلى قدرته القاهرة، وعلى أنّه لا شريك له وعلى إمكان الحياة بعد الموت وعلى أنّ يوم القيامة يأتي لامحال، وقد أتى الله تعالى بهذه الدّلائل ممّا يحيط بالإنسان وما يعيش الإنسان معه، ولم يأت بأمور غريبة بعيدة عن حياة الإنسان وفهمه، فإنّه أتى بهذه الدّلائل من البرّ والبحر والسّماء فبدأ الله تعالى بذكر الدّلائل من البرّ لأنّه أقرب إلى الإنسان وألصق به، فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

(وآية لهم) أي أنّه لدليل واضح وبرهان ساطع على وجودنا وقدرتنا، وأنّه لا شريك لنا وعلى قدرتنا على الإحياء للأموات وعلى أنّ يوم القيامة يأتي هذه **(الأرض)** الّتي تموت وتجفّ وتتيبّس في الصّيف والشّتاء، ثمّ إذا جاءها الرّبيع أو السّقى بالماء **(أحييناها)** أي حرّكت قواها الإنباتيّة فأنبتت وأخرجنا منها **(حبّاً)** أي الحبوب كلّها لأنّ حبّاً جنس أريد به الأفراد فيشمل كلّ الحبوب **(فمنه)** أي فمن تلك الحبوب **(يأكلون)** ويتقوّتون به. ثمّ بعدما ألفت الله تعالى نظر الإنسان إلى النّباتات بدأ بإلفات نظره إلى الأشجار فقال جلّ وعلا: **(وجعلنا فيها جنّات)** أي وخلقنا في الأرض بساتين كثيرة **(من نخيل وأعناب)** وغيرهما من الأشجار والثّمار إلّا أنّه خصّص النّخيل والأعناب بالذّكر

لأنّهما أهمّ حيث أنّهما ممّا يؤكل تفكّهاً وتقوّتاً بخلاف باقي الثّمار، فإنّها إنّما تؤكل تفكّهاً، ولأنّه من العادة أنّ أكثر البساتين تغرس من الأعناب والنّخيل، ثمّ تغرس باقي الأشجار فيها تبعاً لها **(وفجّرنا فيها)** أي وأخرجنا في الأرض **(من العيون)** عيوناً جاريةً يشرب منها النّاس ويسقي منها زرعه وأشجاره ومواشيه **(ليأكلوا من ثمره)** أي وخلقنا كلّ ذلك ليأكل النّاس من ثمر ما ذكر من البساتين والأشجار **(وما عملته)** أي وما عملت هذه الأثمار والحبوب أيدي النّاس وقدرتهم، بل إنّما هي من خلق الله تعالى وإيجاده، فإنّه ليس في وسع العبد أن يخلق شيئاً من الثّمر والحبوب، بل إنّما يسعه أن يزرع الزّرع ويغرس الأشجار، وأمّا خلق الثّمر منها فبمجرّد خلق الله تعالى، فكم من سنة لا تثمر الأشجار شيئاً، وكم من سنة لا تنتج الزّرع حبوباً **(أفلا يشكرون)** أي بعد أن رأوا ما خلق الله تعالى لهم من هذه النّباتات والحبوب، وهذه الأشجار والثّمار، وهذه العيون والأنهار، وبعد علمهم بهذه النّعم كلّها لا يشكرون الخالق الّذي خلق لهم هذه النّعم فيؤمنوا به ولايشركوا به أحداً، ويتّبعوا كتابه ويحكموا بشريعته، والاستفهام هنا للإنكار والتّعجب من حال هذا الإنسان الغافل والكفور لنعم الله تعالى **(سبحان الّذي خلق الأزواج كلّها)** أي تنزّه الله تعالى الّذي خلق هذه الأصناف والأنواع والذّكر والأنثى من كلّها ومن كلّ الموجودات **(ممّا تنبت الأرض)** من النّباتات والأشجار **(ومن أنفسهم)** من أبناء آدم ونوح ونوع الإنسان **(وممّا لا يعلمون)** من مخلوقات الله تعالى من الحيوانات والحشرات والجنّ وممّا في البحر والبرّ من الجبال والوديان والمعادن عن الشّريك، وإنّ هذه الأشياء لدليل واضح على وجود الله تعالى وقدرته، وعلى أنّه لا شريك له، فإنّ الله الّذي يستطيع ويقدر على خلق هذه الأشياء وهذا الكون العظيم والبديع لا يحتاج إلى شريك، فإنّ الشّريك إنّما يتّخذه من يكون عاجزاً عن ما يريد من العمل، فتنزّه الله تعالى الّذي خلق الخلق عن شريك أو معاون ومساعد ونصير، فإنّه على كلّ شيء قدير، وكيفيّة الاستدلال بالأرض وما فيها على ما ذكرنا، هي أنّ الإنسان حينما يتفكّر في هذه الأرض الميتة، وإنّها لا تنبت شيئاً، ثمّ بعد ذلك ينزل عليها المطر أو تسقى فتصبح رطبةً حيّةً، وتنبت هذه النّباتات الكثيرة الّتي لا تعدّ ولا تحصى، وإنّها إلى الآن لم يصل علماء النّبات إلى عدّها وإحصائها والعلم بجميع فوائدها ومنافعها، وإلى هذه الأنواع من الحبوب الّتي تخرج من تلك النّباتات، وحينما يتفكّر في هذه الأشجار الكثيرة في الأنواع والأفراد وفي أثمارها الكثيرة المختلفة في اللّون والطّعم والفائدة، وحينما يتفكّر في هذه العيون الّتي تخرج من هذه الأرض مع اختلاف في

طعم مياهها وبرودتها وصفائها، وحينما يتفكّر في أنّ هذه المخلوقات لا صنع للإنسان فيها يعلم جيّداً أنّ هذا النّظام البديع والصّنع العجيب لا يمكن أن يأتي إلى الوجود بنفسه، وأنّ الطّبيعة الصّماء لا قدرة لها على ذلك، بل ولا بد أن يكون هناك من قادر مختار وعليم حكيم صنع هذا الصّنع العجيب، ووضع هذا النّظام البديع وهو الله تعالى، فيعترف ويؤمن بالله خالقاً وصانعاً لهذا الكون، ثمّ يتفكّر بأنّ من له هذه القدرة القاهرة الّتي خلق بها هذا النّظام وأوجد بها هذا الكون، لا يحتاج إلى شريك لأنّ الشّريك إنّما يكون لمن عجز عن عمله ولمن يكون قاصراً عن الخلق، وبذلك يؤمن بأنّ الله تعالى لا يحتاج إلى الشّريك فلا شريك له، ثمّ يتفكّر الإنسان ويرى أنّ هذه الأرض الميتة اليابسة قد أحييت وأصبحت رطبةً بهيجةً، وأنّ هذه النّباتات نبتت من البذرة الّتي جافت وخاست وبليت تحت الأرض، ومن هذه البذرة تخرج النّباتات فيخرج منها الحبوب، ثمّ يسقط الحبّ مرّة أخرى، فيجفّ ويبلى في جوف الأرض، ثمّ تخرج النّباتات منه تارة أخرى وهكذا دواليك، وحينما تفكّر في هذه العيون الّتي فجّرت وأخرجت من هذه الأرض الصّلبة والجامدة، وأنّ هذه الأشجار نبتت من نواة سقطت وبليت في الأرض. فحينما تفكّر الإنسان في هذه الأشياء كلّها وعلم أنّ هذا كلّه إعادة بعد الفناء وإحياء بعد الموت، فلا شكّ أنّه يؤمن بسبب هذا التّفكير، وإنّ إحياء الميت ممكن، ألا يرى أنّ الحبّ مات، ثمّ صار منه النّبات وأصبح حيّاً وأنّ النّواة ميتةً، وخرج منها الشّجر وصار حيّاً، وأنّ الأرض كانت ميتةً فأصبحت حيّةً وأنبت هذه النّباتات وهذه الأشجار، فإحياء الإنسان إذاً من بذرته تحت الأرض بعد الموت ممكن لامحال.

ثمّ يتفكّر الإنسان ويعلم أنّ الله تعالى خلق الأرض وما فيها من النّباتات والحبوب ومن الأشجار والثّمار والعيون والأنهار كلّ ذلك ليعيش الإنسان ويأكل منه وينتفع به، فمن خلق للإنسان هذا النّظام التّكويني لا يعقل أن يترك الإنسان ويهمله، ولا يضع له نظاماً تكليفيّاً وتشريعاً ودستوراً يعمل به لحلّ مشاكله ورفع خصومات أفراده وتنظيم معاملاته وتحسين أعماله وأخلاقه، فيؤمن بهذا التّفكير بنظام الله تعالى وشريعته، ويعلم أنّ كلّ نظام يقتضي بثواب المطيع له وعقاب العاصي والمنحرف عنه، وحيث إنّ هذا لا يوجد كليّاً في الدّنيا لأنّ كثيراً من الصّالحين يموتون دون ثواب في الدّنيا، وكثيراً من الطّغاة يموتون دون عقاب. فلو ذهب الإثنان سواءً فلا يتحقّق عدالة الله تعالى، فلا بدّ من أن يأتي يوم ينال فيه المطيع ثوابه والعاصي عقابه وجزاءه، وذلك يوم القيامة، وبذلك يؤمن بحتميّة مجيء يوم القيامة أيضاً.

ثمّ بدأ الله تعالى بذكر الدّليل من السّماء فإنّه أكثر لصوقاً بالإنسان من البحر لأنّ الإنسان يرى السّماء دائماً، ولكنّ البحر إنّما يراه أحياناً وفي السّفر فقط، فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

(**وآية لهم**) أي أنّه لدليل واضح لهم وبرهان ساطع على وجود الله تعالى وقدرته ووحدته وإمكان إحياء الموتى ومجيء يوم القيامة، لدليل على ذلك كلّه (**اللّيل نسلخ منه النّهار**) أي ننزع منه النّهار كما ينزع الجلد من الشّاة جعل النّهار كجلد للّيل لأنّ الدّنيا كانت ظلاماً قبل خلق الشّمس، فلمّا خلقت الشّمس جاء النّهار على الظّلام واللّيل كما يجيء الجلد على الشّاة فصار النّهار كالجلد للّيل، أو لأنّ النّهار يستر اللّيل كما أنّ الجلد يستر الشّاة، وكذلك اللّيل يستر النّهار فيكون هو أيضاً كالجلد للنّهار كما قال تعالى: (**يولج اللّيل في النّهار ويولج النّهار في اللّيل**) فإذا هم أي إذا سلخ من اللّيل النّهار (**هم**) أي بنو آدم (**مظلمون**) يقعون في الظّلام والظّلام يغشاهم (**والشّمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم**) أي والشّمس تتحرّك وتجري إلى أن تصل إلى مستقرّ وحدّ محدود لها، فحينئذٍ ترجع إلى حدّ محدود آخر، وهكذا دواليك، فإنّ الشّمس تتحرّك من مدار السّرطان شمالاً إلى مدار الجدي جنوباً، ثمّ ترجع من مدار الجدي إلى السّرطان وهكذا دواليك، وبهذه الحركات تحصل الفصول الأربعة: الرّبيع والصّيف والخريف والشّتاء، وإنّ هذه الحركة وإن كانت للأرض كما أثبت ذلك العلم الحديث إلّا أنّ في ظاهر العيون تتحرّك الشّمس لأنّه بحركة الأرض ترى العيون كأنّ الشّمس تحرّكت وصارت في مدار كذا ... وكذا، وإن كانت في الحقيقة أنّ الأرض تحرّكت ووقعت في مدار كذا... وكذا. فالآية جارية على وفق إدراك النّاس وإحساسهم، وقال البعض: إنّ الشمس لها حركة إلى الأعلى فهي تصعد يوماً فيوماً وشيئاً فشيئاً إلى أن تصل إلى حدّ فتقف هنالك، وحينئذٍ ينهدم الكون ويختل نظام الكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار كما قال تعالى: ﴿إذا الشّمس كُوّرَت، واذا النُّجُوم انْكَدَرَتْ﴾ سورة

التكوير الآية/ ١، ٢، وحملوا معنى قوله: **(لمستقر لها)** على هذا الوجه. وقال بعض آخر: إنّ المعنى هو: إنّ الشّمس تجري وتعمل وتبقى مضيئة إلى أن يأتي وقت ينتهي فيه عملها ويبطل جريها، وذلك عند مجيء يوم القيامة، ففي ذلك الوقت تقف عن العمل فهو مستقرّها، هذا ويجوز أن يراد من الآية كلّ هذه المعاني الثّلاثة، فإنّه لا تنافي بينها **(ذلك تقدير العزيز العليم)** أي إنّ ذلك الصّنع العجيب والنّظام البديع هو تقدير العزيز أي الغالب على أمره، والعليم الّذي يعمل وفق علمه **(والقمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم)** أي وآية لهم أنّه قدّرنا للقمر منازل يسير فيها وهي ثمانية وعشرون منزلاً، يبقى كلّ ليلة في منزل، فبهذا السّير يزيد حتّى يصير بدراً، ثمّ ينقص حتّى يعود كالعرجون القديم. أي كالشّمراخ العتيق، فيعوجّ ويتقوّس ويصفرّ كالشّمراخ القديم **(لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر)** أي لا يمكن للشّمس أن تصل إلى القمر فتُخفي ضوءه كما تُخفي ضوء سائر الكواكب **(ولا اللّيل سابق النّهار)** أي ولا يمكن للّيل أن يغلب على النّهار فيمنعه من الظّهور والإنبثاق، فكلّ يأتي في وقته المقرّر له ولا يعوق أحد غيره **(وكلّ في فلك يسبحون)** أي كلّ من الشّمس والقمر واللّيل والنّهار يجري على مداره الخاصّ ويتحرّك فيه، ولا يؤثّر مسير واحد منها في سير الآخر، وفي هذا إشارة إلى أنّ اللّيل يتحرّك دائماً وينتقل من مكان إلى مكان، وكذلك النّهار فلا يفنى اللّيل حينما جاء النّهار ولا النّهار يفنى حينما جاء اللّيل، بل إذا جاء اللّيل ينتقل النّهار إلى الجانب المقابل من الأرض، وإذا جاء النّهار ينتقل اللّيل إليه، فلا يُمحي أحد غيره، ولا يغلب أحدهما الآخر، وهو كذلك كما أثبت كرويّة الأرض والعلم والواقع ذلك، فمن أين عرف محمّد هذا؟ وفي أي كليّة درس؟ أليس هذا من الله؟ قل بلى وأشهد بأنّ هذا القرآن من الله وأنّ محمّدا رسول الله.

التّوضيح: نبّه الله تعالى عباده على أن يستدلّوا على وجود الله وقدرته ووحدته وإمكان الحياة بعد الموت ومجيء يوم القيامة بهذه الظّاهرة، ظاهرة اللّيل والنّهار والشّمس والقمر وحركاتهما ومجيء أحدهما بعد الآخر، فإنّه حينما يتفكّر الإنسان في هذا الصّنع العجيب والنّظام البديع يعلم أنّه لا يوجد مثل هذا النّظام المتقن بدون صانع حكيم وقادر مختار مريد وهو الله تعالى، ويعلم أنّ من له هذه القدرة الّتي يخلق بها هذا النّظام لا يحتاج إلى شريك، فلا شريك له، لأنّ الشّريك إنّما يكون لعاجز عن عمله، ويعلم أنّ من صنع هذا الصّنع ووضع هذا النّظام التّكويني لا يهمل الخلق بأن لا يضع لهم نظاماً ودستوراً يفرض عليهم العمل به وتطبيقه ! ويعلم أنّ النّظام لا يخلو عن

ثواب وعقاب، وأنّه لا يوجد الثّواب والعقاب في الدّنيا كليّاً فلا بد من أن يأتي يوم لهذا الثّواب والعقاب وهو يوم القيامة تحقيقاً لعدالة الله تعالى، ويعلم أنّ من له هذه القدرة ليقتدر على أن يحيي النّاس بعد موتهم وأن يحاسبهم على أعمالهم.

* * *

ثمّ نبه الله تعالى عباده على الاستدلال بما في البحر على وجود الله تعالى وقدرته ووحدته وإمكان الحياة بعد الموت ومجيء يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾

(وآية لهم أنّا حملنا ذريّتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) قد فسّر المفسّرون هذه الآيات تفسيرين:

الأوّل: هو أنّه قال تعالى: **(وآية لهم)** أي ودليل واضح لهم على وجود الله تعالى وقدرته ووحدته وإمكان الإحياء بعد الموت ومجيء يوم القيامة هو **(أنّا حملنا ذريّتهم)** أي حملنا الذّريّة والبذرة الّتي خلقوا منها **(في الفلك المشحون)** أي في السّفينة المملوءة بالحيوان والإنسان من آبائهم وأمّهاتهم الأوّلين، والمراد بالسّفينة هي سفينة نوح **(وخلقنا لهم)** بعد ما خلقنا لنوح هذه السّفينة والفلك **(من مثله)** أي مثل هذا الفلك **(ما)** أي سفناً كثيرة **(يركبون)** يركبونها في البحر لتجارتهم وسفارهم وزياراتهم، فإنّ الله تعالى علّم نوحاً صنع سفينةٍ وألهمه صنعها، فمن بعد ذلك تعلم النّاس صنع السّفن منه **(وإن نشأ نغرقهم)** أي وإن نشأ نغرقهم في الطّوفان فلم نعلّم نوحاً السّفينة **(فلا صريخ لهم)** أي فلا مغيث لهم ينجيهم **(ولا هم ينقذون)** من قبل أحد **(إلّا رحمةً منّا ومتاعاً إلى حين)** أي ولكن الله تعالى أراد أن يبقي نوع الإنسان ويتمتّع أفراده بالحياة **(إلى حين)** أي إلى حين مجيء يوم القيامة. هذا وإنّ هذه السّفينة وطوفان نوح كان معلوماً لدى النّاس من بقايا أخبار الكتب السّابقة فذكّرهم الله تعالى بها.

الثّاني: هو أنّ المراد الاستدلال بهذه السّفن الّتي يسير عليها النّاس ويسافرون بها، وأنّ الله تعالى يحميهم بهذه السّفن من الغرق ويوصلهم إلى البلاد والشّواطىء سالمين،

ولو شاء الله تعالى لأغرقهم **(فلا صريخ)** أي فلا مغيث لهم من الغرق **(ولا ينقذون)** منه بأنفسهم ولا بغيرهم، إلّا أنّ الله تعالى أراد بقاءهم وحياتهم إلى حين مجيء آجالهم. فمن تفكّر في هذه السّفن وأنّها كيف تمشي على الماء دون الغوص فيه، وأنّها كيف تصل إلى الشّاطىء علم أنّ من خلق هذه السّفن ومن له هذه القدرة الباهرة لاشريك له، وأنّه يقدر على الإحياء بعد الموت، وأنّه يفعل ذلك ليتحقّق عدالة الله تعالى وينال كلّ إنسان نتيجة عمله من ثواب أوعقاب.

تنبيه: لا يقال إنّ هذه السّفن من صنع العباد وليس من صنع الله تعالى، فكيف يستدل بها على قدرة الله تعالى وغير ذلك من صفاته، فإنّه إذا كان المراد بالفلك هو فلك نوحﷺ كما في التّفسير الأوّل للآيات فمعلوم؛ لأنّ نوحاً صنع الفلك بوحي من الله تعالى وتعليمه إيّاه كما قال تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ ثمّ تعلّم النّاس من ذلك صنع الفلك والسّفن، فكان كلّ ذلك من خلق الله تعالى وتعليمه. وإن أريد به السّفن كلّها فهي أيضاً من خلق الله تعالى لأمور:

الأوّل: إنّ السّفن تعلّمها النّاس كلّهم من صنع نوح، وصنع نوح كان بتعليم من الله تعالى؛ فيعود كلّها إلى خلق الله وصنعه كما مرّ.

الثّاني: إنّ الإنسان هو خلق الله وصنع المخلوق هو خلق خالقه حسب الحقيقه والمآل.

الثّالث: هو أنّ أفراد الإنسان كلّهم متساوون في الحقيقة والعنصر، ونسبتهم إلى جميع الأعمال والأشغال والعلوم والمعارف متساوية، ولا مناسبة بين أي فرد منهم وبين أي عمل من الأعمال أو الأشغال أو أي علم من العلوم، فتخصيص بعضهم ببعض الأعمال دون بعض وببعض العلوم دون بعض لا يكون إلّا بسوق من الله تعالى هذا إلى هذا العمل أو إلى هذا العلم، وسوق ذاك إلى ذلك العمل وذلك العلم وإلهامه إيّاه دون غيره، فيكون ذلك العلم وما ينتج من خلق الله تعالى، وبذلك يكون كلّ صنع من صناعات العبد من خلقه وإيجاده وتقديره وتوفيقه، والله على كلّ شيء قدير ولا حول ولاقوّة إلّا بالله العليّ العظيم. وهذا معنى قولهﷺ: (إعملوا فكلّ ميسر لما خلق له)[1].

* * *

(١) صحيح البخاري ٤/ ١٨٩١ الحديث رقم ٤٦٦٥.ونص الحديث هو: عن علي رضي الله عنه قال كان=

خـاتمة: إنّ إنكار النّاس الحياة بعد الموت يوم القيامة إنّما يكون لاستبعادهم وجود الضّد من الضّد والمباين من المباين، فكيف يخلق الحيّ من أجزائه الميتة كما ذكر الله تعالى ذلك في قوله ﴿أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يُحيي العظام وهي رميم﴾ سورة يس الآيتان/ ٧٧،٧٨. أي كيف توجد الحياة في العظام وهي بالية لاحياة فيها وقال الشّاعر أيضاً:

والّـــذي حـــارت الـــبريّـــة فـــيـــه حـــيـــوان مـــســـتـــحـــدث مـــن رمـــاد

أي أنّ الأمر الّذي تحيّر النّاس فيه هو الإنسان الّذي هو حيوان وحيّ يستحدث من رماد وهو عظامه البالية وجسده الّذي صار تراباً، ولذلك ألفت الله تعالى في الآيات السّابقة أنظار المنكرين والمستبعدين لذلك إلى أشياء كلّها ظهور ضدّ من ضدّ ومباين من مباين، فذكر أولاً عودة الحياة إلى الأرض بعد موتها وظهور النّبات الحيّ من البذرة بعد موتها ونتنها تحت الأرض، والشّجرة من النّواة بعد تفتتها ونتنها، وخروج الماء الجارية من أجزاء الأرض السّاكنة والتّي لاجري لها، وخروج اللّيل المظلم من النّهار المضيء، والنّهار المضيء من اللّيل المظلم، وسير الفلك الثّقيل على الماء الّذي لا يمسك شيئاً إلّا ويبلعه، فلا بعد إذاً إخراج الإنسان حيّاً من رفاته بعد ما كان ميتاً، والله على كلّ شيء قدير.

* * *

ثمّ بعد أن ذكّر الله تعالى النّاس بما جرى على أصحاب القرية وغيرهم من الأمم من الهلاك بسبب كفرهم وتمرّدهم على رسلهم، وبعد أن خوّفهم بعذاب الآخرة بقوله: (وإن كلّ لمّا جميع لدينا محضرون﴾ ذكر الله تعالى حال النّاس من السّوء والغفلة وعدم الإتّعاظ والإعتبار ممّا جرى على الأمم السّابقة وعدم الخوف ممّا يأتي فقال جلّ وعلا:

النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة فأخذ شيئا فجعل ينكت به الأرض فقال ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة قالوا يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى... الآية.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أي **(وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم)** احفظوا أنفسكم من العذاب الّذي يأتيكم في المستقبل يوم القيامة ومن أن يأتيكم مثل عذاب الأمم الّتي هي **(وما خلفكم)** أي ما سبقتكم من الهلاك والدّمار في الدّنيا بسبب التّمرد على رسول الله والإبتعاد عن شريعة الله، وجواب إذا محذوف تقديره: وإذا قيل لهم ذلك القول أعرضوا ولم يمتثلوا وأصبح حالهم من الغفلة والتّمرد أنّهم في حال عبّر عنه تعالى بقوله:(وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلّا كانوا عنها معرضين) أي أنّ حالهم بلغت حدّاً من التّمرد أنّه **(وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم)** أي الآيات القوليّة والآيات الكونيّة **(إلّا كانوا)** من شدّة كفرهم **(عنها)** عن كلّ تلك الآيات **(معرضين)** وغير متّعضين فلم يعتبروا لا بالآيات الكونيّة وما جرى على الأمم أو عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم، ولا بالآيات القوليّة فلم يتفكّروا في شيء من ذلك ولم يعتبروا به **(وإذا قيل لهم أنفقوا)** أي وإذا قيل لهم أنفقوا في سبيل الله تعالى على الفقراء والمساكين واعطوهم شيئاً **(ممّا رزقكم الله)** من مالكم الّذي رزقكم الله تعالى إيّاه ووهبكم، وفي هذا إشارة إلى أنّ كلّ ما لديهم هو من الله تعالى ومن ملكه، وإنّما جعلهم الله تعالى أمناء عليه، فإذا أمرهم الله تعالى بإنفاقه عل الفقراء فلا مندوحة لهم من الإمتثال، فإنّ الأمين يجب أن يعمل في الأمانة حسب أمر صاحب الأمانة ومالكها الحقيقي، ولا منّة لهم على الفقراء، فإنّ صاحب المال هو الله تعالى قد جعل

هذا المقدار لهم ووضعه عندهم ومع هذا إذا قيل لهم: أنفقوا ممّا رزقكم الله **(قالوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه)** يقولون ذلك استهزاء لأنّهم كانوا لايؤمنون بأنّ الله هو الرّازق وإنّما يعتقدون أنّ الأسباب هي الّتي تأتي بالرّزق فكأنّهم قالوا: أليس في عقيدتكم أنّ الله يرزق عباده ولا ينسى أحداً منهم، فمن شاء رزقه كثيراً ومن شاء قليلاً، فإذا كان الأمر كما قلتم فلماذا تأمروننا بالإنفاق عليهم **(أنطعم من لو يشاء الله أطعمه)** أنرزق من لو يشاء الله تعالى أطعمه ورزقه ولكنّه لم يشأ أن يرزقه فكيف نستطيع نحن أن نرزقه **(إن أنتم إلّا في ضلال مبين)** هذا القول إن كان من قول الكافرين للمؤمنين فمعناه لستم أيّها المؤمنون إلّا في خطأ عظيم، لأنّه إن كان الرّزق بيد الله تعالى فأمركم إيّانا بالإنفاق عليهم ضلال وخطأ مبين، وأن كان الرّزق بأيدينا فقولكم بأنّه لا رازق إلّا الله خطأ عظيم، هكذا يقول هؤلاء الكفرة ولكنّهم هم في ضلال مبين في هذا القول؛ فإنّ الله تعالى هو الرّازق وهو الّذي خلق الأرزاق بقدر كفاية كلّ حيوان إلّا أنّه جعل رزق بعضهم عند بعض كأمانة، وذلك إمتحاناً لهم ولغيرهم، فجعل رزق الفقراء عند الأغنياء والدّولة ورزق العمال عند أصحاب العمل، ورزق ضعاف الرّعية عند الدّولة والأغنياء ورزق موظفيهما عندهما، وأمرهم بأن يدفعوا إلى كلّ ذي حقّ حقّه، وبيّن مقدار ما يجب عليهم أن يعطوهم، فيجب على الدّولة وعلى الأغنياء إسعاف حال المحتاجين وسدّ حاجاتهم مجاناً لمن لا يستطيع العمل، ومقابل عمل لمن يستطيعه فيجب عليهم وعلى الدّولة تهيئة عمل يعيش به من لا عمل له يحصل منه نفقته، فعلى هذا حينما يقول: أنفقوا ممّا رزقكم الله أي أنتم وإيّاهم ولكن جعل رزقهم عندكم كأمانة فأدّوا إليهم أمانتهم وأعطوهم حقّهم ممّا هو عندكم من حصّة رزقهم والّذي عينه الله تعالى عليكم. وإمّا إن كان من قول المؤمنين للكافرين فمعناه أنّكم مخطئون في قولكم أنطعم من لو يشاء الله أطعمه أي أنرزق من لم يرزقه الله تعالى وذلك لأنّهم في هذا القول وهذا التّفسير مخطئون فإنّه حينما يقال لهم: **(أطعموا ممّا رزقكم الله)** تعالى، ليس معناه ارزقوهم بدلاً من الله تعالى حتّى يلزم من ذلك أن لا يكون الله رازقاً لكلّ النّاس، بل معناه سلموهم حقّهم ممّا رزقكم الله وإيّاهم وجعل حقّهم عندكم حسب ما عيّن الله تعالى وفرضه عليكم، فهذا أمر بتسليم ماهو حقّهم إليهم لا بأن يرزقوهم هم كما ظنّوا وزعموا ذلك، وبذلك وقعوا في ضلال مبين **(ويقولون)** أي وكذلك إذا ذكّرهم المؤمنون بيوم القيامة وبما يجري فيه من الثّواب للمؤمنين والعقاب للكافرين استهزؤوا بهم، ويقولون على سبيل

الإنكار والاستهزاء **(متى هذا الوعد)** الّذي وعدتمونا به **(إن كنتم صادقين)** في قولكم إنّ هذا اليوم يأتي وينفّذ فيه هذا الوعد بالثّواب والعقاب، فأجابهم الله تعالى بأنّ هذا اليوم يأتي بدون شكّ وأنّ وقته مجهول لا يعلم به أحد سوى الله، وأنّه يأتي بغتة فقال عزّ من قائل: **(ما ينظرون)** أي ما ينتظرون وما يرون من وقائع هذا اليوم **(إلّا صيحةً واحدةً)** والمعنى أنّ هذا اليوم يأتي فجاةً فلا يرون إلّا أنّها تأتي صرخةً واحدةً **(تأخذهم وهم يخصّمون)** أي تصيبهم هذه الصّرخة في الحالة الّتي يتخاصمون فيها في بيعهم وشرائهم وغير ذلك من أمور الدّنيا وهم غافلون عن مجيء هذه الصّرخة كلّ الغفلة، وهذه هي النّفخة الأولى الّتي ينهدم بها هذا النّظام الكوني ويموت بها كلّ حيّ وحينما جاءتهم هذه الصّيحة **(فلا يستطعون توصية)** أي فلا يستطيع أحد أن يوصي أحداً بشيء حيث لا يمهلون ليفعلوا ذلك **(ولا إلى أهلهم يرجعون)** أي ولا يستطع أحد أن يرجع إلى أهله ليوصي إليهم أو يعمل هنالك شيئاً **(ونفخ في الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون)** وهذه هي النّفخة الثّانية الّتي يحيا بها النّاس و(ينسلون) أي يخرجون من قبورهم لحضورهم عند ربّهم. **(قالوا)** أي قال الكافرون حين خروجهم من القبور أحياء **(ياويلنا)** أي يا قوم الهلاك لنا **(من بعثنا من مرقدنا)** أي من الّذي أحيانا وأخرجنا من قبورنا **(هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون)** هذا القول: إمّا قولهم، فمعناه أنّهم حينما تعجّبوا من خروجهم وقالوا من بعثنا من مرقدنا؟ فكّروا وتذكّروا ما في الدّنيا، وتذكّروا قول الأنبياء لهم إنّكم بعد ما تموتون تبعثون وتجزون على حسب أعمالكم فيقولون بعد هذا التّفكّر والتّذكّر **(هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون)** فيما بلغونا بمجيء هذا اليوم، ولقد كذّبنا نحن حينما كذّبناهم ولم نؤمن بهم، أو أنّ هذا القول من المؤمنين يجاوبون به الكفار حينما قالوا من بعثنا.....الخ فيقول المؤمنون لهم: **(هذا ماوعد الرّحمن وصدق المرسلون)** فيما بلغوكم وكذّبتم في تكذيبكم إيّاهم، أو هو قول الملائكة يجاوبونهم، ويجوز أن يصدر هذا القول من الكلّ من الكفار تندّماً ومن المؤمنين والملائكة تبكيتاً لهم وتقريعاً.

فائدة : يلزم الوقف على آخر من مرقدنا لئلا يظنّ أنّ كلمة هذا في قوله (هذا ما وعدنا....الخ) إشارة إلى مرقدنا. إذ أنّه إشارة إلى البعث المستفاد من قولهم: من بعثنا، فالمعنى أنّ هذا البعث هو الّذي وعدنا الرّحمن به وصدق المرسلون في تبليغنا بذلك والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(إن كانت إلّا صيحةً واحدةً) أي ما كانت الحادثة بعد ذلك إلّا صيحةً واحدةً **(فإذا)** صيحت هذه الصّيحة **(هم جميع لدينا محضرون)** أي يساقون إلينا لحسابهم، وهم مجموعون لدينا ومحضرون لمحاكمتهم على أعمالهم، وهذه هي النّفخة الثّالثة، فالنّفخات يوم القيامة ثلاث كما حقّقنا ذلك في (تفهيم الأمّة تفسير جزء عمّ) عند قوله تعالى: ﴿يوم ينفخ في الصّور فتأتون أفواجاً﴾ سورة عم الآية/ ١٨ **.(فاليوم)** أي فيوم أن أحضروا لدينا كلّهم وهو يوم الحساب **(لا تظلم نفس شيئاً)** أي لا ينقص من أعمال خير المرء شيء، بل يحسب كلّ له ويثاب عليه **(ولا تجزون)** أي ولا تعاقبون في ذلك اليوم **(إلّا بما كنتم)** في الدّنيا تعملون، ذلك فلا يعاقب أحد بدون ذنب ولا يعاقب أحد بذنب غيره.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ النّاس كلّهم يحضرون لديهم ويحاسبون على أعمالهم، ذكر تعالى مصيرهم بعد ذلك الحساب، وأنّهم ينقسمون إلى قسمين: أصحاب الجنّة وأصحاب النّار، وأراد أن يذكر حال كلّ من القسمين، فقدّم ذكر حال أصحاب الجنّة لشرفهم فقال تعالى: **(إنّ أصحاب الجنّة)** أي حال الّذين استحقّوا الجنّة وادخلوا فيها هي أنّهم **(اليوم في شغل)** الشّغل يقال للحال الّذي يشغلك وينسيك غيره، فالمعنى أنّ أصحاب الجنّة في حال يشغلهم عن كلّ حال، وهم **(فاكهون)** أي متلذّذون بهذا الحال وما فيه من النّعيم، ثمّ فصّل ذلك الحال فقال تعالى: **(هم وأزواجهم)** أي هم مع أزواجهم **(في ظلال)** بساتين الجنّة **(على الأرائك)** جمع أريكة وهي السّرير **(متكئون)** أي معتمدون على أطراف الأريكة في جلوسهم، وهي كناية عن الجلسة المريحة، وعن أنّهم ذوو راحة في هذه الجلسة **(لهم فيها)** أي في الجنّة أو في الظّلال والمآل واحد **(فاكهة)** أي كلّ الفواكه لأنّها جنس فيشمل الجميع عند الاطلاق حسب القواعد

الأصوليّة **(ولهم ما يدّعون)** أي ولهم مايطلبونه، وذلك لأنّهم لبّوا ما طلب الله تعالى منهم في الدّنيا من الطّاعات والعبادات والعمل بشريعته، فيلبّي الله تعالى لهم ما يطلبونه في الجنّة، كما قال تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان﴾ - سورة الرحمن الاية/ ٦٠. (سلام) أي يقال لهم سلام عليكم ويقال ذلك **(قولاً من ربّ رحيم)** إمّا بواسطة الملائكة أو بدون واسطة، وقال القرطبي: إنّه ثبت في حديث مسلم أنّ الله تعالى يسلّم عليهم بنفسه، ومعنى هذا السّلام هو الأمن من المكروهات، أي لا يرون في الجنّة ما يكرهون؛ فيطمئن بذلك قلوبهم، فإنّهم رأوا في الدّنيا أنّ كلّ نعمة وراءها نقمة، وكلّ محبوب وراءه مكروه، وكلّ فرح وراءه الحزن، فلذلك سلّم الله تعالى عليهم ليطمئنّ قلوبهم بأنّه ليس في الجنّة مكروه ولا حزن، ولا هموم ولا تعب ولا نصب ولا نقمة ولا غصص، بل كلّ ما فيها نعمة خالصة وسرور دائم، ويوهب كلّ ذلك للإنسان **(من ربّ رحيم)** قيّده بالرّحيم إشارة إلى أنّ النّعم كلّها ناشئة من رحمة الله تعالى وليست ناشئة من استحقاقهم، لذلك بسبب عملهم فإنّ كلّ ما يعملون من خير في الدّنيا لا يفي بما أنعم به الله تعالى عليهم فيها، رغم أنّ كلّ ذلك هو خلق الله تعالى وملكه، فمن أين يستحقّون هذا الثواب على ذلك العمل وهذا الجزاء على الخير، أو هذا التّقدير من الله وذلك التّكريم؟ فكلّ ذلك إذاً من رحمته لا من استحقاقهم كما يظنّ البعض. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المؤمنين وهم أصحاب الجنّة ذكر حال أهل النّار وهم الكافرون فقال تعالى: **(وامتازوا اليوم أيّها المجرمون)** أي بعد ما قرّر الله تعالى للمؤمنين بدخول الجنّة خاطب المجرمين على لسان ملك من الملائكة، فقيل لهم انفصلوا عن المؤمنين أيّها المجرمون، فينفصلون عنهم ويجتمعون في مكان واحد، فيخاطبهم الله تعالى خطاب تبكيت وتقريع ويقول تعالى:

﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

(ألم أعهد اليكم) أي ألم نأخذ منكم العهد **(يابني آدم أن لا تعبدوا الشّيطان)** أي أن لا تطيعوا الشّيطان ولاتتّبعوه **(إنّه)** أي لأنّ الشّيطان **(لكم عدوّ مبين)** أي عدوّ ظاهر العدواة، فلا يأمركم بخير قطّ، وإنّما يأمركم بالشّر دائماً **(وأن اعبدوني)** أي وأخذنا العهد منكم أن تتّبعوني وتطيعوا أمري (هذا) أي إطاعتكم لي واجتنابكم عن إطاعة الشّيطان **(صراط مستقيم)** طريق مستقيم لايضلّ من سلكه أبداً، فكلّ ما ذكر (الصّراط المستقيم)

في القرآن فالمراد به هو الإسلام، والإسلام عبارة عن عبادة الله تعالى وحده وإطاعته، والابتعاد عن عبادة أي إطاعة الشّيطان واتّباعه، فتفيد هذه الآية الشّريفة أنّ كلّ من استقام على العمل بالإسلام فقد عبد الله تعالى وسلك الصّراط المستقيم، ومن انحرف عنه فقد عبد الشّيطان بقدر ما انحرف عنه إن كليّاً فقد كفر والعياذ بالله، وإلّا فقد فسق وعصى بشرط بقاء الإيمان عنده، وإلّا فهو كافر أيضاً.

سؤال: إنّ قيل: لم فسّرت العبادة بالطّاعة ولم تفسّره بالسّجود له أو الصّلاة له أو غير ذلك مما هو من علامات الكفر؟ قلنا: لأنّه لا يوجد أحد يسجد للشّيطان أو يصلّي له[1]، بل إنّما بعض النّاس يطيعونه في السّجود لغير الله تعالى والصّلاة لهم، وفي الخروج عن أوامر الله في ارتكاب ما نهي عنه وذلك عبادة للشّيطان. فإن قيل: قد أمرنا الله تعالى بإطاعة غيره وليست عبادة لذلك الغير كإطاعة الوالدين وغيرهما، قلنا: إنّ إطاعة الوالدين وغيرهم امتثالاً لأمر الله تعالى إطاعة لله تعالى وعبادة له وإن كانت لذاتهم فهو عبادة للشّيطان، وكذلك إذا كان إطاعتهم فيما يخالف أمر الله تعالى فهو عبادة للشّيطان فأنّه لا يجوز إطاعة الوالدين أو غيرهما فيما يخالف الشّرع، قال تعالى ﴿وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدّنيا معروفاً﴾ سورة لقمان الآية/ ١٥. وقال أبوبكر الصّديق (رضي الله عنه): (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[2] ولو كان إطاعة غير الله لذاتهم نوجب في كلّ شيء وليس كذلك، بل إنّما هي في حدود ما أمر الله تعالى به، فيكون عبادة لله وإطاعة له لا لغيره، فافهم فانّ هذا دقيق جدّاً !

* * *

(١) ظهر في عصرنا الحاضر عبدة للشيطان يعادون الأديان بحرق الكتب المقدسة كالإنجيل والقرآن ويهينونها في حفلاتهم ويقومون بنوع من الطقوس تجاه الشيطان كتقديم القرابين وشرب الدماء الترّنم بنوع ممّا يتقربّون به إليه وربما الصلاة له، ولكن الشّيخ المفسر رحمه الله تعالى لم يسمع بهذا في زمانه ولم يتصّور وفق فطرته السّليمة وجود مثل هذه الأمور من بشر لهم عقول وقلوب. فاستبعد ذلك لذلك قام بمثل هذا التأويل. ولكنّ ظهور عبدة للشّيطان في عصرنا يظهر معجزة الآية المذكورة لدلالتها على أنّه واقع أو سيقع، وقد تحقّق ما أخبرت عنه هذه الآية فعلا.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٥٤٥ الحديث رقم ٣٣٧١٧، رواه عن الحسن عن النبي ﷺ مرفوعا.

تنبيه: ينبغي أن نعلم أنّه متى أخذ هذا العهد من بني آدم وكيف أخذ منه؟ فنقول وبالله التّوفيق:

قد ذكر العلماء في ذلك أربعة أقوال:

القول الأوّل: أنّه هو العهد الّذي عهد إلى آدم الّذي يذكره الله تعالى بقوله تعالى: ﴿ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ سورة طه الآية/ ١١٦. وذلك العهد الّذي عهد الله إلى آدم هو نهيه عن أكل الشّجرة وتحذيره من العمل بقول الشّيطان بقوله: (فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى﴾ سورة طه الآية/١١٨، فلم يوجد لآدم ثبات على هذا العهد، بل وأثّر فيه وسوسة الشّيطان فأكل هو وزوجته من الشّجرة.

القول الثّاني: إنّه هو العهد الّذي عهد إلى ذريّة آدم المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذريّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنّما أشرك آباؤنا من قبل وكنّا ذريّةً من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ سورة الأعراف الآيتان/ ١٧٢، ١٧٣. وقد فسّرت الآية بأنّ الله تعالى أخرج أزواج بني آدم من ظهر آدم وقال لهم: ألست بربّكم؟ قالوا: بلى، وأخذ منهم العهد أن لا ينسوا هذا الإقرار والاعتراف حينما دخلوا في الأبدان.

القول الثّالث: إنّ الله تعالى خلق الأرواح قبل خلق الأجساد وجعل فيها من المعرفة ما علمت به ربّها، وقد فسّرت آية الأعراف بهذا المعنى أيضاً.

القول الرّابع: إنّ الله تعالى نصب الدّلائل على وجوده ووحدته، وأعطى العقل والفكر والقلب للإنسان بحيث لو تفكّر لعلم وجود الله تعالى ووحدته ووجوب عبادته، وهذا هو العهد. وهذا هو معنى قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم) في آية الأعراف أيضاً.

القول الخامس: قال الإمام الرّازي، وهو الأقوى من الكلّ: أنّ ذلك العهد كان مع كلّ قوم على لسان الرّسول الّذي أرسل إليهم.

القول السّادس: وهو الّذي أقول به ولم أجده لأحد قبلي فيما أعلم: أنّ هذا العهد الّذي هو العهد الّذي عهد الله تعالى إلى آدم وزوجته حينما تاب عليهما وأرسلهما إلى

الأرض، وهو الّذي ذكر في قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّه هو التّواب الرّحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فإمّا يأتينّكم منّي هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * والّذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أوّلئك أصحاب النّار هم فيها خالدون*﴾ سورة البقرة الآيات/ ٣٦ ـ ٣٩. وذكر الله تعالى ذلك العهد في فقال: ﴿ثمّ إجتباه ربّه﴾ أي آدم ﴿فتاب عليه وهدى﴾ ﴿قال أهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوّ فإمّا يأتينّكم منّي هدى فمن تبع هداي فلا يضلّ ولايشقى * ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى*﴾ سورة طه الآيتان/ ١٢١ ـ ١٢٤. فهذا هو العهد الّذي عهد إلى آدم وذريّته، ثمّ جاءتهم الرّسل تترى وذكّروهم بهذا العهد إلى أن ختمت الرّسالة بالرّسول (ﷺ)، ثمّ قام علماء الأمّة بالتّذكير بهذا العهد وتبليغه للنّاس بأن يتّبعوا هدى الله تعالى ولا ينحرفوا عنه، وأن يطيعوه ولا يطيعوا الشّيطان فإنّه عدوّ مبين. ويجوز أن يكون المراد كلّ هذه الوجوه، فإنّه لا منافاة بينها إلّا أنّ هنا أموراً نودّ أن نتعرّض لها:

الأوّل: أنّ القول الأوّل بعيد عمّا نحن فيه، فإنّ هذا العهد كان عهداً خاصّاً لآدم وزوجته وكان في الجنّة ولم يكن عهداً إلى بنيه ولا عهداً بالنّسبة للحياة على الأرض، فلا يرتاح القلب بشموله لبني آدم كلّهم، فتفسير قوله تعالى: ﴿ألم أعهد اليكم يا بني آدم ...الخ) بذلك المعنى بعيد.

الثّاني: أنّ الله تعالى أخرج أرواح بني آدم كلّهم من ظهر آدم وأشهدهم على أنفسهم....الخ، يقال فيه: فأين بقيت تلك الأرواح بعد هذا الاشهاد. فإن رجعت إلى ظهر آدم فكيف تكون أرواح لا تعدّ في جسد واحد وظهر واحد، وإن لم ترجع إليه فما هي الفائدة في وجود أرواح بلا أبدان، وإن دخلت في أبدان غير هذه الأبدان لزم القول بالتّناسخ.

الثّالث: وهو أنّ الله تعالى خلق الأرواح قبل الأبدان وجعل فيها المعرفة بالله تعالى وربوبيّته، فإن كان المراد قبل الأبدان بزمان كثير فأين كانت تلك الأرواح، وإنّ وجود الرّوح بدون البدن ممّا اختلف فيه العلماء اختلافاً ذكره في شرح المقاصد كما سبق، وإن كان بزمان قليل أي خلق ونفخ به في البدن فوراً، فلمّا لا يعلم الإنسان ويتذكّر شيئاً من تلك المعرفة وهو صبيّ أو بعد.

الرّابع: أنّ الله تعالى نصب الأدلّة ... الخ، يفيد أن يكون المرء مسؤولاً دون بعثة

الرّسل وهو خلاف قوله تعالى ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥. وأمّا القولان الباقيان فلا غبار عليهما، وأنّهما الحقيقان بالأخذ بهما، إلّا أن يصحّ من الرّسول ما يطابق الأقوال السّابقة، فحينئذٍ لامجال لنا في مخالفته والله تعالى أعلم.

* * *

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

(ولقد أضلّ منكم) أي وبعد أن عهدنا إليكم هذا العهد قسماً بعزّتي لقد أضلّ الشّيطان منكم **(جبلاً)** أي جماعات كثيرة. قال الإمام الرّازي: في **(جبلاً)** ستّ لغات كسر الجيم والباء مع تشديد اللّام. وضمّهما مع تشديد اللّام . وكسرهما مع تخفيف اللّام . وضم الجيم وتسكين الباء وتخفيف اللّام . مع كسر الجيم. هذا وقرىء بالكلّ **(أفلم تكونوا تعقلون)** أنّ هذا الضّلال يضرّكم وأنّ الشّيطان عدوّكم أو أفلم تكونوا تعقلون عهدكم فلا تنحرفوا عنه. قال الإمام الرّازي: الإضلال تولّيه عن الحقّ، وهو أنّ الشّيطان يأمر البعض بترك طاعة الله تعالى وإطاعة غيره فهذا تولّيه، فإن لم يقدر على ذلك يأمره بعبادة الله تعالى لا لله بل لغير ذلك من رياسة أو جاه أو مال أو غير ذلك من أمور الدّنيا، وهذا صدّ ويفضي إلى التّولية، لأنّ مقصوده من منافع الدّنيا لو حصل في عبادة غير الله تعالى لفعل فتحصل التّولية .**(هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون)** أي حيث خالفتم العهد الّذي عهدنا إليكم واتّبعتم الشّيطان وأطعتموه وضللتم عن منهج الله تعالى وانحرفتم عنه **(هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون)** على لسان الرّسل والعلماء والواعظين والمرشدين والدّعاة إلى الإسلام. **(اصلوها اليوم)** ادخلوا اليوم النّار الّتي كنتم لا تصدّقون بوجودها **(بما كنتم)** ما مصدرية، فالمعنى ادخلوها اليوم بسبب كونكم **(تكفرون)** لم تكونوا تؤمنوا بها.

سؤال: إنّ الله تعالى ذكر هنا صنفين من أصحاب الجنّة وهم المؤمنون المخلصون وأصحاب النّار، وهم الكافرون بدليل قوله تعالى **(بما كنتم تكفرون)** فلم لم يذكر حال العصاة من المؤمنين؟

الجواب: من وجهين:

الأوّل: أنّ هذه السّورة مكيّة وأنّ المعركة في مكّة كانت بين الكفر والإيمان فقط، فلم يوجد العصاة من المؤمنين لأنّ الأحكام لم تنزل إلّا في المدينة المنوّرة، فلذلك خصّ القسمان بالذّكر هنا، ويذكر حال العصاة في السّور المدنيّة فقط. فإن قلت: هذا لا يلائم قوله تعالى الآتي: **(وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)** لأنّ الكسب هو للأعمال والأعمال من المعاصي، قلنا: إنّ المراد بالأعمال هنا هو أعمال الكفر كالسّجدة لغير الله تعالى أو طلب قضاء الحاجات أو دفع المكاره أو رفعها من غير الله تعالى، وغير ذلك من الأعمال الّتي هي كفر أو شرك بالله تعالى.

الثّاني: أنّ العصاة مذكورون في ضمن قوله تعالى: **(اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون)** فإنّ الكفر كفران: كفر مقابل للعقيدة والايمان، وكفر مقابل للإسلام والأعمال، فيقال: كفر أي أنكر ولم يؤمن، ويقال: كفر أي ترك عملاً إسلاميّاً كما قال الله تعالى في سورة الحجّ **(ومن كفر)** أي ومن ترك الحجّ **(فإنّ الله غني عن العالمين)**، فالكافر بالمعنى الثّاني: هو العاصي وأنّه يقال للعاصي أيضاً أصلوها اليوم بما كنتم تكفرون أي تعصون وتفسقون، إلّا أنّ الفرق بينه وبين الكافر الحقيقيّ أنّه يصلاها مؤقّتاً، ولمّا يتطهّر فيخرج ويدخل الجنّة، بخلاف الكافر فإنّه يبقى فيها خالداً أبداً.

* * *

(اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) حينما يؤمر الكافرون أن يدخلوا جهنّم بسبب كفرهم والعصاة بسبب فسقهم، أصبح الكافر ينكر كفره والفاسق يتحاشى عن معصيته، فحينئذ يحقّق الله تعالى أقصى درجات عدله، فينطق أعضاؤهم فيشهد عليهم كلّ عضو بما فعله به من الكفر أو الفسق والفجور، فلا يبقى مجال للعبد إلّا أن يعترف بالاستحقاق للعذاب. ذكر في تفسير ابن كثير أنّه قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو شيبة أبراهيم بن عبد الله بن أبي شيبة حدثنا منجاب بن الحارث التميمي حدثنا ابو عامر الازدي حدثنا سفيان عن عبيد المكيد عن الفضل بن عمرو عن الشّعبي عن أنس بن مالك أنّه قال: كنّا عند النّبيّ (ﷺ) فضحك حتّى بدت نواجذه، ثمّ قال (ﷺ): أتدرون ممّ أضحك؟ قلنا: الله والرّسول أعلم. قال (ﷺ): من مجادلة العبد ربّه يوم القيامة. يقول: ربّ ألم تجرني من الظّلم؟ فيقول: بلى، فيقول: لا أجيز عليّ إلّا شاهداً من نفسي، فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً،

فيختم على فيه ويقال لأركانه: انطقي بعمله، ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام فيقول: بعداً لكنّ وسحقاً. فعنكنّ كنت أناضل . وقد رواه مسلم والنسائي[١].

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه يختم على أفواههم....الخ يخطر ببال الإنسان كيف يختم على الأفواه فلا تستطيع أن تتكلّم! وكيف تتكلّم الأيدي وكيف تشهد الأرجل؟ فإنّ كلّ ذلك هو صرف الشّيء عن مقتضى طبيعته، وهذا ممنوع عند الفلاسفة المتمسّكين بالطّبيعية وعند العقول القاصرة عن إدراك قدرة الله تعالى، فقال تعالى: نستطيع ذلك بل ونستطيع أن نجعل العيون ممسوحة لاشقّ لها وكأنّها لم تخلق فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم) فجعلناها كأنّها لم تخلق **(فاستبقوا الصّراط)** فيتحرّكون إلى الطّريق **(فأنّى يبصرون)** فيكف يبصرونها وليس عندهم عيون ولا إدراك. بل ونستطيع أكثر من ذلك حيث **(ولو نشاء لمسخناهم)** أي لجعلناهم حجارةً أو جماداً آخر **(على مكانتهم)** أي في مكانهم الّذي يريدون أن يتحرّكوا منه **(فما استطاعوا مضيّاً)** أي فلا يقدرون أن يتقدّموا إلى الأمام **(ولا يرجعون)** أي ولايقدرون أن يرجعوا عن مكانهم لأنّهم أصبحوا جماداً لاحراك لهم. هذا والمسخ تبديل ماهيّة بماهيّة أخرى مخالفة لها في الحقيقة والخواص والنّتائج والآثار، كتبديل إنسان بحيوان آخر وبالعكس، أو تبديله حجارةً أو جماداً وبالعكس، وهذا مستحيل عند الفلاسفة، وعند المسلمين ممكن، لأنّ الحقائق كلّها في الأصل حقيقة واحدة، فتقسيمها إلى حقائق مختلفة، وتخصيص كلّ واحدةٍ بخصائص وهويات مختلفة لا تكون من ذاتها؛ لأنّ ذاتها بالنّسبة

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٠ الحديث رقم ٢٩٦٩.سنن النسائي الكبرى ٦/ ٥٠٨ الحديث رقم ١١٦٥٣.

إلى كلّ الخصائص والآثار متساوية، بل التّقسيم والتّخصيص إنّما هو بإرادة الله تعالى وخلقه، فيجوز ويمكن له أن يبدّل هذا إلى ذاك وبالعكس، وهو على كلّ شيء قدير.
ويمكن أن نقول في معنى الآيتين: ولو نشاء أن نمنعهم من المعاصي جبراً لطمسنا على أعينهم فلم يستطيعوا أن يتحرّكوا من مكانهم نحو المعصية ومكانها؛ لفقدهم الرّؤية ومشاهدة الطّريق. بل ولو نشاء لمسخناهم حجارةً أو جماداً في مكانهم فما استطاعوا ذهاباً إلى الذّنوب ومكانها، ولا الرّجوع من مكانهم الّذي مسخوا فيه، هذا ولكنّنا لم نجعل من عادتنا الجبر، بل جعلنا الاختيار بيدهم، فإذا أرادوا الخير يسّرناه لهم، وإن أرادو الشّر سهّلناه لهم ثمّ نجزيهم حسب اختيارهم وسلوكهم، ويحتمل أن يكون المعنى ولو نشاء لانتقمنا منهم على الذّنوب في الدّنيا فطمسنا على أعينهم أو مسخناهم إلّا أنّه جعلنا الدّنيا دار عمل واكتساب، ولم نجعلها دار جزاء وحساب، وجعلنا الآخرة دار جزاء وحساب ولم نجعلها دار عمل واكتساب، ويحتمل أن يراد المعاني الثّلاثة كلّها حيث لامنافاة بينها، ثمّ نبّه الله تعالى على ما يستدلّ به على أنّ الله تعالى يستطيع كلّ ذلك من الطّمس والمسخ فقال: **(ومن نعمّره ننكّسه في الخلق)** والمعاني أفلا يرون أنّ من زدنا في عمره ومددنا له في أجله نقصنا خلقته؛ فجعلناها منكوسة أي ضعيفة بعد القوّة، فيضعف بصره عن الرّؤية وسمعه عن السّمع واليد عن البطش والرّجل عن المشي وهكذا. فكلّ عضو ينقص عن وظيفته فالله الّذي يستطيع هذا الخلق ويخلق الإنسان ضعيفاً، ثمّ يجعله قويّاً ثمّ يجعله ضعيفاً مرّةً أخرى لقادر على طمس العيون والمسح وتكلّم الأيدي وإشهاد الأرجل **(أفلا يعقلون)** أي أفلا يوجد لديهم عقل فيتفكّروا به فيصلوا إلى الاعتراف والتّصديق بقدرة الله تعالى القاهرة، وأنّ الله على كلّ شيء قدير.
ثمّ بعد ما أخبر الله تعالى في هذا القرآن عن أصحاب القرية والدّلائل الّتي تدلّ على وجود الله تعالى وقدرته، وعلى مجيء يوم القيامة وعمّا يقع في ذلك اليوم من النّفخات الثّلاث، وعن حال أصحاب الجنّة وحال المجرمين، وأخبر عن العهد الّذي عهد إلى بني آدم وعن تكلّم الأيدي والأرجل وغير ذلك، أخبر بأنّ هذا القرآن الّذي يخبر عن هذه الأمور ليس شعراً ينظمه محمّد، وأنّه لم يتعلّم الشّعر قطّ، بل أنّ القرآن هو ذكر من الله تعالى فقال: **(وما علّمناه الشّعر)** أي وما علّمنا محمّداً الشّعر وأنّه ليس شاعراً ليكون هذا القرآن شعراً **(وما ينبغي له)** وما يليق به أن يكون له الشّعر، فإنّه لم يزل أميّاً وبعيداً كلّ البعد عن القراءة والكتابة والشّعر والخطابة. وأنّ أعداءه كانوا يعترفون بذلك؛ فقد مرّ عليك أنّ الوليد بن المغيرة قال لمعشر قريش: هل جرّبتم عليه الشّعر قطّ؟

قالوا: لا والله، ثمّ أنّ الشّعر له أوزان مخصوصة وبحور معروفة بالاستقراء، وليس وراء هذه الأوزان والبحور ما يسمّى شعراً عند جميع العرب، وأنّ القرآن لا يطابق أيّ وزن من هذه الأوزان، وأيّ بحر من هذه البحور؛ فلذلك فمن قال بشعريّة القرآن الكريم فهو جاهل بالشّعر وحقيقته وأوزانه وبحورهما، وأنّ الشّعر يجب أن يكون أشطار أبياته متساوياً في الوزن وفي الحركات وفي الطّول والقصر، والقرآن ليس كذلك فلا يكون شعراً، وعند التّطبيق يظهر ذلك جليّاً لا خفاء فيه، فإنّ قوله تعالى: ﴿قل أعوذ بربّ الفلق﴾ تشتمل على تسع حركات إن تسكن قاف فلق، وعلى عشر حركات إن كسرتها، وتاليه وهو: ﴿من شرّ ما خلق﴾ عبارة عن سبع حركات إن حرّكت قاف فلق وعن ستّ حركات إن سكّنته، وهكذا قارن بين كلّ آية وقرينتها، ترى أنّها لا توجد آية تساوي قرينتها في الحركات والوزن والطّول والقصر إلّا نادراً جدّاً. وحيث أنّ القرآن لا يطابق أيّ وزن من أوزان الشّعر وأيّ بحر من بحوره المتعارف عليها لجأ أعداء الإسلام والقرآن في هذه الآونة الأخيرة أن ينشروا ويبثّوا ويشجّعوا ما يسمّى بالشّعر الحرّ الّذي استوردوه من الغرب ولا مساس له بالشّعر العربي وأوزان العرب، وأرادوا بذلك معارضة القرآن ويقولوا: إنّ القرآن شعر من هذا النّوع من الشّعر. إلّا أنّ ذلك لا يروي غليل صدورهم، فإنّ كلّ عاقل يعلم أنّ الشّعر الحرّ ليس بشعر، وأنّ تسميته شعراً باطلة لأنّها مخالفة للّغة والاستقراء والإصطلاح، وأنّه مثل ما أن يتّفق أناس فيسمّوا الشّمس طيناً والقمر تراباً والأرض ماءً والماء هواءً إلى غير ذلك فيبدلوا بذلك اللّغة العربيّة ويحوّلوها إلى لغة جديدة مخترعة ما أنزل الله بها من سلطان. ولا تجد لها من القواميس من برهان. فالحقّ أنّ الشعر الحرّ نشأ من دسّيسة أجنبيّة عملت ذلك وروّجته للطّعن في القرآن، كما وأنّها دبّرت دسيسة أخرى لترويج اللّغة العامّيّة (الجلفية) وتسميتها عربيّة، وتحويل الأدب والكتابة والرّسميات إليها، وذلك لينسى النّاس لغة القرآن فلا يفهموه وليبطل ذلك مفعول القرآن من الدّعوة إلى الله وإلى الإسلام وأخلاقه وأعماله وأحكامه ومعاملاته، فيبتعدوا كلّ البعد عن الإسلام ونظامه ومنهجه الصّحيح المستقيم. هذا وأنّه لايتأسّف من الأجنبي حينما يفعل ذلك. بل إنّ الّذين يتأسّف منهم هم بعض العرب الّذين يروّجون فكرة الشّعر الحرّ وفكرة تأصيل اللّغة العاميّة دون أن يشعروا أنّ هذه الفكرة تهدف إلى هدم كيانهم، وإنّ الشّعر الحرّ ليس من الأصول العربيّة وليس بشعر ولا حرّ كما حقّقنا ذلك، بل إنّه تقليد محض للاجنبي ولاشكّ أنّ التّقليد هو رمز للعبوديّة لا للحريّة وهدم للكيان الدّيني والدّنيوي جميعاً. هذا وإنّ الكلام

حول هذا البحث طويل يحتاج إلى تأليف خاص إلّا أنّه ذكرنا ما هو يناسب المقام واقتصرنا على هذا المقدار وأنّ العاقل تكفيه الإشارة .**(إن هو الآ ذكر وقرآن مبين)** أي ليس المنزّل على محمّد إلّا ذكر وموعظة وإرشاد وتنبيه وتذكيره بما ركّز في العقول السّليمة من وجود الله تعالى وقدرته ووحدته وحقيّة القيامة والحساب بعد الموت، وأنّ هذا المنزّل قرآن واضح معناه ومفهومه وما يدعو إليه. أو هو قرآن موضّح لما فيه من أحكام الله تعالى ومواعظه ونصائحه وغير ذلك ممّا يشتمل عليه، فإنّ كلّ ما في القرآن هو ممّا يوافق العقل السّليم والمنطق والفطرة الإنسانيّة إلّا أنه غفل الإنسان عنه لأسباب تقليديّة أو إقتصاديّة أو شهوانيّة، ذكرت كلّ هذه الأسباب ودليلها في كتابي (تفهيم الأمّة تفسير جزء عمّ) عند قوله تعالى: ﴿إن هو إلّا ذكر للعالمين﴾ سورة التكويرالآية/ ٢٧. . فلم يأت القرآن إلّا ليذكّر الإنسان بما هو من معقولاته ومسلّماته ولذلك سمّى ذكراً **(لينذر) الضّمير في لينذر عائد إمّا إلى القرآن أو إلى محمّد الّذي يفهم من ضمير (وما علّمناه** ....الآية السّابقة) والمآل واحد، فإنّ القرآن جاء لينذر ومحمّد جاء لينذر بالقرآن وبما أوحي إليه **(من كان حيّاً)** أي كلّ من كان حيّاً، فيفيد أنّ دعوة الإسلام عامّة وأنّ الرّسول (ﷺ) بعث إلى النّاس كافّة **(ويحقّ القول على الكافرين)** من عطف المسبّب على السّبب، فإنّ الله تعالى لا يعذّب أحداً إلّا بعد التّبليغ والإنذار كما قال تعالى: ﴿وماكنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥ ـ ولكنّه بعدما أنذر فكلّ من تولّى عن الإنذار ولم يعتنق دينه ولم يعمل بشريعته فقد كفر. ويكون القول والحكم عليه بالعذاب حقّاً وعدلاً، فعلى هذا يكون الإنذار سبباً لظهور كفر الكافرين، وهو سبب لحقيّة القول بالعذاب عليهم، فالمعنى: لينذر كلّ حيّ، وبسبب ذلك الإنذار يحقّ القول بالعذاب على من لم يذعن ولم يعمل على مقتضى الإنذار، وهم الّذين كفروا بالمنذر والإنذار، ففائدة الإنذار هي تمييز الضّال من المهتدي والمؤمن من الكافر، حيث لا يظهر ذلك إلّا بعد الإنذار هذا.

تنبيه: ما قلناه في معنى حيّاً من أنّ المعنى كلّ حيّ أولى من تفسيره بقولهم من كان مؤمناً وذلك لأمور:

أوّلاً: إنّه قبل الإنذار لا تميّز بين المؤمن والكافر، وإنّما يظهر ذلك بعد الإنذار، فمن يقبل الإنذار فهو مؤمن ومن أبي فهو كافر.

ثانياً: إنّ الإنذار عامّ لكلّ النّاس، وتخصيصه بالمؤمن لا دليل عليه بالرغم من أنّ

المؤمن لا يعرف إلّا بعد الإنذار، فكيف ينذر من لايعرف وقبل معرفته.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ القرآن جاء لينذرهم على الشّرك بالله تعالى، أراد أن ينبّههم على ما أنعم به عليهم من النعم الّتي تدعو إلى الإيمان به وحده وتنزيهه عن كلّ شريك، وتخصيصه بأن يطاع هو ولا يطاع غيره، فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

(أولم يروا) أي لم يعلموا ويتفكّروا **(أنّا خلقنا لهم)** أي خلقنا لمنفعتهم **(ممّا عملت أيدينا أنعاماً)** وهي الإبل والبقر والضّأن والمعز، فإنّ هذه الأشياء كلّها خلقت بأيدي الله أي قدرته الخاصّة، ولا دخل لأحد في وجودها وإيجادها **(فهم لها مالكون)** يتصرّفون فيها حسب مشيئتهم وإرادتهم **(وذلّلناها لهم)** أي وسخّرنا هذه الحيوانات لهم وجعلناها منقادة لهم، يقودها القويّ والضّعيف والكبير والصّغير والغنيّ والفقير، ولولا تسخير الله تعالى لها لما استطاع الإنسان أن يستعمل هذه الدّواب والأنعام، ألّا ترى أنّ الإبل الشّاردة لا يقدر عليها أحد، والخيل الشّموس لا يقاد، وهكذا فكلّ حيوان لم يسخّره الله للإنسان لا يستطيع الإنسان أن يستفيد منه، ولكنّ الله تعالى سخّر هذه الحيوانات **(فمنها ركوبهم)** وهي الإبل **(ومنها يأكلون)** أي ومن لحمها يأكلون، وهذا يشمل الكلّ لأنّ الأنعام كلّها ممّا يؤكل لحمها **(ولهم فيها منافع)** كالحمل على الإبل والبقر والحرث بالبقر، وكالإنتفاع بأصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز في صنع الأثاث واللّباس وغير ذلك من منافع أخرى **(ومشارب)** من ألبانها **(أفلا يشكرون)** هذا المنعم بأن يوحّدوه ويؤمنوا بأنّ من أنعم هذه النّعم لا يليق بأن يعبد معه أحد، وأنّ من قدر على خلق هذه الأشياء لا يحتاج إلى شريك، فلا شريك له لأنّ الشّريك لا يكون إلّا للعاجز، ثمّ أشار تعالى إلى كفرانهم لهذه النّعم وجهلهم الّذي أحاط بهم، حيث

إنّهم بعدما علموا أنّ هذه النّعم خلقها الله لهم وهو القادر المقتدر، تراهم يعبدون غير الله ممّا لا يقدر حتّى على حفظ نفسه والدّفاع عنها فقال تعالى: **(واتّخذوا)** أي جعلوا واعتقدوا **(من دون الله)** وجود آلهة فعبدوهم وتقرّبوا إليهم فيذبحون قرابين لهم، ويستغيثون بهم ويدعون منهم دفع الضرّ ورفعه وجلب الخير وإبقاءه، ويفعلون كلّ ذلك **(لعلّهم ينصرون)** أي يرجون وراء عبادتهم لهم وتقرّبهم إليهم أن ينصروهم هؤلاء، ولا يعقلون أنّهم على جهل في ذلك عظيم لأنّ هذه الآلهة **(لايستطيعون)** أي أنّ هذه الآلهة لا يستطيعون **(نصرهم)** نصر هؤلاء الّذين يعبدونهم ويستعينون بهم، بل إنّ الّذين يعبدون هذه الآلهة **(وهم لهم)** أي للآلهة **(جند محضرون)** يحفظونهم إذ لولا هؤلاء العبدة لبال على تلك الآلهة الكلاب ودنّسهم الذّباب، فلا يستطيعون نصر أنفسهم، فمن لا يستطيع نصر نفسه كيف ينصر غيره؟ إنْ هذا إلّا ضلال مبين ولكنّ التّقاليد تعمي والمنافع تصمّ، وإذا ضلّ الإنسان فيكون أضلّ من كلّ شيء ﴿إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً﴾ سورة الفرقان الآية/ ٤٤. ثمّ لمّا قام الرّسول (ﷺ) بالإنذار والتّبشير والدّعوة إلى الله تعالى ودينه، وذمّ آلهة المشركين بدأ أعداؤه يقابلون بالمثل ويقولون فيه وفي دينه ما يؤذيه ويحزنه فسلّاه الله تعالى وقال: **(فلا يحزنك قولهم)** أي فلا تبال بقولهم ولا تحزن بما يقولون فيك وفي دينك حيث **(إنّا نعلم ما يسرّون)** من قول وعمل ودسيسة ضدّ هذا الدّين **(وما يعلنون)** من معاداتهم لك ولدينك، وهذا وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين، فإنّ إخبار الله تعالى بأنّه أعلم بسرّ الكافرين وعلنهم ولا يراد منه الإخبار بذلك لأنّ الرّسول (ﷺ) كان يعلم ذلك ولا ينكر، بل إنّ المراد من ذلك هو أنّه ينتقم منهم على سرّهم وعلنهم من القول والعمل ضدّ الإسلام ورسوله حسب علمه هذا، فكلّ كلام يذكر فيه وصف الله بأنّه عليم أو خبير أو بصير أو قدير أو مريد لا يراد منه الإخبار بذلك، بل يراد منه شيء آخر كالوعد والوعيد والاستدلال على شيء وغير ذلك، ويعرف ذلك بحسب الحال والمقال والسّياق.

ثمّ بدأ الله تعالى بذكر مايدلّ على إمكان الحياة بعد الموت، وأشار في طيّ ذلك إلى غفلة الإنسان وجهله وصلافته وأنّه وصل في ذلك إلى حدّ يتعجّب منه فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ

﴿أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾

(أو لم ير الإنسان) أي أو لم يتفكّر الإنسان ولم يتذكّر في حاله ووجوده فيعلم **(أنا خلقناه من نطفة)** صغيرةٍ قذرةٍ؛ ليوقن بذلك أنّ من استطاع أن يخلقه من هذا الشّيء المهين لقادر على أن يعيد إليه الحياة بعد موته، ولكنّ الإنسان عكس الآية **(فإذا هو خصيم)** ظاهر الخصومة لما يقوله الله تعالى ويبلّغه الرّسل من أنّ الإنسان سيحيا بعد الموت ويعاد بعد الفوت ويحاسب على ما عمل في الدّنيا ويجزى حسب ذلك إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر **(وضرب لنا مثلاً)** أي وبلغ الإنسان من خصومته إلى أنّه ضرب وذكر مثلاً يدلّ بزعمه على عدم إمكان الإحياء بعد الموت **(ونسي خلقه)** أي ونسي أنّه خلق أوّلاً من العدم، فإذا أعيدت الحياة إلى أجزائه الأصليّة وأصبح حيّاً مرّة أخرى فليس بعجيب، فإنّ ذلك أسهل من الخلق الأوّل حسب عقول العباد وتقديرهم، هذا وإنّ مثله هو أنّه **(قال من يحيي العظام وهي رميم)** أي من الّذي يستطيع أن يعيد الحياة إلى هذه العظام وهي بالية لاحياة فيها ولا يصلح للحياة **(قل يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة)** أي قل يا محمّد وأيّها المؤمن حينما يجادلك الملحد في ذلك قل يحيي هذه العظام ويعيد إليها الحياة الخالق الّذي أنشأها وأوجدها وأعطاها الحياة أوّل مرّة من تراب كآدم، أو من نطفة كأولاده، فالّذي يقدر على إيجاد الحيّ والحياة في التّراب ومن التّراب أو من النّطفة لقدير على إعادة الحياة إلى الميت وعظامه الّتي أصبحت تراباً **(وهو بكلّ خلق عليم)** أي أنّ الله الّذي خلق هذا الخلق أوّل مرّة من العدم عليم بكلّ نوع من أنواع الخلق مثل الإبداء والإعادة، فبعلمه هذا يعمل في حالة الإبداء وفي حالة الإعادة، فتبارك الله أحسن الخالقين إبداء وإعادة. ثمّ حيث أنّ سبب إستبعاد النّاس الحياة بعد الموت ينشأ من أنّ أجزاء الإنسان تصير أمواتاً وتراباً لا حياة فيه، وأنّ الحياة والموت متضادّان، فكيف تسري الحياة فيما أستقر فيه الموت، فإنّ هذا شيء عجيب، ولذلك

استدلّ الله تعالى على سهولة ذلك وإمكانه بما هو موجود ومشاهد لكلّ إنسان فقال تعالى: **(الّذي جعل لكم من الشّجر الأخضر ناراً)** أي أنّ الله تعالى يوجد الحياة في العظام الميتة البالية، كما أنّه يوجد النّار الّتي هي ضدّ الماء وضدّ الرّطوبة من الشّجر الّذي هو رطب ويسيل منه الماء، وذلك أنّه توجد شجرتان أحدهما تسمّى مرخاً والآخر تسمّى عفاراً، فيؤخذ عود من المرخ وعود من العفار فيضرب العفار على المرخ أو بالعكس فتخرج النّار من العفار ويشتعل منها المرخ، في حين أنّ العودين رطبان ويسيل منهما الماء إلّا أنّه يخرج ويشتعل من بين هذين الرّطبين الّذين يسيل منهما الماء نار مشتعلة **(فإذا أنتم منه)** أي من هذا الشّجر توقدون نيرانكم. ثمّ ألفت الله تعالى أنظار النّاس إلى ما هو أعظم من إعادة الإنسان بعد الموت، ليعلموا بذلك أن من قدر على هذا الأمر العظيم لقدير على خلق الإنسان وإعادته بعد الممات، فإنّ هذا أصغر وأقلّ وأسهل حسب عقول العباد وتقديرهم من هذا فقال :**(أو ليس الّذي خلق السّموات والأرض)** أي أليس الّذي خلق هذا الكون العظيم والعجيب من السّموات وما فيها من شموس وأقمار وكواكب ونجوم، ومن الأرض وما عليها من جبال وما فيها من نبات وحيوان وأشجار وعيون وأنهار وسهول وجبال وصحارى ووديان وبراري وأبحار، أو ليس الّذي خلق هذا كلّه **(بقادر على أن يخلق)** أي أن يعيد **(مثلهم)** أو مثل أفراد النّاس وهم أصغر وأسهل من هذا الكون **(بلى)** أي إن من تفكّر في هذا الكون وما فيه وقارن بينه وبين خلق الإنسان من جديد وإعادته لا يبقى له مجال إلّا وان يعترف ويقول: **(بلى)** أي أنّ هذا القادر العظيم لقادر على ذلك **(وهو الخلّاق)** أي أنّه عظيم الخلق وكثيره وسديده **(العليم)** فبعظم خلقه وشدّته وعلمه بدقائق الأمور وحقائقها يعيد هذا الإنسان، وليس ذلك عليه بعزيز. ثمّ وصف الله تعالى قدرته الباهرة وخلقه القاهر فقال: **(إنّما أمره إذا أراد شيئاً)** أي أنّ قدرة الله تعالى بلغت حدّاً لا يحتاج تعالى في خلق أيّ شيء إلى أيّ شيء، بل إنّ شأنه في خلق الأشياء ليس إلّا أنّه أراد وجود شيء **(أن يقول له كن فيكون)** ذلك الشيء فوراً فبهذه القدرة يعيد الإنسان ويحييه بعد الموت.

تنبيه: ليس معنى هذه الآية أنّ كل تكوينات الله تعالى يكون بقوله كن فيكون فوراً وبدون تدريج، بل إنّ بعض الأشياء يخلقه الله تعالى تدريجاً وبتدرّج الأسباب والمسبّبات، ويخلق بعضها فوراً وبدون تدريج ويسمّى الأوّل: عالم الخلق أي عالم الأسباب. ويسمّى الثّاني: عالم الأمر أي عالم الأمر بوجوده دون سبب، وكلّ ذلك يرجع إلى الله تعالى كما قال: ﴿ألا له الخلق والأمر فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ سورة

المؤمنون الآية/ ١٤، إلّا أنّ الله تعالى إذا أراد في كلّ شيء الفور يكون فوراً، وإن أراد التّدريج يكون تدريجاً، فهو مختار في كلّ شيء بين التّدريج والفور وكلّ ذلك يجري حسب إرادته ووفق الحكمة والمصلحة.

* * *

(فـ) أي بعد ما علمت ذلك من قدرة الله تعالى وعظمته وتدبيره وأمره **(سبحان الّذي)** أي فأعترف بتنزيه الله الّذي **(بيده ملكوت)** تصرّف وتدبير كلّ شيء موجود في الكون من السّموات والأرض وما فيهما، فاعترف بتنزيه هذا القادر العظيم عن أن يعجز عن أحياء الموتى وعن البعث والنشور والحشر والحساب، بل إنّه لقادر على كلّ ذلك، وأنّه يحييكم أيّها النّاس جميعاً **(واليه ترجعون)** بعد هذا الإحياء، فيجازي كلّاً وفق عمله إن خيراً فبالثّواب والنّعيم وإن شرّاً فبالعقاب والجحيم، فطوبى لمن حظي بحسن الأعمال واستقام على الخير ورزق حسن الختام، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

أعيد تصحيحه وتم في ٢٢ سفر ١٤٠٥ هجرية، الموافق ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٤ ميلاديّة في داري في سبع أبكار في بغداد طهّرها الله تعالى من الفسق والجور والفساد .... آمين.

سورة الصّافات

(مكيّة نزلت بعد سورة الأنعام، وآياتها مائة وإثنتان وثمانون)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾﴾

أقسم الله تعالى صورةً بهذه الأمور على أنّه الإله الواحد، ولكنّ في الحقيقية أرشدنا إلى من يعرف ويعترف بوحدانيّة الله تعالى، وإلى طريق الوصول إلى العلم بهذه العقيدة الكبرى الّتي هي أساس كلّ خير وسعادة في الدّنيا والآخرة، فإنّ المعنى، والله تعالى أعلم، هو أنّ الطّوائف الّتي تصفّ أقدامها في الصّلوات وسائر العبادات لله تعالى صفّاً صادقاً وإبتغاءً لوجه الله تعالى بعيداً عن الرّياء وعن غرض آخر سوى إبتغاء وجه الله تعالى وإمتثال أمره، والّتي تزجر نفسها عن المعاصي والمناهي زجراً لا رجوع اليها، فالّتي تتلو آيات الله تعالى الآيات الكونيّة والقوليّة، تلاوة فهم وتدبّر واتّعاظ، فهذه الطّوائف وتلك النّفوس والعقول هي الّتي تدرك وتعلم وتعترف بأنّ إلهكم لواحد لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في أحكامه. فإنّ النّفوس الّتي لم تسلك سبيل معرفة الله تعالى، ولم تصقل بعبادته وتدنّست بالمعاصي والذّنوب والشّهوات، وغفلت عن آيات علّام الغيوب أنّى لها الوصول إلى هذه الحقيقة الكبرى ودرك هذا الأمر العظيم، واعتناق هذه العقيدة المستقيمة، وقد تعودّت بالأسباب والمسبّبات والآثار والمؤثرات، وابتعدت بذلك عن مسبّب الأسباب والمؤثر في الآثار والمؤثرات، فأولئك كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، فطريق الوصول إلى توحيد الله تعالى

ومعرفته هو العبادة والتّفكر في آياته الكونيّة والقوليّة قال تعالى: ﴿والّذين جاهدوا فينا لنهديّنهم سبلنا وإنّ الله لمع المحسنين﴾ سورة العنكبوت الآية/ ٦٩. وذكر المفسّرون: أنّ المراد بهذه الطّوائف الملائكة، إلّا أنّ ما ذكرنا هو أنسب بالمقام، كما وأنّه يشمل الملائكةً أيضاً فيكون أولى بالقبول. ثمّ استدلّ الله تعالى على أنّ الله تعالى واحد لا شريك له، فقال جلّ وعلا: (ربّ السّموات والأرض وما بينهما وربّ المشارق) أي أنّ الله تعالى ربّ السّموات كلّها والأرض وما بينهما من الغيوم والكواكب والشّموس والأقمار، ومن كان هذا ملكه فهو واحد لا شريك له، لأنّ الشّريك إنّما يكون لعاجز، ومن يكون هذا ملكه فله قدرة بلغت النّهاية في الكثرة والشّمول، فلا يكون عاجزاً ليتّخذ شريكاً. وجمع المشارق لأنّ حركة الأرض الّتي تطّلع بها الشّمس وتغرب هي بين مدار السّرطان إلى مدار الجدي جنوباً، ومن الجدي إلى السّرطان شمالاً، وبهاتين الجولتين تحدث الفصول الأربعة، وبين أوّل السّرطان إلى أوّل الجدي مائة وثمانون درجة، ففي كلّ يوم تطلع الشّمس من درجة وتغرب من مقابلها في جانب الغرب؛ فتكون للشّمس مائة وثمانون مشرقاً ومائة وثمانون مغرباً، ولذلك قال تعالى: ﴿فلا أقسم برّب المشارق والمغارب﴾ سورة المعارج الآية/ ٤٠. واكتفى هنا بذكر المشارق عن المغارب للعلم به من ذكر المشارق، لأنّهما متلازمان. وضع هذا الاستدلال لأمور:

الأمر الأوّل: أنّهم كانوا يعترفون بربوبيّة الله تعالى وخالقيّته للسّموات والأرض، قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السّموات والأرض وسخّر الشّمس والقمر ليقولنّ الله قل فأنّى يؤفكون﴾ سورة العنكبوت/ ٦١ .وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من نزّل من السّماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون﴾ سورة العنكبوت الآية/ ٦٢. وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السّموات والأرض ليقولنّ الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون﴾ سورة لقمان الآية/ ٢٥. إلى غير ذلك من آيات كثيرة تخبر بأنّ المشركين كانوا يؤمنون بربوبيّة الله للسّموات والأرض وما بينهما وخلقه لها.

الأمر الثّاني: من الأمور الّتي كان المشركون ينكرون هو رسالة محمّد ويقولون له إنّه لمجنون كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: (وإن يكاد الّذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمّا سمعوا الذّكر ويقولون إنّه لمجنون * وما هو إلّا ذكر للعالمين﴾ سورة (ن) الآيتان/ ٥١، ٥٢. أي استولي عليه الجنّ ويلقون إليه هذا الكلام مثل ما يلقون إلى سائر الكهنة فهو كاهن وليس برسول.

* * *

فردّ الله تعالى على قولهم هذا بأنّ الله تعالى قد منع الجنّ من الصّعود إلى السّماء وأبطل بذلك التكهّن والكهانة؛ فلم يبق من كاهن ولا تكهّن فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾

(إنا زينا السّماء الدّنيا) أي القربى من الأرض **(بزينة)** وجمال وحسن **(الكواكب)** الّتي جعلت فيها وبذلك تزيّنت **(وحفظاً)** عطف على قوله: زيّنا السّماء، فالتّقدير: إنّا زيّنا السّماء بالكواكب وحفظناها حفظاً بالكواكب **(من كلّ شيطان مارد)** متمرّد عن أمر الله تعالى، ثمّ بيّن الله تعالى كيفية ذلك الحفظ بالكواكب فقال جلّ وعلا: **(لا يسّمّعون)** أي لا يمكنهم السّمع والاستماع **(إلى الملأ الأعلى)** وهو عالم الملائكة واللّوح والأنباء الغيبيّة، فلا يستطيعون الصّعود إلى السّماء لاستماع تلك الأخبار والإتيان بها إلى وكلائهم من الكهنة لأنّهم **(يقذفون)** يرمون بالشّهب المنفصلة من الكواكب **(من كلّ جانب)** من جانب السّماء، وبذلك يدحرون **(دحوراً)** أي يطردون طرداً عنيفاً في الدّنيا حينما يصعدون إلى السّماء، وهذا في الدّنيا **(ولهم)** في الآخرة **(عذاب واصب)** أي دائم وموجع **(إلّا من خطف الخطفة)** أي لا يسمع أحد منهم إلّا من كان سريعاً جدّاً، فأخذ وسمع شيئاً لسرعته وبكلّ سرعة، وذلك لا ينجح أيضاً فإنّه لا يستطيع أن يوصله إلى وكلائه في الأرض، فإنّه قبل وصوله الأرض **(فأتبعه)** أي فيلحقه **(شهاب)** قبس من النّار **(ثاقب)** مضيء فيحرقه قبل الوصول إلى الأرض. وبهذه الصّورة أبطل الله تعالى الكهانة ووضع موضعها النّبوة والرّسالة

سؤال: هنا ينشأ سؤال وهو: أنّ الشّهب قد كانت موجودة قبل بعثة محمّد (ﷺ) فلمَ لم تقض على الكهانة؟ وكيف قضيت عليها ومنعت الجنّ بعد البعثة من الصّعود والاستماع؟

الجواب: أنّ هذه الشّهب كانت موجودة إلّا أنّها لم تكن موجودة في كلّ جانب من جوانب السّماء، فكانت الجنّ تصعد من الجوانب الفارغة وتصل إلى محلّ يسمع فيه الأخبار وتخلط فيها من أكاذيبها، ويأتي بها إلى الكهنة، فلمّا بعث محمّد (ﷺ) خلقت

الشّهب من كلّ الجانب ومنعت الجنّ من صعود من أي جانب أراد الصّعود فيه، كما تعالى في الآية السّابقة: (**ويقذفون من كلّ جانب**) وقال حكاية عمّا قال الجنّ: ﴿وأنّا لمسنا السّماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا• وإنّا كنّا نقعد منها مقاعد للسّمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾ سورة الجن الآيتان/٨، ٩.

الأمر الثّالث: أنّهم كانوا ينكرون البعث أي الحياة بعد الموت ويقولون: ﴿أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً أإنّا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون *﴾ سورة الصافات الآيتان/ ١٦، ١٧. ويقولون ذلك إنكاراً واستهزاءً بالمؤمنين والرّسول (ﷺ) ويخبرونهم وينذرونهم بيوم القيامة والحشر والحساب، فردّ الله تعالى على زعمهم هذا وإنكارهم واستبعادهم للحياة بعد الموت فقال جلّ وعلا:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾

(**فاستفتهم**) أي إذا استبعدوا الإحياء بعد الموت استفتهم (**أهم أشدّ**) أصعب (**خلقاً**) إعادةً بعد الموت أي إحياؤهم بعد الموت أصعب (**أم من خلقنا**) أم خلق من خلقنا ممّا ذكر قبل من السّموات والأرض والنّجوم والكواكب والملائكة؟ والاستفهام للإنكار، أي ليس خلقهم وإعادتهم مرّةً أخرى بأصعب من خلق هذا الكون العظيم وما فيه، وإنّ خلقهم سهل جدّاً حيث (**إنّا خلقناهم**) أوّل مرةٍ (**من طين لازب**) أي لاصق يلصق باليد إذا مسسته، حيث خلق أصل البشر وهو آدم من ذلك الطّين، فحيث قدّرنا خلقكم أوّلاً من هذا الطّين فنستطيع أن نعيد خلقكم من طين آخر أو بنوع آخر (**بل عجبت**) أي فإذا استفتيتهم هل يفتون ويؤمنون بأنّ خلقكم وإعادتهم أسهل وأنّهم يعادون؟ كلّا (**بل عجبت**) من حالهم وهو أنّهم يصرّون على إنكارهم (**ويسخرون**) من هذا الخبر وهو أنّهم يبعثون بعد الموت (**وإذا ذكّرنا**) بالآيات كلّها الكونيّة والقوليّة (**لايذكرون**) لا يذكرون ولا يتّعظون (**وإذا رأوا**) بأنفسهم (**آية**) تدلّ على ذلك دلالة لا خفاء فيها (**يستسخرون**) يطلب بعضهم عن بعض أن يسخر منها ويستهزئ بها لغلوّهم

في الكفر والعناد **(وقالوا)** في تأويل الآية ومعارضتها **(إنّ هذا)** ليس هذا الّذي رأيناه **(إلّا سحر مبين)** واضح وليست آية تدلّ على ذلك ولا دليلاً عليه **(أإذا متنا)** وبليت أجسامنا وأبداننا **(وكنّا تراباً)** في القبور **(وعظاماً)** بالية نخرة متعفّنة **(إنّا لمبعوثون)** لمرجوعون إلى الحياة، وكيف تسري الحياة في هذه العظام النّخرة وأجزاء التّراب المنتشرة **(أو آباؤنا الأوّلون)** يبعثون ويحيون؟ والإستفهام هذا للإنكار، فمرادهم أنّهم لا يبعثون لا هم ولا آباؤهم الأوّلون ولا الآخرون، لأنّ ذلك عندهم بعيد عن العقل وشيء مستحيل، فأجابهم الله تعالى عن هذه الاستفهامات الإنكاريّة بما فيه الوعيد الشّديد فقال جلّ وعلا: **(قل)** يا أيّها الرّسول **(نعم)** أنتم وآباؤكم الأوّلون لمبعوثون **(وأنتم)** بعد البعث والإحياء **(داخرون)** أذلّة صاغرون حيث كفرتم بذلك اليوم، وهنا كأنّ قائلاً يقول: فمتى يكون هذا البعث والإحياء؟ وما هي علاماته؟ فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾

(فإنّما هي) أي فإنّ القيامة تأتي بغتةً ودون أن يعلم بها النّاس فليست هي **(إلّا زجرةٌ واحدةٌ)** أي صيحةً واحدةً كصيحة الرّامي الّتي يوحّد بها الغنم **(فإذا هم)** أحياء من قبورهم **(ينظرون)** أي ينظر بعضهم إلى بعضٍ ويتفكّرون فيما وقع، ويتذكّرون ما قيل لهم في الدّنيا، من أنّهم يبعثون بعد الموت ليوم الدّين، فيعلمون أنّ هذا هو ذلك اليوم **(وقالوا)** فيقولون **(ياويلنا)** أي يا قوم الهلاك لنا **(هذا يوم الدّين)** الّذي كان الرّسول والدّعاة ينذروننا به فلم نصدّقهم، فهذا هو ذلك اليوم، وقد صدقوا ونحن كذّبنا؛ فاستحق لنا الويل والهلاك والثّبور، فهم يقولون هذا ندامةً وتحسّراً، ويناديهم الملائكة والمؤمنون تبكيتاً وتقريعاً ويقولون لهم: **(هذا يوم الفصل)** أي التّميز بين الحقّ والباطل والمؤمن والكافر **(الّذي كنتم)** في الدّنيا **(به تكذّبون)** ولا تؤمنون به.

ثمّ أخبر الله تعالى عن مصير الكافرين في ذلك اليوم فقال جلّ وعلا:

﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(احشروا الّذين ظلموا) أي يقول الله تعالى لملائكته **(احشروا)** أي اجمعوا **(الّذين ظلموا)** أي خرجوا عن شريعة الله تعالى وتجاوزوا حدوده الّتي حدّها لهم **(وأزواجهم)** أي ومع أصنافهم وأمثالهم أجمعوا كلّهم **(وما يعبدون من دون الله)** مع من يطيعونهم غير الله، فيرتكبون الكفر أو المعاصي إطاعةً لهم وتنفيذاً لرغباتهم وأوامرهم، اجمعوا هؤلاء كلّهم التّابعين والمتبوعين **(فاهدوهم)** أي فسوقوهم **(إلى صراط الجحيم)** وهي جهنّم **(وقفوهم)** أمام الله تعالى **(إنّهم مسؤولون)** من عند الله تعالى على الكفر والمعاصي، ويذلّون على ذلك، ويقال لهم تبكيتاً وتقريعاً: **(ما لكم)** أي سبّب لكم ولماذا **(لا تناصرون)**؟ أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كان ينصر بعضكم بعضاً على الكفر ومعاداة المؤمنين في الدّنيا، فلا يستطيعون من التّناصر شيئاً **(بل هم اليوم)** يوم القيامة والوقوف بين يدي الله **(مستسلمون)** متقاعدون أذلّاء بعد ما كانوا في الدّنيا طغاة متجبّرين.

تنبيه: ظهر من قوله تعالى: (وما يعبدون من دون الله) إنّ إطاعة غير الله تعالى فيما يخالف أمر الله تعالى شرك وعبادة لغير الله تعالى، وإنّ العبادة هي الإطاعة لأنّ المراد بما يعبدون هم الّذين يأمرون النّاس بأمور تخالف أمر الله تعالى أو يعلّمونهم أموراً خلاف شرع الله، أو يرضون بتقديس النّاس لهم وإعتقادهم فيهم أنّ لهم صفات تخصّ الله تعالى، وذلك بدليل قوله جلّ وعلا:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾

فإنّ معنى هذه الآيات أنّهم حينما يساقون إلى النّار ودخلوا فيها أصبحوا يتخاصمون فيما بينهم. كما قال تعالى **(وأقبل بعضهم)** وهم الأتباع **(على بعض)** وهم قادة الشّر ودعاة الباطل **(يتساءلون)** أي يسأل بعضهم بعضاً سؤال خصام وعتاب **(وقالوا)** فيقول الأتباع للمتبوعين إنّكم أيّها القادة والسّادة **(كنتم)** في الدّنيا **(تأتوننا عن اليمين)** أي بالقوّة فكنتم تقهروننا وتجبروننا على الكفر والباطل والمعاصي، وإنّ مصيرنا هذا كلّه

من ضلالكم وإضلالكم لنا **(قالوا)** أي الرّؤساء المتبوعون ليس الأمر كما تقولون **(بل أنتم)** باختياركم **(لم تكونوا مؤمنين)** وما أجبرناكم على الكفر والباطل والشّرك حيث **(وما كان لنا عليكم من سلطان)** أي من قوّة نجبركم بها على الباطل **(بل كنتم)** أنتم في قرارة أنفسكم **(قوماً طاغين)** متجاوزين الحقّ ومحبّين للباطل **(فحقّ علينا)** جميعاً نحن وإيّاكم **(قول ربّنا)** أي حكم ربّنا بالعذاب **(إنّا لذائقون)** أي فكلّنا ذائقون العذاب ولا حقّ لكم في ملامنا، حيث ما أجبرناكم على الباطل بل دعوناكم إليه مجرّد دعوة **(فأغويناكم)** أي أضللناكم حيث **(إنّا كنّا غاوين)** فأحببنا أن نغويكم كما غوينا، ثمّ ذكر الله تعالى سبب مخاصمتهم فقال: **(فإنّهم)** أي الأتباع والمتبوعين كلّهم **(يومئذٍ)** يوم إذ سوقوا إلى الجحيم **(في العذاب مشتركون)** وإن كانت حصّة المضلّين أكثر ودركاتهم أسفل، هذا والمراد بالقوّة الّتي كان المضلّون يضلّون بها النّاس قوّة المادة كالمال أو السّلاح أو قوّة الكلام والجدل والإقناع، أو قوّة الدّعاية الرّوحية المبنيّة على الأكاذيب والأباطيل والسّفسطات، أو غير ذلك ممّا يجلب النّاس بها إلى التّبعية والإنقياد، فكلّ من يدعو النّاس بغير الكتاب والسّنة وما استنبط منهما، وإلى أيّ منهج غير منهج الإسلام الصّحيح والتّوحيد الصّريح فهو مضلّ ومن تبعه ضالّ، وسواء كانت الدّعوة بالقوّة أو المال أو الغلبة في الجدل والكلام، وإنّهم يقعون في هذا التّخاصم ويستحقّون عذاب جهنّم، وتنقلب صداقتهم عداوةً واتّفاقهم نزاعاً كما قال تعالى: ﴿الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعضٍ عدوّ إلّا المتّقين﴾ سورة الزخرف الآية/ ٦٧. وقال تعالى: ﴿إذ تبرّأ الّذين اتّبعوا من الّذين اتّبعوا ورأوا العذاب وتقطّعت بهم الأسباب * وقال الّذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّةً فنتبرّأ منهم كما تبرّؤا منّا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النّار*﴾ سورة البقرة الآيتان/ ١٦٦، ١٦٧. فإيّاك أيّها المسلم من اتّباع كلّ من نعق ونهق، وكلّ من أفصح ونطق، إلّا من كان قوله وعمله وفق شريعة الله وحجّته كتاب الله أو سنّة رسول الله؛ فإنّه ما أكثر الدّعاة وأكثرهم العصاة والعتاة، إلّا من نهج المنهج المستقيم، منهج القرآن وسيّد المرسلين، وصدق في القول والعمل وسلك سبيل الله تعالى فعدل. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مالهم وتخاصمهم وعذابهم، قال جلّ وعلا: **(إنّا كذلك)** مثل ما علمت من سوقهم إلى الجحيم وتخاصمهم في النّار واشتراكهم في العذاب **(نفعل)** يوم القيامة **(بالمجرمين)** بالّذين يجرمون ويستمرّون على الإجرام دون توبة ورجوع إلى الله تعالى، وتصحيح لأعمالهم وأفكارهم وفق شريعة الله تعالى وما جاء به محمّد (ﷺ).

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن كيفيّة إجرامهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجْنُونِۭ ﴿٣٦﴾﴾

(إنّهم كانوا) في الدّنيا **(إذا قيل لهم)** من قبل الرّسول ودعاة الإسلام **(لا إله)** أي لا معبود ولا مطاع ولا مشرّع ولا مؤثّر ولا نافع ولا ضارّ ولامغيث **(إلّا الله)** تعالى **(يستكبرون)** يتعالون عن قبول هذا الكلام، فإنّ بعض المثقّفين المادّيّين يرون التّأثير والنّفع والضّرر من الأسباب المادّيّة الّتي إعتادوها، ولا يرون وراءها مسبّب الأسباب، وبعضهم يرون أنّ للعقلاء حقّ الحكم والتّشريع وإن كان ذلك الحكم خلاف حكم الله تعالى، وبعض أتباع السّادة والكبراء يتّبعون متبوعيهم في كلّ شيء وفيما يخالف أمر الله تعالى، وبعض المتديّنين يرون الإمداد والغوث والنّفع والضرّ من غير الله تعالى، قال الرّسول (ﷺ) (قل إنّي لا أملك لكم خيراً ولا شراً)[1] فكيف بغير رسول الله، فهؤلاء كلّهم إذا قلت لهم **(لا إله)** أي لا مؤثر ولا مغيث ولا مشرع إلّا الله تعالى، يتعالون عن قبول هذا الكلام منك وكلّ طائفة تتّهمك بشيء **(ويقولون)** في جوابك **(أإنّا لتاركوا آلهتنا)** أي نترك عقيدتنا وسادتنا وما ننتفع به **(لشاعر)** يقول عن تخيّلاته **(مجنون)** قليل العقل، ويتّهمونك بأنّه رجعيّ أو خرافيّ، أو يريد أن يرجع بنا إلى الوراء ويمنعنا عن طريق التّقدم والعقل، أو غير ذلك ما يقال في حقّ المسلم الصّادق الّذي يدعو إلى حقيقة الإسلام وحقيقة التّوحيد، وكان الجاهليّون الأوّلون هكذا يقولون للرّسول (ﷺ) حينما يدعوهم إلى توحيد الله ونبذ الأصنام وترك عاداتهم وتقاليدهم، فيقولون **(أإنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون)** فردّ الله تعالى عليهم؛ فقال جلّ وعلا:

---

(١) لم يرد بهذا اللفظ وقد ورد عن أبي هريرة قال لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين، جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فخص وعم فقال يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا يا معشر بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم من الله ضرا ولا نفعا يا معشر بني قصي أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أملك لكم ضرا ولا نفعا يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لك ضرا ولا نفعا إن لك رحما سأبلها ببلالها قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح / أنظرسنن الترمذي ٥/٣٣٨ الحديث رقم ٣١٨٥ و صحيح ابن حبان ٢/٤١٢ الحديث رقم ٦٤٦.

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(بل) أي ليس كما تقولون، وإنّ محمداً ليس بشاعرٍ ولامجنون **(بل جاء بالحقّ)** الّذي لاحقّ سواه **(وصدّق المرسلين)** فإنّ كلّهم كانوا يدعون إلى ما يدعو إليه محمّد من عبادة الله تعالى وتوحيده في الذّات والصّفات والحكم والخلق والتّأثير والإيجاد والأقدار والإمداد **(إنّكم)** أيّها المستكبرون عن قول دعوة محمّد **(لذائقو العذاب الأليم)** الموجع في الآخرة أو في الدّنيا معاً وليس العذاب ظلماً حيث **(وما تجزون إلّا)** وفق **(ماكنتم)** في الدّنيا **(تعملون)** من الكفر والشّرك والمعاصي وترويج العقائد الباطلة والأمور الجائرة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى سوء عاقبة المجرمين وأنّهم لذائقوا العذاب الأليم أراد أن يذكر حال المتّقين والتّابعين للرّسول (ﷺ) والعاملين بشريعته، فقال جلّ وعلا:

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾

(إلّا عباد) أي لكنّ عباد الله **(المخلَصين)** لايذوقون العذاب، وقرىء **(المخلِصين)** بكسر اللّام أي الّذين أخلصوا عبادتهم لله تعالى، وبفتح اللّام أيضاً، أي الّذين أخلصهم الله تعالى لعبادته، والمآل واحد، لأنّ من أُخلص أخلص ومن أخلَص أخلص وأيّهما مقدّم، ففي المراد فعل الله تعالى، وفي المريد فعل العبد أي اختياره الإخلاص، وهاتان القراءتان موجودتان في لفظ **(المخلصين)** أينما ورد في القرآن الكريم. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ المخلصين ليس جزاؤهم النّجاة من النّار فقط، بل لهم فوق ذلك الإنعامات الكثيرة، فذكر الله تعالى تلك الإنعامات فقال: **(أولئك)** أي العباد المخلصين **(لهم رزق معلوم)** مقدّر عند الله تعالى، ثمّ بيّن تعالى ذلك الرّزق فقال: **(فواكه)** أي جميع أنواع الفاكهة **(وهم مكرمون)** مقدّرون محترمون **(في جنّات النّعيم)** الّتي خلقت للتّنعم فيها

(على سرر) يجلسون على سرر **(متقابلين)** بعضهم مقابل بعض لا متكاتفين، فإنّ التّقابل ألذّ، حيث يرى أحدهم الآخر ويتكلّم معه دون الحاجة إلى الإلتفات وتحويل الوجه إليه **(يطاف)** يدار **(عليهم)** من قبل الخدم **(بكأسٍ)** بقدح **(من معين)** من الخمر الجارية **(بيضاء)** في لونها **(لذّة)** أي هي لذّة ليس فيها سكر وزوال عقل، كما قال: **(لا فيها غول)** أي صداع ووجع للرّؤوس كخمر الدّنيا **(ولا هم عنها)** أي بسبب شربها **(ينزفون)** يسكرون. قال القرطبي (ﷺ): قال الضّحاك: كلّ كأس في القرآن فهي الخمر، والعرب تقول للإناء إذا كان فيه خمر: كأس، فإذا لم يكن فيه خمر قالوا: إناء، وقدح ومعين أي خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض، إنتهى قول الضحاك. **(عندهم)** للتّمتع بهنّ نساء **(قاصرات الطّرف)** أي قصرن وحبسن نظرهنّ على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم، ولا يطمعن في سواهم **(عين)** كبيرات العيون حسناتها **(كأنّهن)** في البياض والصّفاء والنّزاهة والطّهارة **(بيض مكنون)** شبّهن ببيض النّعام المكنون، أي المستور في الصّفاء والبياض كعادة العرب لأنّهم يشبّهون النّساء بها ويقولون: بيضاء الخدور، ولم يقل مكنونة مع كونها صفة بيض، جمع بياض أجراء للوصف على اللّفظ، لأنّ البيض لاعلامة للتّأنيث فيها. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نعمتهم المادّية ولذّتهم الجسمانيّة أراد أن يذكر لذّتهن الرّوحية من الفرح والإعتزاز بما أوتوا؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

(فأقبل بعضهم) أي بعض المؤمنين في الجنّة حينما جلسوا على السّرر وطاف عليهم الخدم بالفواكه والشّراب **(على بعض)** آخر من جلسائهم **(يتساءلون)** يسأل بعضهم بعضاً ويتذكّرون أحوال الدّنيا **(قال قائل منهم إنّى كان لي)** في الدّنيا **(قرين)** صديق ملازم لا يؤمن بهذا اليوم فكان **(يقول)** لي **(أئنّك لمن المصدّقين)** بالبعث والجزاء ويوم

القيامة؟ فأقول: نعم، فيقول تعجّباً وإنكاراً: **(أإذا متنا وكنّا تراباً وعظاماً)** بالية في القبر **(أإنّا لمدينون)** لمبعثون ومجزيّون حسب أعمالنا، وفي أثناء هذا الكلام جاءتهم ملائكة **(قال)** لهم **(هل أنتم مطّلعون)** أي هل أنتم تريدون أن تطّلعوا وتنظروا إلى أهل النّار لتروا هذا الشّخص وحاله؟ **(فأطّلع)** أي فنظر إلى جهنّم **(فرآه)** أي فرأ المؤمن قرينه **(في سواء)** في وسط **(الجحيم)** أي النّار، فتوجّه إليه وخاطبه **(قال)** له **(تالله إن كدت)** لقد كدت **(لتردين)** لترديني أي تهلكني بكفرك ودعوتك أيّاي إلى الكفر في الدّنيا **(ولولا نعمة ربّي)** أي لولا أن رحم ربّي وحفظني من اتّباعك **(لكنت)** اليوم **(من المحضرين)** معك في هذا المكان السيّئ الّذي أنت فيه، ثمّ قال له تهكّماً واستهزاءً: **(أفما نحن بميّتين * إلّا موتتنا الأولى)** فإذا متنا هلكنا وليس وراء ذلك شيء آخر **(وما نحن بمعذّبين)** كما كنت تقول في الدّنيا أصدقت في ذلك؟ كلّا، فذق عقاب هذه العقيدة السّيئة والفكرة الباطلة. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المؤمن والمجرم، قال جلّ وعلا: **(إنّ هذا)** الّذي ذكر من تنعّم المؤمن بالنّعم الماديّة والرّوحيّة **(لهو الفوز العظيم)** والفوز النّيل بالأمور المحبوبة والمطلوب الخير، ولا فوز أعظم من هذا الفوز الّذي يناله المؤمن **(لمثل هذا)** الفوز فقط لاغيره **(فليعمل)** فليسع وليجتهد **(العاملون)** في الدّنيا، فإنّ هذا هو اللّائق بأن يعمل الإنسان، وله فوز عظيم ونعمة دائمة وسعادة لا تزول، وبياض في الوجه ورفعة للرّأس بين الأقران.

ثمّ أراد الله تعالى أن يحثّ على العمل لما يناله المؤمنون من الفوز العظيم، وذلك بذكر ما يعتريهم من الحالة السّيئة والعيشة التّعسة الّتي يعيشونها، فقال جلّ وعلا:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾

(أذلك) أي ذلك النّعيم والتّكريم الّذي ذكرنا لعباد الله المخلصين **(خير نزلاً)** وأفضل وأولى ضيافةً بأن يسعى الإنسان لها ويتفادى في تحصيلها **(أم شجرة الزّقوم)** خير وأحسن ضيافة؟ والجواب: هو أنّ ذلك خير، قال القرطبيّ: والزّقوم مشتقّ من

التّزقّم وهو البالغ على جهد لكراهتها ونتنها، قال النّسفي: وشجرة الزّقّوم شجر مرّ يكون بتهامة، وقال الخازن: وقيل: هي شجرة تكون بأرض تهامة من أخبث الشّجر **(إنّا جعلناها)** أي إنّا جعلنا ذكرها في القرآن **(فتنةً للظّالمين)** أي اختباراً لهم حيث كانوا يقولون: كيف تنبت الشّجرة في النّار وهي تحرق الشّجر؟ أو المعنى: جعلناها فتنةً أي عذاباً **(للظّالمين)** حيث يجبرون على أكلها تعذيباً لهم،هذا المعنى أولى لما يأتي من قوله **(فإنّهم لآكلون منها)**، **(إنّها شجرة تخرج)** أي تنبت **(في أصل الجحيم)** أي في قعرها **(طلعها)** الطّلع لبعض الأشجار كالعنقود للكروم **(كأنّه رؤوس الشّياطين)** في قبح منظرها. ثمّ بيّن تعالى كيفيّة كونها عذاباً للظّالمين قال: **(فإنّهم لآكلون منها)** جبراً وقهراً أوجوعاً **(فمالئون منها البطون)** أي بطونهم **(ثمّ إنّ لهم)** بعد الأكل منها **(لشوباً)** لخلطاً **(من حميم)** ماء حارّ يقطع الأمعاء، حيث يعطشون فيسقون من ذلك الماء **(ثمّ إنّ مرجعهم لإلى الجحيم)** تشكّك النّاس في معنى هذه الفقرة ويقال: كيف يرجعون إلى الجحيم؟ وهل خرجوا منها؟ فنقول: إنّ الشّجرة تنبت كما سبق من أصل الجحيم وأغصانها عالية إلى الدّرك الأعلى منها، فيؤتى بهم إلى الدّرك الّذي يصلون منها إلى أكل ثمر الشّجرة ثمّ يرجعون إلى مكانهم في الجحيم.

ثمّ بيّن الله تعالى سبب ضلال المشركين وأكثر الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾

(إنّهم ألفوا) أي وجدوا آباءهم **(ضالّين)** منحرفين عن الحقّ في الواقع لا حسب ظنّهم، لأنّهم لو علموا ضلالهم لما اتّبعوهم، فلم يتفكّروا ليعلموا الحقّ من الباطل، وأخذتهم الحمية والعزّة بالأثم، فلم يتركوا طريقة آبائهم بل **(فهم على آثارهم)** على طريقتهم وعاداتهم وتقاليدهم **(يهرعون)** يحثّون على السّير بشدّة على تلك الطّريقة رغم إنذار الرّسل لهم وتبشيرهم إياهم وبيان الحقّ لهم، وهذه الآية دليل على أنّ التّعصب في المذهب والتّقليد الأعمى وعدم التّفكر في الشّيء من أكبر أسباب الضّلالة والغواية وما أكثر هؤلاء! وكانت هذه الآية تخبر عن أحوال منكري رسول الله (ﷺ). ثمّ ذكر أنّه ضلّ كثيراً من الأقوام قبلهم من هذه الطّريقة أيضاً طريقة التّبعيّة والتّقليد فقال جلّ وعلا:

(ولقد ضلّ قبلهم) أي قبل أهل مكّة ومن حولها **(أكثر)** الأقوام **(الأوّلين)** بسبب تقليدهم واتّباع آبائهم **(ولقد أرسلنا فيهم منذرين)** أي ولم يكونوا في ضلالهم معذورين لأنّه **(ولقد أرسلنا فيهم منذرين)** فبينوا لهم خطأهم وأنذروهم إلّا أنّهم لم يجيبوا ذلك **(فانظر)** أيّها الرّائي وأعلم **(كيف كان عاقبة المنذرين)** من الهلاك والدّمار لتعتبر بهم فلا تضلّ كما ضلّوا، فلا تهلك كما أهلكوا كلّهم **(إلّآ عباد الله المخلصين)** منهم فإنّ الله تعالى أنجاهم وحفظهم ممّا نزل بأقوامهم من العذاب فلم يصيبوا بشيء.

ثمّ بعد أن أخبر الله تعالى عن سوء عاقبة المنذَرين أراد أن يبيّن ويفعل عاقبة بعضهم للعبرة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾

(ولقد نادانا نوح) أي ويعرف لقد نادانا نوح بعد ما يئس من إيمان قومه، فدعا قائلاً: **(ربّ لاتذر على الأرض من الكافرين ديّاراً)** فاستجبنا دعاءه **(فلنعم المجيبون)** للدّعوات نحن فأهلكنا قومه **(ونجّيناه وأهله)** أي المؤمن به وبدينه من الكرب أي البلاء **(العظيم)** وهو الغرق في الطّوفان **(وجعلنا ذريّته هم الباقين)** في الدّنيا لاغيرهم، حيث أهلكوا كلّهم. وهنا يقال إنّه قال تعالى: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منّا وبركات عليك وعلى أمم من ممّن معك وأمم سنمتّعهم ثمّ يمسّهم منّا عذاب أليم﴾ سورةهود الآية/ ٤٨، وقال تعالى: ﴿ذريّة من حملنا مع نوح إنّه كان عبدا شكوراً﴾ سورة الإسراء الاية/ ٣، فهاتان الآيتان تفيدان أنّه كانت هناك ذريّة غير نوح نجت من الطّوفان وبقيت بعد ذلك، وهذه الآية تدلّ على أنّه لم تبق إلّا ذريّته؛ بدليل قوله تعالى: **(هم الباقين)** لأنّه من القاعدة أنّ المبتدأ إذا كان ضمير الفعل والخبر معرّفاً يفيد الكلام الحصر فكيف التّوفيق بين هذه الآية والآيتين السّابقتين فنقول:

الجواب: عن هذا بوجوه:

الأوّل: روي عن ابن عبّاس أنّه لمّا خرج نوح من السّفينة مات من معه من الرّجال

والنّساء؛ فلم يبق إلّا ولده ونساؤه، فيفيد أنّه كان معه في السّفينة غير ذرّيّته كما نطقت به الآيتان السّابقتان، إلّا إنّه لم يبق بعد النّزول إلى الأرض إلّا ذرّيّته كما هو مفهوم الآية هذه.

الثّاني: إنّ المراد بالذّرية ذرّيّة العقيدة لا ذريّة النّسب؛ فلم يبق التّعارض بين الآيات، حيث لم يبق إلّا المؤمنون ذرّيّة نوح في العقيدة.

الثّالث: إنّ ضمير الفصل لا يفيد الحصر دائماً، فإنّه قد يؤتى به لمجرّد الفرق بين المبتدأ والخبر والصّفة والإعلام بأنّ ما بعده خبر لا صفة، ولذلك سمّي ضمير الفصل.

* * *

وفي **(هم الباقين)** هو الفصل فقط لا للحصر **(وتركنا عليه)** ثناءً ودعاءً في الأقوام الآخرين وذلك الثّناء هو قولهم: **(سلام على نوح في العالمين إنّا كذلك)** مثل ماعلمت من النّجاة به وإهلاك الأعداء له وتحبيبه إلى النّاس وثناءهم عليه **(نجزي المحسنين)** في أفعالهم وأقوالهم وعقائدهم، ومع الله تعالى بالإيمان به وتوحيده ومعاداة الكافرين والمشركين **(إنّه)** أي نوح **(من عبادنا المؤمنين)** أي الكاملين في الإيمان **(ثمّ)** بعد إنجاء نوح ومن معه من الطّوفان **(أغرقنا الآخرين)** وهم الّذين كفروا وآذوا نوحاً واستهزؤوا به وبمن معه.

وبعد أن أشار الله تعالى إلى قصّة نوح أراد أن يشير الى قصّة أبراهيم عليه السلام فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾

(وإنّ من شيعته لإبراهيم) أي وإنّ ممّن شايع نوحا وتابعه في الإيمان بالله وتوحيده لإبراهيم (عليه السلام)، فقد شايع إبراهيم نوحاً في توحيد الله ودعوة النّاس إلى ذلك **(إذ جاء ربّه)** أي توجّه إلى معرفة ربّه **(بقلب سليم)** من الشّرك والشّك وكلّ شائبة من

شوائب الإشراك **(إذ قال)** أي جاء ربّه وتوجّه إليه وتوكّل عليه **(لأبيه)** آزر **(وقومه ماذا تعبدون)** ما الّذي تعبدونه؟ والاستفهام للانكار، فمعناه مالّذي تعبدون من هذه الأصنام؟ وكيف تعبدونها وهي باطلة لا تليق بالعبادة؟ **(أئفكاً)** أي أتأفكون وتكذبون كذباً؟ حيث **(آلهة)** باطلةً **(تريدون)** بالعبادة والدّعاء وطلب الحاجات منهم **(فما ظنّكم)** على ما تفعلون **(بربّ العالمين)** فيما يفعل بكم من العذاب والانتقام على إفككم هذا؟، وقد صادف أن جاء يوم عيد لهم فدعي من قبل السّلطة أن يخرج معهم إلى الصّحراء لأداء مراسيم العيد، وحيث إنّ المشاركة في الأعياد الدّينيّة الباطلة أو المنسوخة غير جائزة، اعتذر إبراهيم وقوى إعتذاره بالنّجوم **(فنظر نظرةً في النّجوم فقال إنّي سقيم)** أي استدلّ بحركات النّجوم على أنّه سيسقم أي سيتمرض فلا يستطيع أن يخرج معهم، وكان علم النّجوم دائراً بينهم فوثقوا به وصدّقوه وتركوه.

وهنا ينشأ سؤالان:

السّؤال الأوّل: وهو أنّه كيف استدلّ ابراهيم بالنّجوم وإنّ الاستدلال بالنّجوم حرام؟ والجواب عن هذا السّؤال هو: أنّ علم النّجوم لم يكن في زمانه ودينه حراما، قال ابن عبّاس ﷺ: كان علم النّجوم من النّبوّة. وحكى جويبر عن الضّحاك: كان علم النّجوم باقياً إلى زمن عيسى (ﷺ). أقول: إنّ علم النّجوم إنّما يكون كفراً لمن رأى أنّ التّأثير والإيجاد من النّجم، وأمّا من يرى أن التّأثير من الله تعالى، وأنّه أجرى من عادته أن يخلق كذا عند طلوع ذلك وكذا عند إقتران ذلك بذلك مثلاً، فلا شرك فيه ولا حرمة للاستدلال به في الأمور إذا كان العمل للخير واستدلّ به للخير. وأمّا للشرّ فكلّ علم يستعمل فيه فهو حرام، وقد صرّح الإمام الرّازي بذلك في تفسيره لهذه الآية، أو نقول: إنّه لم يستدلّ بالنّجوم، بل أوهم إليهم أنّه يستدلّ بالنّجوم ليقنعوا، والإيهام جائز، ففي الحديث أنّ رسول الله (ﷺ) مرّ بقوم فقال القوم: من أين القوم؟ أي من أين جاؤوا؟ فأجاب الرّسول (ﷺ) فقال: من الماء[1]، أوهمهم أنّهم جاؤوا من عين ماء كانت معروفة عندهم، وأراد أنّهم خلقوا من ماء، إذ كلّ إنسان خلق من ماء دافق فجاء من ماء.

السّؤال الثّاني: أنّه كيف قال: إنّي سقيم ولم يكن سقيماً؟ والجواب هو: أنّ معناه سأسقم ولا يوجد إنسان لا يسقم في يوم ما، أو أراد أنّه سقيم البال أو متألم القلب من

---

(١) الثقات ١/١٥٩.

كفرهم وشركهم ودينهم الباطل، وبذلك تخلّص منهم فلم يذهب معهم.

* * *

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

فذهب النّاس إلى عيدهم وبقي هو وحده بالقرية فاغتنم الفرصة **(فراغ)** أي فذهب خفيةً **(إلى آلهتهم)** وكان من عادتهم أنّهم حينما يعبدون يصنعون طعاماً ويضعونه عند الآلهة ويعتقدون أنّ الآلهة يأكلون منه، ويبقى سؤرهم فيوزّعونه على النّاس ليتبرّكوا به فيأكلوه، فلمّا وصل إبراهيم إلى الآلهة ونظر إلى الطّعام الموضوع أمامهم قال للآلهة سخريّةً واستهزاءً بعقليّة القوم: **(ألا تأكلون)** هذا الطّعام؟ فلم يجد جواباً من الآلهة، فقال تهكماً واستهزاءً أيضاً: **(ما لكم لا تنطقون)** أي لا تتكلمون **(فراغ عليهم)** فمال عليهم وضربهم **(ضرباً باليمين)** أي بالقوّة أو باليد اليمنى لأنّها أشدّ وأقوى فكسرهم، فرجعوا وسمعوا بما فعل بآلهتهم **(فأقبلوا)** أي توجّهوا **(إليه)** إلى إبراهيم **(يزفّون)** يسرعون في المشي فلمّا سألوه عمن فعل هذا بآلهتهم؟ **(قال)** لهم استهزاءً وتهكّماً وتضليلاً: **(أتعبدون ما)** أصناماً **(تنحتونه)** بأيديكم وتصنعونه وتتركون عبادة الله تعالى **(والله خلقكم وما تعملون)** من هذه الأصنام وكلّ عمل آخر، فترك عبادة هذا الخالق لعبادة المخلوق جهل وضلال مبين، وسفاهة في العقل والتّفكير. فلمّا ألزمهم بالحجّة، ومن عادة أهل الباطل أنّهم حينما لم يستطيعوا دفع الحجّة بالحجّة والبرهان، يلجأون إلى القوّة والسّلطان، فتشاوروا فيما بينهم وتذاكروا في الطّريق الّذي يعذّبونه به، فاتّفقوا على أن يلقوه في النّار ويحرّقوه بها، فإنّ جريمته من أكبر الجرائم، فليكن عذابه من أشدّ العذاب وهو الإحراق بالنّار فاتّفقوا على ذلك، كما قال جلّ وعلا:

﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾

(قالوا ابنوا له بنياناً) وإملأوه حطباً واضرموه ناراً إلى أن يصبح جحيماً **(فألقوه)**

بعد ذلك (**في**) ذلك الجحيم، ففعلوا ذلك وألقوه في الجحيم، ولكنّه لم يحترق ولم تؤثّر فيه النّار، بل أصبحت له روحيّة يتنعّم فيها، فلمّا رأوه كذلك أخرجوه، فخرج، وهذا معنى قوله تعالى: (**فأرادوا به كيداً**) أي أرادوا (**كيداً به**) أي إلحاق به ضرر به (**فجمعناهم الأسفلين**) أي غير منتصرين عليه بل مقهورين، شبّه حالهم مع إبراهيم بحال بطلين يتصارعان، فيقع أحدهما وهو المغلوب تحت أقدام الآخر وأسفله وهو يعلو عليه، إلّا أنّهم لم يؤمنوا به، وحملوا سلامته من النّار على السّحر أو أمر آخر كما هو عادة المنكرين المستكبرين، لا يخضعون للحقّ وإن ظهر، ولا يريدون إلّا الاستعلاء في الأرض. فلمّا رأى ابراهيم (ﷺ) أنّ دعوته لا تؤثر فيهم، وأنّه لا يستطيع أن يقوم بواجبات دينه فيما بينهم، عزم على الهجرة بدينه والفرار بعقيدته إلى حيث يجد قلوباً لُيّنة تقبل الدّعوة، وأناساً محبّين للحقّ ليتّبعوه فهاجر، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

(**وقال**) أي فخرج من النّار وقال: (**إنّي ذاهب**) من هذه الدّيار ديار الكفر (**إلى ربّي**) إلى حيث أستطيع أن أقوم فيه بعبادة ربّي ودعوة النّاس إلى توحيده وطاعته والعمل بشريعته (**سيهدين**) أي بعد خروجي من بين هذا القوم سيهدين ربّي إلى من يقبل دعوتي ويتّبعون عقيدتي ويعملون بشريعتي ويوفّقني على الخير في الدّنيا والآخرة، فلمّا هاجر وكان هو وزوجته سارة أحبّ أن يكون لهما ولد يستأنس هو وزوجه به؛ فدعا ربّه قائلاً: (**ربّ**) أي يارب (**هب لي**) ولداً (**من الصّالحين**) فاستجاب الله تعالى دعائه وبشّره باستجابة دعائه كما قال: (**فبشرناه**) أي فلمّا دعا بشّرناه (**بغلام**) أي بولد ذكر يكبر ويعيش (**حليم**) يتحمّل معه مشاقّ الرّسالة والدّعوة إلى الله تعالى، وما يكلّفان به من العبادة وإطاعة أمر الله تعالى، ومن أعظم المشاقّ أنّه يسلّم نفسه للذّبح إطاعة لأمر الله تعالى.

وفي هذه الآية إشارات:

الأولى: أنّه إذا لم يستطع المسلم القيام بواجبه وأداء عبادته وما كلّف به، يجب عليه أن يهاجر وطنه وبلاده إلى حيث يستطيع أن يقوم بواجبه تجاه ربّه ودينه، وهذه سنّة المرسلين، فما من رسول إلّا وقد هاجر إلى حيث تقبل رسالته وتطبّق شريعته.

الثّانية: إنّ المسلم مربوط بالعقيدة لا بالقوم والوطن، فإذا صار تعارض بين الوطن والقوم والعقيدة فعليه أن يترك وطنه وأهله لسلامة عقيدته، وإنّ الحديث الّذي يروونه وهو: (حبّ الوطن من الإيمان) حديث موضوع ومكذوب على الرّسول (ﷺ) فالمسلم مربوط بالعقيدة لا الوطن والأهل، كما قال الشّاعر:

فإنّ كان أصلي من تراب فإنّه   جميع بلاد الأرض أهلي وموطني

الثّالثة: إنّه إذا هجر المسلم من مكان فراراً بدينه وعقيدته فإنّ الله تعالى سيهديه إلى قوم خيراً من قومه وأصحاب خيراً من أصحابه ومعيشة خيراً من معيشته، ويرزقه التّوفيق في الأمر والإصلاح في العمل، كما قال الشاعر[١] :

سافر تجد عوضاً عمّن تفارقه   وأنصب فإنّ لذيذ العيش في النّصب

إنّي رأيت وقوف الماء يفسده   إن سال طاب وإن لم يجر لم يطب

فالتّبر كالترب ملقىً في أماكنه   والعود في أرضه نوع من الحطب

فإن تغرّب هذا عزّ مطلبه   وإن تغرّب ذاك زاد في الرّتب

الرّابعة: إنّه يجب على المسلم أن يطلب كلّ شيء لله، وممّا يكون تقوية لعبادته وطاعته، حتّى الولد إنّما يطلبه صالحاً ليعاونه على الصّلاح وعبادة الله تعالى، وإلّا فعدمه خير من وجوده؛ ولذا دعا ابراهيم أن يرزقه الله تعالى ولداً من الصّالحين لا مطلق الولد، وقد مدح الله تعالى عباده بقوله تعالى: ﴿والّذين يقولون ربّنا هب لنا من أزواجنا وذريّاتنا قرّة أعين واجعلنا للمتّقين إماماً﴾ سورة الفرقان الآية/ ٧٤. اللّهم تقبّل دعواتنا وأجبها كما أجبت لسيّدنا إبراهيم دعوته (عليه السلام).

* * *

ثمّ بعد ذلك ذكر الله تعالى قصّة ذبح سيّدنا إسماعيل؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ

(١) وهو الإمام الشافعي رحمه الله.

أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾

(فلمّا بلغ) الغلام **(معه)** أي مع إبراهيم **(السّعي)** أصله أن يسعى معه أي بلغ حدّاً يسعى فيذهب ويأتي ويعمل ومعه. قدم معه على السّعي ليعلم أنّه بلغ حدّاً يسعى معه لا حدّاً يسعى فقط، لأنّ الصّغار يسعون أيضاً، فالمعنى أنّه أصبح شابّاً نشطاً يسعى مع والده ويعمل معه **(قال)** الوالد لولده **(يابنيّ)** إنّه كلّما اجتمعت الواو والياء والسّابق منهما ساكن تقلب الواو ياء فتدغم فيها، والتّصغير يرد لمعان شتّى ذكرتها في تفسير قوله تعالى: ﴿يابنيّ لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ سورة يوسف الآية/٥، وورد هنا للشّفقة والتّرحم والملاطفة **(إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى)** قال: أرى دون رأيتُ، وذلك لأنّه كان يرى ذلك مستمرّاً وفي منامات متتالية لا في منام واحد، وبذلك علم أنّ ذلك رؤيا حقّ، ورؤيا الأنبياء وحيٌ، فلذلك استشار إبنه ليعلم مدى إطاعته لوالده وانقياده لأمر ربّه،لا لمطاوعته فيما إذا لم يقبل ذلك فإنّه كان يذبحه رضي أو أبى. إلّا أنّه أراد أن يمتحنه فوجده في أقصى درجات النّجاح في الإمتحان والانقياد لأمر والده. والإستسلام لإطاعة الله تعالى والنّداء بالنّفس في سبيل ذلك، فأجاب والده: **(قال يا أبت افعل ما تؤمر)** من قبل الله تعالى وإذبحني ولا تشكّ في نفسي وإطاعتي بل **(ستجدني إن شاء الله من الصّابرين)** على تحمل مشقّة الذّبح في سبيل الله وفي سبيل أدائك لواجبك من ذبحي **(فلمّا أسلما)** أي انقادا، انقاد الوالد لذبح ولده والولد لتسليم نفسه وعرضه على الذّبح، **(وتلّه)** وتلّ الوالد ولده ووضعه على الأرض وقلّبه على الجبين ليذبحه من قفده لا من حلقه، وحاول محاولة الذّابح لذبيحته. وجواب **(لمّا)** محذوف تقديره ثمّ لما كلّف به الوالد والولد حقيقة من عند الله تعالى وحصل منهما الإمتثال للأمر **(وناديناه أن ياإبراهيم)** قم عن الولد واقطع محاولة ذبحه فإنّه **(قد صدّقت الرّؤيا)** وامتثلت ما أمرت به، فإنّك لم تؤمر بذبحه بل أمرت بمحاولة ذبحه والعزم عليه، وحيث حاولت الذّبح ولكنّه لم يخلق الله الذّبح ولم يعمل السّكين ولم يؤثّر في نحره وقفاه، قبلت هذه المحاولة ذبحاً، بل عوضاً عن الذّبح ولا تكلّف أكثر من ذلك **(إنّا كذلك)** مثل ماترى من رفع الحرج عن المخلصين **(نجزي المحسنين)** الممتثلين لأمر

الله تعالى بصدق وإخلاص وعزيمة صادقة **(إنّ هذا الّذي)** وقع من إبراهيم من فداء ولده لأمر الله واسماعيل من فداء روحه لإطاعة والده وإطاعة الله **(لهو البلاء)** أي الإمتحان والاختبار **(المبين)** أي الموضّح والمظهر لإخلاص العبد مع الله وإطاعته لأمره المظهر ذلك للنّاس لا لله تعالى، فإنّه كان يعلم إخلاصهما، وإنّما فعل تعالى ذلك ليعلّم النّاس بحقيقة الإطاعة لله، فيتأسّوا بهما في التّضحية والفداء في سبيله بالأموال والأنفس، وبما هو أعزّ شيء عليهم وهو النّفس والولد، حيث وبعد ما نجحا في هذا الإمتحان أكرمنا عليهما حيث **(وفديناه بذبح عظيم)** الذّبح ما يذبح، وقد وهبه الله تعالى كبشاً عظيماً وأمره أن يذبح فداء عن ولده، أي قبلنا أن يذبح بدله كبشاً عظيماً سميناً.

سؤال مهم: إن كان المراد بالرّؤيا من إبراهيم الذّبح فكيف قال تعالى: (قد صدّقت الرّؤيا) والحال أنّه لم يحصل الذّبح؟ وإن كان المراد العزم والمحاولة التّامة للذّبح فقد حصل، فلماذا الفداء، والفداء إنّما يكن عن أمر لم يحصل وقد حصلت تمام المحاولة؟

الجواب: عن هذا بوجوه:

الأوّل: إنّ الله تعالى أمره بالذّبح ثم نسخ حكم الذّبح وفرض عليه بدله وهو الفدية، وهذا مردود عند بعض العلماء، لأنّه يكون نسخاً لحكم قبل العمل به، وهذا عندهم لا يجوز.

الثّاني: أنّه أمره تعالى في الحقيقة بالإتيان بمقدّمات الذّبح بقرينة أنّه قال: (إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك) ولم يقل إنّي أرى في المنام أنّي ذبحتك، إلّا أنّ إبراهيم فهم من الرّؤيا أنّ المراد منه الذّبح، فحاول محاولته التّامة للذّبح فلم يحصل، لأنّ الله تعالى لم يخلق الذّبح والموت، والفداء بدل عن الواجب الّذي منع من أدائه مانع، مثل من أحرم بالحجّ أو العمرة فأحصر ومنع من أدائهما بسبب مرض أو عدوّ فيفدي عن ذلك بذبح شاة ويتحلّل، وكالصّوم الواجب على الّذين يطيقونه فإنّهم حيث وجد مانع عن الصّوم وهو المرض أو الهرم فيفطرون لأجل المانع ويفدون عنه، فحكم الذّبح كان موجوداً إلّا إنّه منع عنه مانع، ففدى إبراهيم عنه ونسب إلى الله تعالى لأنّه قبل الفدية، فمعنى (وفديناه) أي قبلنا الفدية، أو لأنّه هو وهب الكبش الّذي فدي به لأبراهيم فقيل: إنّه أتى به جبريل من الجنّة، وقيل: كبش جبلي جاء إلى إبراهيم فأخذه وفدى، والكلّ معقول والله على كلّ شيء قدير.

* * *

فائـدة: قال القرطبيّ: إنّ ذبح الولد كان عبادة وقربة إلى الله تعالى قبل، فلذا كان ينفّذ نذره، وفي شريعتنا معصية لا ينعقد نذره، فهذا يدلّ على أنّ أحكام الله تعالى وضعيّة راجعة إلى أمر الله تعالى بشيء ونهيه عنه، فإذا أمر بشيء وجب، وإذا نهي عنه حرّم ذلك الشّيء الّذي كان واجباً قبل، ولا علاقة له بالعقل والتّحسين والتّقبيح العقليّين، حيث لو كان كذلك لما تغيّرت الأحكام حسب الشّرع، لأنّ التّحسين الذّاتي والتّقبيح لا يتغيّران، وأقول: فسقط مايقوله المتعقّلون من أنّ الحكم دائر مع الحكمة والمصلحة وجوداً وعدماً، بل الأحكام لها اختيارات من الله تعالى، ومن أفضل العبادات مالا يتصوّر العقل منه أي مصلحة أو حكمة، بل العمل لأجل الحكمة والمصلحة نوع من الشّرك، والعمل الخالص ما كان لوجه الله تعالى فقط لا لشيء آخر، نعم ما ربطه الله تعالى بعلّة فيؤخذ بها وترجّع ذلك إلى الاختبار أيضاً. هذا ولإطاعة إبراهيم لرّبه هذه وتضحيّته تلك في سبيل أداء وإمتثال أمر الله تعالى، جعله الله تعالى محترماً عند كلّ النّاس كما قال جلّ وعلا:

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾

(وتركنا عليه) على إبراهيم ثناء وحبّاً **(في الآخرين)** أي في الأقوام الآخرين الّذين يأتون بعده فلا تجد أمّةً إلّا وتحبّه وتثني عليه وتقول: **(سلام على إبراهيم كذلك)** مثل ماعلمت من إحساننا إلى إبراهيم وجزائنا له **(نجزي المحسنين)** كلّهم والمحسن هو من أطاع الله وما عصى، وضحّى بكلّ ما يعزّ عليه في سبيل إطاعة وإعلاء كلمته ونشر شريعته والدّعوة إليه تعالى، وهذه الآية دليل على أنّ الذّبيح إسماعيل، وقد كان إسماعيل ولد قبل إسحق ﷺ **(إنّه)** إنّ ابراهيم **(من عبادنا المؤمنين)** الكاملين في الإيمان بالله تعالى، وفي العمل وفق إيمانهم ومعرفتهم بالله تعالى.

ملاحظة: إنّ الله تعالى مدح ابراهيم (ﷺ) وهو رسول من أولي العزم، مدحه بأنّه من عباد الله تعالى وإنّه عبد له وبالإيمان، فتبيّن أنّ أعلى درجات العباد العبوديّة لله والإيمان، وإنّ أكبر أوصاف الإنسان هو العبد والمؤمن، قال الشّاعر:

لا تـــدعـــنـــي إلّا بـــيـــا عـــبده   فـــإنّـــه مـــن أكـــبر أوصـــافـــي

ولكن النّاس اخترعوا ألقاباً وأوصافاً يصفون به أناساً أو أنفسهم ما أنزل الله بها من سلطان، ولو قلت: لمن يعتقدون فيه أنّه عبد الله أو رجل مؤمن أو مسلم يقيمون عليك القيامة وينسبونك إلى إساءة الأدب، وكأنّ هؤلاء أكبر من أن يقال لهم هذا القول أو يوصفوا بهذا الوصف فسبحان الله هذا بهتان عظيم.

* * *

(فبشرّناه باسحاق) أي بأنّه ولد له آخر يسمّيه إسحاق وإنّه يكون **(نبيّاً)** من الله تعالى **(من الصّالحين)** من عباده **(وباركنا عليه وعلى إسحاق)** أي وأنزلنا عليه وعلى إسحاق من بركات الدّنيا والآخرة وخيرهما، ومن هذا كان ولا يزال يوجد أناس يفتخرون بالإنتساب إلى إبراهيم وإسحاق، ويترفّعون على النّاس بأنّهم من أولاد إبراهيم أو إسماعيل أو إسحاق، وكأنّ لهم بذلك مزيّة على النّاس، حتّى أصبح اليهود يدّعون أنّ بني إسرائيل شعب الله المختار، وسرى ذلك إلى المسلمين أيضاً، فيفتخرون بالإنتساب إلى السّيدة فاطمة الزّهراء رضي الله عنها وأنّه من أبناء رسول الله تعالى ﷺ، فردّ الله تعالى على هذه النّخوة، نخوة الجاهليّة والعصبيّة فقال: **(ومن ذريّتهما)** من هو **(محسن)** يستحقّ التّقدير والثّواب ومنهم من هو **(ظالم لنفسه مبين)** ظلمه فيستحقّ اللّوم والعذاب. فالعبرة بالعمل الصّالح والإحسان في التّقدير والفضل، وبالعمل الفاسد في الإهانة والتّحقير، لا بالإنتساب إلى فلان وفلان، وكم من صالح ترك وراءه فاسقاً، وكم من فاسق خلّف صالحين كثيرين، ولذلك يقول الرّسول (ﷺ) (آتوني بأعمالكم ولا تؤتوني بأحسابكم)[1] فلْعملَ العملَ أيّها الأخ المسلم، وليس وراء العمل شيء آخر، ولايغرّنك بالأنساب الغرور.

ثمّ بعد أن أشار الله تعالى إلى قصّة سيّدنا إبراهيم (عليه السلام) أراد أن يشير إلى قصّة سيّدنا موسى وهرون (عليهما السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ

(١) لم أجده حديثا ولكن روي بمعناه وهو:عن أبي مالك قال قال رسول الله (ﷺ) إن الله عز وجل لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أحسابكم ولا إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إلي أتقاكم./ المعجم الكبير ج٣/ ص٢٩٧ الحديث رقم ٣٤٥٦.

ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

(ولقد مننّا) أي كما مننّا على إبراهيم وإسحاق (عليهما السلام) **(و)** بعزّتي **(لقد مننّا على موسى وهارون)** أي أنعمنا عليهما **(ونجّيناهما وقومهما)** بني إسرائيل **(من الكرب العظيم)** وهو ظلم فرعون لهم، والغرق الّذي أهلك فرعون وهم نجوا منه **(ونصرناهم)** على فرعون **(فكانو أهم الغالبين)** على فرعون والباقين بعده **(وآتيناهما)** أي موسى وهارون **(الكتاب)** وهو التّوراة **(المستبين)** الواضح في أحكامه وأخباره وعقائده **(وهديناهما الصّراط المستقيم)** أي الدّين القويم، دين الله تعالى ونظامه وشريعته **(وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون. إنّا كذلك نجزي المحسنين)** فأحسنوا أيّها النّاس لينجيكم الله من مصائب الدّهور ويهديكم إلى الحقّ، وليبقى ذكركم الحسن مدى القرون والأجيال، فالخير كلّ الخير في الإحسان والاستقامة على الحقّ واتّباع شريعة الله تعالى وامتثال أوامره **(إنّهما)** أي موسى وهارون **(من عبادنا المؤمنين)** وكفى بالإيمان والعبوديّة لله وصفاً وشرفاً، ولا وصف يليق بالإنسان مدحاً له أكثر من هذين الوصفين، فإيّاك والألقاب غير الإسلاميّة والمستوردة من غير الإسلام. هذا وإذا أردت زيادة الإحاطة بقصّة موسى وهارون (عليهما السلام) فعليك بمراجعة تفسيرنا للسّور [القصص، الشّعراء، الأعراف وطه] وقد ذكرنا نبذة مفيدة عند تفسيرنا سورة والنّازعات فعليك بها.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

(وإنّ إلياس لمن المرسلين) جمع رسول، وهو من أوحي إليه وله كتاب أو نسخ لبعض الأحكام الّتي كانت قبله، وقد ذكرنا تعريف الرّسول والنّبيّ والفرق بينهما في

تفسير سورة (يس) فدلّت هذه الآية على أنّ إلياس كان رسولاً، وكلّ رسول نبيّ فكان نبيّاً ورسولاً، ولكن من هو إلياس فيه روايتان:

الأولى: أنّه إدريس، وروي ذلك عن ابن مسعود إنّه قال: إسرائيل هو يعقوب (عليه السلام) وإلياس هو أدريس.

الثّانية: أنّه غير أدريس، وإنّه إلياس بن ياسين من ولد هارون أخي موسى (عليهما السلام) وهذا أصحّ.

والمشهور على ألسنة النّاس أنّ إلياس وخضر (عليهما السلام) هما حيّان ولا يموتان إلى يوم القيامة، وللإطلاع على عدم الحجّة على ما يقولون ننقل لك أقوال المفسرين فيما يلي:

١: قال النّسفي في تفسير هذه الآية: وقيل: في الخضر وإلياس إنّهما حيّان، وقيل: قد وكّل إلياس بالفيافي والخضر بالبحار، ويقول الحسن (أي الشّيخ حسن البصري): قد هلك (أي مات) إلياس والخضر ولا نقول كما يقول النّاس: إنّهما حيّان إنتهى.

٢: قال ابن كثير رحمه الله تعالى في سورة الكهف في قصّة سيّدنا موسى والخضر (عليهما السّلام): وحكى النّووي وغيره في كون الخضر باقياً إلى الآن، ثمّ إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وإبن الصّلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات عن السّلف، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصحّ شيء من ذلك الّذي استدلّوا به، ورجّح غيرهم من المحدّثين عدم بقائه، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿وماجعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ سورة الأنبياء الاية/ ٣٤ ـ ويقول النّبيّ (ﷺ) يوم البدر: (اللّهم إنّ تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض)[١]، وبأنّه لم ينقل أحد أنّه جاء إلى رسول (ﷺ) ولا حضر عنده ولا قاتل معه، ولو كان حيّاً لكان من أتباع النّبيّ (ﷺ) وأصحابه، لأنّه (ﷺ) كان مبعوثاً إلى الثّقلين الجنّ والإنس كلّهم وقد قال: لو كان موسى وعيسى حيّين لما وسعهما إلّا اتّباعي، واستدلّوا أيضاً بما قال الرّسول (ﷺ) قبل موته أنه: (لا يبقى ممّن هو على وجه الأرض الآن إلى مائة سنة من هذه اللّيلة عين تطرف)[٢] أي إنسان حيّ ممن هو الآن موجود، إنتهى. فلو كان الخضر موجوداً في

(١) صحيح مسلم ٥/ ٥٦ الحديث رقم ٤٦٨٧.

زمن الرّسول (ﷺ) لمات بعد مائة سنة من قول الرّسول (ﷺ) هذا القول تصديقاً لقوله. ولا يخفى أنّ هذه الأدلّة كما تنفي بقاء الخضر وتدلّ على عدم بقائه، تدلّ على موت إلياس وعدم بقائه أيضاً.

٣: قال القرطبيّ في سورة الكهف في قصّة سيّدنا موسى (عليه السلام): ذهب الجمهور إلى أنّ الخضر مات (عليه السلام) وقالت فرقة: إنّه حيّ لأنّه شرب من عين الحياة، وإنّه باق في الأرض وإنّه يحجّ البيت. قال ابن عطيّة: وقد أطنب النّقاش في هذا المعنى، أي في بقاء الخضر، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) وغيره، وكلّها لا تقوم على ساق أي لا صحّة له، ولو كان الخضر حيّاً يحجّ لكان له في ملّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لاربّ غيره. وممّا يقضي بموت الخضر (عليه السلام) قوله (ﷺ): (أرأيتكم ليلتكم هذه، فإنّ رأس مئة سنة منها لا يبقى من هو اليوم على ظهر الأرض أحد)[1] قلت: وإلى هذا ذهب البخاري واختاره القاضي أبوبكر بن العربي، وقد أيّد عبد الحميد الآلوسي (رحمه الله تعالى) في (شرح بدء الأمالي) في العقائد أنّه لا فائدة في بقائه،هذا، وإنّ هذه الأدلّة تشمل إلياس أيضاً، فالأصحّ أنّهما ميّتان، والعجب من الإمام القرطبيّ أنّه بعد ما قرّر هذا رجع وأيّد حياتهما بما لا طائل فيه ولا رحمة له.

* * *

(إذ قال) أي ذكر إذ قال إلياس (**لقومه ألّا تتقون**) أي ألا تتّقون عذاب الله تعالى ولا تخافون عقابه؟ والاستفهام للإنكار والتّعجب من حالهم (**أتدعون**) أي تعبدون (**بعلاً**) وهو إسم صنم وتطلبون منه قضاء الحوائج ودفع المضارّ، والبعل إسم الصّنم الّذي كانوا يعبدونه، وكان في بلدة (بك) فركب وصار (بعلبك) وأصبح إسم البلدة، ويقال إنّ هذا الصّنم كان من ذهب، وكان طوله عشرين ذراعاً، فتنوا به وعظّموه حتّى أخدموه أربعمائة سادن وجعلوهم أنبياء.

---

(١) في مسند الإمام أحمد ٢/ ٣٧٤ الحديث رقم ١١٨٧ (لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ مِائَةُ سَنَةٍ وَعَلَى الْأَرْضِ عَيْنٌ تَطْرِفُ مِمَّنْ هُوَ الْيَوْمَ حَيٌّ)، ولفظ الحديث في البخاري عن عبد الله بن عمر قال صلّى بنا النّبيّ (ﷺ) العشاء في آخر حياته، فلّما سلّم قام فقال: (أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإنّ رأس مائة سنة منها لا يبقى ممّن هو على ظهر الأرض أحد). صحيح البخاري ج١/ ص٥٥ الحديث رقم ١١٦.

(٢) صحيح البخاري ج١/ ص٥٥ الحديث رقم ١١٦.

(وتذرون) أي وتتركون **(أحسن الخالقين)** فلا تعبدونه ولا تطلبون منه الحوائج، ولا تتوجّهون إليه في الدّعوات وفي قوله: **(أحسن الخالقين)** تسفيه لعقليّتهم حيث إنّهم يتركون أحسن الخالقين وهو اللاّئق بالعبادة والتّضرع إليه، وطلب الحاجات منه، لأنّه هو يخلق وبيده كل شيء، فإليه يجب أن يتوجّه العبد في العبادة والدّعاء لا إلى غيره، وأكّد ذلك بقوله: **(الله ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين)** من كان هذا شأنه كيف ينسى ويترك ويطلب ويتوجّه إلى غيره، فما أسفه عقل هؤلاء وأمثالهم.

ســؤال مهم: قوله أحسن الخالقين يفيد أنّه يوجد خالقين غير الله تعالى، إلاّ أنّه أحسنهم، وهذا خلاف ما نعتقد، فإنّ الله تعالى قال: ﴿الله خالق كلّ شيء وهو على كلّ شيء وكيل﴾ سورة الزمر الآية/ ٤٣، فنقول إنّ ظاهر هذه الآية معارضة بقوله تعالى: ﴿الله خالق كلّ شيء﴾ فوجب تأويل هذه الآية بأنّه أحسن الخالقين الّذين تظنّونهم خالقين، فلو فرض أنّهم خالقون فهو أحسنهم، فهو أحقّ بالعبادة، فكيف تذرون عبادته وتعبدون غيره، فكيف إذا لم يكن خالق سواه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وهو الّذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه﴾ سورة الروم الآية/ ٢٧. أي والإعادة أهون عليه من البداء، أي حسب ظنكم وعقليّتكم وإلاّ فلا شيء أصعب، أو أهون على الله تعالى بل كلّ شيء بالنّسبة اليه سواء في السّهولة والهون، حيث لا شيء يصعب عليه، وذكر الإمام الرّازي أجوبة أحسنها ما ذكرناه، هذا والأحسن فيه أنّ الخالق بمعنى المصوّر لا الموجد، فقال تعالى عن عيسى(عليه السلام): ﴿وأنّي أخلق لكم من الطّين﴾ أي صور (كهيئة الطّير).

* * *

(فكذّبوه) أي فكذّبوا إلياس وجزاءً على تكذيبهم هذا **(فإنّهم)** كلّهم **(لمحضرون)** في العذاب **(إلاّ عباد الله المخلصين)** وهم الّذين آمنوا معه فإنّهم ناجون من العذاب **(وتركنا عليه في الآخرين)** ثناء ودعاء له، فيقول الأمم كلّهم بعده **(سلام على إل ياسين)** جمع إلياس أي المنسوبين إلى إلياس وقرئ **(آل ياسين)** وياسين إسم إبي إلياس **(إنّا كذلك)** مثل ما علمت من النّجاة من العذاب وهلاك الأعداء والثّناء الخالد عليه **(نجزي المحسنين)** كلّهم **(إنّه)** أي إلياس (من **عبادنا المؤمنين**) وكفى بالعبد والمؤمن لقباً وتشريفاً، فإنّ هؤلاء الأنبياء كلّهم مدحوا وأثني عليهم بالعبديّة والإيمان، لا بألقاب أخرى من الأقطاب والأوتاد فافهم.

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

(وإنّ لوطاً لمن المرسلين) أرسله الله تعالى إلى قوم سدوم، وقصتّه مفصّلة في سورة الأعراف وسورة هود والشّعراء **(إذ نجّيناه)** أي اذكر إذ نجّينا لوطاً **(وأهله)** أي من في بيته **(أجمعين)** كلّهم حيث أمرناهم بالخروج من القرية فخرج كلّهم **(إلّا عجوزاً)** هي إمرأة لوط بقيت **(في الغابرين)** في الباقين ومعهم فلم تخرج؛ حيث لم تكن مؤمنة بلوط ورسالته **(ثمّ)** بعد أن خرج لوط وأهله من القرية **(دمّرنا)** أهلكنا النّاس **(الآخرين)** والّذين بقوا في القرية وكانوا كافرين **(وإنّكم)** يا أهل مكّة **(لتمرّون)** دائماً **(عليهم)** على قريتهم المدمّرة والّتي فيها آثار العذاب ظاهرة فترون هذه الآثار **(مصبحين)** أوقات الصّباح في مروركم حينما تمرّون بها بالنّهار، حيث المراد بالصّباح النّهار بدليل مقابلته باللّيل في قوله **(وباللّيل)** أي تمرّون عليهم بالنّهار واللّيل حينما تذهبون إلى الشّام وترجعون منه **(أفلا تعقلون)** فتعتبروا وتتّعظوا بهم ولا تكفروا بالرّسول (ﷺ) مخافة أن يصيبكم ما أصابكم.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾

(وإنّ يونس لمن المرسلين) أرسله الله تعالى إلى أهل نينوى **(إذ أبق)** أذكره إذ أبق أي هرب من قومه **(إلى الفلك المشحون)** المملوء فركبه، وسبب هربه أنّه وعد قومه بالعذاب فتأخّر العذاب، فخرج استحياءً منهم، فتوجّه إلى البحر فركب السّفينة، فوقفت السّفينة، فقال الملّاحون: هاهنا عبد آبق من سيّده، فاقترعوا ثلاث مرات، فخرجت القرعة كلّ مرّة على يونس فقال: أنا العبد الابق، فزجّ نفسه في الماء، وهذا معنى قوله: **(فساهم)** أي فاقترع **(فكان من المدحضين)** أي من المغلوبين حيث وقعت القرعة عليه، فلمّا رمى بنفسه في الماء **(فالتقمه)** أي فابتلعه **(الحوت وهو مليم)** أي داخل في أمر

يلام عليه؛ لأنّه لم يصبر بين القوم، وخرج من بينهم، حيث لا يجوز للنّبيّ الهجرة من القوم إلّا باجازة الله وأمره **(فلولا أنّه كان)** في بطن الحوت **(من المسبّحين)** من التّائبين والمعترفين بخطئه **(للبث)** لبقي **(في بطنه)** أي في بطن الحوت **(إلى يوم يبعثون)** إلى يوم القيامة، فإنّ قيل: كيف كان يبقى في بطن الحوت إلى يوم القيامة؟ فهل الحوت كان من المخلدين؟ وهل هو باق الآن وإلى يوم القيامة؟ فنقول: المعنى لقدّرنا أن يبقى الموت إلى يوم يبعثون ويبقى هو في بطنه، أو نقول: الحوت إسم جنس فمعناه كان يبقى في بطن الحوت إلى يوم يبعثون بأن يلفظه الحوت الأوّل قبل موته فيبتلعه آخر وهكذا إلى يوم يبعثون، وتسبيحه كان قوله: (لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظّالمين).

﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾

(فنبذناه) أي فنبذه الحوت بأمرنا **(بالعراء)** بالأرض الخالية من كلّ نبات وشجر **(وهو سقيم)** ضعيف البدن يحتاج إلى شجرةٍ يستظلّ بها من حرّ الشّمس **(فأنبتنا عليه شجرةً من يقطين)** يستظلّ بها، واليقطين هو القرع، ومن خصائصه أنّ الذّباب لا يجتمع عليه، قال النّسفي: قيل لرسول الله (ﷺ): (إنّك لتحبّ القرع، قال: أجل هي شجرة أخي يونس)[1] (وأرسلناه إلى مائة ألف) من النّاس **(أو يزيدون)** أي بل يزيدون عن هذا العدد. وكان قومه يبحثون عنه لأنّهم بعد غيابه عنهم رأوا علامات العذاب، فتابوا وآمنوا وأصبحوا يبحثون عن يونس فأدركوه **(فآمنوا)** به واتّبعوه **(فمتّعناهم إلى حين)** إلى يوم القيامة. بعكس أقوام باقي الأنبياء فإنّهم حينما كذبوا ولم يؤمنوا وأصرّوا على الكفر أهلكوا ودمّروا وأصبحوا عبرة لأولي الألباب.

تنبيه: إنّ سور (الأعراف، وهود، والقصص، وطه، والشّعراء، وغيرها) ممّا يشتمل على قصص هؤلاء الأنبياء كلّها نزلت قبل (الصّافات) وقد ذكرت هذه القصص فيها مفصّلة، وفي هذه السّورة لم يذكر التّفصيل لأنّه لم يكن حاجة اليه، وإنّما ذكر ما يشير إليها ويوجب التّذكر لها وذلك لأمور:

---

(١) تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ١٨٠ الحديث رقم١٠٩٣.

الأوّل: أن يكون تسلية لرّسول الله (ﷺ)، بأنّ من سبقه من المرسلين كلّهم لاقوا الأذى والمشقّة في سبيل أداء رسالتهم ودعوتهم إلى الله تعالى، ونشر دينه وشريعته، وهو سنّة الأنبياء والمرسلين، فعليه أن يصبر كما صبروا إلى أن ينصره الله تعالى ويعزّ دينه ويذلّ أعداءه، وهكذا كلّما كان يضيق صدر رسول الله (ﷺ) يذكّره الله تعالى بأحوال الرّسل السّابقين ليتسلّى ويذهب حزنه وليشدّ عزمه.

الثّاني: إنّه وعد المؤمنين بالنّصر على الأعداء وإعلاء دينهم وإنّ لهم العاقبة في الدّنيا والآخرة إن صبروا وثبتوا على الدّعوة وإطاعة ربّهم واتّباع رسولهم.

الثالث: ليكون إنذاراً لأعداء الرّسول والمؤمنين بأنّه يصيبهم ما أصاب الأقوام الآخرين إن أصرّوا على ما هم عليه من الكفر وإيذاء المؤمنين، فاليوم حينما نرى عزّ الكافرين علينا، فليس معناه أنّ الله تعالى لا ينصر المؤمنين، بل معناه أنّ المؤمنين لا يعملون لدينهم ولا يدعون لشريعتهم ولا يجاهدون لا بقوّة ولا بدعوة ولا بالمال ولا بالأنفس في سبيل نشر دين الله تعالى، وإلّا فإنّ الله تعالى لا يخلف وعده حيث قال: ﴿وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين﴾ سورة الروم الآية/ ٤٧. بل المؤمنون والمسلمون أخلفوا وعدهم مع الله تعالى، - ولا ينصرون دينه ولا يعملون في سبيل إعزاز هذا الدّين، فلعلّ الله تعالى يوقظهم من هذا السّبات الطّويل وينبّههم من هذه الغفلة المخزية العميقة والله على كلّ شيء قدير.

* * *

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾

لمّا ذكر الله تعالى أخبار الأمم الماضية وأنذر بذلك المشركين وخوّفهم من هذا المصير المحتوم، مصير الذّل والهوان في الدّنيا والعذاب في الآخرة، ولم يؤثّر ذلك في قلوبهم ولم يحرّكهم إلى الإيمان والإعراض عن الشّرك ونسبة مالا يليق بالله إليه، إحتجّ الله تعالى عليهم وأمر الرّسول (ﷺ) أن يستفهمهم استفهامات الإنكار والتّوبيخ والتّسفيه؛

فقال وعزّ من قائل: **(فاستفتهم)** فاسألهم وقل **(ألربّك البنات)** أي أتعتقدون أن يكون لربّك البنات وهم يستحقّون البنات **(ولهم البنون)** ويختارون أن يكون لهم البنون لا البنات، لأنّهم يستنكفون منها، فاستحقارهم البنات ونسبتها إلى الله تعالى يشعر بأنّهم يقدّرون أنفسهم أكثر من الله تعالى؛ حيث يستنكفون من نسبتها إليهم وينسبونها إلى الله تعالى، وهذا جهل وضلال عظيم **(أم خلقنا الملائكة إناثاً)** أي إسألهم هل خلقنا الملائكة إناثاً؟ فيقولون: هم بنات الله **(وهم شاهدون)** أي هل شهدوا خلقنا وأطلعوا على جعلنا الملائكة إناثاً؟ كلّا، وليس لهم حجّة على ذلك **(ألا إنّهم من إفكهم)** من كذبهم الأقبح **(ليقولون ولد الله وإنّهم لكاذبون)** في هذا القول وهذا الافتراء **(أصطفى)** أصله أإصتفى من باب الإفتعال، قلبت التاء لمجاورتها للصاد طاءً، فصار أإصطفى، حذفت همزة الوصل فبقي أصطفى، أي أإختار الله تعالى لنفسه **(البنات على البنين)** وهذا توبيخ لنسبتهم إلى الله ما لا يليق به، لا لأنّ البنات محقّرة عند الله تعالى، بل ربّ بنت خير عند الله من ألف ابن، وربّ إمرأة خير من ألف رجل، فآسية امرأة فرعون خير من فرعون وجميع أتباعه، ومريم بنت عمران خير من ألف رجل كافر أو فسق[1]، وهكذا كثير من النساء الصالحات خير من ألف رجل فاسد، بل إنّ المخاطبة وردت على حسب عقليتهم، فإنّهم كانوا يحتقرون البنات وينسبونها إلى الله تعالى، فكأنّه قال: أفتنسبون إلى الله ما هو حقير عندكم، وإلّا فإنّ الله تعالى منزّه عن البنات والبنين جميعاً، ونسبة أي صنف إليه كفر وتنقيص من قدر الله واحترامه **(مالكم)** أي فأيّ حجّة لكم في دعواكم هذه وقولكم: من أنّ لله الولد أو أنّ لله البنات؟ والاستفهام للإنكار، فالمعنى لاحجّة لكم فإذاً **(كيف تحكمون)** هذا الحكم الباطل وتزعمون هذا الزّعم الزائغ **(أفلا تذكّرون)** أي أفلا تتّعظمون وتستحيون من هذا الإفك ولا تنزجرون من كذبكم وافترائكم هذا **(أم لكم سلطان)** أي دليل وبرهان على ما تقولون **(مبين)** فثبت بذلك البرهان قولكم **(فأتوا بكتابكم)** الّذي أنزل عليكم ويقول مثل قولكم **(إن كنتم صادقين)** في قولكم، فأتوا بذلك الكتاب، والأمر للتّعجيز، فمعناه: لا كتب من هذا القبيل، نفى الله تعالى أن يكون لهم دليل نقليّ على ذلك أيضاً، لأنّ العقل يكذّبهم حيث إنّ الله لا يحتاج إلى ولد ولو اتّخذ ولداً اتخذ أبناءً لا البنات، لأنّ الأبناء أقوى وأليق بالملوك، ولأنّ البنات عندهم عار، فكيف يتعقّلون

---

(١) بل حتى مؤمن متقي.

نسبتها إلى الله ولم يكن لهم حجّة لا من العقل ولا من النّقل.

ثمّ بعد أن أنكر تعالى زعمهم أن يكون الملائكة بنات الله تعالى، أنكر زعماً آخر وهو أنّهم كانوا يقولون إنّ بين الله والجنّ نسباً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾

(وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً) في معنى هذه الآية أقوال أرجحها قولان:

الأوّل: إنّ قسماً من المشركين كانوا يقولون: إنّ الله تزوّج من الجنّ فولدت له البنات وهنّ الملائكة.

الثّاني: إنّ الثّنويّة يقولون: إنّ الله والشّيطان وهو الجنّ إخوان، فالله يفعل الخير والشّيطان يفعل الشّر.

(ولقد علمت الجنّة إنّهم) أي الّذين يقولون هذا القول **(لمحضرون)** للعذاب يوم القيامة، ومعناه: إنّ الجنّ يعترفون بأنّهم يحضرون يوم القيامة للحساب، فلو كانوا أقرباء الله لما حاسبهم **(سبحان الله)** أي تنزّه الله **(عمّا)** من كلّ شيء **(يصفون)** به الله وينسبونه إليه **(إلّا عباد الله)** أي إلّا من ما يصف به عباد الله المخلصين، فإنّهم يصفونه بصفات الكمال وينزّهونه عن صفات النّقص.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الجنّ لا ترضى بما قالوا من أنّ بينهم وبين الله نسباً، وأنّهم ينزّهون الله تعالى عن ذلك، وردّوا على قولهم هذا بأنّهم محضرون، أراد الله تعالى أن يذكر أيضاً ردّ الملائكة لزعمهم أنّهم بنات الله تعالى أيضاً؛ فقال جل وعلا:

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

(فإنّكم) أيّها المشركون الّذين يفترون على الله بأنّ الملائكة بناته أنتم **(وما تعبدون)** وما تطيعونه في هذا القول وهو الشّيطان والسّادة والكبراء المضلّون ما أنتم كلّكم **(بفاتنين)** أي بصارفين ومضلّين **(عليه)** أي على الله تعالى، يقال: فتنه عليه أي صرفه عنه، فالمعنى

فإنّكم وما تعبدون لا تصرفون عن عبادة الله من هو إليه ملتجئ **(إلّا من هو صال الجحيم)** إلّا من هو داخل الجحيم، أي يريد أن يضلّ فيدخل الجحيم بسبب ذلك، وصال يقرأ بكسر اللّام أصله صالي الجحيم، إسم فاعل من الصّلي، وهو الدّخول، حذف الياء لالتقاء السّاكنين الياء ولام الجحيم، ويقرأ بضمّ اللّام فيكون أصله (صاليون الجحيم) حذف النّون بالإضافة؛ فيبقى صاليو، وحذف الياء للّثقل والواو لإلتقاء السّاكنين، وحينئذٍ إجراء ضمير هو على من مفرداً يكون بإعتبار اللّفظ، وصالوا بإعتبار المعنى، لأنّ من يطلق على المفرد والجمع، يقال: من قام، ومن قاموا، ثمّ يقول الملائكة **(وما منّا)** أحدٍ **(إلّا له مقام معلوم)** محدود في العبادة والخدمة، فنحن عباد الله تعالى، فكيف نكون بناته **(وإنّا لنحن الصّافّون)** أقدامنا في الصّلاة لله والقيام بأمره **(وإنّا لنحن المسبّحون)** المنزّهون لله تعالى من كلّ مالا يليق به من صفات النقص وما فيه شائبة الزّوال.

ثمّ أراد الله تعالى أن يلوم المشركين والجاهليين بأنّهم خالفوا قولهم ونقضوا عهدهم وكذبوا في دعواهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

(وإن) مخففة من الثّقيلة إسمها ضمير الشّأن المقدّر وتقديره **(وإنه)** أي وإنّ الشّأن إنّه **(كانوا)** الجاهليّون ليقولون قبل مجيء محمّد (ﷺ) ونزول القرآن عليه **(لو أنّ عندنا ذكراً)** أي لو بعث فينا رسول وأنزل تعالى إلينا **(ذكراً من الأولّين)** أي شريعةً وديناً مثل الأوّلين لاتّبعنا الرّسول ولعملنا بالشّريعة و **(لكنّا عباد الله المخلصين)** فما خالفنا رسوله وما انحرفنا عن دينه، ثمّ جاءهم الذّكر فنقضوا عهدهم هذا وكذّبوا أنفسهم **(فكفروا به)** بذلك الذّكر **(فسوف يعلمون)** عاقبة هذا الخلف وعاقبة هذا الكفر من عذاب أليم وعقاب صريم.

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ ﴿١٧٨﴾

لقد بلغ محادة الجاهلين وعداؤهم لرسول الله (ﷺ) وإنكارهم له حداً ضاق به صدره الشريف، فأراد الله تعالى أن يسلّيه فقال وعزّ من قائل: **(لقد سبقت كلمتنا)** أي ولقد سبق قضاؤنا وتقديرنا في الأزل **(لعبادنا المرسلين)** والكلمة والقضاء لا الّذي سبق هو **أنّهم لهم المنصورون)** على أعدائهم بالحجّة والبرهان **(وإنّ جندنا)** وهم المؤمنون أتباع الرّسل **(لهم الغالبون)** على أعدائهم في القتال والميدان. وهنا ورد لفظ (المنصور، والجند، والغالبون) وهذه الكلمات مصطلحات الحرب والقتال خطر ببال الرّسول (ﷺ) إنّ ذلك إذن بالقتال ولو لم يتداركه الله تعالى بالتّهدئة لأنشأ قتالاً على الكافرين، فقال تعالى: **(فتولّ عنهم)** أي أعرض عنهم ولا تقاتلهم **(حتّى حين)** إلى أن يأتي وقته ويؤذن لك في الحرب والجهاد **(وأبصرهم)** أي ورهم في ذلك الوقت **(فسوف يبصرون)** فسوف يرون ما نزل بهم من الذّل والهوان، وقد رأوا ذلك أيّام الحروب الّتي وقعت بينهم وبين المسلمين، فذلّوا وذلّوا إلى أن خضعوا للحقّ واعتنقوا الإسلام **(أفبعذابنا يستعجلون)** فكانوا يقولون، إنكاراً واستهزاءً، من هذا العذاب فلم لم يأت؟ والاستفهام في (أفبعذابنا...الخ) للتّوبيخ ولذلك قال: **(فإذا نزل)** عذابنا **(بساحتهم)** بديارهم **(فساء صباح المنذرين)** ذلك الصّباح الّذي ينزل بهم العذاب فيه. وخصّ الصّباح لأنّ أكثر العذاب كان يأتي في الصّباح، ثمّ كرّر الله تعالى قوله: **(وتولّ عنهم حتّى حين• وأبصر فسوف يبصرون)** لزيادة التّهدئة وتقوية للوعد بالنّصر وقهر الأعداء.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

(سبحان) أي سبّح سبحاناً لربّك **(ربّ العزّة)** واعترف بنزاهته **(عمّا يصفون)** وينسبون إليه من الصّاحبة والولد والشّريك والعجز عن نصرة رسله وقهر أعدائهم **(وسلام)** أي حفظ من مكايد الأعداء **(على المرسلين)** نازل من الله تعالى عليهم حيث وعدهم بالحفظ **(والحمد لله ربّ العالمين)** والكمال المطلق لله تعالى؛ فلا يعجز عن شيء وهو على كلّ شيء قدير. قال الماوردي: روى الشّعبيّ قال: قال رسول الله (ﷺ): من سرّه أن يكتال له بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة، فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: سبحان ربّك

ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين. وقال أنس قال النّبيّ (ﷺ): إذا سلّمتم عليّ فسلّموا على المرسلين، فإنّما أنا رسول من المرسلين. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة (ص)

(مكيّة وهي ثمان وثمانون آية نزلت بعد سورة القمر)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِى ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾

(ص) هو الحرف الرّابع عشر من حروف الهجاء، وجيء به مقطّعاً للتّحدي والاستدلال بأنّ هذا القرآن من الله تعالى وليس من صنع البشر، وكيفيّة الاستدلال هو أنّ هذا القرآن مؤلّف من هذه الحروف الّتي تركّبون أنتم منها كلامكم وخطبكم وأشعاركم، ولم يأت من حروف أخرى غريبة، فإذا صدقتم إنّه من كلام البشر، فأتوا أنتم من مثل تلك الحروف ونفس اللّغة ما يقارب هذا القرآن فصاحةً وبلاغةً وروعةً في البيان والتّعبير، فحيث ما استطعتم معارضته ولو بمقدار أقصر سورة منه وأنتم فرسان البلاغة وأبطال الشّعر والخطابة، مع حرصكم الشّديد على ذلك، ومحمّد الأمّي الّذي لم يعرف منه قطّ الشّعر ولا الخطابة جاء به، فيدلّ ذلك على أنّه أوحي من الله تعالى وإلّا لاستطعتم المعارضة، فإنّ البشر يستطيع أن يأتي بمثل كلام البشر ولا يستطيع أن يأتي بمثل كلام الله تعالى، هذا وقد ذكرت كلاماً مفصّلاً على تلك الحروف المقطّعة الّتي وردت في أوائل بعض السّور في تفسير سور(يوسف، ويس، ون) والحمد لله. **(والقرآن ذي الذّكر)** أي والقرآن ذي الموعظة والتّذكير بما ذكر في العقول من حقائق ثابتة وعقائد صحيحة وأحكام ناصعة وآداب حسنة وأخلاق طيّبة ومعاملات عادلة، وكلّ ما في القرآن ممّا تستسيغه العقول وترتضيه الفطرة السّليمة من بني الإنسان. وجواب القسم محذوف تقديره: والقرآن ذي الذّكر إنّ محمّداً رسول الله تعالى، وإنّ هذا القرآن أوحي إليه من الله تعالى.

تـنبيه: أقسم الله تعالى بالقرآن ظاهراً على أنّ محمّداً رسول منه وأنّ القرآن أنزلت عليه من عنده، ولكنّه في الواقع استدلّ تعالى وبرهن بالقرآن على أنّ محمّداً (ﷺ) رسول الله والقرآن كلام الله؛ وذلك لأنّ المعنى والله تعالى أعلم: أنّ القرآن الّذي بلغ هذا الحدّ من البلاغة وأعجز جميع البلغاء، والّذي يذكر لكم هذه الأحكام النّاصعة والحكم الرّفيعة ويخبركم بهذه الأخبار الماضية الصّادقة، والّتي كانت تخفى إلّا على أهل الإختصاص من أهل الكتاب، وبالأخبار المستقبليّة الّتي تقع كما أخبر. ويكشف لكم حقائق كونيّه يثبتها العلم يوماً بعد يوم ويبيّن لكم هذه العوالم البعيدة المدى والكثيرة العدد، رغم أنّ محمّداً الّذي أتى به أمّي لم يكن يوماً من الأيّام ليدرس كتاباً أو ليقرأ أخباراً، فيشهد ويدلّ هذا القرآن وبواقعيّته هذه على أنّ محمّداً (ﷺ) رسول الله، وأنّ القرآن أوحي إليه من الله تعالى. ولم يكن هذه الحقيقه خفيّة على الّذين كفروا، فلم يكن عدم إيمانهم بالرّسول (ﷺ) وبالقرآن لخفاء هذه الواقعيّة.

* * *

(**بل الّذين كفروا في عزّةٍ**) أي في تكبرٍ وجبروت (**وشقاق**) مخالفة للرّسول لعزّتهم هذه وكبريائهم وخوف ضياع الرّياسة من أيديهم أو من أيدي سادتهم وكبرائهم، فلذلك لم يؤمنوا لا لخفاء رسالة محمّد ولا لغموض كون القرآن من الله تعالى، هذا وعليك بمراجعة تفسيرنا لسورة (يس) فإنّ فيه ما يجلي البصر ويشفي الغليل والحمد لله تعالى.

وبعد أن ذكر الله تعالى أنّ الكافرين يمنعهم من الإيمان عزّتهم وكبرياؤهم وشقاقهم، ذكر مصير المتكبّرين والّذين تأخذهم العزّة بالإثم، فتعوقهم عن اتّباع الحقّ وقبوله؛ فقال جلّ وعلا:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

(**كم**) أي كثيراً (**أهلكنا من قبلهم**) من قبل منكري الرّسول (ﷺ) (**من قرن**) من أهل قرون كثيرةٍ بسبب استكبارهم واعتزازهم بالكفر، وعدم الخضوع للحقّ عند ظهوره (**فنادوا ولات**) لا بمعنى ليس ألحقت بها التّاء، فاختصّت بالأحيان واسمها محذوف تقديره لات الحين، أي وليس الحين، فالمعنى: حينما جاء وقت هلاكهم ينادون ويستغيثون ويطلبون النّجاة من العذاب، والحال أنّه ليس الحين (**حين مناص**) أي حين

نجاة حيث قضى عليهم الأمر فلا رادّ له، وإنّ هؤلاء ليسوا بأقوى ممّن أهلكوا من تلك القرون، فليحذروا أن يهلكوا كما أهلكناهم بسبب عزّتهم وشقاقهم.

ثمّ بين الله تعالى كيفية استنكارهم وشقاقهم فقال جل وعلا:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾

(وعجبوا) وأنكروا وأعرضوا عن الإيمان **(أن)** لأن **(جاءهم منذر منهم)** حيث كانوا يطلبون أن يأتي الرّسل من الملائكة، وهذه الدّيدنة ديدنة كلّ جيل، ففي كلّ زمان كان الكافرون يعارضون الرّسل ويحتجّون بأنّهم بشر. فلا يليق بهم أن يكونوا رسلاً من الله تعالى، فالرّسل يجب أن يكونوا من الملائكة، وقد فصّلنا هذا الموضوع والردّ عليهم في سورة التّغابن عند قوله تعالى: **(أبشراً منّا واحداً نتّبعه)**. **(وقال الكافرون)** أي وقالوا إلّا إنّه جيء بالظّاهر مكان الضّمير للدّلالة على أنّ هذا القول ناشيء عن كفرهم وأنّهم كافرون **(هذا)** أي الرّسول **(ساحر)** وليس برسول **(كذّاب)** في دعوى الرّسالة من الله تعالى. ذكر القرطبيّ وغيره من التّفاسير: أنّ سبب نزول هذه الآيات من قوله: (أجعل ... الخ) الى قوله: **(أنزل عليه الذّكر من بيننا)** إنّ ناساً من قريش اجتمعوا وكان فيهم أبو جهل بن هشام والعاصي بن وائل والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش، فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلّمه فلينصفنا من ابن أخيه، فليكفّ عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الّذي يعبده، فإنّا نخاف أن يموت هذا الشّيخ فيكون منّا إلى ابن أخيه شيء فتعيرنا العرب ويقولوا تركوه حتّى إذا مات عمّه عنه تناولوه، فبعثوا رجلاً يقال له: المطّلب، فاستأذن لهم على أبي طالب فقال: هؤلاء مشيخة قريش يستأذنون عليك، قال: أدخلهم، فلمّا دخلوا عليه قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيّدنا، فأنصفنا من ابن أخيك، فمره فليكفّ عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه، فبعث إليه أبو طالب، فلمّا دخل عليه قال: يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وقد سألوك أن

تكفّ عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك. قال رسول الله (ﷺ): ياعمّ أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم؟ قال: إلام تدعوهم؟ قال (ﷺ): ادعوهم أن يتكلّموا بكلمة يدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم، فقال أبو جهل: ما هي وأبيك لنعطيّنك إياها وعشر أمثالها؟ قال (ﷺ): تقولون لا إله إلّا الله. فنفروا وقالوا: سلنا غيرها، فقال (ﷺ): لو جئتموني بالشمس حتّى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها، فقاموا من عنده غضاباً وقالوا: **(أجعل الآلهة)** المتعدّدة **(إلٰهاً واحداً)** فكيف يسع هذا الإله الواحد كلّ هذا الخلق **(إن هذا)** الّذي يقوله من وحدة الإله **(لشيء عجاب)** صيغة مبالغة في عجيب أي عجيب خبراً **(وانطلق)** أي وقام **(الملأ منهم)** ممّن كان في مجلس أبي طالب، وقال بعضهم لبعض: أن **(امشوا)** اذهبوا واتركوهم حيث لا يفيد الكلام معهم **(واصبروا على)** عبادة **(آلهتكم)** ولا تتركوهم لاتّباع قول محمّد حيث **(إن هذا)** الّذي يدعو إليه محمّد وجمع عليه أناساً **(لشيء يراد)** أي قضيّة أرادوها، فهي شيء مدبّر من هؤلاء ليتسلّموا رئاسة القوم **(ما سمعنا بهذا)** بأنّ الإله واحد وليس له ولد **(في الملّة الآخرة)** لا في ملّة اليهود، فإنّهم يقولون: عزير ابن الله، ولا في ملّة النّصارى لأنّهم يجعلون المسيح إلهاً وابن إله ومريم إلهاً ثالثاً، وإنّ آبائنا وأجدادنا كلّهم كانوا يعتقدون بوجود آلهة غير الله ويعبدونهم، فمن أين أتى محمّد بهذه العقيدة **(إن هذا)** أي هذا الّذي يقوله محمّد **(إلّا اختلاق)** أي إلّا كذب اختلقه وصنعه من عنده. ثمّ بعد أن اعترضوا على دعوة محمّد دعوة التّوحيد بأنّها مخالفة لعقيدة الملّتين اليهود والنّصارى ولعقيدة الآباء والأجداد اعترضوا عليها بأمر آخر فقالوا: **(أأنزل عليه الذّكر)** أي الوحي **(من بيننا)** وخصّ بذلك هو دون من هو أكبر منه سنّاً وأكثر منه مالاً وأعزّ نفراً وأقوى منزلةً بين النّاس؟، فلو جاء الوحي لجاء إلى هؤلاء كما قالوا في آية أخرى: ﴿لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾[١] أي على رجل عظيم من قريتي الطّائف ومكّة **(بل)** ترقّوا من إنكار كون محمّد رسولاً وإنّه خصّ بالذّكر من بينهم إلى أن انكروا أصل الوحي وكانوا **(هم في شكّ)** وإنكار **(في ذكري)** ويعتقدون أنّه لا وحي ينزل من السّماء، وهؤلاء كانوا مثل السّمنية أنكروا أن يكون رسالة من الله إلى العباد، فنفوا الرّسل والرّسالة، فكان طائفة من الجاهلين على هذه العقيدة **(بل)** أي بل كان سبب كفرهم أنّهم **(لمّا يذوقوا عذاب)** أي عذابي معناه: أنّهم أترفوا وأنعموا ولم يروا عذاباً إلى الآن، وإنّ الإنسان حينما دامت نعمته ليطغى

(١) سورة الزخرف الآية (٣١).

ويعتقد أن لا إرادة فوق إرادته ولا آمر عليه ولا خالق يحاسبه ولا شريعة يكلف بها، فإنّما هناك هواه ومصلحته فيتّبع الهوى وينسى الله ودينه، ولا يعلم إلّا الحياة الدّنيا. ثمّ رد الله تعالى على اعتراضهم على أنّ محمّداً كيف خصّ بالرّسالة ولم يأت الوحي إلى غيره من السّادة.

فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

(أم عندهم) أي هل في يدهم وحسب إرادتهم واختيارهم **(خزائن رحمة)** أي نعمة **(ربّك)** فيوزّعوا نعمته حسبما يشاؤون فيصرفوا النّبوّة والوحي والرّسالة من محمّد ويهبوها لمن يشاؤون من سادتهم وكبرائهم؟ كلّا، ليس في يدهم شيء من ذلك لأنّ الله يسمّى بـ **(العزيز)** أي الغالب عل أمره لا يمنعه من تنفيذ إرادته كلّ سلطان في الكون ولا ينقاد لاختيارات واقتراحات العبيد **(الوهاب)** كثير الهبة والعطايا لمن يشاء؛ فيهب مايشاء لمن شاء رضي النّاس أو أبوا، فعزّته هذه ووهابيّته تلك وهب محمّداً الرّسالة من بين النّاس، يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم. فلمّا نفى الله تعالى أن يكون في يدهم شيء من تقسيم وهبة نعمة الله تعالى نفى أن يكون لهم تسلّط في السّماوات والأرض، فبتلك السّلطة يسلبوا الرّسالة عن محمّد ويؤتوها غيره فقال تعالى: **(أم لهم ملك)** أي التّصرف والتّسلط **(في السّماوات والأرض)** فبذلك التّسلط يصرفون النّبوة من محمّد؟ كلّا، ليس لهم ذلك، فلو كان لهم شيء من ذلك **(فليرتقوا)** فليصعدوا **(في الأسباب)** الموصلة إلى السّماء، فيأتوا بالرّسالة لمن شاؤوا. هذا ما قاله المفسّرون، والّذي يظهر لي أنّ المشركين حينما خرجوا من عند أبي طالب أتّفقوا بأن يضيّقوا على من اتّبع رسول الله (ﷺ) من النّاحية الإقتصاديّة ويكافحوهم بكلّ ما يملكون من قوّة في المادّة والمعنى، إلى أن يبيدوهم ويقضوا عليهم وعلى عقيدتهم، فعلم بذلك رسول الله (ﷺ) والمؤمنون، فحزن بذلك قلب الرّسول (ﷺ)، وربّما دخل الخوف في قلب بعض المؤمنين فسلّاهم الله تعالى وقوّى عزيمتهم ووعدهم بالنّصر على الأعداء، وأعلمهم بأنّ الرّزق وخزينة رحمة الله ليست في أيديهم، فيضيّقوا عليهم من حيث الإقتصاد، وليس لهم التّسلط في السّماوات ولا في الأرض فيعذّبهم

ويكافحوهم حتّى يرتدّوا أو يموتوا، وبشرّهم الله تعالى بهزيمة الأعداء فقال تعالى: **(جند ما)** جند مبتدأ و (ما) صفته و **(مهزوم)** خبره و **(من الأحزاب)** متعلّق بكائن خبر آخر لجند، ولفظة ما جند كثير هنالك كائن من الأحزاب المتحزّبين ضدّك، ولا تخف من هذا الجند كلّه فإنّه مهزوم. وإن كان للتّحقير فمعناه جند ضعيف هنالك من الأحزاب مهزوم، فإنّ الباطل ضعيف أمام الحقّ، وجند الله هو الغالب كما قال تعالى: ﴿وإنّ جندنا لهم الغالبون﴾ سورة الصافات الآية/ ١٧٣. ثمّ برهن الله تعالى على هزيمة الجند الّذين وقفوا ضدّ رسول الله (ﷺ) بهزيمة جنود أعداء المرسلين السّابقين ونصرة المؤمنين بالرّسل عليهم تنفيذاً لقوله: (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين* إنّهم لهم المنصورون﴾ سورة الصافات الآيتان/ ١٧٢، ١٧٣. فلم يأت رسول إلى الدّنيا إلّا وقد انتصر على أعدائه، وعليك بدراسة التّأريخ للإطّلاع على هذا الواقع الّذي يصدّق القرآن، وليكون ذلك معجزة القرآن حيث أخبر عن الماضي والمستقبل، وصدّق التّأريخ والواقع ذلك، فبرهن على نصرة الرّسول وهزيمة أعدائه تسلية له، فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾

(كذبت قبلهم) قبل أعداء محمّد رسولهم فكذّب **(قوم نوح)** نوحاً وقوم **(عاد)** هوداً **(وفرعون ذو الأوتاد)** جمع وتد، فكان له خيم كثيرة للجيش، وبذلك كثرت أوتاد الخيم، وهذا كناية عن قوّته وكثرة جنوده، فكذّب فرعون موسى وكذّب قوم **(ثمود)** صالحاً **(وقوم لوط)** كذّب لوطاً **(وأصحاب الأيكة)** أي البساتين الكثيرة الملتفّة أشجارها كذّبوا شعيباً **(أولئك)** أي هؤلاء الأقوام **(الأحزاب)** الأقوياء في الحزب والقسوة **(إن كلّ)** ليس كلّ من هؤلاء الأحزاب **(إلّا كذب الرّسل)** المرسلين إليهم، فكلّ قوم كذّب رسوله **(فحقّ عقاب)** أي وجب عقابي لهم؛ فعاقبناهم، وقد علمتم بعقابهم، وكيف عاقبناهم وبماذا أهلكناهم. فهؤلاء ليسوا بأقوى منهم، وإنّهم سيعاقبون إن لم يرجعوا ويتوبوا ويؤمنوا، وإنّ لهم ليوماً وعذاباً أمامهم ينتظرونه، كما قال تعالى: **(وما ينظر هؤلاء)** أي المتحزّبون ضدّ الرّسول (ﷺ) ما ينتظرون **(إلّا صيحةً واحدةً)** يصيح بها عليهم ملائكة أو صيحة صاعقة تصيبهم أو صيحة حرب تذلّهم **(ما لها من فواق)** من إمهال وتأخير إذا

أراد الله تعالى مجيئها، ولقد جاءتهم تلك الصّيحة في حرب بدر الّتي أذلّتهم وفتح مكّة الّذي أخضعهم وألزمهم الدّخول في الإسلام، حيث اتّضح لهم الحقّ وأزالت الغلبة كبرياءهم وغطرستهم فآمنوا وانقادوا. هذا وكلّما أنذروا بالعذاب في الدّنيا والآخرة أصرّوا على كفرهم واستهزائهم بالرّسول (ﷺ) كما أخبر الله تعالى عنهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾

(وقالوا) بعد أن أنذروا هذه الإنذرات الشّديدة ودعوا إنكاراً واستهزاءً **(ربّنا عجّل لنا قطّنا)** أي نصيبنا من العذاب **(قبل يوم الحساب)** فيقولون إن كان الأمر كما يقول محمّد فعجّل لنا ربّنا بالعذاب أو غير ذلك من الأقوال والأدعية على سبيل الاستهزاء والسّخرية.

ثمّ بعد هذه المناقشة الطّويلة وحصول ضيق في صدر رسول الله (ﷺ) أمره الله تعالى بالصّبر؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

(اصبر) يا محمّد **(على ما يقولون)** فإنّ الصّبر من شيمة الأنبياء والمرسلين، فإنّ كلّ نبيّ أو رسول ابتلى فصبر فازداد بذلك رتبةً ودرجاتٍ من الثّواب والتّقدير، وللإطّلاع على صبرهم وحالهم لتتسلّى بهم أذكرهم **(واذكر داود)** (ﷺ) الّذي كان **(ذا الأيد)** أصله الأيدي حذفت الياء الأخيره للتّحقيق، وهو جمع يد بمعنى القوّة، ففسّره بعضهم بالقوّة في العبادة، وبعضهم بالقوّة في الملك، والأصحّ أنّ معناه: ذا القوّة فيهما. ثمّ بيّن قوّته في العبادة بقوله تعالى: (إنّا سخّرنا... الخ) وبيّن قوّته في الملك بقوله تعالى: (وشددنا ملكه ... الخ)، **(إنّه)** إنّ داود **(أوّاب)** كثير الرّجوع إلى الله تعالى بالاستغفار **(إنّا سخّرنا الجبال معه)** متعلّق بقوله: **(يسبحن)** أي جعلنا الجبال يسبحن معه **(بالعشي)** وهو وقت العصر **(والإشراق)** وهو وقت بياض الشّمس بعد طلوعها من الأفق، والمراد بالتّسبيح إمّا الصّلاة بدليل قوله: **(بالعشيّ والإشراق)** لأنّ العشيّ وقت صلاة العصر،

والإشراق وقت صلاة الضّحى، أو المراد التّسبيح وهذا أصحّ، والمراد به التّسبيح نطقاً، لأنّ كلّ شيء له نوع من الحياة ونوع من الرّوح وهو حيّ ينطق، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ الإسراء الآية٤٤، فالنّطق موجود إلّا أنّ سماعنا له وفهمنا إيّاه لا يوجد إلّا خرقاً للعادة كما حصل للرّسول (ﷺ)، فسمع تسبيح الحصى في يده وسمعه من عنده من الأصحاب (رضي الله تعالى عنّا وعنهم) وإنّما قدم معه على يسبّحن للدّلالة على التّخصيص أي يسبّحن معه لا مع غيره، وكان هو يسمع تسبيحهنّ وقال: (**يسبّحن**) بضمير جمع المؤنث العاقلة لأنّ الجبال حينما سبّحن أصبحن مثل العاقلات (**والطّير**) أي وسخرنا معه الطّير (**محشورة**) مجموعة يسبّحن مع تسبيحه قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما) كان داود إذا سبّح جاوبته الجبال واجتمعت اليه الطّير فسبّحت معه، فالمعنى وسخّرنا الطّير مجموعة اليه للتّسبيح معه (**كلّ**) من الجبال والطّير (**له**) لداوود (**أوّاب**) مطيع.

تنبيه: إن كان المراد بالتّسبيح هو التّسبيح فيفهم من هذه الآية أنّ داود (عليه السلام) قد خصّص له وقت العصر ووقت الضّحى فيسبّح فيهما، وإن كان المراد الصّلاة فهي صلاة العصر وصلاة الضّحى، وكانت الجبال والطّير تصّلي معه أو تسبّح معه حينما يسبّح بعد أداءه الصّلاة، هذا وإنّ صلاة الضّحى سنّة في شريعتنا، قال القرطبي: وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: يصبح على كلّ سلامي من أحدكم صدقة، فكلّ تسبيحة صدقة، وكلّ تهليلة صدقة، وكلّ تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضّحى[1]. وفي التّرمذي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): من حافظ على شفعة الضّحى غفر له ذنوبه وإن كنت مثل زبد البحر[2]. وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أوصاني خليلي بثلاثٍ لا أدعهنّ حتّى أموت: صوم ثلاثة أيام من كلّ شهر، وصلاة الضّحى، ونوم على وتر[3].

فهذه قوّة داود في العبادة، وأمّا قوّته في الملك فقد بيّنه الله تعالى فقال: (**وشددنا**)

---

(١) صحيح مسلم ١/٤٩٨ الحديث رقم٧٢٠.
(٢) سنن الترمذي ٢/٣٤١ الحديث رقم٤٧٦.
(٣) صحيح البخاري ١/٣٩٥ الحديث رقم١١٢٤.

وقوّينا له (**ملكه**) سلطانه (**وآتيناه الحكمة**) أي العلم بالشّرائع وإتقان العلم والعلم وفق العلم (**وفصل الخطاب**) أي حسم المنازعات والحكم بين النّاس ومعرفته القضاء بينهم.

ثمّ إنّ داود مع ما آتاه الله تعالى من قوّة العبادة وقوّة الملك وعلم القضاء وفصل الخطاب أبتلي ولم يسلم من الإبتلاء، وذكر تعالى إبتلاءه، فقال جلّ وعلا:

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾

(**وهل أتاك**) الاستفهام للتّقرير أي قد أتاك (**نبأ الخصم**) أي خبر الخصمين (**إذ تسوّروا المحراب**) أي إذ أتوا إلى داود للمحاكمة، فكان اليوم يوم عبادة داود، وما كان ليأذن لأحد أن يدخل عليه يوم عبادته، فمنعهم الحرس فتسوّروا المحراب أي دخلوا عليه بأن صعدوا على السّور ومنه نزلوا فدخلوا المحراب (**إذ دخلوا على داود**) دون إذنه لهم ودون علمه بهم (**ففزع**) فخاف داود (**منهم**) من الدّاخلين عليه لأنّ دخولهم عليه كان غير إعتيادي (**قالوا لا تخف**) منّا فإنّا لم نأت لشرّ نريد بك إنّما الشّأن أنّه (**خصمان بغى بعضنا**) أحدنا على بعض أي على الآخر (**فاحكم بيننا بالحقّ**) أي حسب شريعة الله تعالى وما أمر به (**ولا تشطط**) ولا تظلم فتجور في الحكم (**واهدنا**) وارشدنا (**إلى سواء الصّراط**) إلى الطّريق المستوي والعدل وهو الحقّ، وعلى قاعدة القضاء سأل داود (عليه السلام) المدّعي ليدلي بدعواه فقال: (**إنّ هذا**) الّذي بجنبي أو مقابلي له: (**له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة**) ترعى مع نعاجه (**فقال**) لي (**أكفلنيها**) أي أعطيني وهبني نعجتك (**وعزّني**) أي وغلبني (**في الخطاب**) في المكالمة والطّلب فأخذها منّي وأنا لم أكن راغباً في قلبي، ونادم على موافقتي له لفظاً، وحيث إنّ هذه الأمور وهذه

المطالبة من باب غصب الحياء، أجاب داود رأساً دون أن يسأل المدّعى عليه ويطلب منه المرافعة وأن يدلي بحجتّه قال للّمدعي: **(لقد ظلمك بسؤال نعجتك)** وضمّها **(إلى نعاجه وإنّ كثيراً من الخلطاء)** أي الّذين يخلطون بين مواشيهم فيسلّمونها لراع واحد وإلى مرعى واحد **(ليبغي)** ليظلم **(بعضهم بعضاً إلّا الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** فهؤلاء يمنعهم إيمانهم الصّادق وعملهم الصّالح أن يبغوا ويظلموا فيما بينهم **(وقليل ما هم)** كلمة **(ما)** للتّأكيد أي قليل قليل هم أي المؤمنون الصّالحون الّذين لا يظلمون عند المخالطة والمشاركة في الأموال، فذهب الخصمان، ثمّ فكر داود فعلم أنّه أخطأ لأنّه قضى بمجرد قول المدعي دون السّؤال عن المدّعى عليه وطلب الحجّة والمرافعة منه، ودون طلب الشّهود والبيّنة من المدعي **(وظنّ داود)** وتيقن داود **(أنّا فتناه)** أي امتحنّاه: هل يخطيء في القضاء أم لا؟ فلم ينجح من هذا الإمتحان بل **(أخطأ فاستغفر ربّه وخرّ)** وسقط **(راكعاً)** وسقط فحيث استغفر وركع وأناب غفرنا له **(ذلك)** الخطأ **(وإنّ له)** يوم القيامة **(عندنا)** في الجنّة **(لزلفى)** لقربى من الله تعالى **(وحسن مآب)** ومآباً أي مرجعاً ونزلاً حسناً في الجنّة ودار السّلام.

هذا ما يجب أن يفسر به هذه الآيات، وأمّا ما روي في التّفاسير غير هذا التّفسير فكلّه خطأ وافتراء على نبيّنا داود (عليه السلام) وإسرائيليّات لا تليق بمقام الأنبياء ولا تليق بالذّكر إلّا ليردّ عليها، وها نحن نذكرها مع ردّها دفاعاً عن هذا النّبيّ العظيم الّذي مدحه الله تعالى فقال: (نعم العبد إنّه أواب) فأقول:

الأوّل: قيل: إنّ داود (عليه السلام) رأى زوجة أوريا فعشقها، وكان أوريا في جبهة القتال، فأرسل داود إلى قائد أوريا أن يجعل أوريا في محلّ خطر يقتل المقاتل هناك غالباً، ففعل القائد ذلك فقتل أوريا وبعد إنتهاء عدّة زوجته خطبها فتزوّجها.

الثّاني: قيل أنّه خطب أوريا إمرأة فأجاب أهلها وقبلوا أن يعقد عليها، ثمّ رآها داود فأحبّها فخطبها، فآثروه على أوريا فتزوّجها داود وحزن بذلك أوريا.

الثّالث: قيل: إنّه كان في زمن داود من المتعارف أن يسأل الرّجل رجلاً آخر أن يتنازل له عن زوجته، فطلب داود من أوريا أن يتنازل له عن زوجته، فتنازل عنها فتزوّجها داود (عليه السلام).

وحيث إنّ كلّ هذه الأمور لم تكن لتليق بمقام داود؛ حيث كان له تسع وتسعون

زوجة، فكيف يطمع في ما لأوريا فيها حقّ من كونها زوجة له، فيطلب منه التّنازل عنها أو يرسله إلى مكان خطر ليقتل فيتزوج بامرأته أو يخطب على خطبته؟، كلّ واحد من هذه الأمور لم تكن لائقاً بداود، ولذا جاءه ملكان في صورة آدميّين فمنعا من الدّخول عليه فتسوّروا المحراب وقال أحدهما: يمثل أوريا، إنّ هذا أخي، يمثّل داود، له تسع وتسعون نعجةً، أي امرأةً حيث كان لداود تسع وتسعون زوجة على ما يقال، ولي نعجةٌ واحدةٌ أي امرأة واحدة فقال: أكفلينها أي تنازل عن إمرأتك لي على القول الثّاني وغلبني في الكلام، فتنازل عنها إستحياءً منه، أو فقال: أي فأراد أكفلينها أن أصرف عنها بالقتل على القول الأوّل، أو بأن يردّ أهلها خطبتي حيث هو خطبها، فأجاب داوود فوراً: بأنّ هذا الأخ ظلمك، فاختفى الملكان وعلم داود أنّهما كان ملكين وجاءا لتذكيره بما جرى بينه وبين أوريا، وأنّه ظلمه بإفتائه نفسه وبحكمه وقضائه، فتذكّر ظلمه في أوريا فاستغفر وركع وتاب فغفر الله تعالى له.

فأقول: هذه الأقوال كلّها باطلة وافتراءُ على سيّدنا داود (عليه السلام) ويدلّ على بطلانها النّقل والعقل وكما يلي:

أولاً: أمّا النّقل فإنّ سيّدنا عليّاً (رضي الله عنه) قال في القول الأوّل: إنّ هذا القول افتراء على داود، فمن سمعته يروي ويذكره ضربته مائة وستّين جلدة، وهذا حدّ الفرية، أي القذف لأنّ حدّ القذف ثمانون جلدة، وإذا كانت الفرية على الأنبياء يضاعف فيصير مائة وستّين. وأمّا الثّاني والثّالث فلأنّ كلا القولين ينسب إلى داود ارتكاب المحرّم، فإنّ الخطبة على الخطبة حرام، وكذا طلب التّنازل إنّما يكون حلالاً إذا كان الرّجلان متساويين في المرتبة والمنزلة بحيث لا يدخل في الطّلب غلبة الحياء من المطالب، لكونه أعلى من المطلوب ولا خوف، إذ حينما دخل فيه الإستحياء أو الخوف يكون غصباً بالإستحياء أو الخوف، والغصب كبيرة سيّما اذا كان للأعراض، فكيف ينسب إلى نبيّ من أنبياء الله تعالى هذه الكبيرة وهم معصومون. وأمّا بطلان هذه الأقوال عقلاً فلأنّه لو كان الخصم ملائكةً لما احتاجوا إلى الإستئذان من الحرس في الدّخول على داود (عليه السلام) دون استئذان ودون تسوّر، ولم نسمع قطّ أنّ الملائكة استأذنوا للدّخول على الأنبياء. فإن قيل: إنّهم حيث تمثّلوا لصورة البشر احتاجوا إلى الإستئذان والتّسور، فنقول: إنّه كان بوسع الملائكة أن ينفّذوا إليه دون إستئذان، ويتمثلوا بصورة البشر قبل أن يراهم داود، فإنّ تمثلهم آني لا يحتاج إلى مدّة وزمان، فما الحاجة إلى التّمثل قبل النّفوذ إليه وإلجاء أنفسهم إلى الإستئذان والتّسور هذا شيء بعيد.

ثانياً: إنّ الخصم لو كانوا ملائكةً فقول المدعي (إنّ هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزّني في الخطاب) كذب؛ لأنّ الملائكة ليس لهم النّعاج لا تسع وتسعون ولا نعجة واحدة، والملائكة منزّهون عن الكذب وعن كلّ معصية. فإن قيل: لم يقل القائل ذلك حقيقةً وعن نفسه بل إنّما قال تمثيلاً، حيث مثّل نفسه بأوريا وأخاه بداود فنقول: إنّ التّمثيل لا يجوز أن يدخل فيه الكذب، ثمّ إن قلنا: أنّ التّماثيل لا يعدّ ما فيه كذباً بل هو تشبيه، قلنا: ألم يكن بوسع الملائكة أن لا يمثّلوا هذا التّمثيل الغامض، وأما كان بوسعهم أن يقولوا: لو كان لأحد تسع وتسعون نعجة ولآخر نعجة واحدة فقال له: أكفلنيها، فأخذها منه حيث عزّ عليه في الخطاب والكلام ولم يكن الشّخص راضياً بقلبه بل هو نادم، أفتونا يا نبيّ الله مأجوراً، كما قال من قصّ الرّؤيا ليوسف: ﴿يوسف أيّها الصّديق أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبعٌ عجافٌ وسبع سنبلاتٍ خُضرٍ وأخر يابسات لعلّي أرجعُ الى النّاسِ لَعَلَّهم يعَلَمون﴾ سورة يوسف الآية/ ٤٦. ولم يقل إنّي رأيت أو فلان رأى، فإنّ المستفتي إذا لم تكن الحادثة متعلّقة بشخصه لا ينسبها إلى نفسه بل يذكرها مطلقاً، أو ممّن وقعت أو حدثت منه، فهل كان الملائكة أجهل من ساقي ملك مصر؟ أو هل كان السّاقي أحوط منهم في الإجتناب من الكذب. فالحقّ إنّ خطأ داود (عليه السلام) كان خطأً في الحكم وإصدار القرار دون السّؤال عن المدّعى عليه وطلب المرافعة منه وإبراز حجّته، والخطأ في الحكم لا يعدّ ذنباً بل قال الرسّول (ﷺ): اذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثمّ أخطأ فله أجر واحد)[1] ويدلّ على هذا القول السّياق فإن الله تعالى قبل قوله: (وهل أتاك نبؤ الخصم..الخ) قال: (وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب) أي المعرفة بفصل القضايا وحلّ النّزاع وإعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. فكان داود (عليه السلام). فرح بجعل الله إياه قاضياً أو كأنّه أعجب بنفسه شيئاً ما فأراد تعالى أن يمتحنه ويوقعه في الخطأ في الحكم لكي يتدرّب على التّفكر التّام وعدم العجلة في القضاء، وقيل في المثل: (إنّ الراكب ما لم يقع لا يصير فارساً) فأخطأ وذهب أعجابه وفرحه وأصبح يتفكّر حين الحكم كثيراً، ولا يستعمل حتّى يظهر له نصّ في الموضوع، أو يظهر له رأي يراه صواباً، حسب إجتهاده وتفتيشه عن الأدلّة. وهذا دأب القاضي والحاكم والمجتهد. فدلّت الآيات السّابقة واللّاحقة على أنّ داود كان خطؤه في الحكم واصدار القرار عاجلاً، لا ما روي عن

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٧٦ الحديث رقم ٦٩١٩، صحيح مسلم ٣/ ١٣٤٢ الحديث رقم ١٧١٦.

اليهود من أوريا أو غيره، فإنّ اليهود أعداء الأنبياء، قتلوهم وهم أحياء، ويفترون عليهم وهم أموات، صلوات الله عليهم أجمعين.

وكذلك يدلّ على ما قلنا إنّ الله تعالى يقول بعد هذه الآيات فوراً فقال جلّ وعلا:

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾

(يا داوود) أي بعد أن أعطيناه فصل الخطاب وأخطأ في الحكم وناديناه وقلنا له **(يا داود إنّا جعلناك خليفةً في الأرض)** تخلف من قبلك من الأنبياء والمرسلين لتحكم في الأرض **(فاحكم بين النّاس بالحقّ)** والحقّ هو الشريعة، فالحكم بأيّ نظام سوى نظام الله تعالى باطل وضلال بقرينة مايأتي **(ولا تتّبع الهوى)** فتحكم به، والهوى مايراه إنسان ويحبّ أن يحكم به، واللّام في الهوى للإستغراق أي أي هوىً سواء هواك أو هوى من اتّبعته، فكلّ من لا يكون حكمه بالكتاب والسّنة أو مستنداً إليه استنباطاً واستخراجاً فهو هوى لا يجوز اتّباعه **(فيضلّك)** ذلك الهوى **(عن سبيل الله)** أي عن شريعته، فتبيّن من هذه أنّ الحقّ هو سبيل الله وشريعته فقط وإنّ غيرها باطل واتّباعه ضلال وهوى. ثمّ ذكر عاقبة الّذين ينحرفون عن شريعة الله ويحكمون بغير ما أمر الله فقال: **(إنّ الّذين يضلّون)** ينحرفون ويبتعدون **(عن سبيل الله)** أي دينه وشريعته، فيعملون بغيره في حقّ أنفسهم أو في حقّ غيرهم **(لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)** ما في **(بما)** مصدرية فيكون المعنى بسبب نسيانهم يوم الحساب، اليوم الّذي يحاسب فيه من ينحرف عن دين الله وينتقم منه، ولما في هذه الآية من بيان قال رسول الله (ﷺ): (لايؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[1].

ثمّ أراد الله تعالى أن يردّ على الّذين يعملون حسب عقلهم ولا يرون الالتزام بدين الله تعالى فرضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

(١) شرح السنة ١/ ٢١٤ الحديث رقم ١٠٥.

﴿نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

(وما خلقنا) وما أوجدنا ورتّبنا **(السّموات والأرض وما بينها)** من النّجوم والكواكب والحيوان والنّبات والمعادن والمياه والبحار والعيون والأنهار **(باطلاً)** اي دون أن نضع لمن يعيش في هذه الكون نظاماً تكليفياً نفرض عليهم العمل به والحياة وفقه، والاستفهام للإنكار، فالمعنى خلقنا هذه الكون حقاً ووضعنا نظاماً يجب على من يسكن في هذه الكون أن يعمل به فالنظام التكويني يستلزم للنظام التكليفي **(ذلك)** أي عدم وجود نظام الله وعدم وجوب العمل به هو **(ظن الذين كفروا)** فمن اعتقد أنه لا يوجد نظام الله أو لا يجب العمل بشريعة الله فهو كافر بنص هذه الآية **(فويل)** أي فعذاب شديد **(للّذين كفروا)** بنظام الله وتركوا العمل به، وذلك العذاب **(من النّار)** وهو نار جهنّم. ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّه إذا لم يكن لله نظام فلا يكون حساب لأنّ الحساب إنّما يقتضيه النظام، والحساب إنّما يكون على موافقته للنّظام ومخالفته، فإذا لم يكن حساب فكلّ النّاس يكونون سواء، فردّ تعالى على ذلك فاستفهم استفهام المنكر المتعجّب فقال جلّ وعلا: **(أم نجعل الّذين آمنوا)** بالله وشريعته **(وعملوا الصّالحات)** والعمل الصّالح هو ما كان موافقاً لشرع الله تعالى وما عداه فاسد **(كالمفسدين في الأرض)** وهم الّذين يعملون خلاف شرع الله تعالى ويبثّون هذه المخالفة في الأرض **(أم نجعل المتّقين)** أي الّذين يجتنبون مخالفة أوامر الله تعالى ويطبّقون أوامره **(كالفجّار)** جمع فاجر وهو الخارج عن نظام الله تعالى وشريعته، فلم يعمل على وفقه وحسب مقتضاه كلّا. لا نجعلهم سواء بل نثيب المتّقين ونعاقب الفجّار **(كتاب)** أي هذا القرآن كتاب **(أنزلناه إليك)** أيّها النّبيّ **(مبارك)** على القدر والمعنى **(ليدبّروا آياته)** أي ليدبّروا ويعلموا ويطلعوا على آياته أي أحكامه من حيث الإجتماعيات والأخلاق والإدارة والإقتصاد وجميع نواحي الحياة الفرديّة والإجتماعيّة **(وليتذكّر)** وليتّعظ به ويعملوا على وفقه **(أولوا الألباب)** أي أصحاب العقول، وتفيد هذه الآية أنّ المنحرف عن هذا الكتاب ليس من أصحاب العقول بل هم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر الرّسول بحال سليمان وفتنته ليتسلّى به الرّسول (ﷺ)؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾

(ووهبنا لداود سليمان نعم العبد) هو سليمان حيث إنّه **(أوّاب)** مطيع لربّه كثير الرّجوع إلى طاعته واذكر **(إذ عرض عليه)** إذ رأى فرأى **(بالعشيّ)** العشيّ كالمساء عبارة عن ما بعد الظّهر **(الصّافنات)** جمع صافن وهو الفرس الّذي يقف على ثلاثة قوائم ويرفع الرّابعة **(الجياد)** جمع جواد وهو الفرس الأصيل، قال بعض المفسّرين: إنّ سليمان نظر إلى الصّافنات وتمرّ بين يديه قبل العصر، فغفل صلاة العصر حتّى غربت الشّمس **(فقال إنّي أحببت حبّ الخير)** أي أحببت حبّاً الخير وهو الخيل، لأنّ العرب يقولون للخيل الخير وفي الأثر: (الخيل معقود في نواصيها الخير)[1] فأشغله حبّ الخيل **(عن ذكر ربّي)** وهو صلاة العصر فقال للملائكة: **(ردّوها)** أي ردّوا الشّمس عليّ لأصلّي العصر فردّوها عليه فصلّى العصر. ثمّ بعد ذلك قام **(فطفق)** فصار يمسح **(مسحاً)** بالسّيف والسّكاكين فمسح أي ضرب **(بالسّوق)** جمع ساق أي بسوق الخيل **(والأعناق)** أي وضرب أعناقها كناية عن الذّبح، فذبح الكلّ لأنّها شغلته عن ذكر ربّه ووزّع لحومها، وقيل: قتلها كلّها بدون ذبح، وهذه الرّواية خطأ وإسرائيليّات كاذبة إفتري بها على سليمان لمدحه أو لذمه وذلك لوجوه:

الأوّل: أنّ الغفلة عن صلاة العصر وعدم أدائها في وقتها عمداً معصية كبيرة لا يجوز نسبتها إلى سليمان.

الثّاني: أنّ قتل جميع الخيول وضياعها وضياع لحمها على قول القائل سفاهة واضاعة للمال بدون فائدة لا تليق بسليمان وهو نعم العبد، وإن كان ذبحها ووزّع لحمها على النّاس فذلك إسراف سيّما وقد كانت الخيل خيل الجهاد. فكيف يليق بملك وهو نبيّ أن يضيّع ما هو قوّة للمؤمنين وقد قال تعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم، وآخرين من دونهم لا تعلّمونهم الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ سورة الأنفال الآية/ ٦٠.

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٠٤٧ الحديث رقم ٢٦٩٥.

الثّالث: لم يكن سليمان بحاجة إلى أن يطلب ردّ الشّمس له فيصلّي العصر لأنّ الرّسول(ﷺ) يقول: (من غفل عن صلاةٍ أو نام عنها فليصلّها حينما تذكّرها إنّه وقتها)[١] فلا حاجة إلى ردّ الشّمس.

الرّابع: أنّ فوات الصّلاة لغفلة أو سهوٍ أو لنوم ليست معصيةً فيتألّم سليمان من فوات صلاة غفلة هذا التّألم ويسوقه إلى طلب ردّ الشّمس له وإلى ذبح كلّ الخيل لأنّها صارت سبباً للغفلة، أوَ تصدّق عن هذه الغفلة؟.

الخامس: ليس لسليمان حقّ الأمر على الملائكة أن يردّوا له الشّمس فإنّ الملائكة مأمورون لله لا لسليمان وغيره، بل لو فرضنا أنّه حصل فلا بدّ لسليمان أن يدعو الله أن يردّ له الشّمس ليصلّي لا أن يأمر الملائكة.

السّادس: لو كان ردّ الشّمس لسليمان صادقاً تكون هذه معجزة كبيرة جدّاً، وهي كمعجزة ولادة عيسى بدون أب وأحيائه الموتى، وأجراء موسى بعصاه إثنتى عشرة عيناً من الحجر، وغير ذلك من المعجزات الكبار، فوجب أن تنقل هذه المعجزة كأمثالها بالتّواتر لكثرة الدّواعي إلى ذلك، وأن لا يقع فيها خلاف، وليس كذلك فإنّ هناك خلافاً كثيراً في حصول هذه المعجزة لسليمان (عليه السلام)، فالحقّ ما قيل في شرح المواقف في باب عصمة الأنبياء وعدم صدور الذّنب عنهم، ما قال بعض المحقّقين في تفسير هذه الآية: إنّ المعنى قد عرض على سليمان الصّافنات الجياد بالعشيّ، والعشيّ كالمساء عبارة عن ما بعد الظّهر، فقال: إنّي أحببت حبّ الخير أي الخيل عن ذكر ربّي أي لأجل ذكر ربّي أي دينه والدّفاع عنه والجهاد في سبيل نشره، وما أحببته للدّنيا أو للزّينة أو لمصلحتي، فنظر إليها أي إلى الخيل حتّى توارت أي غابت عنه بالحجاب يتجاوزها عن سور المعرض، فحيث أحبّها الله قال: ردّوها أي الخيل عليّ لأجعلها لله، فطفق يمسح ويضرب علامة الوقف وبيت مال المسلمين بسيوفها وأعناقها لتبقى وقفاً في سبيل الجهاد وملكاً لبيت المال والجيش، وهذا أمر معروف من أنّ بيت المال من الخيل والغنم يختم عليه علامة يعرف بها أنّه من مال المسلمين وبيت مالهم وخزينة الدّولة. وهكذا يجب أن تفسر هذه الآيات لا بالإسرائيليّات الّتي لا غرض في وضعها إلّا تشويه الّدين والطّعن على الإسلام وذمّ الأنبياء والمرسلين.

---

(١) سنن ابن ماجة ١/ ٢٢٧ الحديث رقم ٦٩٤.ونصه: عن أنس بن مالك قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرجل يغفل عن الصلاة أو يرقد عنها قال يصليها إذا ذكرها.

ثمّ ذكر الله تعالى تسلية للرّسول (ﷺ) إن سليمان الّذي أعطاه الله تعالى هذه القوّة والملك وأنّه نعم العبد فإنّ الله تعالى فتنه وامتحنه ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾

(ولقد فتنّا سليمان) أي وبعزّتي لقد امتحنا سليمان، ثمّ بيّن الله تعالى نوعيّة فتنته ومصيبته فقال: **(وألقينا على كرسيّه جسداً ثمّ أناب)** أي بعد إلقاء الجسد على كرسيّه تذكّر خطأه فأناب إلى ربّه تعالى، وفي قصّة إلقاء الجسد على كرسيّه روايتان:

الرّواية الأولى: في البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه): مرفوعاً إلى النّبيّ (ﷺ) أنّه قال سليمان لأطوفنّ اللّيلة على سبعين امرأة، وفي رواية مائة امرأة، وفي رواية تسع وتسعين، كلّ واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل إنشاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلّا امرأة جاءت بشقّ رجل، والّذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لجهادوا في سبيل الله أجمعون، انتهى. فهذا الشّق ألقي على كرسيّه وقيل له: هذا الّذي جاءت به فلانة، فهذا قوله تعالى: وألقينا على كرسيّه جسداً فتنبه لخطئه وفي عدم الإستثناء.

الرّواية الثّانية: إنّه ولد لسليمان ولد فقالت الشّياطين: إن عاش هذا الولد لم ننج من الأسر والسّخرة فسبيلنا أن نقتله، فعلم سليمان بذلك فسلّمه إلى جماعة كانوا يغذّونه ويربّونه في السّحاب خوفاً من مضرّة الشّياطين، فألقى ولده ميتاً على كرسيّه فتنبّه لخطئه من أنّه لم يتوكّل على الله تعالى.

وعلى إحدى هاتين الرّوايتين يجب أن تحمل الآية. وأمّا ما في التّفاسير من روايات كثيرة تتلخّص في أنّ ملكه كان معقوداً بخاتمه، فوقع في يد الشّيطان فتصوّر بصورته وجلس على كرسيّه وحكم أربعين يوماً. أو أنّه كان له امرأة يحبّها فطلبت منه أن يضع لها هيكلاً على صورة والدها للذّكرى ففعل لها ذلك فكانت تسجد هي

وجواريها لذلك الهيكل. فكلّ ذلك من الإسرائيليّات الّتي يجب ردّها وتكذيبها، وإن أطال بعض المفسرين في سرد ذلك وسوّدوا أوراقاً من كتبهم بها.

ثمّ بعد أن تنبّه سليمان لخطئه من أنّه لم يقل إن شاء الله أو أنّه لم يتوكّل على الله في حفظ ولده بل توكّل على السّحاب **(أناب)** رجع إلى الله تعالى وتوكّل عليه وما كان يطلب شيئاً إلّا منه، ومن بعض ما طلب من الله تعالى أنّه قال: **(ربّ اغفر لي)** من خطئي هذا **(وهب لي)** أي وأعطني **(ملكاً)** أي سلطنةً وقوّة **(لا ينبغي)** أي لا يعطى ذلك الملك والقوّة **(لأحد بعدي)** غيري **(إنّك أنت الوهّاب)** كثير العطايا وكبيرها؛ فاستجاب الله دعاءه كما قال: **(فسخّرنا)** أي فاستجابة لدعائه **(سخّرنا له الرّيح تجري)** بسفينته الّتي تحمله هو وجنوده **(رخاءً)** أي تجري جرياً خفيفاً لا شدّة فيها لكي لايضرّ شيئاً **(حيث)** أي إلى حيث أي مكان **(أصاب)** أراد سليمان (عليه السلام) **(والشّياطين)** أي وسخرّنا له الشّياطين **(كلّ بناء)** فيبنون له **(وغوّاص)** فيغوصون له في البحر ويستخرجون له الدّرر واللآلىء **(وآخرين)** أي وسخرّنا شياطين آخرين **(مقرّنين)** مقيّدين **(في الأصفاد)** في القيود لئلا يفسدوا في الأرض، وإنّه هذا الملك لم يعط لأحد دونه، فلمّا أعطيناه هذا الملك قلنا له **(هذا عطاؤنا)** لك **(فامنن)** به وأنعم به على النّاس **(أو أمسك)** عن الإنعام، والخيار بيدك، وأعطيناك القدرة على العطاء والإمساك، فإن أنعمت فتؤجر وإن أمسكت تحرم الأجر وقوله: **(بغير حساب)** متعلّق بامنن أي أعط بدون حساب، فإنّه لا يفيد آخر عنه للفاصلة حيث لا التباس، لأنّه لا يقال أمسك بغير حساب ولا يوجد هذا الإصطلاح وإنّما يقال أعط بغير حساب فلا يشتبه الأمر على أحد. هذا ممّا أعطيناه سليمان في الدّنيا وأمّا عطاؤنا له في الآخره فهو **(وإنّ له عندنا)** يوم القيامة **(لزلفى)** لقربى من الله تعالى **(وحسن مآب)** ومآباً حسناً جدّاً لا يدرك كنهه.

سؤال مهمّ: كيف سأل سليمان ربّه أن يؤتيه ملكاً لا يعطيه لأحد غيره؟ أليس هذا حسداً وبخلاً بكرم الله تعالى ونعمته على النّاس؟

الجواب: إنّه أراد أن يعطيه الله ملكا لا يعطيه مثله لأحد في حياته، وهذا ليس فيه شيء، بل من مصلحة نبوّته، فإنّه لو أعطى لأحد غيره مثل ما كان له من الملك، ومن طبيعة الملوك أنّهم يسعون ويعملون دائماً لبسط سلطانهم وتوسّعهم في الإستيلاء على الأرض، فينجرّ الأمر إلى أن ينازع سليمان (عليه السلام)، فلا يستطيع أن ينشر شريعة الله تعالى في الأرض كلّها وإقامه العدل بين النّاس، فيكون دعاء خيرٍ وطلباً لمصلحة الدّين

ونشره، وهذا واضح لا خفاء فيه، وإن أراد أنّه لا ينبغي لأحد من بعده في حياته وبعد مماته إلى يوم القيامة، كما هو مفاد حديث ذكره ابن كثير عن الصّحيحين، حيث قال: قال البخاري عند تفسيره هذه الآية حدثنا إسحاق بن ابراهيم أخبرنا روح ومحمّد بن جعفر عن شعبة عن محمّد بن زياد عن بن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: إنّ عفريتا من الجنّ تفلّت عليّ البارحة أو كلمة نحوها ليقطع عليّ الصّلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى فيه، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتّى تصبحوا وتنظروا إليه كلّكم، فذكرت قول أخي سليمان (عليه السلام): (ربّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي)[1] قال روح: فردّه خاسئاً. وكذا رواه مسلم. فالجواب عن ذلك حينئذٍ: إنّه لم يرد ذلك حسداً بل أراد أن يكون له ملك خاصّ يكون معجزة له، إذ كلّ نبيّ اختص بمعجزةٍ لم يعط ذلك لغيره، وما أراد أن لا يعطى الملك مطلقاً لأحدٍ غيره بل أراد أن لا يعطى نوعيّة ملكه لأحد، ولم يعيّن هو النّوعيّة فالنّوعيّة تكون بوجوه لم تقصد وجهاً معيّناً، بل إنّما قصد وجهاً خاصّاً لا يكون لغيره، فحينما استجاب الله تعالى دعاءه اختار له هذه النّوعية من الملك، وهو تسخير الرّيح والشّياطين، فالاختيار اختيار الله لا اختياره، والله يفعل مايشاء وهو العليم الحكيم.

* * *

سوآل آخر: قال تعالى هنا في صفة الرّيح المسخّرة لسليمان (عليه السلام): (تجري رخاءً) أي سهلاً ليّناً، وقال في آيةٍ أخرى في وصف الرّيح نفسها: (ولسليمان الرّيح عاصفةً﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٨١. فكيف التّوفيق؟

فنقول: إنّ الجري في كلتا الآيتين مقيّد بقوله: بأمره، أي بأمر سليمان، فإذا أمرها الرّخاء تكون رخاءً، واذا أمرها بالشّدة تكون شديدةً، والسّبب أنّه كان يأمرها بالرّخاء على المسلمين وبالشّدة على المحاربين والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله (ﷺ) بقصّة أيّوب وما جرى عليه فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح البخاري ١/ ١٧٦ الحديث رقم ٤٤٩، صحيح مسلم ١/ ٣٨٤ الحديث رقم ٥٤١.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾﴾

(واذكر عبدنا أيّوب) في التّعبير عن أيّوب بـ **(عبدنا)** تنبيه عل كمال أيّوب في عبوديّته لله، وإنّه كان لا يريد شيئاً إلّا الله تعالى ورضاءه **(إذ نادى ربّه)** إذ دعا ربّه فقال: **(أنّي مسّني الشّيطان بنصب وعذاب)** النّصب: التّعب، والعذاب معلوم، والمراد بها: التّعب والعذاب الّذي يصيب قلبه فيتألّم ممّا يوسوس الشّيطان إلى اتباعه، بأن لو كان نبيّاً لما أصيب بهذا المرض، فكان يخاف ارتداد أتباعه ورجوعهم إلى الكفر، ومن هذا كان يتعب ويتعذّب قلبه الشّريف الصّبور، فاستجبنا له دعاءه وقلنا له: **(اركض برجلك)** أي ضرب برجلك الأرض، فضرب فنبعت عين ماء تحت رجله فقلنا له: **(هذا مغتسل)** فاغتسل منه، وبالغسل منه يذهب مرضك الجسدي **(بارد وشراب)** فاشرب منه ويذهب مرضك الباطني **(ووهبنا)** وأعدنا له **(أهله)** الّذين ماتوا ووهبنا له **(مثلهم)** مثل أهله عدداً وجمالاً **(رحمة منّا)** به **(وذكرى)** وموعظةً **(لأولي الألباب)** ليتّعظوا به فيصبروا على قضاء الله وقدره وبلائه ومصائبه و **(أولوا الألباب)** معناه: أولي العقول، فإنّه إنّما يتّعظ أصحاب العقول ومن لم يتّعظ فلا عقل له.

(الكلام على قصّة سيّدنا أيّوب (عليه السلام))

لقد ذكر القصّاصون الّذين يروون كلّ شيء وينزحون من آبار الإسرائيليّات واليهود ما شاؤوا، أنّ الشّيطان قال لله تعالى: إنّك أسبغت هذه النّعم الكثيرة على أيوب، ولذلك يعبدك وإلّا فلا يعبدك هذه العبادة، فكذّبه الله تعالى، فقال الشّيطان: سلّطني عليه فسترى هل يعبدك أم لا؟ فقال تعالى: لقد سلّطتك على مزارعه، فذهب الشّيطان فأهلك مزارعه وفدادينه، وجاء إليه وأخبره بأنّ فدادينه ومزارعه هلكت، فقال أيوب: لله ما وهب ولله ما أخذ. ثمّ قال الشّيطان: يارّب سلّطني على مواشيه، فسلّطه الله عليها فأهلكها، فأتى أيّوب وأخبره بأنّ مواشيه هلكت، فقال أيّوب: لله ما أخذ ولله ما وهب، فقال الشّيطان: ربّ سلّطني على أهله وأولاده، فسلّطه عليه فأهلكهم فماتوا كلّهم، فجاء

إلى أيّوب وأخبره فقال: لله ما أعطى ولله ما أخذ، فلم يؤثّر كلّ ذلك في أيّوب، فقال الشّيطان: ربّ سلّطني عل جسده فسلّطه عليه فنفخ فيه فابتلي بمرض، وطال المرض وتنفّر عنه النّاس، وأخرجوه من القرية، وفارقه كلّ النّاس إلّا إمرأته فهي كانت تخدمه وتذهب إلى القرية فتعمل في البيوتات، فتأتي بقوته وقوتّها من ذلك، وأصبح الشّيطان يوسوس في قلوب أتباعه بأن لو كان نبيّاً لما ابتلى بهذا المرض، حتّى أنّ بعضهم محوا ما كتبوا عنه، وأنّ أهل القرية منعوا إمرأته من الدّخول إلى القرية، فقال أيّوب: ربّ إنّي مسّني الشّيطان بنصب وعذاب، فناداه ربّه فقال: (اركض برجلك.. الخ) إلّا أنّ القرطبي بعد روايته هذه الرّواية بطول وبعبارات مختلفة قال: قال ابن العربي القاضي أبو بكر (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ): ولم يصحّ عن أيوب في أمره إلّا ما أخبرنا الله تعالى عنه في كتابه في آيتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وأيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الضّر وأنت أرحم الرّاحمين﴾ سورة الأنبياء الآية/ ٣٨.

الثّانية: قوله تعالى: سورة (ص) الآية هذه: ﴿واذكر عبدنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسّني الشّيطان بنصب وعذاب﴾.

وأمّا النّبيّ فلم يصح عنه أنّه ذكر أيّوب بحرف واحد إلّا قوله (ﷺ): (قَالَ بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ فَنَادَاهُ رَبُّهُ يَا أَيُّوبُ أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى قَالَ بَلَى وَعِزَّتِكَ وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ)[(١)].

واذا لم يصحّ عنه غير هذا لا في قرآن ولا في حديث، فمن الّذي بلّغ السّامع هذا الخبر؟ أم على أيّ لسان سمعه؟ والإسرائيليّات مرفوضة، انتهى ما قاله القرطبيّ.

أقول: والصّحيح الّذي يجوز لنا أن نقوله هو: أنّ أيّوب ابتلي بمرض شديد جدّاً وطال المرض وتنفّر منه قومه وأخرجوه من القرية، وأنّه ضاع أهله وماله سوى امرأة كانت تخدمه فبلغ من حاله أن منعوا امرأته من دخول القرية وتحصيل الزّاد، وأنّ الشّيطان وسوس إلى أتباعه بأنّه ليس بنبيّ وإلّا لما ابتلي بهذا المرض الخبيث؛ فخاف من ضياع دينه وتألّم من هذه الوساوس فنادى ربّه: (**أنّي مسّني الشّيطان بنصب وعذاب**) فاستجاب الله تعالى دعاءه وخلق عيناً تحت قدمه، فاغتسل منه فذهب مرضه الظّاهري،

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٨٩

وشرب منه فذهب مرضه الباطني، وقام أحسن ممّا كان وأعاد الله تعالى له أهله وأعطاه مثله معهم، جزاءً على صبره وعدم شكواه من مرضه ورضائه بقضاء الله تعالى، وهكذا يجزي الله تعالى كلّ صابر وشكور. اللّهم اجعلنا منهم آمين. وأمّا تسليط الشّيطان عليه وأنّ الله تعالى راهن الشّيطان ففعل الشّيطان مافعل بأولاده وأهله وأملاكه وجسد أيّوب فلا يعوّل عليه؛ لأنّ الشّيطان طرد من رحمة الله فكيف يتكلّم الله معه، وكيف يسلّطه على نبيّ من أنبيائه، هذا من الحقيقة بعيد وبالافتراء سديد **(وخذ بيدك ضغثاً)** أي حزمةً من حطب عددها مائة **(فاضرب به)** زوجتك **(ولاتحنث)** في يمينك **(إنّا وجدناه صابراً)** أي فعلنا كلّ ذلك لأيّوب وأنعمنا بهذه النّعم عليه، حيث إنّا وجدناه صابراً على قضاء الله تعالى **(نعم العبد)** هو أيّوب **(إنّه أوّاب)** كثير التّوبة والرّجوع إلى الله تعالى، وكثير الطّاعة له، فبذلك استحقّ هذا التّكريم والإنعام. وفي سبب يمين أيوب أن يضرب امرأته مائة جلدة أقوال:

أوّلاً: قال البيضاوي: روي أنّ زوجته ذهب لحاجة فأبطأت فحلف إن برئ ليضربها مائة ضربة. فحلّل الله تعالى بيمينه بهذه الطّريقة لئلا تتأذّى امرأته، هذه الامرأة الصّالحة، أقول: وهذا بعيد لأنّ أيّوب الّذي يضرب به المثل في الصّبر هل يسوقه تأخير زوجته هذه الزّوجة الصّابرة إلى أن يحلف على أن يضربها ويؤذيها؟ فالأنبياء لا يغضبون إلّا فيما فيه معصيته لله تعالى، وذكر الالوسي هذا القول أيضاً فيما نقل عنه عبد الوهاب النّجار.

ثانياً: ذكر الالوسي أقوالاً أخرى غير هذا:

الأول: إنّ الشّيطان ظهر لها وقال لها كلمة لو قالها أيّوب بريء من مرضه، فذكرت لأيّوب وقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ كلمة واحدة تقولها ثمّ تستغفر ربّك فيغفر لك. وهذا هو المعقول لأنّها أشارت عليه بمعصية الله تعالى.

الثّاني: إنّها جاءت بزيادة من الخبز فظنّ أنّها ارتكبت محرّماً، وهذا بعيد أيضاً لأنّ أيّوب الّذي جرّب هذه الامرأة الصّابرة هذه المدّة الطّويلة كيف يظنّ بها السّوء؟ وسوء الظّنّ منهي عنه فكيف يرتكبه ويعمل به أيوب؟ وهذا محال. وما ذكرنا أنّه هو المعقول يجب الاعتماد عليه وحده، وهذه الطّريقة طريقة حزمة حطب هي رخصة باقية إلى يوم القيامة في الحدود وغيرها. هذا وإنّ مرض أيّوب وابتلاءه دام ثماني عشرة سنة، ويقال:

أنّه حينما برىء من مرضه جاءت امرأته إلى مكانه فلم تجده، فرجعت ولقيته في الطّريق لم تعرفه فسألت عليه، وقالت: يرحمك الله رأيت هذا الرّجل المبتلى؟ قال: من هو؟ قالت: نبيّ الله، وقالت له: والله ما رأيت أحداً أشبه به منك حينما كان صحيحاً. قال: فإنّي أنا أيّوب وأخذ ضغثاً فضربها به.

ثمّ ذكر الله تعالى أيضاً سيّدنا إبراهيم وأولاده (عليهم السلام) وصفاتهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾

(واذكر عبادنا) وفي قراءة مكّي **(عبدنا ابراهيم)** وصبره حيث ألقي في النّار فصبر وأمر بذبح ولده فامتثل وصبر **(وإسحاق)** ابتلى بفقد بصره، فصبر وأوذي من قبل الكفار، فثبت **(ويعقوب)** حيث ابتلى بفقد ولده وذهاب عينه فصبر **(أولي الأيدي)** وقرىء أول الأيد أيضاً بحذف الياء في الوقف والوصل **(والأبصار)** وأحسن تفسير لهذه الفقرة ماقاله النّسفي (رحمه الله) فإليك نصّه: أي أولي الأعمال الظّاهرة والفكرة الباطنة، كأنّ الّذين لا يعملون أعمال الآخرة ولا يجاهدون في الله ولا يتفكّرون أفكار ذوي الدّيانات في حكم الزّمنى الّذين لا يقدرون على أعمال جوارحهم والمسلوبي العقول الّذين لا استبصار لهم، وفيه تعريض، بأنّ من لم يكن من عمّال الله ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمّل مع كونهم متمكّنين فيهما بأنّهم لا عقل لهم **(إنّا أخلصناهم)** أي اخترناهم وخصّصناهم **(بخالصة)** بالتّنوين أي بصفة وخصلة هي **(ذكرى الدّار)** الآخرة فهم يذكرونها ويعملون لها ونسوا الدّنيا والعمل لها إلّا ممّا يتعلّق بأمور الآخرة أو ممّا يجب عليه العمل به، وهو أيضاً من عمل الآخرة. وبلا تنوين مضافاً إلى **(ذكرى الدّار)** إضافة المبين بالفتح إلى مبينه بالكسر **(وإنّهم عندنا لمن المصطفين)** لمن المختارين والممتازين من بين بني جنسهم **(الأخيار)** من غيرهم، فالمعنى كانوا أخياراً ولذلك اخترناهم للرّسالة والوحي إليهم.

ثمّ خصّ من أبناء إبراهيم سيدّنا اسماعيل (عليه السلام) واليسع وصفاتهم ومكافآتهم نتيجة أعمالهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾﴾

(واذكر اسماعيل) إذ عرض على الذّبح فصبر **(واليسع)**، قال القرطبيّ في الأنعام: توهّم قوم أنّ اليسع هو إلياس، وليس كذلك؛ لأنّ الله تعالى أفرد كلّ واحد بالذّكر، وقال وهب: اليسع هو صاحب إلياس، وكان قبل زكريّا ويحيى وعيسى. وقيل: إنّ إلياس هو إدريس، وهذا أيضاً غير صحيح، لأنّ إدريس جدّ نوح وإلياس من ذريّته. وقيل: إلياس هو الخضر. وقيل: لا بل اليسع هو الخضر.

أقول: والحاصل أنّه لم يذكر اليسع في القرآن إلّا اسمه، والظّاهر أنّه شخص مستقلّ لا هو إلياس ولا هو خضر ولا غير ذلك من المعروفين. وإنّه كان نبيّاً لأنّه لا يذكر مع الأنبياء إلّا نبيّ.

(وذا الكفل) لا يوجد في القرآن إلّا اسمه مثل اليسع إلّا أنّ الرّسولﷺ كان يعرف مالهما وما جرى عليهما، فلذلك ذكّره الله تعالى بهما ليتسلّى. ولم أجد في اليّسع شيئاً من ذكر حال سوى ما ذكره ابن كثير، فإنّه قال: وروى ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عفان حدثنا وهب حدثنا داود عن مجاهد قال: لمّا كبر اليسع قال: لو أنّي استخلفت رجلاً على النّاس يعمل عليهم في حياتي حتّى انظر كيف يفعل؟ فجمع النّاس فقال: من يتقبّل منّي بثلاث أستخلفه، فيصوم النّهار ويقوم اللّيل ولا يغضب، قال فقام رجل تزدريه الأعين فقال: أنا، فقال له: أنت تصوم النّهار وتقوم اللّيل ولا تغضب؟ قال: نعم، قال: فردّه ذلك اليوم، وقال: مثلها في اليوم الآخر، فسكت النّاس وقام الرّجل فقال: أنا أستخلفه. فجعل إبليس يقول للشّياطين: عليكم بفلان، فاعياهم ذلك، فقال: دعني وإيّاه، فأتاه في صورة شيخ كبير مظلوم فقير، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام اللّيل والنّهار إلّا تلك النّومه، فدقّ الباب فقال: من هذا؟ قال شيخ كبير مظلوم، قال: فقام ففتح الباب، فجعل يقصّ عليه فقال: إنّ بيني وبين قومي خصومة فظلموني وفعلوا بي وفعلوا بي، وجعل يطوّل عليه حتّى حضر الرّواح وذهبت القائلة، فقال: إذا رحت فأتني آخذ لك الحقّ، فانطلق وراح فكان في مجلسه فجعل ينظر هل يرى الشّيخ فلم يره، فقام يتّبعه. فلمّا كان الغد جعل يقضي بين النّاس وينتظره فلا يراه. فلمّا رجع إلى القائلة فأخذ مضجعه فأتاه فدقّ الباب فقال: من هذا؟ قال: الشّيخ الكبير المظلوم، ففتح له فقال: ألم أقل لك إذا قعدت فأتني؟ قال: إنّهم أخبث قوم إذ عرفوا أنّك قاعد قالوا: نعطيك حقّك، واذا قمت جحدوني، قال: فانطلق فإذا رحت فأتني، قال: ففاتته القائلة. فراح فجعل ينتظره فلا يراه وشقّ عليه النّعاس فقال لبعض أهله لا تدع أحداً يقرب من هذا الباب حتّى أنام فإنّي قد شقّ عليّ النّوم. فلمّا

كان تلك السّاعة جاء فقال له الرّجل: وراءك وراءك قال: إنّي قد أتيته أمس وذكرت له، فقال: لا والله لقد أمرنا أن لا ندع أحداً يقربه، فلمّا أعياه نظر فرأى كوّةً في البيت فتسوّر منها، فإذا هو في البيت، وإذا هو يدقّ الباب من الدّاخل قال: واستيقظ الرّجل فقال: يافلان لقد أمرتك، قال: أمّا من قبلي والله فلم تؤت، فانظر من أين أتى؟ فقام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه واذا الرّجل معه في البيت، فعرفه فقال: أعدوّ لله؟ قال: نعم، أعييتني في كلّ شيء ففعلت ما ترى لأغضبك، فسمّاه الله تعالى ذا الكفل، لأنّه تكفّل بأمر فوفى به. وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث زهير ابن اسحاق عن داود عن مجاهد بمثله، وذكر أبن كثير روايات أخرى يطول ذكرها **(وكلّ)** من هؤلاء الّذين ذكرناهم **(من الأخيار)** بين النّاس واخترناهم للنّبوّة والرّسالة إلى النّاس.

ثمّ ذكر الله بعد هذه الآيات أنّها ذكرٌ وأنّ من يستفيد منه يكون متّقياً، وذكر ثواب المتّقين الّذين يتّعظون بهذه القصص ويقتفون أثر الأنبياء فقال جلّ وعلا:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾

(هذا) الّذي ذكر من قبل من أحوال الأنبياء والمرسلين **(ذكر)** موعظة للّذين يقتدون بهم ويسيرون على عقيدتهم، وكذلك ذكر جميل لهؤلاء العظام وشرف عظيم وثناء عليهم خالد في الدّنيا، وفي الآخرة لهم أجر عظيم، وهو الّذي ذكره تعالى بقوله: **(وإنّ للمتّقين)** من هؤلاء الأنبياء وغيرهم ممّن اقتدوا بهم وتمسكّوا بعقيدتهم، فاجتنبوا الكفر والشّرك والإلحاد والمعاصي، فإنّ لهؤلاء كلّهم **(لحسن مآب)** أي مآباً ومرجعاً ومنزلاً حسناً يوم القيامة. ثمّ بيّن ذلك المنزل والمآب الحسن فقال: **(جنّات عدن)** أي محلّ إقامة لا خروج منها **(مفتّحة لهم الأبواب)** قبل أن يذهبوا ليدخلوها لكي لا يتعبوا، بانتظار الفتح ولا يقفوا على الباب، فإنّ من العذاب الوقوف على الأبواب **(متكئين)** معتمدين فيها على السّرائر **(يدعون)** أي يطلبون **(فيها)** في الجنّات **(بفاكهة كثيرة)** من أيّ نوع شاؤوا **(وشراب)** من أي نوع أرادوا من العسل أو اللّبن أو الماء العذب الصّافي أو الخمر الطّاهر الغير المسكر **(وعندهم)** للتّمتع بهم نساء **(قاصرات الطرف)** أقصرن

نظرهنّ على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم **(أتراب)** مستويات في العمر مع أزواجهن، وكذلك مستويات معهم في الحسن والجمال. قال ابن عبّاس (رضي الله عنه): وهنّ آدميات كلّهم في عمر ثلاث وثلاثين **(هذا)** أي ما ذكر من النّعم ما توعدون أيّها المؤمنون **(ليوم الحساب)** أي في يوم الحساب فاعملوا له بجدّ وإخلاص **(إنّ هذا)** الّذي ذكر من النّعم **(لرزقنا)** لكم أيّها المتّقون **(ماله من نفاد)** من انقطاع أبداً ولا قلّة ولا ضيق فيه.

ثمّ لمّا ذكر الله تعالى حال المتّقين يوم أراد أن يذكر حال الفاسقين في اليوم نفسه فقال جلّ وعلا:

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾

(هذا) أي هذا ما يكون للمتّقين من النّعيم الّذي ذكرناه فيتنّعمون فيه، ونحن معهم إن شاء الله تعالى **(وإنّ للطّاغين)** أي المتجاوزين عن حدود الله تعالى وأحكامه **(لشرّ مآب)** أي لمآباً ومرجعاً ومنزلاً شرّاً. ثمّ بيّن ذلك المنزل فقال: **(جهنّم)** أي ذلك المنزل هو جهنّم **(يصلونها)** يدخلونها **(فبئس المهاد)** مهادهم وهو جهنّم.

ســؤال: إنّ (فعل ويفعل) ينسب إلى المرء إذا فعل شيئاً باختياره، ولذا قال الفقهاء: لو قال رجل لامرأته لو دخلت الدّار فأنت طالق، فدخلت الدّار مكرهة لا يقع طلاقها، لأنّ الفعل إنّما يكون فعل المرء إذا كان باختياره، قال تعالى: يصلونها مع أنّ الكفّار لا يدخلون جهنّم باختيارهم، بل يساقون إليها ويطرحون فيها، فكيف التّفسير؟

الجواب: أنّهم يطرحون من جهنّم بسبب أعمالهم الّتي فعلوها باختيارهم وإرادتهم واشتهائهم، فلذلك نسب إليهم دخولهم جهنّم اختياراً، لأنّ ماحصل بسبب ما هو مختار فيه يكون اختياراً حسب المبدأ وأوّل الأمر.

* * *

(هذا) أي إنّ الأمر هذا **(فليذوقوه)** الضّمير مبهم يفسره قوله: **(حميم وغسّاق)** أي فليذوقوا شيئاً وهو حميم وغسّاق، والحميم هو الماء الحارّ الشّديد في الحرارة والغسّاق ما يسيل من بدن أهل النّار من الصّديد والقيح **(وآخر)** وعذاب آخر لهم **(من شكله)** من شكل ما ذكر من الحميم والغسّاق في الكراهة والإيذاء **(أزواج)** صفة عذاب أي أصناف وأنواع متنوّعة، ووقوع الجمع صفة للمفرد باعتبار أنّ لفظ العذاب جنس يشمل الكثير والقليل، وقد قرأ البعض **(أُخر)** بضمّ الهمزة وفتح الخاء، جمع آخر للمطابقة لفظاً ومعنىً. ونوع من أنواع العذاب هو تخاصم الأتباع والمتبوعين في جهنّم، حيث بعد ما دخل قادة الشّر ودعاة الباطل ومكثوا فيها يدخل أتباعهم فيقول الملائكة للقادة: **(هذا فوج مقتحم)** داخل جهنّم **(معكم)** فيقول القادة **(لا مرحباً بهم إنّهم صالوا)** أي داخلو **(النّار)** معنا فيجيبهم الأتباع بالشّر: **(قالوا: بل أنتم لا مرحباً بكم)** لا نحن لأنّه **(أنتم قدّمتموه)** أي هذا العذاب لنا، حيث أنتم دعوتمونا إلى المعاصي **(فبئس القرار)** قراركم وقرارنا. ثمّ إنّ الأتباع دعوا على المتبوعين **(قالوا: ربّنا من قدّم لنا هذا)** العذاب وهم القادة **(فزده عذاباً ضعفاً)** مضاعفاً **(في النّار)** لأنّهم ضلّوا وأضلّوا فيستحقّون عذاباً على الضّلال وعذاباً على الإضلال، ولكنّنا ضللنا فقط، فهم يستحقّون مثل عذابنا، ويستجيب الله تعالى دعاءهم.

ثمّ يسأل أهل النّار بعضهم بعضاً كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾

(وقالوا) أي أهل النّار فيما بينهم **(مالنا)** أي سبب ومانع عرض لنا فأصبحنا **(لا نرى رجالاً)** وهم المؤمنون والمسلمون الّذين كنّا **(نعدّهم)** في الدّنيا **(من الأشرار)** فأين هم **(اتّخذناهم سخرياً)** فعلاً للسّخرية والاستهزاء، ووصفناهم بالرّجعية والخرافة وحجر العثرة عن التّقدم أين هم، ألم يدخلوا معنا جهنّم **(أم)** دخلوها إلّا إنّنا لا نراهم حيث **(زاغت الأبصار)** أي مالت وتغيّرت أبصارنا فلا نراهم **(إنّ)** أي بلا شكّ **(ذلك)** الكلام **(لحقّ)** أي حقّ ويقع ويأتي هو **(تخاصم أهل النّار)** بعضهم بعضاً، وهو تخاصم الأتباع والمتبوعين. فما أخزى ذلك اليوم لدعاة الشّر والباطل والانحراف عن شريعة الله، ويا حسرة على الأتباع الّذين اتّبعوا هؤلاء الأشرار لمنال شهوة أو لرغبة ثروة أو لنيل سلطة،

فليعلموا أنّ كلّ ذلك ينقلب عليهم ناراً. وأنّهم يتندّمون يوم لا ينفع النّدم ويصرخون يوم لا يفيد الصّراخ ولا العويل.

ثمّ بعد هذه المواعظ الزّاجرة والإنذارات الشّديدة، زاد الجاهليّون من جهلهم وتعنّتهم وإبتعادهم عن هذا الدّين والإيمان لهذا الرّسول الأمين، وكانوا يطلبون منه أن يعين لهم ساعة يوم القيامة ويريهم إيّاها، وأن يظهر لهم معجزات تقطع كلّ شيء منهم وتلجئهم إلى الإيمان، فأمر الله تعالى أن يجيبهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾

(قل) في جوابهم حينما يطلبون منك تعيين وقت السّاعة وإظهار الخوارق الّتي تلجئهم إلى الإيمان **(إنّما أنا منذر)** جئت لأنذركم بيوم القيامة، ووظيفتي الإنذار فقط، وإنّ تعيين وقت السّاعة والعلم به والخوارق الّتي تريدونها بيد الإله، وأنا لست بإله لكي أتمكّن من ذلك ولا غيري بإله سوى الله حيث **(وما من إله إلّا الله)** فإليه يرجع علم السّاعة وبيده إظهار الخوارق **(الواحد)** لا إله سواه **(القهّار)** فهو الّذي يقهر النّاس على الإيمان إن شاء لا أنا، وهو الّذي يعلم وقت السّاعة لا أنا ولا غيري، ولم يعلّمني بوقت السّاعة ولا أمكنني من إظهار الخوارق إلّا بقدر ما أراد لا كما تريدون أنتم ولا أنا. ثمّ استدلّ على أنّه **(وما من إله إلّا الله الواحد القهّار)** فقال: **(ربّ السّموات)** كلّها **(والأرض)** جميعها **(وما بينهما)** من الأجرام والقوى وغيرها، ومن كان هذا ملكه لا يحتج إلى شريك له، ومن كان له هذا السّلطان على الكون فهو القهّار لا غيره **(العزيز)** الغالب على عقاب من كفر أو أشرك به **(الغفّار)** لمن تاب إليه وآمن به **(قل هو)** أي الإخبار بيوم القيمة والحساب والثّواب بعد ذلك والعقاب **(نبأ عظيم)** جدّاً **(أنتم عنه)** أي عن العمل لأجله والتزوّد له **(معرضون)**.

ثمّ ذكر الدّليل على كونه (ﷺ) منذراً ورسولاً فقال جلّ وعلا:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ

فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

(ماكان لي علم بالملأ الأعلى) وهو علم الملائكة **(إذ يختصمون)** أي إذ يتكلّم بعضهم مع بعض ويناقش بعضهم بعضاً، وذلك نقاشهم في خلق آدم حينما قال الله تعالى: ﴿أتجعل فيها﴾ أي في الأرض (من يفسد فيها ويسفك الدّماء ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك قال إنّي أعلم مالا تعلمون﴾ سورة البقرة الآية/ ٣٠. إلى آخر القصّة في سورة البقرة الّتي يشير إليها هنا بعد الآية التالية. فحينما أتكلّم في أمر الملائكة وكلامهم فليس ذلك إلّا من الوحي، وأنّ الوحي لم ينزل إليّ بما تطلبون من علم السّاعة أو إظهار الخوارق كما تشاؤون بل **(إن يوحى إليّ إلّا)** هذا القول وهو **(إنّما أنا نذير مبين)** فوظيفتي الإنذار لا الإعلام بوقت السّاعة ولا إجباركم على الإيمان بالخوارق **(إذ قال ربّك)** أي اختصم الملائكة حينما قال: **(ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين)** وأعلمهم تعالى كيفيّة هذا البشير وطبيعته وجبلّته وأوصافه وأعماله وأخلاقه، ثمّ أمرهم بالسّجدة له فقال: **(فإذا سوّيته)** أي أكملت خلقه وتصويره **(ونفخت)** وأدخلت **(فيه)** أي في هيكله **(من روحي)** من الرّوح الّذي هو من ملكي وإرادتي لا دخل لغيري فيه **(فقعوا)** أمر من وقع أصله أوقعوا حذف الواو لوقوعها بعد الكسرة، فاستغنى عن همزة الوصل لكون القاف مفتوحاً فبقي **(قعوا)** أي أسقطوا على الأرض **(له)** أي لهذا البشر **(ساجدين)** له سجدة الاعتراف بفضله وأنّه أفضل منكم **(فسجد)** له **(الملائكة كلّهم أجمعين٠ الّا إبليس)** فلم يسجد له لأنّه **(استكبر)** أي رأى نفسه أكبر منه فلا يليق بأن يسجد له **(وكان من الكافرين)** بهذا الاستكبار. حفظنا الله منه ومن الخروج عن أمر الله تعالى وههنا تنشأ أسئلة:

السّؤال الأوّل: لماذا أخبر الله تعالى الملائكة بخلقه وأمرهم بالسّجود له؟.

الجواب: إنّه تعالى أمرهم بذلك لئلّا يكون تكليفهم بالسّجود له مفاجأة فيصعب عليهم، وليتفكّروا في الأمر ويكون سجودهم وعدم سجودهم بعد التّفكير والتّروّي في الأمر.

السّؤال الثّاني: كيف أمر الله تعالى الملائكة بالسّجود والسّجدة لغير الله تعالى كفر؟.

الجواب: إنّ السّجدة لغير الله تعالى حرام وكفر لنهي الله عنه، وأمّا إذا كان بأمر الله تعالى فيكون واجباً، فإنّ الحرام والحلال دائران مع أمر الله بشيء فيكون واجباً أو نهيه عنه فيكون حراماً، وهذا دليل للردّ على المعتزلة في قولهم أنّ الوجوب والحرمة دائران ومرتبطان بالحسن والقبح العقليين، فإنّ الحسن والقبح العقليّين لا يتغيّران، فيلزم أن لا تتغيّر الأحكام من الأزل إلى الأبد، وليس كذلك، فإنّ سجدة الملائكة لآدم كان واجباً لأنّ الله أمر بها، وسجدة الوالدين والأخوة ليوسف كان واجباً أو مباحاً أو مندوباً لأنّ الله تعالى أذن فيها، ثمّ أصبحت السّجدة لغير الله تعالى كفراً، فتبيّن أنّ الحرام والحلال دائران مع الأمر والنّهي من الله تعالى، وقال سيّدنا عيسى لبني إسرائيل: (ولأحلّ لكم بعض الّذي حرم عليكم) فلو كان الحلال والحرام لذات الشّيء لما استطاع عيسى ذلك، ولكنّ الحلال والحرام لأمر الله ونهيه، فاستطاع عيسى ذلك بأمر الله تعالى. ألا ترى أنّ قتل الغلام كان حلالاً في شريعة خضر وحراماً في شريعة موسى (عليهما السّلام) والشّريعتان كانتا من الله تعالى، وذبح الولد كان واجباً على إبراهيم وحرام علينا.

السّؤال الثالث: إنّ الله تعالى أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم والشّيطان لم يكن من الملائكة لأنّه في سورة الكهف يقول تعالى: ﴿كان من الجنّ﴾ فكيف شمله الأمر ولماذا كفر بعدم الامتثال؟

الجواب: إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً، فكان المراد بقوله بقول تعالى: (فقعوا له ساجدين) أي أنتم ومن معكم وكان الشّيطان معهم، فلذلك شمله الأمر وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿ما منعك ألّا تسجد إذ أمرتك﴾ سورة الإعراف الآية/ ١١.

السّؤال الرّابع: الأمر بالسّجدة كان للوجوب؛ فكانت السّجدة واجبة والتّارك للواجب يفسّق ولا يكفّر، فلماذا أصبح الشّيطان كافرا بترك الواجب ولعن؟.

الجواب: إنّ الشّيطان لم يكفر بترك الواجب، وإنّما كفر بالاعتراض على الله تعالى ونسبة الخطأ إليه تعالى، كما يظهر ذلك في الآيات التّالية، ومن نسب الجهل إلى الله تعالى كفر بالإجماع، فاتل الآيات التّالية لتعلم وقاحة الشّيطان مع الله تعالى.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾﴾

(قال) الله تعالى للشّيطان **(يا إبليس)** قال في مختار الصّحاح: أبلس من رحمة

الله: أي يئس منه ومنه سمّي إبليس، وكان اسمه عزازيل، والإبلاس أيضاً الإنكسار والحزن يقال: أبلس فلان: أي سكت غمّاً. فنقول: وسمّي إبليس لأنّه اغتمّ بهذا الفضل الّذي أعطي لآدمﷺ **(ما منعك)** أي شيء منعك **(أن)** من أن **(تسجد لما خلقت بيديّ)** إن أخذنا بمذهب السّلف فالمعنى: أنّ لله يدين ولا ندري كيف يداه، ولا نذهب إلى التّأويل مخافة أن نقع في الخطأ. وإن أخذنا بمذهب السّلف والتأويل: فاليد بمعنى القدرة، وإنّ الله يعمل ويتصرّف في ملكه بقدرتين: قدرة الخلق وهو ما يوجده بترتيب الأسباب. وقدرة الأمر: وهو ما لا يدخله الأسباب، بل يوجده بأمر كن فيكون. وآدم دخل فيه الأسباب وهو الهيكل المادّي، والأمر وهو الرّوح فإنّ الرّوح من عالم الأمر والجسد من عالم الخلق والأسباب، وهذا بدليل قوله تعالى: **(ألا له الخلق والأمر)** وكلّ يرجع إلى الله تعالى. **(أستكبرت)** أصله أاستكبرت حذفت همزة الوصل بقي **(أستكبرت)** أي تعظّمت على آدم **(أم كنت من العالين)** أي من العالين على آدم فلم تسجد له، والفرق بين الاستكبار والعالي أنّ المستكبر ليس عالياً على من يستكبر عليه، وإنّما يتعظّم عليه عناداً وحسداً، والعالي من هو عال عليه في الواقع، فالاستفهام في: أستكبرت؟ للتقرير، وفي: أم كنت من العالين؟ للإنكار، فالمعنى لم تكن أعلى من آدم في الواقع، بل أستكبرت وتعظّمت عليه حسداً، فأجاب الشّيطان معترضاً على الله تعالى فقال: **(أنا خير منه)** بدليل أنّك **(خلقتني من نار وخلقته من طين)** والنّار خير من الطّين، فالمخلوق منها خير من مخلوق منه، فالحقّ أنّ تأمره بأن يسجد هو لي لا أن تأمرني بالسّجود له، بذلك نسب الشيطان الظلم والخطأ إلى الله تعالى وبذلك كفر ولعن لا بالإمتناع عن السجود. ومن هذه القصّة يتبيّن أمران:

الأمر الأوّل: هو أنّ كلّ من ترك واجباً إنكاراً لوجوبه أو أعرض على حكم من أحكام الله تعالى معتقداً أنّ ما يراه هو أو غيره من الحكم خير من حكم الله تعالى أو أصحّ فهو شيطان ملعون.

الأمر الثّاني: إنّ الشّيطان افتخر وتعظّم على آدم بسبب عنصره ونسبه، ويعلم من ذلك أنّ الشّيطان أوّل من دعا إلى العنصريّة والإفتخار بالنّسب.

ثمّ أتبع الشّيطان في هذه الدّعوة دعوة العنصريّة والقبليّة والنّسب اليهود، فجعلوا بني إسرائيل شعب الله المختار، فعليه كلّ من دعا إلى عصبيّة أو عنصريّة أو إفتخر بنسبه فهو مقلّد لليهود والشّيطان، ولذلك أنّ الرسول (ﷺ) بعدما فتح مكّة صعد على

باب البيت وخطب خطبة أعلن فيها على أمور من جملتها أنّه قال: (قد أذهب الله عنكم عبيّة الجاهليّة وفخرها بالآباء، مؤمن تقيّ وفاجر شقيّ والنّاس بنو آدم وآدم من تراب)[1] وأمر بلال الحبشي أن يصعد على سطح الكعبة فإذّن هناك، وحينما قال بعض قريش ألم يجد محمّد غير هذا الأسود فيعليه على الكعبة فيؤذّن نزل قوله تعالى: ﴿ياأيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير﴾ سورة الحجرات الآية/١٣.

ثمّ بيّن الله تعالى جزاء ما اقترفه إبليس من خروج عن أمر الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾

(قال) الله تعالى **(فاخرج منها)** أي من حظيرة القدس وهي مجمع الملائكة **(فإنّك رجيم)** أي مطرود من حضرة القدس **(وإنّ عليك لعنتي)** أي بعدك من رحمتي **(إلى يوم الدّين)** إلى يوم القيامة.

وهنا تنشأ أسئلة:

السّؤال الأوّل: إنّ المفسرين قالوا: **(فاخرج منها)** أي من الجنّة **(فإنّك رجيم)** أي مطرود من الجنّة فكيف استطاع أن يدخل الجنّة فيوسوس إلى آدم فبحثه على أكل الشّجرة؟.

الجواب: إنّ ضمير منها لم يتّفق كلّ المفسّرين على رجوعه إلى الجنّة، بل فيه أقوال كثيرة، فالّذي ظهر لي هو راجع إلى حظيرة القدس وطرده أولاً من هناك، ثمّ بعد أن وسوس إلى آدم وأكل آدم من الشّجرة طرد هو وآدم من الجنّة بدليل قوله تعالى: ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ ـ سورة البقرة الآية/٣٨. فالخطاب لآدم وحواء وإبليس لا لآدم وحواء فقط بدليل الجمع.

السّؤال الثاني: هو أنّ (إلى) لانتهاء الغاية، فيفيد قوله تعالى: (وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدّين) أنّ اللّعنة تنتهي عند مجيء يوم القيامة فهل هذا يصحّ؟.

الجواب: إنّ الرّحمة عامّة فتشمل التّوفيق للإيمان والتّوبة والعمل الصّالح، وذلك

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٧٣٥ الحديث رقم ٣٩٥٦.

مختصّ بالدّنيا لأنّ الآخرة ليس دار عمل. فإذا حرم من هذا التّوفيق في الدّنيا فيكون يوم القيامة مخلّداً في النّار.

لطيفـة: إنّ الشّيطان ترك الواجب الشّرعي الّذي أمر به الله تعالى وامتنع عن أدائه وردّه بدليله العقليّ فلعن، فيفيد أنّ كلّ من أراد أن يطبّق أحكام الله مع عقله، فإنّ وافق العقل وإلّا رفض فهو من قبيل الشّيطان، وبالآخره يكون ملعوناً، فأوامر الله الكبير المتعال يجب أن يطبّق دون قيل وقال. وفّقنا الله تعالى على ذلك وجنّبنا من الفلسفات والمهالك، آمين.

ثمّ ذكر الله تعالى جدال إبليس معه كردّ فعل وزيادة غواية على مصيره؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾

(قال) الشّيطان **(ربّ فأنظرني)** أي أمهلني ولاتمتني **(إلى يوم يبعثون)** يحيون فيه وهو يوم القيامة، أي يحيي آدم وحواء ومن ولد منهما **(قال)** تعالى **(فإنّك)** يا إبليس **(من المنظرين)** من المهملين ولا أميتك **(إلى يوم الوقت المعلوم)** عند الله تعالى فقط وهو يوم القيامة.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾

(قال) الشّيطان **(فبعزّتك)** قسماً بعزّتك **(لأغوينّهم)** لأفسدنّهم **(أجمعين)** كلّهم **(إلّا عبادك منهم المخلصين)** أي الّا عبادك المخلصين منهم، فإنّهم لاسبيل لي إليهم، وقد سبق معنى المخلصين مراراً.

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(قال) الله تعالى **(فالحقُّ)** قرىء بالنّصب والرّفع والجرّ، فبالنّصب تقديره (فاسمع الحقّ) وبالرّفع فالحقّ هذا، وبالجرّ قسم حذف حرف القسم منه تقديره فبالحقّ **(لأملأنّ)** جهنّم، و **(الحقَّ أقول)** جملة اعتراضيّة بين القسم والمقسم عليه، فاسمع الحقّ والحقّ أقول لأملأن جهنّم منك وممّن تبعك من الكافرين والفاسقين أجمعين.

ثمّ بعد ما ذكر الله تعالى هذه الأدلّة على حقيقة القرآن ورسالة محمّد (ﷺ) وحقيّة مجيء يوم القيامة، أمر رسوله بأن يستغني عنهم وأنّه لايطمع بهذه الدّعوة في مالهم ودنياهم، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

(قل) ياأيّها النّبيّ **(لا أسألكم عليه)** أي على هذا التّبليغ وعلى الإيمان والإسلام **(من أجر)** من مال **(وما أنا من المتكلّفين)** أي من الّذين يتكلّفون في القول فيقولون: فلا أبلّغكم إلّا ما أمرت به، روي عن الرّسول (ﷺ): (للمتكلّف ثلاث علامات: يتنازع من فوق، ويتعاطى مالاً بما ينال، ويقول ما لا يعلم)[1] فالرّسول (ﷺ) ما كان ليأخذ مالاً على دعوة، وما كان يتكلّف أي يسعى ليأتي بالنّاس إلى الإيمان رغم أنفسهم، وإنّما كان يبلّغهم ما قال الله تعالى، فمن آمن فلنفسه ومن عصى فعليها، كما قال: **(إن هو)** أي القرآن **(إلّا ذكر للعالمين)** أذكّركم به، فمن تذكّر فقد نفع نفسه ومن أبى فلا يضرّ إلّا نفسه، وهذا دليل على أنّ دعوة الرّسول عامّة لكلّ النّاس وللجنّ والإنس، وقد تكلّمنا على هذه الآية مفصلاً في سورة التّكوير **(ولتعلمنّ نبأه)** ولتعلمنّ نبأ القرآن وعاقبة من لا يؤمن منه **(بعد حين)** في الدّنيا بنصرة المؤمنين وخذلان الكافرين، وفي الآخرة حينما أدخلوهم في العذاب المهين وفاز المؤمنون بجنّات النّعيم، وكان الحسن يقول: ياابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين.

فنرجو من الله تعالى أن يرزقنا اليقين قبل الموت، والإحسان قبل الفوت، وأن يلهمنا ويوفّقنا على العمل الصّالح، ويرزقنا حسن الخاتمة، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله تعالى على محمّد وآله وصحبه وأمّته أجمعين.

---

(١) تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ١٩٤ الحديث رقم ١١٠٩.

سورة الزّمر

(مكيّة، إلّا الآيات ٥٢، ٥٣، ٥٤، فمدنيّة، نزلت بعد سبأ، وآياتها خمس وسبعون).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾

(تنزيل الكتاب) مبتدأ خبره من الله العزيز الحكيم، فالمعنى تنزيل القرآن على رسول الله (ﷺ) من الله ....الخ. أي نزّل الكتاب العظيم وهو القرآن **(من الله)** تعالى، فهو وحي من الله تعالى وليس مختلقاً أو مخترعاً من محمّد، أو من غيره **(العزيز)** الغالب المقتدر على أن ينزّل على محمّد هذا الكتاب ويجعل محمّداً منبعاً للحكم والعلوم والمعارف، بعد أن كان أميّاً **(الحكيم)** الّذي لا يعمل شيئاً إلّا لحكمةٍ عظيمةٍ فلحكمته هذه خصّ محمّداً من بين النّاس بهذا الفضل العظيم.

تنبيهان:

الأوّل: إنّ هذه السّورة تدور كلّها على وجوب توحيد الله تعالى وعلى حقيّة رسالة محمّد (ﷺ) وعلى أنّ القيامة تآتي: فلذلك صدّرها الله تعالى بهذه الآية الكريمة؛ ليعلم النّاس بأنّ هذا القرآن الّذي يدعو إلى تثبيت هذه المطالب الثّلاث:

الأوّل: هو نزل من الله تعالى وما نزل من الله تعالى حقّ، فكلّ ما يخبر به هذا القرآن حقّ لا ريب فيه ولا يخالطه الخطأ والخلاف.

الثّاني: أنّ الله تعالى أخبر أنّ هذا القرآن نزل من عند الله دون أن يؤكّد هذا الخبر بأداة من أدوات التّأكيد سوى الجملة الأسميّة ودون أن يبرهن على ذلك بشيء من

الدّلائل، والسّبب في ذلك أنّ القرآن نفسه كشهيد يدلّ على أنّه من الله تعالى لتجاوزه عن طرق البشر، فإنّ كلّ من تفكّر في القرآن وتفحّصه وتدبّر في معانيه واطّلع على بلاغته وجزالة ألفاظه ومعانيه وتناسق سوره وآياته، وما فيه من الأخبار الماضية الّتي اختفت على النّاس إلّا الإختصاصيّين من أهل الكتاب، والأخبار عن المستقبل ووقوع ما أخبر عنه كما أخبر وإشارته إلى أمور كونيّة من كيفيّة الأفلاك والأرض والنّجوم والحيوان والإنسان والنّبات والمياه والبحار، وما فيه من الأحكام النّاصفة والأخلاق الفاضلة وغير ذلك، وقد جاء به إنسان أمّي لم يقرأ كتاباً ولم يمارس شعراً ولا خطابةً. فيعلم كلّ من تفكّر فيه هذا التفكّر لا يبقى له مجال إلّا ويقول: أشهد أنّ هذا القرآن من الله وأنّ محمّداً رسول الله، وقد سبق أن ذكرنا ذلك عند تفسيرنا لسورة (يس) فراجعها إن شئت الاطلاع عليها.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى وأثبت أنّ هذا القرآن من الله، ذكر الله تعالى ما يطلبه من عباده جميعاً إلّا أنّه خاطب الرّسول لأنّه المبلّغ والقائد للتّوحيد وإمام في العبادة، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾

(**إنّا أنزلنا إليك الكتاب**) وهو القرآن (**بالحقّ**) اختلف المفسّرون في تعيين متعلّق الباء في (**بالحقّ**) فبعضهم يقول: متعلّق بأنزلنا، أي أنزلنا بالحقّ، ومنهم من يقول: متعلّق بملتبساً حال من الكتاب أي ملتبساً ذلك الكتاب بالحقّ، والّذي يظهر لي ويعطي معنىً واضحاً ومفيداً هو: أنّ الكتاب ملازم للأمر والخبر والنّطق، فهو كتاب يأمر ويخبر وينطق كما قال تعالى: ﴿ولدينا كتاب ينطق بالحقّ وهم لا يظلمون﴾ سورة المؤمنون الآية ٦٣، وكما قال الله تعالى: ﴿وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحقّ إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ سورة الجاثية الآية ٢٨، فالأحسن أن نقدّر هنا (ينطق) فالمعنى (إنّا أنزلنا إليك

الكتاب ينطق بالحقّ) فكلّ ما فيه من أمر ونهي وخبر وحكم وخلق فهو الحقّ، وما خالفه باطل يجب أن يجتنب عنه **(فاعبد الله)** الفاء للتّفسير أي تفسير الحقّ الّذي ينطق به الكتاب، أي فالحقّ الّذي يأمر به الكتاب هو **(فاعبد الله مخلصاً له الدّين)** كلمة الدّين ورد في القرآن الكريم لمعان ثلاث:

الأوّل: الشّريعة: قال تعالى: ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ سورة آل عمران الآية|٨٣، أي أفغير شريعة الله يبغون، وقال أيضاً: (ومن يبتغ غير الأسلام ديناً) أي شريعةً ودستوراً للعمل (فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ سورة آل عمران الآية/ ٨٥. والآيات الّتي ورد فيها الدّين بمعنى الشّريعة والنّظام ودستور الحياة كثيرة جدّاً.

الثّاني: الجزاء: قال تعالى: ﴿مالك يوم الدّين﴾ سورة الفاتحة الآية،٤، مالك الأمر كلّه في يوم الجزاء. وقال أيضاً: ﴿وإنّ الدّين لواقع﴾ سورة الذاريات الآية/ ٧، أي أنّ الجزاء لواقع، والآيات في هذا المعنى كثيرة أيضاً.

الثّالث: العبادة: قال تعالى: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ سورة الكافرون الآية/ ٧، أي لكم عبادتكم ولي عبادتي، وقال تعالى: ﴿قل أمر ربّي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد وادعوه مخلصين له الدّين﴾ سورة الأعراف الآية/ ٧، أي مخلصين له العبادة، والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهنا أيضاً بمعنى العبادة، فالمعنى **(فاعبد الله مخلصاً)** مصفيّاً له العبادة عن أي غرض من الأغراض سوى ابتغاء وجهه وإطاعته في الأمر والنّهي، والعبادة بمعنى الطّاعة والأمتثال؛ فتشمل كلّ ما في القرآن من العبادة البدنيّة والماليّة والقلبيّة والأحكام الفرديّة والأجتماعيّة والإقتصاديّة والأخلاقيّة، وغير ذلك من أمثال ما يدعو إليه القرآن الكريم كلّه، وبهذا صحّ أن يكون الفاء في فاعبد الله للتّفسير، وتفصيل الحقّ الّذي ينطق به القرآن الكريم، فكلّ فعل من أفعالك وكلّ قول من أقوالك وخلق من أخلاقك ومعاملة من معاملاتك يجب أن يكون وفق شريعة الله ولوجه الله تعالى فقط، وبذلك يرضى عنك الله ويرضى عليك النّاس أجمعون، وبذلك أيضاً تلقّى الله تعالى راضياً منك قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي فليكن أعماله صالحة أي موافقة للشّرع ويكون قصده رضاء الله تعالى ﴿ولا يشرك عبادة ربّه﴾ أي أعماله وفق الشّرع (أحداً﴾ سورة الكهف الآية/ ١١٠. بأنّ يقصد رضاءهم أو مدحهم أو غير ذلك، فإذا فعل ذلك رضي الله تعالى عنه والنّاس جميعاً.

ثمّ علّل الله تعالى الأمر بالعبادة الخالصة لله تعالى بقوله: **(ألا لله الدّين الخالص)**

والمعنى أنّ العبادة الخالصة هي لله ويقبلها الله تعالى. وأمّا العبادة الّتي خالطها الشّرك والرّياء فلا تقبل منه ولا توزن له يوم القيامة، بل توضع في كفّة السّيئات، قال القرطبي: وفي حديث حسن عن أبي هريرة (رضي الله عنه): أنّ رجلاً قال لرسول الله: إنّي أتصدق بالشّئ وأصنع الشّيء واريد به وجه الله تعالى وثناء النّاس، فقال رسول الله (ﷺ): والّذي نفس محمّد بيده لا يقبل الله شيئاً شورك فيه، ثمّ تلا رسول الله (ﷺ): (ألا لله الدّين الخالص) انتهى.

هذا بالنّسبة لمن يعبد الله تعالى ويريد وجهةً وغرضاً آخر كثناء النّاس أو غيره، وأمّا من يعبد غير الله تعالى فقد ذكره تعالى بقوله: **(والّذين اتّخذوا من دونه)** أي من دون الله تعالى من الأصنام أو الكواكب أو الأشخاص أو النّار وكلّ ما يعبد غير الله تعالى في الأرض **(أولياء)** جمع وليّ وهو من يلي الأمور ويتّجه الأنسان إليه بالدّعاء والتّضرع لجلب منفعة أو دفع مضرّة أو رفعها بسلطة غيبيّة، إذ هذا من خواصّ الله تعالى، فكلّ ما اعتقدت فيه هذا الوصف واتّجهت إليه هذا الاتجاه فقد اتّخذته إلهاً دون الله تعالى وعبدته، فالّذين فعلوا أو يفعلون ذلك يقولون: **(ما نعبدهم)** بعقيدة أنّه إله **(إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى)** لكن نعبدهم لأنّهم أحبّاء الله تعالى فنتّجه إليهم وندعوهم ونستغيث بهم (ليقرّبونا إلى الله زلفى) أي ليقرّبونا إليه تقريباً. قال قتادة: كان كفار مكّة ومشركوها إذا قيل لهم من ربّكم ومن خالقكم ومن خلق السّماوات والأرض وينزل المطر؟ قالوا: هو الله، فيقال لهم: فما معنى عبادتكم الأصنام؟ قالوا: ليقرّبونا إلى الله زلفى وليشفعوا لنا عنده. وما أكثر هؤلاء القوم يعتقدون في غير الله أنّ لهم سلطة غيبيّة وأنّهم يقرّبون النّاس إلى الله تعالى ويوصلونه إليه ويسمّونهم الواصل والموصّل والكامل والمكمّل. ويصفونهم بأوصاف لا تليق إلّا بالله والحقّ أنّه لا موصل إلّا الله ولا مقرّب إلّا الله. وأنّ المرء لا يتقرّب إليه إلّا بصالح عمله وتصفية عقيدته وعبادته لله، فهؤلاء النّاس **(إنّ الله يحكم بينهم)** وبيّن الموحدين يوم القيامة يسوق الموحدين إلى الجنّة والمشركين إلى النّار **(إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار)** هذه الفقرة كأنّها جواب عن سؤال وهو أنّه: لماذا لا يهدي الله تعالى هؤلاء إلى توحيده وإخلاص العبادة له؟ فأجاب الله تعالى: (إنّ الله لا يهدي) جبراً إلى الحقّ (من هو كاذب) في قوله حيث يقول: إنّهم يقرّبونا إلى الله زلفى (كفار) بنعم الله تعالى، لأنّه هو خلقه ويعبد غيره، وهو أنعم عليه ويشكر غيره وهو يحييه ويميته وينفعه ويضرّه ويخاف غيره، ويطمع في غيره أن ينفعه أو يضرّ عدوّه بسلطته الغيبيّة، وتفصيل الجواب أنّ للهداية معنيين:

الأوّل: إراءة الطّريق وبيان الخير والشّر والصّحيح والنّافع والحقّ والباطل والواجب والجائز والحرام والمكروه والمباح في الأعمال والعقائد، فهذه الهداية قد فعلها الله تعالى حيث أرسل الرّسل وبيّنوا كلّ ذلك للنّاس حسب أمره تعالى.

الثّاني: وهو الإتيان بالعبد إلى الطّريق الحقّ، فهذه الهداية لم يجعل الله من عادته أن يفعلها، بل وهب الإنسان العقل والتّفكير ونبّهه على الخير والشّر، فمن اختار طريق الخير والحقّ يسوقه إليه، ومن اختار طريق الشّر والباطل ساقه إليه، وما ربّك بظّلام للعبيد فالمعنى (أنّ الله لا يهدي) جبراً (كلّ كاذب) اختار الكذب (كفار) اختار الكفر، وأمّا هدايته بمعنى إراءة الطّريق فقد فعل ومن لم يعرف بالطّريق الحقّ ولم يبلغ بهدايته الله ودينه، فليس مكلّفاً ولا عاصياً ﴿وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥. وهكذا كلّ ما رأيت في القرآن الكريم أنّ الله لا يهدي أو لا يهدي الله، فمعناه نفي الإتيان بالعبد جبراً إلى الخير دون اختياره لا نفي إراءة الطّريق أو الإتيان به إلى الخير إذا اختاره، فاحفظ هذا فإنّه يحلّ لك معنى كثير من الآيات هنا.

ثمّ إنّ المشركين كانوا يعتقدون الملائكة بنات الله، تعالى عن ذلك علوّا كثيراً، ولذلك كانوا يعبدون الملائكة، وحيث لم يكونوا ليصلوا إلى الملائكة وليروهم صوّروا تماثيل لهم، وكانوا يعبدون تلك التّماثيل مثل اللّات والعزّى وهبل ومناة الأولى والثّانية والثّالثة، فردّ الله تعالى على عقيدتهم هذه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

(**لو**) فرض فرض محال أنّ الله تعالى (**أراد أن يتّخذ ولداً**) له (**لأصطفى**) لاختار لنفسه (**ممّا يخلق ما يشاء**) فيجعله ولداً له، وما كان ليجعل هذا الاختيار بيدكم فتجعلوا وتختاروا له بنات، مع أنّكم تحتقرون البنات وتكرهونها وتسمّوها الملائكة، ولكنّ الله تعالى لا يليق به الولد وليس من شأنه أن يكون له ولد لأنّه (**سبحانه**) تنزّه تنزّهاً عن أن يكون له ولد وذلك لأنّه (**هو الله الواحد**) في جميع الجهات، فلو كان له ولد للزم أن يكون له صاحبة، ولو كانت له صاحبة للزم أن يكون متجانساً للصّاحبة حيث لا يمكن التّوالد إلّا من المتجانسين فحينئذٍ لا يكون واحداً (**القهّار**) الغالب على كلّ شيء، ومن كانت هذه صفته لا يحتاج إلى ولد؛ فإنّ الولد إنّما يطلبه الملوك وغيرهم ليكون عوناً

لهم، ولأنّ يرث ملكهم بعد موتهم والله لا يحتاج إلى شيء من ذلك فلا حاجة له إلى الولد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ على نفي الشّريك والولد لله تعالى، وأنّه الحقّ بالعبادة والإطاعة فقط لا شيء سواه؛ فقال جلّ وعلا:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾

بدأ الله تعالى الاستدلال على قدرته ووحدانيّته واستحقاقه هو وحده للعبادة بما في الآفاق العلويّة والسّفلية فقال: **(خلق)** خلق الله تعالى **(السّموات)** كلّها **(والأرض)** وما فيهما **(بالحقّ)** بهذا الثّبات والإتقان المحكم البديع **(يكوّر اللّيل)** يأتي باللّيل **(على النّهار)** فيخفيه **(ويكوّر النّهار)** ويأتي بالنّهار **(على اللّيل)** فيستره **(وسخّر الشّمس والقمر)** يعملان دائبين بحيث أنّه **(كلّ)** منهما **(يجري)** من مدار إلى مدار ومن برج إلى برج ومن منزل إلى منزل، وعملها هذا يبقى مستمراً **(لأجل)** إلى أجل أي إلى وقت **(مسمىً)** معدود عند الله تعالى وهو يوم القيامة، فمن كان هذه قدرته ومن كان هذه صنعته لا يحتاج إلى ولد ولا شريك، لأنّ الولد والشّريك لا يريدهما إلّا المحتاجون إليهما في عملهما **(ألا)** فاعلم أنّه **(هو العزيز)** الغالب والمقتدر على أن ينتقم ممّن يشرك به أو ينسب إليه ما لا يليق به **(الغفّار)** كثير المغفرة لمن أخلص له عبادته ونزّهه عن الشّريك والولد وكلّ ما لا يليق بذاته تعالى، ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الدّليل على وحدانيّته وقدرته من الآفاق العلويّة أراد أن يستدلّ على ذلك بما في الأنفس فقال: **(خلقكم من نفس واحدة)** وهو آدم حيث خلق آدم أولاً **(ثمّ جعل منها)** أي خلق من جنسها من التّراب **(زوجها)** من يتزاوج معها وهي حواء، فتزاوج آدم معها فتناسل منهما هذه الأصناف الكثيرة والقبائل المتعدّدة والشّعوب المختلفة من النّاس، أو معناه خلق من

جعل منها وهو ضلع من أضلاع آدم، استخرج منه فخلق منه حواء فتزاوجا، فتناسل منهما النّاس جميعاً، قولان في معنى **(جعل منها زوجها)** والثّاني أصلح وهذا مثل ما قال الله تعالى: ﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم إنّ الله عليم خبير)، وبعد أن خلقكم وأسكنكم هذه الأرض أنعم عليكم **(وأنزل لكم)** من السّماء **(من الأنعام)** وهي الإبل والبقر والضّأن والمعز، فأنزل الله تعالى هذه الحيوانات الكثيرة المنفعة **(ثمانية أزواج)** الزّوج يطلق على ما يتزاوج مع غيره، فالذّكر زوج لأنّه يتزاوج مع الأنثى، والأنثى زوج لأنّها تتزاوج مع الذّكر، فأنزل الله تعالى من الإبل زوجين أي الذّكر والأنثى، ومن البقر زوجين، ومن الضّأن زوجين، ومن المعز زوجين أي الذّكر والأنثى، فأصبحت ثمانية أزواج، ومعنى أنزالها من السّماء أنّ الأمر بخلقها نزل من السّماء، وهكذا فإنّ الإنسان وكلّ نوع من أنواع الحيوانات خلقه الله تعالى من الماء والتّراب زوجاً أي ذكراً وأنثى، ثمّ بعد ذلك تزاوج الذّكر والأنثى فتناسل ذلك النّوع وتكاثر كما قال تعالى: ﴿وهو الّذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربّك قديراً﴾ سورة الفرقان الآية/ ٥٤، ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أطوار خلق الإنسان فقال: **(يخلقكم)** على الإستمرار **(في بطون أمهاتكم خلقاً)** طوراً **(من بعد خلق)** طوراً من بعد طور، طور النّطفة ثمّ العلقة ثمّ المضغة غير المخلقة ثمّ المخلقّة ثمّ نفخ الرّوح فيه، وبهذه الأطوار كلّها يخلق **(في ظلمات ثلاث)** ظلمة البطن وظلمة الرّحم وظلمة المشيمة **(ذلكم)** القادر العظيم العليم الّذي خلق هذه الأشياء هو **(الله)** الذّات المستجمع لجميع صفات الكمال والمتنزّه عن جميع صفات النّقص وهو **(ربكم)** الّذي يربّيكم فلا تربية لغيره، وكلّ تربية غير تربيته إضلال، وهو الّذي يربّي ولا يربي غيره، وإنّما غيره في التّربية مجازي التّربية ومظهر لتسييره، فالمدرّس حينما يدرّس طلابه مثلاً فإنّما ينطق بقدرة الله، ويدخل ما يتكلّم به في قلوب التّلاميذ بقدرة الله ويترسّخ ما يقول بإرادة الله إن شاء، وكذلك الواعظ والخطيب **(له الملك)** أي المالكيّة والملكيّة وكلّ الموجودات لله تعالى، وكلّ شيء تحت تصرّفه وقهره، فمن كان هذا خلقه وهذه صفته فلا شريك له ولا ولد كما قال تعالى: **(لا إله)** لا معبود ولا مطاع ولا مكوّن ولا مشرّع بحقّ يستحقّ ذلك **(ألا هو)** الّذي ذكر خلقه وأوصافه **(فأنّى تصرفون)** أيّها النّاس من عبادته إلى عبادة غيره، ومن إطاعته إلى إطاعة غيره، والاستفهام للتّوبيخ والإنكار، فالمعنى أنّ إنصرافكم عنه منكر جدّاً وموجب للقهر والعذاب المهين.

ثمّ بعد أن أثبت الله تعالى ألوهيّته وربوبيّته ومالكيّته وملكيّته وأنّه الحقيق بالعبادة وحده، أعلن استغناءه عن عبادة كلّ عابد وعن إطاعة النّاس جميعاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾

(ان تكفروا) فلا يضرّ الله كفركم شيئاً **(فإنّ الله غنيّ عنكم)** وعن عبادتكم كما قال في الحديث القدسي: (يا عبادي لو أنّ إنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل ما زاد من ملكي شيئاً، ولو أن إنّسكم وجنّكم كانوا على أشقى قلب رجل لا ينقص من ملكي شيئاً)[١] او كما قال، فالله غنيّ عنكم أيّها النّاس ولكنّكم لستم أغنياء عن الله، وتحتاجون إليه في الدّنيا والآخرة **(ولا يرضى لعباده الكفر)** فينتقم منهم **(وإن تشكروا)** بأن تؤمنوا به وتطيعوا **(يرضه لكم)** و يثيبكم على ذلك أجرا جزيلا، وكلّ إنسان مسؤول في حساب الله تعالى عن نفسه حيث **(ولاتزر)** ولاتحمل **(وازرة)** أي نفس عاصية **(وزر)** أي عقاب **(أخرى)** أي نفس أخرى عاصية بل كلّ نفس مسؤولة عن ذنبها فقط وليست مسؤولة عن ذنب غيرها، وإن كان أقرب شخص إليها. **(ثمّ)** أي بعد أن علمتم ذلك وبلّغتم بهذا البلاغ **(إلى ربّكم)** يوم القيامة وبعد الموت **(مرجعكم)** رجوعكم **(فينبّئكم)**

---

(١) نص الحديث هو ما رواه أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلي من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلي من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلي من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلى كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه. / صحيح مسلم ج٤/ ص١٩٩٤ الحديث رقم ٢٥٧٧.

فيجازيكم **(بما)** بحسب **(ما كنتم تعملون)** في الدّنيا، فإن كان عملكم خيرا فجزاؤكم خير، وإن كان شرّاً فجزاؤكم شرٌّ **(إنّه)** إنّ الله تعالى **(عليم)** يعلم علما ثابتا لا زوال له ولا نسيان، فعليم هذا العلم **(بذات الصّدور)** أي بكلّ شيء ممّا ظهر، ولكن حتّى وبما هو في داخل الصّدور أي القلوب من الوساوس والهواجس والمبادئ والعقائد والنّيات، فلا يخفى عليه شيء وفي علمه هذا يحاسبكم ربّكم ويجازيكم.

ثمّ إنّ فكرة التّوحيد مركوزة في داخل نفس كلّ إنسان، وأنّ كلّ إنسان يعلم أنّه لا ينفع ولا يضرّ ولا يستجيب الدّعوات إلّا الله تعالى، إلّا أنّه يغفل عن هذا التّوحيد بسبب بعض التّقاليد السّيئة أو بعض التّعاليم الفاسدة أو لمصلحة وراء ذلك، فأخبر الله تعالى عن هذه الحقيقة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾

(وإذا مسّ الإنسان) وإذا أصاب الإنسان **(ضرّ)** شيء من الضّر مثل الجوع أو المرض أو الفقر عبّر عنه بمسّ، ومسّ للقليل، فمعناه إذا أصاب الضّر ولو قليلًا **(دعا ربّه)** وتضرّع **(منيباً)** راجعاً إليه منقطعاً، عن غيره إليه **(ثمّ إذا خوّله)** أعطاه من الملك أو المال او القوّة **(نعمة منه)** من قدرته وإرادته **(نسي ما كان يدعو)** ويتضرّع وينيب **(إليه من قبل)** من قبل ذلك، وهو الله تعالى، بل وفعل أفحش من ذلك **(وجعل لله أنداداً)** شركاء له حيث يقول فلان فعل لي كذا، وفلان تفضّل عليّ بكذا من الّذين يعتمد عليهم، أو من الّذين سخّرهم الله تعالى، أو ممّن يعتقد فيه أنّ له تأثيراً في الأمور.

لطيفة: كان الحاج ملّا عبدالله جلي زاده (رحمة الله تعالى عليه) من أكابر علماء الكرد في العراق مسافراً مع خليفة من خلفاء أحد الشّيوخ[١] فقال الخليفة: والله يا أستاذي لقد نزل أمس من همّة الشّيخ مطر جيّد ونافع، ولكنّ بالأخير جعله الله بَرَداً (حالوبا) فأضرّ بالزّروع والأشجار، فقال الأستاذ: أنا لا أقبل أن تظلم الله تعالى فتجعل

(١) أي أحد شيوخ الطريقة كان لهم مريدين يسمون بالخلفاء.

الضّر منه والخير من الشّيخ، فإمّا أنّ تجعل كليهما من الشّيخ أو كلّه من الله تعالى، فسكت الخليفة معبّراً بسكوته عن خطئه.

هذا وإنّ من يعمل ذلك وينسب الأمور إلى غير الله تعالى إنّما يفعل ذلك **(ليضلّ)** النّاس **(عن سبيله)** عن سبيل الله تعالى فيقتدوا به لأنّ أكثر النّاس عوام، والعوام مألوفون بالأمور الحسّية والأسباب الظّاهرة والأمور العاطفيّة والخرافيّة، وما هو مبنيّ على الشّعر والسّفسطة والحكايات.

* * *

حكاية: ذهب رجل عالم إلى قرية وأراد أن يصير إماماً في القرية مقابل ما يأخذه الأئمّة من أهل القرى حسب الأصول مالاً يسّدون به حاجياتهم[١]، وصادف أن جاء في نفس اليوم رجل جاهل تعمّم بعمامة، وزاحم العالم في طلب الإمامة في القرية نفسها، فاتّفق أهل القرية أن يمتحنوهما فيعيّنوا النّاجح منهما حسب الأصول، فاقترحوا أن يكتب كلّ واحد منهما كلمة (الحيّة أي الثّعبان) فكتب العالم وكان خطاطاً (حيّة) بخط الرقعة كأحسن ما يكتب، وأخذ الجاهل قلماً ورسم خطاً جعل رأسه كرأس الحيّة ولها ذنب ومن قامتها إلتواءات، فنظر أهل القرية وكانوا أمّيين فقالوا: لَمَ رسم الجاهل، هذه هي الحيّة !، ورفضوا العالم وما كتب لهم من هذه الرّقعة الجميلة. وهكذا فالعوام لا تجلب إلّا بما تجلب به العيون لا بما يقنع العقول، ولذلك ترى أتباع الضّلال والمضلّين أكثر وأكثر.

* * *

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ موحّد لهذا الّذي يجعل له أندادا **(تمتّع)** في الدّنيا **(بكفرك)** بسبب كفرك هذا **(قليلاً)** فإنّ متاع الدّنيا مهما كان كثيراً فإنّه قليل بزواله بالموت، وبعد زوال هذا المتاع تتندّم حيث **(إنّك)** بعد الموت **(من أصحاب النّار)** أي من الدّاخلين فيها.

---

(١) وكان ذلك قبل أن يعيّن أئمة المساجد كموظفين تصرف لهم الرواتب، فكانوا يعانون من قبل الناس أهل القرية أو الحيّ أو المدينة لضمان معيشتهم بأجور متفق عليها مقابل تقديم الخدمات الدينية لهم من الإمامة والخطابة والتدريس، ولكن بعدما أصبحوا موظفين انتفى ذلك وأصبحوا تابعين للدولة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الّذين يتّخذون أنداداً لله تعالى، وأنّ مصيرهم إلى النّار، أراد تعالى أن يذكر الموحّدين وحالهم؛ فقال جل وعلا:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾

(أمّن) يقرأ بتشديد الميم فتقديره **(أم من)** فأدغم الميم في الميم فصار **(أمّن)** ومعادله محذوف قبله، تقديره أهؤلاء الّذين يتّخذون أنداداً لله خير أمّن هو قانت ..... الخ، وهو **(من)** ومعادله محذوف بعده تقديره **(أمّن هو)** وإن قرأ بالتّخفيف فالهمزة للاستفهام ومعادله محذوف بعده، تقديره أمّن هو قانت .... الخ خير أم من ذكر سابقا مِن مَن اتّخذ لله أنداداً **(أمّن هو قانت)** أي مطيع ومتضرّع إلى ربّه **(آناء اللّيل)** أي في أثناء اللّيل **(ساجداً)** ليسجد لله تعالى **(وقائماً)** يقرأ آيات الله تعالى. فالمعنى يصلّي في أوقات اللّيل لله تعالى **(يحذر)** لهذه العبادة وبدعواته **(الآخرة)** عذابها وعقاب الله تعالى فيها **(ويرجو رحمته)** رحمة الله تعالى، أهذا أفضل أم من عرض عن الخالق بالمخلوق وبالفاني عن الباقي وبالدّنيا عن الآخرة، الجواب محذوف وهو كلّا، حذف للعلم به من السّياق بل الّذي هو قانت خير وأفضل، واستدلّ الله تعالى على ذلك بقوله **(قل)** يا أيّها المسلم **(هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون)** فكلّ إنسان يجيب بأنّ العالم خير من الجاهل، شبّه الله تعالى المؤمنين الّذين يعبدون الله تعالى ويخافونه بالعالِمين لأنّهم يعلمون الحقّ فاتّبعوه، وشبّه غيرهم بالجاهل لأنّهم انحرفوا عن الحقّ أو لم يعرفوه، فالمؤمن المتّبع عالم في لسان الشّريعة والكافر أو الفاسد جاهل وإن كان فيلسوفاً، وكذلك قد سمّي من قبل الإسلام بالجاهلين وزمانهم بزمان الجاهليّة أي زمان عدم المعرفة بدين الله وشريعته، وإلّا فلم يكن أهل ذلك الزّمان جاهلين بكلّ شيء حيث كان فيهم خطباء وبلغاء. ومن هنا نستطيع أن نقول إنّ زماننا هذا زمان الجاهليّة أيضاً لعدم معرفة النّاس بدينهم، أو عدم تطبيقهم لشريعة الله تعالى، فكلّ زمان لا يعمل بشريعة الله تعالى فهو زمان الجاهليّة وأهله جاهليّون وإن كانوا فلاسفةً ومخترعين، ولكنّ إنّما يتذكّر هذا التّذكّر ويتّعظ بهذه الموعظة **(أولوا الألباب)** أي أصحاب العقول، والمعنى أنّ من لم يتذكّر بهذه التّذكرة ولم يتّعظ بها فليس بصاحب عقل وعلم وإدراك، لما ينتفعون به فإنّ علم ما ينتفع به من الآخرة هو العلم وحده، لأنّ فائدته تدوم وما ينتفع به من العلم في الدّنيا فقط وإن كان علماً إلّا أنّ فائدته قليلة لأنّها مؤقّتة بوقت

زائل وحياة لا تبقى ولا تدوم، وكأنّه ليس بعلم وصاحبه ليس عاقلاً إن عري عن الدّين وعلمه.

تنبيه: وصف الله تعالى القانت آناء اللّيل بأنّه يحذر الآخرة ويرجو رحمة الله تعالى، وهذا من واجب المسلم، فيجب أن يكون راجياً رحمة الله تعالى ليعمل ولا يقنط فيترك العمل، وخائفاً لئلا يطغى ويعجب بنفسه فيقع في الخطيئة، كما دخل الشّيطان في الخطيئة؛ لأنّه أصيب بالعجب ورأى نفسه خيراً من آدم فلعن. ذكر في الخازن أنّه روي عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) عن أنّ النّبيّ (ﷺ) دخل على شابّ، وهو في مرض الموت، فقال له: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي، فقال رسول الله (ﷺ): (لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلّا أعطاه الله تعالى ما يرجو منه وآمنه من ما يخاف) أخرجه التّرمذي[1].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾

وبعد أن ذكر الله تعالى مصير المؤمنين أمر الرّسولﷺ أن يبلّغ النّاس أمرين:

الأمر الأوّل: قال الله عزّ وجل: **(قل)** ياأيّها النّبيّ إنّ الله تعالى يقول: **(ياعباد)** بلا ياء عند الأكثر تخفيفاً، وبالياء على الأصل **(ياعبادي الّذين آمنوا اتّقوا ربّكم)** اجتنبوا معاصيه وامتثلوا أوامره، وذلك لأنّه هيّأ **(للّذين أحسنوا في هذه الدّنيا حسنةً)** من عند الله تعالى مقابل الإحسان، قيل: في الدّنيا، وقيل: في الآخرة، والأصحّ أنّه في الدّنيا كالصّحة والعافية والنّصر أو غير ذلك، وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياةً طيبةً﴾ سورة النمل الآية|٩٧. أي في الدّنيا بقرينة أنّه ذكر ما في الآخرة بقوله: ﴿ولنجزيّنهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ سورة النحل الآية/ ٩٧. وهنا أيضاً ذكر ما في الآخرة بقوله بعد: **(إنّما يوفّى الصّابرون أجرهم بغير حساب)**. وإذا أصبح حالكم بحيث لا تستطيعون أن تؤدوا شعائركم وتحافظوا على دينكم لغلبة الكفار ومنعكم من ذلك، فهاجروا من ذلك المكان **(وأرض الله واسعة)** والمسلم لا يتقيّد بأيّ أرض ولا وطن ولا تراب، بل يتقيّد بدينه، فأينما سلم له دينه فهو أرضه ووطنه كما قال الشّاعر:

---

(١) سنن الترمذي ٣/ ٣١١ الحديث رقم ٩٨٣.

إذا كـان أصـلـي مـن تـراب فـإنّـه جـمـيـع بـلاد الـلـه أرضـي ومـوطـنـي

(إنّما يوفى الصّابرون) على مشقّة التّقوى وأداء أوامر الله تعالى، وعلى الهجرة في سبيل الحفاظ على سلامة دينهم **(أجرهم)** ثوابهم يوم القيامة **(بغير حساب)** بدون عدّ لكثرته. يروى عن الإمام عليّ (كرم الله وجهه) قال: (كلّ مطيع يكال له كيلاً ويوزن له وزناً إلّا الصّابرون، فإنّه يحثى لهم حثياً) وقد أنجز الله تعالى وعده، هذا في حقّ المهاجرين من أصحاب رسول الله (ﷺ) إلى الحبشة ثمّ إلى المدينة المنوّرة؛ فنصرهم في الدّنيا وجعلهم سادة، وفي الآخرة لهم ثواب أحسن وأكثر ممّا في الدّنيا، وكذلك يجزي الله تعالى كلّ مسلم مخلص في دينه وصبر على الأذى في سبيل الحفاظ على عقيدته وواجباته، فإنّ الله لا يخلف وعده.

الأمر الثّاني: أمره الله تعالى أن يبلّغ كفّار قريش براءته من دينهم وآلهتهم وذلك لأنّهم قالوا له: ما حملك على هذا الّذي أتيتنا به؟ ألا تنظر إلى ملّة أبيك وجدّك وقومك فتأخذ بها؟ فأمره الله تعالى كيفيّة تبليغه وجوابه لهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات وقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ لهؤلاء الّذين يريدون منك الرّجوع إلى دين الآباء والأجداد وهو دين الشّرك قل لهم **(إنّي أمرت)** من قبل الله تعالى **(أن أعبد الله مخلصاً)** مصفيّاً **(له الدّين)** العبادة من كلّ غرض سوى ابتغاء وجهه، ومن كلّ شرك ظاهر كالأصنام أو خفيّ كالرّياء والسّمعة وأغراض أخرى غير وجه الله تعالى **(وأمرت)** أيضاً **(لأن)** بأن **(أكون أوّل المسلمين)** الموحّدين والمنقادين لأوامر الله تعالى من بينكم أيّها المبطلون **(قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي)** فيما أمرني به من إخلاص العبادة له وكوني أوّل المسلمين **(عذاب يوم عظيم)** وهو يوم القيامة **(قل)** ولأمر الله تعالى بهذين الأمرين

ولخوفي من العذاب إن عصيته (**الله أعبد**) وحده ولا أعبد غيره ممّا تدعونني إلى عبادته من اللّات والعزّى (**مخلصاً له الدّين**) من كلّ غرض سوى ابتغاء وجهه ومن كلّ شائبة شرك، وأنا ثابت على ديني وعبادتي هذه (**فاعبدوا**) أنتم ماشئتم من الأصنام والأوثان، والأمر للتّهديد والتّخويف لا لإباحة عبادة غير الله تعالى أو الرّضاء بها (**قل**) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم (**إنّ الخاسرين**) في الحقيقة هم (**الّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة**)، سبب الشّرك والانحراف عن التّوحيد وعن شريعة الله وامتثال أوامره عقيدة وأعمالًا. (**ألا ذلك**) الخسران وهو خسران يوم القيامة (**هو الخسران المبين**) الواضح لأنّ خسران الدّنيا مهما كان كميّته وكيفيّته فإنّه ينسى ويزول بالموت والفوت، ولكن خسران يوم القيامة لا يزول، ويبقى فيه الخاسر أبد الآبدين، والمبين من أبان، فالمعنى بان أيّ اتّضح. هذا. ثمّ ذكر تعالى ذلك الخسران فقال (**لهم من فوقهم ظلل**) جمع ظلّة بمعنى الطّبقة أي طبقات من النّار (**ومن تحتهم ظلل**) فالمعنى أنّ النّار تحيط بجوانبهم وهم في وسطها. (**ذلك**) العذاب (**يخوّف الله به عباده**) ليجتنبوه بالإيمان والأعمال الصّالحات وإخلاص العبادة لله تعالى والابتعاد عن الشّرك والإلحاد (**يا عباد**) بالياء وبدونه (**فاتّقون**) أصله فاتّقوني حذف الياء للتخفيف، والفاصلة أي فاتّقوا عذابي ولا تقربوا ما يوجب سخطي وعذابي من الشّرك وسوء الأعمال، وفي هذه الآيات زجر للمؤمنين وغيرهم، وحثّ لهم على التّوحيد وعمل الخير، لأنّ رسول الله ﷺ مع جلالة قدره ونزاهة قلبه وطهارة نفسه يخاف من الله وعذابه العظيم، ومأمور بهذه الأوامر قبل كلّ أحد فكيف بغيره.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى خسارة الكافرين يوم القيامة أراد أن يذكر غنيمة المؤمنين والموحّدين في ذلك اليوم فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾

(**والّذين اجتنبوا الطّاغوت**) صيغة مبالغة من الطّغيان، أي اجتنبوا أهل الطّغيان الكبير، وهم كلّ من يأمرك ويدعوك إلى الانحراف عن شريعة الله ودينه اعتقاداً وعملاً وتطبيقاً، فالّذين اجتنبوا تلك الطّواغيت من (**أنّ يعبدوها**) أن يطيعوها (**وأنابوا إلى الله**)

ورجعوا إلى عبادته والعمل بشريعته لهم البشرى **(فبشر)** يا أيّها النّبيّ ويا كلّ داع إلى الله بشّر **(عباد)** أي عبادي هؤلاء، ثمّ وصفهم بوصف آخر أوضح ممّا قبل فقال تعالى **(الّذين يتّبعون القول)** أي الأقوال فيتّبعون أحسنه ولا يبقون على التّقليد الجامد **(أولئك الّذين هداهم الله)** للوصول إلى الحقّ واليقين الّذي لايزول بتشكيك المشكّك كالمقلّد الصّرف **(وأولئك هم أولوا الألباب)** هم أصحاب العقول لا المقلدّون الّذين لا يحرّكون فكرهم ولا عقولهم، وإنّما هم يقادون فينقادون كالأنعام، والمراد هنا العلماء وإلّا فالعوام من أين لهم قوّة التّفكير والتّدقيق والتّحقيق. ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) كما وصفه الله بقوله: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ سورة التوبة الآية/ ١٢٩. فكان الرّسول (ﷺ) حريصاً كلّ الحرص على إيمان النّاس فيتألّم قلبه الشّريف ويحزن حينما يرى إصرار النّاس على الكفر وانحرافهم عن دعوته؛ فخفف الله تعالى من همّه؛ فقال جل وعلا:

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾

(أمّن) تعنّت وتكبّر واستكبر ولم يرد إلّا الكفر ومعاداة الله ودعوته ورسوله إلى أن **(حقّت)** صدرت إرادة الله تعالى **(عليه)** وثبتت عليه **(كلمة العذاب)** تهديه؟ كلّا، فإنّ ذلك النّوع من النّاس دخلوا جهنّم حسب وصية الله تعالى لخبث طويّتهم وقبح أعمالهم **(أفأنت تنقذ)** تخرج **(من في النّار)** الّذي دخل النّار؟ كلّا، فلا تحزن عليهم ولا تحرص على هداهم فإنّهم لايهتدون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر البشرى الّتي أمر الرّسول أن يبشّر المؤمنين بها؛ فقال جلّ وعلا:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

(لكن الّذين اتّقوا) فلم يعصوا ربّهم **(لهم)** في الجنّة **(غرف من فوقها غرف)** جمع غرفة **(مبنيّة)** محكمة **(تجري من تحتها)** على أرجائها وفي البساتين للتّنزهة والشّرب **(الأنهار)** من الماء واللّبن والعسل والخمر **(وعد الله)** أي وعد الله هذا الوعد لهم، وإنّه يأتي لامحال حيث **(لا يخلف الله الميعاد)** الوعد الّذي وعده، بل ينفّذه وينجزه حتماً، وهذا بيان لدرجات الجنّة وإنّ بعضها فوق بعض.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر دليلًا يثبت به قدرته على خلق تلك الظّلل من النّار للكافرين، وبناء تلك الغرف والأنهار للمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾

(**ألم تر**) أيّها الإنسان (**أنّ الله أنزل من السّماء ماءً**) وهو المطر (**فسلكه**) فأجراه وجعله (**ينابيع**) عيوناً جارية (**في الأرض ثمّ يخرج به**) بذلك الماء حيثما اختلط التّراب (**زرعاً**) أنواع المزروعات كلّها (**مختلفاً ألوانه**) وفوائده وأنواعه (**ثمّ**) بعد مدّة (**يهيج**) يجفّ (**فتراه مصفرّاً**) بعد خضرته ونضارته (**ثمّ**) بعد مدّة أخرى (**يجعله حطاماً**) حشيشاً متفتّتاً (**إنّ في ذلك**) الصّنع والخلق (**لذكرى**) لتذكرة بقدرة الله تعالى على كلّ شيء، وبالحياة بعد الموت، فإنّ النّبت كلّ سنة يموت ويعاد، وإنّ الله تعالى لم يخلق هذا الخلق عبثاً بل إنّ هناك نظاماً يحسب المرء عليه فيعاقب أو يثاب، ولكن هذه الذّكرى (**لأولي الألباب**) وأصحاب العقول، فإنّهم يتذكّرون بها وينتفعون منها، وأمّا غيرهم فلا، فالمعنى أنّ من لم يتذكّر بهذه الذّكرى فليس من أصحاب العقول والتّفكير.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

(**أفمن**) تذكّر نعم الله تعالى وتفكّر في عجيب صنعه وبديع خلقه فأصبح نتيجة ذلك التّفكير أن (**شرح**) فتح (**الله صدره**) قلبه (**للإسلام**) فانقاد لأمر الله تعالى وآمن واتّبع شريعة الله تعالى، أفهذا كمن غفل وتغافل ولم يسمع للاهتداء إلى الحقّ فلم يتفكّر ولم يتذكّر؛ فانغلق قلبه من الإيمان والإسلام فلم يدخل فيه؟ كلّا ليسا سواء بل (**فهو**) أي الّذي تفكّر فانشرح صدره (**على نور من ربّه**) يضيء طريق الرّجوع إليه وسبيل الحياة الشّريفة في الدّنيا والآخرة والّذين قست قلوبهم فهم في ظلمة الجهل والغواية، كما قال تعالى (**فويل**) فعذاب شديد (**للقاسية**) المقفلة (**قلوبهم من ذكر الله**) ومعرفته (**أولئك**) الّذين قست قلوبهم (**في ضلال مبين**) واضح وظاهر لا خفاء فيه.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ الّذي انفتح قلبه للإسلام على نور من ربّه وأنّ الّذي قسى قلبه في ضلال واضح، ذكر شيئاً آخر غير التّذكر والتّفكير في بدائع الخلق وعجائب الصّنع، تنفتح به القلوب ويدخل به الإسلام فيها أو يكون سبباً للهداية والتّخلص من الضّلال وهو القرآن؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

(الله) تعالى **(نزّل أحسن الحديث)** أي أحسن الكلام وهو القرآن **(كتاباً)** بيان لأحسن الحديث **(متشابهاً)** يشابه بعضه بعضاً، وبيّن كيفيّة تشابهها بقوله **(مثاني)** أي يثنّى ويعاد وعده ووعيده وأحكامه وقصصه وعبره ومواعظه بين إطناب مرّة وإيجاز أخرى ومتوسط، كلّ حسب ميقتضيه الحال والمقام، فمثلاً ذكرت فيه قصّة موسى عليه السّلام مراراً مرّة بتفصيل ومرّة بإيجاز ومرّة بالتفاتة إليها فحسب **(تقشعرّ)** تتحرّك **(منه)** من سماعه وتلاوته والتّدبر فيه **(قلوب الّذين)** يحبّون الهداية ومعرفة الحقّ فيتّبعوه لأنّه **(يخشون ربّهم ثمّ)** بعد هذه القشعريرة **(تلين جلودهم)** جوارحهم الظّاهرة **(وقلوبهم إلى ذكر الله)** أي لإتّباع شريعة الله وامتثال أوامره **(ذلك)** الكتاب وهو القرآن **(هدى الله)** تعالى **(يهدي به من يشاء)** وهم الّذين يحبّون الهداية ويسعون لها ويجاهدون في سبيل معرفته واعتناقه **(ومن يضلل الله)** أي ومن خلق الله تعالى لهم الضّلالة لأنّهم اختاروها وما سعوا للهداية، بل عاندوا الحقّ وإن ظهر واتّبعوا الباطل وإن كان واضحاً، فمن كان كذلك **(فما له من هاد)** يهديه ويأتي به إلى الحقّ سوى الله، وإنّ الله لا يهدي جبراً من لم يرد الهداية وأصرّ على البقاء فيما هو ضلالة. وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه من النّاس من يهتدي بهدي القرآن، ومنهم من يضلّ ولا هادي له، أنذر الّذين ضلّوا وفي ضمنه بشارة للمؤمنين، فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب) أفمن يرفع عن نفسه العذاب السيّئ وهو النّار بوجهه،لأنّ الإنسان إذا جاء إليه شيء يدفعه بيديه أو برجله، ولكنّ أهل الضّلال يغلّ أيديهم وأرجلهم فيلقون في النّار على وجوهم منكوساً، فيريدون أن يدفعوا عن أنفسهم النّار بوجهه حيث لايستطيعون الدّفع بيديهم أو أرجلهم لأنّها مغلولة ومقيّدة **(يوم القيامة)** يوم أن قيل للظّالمين **(ذوقوا ماكنتم)** أي عذاب وجزاء ماكنتم **(تكسبون)** في الدّنيا، فمن هذا حاله كمن يكون آمنا وهم المنحرفون عن هدي القرآن، كمن هو آمن من العذاب في ذلك اليوم وهم المتّبعون للقرآن والمطبّقون لأحكامه؟ فالجواب: معلوم وهو كلّا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّرهم بحال الأمم السّابقه الّذين كذبوا برسلهم وبما جاؤوا به من الكتب والشرائع ليعتبروا بهم، فلا يكذّبوا الرّسول والقرآن مخافة أن يعذّبوا كما عذّب السّابقون؛ فقال جل وعلا.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(كذب الّذين) كانوا **(من قبلهم)** من قبل منكري القرآن ورسالة محمّدﷺ فكذّبوا رسلهم وما جاؤوا به من شريعة الله تعالى، فلم يعتنقوه ولم يطبّقوه **(فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون)** أي جاءهم العذاب من الجهة والكيفيّة الّتي لم يكونوا يخطر ببالهم أنّ العذاب يأتيهم منها، فدمّرهم وأبادهم عقاباً على تكذيبهم الرّسل وانحرافهم عن دين الله تعالى. فليحذر الّذين يخالفون شريعة محمّد ويخرجون عن تعاليمه أنّه يأتيهم العذاب مثلهم فيهلكهم **(فأذاقهم الله)** أي أذاق الله ذلك العذاب الأمم السّابقة المكذّبة للرّسل **(الخزي)** الذلّ والهوان **(في الحياة الدّنيا ولعذاب الآخرة أكبر)** من عذاب الدّنيا بكثير **(لو كانوا يعلمون)** حقيقة الحال ونتيجة التّكذيب لما كذّبوا إلّا أنّهم لم يكونوا ليعلموا بأنّ التّكذيب يؤدّي إلى هذا العذاب في الدّنيا والآخرة، فكذّبوا واستكبروا وعتوا عن قول الحقّ مع وضوحه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّه لم يبق للنّاس أيّ معذرة فإنّه بيّن لهم كلّ شيء وبلّهم الرّسول (ﷺ) بذلك؛ فلا مجال للاعتذار بعد فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(ولقد ضربنا) أي ولقد ذكرنا **(للنّاس في هذا القرآن من كلّ مثل)** من المواعظ والقصص والعبر والوعد والوعيد والإنذار والتّبشير **(لعلّهم يتذكّرون)** أي لكي يتذكّروا ويتّعظوا ويؤمنوا وينقادوا للحقّ وشريعة الله تعالى شريعة الإسلام، إلّا أنّهم لم يتّعظوا مع وضوح القرآن وعدم خفائه على الفهم والأذهان كما قال تعالى: **(قرآناً)** أي والحال أنّ هذا القرآن كان **(قرآناً عربيّاً)** في ألفاظه وأسلوبه وعباراته **(غير ذي عوج)** أي غير ذي التواء وخفاء في بيان الأحكام والعبر والمواعظ والوعد والوعيد، بل كان مستقيماً في دلالته وأوضحناه كذلك **(لعلّهم يتّقون)** لكي يتّقوا ولا يبقى لهم الأعذار بأنّهم لم يفهموا معناه ولم يطلعوا على مراده ومغزاه، ومع ذلك أبوا إلّا الكفر والعصيان، وبقوا على شركهم وعبادة من لا ينفع ولا يضرّ.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّه يذكر حال المؤمن في الطّمأنينة والرّاحة وحال المشرك في التّعب والضّياع، وضرب لبيان ذلك مثلاً فقال جلّ وعلا:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

(ضرب الله مثلاً) ذكر الله تعالى على سبيل مثال للفرق بين الموحّد والشّرك **(رجلاً)** أي عبداً وخادماً **(فيه شركاء)** كأن يكن خادماً لأكثر من سيّد **(متشاكسون)** أي متضادّون هؤلاء الشّركاء، فكلّ واحد منهم يطلب نوعاً من الخدمة وكيفيّة في الإطاعة، فيحتار الرّجل ولا يدري أيّهم يقنع ويرضى، وبأمر أيّهم يأخذ ويمضي؛ فيبقى في قلق مستمرّ واضطراب دائم في العمل والفكر والإتّجاه،هذا وفي جانب آخر ترى **(رجلاً)** عبداً **(سلماً)** خالصاً **(لرجل)** لخدمة رجل واحد يعلم كيفيّة خدمته وطريقة إرضائه، فهو يعمل مطمئنّاً في إرادته وعمله وفكره، لايغشاه القلق ولا الإضطراب **(هل يستويان)** هذا الرّجل المشترك وهذا المتّجه اتّجاهاً واحداً، هل يستويان في الإطمئنان والعمل والرّاحة والتّعب؟ الجواب: كلّا **(الحمد لله)** الّذي بيّن طريقة واحدة لعباده واتّجاها واحداً يستريح من سلكها ويطمئنّ من اتّبعها، وهي طريقة التّوحيد والتّوجه إلى الله وحده في

العبادة والعمل والحكم وطلب الحاجات، فهذه الطّريقة هي الطّريقة الوحيدة لمن يريد راحة في الفكر والطّمأنينة في العمل، ووصولاً إلى الحقّ **(ولكنّ أكثرهم)** من النّاس **(لايعلمون)** فينهجون اتّجاهات متناقضة وأفكار متباينة لايجدون وراءها إلّا القلق في الفكر والتّعب في العمل والشّقاء في الدّنيا والآخرة.

سؤال: قد صرّح الله تعالى بأنّ هؤلاء لايعلمون، فمعناه أنّهم جاهلون، والجاهل معذور، فكيف يلومهم الله في الدّنيا ويعذّبهم في الآخرة؟

الجواب: أنّ معنى لا يعلمون لايسعون ولا يجتهدون للعلم والمعرفة والإطّلاع على الحقيقة، بالرّغم من أنّ الله تعالى جعل لهم الأدلّة الكونيّة في الآفاق وفي الأنفس، والنّقليّة من آيات القرآن ومعجزات الرّسل والّتي تدلّ على حقيقة الرّسالة، وأنّ التّوحيد هو الحقّ وأنّ الشّرك باطل. فأعرضوا عن هذه الآيات والدّلائل مقلّدين التّقاليد الباطلة والعبادات الفاسدة عناداً واستكباراً، فهم مسؤولون على عدم السّعي للوصول إلى العلم والحقّ لاعلى الجهل به كما أشار الله تعالى إلى ذلك في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿وكأيّن من آية في السّموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون﴾ سورة يوسف/الآية ١٠٥. وقد اتّفق العلماء على أنّ أوّل واجب على المرء هو النّظر والفكر والسّعي للوصول إلى معرفة الله ووحدانيّته تعالى.

* * *

ثمّ بعد هذه المناقشة الشّديدة وذكر هذه الأمثلة القويّة والدّلائل المثبتة، وإصرار الجاهلين على الكفر والتّعنت والعناد، يسلّي الله تعالى رسوله وينذر أعداءه فيقول جلّ وعلا:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾

(إنّك ميّت) أي تموت وتلتحق بالرّفيق الأعلى وتستريح من إيذاء ومناقشة هؤلاء الأشرار **(وإنّهم ميّتون)** فيتركون هذه الدّنيا الّتي يسعون لها ويفتخرون بها، ويتّخذون طريق الضّلالة للبقاء على مكاسبها وفوائدها، إلّا أنّه ليس لأنّه لا يوجد بعد الموت شيء بل **(ثمّ إنّكم يوم القيامة)** أي يوم قيام النّاس من قبورهم وإحيائهم مرّة أخرى **(عند ربّكم تختصمون)** أي تتحاكمون عند الله.

ثمّ يبيّن الله تعالى نتيجة المخاصمة وعاقبتها فقال جلّ وعلا:

﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(فمن أظلم) وأولى بالعذاب **(ممّن كذب على الله)** فنسب إليه الشّريك والولد **(وكذّب بالصّدق)** والحقّ ودين الله وتوحيده **(إذ جاءه)** بواسطة الرّسل فلا يوجد أحد أظلم من مثل هؤلاء فإنّهم كافرون **(أليس في جهنّم مثوىً)** منزل **(للكافرين)** من هؤلاء وغيرهم؟ والاستفهام للتّقرير، فالمعنى لهم مثوىً في جهنّم وتنكير المثوى للتّعظيم والتّهويل أي مثوىً عظيم مهول **(والّذي جاء بالصّدق)** والحقّ وهو دين الله وتوحيده من الأنبياء والمرسلين والدّعاة إلى الله وإلإسلام **(وصدّق به أولئك هم المتّقون)** أي الّذين أتّقوا الباطل والكفر والإشراك بالله تعالى، وارتكاب مانهى الله عنه **(لهم)** أي لهؤلاء المتّقين **(ما يشاءون)** ويختارون من النّعم واللّذائذ **(عند ربهم)** في الجنّة **(ذلك)** النّعم والتّكريم هو **(جزاء المحسنين)** أي الّذين أحسنوا عقائدهم وأقوالهم وفعلوا ذلك الإحسان **(ليكفّر الله)** أي ليغفر الله تعالى **(عنهم أسوأ الّذي عملوا)** من أعمال الشّر قبل الإيمان وفي حال الكفر، وقبل التّوبة في حال الفسق والجهل. فتشمل الآية الكافر الّذي أسلم وأحسن والفاسق الّذي تاب وأحسن جميعاً، ويجزيهم علاوةً على المغفرة **(أجرهم)** أجر إحسانهم **(بأحسن)** من العمل **(الّذي كانوا يعملون)** في الدّنيا، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم.

تنبيه: ليس التّخاصم يوم القيامة بين أهل الباطل وأهل الحقّ فقط، بل إنّ التّخاصم عامّ في جميع المظالم، حيث روى أبو هريرة أنّ رسول الله (ﷺ) قال: قال أتدرون ما المفلس؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال إنّ المفلس من أمّتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل

أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثمّ طرح في النّار قال القرطبيّ: أخرجه مسلم[١]. وقال القرطبيّ في موضع آخر: وفي البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) قال: (من كانت له مظلمة لأحد من عرضه أو شيء فليتحلّله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه)[٢].

ثمّ زاد تعالى من تسلية الرّسول (ﷺ) وأنذر أعداءه بعذاب الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾

(**أليس الله بكاف عبده**) فيحفظه من شرّ أعدائه وينتقم من الّذين يريدون به السّوء، ثمّ ذكر تعالى سخافتهم في العقل فقال: (**ويخوّفونك**) أيّها النّبيّ (**بالّذين من دون**) أي من دون الله من الأصنام والأوثان، ومن ذلك قولهم لرسول الله (ﷺ) أتسبّ آلهتنا؟ لئن لم تكف عن ذكرها لتخبلنّك أو تصيبنّك بسوء، وأيضاً كانوا يخوّفونه بكثرة جمعهم وقوّتهم، ومن ذلك قولهم الّذي حكاه الله عنهم: بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ القمر:٤٤، فهذه سخافتهم وضلالهم (**ومن يضلل الله فماله من هاد**) تقدّم تفسيره (**ومن يهد الله فما له من مضلّ**) تقدّم أيضاً. ثمّ هدّدهم الله تعالى فقال: (**أليس الله بعزيز**) غالب مقتدر على قهر الظّالمين والكافرين (**ذي انتقام**) ممّن يكذّب رسوله وينحرف عن دينه وشريعته؟ بلى إنّه غالب عليهم وينتقم منهم.

ثمّ برهن على سخافتهم في العقل وضلالهم في التّفكير بأنّهم يعترفون بأنّ الله خالق الكون كلّه من السّماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، ومع ذلك يعتقدون أنّ غير الله من أصنامهم يملكون النّفع والضرّ فقال جلّ وعلا:

---

(١) صحيح مسلم ج٤/ص ١٩٩٧ الحديث رقم٢٥٨١.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٨٢٥ الحديث رقم٢٣١٧.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾

(ولئن سألتهم) أيّها النّبيّ ويا كلّ موحّد وقلت لهم **(من خلق السّماوات والأرض ليقولنّ الله)** ويصرون بأنّه الخالق هو الله لا غيره، ومع ذلك يخوّفونك بغيره من آلهتهم، أليس هذا ضلالاً مبيناً؟ **(قل)** لهم بعدما اعترفوا هذا الاعتراف **(أرأيتم)** أبعد أن تقرّوا بأنّ الخالق هو الله اعتقدتم بأنّ **(ما تدعون من دون الله)** ينفع أو يضرّ وإنّه **(إن أرادني الله بضرّ هل هنّ كاشفات ضرّه)** بأن اعتقدتم ذلك، فهو خلاف ما تعترفون من أنّ الخالق هو الله تعالى ويقرأ **(كاشفاتٌ)** بالتّنوين وضرّه بالنّصب على أنّه مفعوله، أو يقرأ **(كاشفاتِ)** دون تنوين و **(ضرّه)** بالجرّ على أنّه كاشفات مضاف إليه، وكذلك في ممسكات رحمته في قوله: **(أو أرادني برحمته)** أي بنعمة **(هل هنّ)** تلك الأصنام **(ممسكات)** مانعات **(رحمته)** نعمته؟ والاستفهام هنا وفي **(هل هنّ كاشفات ضرّه)** للإنكار، فالمعنى لا تستطيع تلك الآلهة من الأصنام والأوثان والأشخاص دفع ضرّ ولا جلب نصر ولا عكس ذلك، فإذا كان الواقع والحقّ أنّ النّفع والضرّ كلّه بيد الله تعالى لا يستطيع ذلك أحد غيره **(قل حسبي الله)** أي يكفيني الله تعالى للحفظ من السّوء وللوصول الى الخير والنّعمة **(عليه)** على الله وحده لا على شيء سواه **(يتوكّل المتوكّلون)** الحقيقيّون والّذين بلغوا حقيقة التّوحيد وكمال الإيمان بالله والتّوكّل عليه.

تنبيه: ليس معنى التّوكل ترك الأسباب وعدم الكسب وعدم الخوف من غيره وعدم الطّمع فيه، بل يعنى التّوكّل هو الأخذ بالأسباب والخوف من ضرّه بالآخرة والطّمع في نفع الصّديق، إلّا أنّك تعتقد بأنّ هذه الأسباب وغيرها لا تضرّ ولا تنفع ولا تؤثّر إلّا

بإرادة الله تعالى، وإنّ هذه الأسباب هي من إرادة الله تعالى أيضاً، لأنّه سبب الأسباب وخالقها، فإذا أراد شيئاً هيأ أسبابه، وإذا لم يرد شيئاً لم يهيّئها وإنّه يستطيع أن يضرّ وينفع بدون سبب، وإنّه يستطيع أن لا يضرّ أو لا ينفع وإن اجتمعت كلّ الأسباب. قال القرطبيّ (ﷺ): قال سهل التّستري (ﷺ): من قال إنّ التّوكّل هو ترك الأسباب والعمل فقد طعن في سنّة رسول الله (ﷺ) لأنّ الرّسول (ﷺ) كان يعدّ العدّة ويهيّيء القّوة، ولأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾ سورة الأنفال الآية/ ٦٠. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ سورة الملك الآية/ ١٥. فهنا أمر بالكسب، إلى غير ذلك من الآيات الّتى تأمر بإعداد الأسباب للجهاد وبالعمل لتحصيل الرّزق، وهذا قول عامّة الفقهاء، وإنّ التّوكّل على الله تعالى هو الثّقة بالله والإيقان بأنّ قضاءه ماض مع اتّباع سنّة نبيّه (ﷺ) في السّعي فيما لابدّ له من الأسباب من مطعم ومشرب وتحرّز من عدوّ وأعداد الأسلحة واستعمال سنّة الله تعالى المعتادة. وإلى هذا ذهب محقّقوا الصّوفيّة أيضاً إلا أنّهم قالوا لايستحقّ اسم المتوكّل مع الطّمأنينة إلى تلك الأسباب والإلتفات إليها بالقلوب، فإنّ الأسباب لا تجلب بذاتها نفعا ولا تدفع ضرّا، بل السّبب والمسبّب كلّه من الله تعالى، ومتى وقع من المتوكّل ركون إلى تلك الأسباب فقد إنسلخ عن اسم المتوكّل، ثمّ قال المحقّقون إنّ التّوكّل على حالين:

الأوّل: حال المتمكّن في التّوكّل فلا يلتفت إلى شيء من الأسباب بقلبه ولا يستعمل الأسباب إلّا امتثالاً للأمر.

الثّاني: حال غير المتمكّن وهو الّذي يقع له الإلتفات إلى تلك الأسباب أحيانا، غير أنّه يدفعها عن نفسه بالطّرق العلميّة والبراهين القطعيّة والأذواق الحاليّة، فلا يزال كذلك إلى أن يرقّيه الله تعالى بفضله إلى حال التّمكّن، انتهى مافي القرطبيّ مع تبديل من زيادة ونقصان لعبارته.

أقول: والحاصل أنّ التّوكّل هو الاعتماد في خلق المسبّب بعد الأسباب على الله تعالى وعقيدة أنّ السّبب لا يؤثّر ما لم يخلق الله تعالى التّأثير، بل أنّ خلق السّبب والمسبّب بعده كلّه بيد الله تعالى؛ فكلّ شيء يرجع إليه وإليه المرجع والمآب.

* * *

(قل يا قوم اعملوا) أنتم **(على مكانتكم)**على منهجكم وبقدر ما تقدرون وتستطيعون **(إنّي عامل)** أي وإنّي عامل على منهجي واستطاعتي فسوف تعلمون نتيجة هذا الصّراع وأنّه **(من يأتيه عذاب)** شديد **(يخزيه)** يخذله ويهينه في الدّنيا **(ويحلّ)** وينزل **(عليه عذاب مقيم)** ثابت لا يزول. ثمّ نبّه الله تعالى رسوله (ﷺ) بأنّ من وظيفته الإنذار والتّبشير والتّبليغ فقط، وإنّه ليس عليه أن يهدي النّاس أوّلا، وإنّ فائدة الإهتداء وخلاصه من الضّلال يعودان على صاحبهما ولا يضرّه ذلك شيء، وأخبره بذلك لكي لا يحزن ولا يغتم عند إصرار النّاس على الكفر وعدم الإيمان فقال: **(إنّا أنزلنا عليك الكتاب)** وهو القرآن **(للنّاس)** لأجل هداية النّاس **(بالحقّ)** أي مصاحب ذلك الكتاب للحقّ فكلّ مافيه حقّ **(فمن اهتدى)** بالقرآن واقتدي به **(فإنّما يهتدي لنفسه)** وإنّ منفعة الهداية تعود إليه لا إلى غيره **(ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها)** أي ومضرّة الضّلالة لا تلحق إلّا بالضّال لنفسه **(وماأنت عليهم بوكيل)** أي ليس هدايتهم في قدرتك ولاموكولة إليك بل إنّما هي بيد الله وموكولة إلى اختيارهم، فإذا اختاروها خلقها الله لهم وإلّا فلا، فلا تحزن عليهم إن ضلّوا فإنّ ذلك لايضرّك شيئاً، فإنّ من واجبك التّبليغ فقط وقد قمت به.

ثمّ أراد الله تعالى أن يمثّل المعقول بالمحسوس فشبّه الهداية بالحياة والضّلال بالموت، وكذلك شبّه الهداية باليقظة والضّلال بالنّوم، فكما أنّ الحياة والموت واليقظة والنّوم ليس إلّا بقدرة الله تعالى، فكذلك الهداية والضّلال، فلا يستطيع أحد أن يوجدهما لأحد إلّا بإرادة الله تعالى، ولذا قال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

(الله) تعالى وحده **(يتوفّى)** يأخذ **(الأنفس)** الأرواح بأن يأمر الملائكة بقبضها فيأخذونها **(حين موتها)** أي حينما جاء وقت موتها وانقطاع علاقتها بالبدن **(والّتي)** وتقبض الرّوح الّتي **(لم تمت)** أي لم يأت وقت موتها، بل إنّما جاء وقت نومها فيقبضها **(في منامها)** وقت منامها **(فيمسك)** الرّوح **(الّتي قضى عليها الموت)** فلا يرسلها لترجع إلى البدن **(ويرسل)** الرّوح الأخرى الّتي جاء وقت نومها فقط دون وقت موتها. قال الإمام الرّازي (رحمه الله): إنّ النّفس الإنسانيّه عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق

بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء وهو الحياة، فنقول: إنّه في وقت الموت ينقطع تعلّقه عن ظاهر البدن وباطنه، وأمّا في وقت النّوم فإنّه ينقطع تعلقه عن ظاهره من بعض الوجوه ولا ينقطع عن باطنه. فإذا كانت علاقة الله تعالى بالعبد هكذا وإنّه بيده قبض الرّوح وإرسالها، فكذلك بيده هدايته جبراً أو ضلاله جبراً، إلّا أنّه لا يجبر المرء على الهداية ولا الضّلال، بل إذا اختار العبد الهداية خلقها له، وإذا اختار الضّلال جعله له، فإذا كان هذه سنّة الله تعالى وإنّه لا يجبر أحداً على الهداية فلا تستطيع أنت أيّها النّبيّ أو الداعيّة إجبار أحد على ذلك؛ حيث لم يجعل الله تعالى ذلك في وسعك، وكذلك إذا كان الموت والحياة والنّوم واليقظة وكلّ أحوال الإنسان بيد الله تعالى فهو الحقيق بالعبادة لا غيره **(إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون)** صحيح التّفكر فيتركون عبادة غير الله تعالى ويتوجّهون إليه بالكليّة ويكلون كلّ أمورهم إليه فحسب، لا إلى غيره ممّن اتّخذوه شفعاء؛ ولذا قال جلّ وعلا:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

(أم اتّخذوا من دون الله شفعاء)؟ الاستفهام للتّوضيح والتّضليل. فالمعنى فعلوا فعلًا باطلاً وارتكبوا ضلالًا حينما اتّخذوا من دون الله آلهة، ويقولون هؤلاء شفعاؤنا إلى الله تعالى. وذلك أنّ بعضهم كانوا يعبدون الملائكة، ولعدم رؤية الملائكة ووصولهم إليهم اتّخذوا وصنعوا للملائكة تماثيل فعبدوها وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا، وبعضهم كان فيهم رجال صالحون فماتوا فاتّخذوا لهم تماثيل فعبدوها وقالوا: هؤلاء شفعاؤنا، وهنا ضلالهم لأنّهم إن أرادوا أنّ التّماثيل شفعاء فهو ضلال واضح، لأنّ التّماثيل جمادات لا عقل ولا حياة لتشفع، وإن أرادوا أنّ الملائكة أو الرّجال الصّالحون يشفعون لهم، فهذا ضلال أيضاً حيث لا يستطيع أحد أن يشفع لا من الملائكة ولا من الأنبياء والرّسل ولا من الرّجال الصّالحين إلّا بإذن الله تعالى، والله تعالى لا يأذن أحداً في الشّفاعة لمن عبد غيره؛ حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء الاية/ ٤٨، وقال تعالى في

موضوع الشّفاعة: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ سورة طه الآية/ ١٠٩، والله لا يأذن في الشّفاعة للمشرك حيث لم يرض من قوله في الإشراك، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ سورة النبأ الآية/ ٣٨. إلى غير ذلك من الآيات الّتي تخبر بأنّ الشّفاعة لا يكون إلّا بإذن الله تعالى، ولذا قال تعالى: **(قل)** لهم فيما يقولون: هؤلاء شفعاؤنا **(أولو كانوا)** أي الملائكة والصّالحون **(لا يملكون شيئاً)** للشّفاعة إلّا بإذن الله تعالى **(ولا يعقلون)** وهم أصنام إن إرادوا أنّهم شفعاء، فعلى كلّ التّقديرات إنّ الشّفاعة بيد الله تعالى وكما قال: **(قل)** لهم **(لله الشّفاعة جميعاً)** وبيده فلا يستطيع أحد أن يشفع إلّا بإذنه، وهو لا يأذن الشّفاعة لكلّ مشرك وكافر كما سبق **(له ملك السّماوات والأرض)** وهذا أيضاً في قوّة الدّليل على أنّه الحقيق بالعبادة لا غيره، وإنّ الشّفاعة بيده لا بيد غيره، حيث من يكون الكون ملكه فمن الّذي يليق بالعبادة وبيده الشّفاعة لا أحد سواه **(ثمّ إليه ترجعون)** فينتقم منكم على هذه العقائد الباطلة واتّخاد الآلهة والشّفعاء بالباطل. ثمّ ذكر الله تعالى أنّه بلغ بهم الضّلال إلى حدّ أصبحوا يكرهون ذكر الله تعالى إلّا إذا ذكرت أصنامهم معهم، فقال جلّ وعلا: **(وإذا ذكر الله وحده)** دون أصنامهم **(اشمأزت)** نفرت وكرهت **(قلوبهم)** الخبيثة بالإشراك **(وإذا ذكر الّذين من دونه)** أي من دون الله سواء مع ذكر الله أو بدون ذكر الله **(إذا هم يستبشرون)** يفرحون. وفي هذه الآية دليل على أنّه لا يجوز ذكر أحد مع الله بأن يقال بقدرة الله تعالى وهمّة فلان حصل كذا وكذا، وإنّ ذلك شرك إلّا أن يريد بقدرة الله تعالى ودعاء فلان، أي أراد بالهمّة الدّعاء والتّذلّل إلى الله، ولكن مع ذلك يجب أن يمنع العوام من ذلك لأنّهم لا يعرفون هذا التّأويل، وكذا إذا قال بهمّة فلان دون ذكر الله تعالى، حيث لا مدد ولا همّة لأحد غير الله تعالى، وليس في يد العبد إلّا الأخذ بالأسباب المادّيّة والدّعاء، والله مخيّر في إنجاح السّبب أو لا، واستجابة الدّعاء أو لا.

ثمّ إراد الله تعالى أن يخفّف من حرص الرّسول (ﷺ) على إيمانهم ويهدّئ شيئاً من أعصابه لكفرهم؛ فأمره أن يفوّض أمرهم إليه تعالى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾

(قل اللّهم فاطر السّماوات والأرض) أي موجدها من العدم، بيدك الأمور وليس في قدرتنا شيء **(عالم الغيب والشّهادة)** فتعلم أنّا قد بلّغنا وبشّرنا وأنذرنا ولم نأل في ذلك جهداً **(أنت تحكم بين عبادك)** المؤمنين والكافرين وتجزي كلّ واحد بما يستحقّه **(في ما كانوا فيه يختلفون)** من بطلان الشّرك وصحّة التّوحيد وما هو ضلال وهداية.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن حال الكافرين يوم أن حكم تعالى بين عباده فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾

(ولو أنّ للّذين ظلموا) أي خرجوا وتجاوزوا عن حدود الله وانحرفوا عن شريعته بسبب الكفر أو الشّرك أو المعاصي، لو أنّ لهم **(ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به)** ليتخلّصوا **(من سوء العذاب)** أي من العذاب السّيّئ أي الشّديد الّذي يصيبهم **(يوم القيامة وبدا لهم)** أي ويوم بدا لهم أي تبيّن لهم **(من الله)** تعالى مقته وغضبه عليهم **(ما)** نوعاً ومقداراً لم يكونوا في الدّنيا **(يحتسبون)** يظنّونه ويؤمنون به مع كثرة التّبليغ والإنذار من الرّسل والدّعاة ووجود الدّلائل على ذلك **(وبدأ)** وتبيّن **(لهم سيّئات)** جزاء سيّئات **(ما كسبوا)** من الأعمال السّيّئة **(وحاق بهم)** أحاط بهم (ما) جزاء ما **(كانوا)** في الدّنيا **(به يستهزئون)** من العقائد والسّنن والآداب والواجبات في الإسلام.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الإنسان من كفرانه نعمة الله تعالى وعدم شكره له، فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

(**فإذا مسّ الإنسان ضرٌّ**) من المال أو الأنفس أو الثّمرات (**دعانا**) وتضرّع إلينا لرفع (**ثمّ إذا خولناه**) ملكناه (**نعمةً منّا قال إنّما أوتيته على علم**) إنّما حصلته بعلم تعلّمته، ونسي الله تعالى ودعاءه إيّاه، أنّه وهبه القوّة وهذه النّعمة والعلم الّذي كسبه وحصل منه نعمته هذه أو غيرها (**بل هي**) أي هذه النّعمة (**فتنة**) إمتحان من الله تعالى، هل يشكر الله تعالى عليها أم لا (**ولكنّ أكثرهم**) أي أكثر النّاس (**لا يعلمون**) هذا الإمتحان فلا ينجحون منه حيث، لا يشكرون الله المنعم بهذه النّعم عليهم (**قد قالها**) أي هذه الكلمة أي (إنّما أوتيته على علم) الّذي سبق تفسيره[1] (**الّذين من قبلهم**) مثل قارون وغيره (**فما أغنى**) فما دفع العذاب والمعصية (**عنهم ما كانوا يكسبون**) من المال أو القوّة أو الجاه فأصابهم (**سيّئات ماكسبوا**) عاقبة من الغرور والاستكبار وعدم شكر الله تعالى على نعمته (**والّذين ظلموا**) فلم يشكروا نعمة الله (**من هؤلاء**) القوم الموجودين والّذين يقولون هذه الكلمة ولا يشكرون الله تعالى (**سيصيبهم**) مثل الّذين من قبلهم جزاء (**سيّئات ما كسبوا وما هم بمعجزين**) الله تعالى عن أن ينتقم منهم ويعذّب (**أو لم يعلموا**) أي أولم يتفكّروا فيعلموا (**أنّ الله يبسط**) يوسع (**الرّزق لمن يشاء**) أن يوسع له (**ويقدر**) ويضيّق الرّزق على من يشاء أن يضيّق عليه (**إنّ في ذلك**) أي في سعة رزق البعض وضيقه على بعض (**لآيات**) لدلائل على أنّ الرّزق والنّعم من المال والقوّة والجاه كلّها بيد الله تعالى، ولكنّ هذه الدّلائل لا تنفع إلّا (**لقوم يؤمنون**) يحبّون الإيمان بالحقائق ويسعون له، فإنّه من لايحبّ شيئاً لا يسعى له، فلا يجده ذلك تقدير العزيز العليم. وكيفيّة دلالة سعة الرّزق لبعض وضيقه على بعض على أنّ كلّ شيء بيد الله تعالى، هي أنّه حينما ينظر الإنسان ويرى أنّ بعض النّاس أقوياء وهم فقراء، وبعضهم ضعفاء وهم أغنياء، وأنّ الإنسانين يعملان عملاً واحداً وواحد بجنب الآخر، فيوفق أحدهما ويخسر الآخر، ويرى عاقلاً فقيراً وجاهلاً غنيّاً، فإذا تفكّر هذا التّفكير يعلم أنّ الرّزق بيد الله تعالى يوسّع لمن يشاء ويضيّق على من يشاء.

حكاية: يحكى أنّ أحد العلماء أشكل عليه مسألة علميّة، فكان يمشي في الطّريق ويتفكّر في إشكاله فمرّ أمام الحمّام، فناداه صانع بالحمّام وقال له: ما الّذي أشكل عليك يا شيخ؟ فقال: يا أخي ماذا تريد من إشكالي؟ أنت ذو شغل وأنا لي شغل آخر ولا

(١) أي بعلم تعلمته ونسي الله تعالى ودعاءه منه وأنه تعالى وهبه ما وهبه من العلم وغيره...

مناسبة بيني وبينك. فقال الصّانع: يا شيخ وماذا تخسر إن عرضت عليّ إشكالك؟ فإن حللته لك فبه ونعم، وإلّا فما خسرت شيئاً، فانزوى إليه الشّيخ وعرض عليه إشكاله فحلّ وحلّ له إشكالات أخرى كثيرة بعدها، فلمّا رآه الشيخ بهذا العلم الوفير قال له: أنت الّذي عندك هذا العلم كيف تشتغل هنا؟ ولم لا تفتح لك مدرسة وتظهر نفسك للنّاس وتنفعهم؟ فقال الصّانع: هذه قسمتي وهذا ما كتبه الله لي، فناقشه الشّيخ في هذا الموضوع، فقال الصّانع: فلنجرّب، فكتب رقعة وقال للشيخ وهبتك هذه الرّقعة فأرسل بها إلى السّوق وبعها لنفسك، فأرسلها الشّيخ فتزاحم عليها النّاس وتزايدوا عليه إلى أن بيع بمائة دينار، ووصّى الجماعة كلّهم صاحب الرّقعة أن يأتي لهم بنسخة من نوعها وله ماشاء من الثّمن. فرجع الشّيخ فكتب الصّانع له رقعة أجمل من ذي قبل، وقال: بع هذه لي، فأرسلها الشّيخ إلى السّوق فلم يُردها أحد بالرّغم من طلبهم اللّحوح عليها من قبلُ وتوصيتهم بالإتيان بها. فاضطرّ إلى أن يبيعها بثمن بخس، فلمّا رجع إلى الصّانع قال: يا شيخ ألم أقل لك هذه قسمتي. ثمّ في نفس اليوم ذهب إلى الملك وجلس عنده، فرأى صائغاً أتى له بخاتم صنعه للملك فلبسه الملك وجعل فصّه في باطن الكف فقال للصّانع: إنّ الخاتم جميل جدّاً إلّا إنّ فيه عيباً، فقال الصّائغ: وما العيب يا أيّها الملك؟ قال الملك: إنّ فصّه من الأسفل، قال الصّائغ: أيّها الملك أنا أستطيع أن أصلّح هذا العيب وهو في يدك، فتعجّب الملك وقال: كيف؟ فأتى الصّائغ وحرّك الخاتم شيئاً فشيئاً إلى أن صار الفصّ فوق الأصبع[1]، فقال الملك: هذا صائغ لا يوجد مثله أعطوه مائة دينار مكافأة وجائزة. فلمّا رأى الشّيخ أنّ هذا الجاهل ملك وفي هذه السّعة من الرّزق وهذا العالم يضيق عليه رزقه إلى أن صار صانعاً في الحمّام أنشد وقال[2]:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه … وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الّذي ترك الأوهام حائرةً … وصيّر العالم النّحرير زنديقا

---

(١) أي أدار الخاتم حتى جعل الفص متجها إلى فوق. فهو دليل على غباء الملك.

(٢) شرح لامية ابن الوردي ١/ ٩٥. و في غرر الخصائص الواضحة ١/ ٧٠ نسب مثل هذا إلى نصر بن أحمد المعروف بالخبزأرزي قوله:

سبحان من قدّر الأشياء منزلها... وصير الناس مرفوضاً ومرموقا

فعاقل فطن أعيت مذاهبه... وأحمق جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الأوهام حائرة... وصير العالم النحرير زنديقا

ويقال إنّه ارتدّ وبقي في الرّدة زماناً ثمّ تاب، ولكنّ هذا القول بأنّه ارتد يردّه قوله قبل البيتين:

سبحان من جعل الأشياء موضعها وفرّق العزّ والإذلال تفريقاً

فكان الحقّ أن يقول: وصيّر العالم النحرير صدّيقاً، لأنّ هذه الواقعة تدلّ على أنّ الرّزق بيد الله ومدار حصوله على كرم الله وتوفيقه، لا على العلم أو العقل أو الأسباب، فبذلك يصير المتفكّر صدّيقاً لا زنديقاً.

* * *

ثمّ بعد ذكر الله تعالى حال المشركين وعقائدهم وذكر عاقبتهم وعذابهم أراد أن يوجه موعظةً إلى النّاس جميعاً ليتّعظوا ويمتثلوا ليفتح باب رحمته لهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ ويا كلّ واعظ وداع إلى الله، إنّ الله تعالى فتح باب رحمته لكم فقال: **(يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم)** بالكفر أو الأشراك أو الإلحاد أو

الفسق أو المعاصي **(لاتقنطوا)** لا تأيسوا بسبب أعمالكم هذه **(من رحمة الله)** حيث **(إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً)** فيغفر عن الكفر يالإيمان، فإنّ الإسلام يجبّ ما قبله، وعن الإشراك بالتّوبة والتّوحيد، وعن الفسق والمعاصي بالتّوبة، فلا تحملّنكم الأعمال السّيئة على اليأس من رحمته فلا تؤمنوا أولا تتوبوا، فإنّ بعض الكافرين حينما سمعوا آيات الوعيد قالوا: إنّا قد عملنا كلّ معصية فهل لنا توبة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآيات **(إنّه)** أي الله تعالى **(الغفور)** لمن آمن ورجع عن الكفر ووحّد راجعاً عن الإشراك وأصلح وتاب عن المعاصي **(الرّحيم)** أي إنّ مغفرته ناشئة عن رحمته، فيغفر لرحمته بالنّاس لا لحاجته إليهم أو لأمر آخر، فإنّه غنيّ عن كلّ شيء. هذا وحيث إنّ الإنسان حينما سمع برحمة الله تعالى هذه، وإنّ مغفرته واسعة، وإنّه وعد بأن يغفر لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، ربّما يحمله هذا الوعد والبشارة على أن يخوض في الشّهوات والمناهي بقصد أنّه سيتوب فيما بعد؛ فيغفر الله تعالى له وينال لذّة الدّنيا والآخرة جميعاً، فنبّه الله تعالى على أنّ هذا خطأ، حيث إنّه ليس كلّ عاص يوفّق للتّوبة، أو إنّه لا يمهله الأجل ليتوب، أو يأتيه الموت بغتةً وقبل أن يتوب، فقال جلّ وعلا: **(وأنيبوا)** أي وارجعوا **(الى ربّكم)** بالإيمان والتّوبة **(وأسلموا)** وأنقادوا له ولاتّباع شريعته، واستعجلوا بذلك **(من قبل أن يأتيكم العذاب)** أي عذاب الدّنيا فتفوتكم فرصة التّوبة والإنابة، فإنّ العذاب إذا جاء لايردّ **(ثمّ)** بعد مجيء العذاب **(لا تنصرون)** من قبل أحد، لأنّه لا يستطيع أحد أن يردّ عذاب الله، وإنّ الله لا يرفع العذاب حينما جاء وحقّ على العباد **(وأبتغوا أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم)** وهو القرآن، فيفيد هذا أنّ القرآن أحسن الكتب السّماوية الّتى أنزلت على الأنبياء، وبذلك يكون الإسلام أحسن الأديان، ونبيّه أفضل الأنبياء، وأمته خير أمّة أخرجت للنّاس، وذلك كلّه من حيث بعض الفروع لا الأصول، وكلّ الفروع فإنّ أصول الأديان والفروع المهمة واحدة في جميع الأديان والأزمان، واستعجلوا باتّباع هدي القرآن **(من قبل أن يأتيكم العذاب)** أي عذاب الآخرة بالموت **(بغتةً)** أي فجأةً **(وأنتم لا تشعرون)** حيث جاء بدون مقدّمات فتفوتكم فرصة الإتّباع والإيمان، **(أن تقول)** قال بعض المفسرين أيّ كراهة **(أن تقول)** وقال البعض لئلّا **(أن تقول)** وقال البعض حذّر من **(أن لا تقول)** وقيل إنّه عطف على **(أن يأتيكم)** حذف العطف فالتّقدير من قبل **(أن تقول)** وهذا هو الأصحّ لأنّ الحذف كلّما قلّ كان أحسن، وقد جاء تعدّد العطف بدون عاطف كتّعدد الخبر أو الصّفة مثلاً بدون عاطف **(نفسٌ)** التّنوين عوض عن المضاف إليه أي نفس المفرّط بقرينة **(يا حسرتا على ما فرّطت)** أي قصّرت **(في جنب**

الله) أي في جانب الله أي في حقّه واتّباع شريعته، قال القرطبيّ [رحمه الله تعالى]: قال إبراهيم التّيمي: من الحسرات يوم القيامة أن يرى الإنسان ماله الّذي آتاه الله تعالى يوم القيامة في ميزان غيره الّذي ورثه عنه وعمل فيه الخيرات، فكان له أجره وعلى الموروث وزره. ومن الحسرات أن يرى الرّجل خادمه أقرب إلى الله منه منزلةً يوم القيامة، أو يرى رجلاً أعمى في الدّنيا قد أبصر يوم القيامة وهو عمي فيه **(وإن كنت)** أي وقد كنت في الدّنيا **(لمن السّاخرين)** أي الّذي كانوا يسخرون بالدّين ونظام الله تعالى **(أو تقول)** هذه النّفس يوم أن تلقى العذاب **(لو أنّ الله هداني)** أي أوصلني إلى الطّريق الحقّ جبرا **(لكنت من المتّقين)** عن الكفر أو المعاصي وليس لها ذلك، فإنّ الله لا يهدي أحداً جبراً وإنّما يبيّن له طريق الخير والشّر وعاقبتهما، ووهبه العقل والاختيار والقدرة على اختيار أي طريق شاء، ثمّ سهّل له ما شاء من الطّريقين كما قال: ﴿ومن يرد ثواب الدّنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشّاكرين﴾ سورة آل عمران الآية/ ١٤٥. **(أو تقول)** هذه النّفس من الحسرة **(حين ترى العذاب لو)** أي أتمنّى **(أنّ لي كرّةً)** رجعةً لي إلى الدّنيا **(فأكون)** في هذه الكرّة **(من المتّقين)** ولا يستجاب له هذا الطّلب والتّمني بل يقال له توبيخاً وتقريعاً **(بلى)** لفظ بلى بات لتصديق النّفس ولم يسبقه هنا نفيٌ لفظاً إلّا أنّه يفهم من قول المفرّط **(لو أنّ لي كرة)** إنّه لم يعلم بهذه العاقبة وهذه النتيجة وإلّا لما خاض فيه، ولئن ردّ لعكس العمل وحسن سيرته حيث اطّلع على الحقّ فيقال له: بلى قد علمت الخير والشرّ والحقّ والباطل حيث **(قد جاءتك آياتي)** الّتي كانت لا تدع شكّاً ولا ريباً في حقيقة ما يدعو إليه الرّسل، إلّا أنّك لم تؤمن ولم تتّبع الرّسل بل عاندت **(واستكبرت وكنت من الكافرين)** بما جاء به الرّسل وما اتّضح لك من الحقّ عناداً واستكباراً وحفظاً على المصالح أو مشياً وراء التّقاليد أو غير ذلك من أسباب الانحراف عن الحقّ والبقاء على الضّلال. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن العذاب الّذي تراه النّفس المفرّطة وتتيقّنه فتقول هذه الأقوال وتتمنّى هذا التّمني فقال: **(يوم القيامة ترى)** أيّها المخاطب ويا كلّ من له رؤية ترى **(الّذين كذبوا على الله)** كنسبة الولد أو الشّرك إليه أو إباحة ما حرّمه الله أو بالعكس، أو رأى أنّ حكمه غير صالح لهذا الوقت أو هذا الزّمان أو مطلقاً، وإنّ غيره أصلح، فهؤلاء كلّهم تراهم **(وجوههم مسودّةٌ)** ممّا يحيط بهم من دخان جهنّم ويقال لهم تهكّماً، وحينما هم في جهنّم **(أليس في جهنّم مثوى)** منزل معدّ **(للمتكبّرين)** أي المعرضين عن الإيمان والعمل بالقرآن تكبّراً وعناداً. ثمّ يشير تعالى إلى أنّ المؤمنين محفوظون من جهنّم ومن كلّ

عذاب فقال: **(وينجّي الله الّذين اتّقوا)** من الكفر والمعاصي باتّباع القرآن وشريعة الله تعالى فينجّيهم الله تعالى **(بمفازتهم)** أي بفوزهم بالإيمان والتّوحيد **(لا يمسّهم سوء)** أي عذاب لا في الحشر ولا في جهنّم **(ولا هم يحزنون)** يوم القيامة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يوضّح بطلان الشّرك وسخافة عقل أصحابه، فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(الله خالق كلّ شيء) فكلّ شيء بخلقه وإرادته تقضي بأن لا يستطيع غيره أن يخلق شيئاً من الإنس والجنّ والملك والحيوان والنّبات والسّماوات وما فيها، والأرض وما عليها، وما ينفع العباد أو يضرّهم، فكلّ ذلك يخلقه **(وهو على كلّ شيء)** من الموجودات **(وكيل)** يعود التّصرف فيه إليه، فمن كان هذا شأنه فهو الحقيق بالعبادة ولا يليق أن يشرك به أحد سواه، لا يستطيع خلق شيء أو إيصال نفع أو ضررٍ أبداً **(له مقاليد)** أي مفاتيح **(السّماوات والأرض)** فلا يفتح باب الخير لأحد ولا يغلق باب الشّر عنه في السّماوات والأرض إلّا هو **(والّذين كفروا بآيات الله)** هذه والّتي تخبر بأنّ كلّ شيء بيد الله **(أولئك هم الخاسرون)** الّذين يخسرون النّعيم في الآخرة والسّعادة فيها ولا خسرة أكبر من هذه الخسارة **(قل أفغير الله)** أي أفبعد أن أعلمناكم بأنّ كلّ شيء بيد الله تعالى ولا يستطيع الخلق أو النّفع أو الضّر سواه **(تأمرونّي)** أصله تأمرونني فأدغم النّون في النّون فصار مشدّداً، أو حذف إحدى النّونين فصار تأمروني بدون تشديد والقراءتان واردتان **(أعبد)** أي تأمرونّي أعبد من دون الله تعالى **(أيّها الجاهلون)** وهم صناديد قريش قالوا لرسول الله (ﷺ) كيف تترك دين آبائك وأجدادك وطلبوا منه الرّجوع إلى دينهم، فأمره الله تعالى أن يجيبهم هذا الجواب، وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ كلّ من يعبد غير الله تعالى فهو جاهل في لغة الإسلام، وإنّ كان أعلم أهل الأرض

وفيلسوف الفلاسفة. ثمّ ذكر الله تعالى بأنّ كلّ عمل خيريّ صالح لا يفيد ولا يقبل إلّا إذا كان على أساس التّوحيد، وإنّ كلّ من أشرك فكلّ عمله هدر، وإن كانت أعماله كلّها صالحة ومفيدة للمجتمع والنّاس، فقال جلّ وعلا: **(لقد أوحينا إليك)** أيّها النّبيّ **(وإلى الّذين من قبلك)** من الأنبياء والمرسلين كلّهم وقلنا لك ولكلّ منهم **(لئن أشركت)** بالله شيئاً **(ليحبطنّ عملك)** كلّه **(ولتكوننّ من الخاسرين)** ثواب العمل، وهذا وإن كان أمراً وإخباراً للأنبياء إلّا أنّ المراد به غيرهم، لأنّهم لايتصوّر منهم الإشراك، فمآل معنى الآية: وأوحينا إليك وإلى الّذين من قبلك أن تبلّغوا كلّ واحد من أمّتكم وتقولوا له لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين **(بل الله)** وحده **(فاعبد)** فأطعه وتذلّل له ولا تطع غيره **(وكن من الشّاكرين)** لنعمته بتوحيدك له بالعبادة والطّاعة والدّعاء والتّوجه اليه والخوف والرّجاء منه. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ النّاس لم يعرفوا عظمة الله تعالى حقّ المعرفة وما أعطوه حقّه في العبادة والشّكر على النّعم فقال: **(وما قدروا الله حقّ قدره)** لأنّهم يعبدون معه غيره ويشكرون سواه مع أنّ عظمة الله تعالى تأبى أن يعبد غيره أو يشكر سواه، لأنّ عظمته بلغت إلى حدّ هو أنّ كلّ شيء مسخّر تحت قدرته **(والأرض جميعاً)** أي بجميع طبقاتها **(قبضته)** أي في قبضته **(يوم القيامة)** يقلّبها كيف يشاء وتخصيص هذا الكلام بيوم القيامة وإن كان كلّ وقت تكون الأرض تحت تصرّفه لأنّه في يوم القيامة يتّضح ذلك لكلّ أحد ولا ينكره أحد لا الكافر ولا المؤمن ولا المشرك ولا الملحد **(والسّماوات)** كلّها **(مطويّات بيمينه)** يفعل بها ما شاء من إزالتها، فمن له هذه القدرة **(سبحانه وتعالى)** تنزّه تنزيهاً تاماً **(عمّا يشركون)** أي من شركة ما يشركون مع الله تعالى، فإنّ هذا القادر لا يحتاج إلى شريك ولا يقبله وإنّما الشّريك يكون للعاجز وقليل القدرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر كيفيّة حدوث يوم القيامة وما يجري فيه ومصير النّاس في ذلك اليوم فقال جلّ وعلا:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(ونفخ في الصّور) أي ونفخ في الصّور أوّل ما يبدأ يوم القيامة إلّا أنّه عبّر عنه بالماضي لتحقّق وقوعه، فكأنّه أتى ووقع، وهذا الأسلوب في القرآن كثير، وحينما نفخ هذا النّفخ **(فصعق)** فمات كلّ **(من في السّماوات والأرض)** من الملائكة والجنّ والأنس **(إلّا من شاء الله)** أن لا يموت وهم الملائكة الّذين وكّل بهم أمر الحشر والنّشر والوزن والحساب وسوق أهل النّار إلى النّار وأهل الجنّة إلى الجنّة. وهذا النّفخ هي النّفخة الأولى الّتي يموت معها كلّ حيّ إلّا من شاء، وينهدم بها الكون وتنفطر السّماوات وتنتشر الكواكب وتتساقط **(ثمّ نفخ فيه)** أي في الصّور نفخة **(أخرى)** وهي النّفخة الثّانية الّتي يحيا بها الأموات كلّهم، ويقومون من قبورهم إلينا، إذ قال **(فإذا هم قيام)** من قبورهم **(ينظرون)** ماذا يفعل فيهم بعد ذلك، ثمّ ينفخ فيه أخرى يساقون بها إلى عرصة الحشر والحساب ووزن الأعمال، هذا وقد حقّقنا في تفسير سورة عمّ أنّ النّفخات ثلاث **(وأشرقت الأرض)** أي تنوّرت الأرض في ذلك اليوم **(بنور ربّها)** أي بنور خاص يخلقه الله تعالى حيث لا شمس ولا قمر ولا نجوم، أو بنور ذات ربّها أي أنّ الله تعالى ينير والكيفيّة مجهولة **(ووضع الكتاب)** أي سجّل أعمال العباد **(وجيء بالنّبين)** ليشهدوا على أممهم **(والشّهداء)** الآخرين ليشهدوا على أعمال النّاس والشّهداء كثيرون، فالأرض شاهدة بدليل قوله تعالى: ﴿يومئذٍ تحدّث أخبارها﴾ سورة الزلزلة الآية/ ٤. أي تتكلّم الأرض بما جرى وفعل عليها، والملائكة شهود والزّمان والمكان شاهدان بما فعل، فيهما إلى غير ذلك من الشّهود **(وقضي بينهم بالحقّ)** أي بين النّاس بالحقّ **(وهم لا يظلمون)** أي لا تحمل نفس ولا تنسب إليها ما لم تعمل من شرّ **(ووفيّت)** وأعطيت **(كلّ نفس)** جزاء **(ما عملت)** من خير دون نقص **(وهو)** أي الله تعالى **(أعلم بما يفعلون)** فلا حاجة إلى الشّهود والوزن والحساب إلّا أنّه تعالى يفعل ذلك لئلّا يبقى حجّة للعاصي، ولا يكن له اعتراض، وليقرّ ويعلم أنّه مستحقّ لما يقرّر له من العذاب، وإذا لم يقرّ فينطق الله تعالى أعضاءه الّتي عصى بها فيقرّ كلّ عضو بما فعل فيه من المعصية، وتشهد عليه إلى أن لا يبقى له أيّ طريق لإنكار جرائمة ومعاصيه، كما قال تعالى: ﴿اليومَ نَخْتِمُ على أفواهِهِمْ وتكلّمُنا أيديهمْ وَتَشْهَدُ أَرجُلُهُم بما كانوا يكسِبون﴾ - سورة يس الآية/ ٦٥. فما أعدل هذا الرّب وما أقدر هذا الله فهو على كلّ شيء قدير.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نتيجة هذا الحساب ومصير النّاس بعد ذلك، فبدأ يذكر مصير الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾

(وسيق الّذين كفروا) سوقاً عنيفاً وزجراً شديداً **(إلى جهنّم زمراً)** جماعات جماعات حسب العقيدة والعمل، فكلّ صاحب عقيدة مع من يماثله في تلك العقيدة **(حتّى إذا جاؤوها فتحت)** لهم أبوابها ليدخلوا فيها **(وقال لهم خزنتها)** بعد فتح أبواب لهم، لماذا جئتم إلى هنا وعملتم ما يسوقكم إلى هذا المصير السيّئ؟ **(ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربّكم)** من آيات الوعد والوعيد، وآيات الأحكام العادلة وآيات العقائد الصّحيحة، وآيات الأخلاق وغير ذلك من بيان الخير والشّر وطريق الهلاك والفوز والنّجاة **(وينذرونكم لقاء يومكم هذا)** بسبب الأعمال الّتي تؤدّي لصاحبها إلى هذا المصير، ألم يأتكم هؤلاء؟ **(قالوا بلى)** قد جاء الرّسل وبلّغونا كلّ شيء وأنذرونا لقاء هذا اليوم **(ولكن)** كذّبناهم وكفرنا بهم وبذلك **(حقّت)** ثبتت وطبّقت **(كلمة العذاب)** أي الحكم بالعذاب **(على الكافرين)** وهم نحن **(قيل)** لهم من قبل الملائكة **(ادخلوا)** إذن **(أبواب جهنّم)** كلّ زمرة من باب تستحقّه وخصّص لها **(خالدين)** مقدّراً خلودكم فيها **(فبئس مثوى المتكبّرين)** عن الحقّ وعن اتّباع الرّسل وعن تطبيق شريعة الله تعالى؛ فبئس مثواهم جهنّم هذه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مصير المؤمنين بعد ذلك: فقال جلّ وعلا:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّۚ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

(وسيق الّذين اتّقوا ربّهم) فلم يشركوا ولم يكفروا ولم يفسقوا ولم يفجروا **(إلى الجنّة زمراً)** جماعات جماعات حسب الأعمال والدّرجات، فالأنبياء والصّديقون والشّهداء والصّالحون والزّهاد والعابدون والعلماء والمرشدون **(حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها)** وجواب إذا محذوف تقديرها حصل لهم مالا يدرك كنهه من الغبطة والفرح والسّرور **(وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم)** في الدّنيا، وبذلك أكرم الله تعالى عليكم بهذا الأنعام **(فادخلوها خالدين)** لاخروج فيها ولا إخراج. قال القرطبيّ (ﷺ): وقال تعالى في حقّ الفريقين (وسيق) بلفظ واحد، فسوق أهل النّار طردهم إليها بالخزي والهوان كما يفعل بالأسارى والخارجين على السّلطان إذا سيقوا إلى الحبس. وسوق أهل الجنّة سوق مراكبهم إلى دار الكرامة والرّضوان لأنّه لا يذهب بهم إلّا راكبين كما يفعل بالوافدين على الملوك والسّلاطين، فشتّان ما بين السّوقين.

سؤال: لماذا قيل في جهنّم: فتحت أبوابها، بدون عطف؟ وفي أبواب الجنّة قيل: وفتحت، بالعطف؟

أجيب عن هذا السّؤال بأجوبة أصحّها هو: أنّ أبواب جهنّم لا تفتح إلّا بعد مجيء أهلها، فإذا جاءوها فتحت لهم أبوابها. وذلك لأنّ الله تعالى لا يستعجل بالغضب على عباده، فلا يفتح لهم أبواب العذاب إلى أن يأتوا هم إليها بسبب أعمالهم وخطيئاتهم، ولكنّ أبواب الجنّة مفتوحة قبل أن يأتي إليها أصحابها، قالوا: (و) في [وفتحت] للحال إذا جاءوها وجدوا أبوابها مفتوحة لكي لا ينتظروا الفتح ثمّ الدّخول، ولا يقفوا بالأبواب فإنّ الوقوف بالأبواب عذاب. يقال: أنّ أحد العلماء حينما كان يدرّس وينتهي من أبواب الكتاب ويصل الى الباب الآخير لا يقف ويقول الباب الفلاني في الموضوع الفلاني ويمشي في الموضوع قليلاً، فقيل له: لم تفعل ذلك يا شيخ؟ فقال: أنا لا أحبّ أن أقف على الأبواب. كما وإنّي بنفسي[1] تركت زيارة بعض الأصدقاء حينما وصلوا إلى مناصب وعيّنوا لهم سكرتيراً ينتظر النّاس عنده إلى أن يؤذن لهم بالدّخول، فقال: لم لا

(١) يقصد الشيخ المفسّر رحمة الله عليه هذ نفسه، وكثيرا ما كنت أسمعه يقول: أنا لا أستطيع مصاحبة أصناف من الناس: الأمراء لأنهم يذلّون من يراجعهم. والأغنياء لأنهم يتصوّرون أن مصاحبتهم لأجل مالهم لتطلبه منهم يوما ما، وشيوخ العشائر لأنهم يتكبّرون عليك، وشيوخ الطريقة لأنّهم يصوّرون للناس أنك مريد لهم ويتّخذونك دعاية لهم... لذلك كان رحمه الله دائما يصاحب أهل العلم وطلابه والفقراء وبسطاء الناس.

تزورونا؟ قلت: أنا لا أحبّ زيارة من أقف ببابه إلى أن يؤذن لي بالدّخول عليه وإنّما أزور من إذا وصلت الباب أدخل فوراً، فإنّ الوقوف ثقيل عليّ. اللّهم لا توقفنا عل الأبواب لا في الدّنيا ولا في الآخرة وأدخلنا الجنّة مع أولي الألباب .... آمين.

* * *

(وقالوا) أي الّذين دخلوا الجنّة **(الحمد لله الّذي صدقنا)** أنجز لنا **(وعده)** بالثّواب والدّخول في الجنّة على التّقوى والطّاعة **(وأورثنا الأرض)** أي ملّكنا الأرض خالصة فيه من دون المجرمين وأصبحنا **(نتبوأ من الجنّة)** الّتي شكّلت على الأرض وبنيت عليها **(حيث نشاء)** كيف نشاء **(فنعم أجر العاملين)** من الله تعالى هذا الأجر وهي الجنّة ودار النّعيم، وذلك لأنّه يوجد جنّتان يوم القيامة: جنّة فوق الكرسي وهي العلّيون، وجنّة تكون فوق أرضنا هذه بعد تبديلها وتغييرها كما أشير إلى ذلك فيما يروى أنّ (أكثر أهل الجنّة البلهاء، والمقربّون في علّيين)[١] وقد حقّقت وجود هاتين الجّنتين في سورة الحاقّة والله تعالى أعلم.

(وترى) يا من له الرؤية في ذلك اليوم ترى **(الملائكة حافّين)** محيطين **(حول العرش)** حول عرش الله تعالى **(يسبّحون)** ينزّهون الله تعالى عن الظّلم فيما فعل بالكافرين ومصحوباً ذلك التّنزيه **(بحمد ربّهم)** بأن يحمدوا ربّهم ويشكروه على ما أنعم به على المؤمنين **(وقضي بينهم)** بين المجرمين والصّالحين **(بالحقّ)** بدون ظلم وبكلّ ما فيه معنى العدل والإنصاف **(وقيل)** من قبل المؤمنين والملائكة **(الحمد لله ربّ العالمين)** على هذا الحكم وهذه العدالة.

وصلّى الله على النّبيّ محمّد وعلى آله وأصحابه ومن اتّبعهم بإيمان أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) مسند الشهاب ٢/ ١١٠ الحديث رقم ٩٨٩. بلفظ (أكثر أهل الجنة البله)، وفي مرقاة المفاتيح ٧/ ٢٣٩ بزيادة: (والعليين لأرباب الألباب).

سورة غافـر

(مكيّة،إلّا الآيتان (٥٦،٥٧) فمدنيّتان، وآياتها خمس وثمانون، نزلت بعد الزّمر، سمّيت بسورة غافر لما فيها من قوله تعالى: غافر الذّنب، وسمّيت سورة الطَّول لما فيها من قوله تعالى: ذي الطَّول، وسمّيت سورة المؤمن لما فيها من قصّة الرّجل المؤمن من آل فرعون (رضي الله عنه)).

﴿حمٓ ①﴾

(حم) هذه جملة عبارة عن حرفين مقطّعين هما الحاء والياء من الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض السّور من القرآن الكريم وهما اسمان:

الأوّل: أنّه الحرف الأوّل من حميد مثلاً.

الثّاني: إسم للحرف الثّاني منه مثلاً.

والقصد من إيراد هذه الأحرف المقطعة في أوائل تلك السّور قد ذكرناه في سورة (يوسف) وسورة (يس) وسورة (ن) فلا حاجة إلى إعادة ذكره هنا.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ②﴾

(تنزيل الكتاب) أي القرآن وتنزيل الكتاب مبتدأ وخبره **(من الله العزيز الحكيم)** فالمعنى أنّ هذا القرآن نزل من الله تعالى أي المقتدر أن ينزّل مثل هذا القرآن، ويرسل رسلاً ليبلّغه إلى النّاس **(العليم)** الثّابت على الّذي يحيط بكلّ شيء، ووفق علمه أنزل هذا الكتاب وبيّن فيه الأحكام والآداب والأخلاق والعقائد والمواعظ والوعد والوعيد

والقصص والعبر، وغير ذلك ممّا في هذا القرآن من أمور أخرى أخبر الله تعالى عنها.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِى ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾

(غافر الذّنب) كلّه فيغفر الكفر بالإيمان والشّرك بالتوحيد وكبائر الذّنوب بالتّوبة، وهذا محقّق لايحتاج الى إستثناء أي بدون أن تقول: إن شاء الله، لأنّ الله تعالى شاء ذلك حيث وعد بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ سورة الفرقان الآية/٧٠. وكذلك يعفو من الكبائر بدون توبةٍ ولكن إن شاء، بمعنى أنّ الكبيرة غير الكفر والشّرك قابلة للغفران[١] فيغفر إن شاء، وأمّا الكفر والإشراك فليسا قابلين[٢] لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ سورة النساء الآية/٤٧. وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ سورة النساء الآية ١١٦. فالشّرك والكفر ليسا قابلين للمغفرة بحكم هاتين الآيتين، وغيرهما من المعاصي بدون توبة قابلة للمغفرة، فإن شاء غفر وإن لم يشأ فلا، وأمّا مع التوبة فكلّ الذّنوب حتّى الكفر والشّرك مغفورة بحكم آية الفرقان، وغيرها من آيات وردت في ذلك، والصّغائر كلّها مغفورة بالاجتناب عن الكبائر، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ سورة النساء الآية ٣١. **(وقابل التّوب)** جمع توبة أي قابل للتّوبة من كلّ أحد، فيقبل توبة عبده ما لم يغرغر أي قبل أن تتحرّك روحه للنّزع، أي قبل أن يتيقّن الموت **(شديد العقاب)** لمن لم يتب ودام على عتوّه **(ذي الطّول)** أي ذي المنّة والنّعم على عباده **(لا إله إلّا هو إليه المصير)** أي مصير كلّ العباد، فيحاسبهم على نعمة هل شكروها بالإيمان والطّاعة؟ أو كفروها بالكفر أو الشّرك أو المعاصي؟ ويجزيهم حسبما فعلوا بالثّواب أو العقاب.

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِى ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾

(١) أي الكبيرة قابلة للغفران.

(٢) أي للغفران.

(ما يجادل في آيات الله) أي في مضمون آيات الله الموجودة في القرآن من التّوحيد والأخلاق والأحكام والعقائد كأن يقول: لم حرّم هذا وأوجب هذا واستحسن ذاك واستقبح ذلك؟ ولم؟ ولم؟ الى آخر ما يقول المجادل، فلا يجادل هذا الجدال أحد **(إلّا الّذين كفروا)** ومعناه إنّ الّذين يجادل هذا الجدال فهو كافر. قال القرطبيّ (رحمه الله) والمراد هذا المجادل الّذي يريد الطّعن في القرآن وإبطاله وإطفاء نور الله تعالى بقرينة قوله تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلّا مبشّرين ومنذرين، ويجادل الّذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحقّ واتّخذوا آياتي وما أنذروا هزواً﴾ سورة الكهف الآية/ ٥٧. وأمّا الجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحلّ مشكلها ومعرفة حكمها والمصالح المرادة منها، ومفادة أهل العلم منها لاستنتاج الأحكام منها، ولردّ أهل الزّيغ بها وجلب النّاس وإقناعهم للإيمان بها، فذلك أعظم جهاد وأكبر عبادة لله تعالى، لكنّ الّذين يجادلون للطّعن فيه وإبطاله فهؤلاء هم الكفرة فلا تحزن من جدالهم **(ولا يغررك)** أيّها المخاطب والسّامع **(تقلّبهم في البلاد)** وما أنعم الله تعالى عليهم مع كفرهم، هذا فإنّ الله تعالى وإن أمهلهم فإنّه لايهملهم، وإنّه سينتقم منهم، وإنّماهذا الإمهال استدراج لهم، كما قال تعالى: ﴿فذرني ومن يكذّب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إنّ كيدي متين﴾ سورة (ن) الآية/ ٤٩.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ الأمم السّابقة كذّبوا رسلهم، فكان عاقبتهم أن أخذهم الله تعالى وأهلكهم ليكون ذلك تسلية للرّسول (ﷺ) وإنذاراً لمن كذّبه، فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾

(كذّبت قبلهم) أي قبل من كذّبك يا محمّد **(قوم نوح)** كذّبوا نوحاً **(والأحزاب)** أي الأمم الّتي جاءت **(من بعدهم)** من بعد قوم نوح، فكذّبوا رسلهم **(وهمّت)** وأرادت **(كلّ أمة برسولهم)** شرّاً كالقتل أو الحبس أو التّعذيب كما قال: **(ليأخذوه)** أي ليحبسوه ويعذّبوه **(وجادلوا)** معهم **(بالباطل)** بالأدلّة الباطلة، كاتّباع الآباء والأجداد وتقليد السّادة والكبراء، أو من مضوا قبلهم وكانوا يجادلون بالباطل **(ليدحضوا)** أي ليزيلوا **(به)** بذلك

الباطل **(الحقّ)** الّذي جاء به الرّسل فيضعوا باطلهم موضعه فيتّبعوه **(فأخذتهم)** بالعذاب **(فكيف كان عقاب)** أي عقاب لهم؟ والاستفهام للتّفخيم أي كان عقابي لهم عقاباً شديداً صارماً. ثمّ أخبر الله تعالى بأنّه لا يكتفي بهذا العقاب الّذي أذاقهم في الدّنيا، بل وإنّ لهم عقاباً أشدّ ما كان في الدّنيا، قال جلّ وعلا: **(وكذلك)** أي ومثلما عوقبوا وعذّبوا في الدّنيا **(حقّت)** ثبتت **(كلمة ربّك)** حكم ربّك **(على الّذين كفروا)** وكذّبوا الرّسل **(أنّهم)** يوم القيامة **(أصحاب النّار)**.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المكذّبين ومصيرهم، أراد أن يذكر حال المؤمنين وثوابهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾

(الّذين يحملون العرش) من الملائكة **(ومن)** هو **(حوله)** أي حول العرش من الملائكة الحافين به **(يسبّحون)** يعترفون بنزاهة الله تعالى من الظّلم فيما فعل بالمكذّبين للرّسل **(بحمد ربّهم)** مصاحباً تسبيحهم هذا بالاعتراف بكمال ربّهم ويثنون عليه ويؤمنون به. إنّ هذه الجمل تدلّ على أمرين:

الأوّل: شرف الحمد والتّسبيح لله تعالى والإيمان به.

الثّاني: هو لإظهار استغناء الله تعالى عن إيمان النّاس وحمدهم وتسبيحهم فإنّ من سبّحه الملائكة وحمده وآمن به فهو في غنى عن حمد وتسبيح النّاس وإيمان النّاس.

(ويستغفرون للّذين آمنوا) على الإستمرار كما يدلّ على ذلك صيغة المضارع، ثمّ بيّن كيفيّة استغفارهم المستمرّ فقال: **(ربّنا)** أي يقولون ربّنا **(وسعت كلّ شيء رحمة وعلماً)** أي وسعت رحمتك وعلمك كلّ شيء **(فاغفر للّذين تابوا)** من الكفر والشّرك

والمعاصي (**واتّبعوا سبيلك**) أي شريعتك الّتي وصلت إليهم مع الرّسل [على نبيّنا وعليهم الصّلاة والسّلام] (**وقهم**) واحفظهم (**عذاب الجحيم**) وهي جهنّم (**ربّنا وأدخلهم جنّات عدن**) أي جنّات إقامة، أي من دخل فيها لا يخرج ولا يُخرج منها (**الّتي وعدتهم**) على لسان الرّسل وفي آيات كتبك المنزّلة إليهم (**و**) أي ووعدت (**من صلح من آبائهم وأزواجهم وذريّاتهم إنّك أنت العزيز**) أي الغالب والمقتدر على إنجاز وعدك ومغفرتك لهؤلاء، وإسكانهم الجنّة دارك دار النّعيم (**وقهم السّيئات**) أي وقهم جزاء السّيئات (**ومن تق**) عذاب (**السّيئات يومئذ**) يوم القيامة (**فقد رحمته وذلك**) أي ورحمتك بهم (**الفوز العظيم**) لافوز أعظم منه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ الّذين يتعاونون على الكفر ويتصادقون عليه، يصبحون أعداء يوم القيامة؛ فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾

(**إنّ الّذين كفروا**) حينما دخلوا جهنّم يغضب بعضهم على بعض ويلعن بعضهم بعضاً، فيلعن الأتباع المتبوعين ويقولون لهم: أنتم أتيتم بنا إلى هذا المقام، فيردّ المتبوعون عليهم اللّعنة كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١)﴾ سورة (ص) الآيات/ ٥٩ ـ ٦١ ـ ففي أثناء هذا النّقاش بين الأتباع والمتبوعين (**ينادون**) من قبل الملائكة ويقولون لهم: (**لمقت الله**) أي لغضب الله عليكم جميعاً (**أكبر من مقتكم**) أي من غضبكم (**أنفسكم**) أي بعضكم بعضاً (**إذ**) أي لأنّه كنتم في الدّنيا (**تدعون الى الإيمان فتكفرون**) ولم تؤمنوا ولغضب الله تعالى هذا دخلتم هذه النّار (**قالوا**) أي قال الكافرون في جواب هذا النّداء (**ربّنا**) لقد صدق قول الدّعاة وما أنذرونا به ورأينا وأجبنا بما قالوا حيث لقد (**أمتنا إثنتين**) أي موتتين موتاً حينما كنّا تراباً ونطفاً في الأرحام

وموتاً بعد الحياة الدّنيا **(وأحييتنا اثنتين)** أي حياتين حياة في الدّنيا وحياة في الآخرة وفق ما أنذرنا به من هذا العذاب **(فاعترفنا بذنوبنا)** واستحقاقنا لهذا العذاب **(فهل لنا إلى خروج من سبيل)** أي فهل من سبيل إلى الخروج من هذا العذاب؟ فأُجيبوا: كلّا، لا سبيل لكم لأنّ **(ذلكم)** العذاب حقّ عليكم **(بأنّه)** أي بسبب أنّه **(إذا دعي الله وحده كفرتم)** أي أنكرتم وتنفّرتم ممّن يدعوه وحده **(وإن يشرك به)** أي بالله غيره فدعي واستعين بغيره أو بالله وبغيره تؤمنوا وتقنعوا بذلك الشّرك **(فالحكم)** بعذابكم حقّ **(لله العليّ)** الّذي لا يليق أن يشرك به **(الكبير)** الّذي لا يدعى غيره معه أو وحده، فإنّه هو الّذي يدعى ويعبد ويستعان به، وحيث أعطيتم أنتم حقّ الله هذا لغيره؛ حقّ عليكم هذا العذاب فلا سبيل للخروج منه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما يدعو إلى عبادته وحده وأنّه لا يشرك به فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾

(هو الّذي) دائماً ومستمراً **(يريكم آياته)** الّتي تدلّ على قدرته ووحدته وأنّه لا شريك له، وتلك الآيات هي السّماوات وما فيها من كواكب ونجوم وشموس وأقمار والأرض وما فيها من حيوان ونبات ومعادن وأشجار وجبال وعيون وأنهار، وغير ذلك من الآيات الكونيّة والآيات في الأنفس والآفاق **(وينزّل لكم من السّماء رزقاً)** أي مطراً يكون سبباً لرزقكم به حيث به ينبت النّبات وتعيش الأشجار والحيوان والدّواب فتتّخذون منها الحبوب والثّمار والألبان واللّحوم والأصواف والأوبار **(وما يتذكّر)** ويتفكّر في هذه الآيات **(إلاّ من ينيب)** أي من يريد الرّجوع إلى الله تعالى ومعرفته، فيفيد أنّ من تفكّر في هذه الآيات يعلم وحدانيّة الله تعالى، فيرجع وينيب إليه فقط **(فادعوا الله)**

أي فحينما رأيتم هذه الآيات الّتى تدلّ على وحدته **(فادعوا الله)** وحده ولاتدعوا سواه **(مخلصين)** مصفّين **(له)** لله **(الدّين)** العبادة من كلّ غرض من الأغراض سوى أنّه مستحقّ للعبادة، وسوى مرضاته تعالى **(ولو كره الكافرون)** ذلك الإخلاص والتّوحيد، فأخلصوا ووحّدوا فإنّ الكافرين هم في ضلال مبين، وإرضاؤهم ضلال في ضلال **(رفيع الدّرجات)** أي هو رفيع الدّرجات كناية عن عظمته ورفعه ذاته **(ذو العرش)** صاحب العرش **(يلقي الرّوح)** أي الوحي، سمّي الوحي روحاً لأنّه به الحياة الآخرة، كما أنّ الرّوح به حياة الدّنيا.

الرّوح جاء لمعان ثلاثة:

الأوّل: النّفس الحيوانيّة والإنسانيّة الّتي يكون بها دوام الحياة والحسّ والحركة. قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)﴾ سورة (الحجر)الآيتين ٢٨،٢٩.

الثاني: جبريل (عليه السلام) قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥)﴾ سورة الشعراء الآية / ١٩٤ ـ ١٩٧.

الثالث: الوحي كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ سورة الشورى الآية/ ٥٢. فكلما وجدت كلمة الروح في القرآن فلا تخلو من أحد هذه المعاني ويعين المراد منها بسياق الكلام وقرينة المقام.

(من أمره) أي حسب حكمه وقضائه **(على من يشاء من عباده)** فالرّسالة والرّسول بمجرّد اختيار الله تعالى إنساناً يرسله لا دخل للكسب والاستعداد والأهليّة وغير ذلك في اختيار الله تعالى للرّسول وفي هذا قال البويصري:

تبارك الله ما وحيٌ بمكتسب ولا نبيّ على الغيب بمتّهم

فيختار الله تعالى الرّسول وينزّل عليه الوحي وذلك **(لينذر)** النّاس **(يوم التّلاق)** من عذاب يوم التّلاق وهو يوم القيامة. سمّي يوم التّلاق أي يوم التّلاقي لتلاقي النّاس

الأوّلين والآخرين هناك في صعيد المحشر، وتلاقي الظّالم والمظلوم والمحقّ والمبطل في ذلك اليوم، ثمّ فسّر الله تعالى يوم التّلاق بقوله: **(يوم هم)** أي النّاس كلّهم **(بارزون)** قائمون من قبورهم **(لا يخفى على الله منهم)** من أعمالهم **(شيء)** فيجازون وفق تلك الأعمال وينادى من قبل الله تعالى تهكّماً بالطّغاة والمغرورين ويقال: **(لمن الملك اليوم)** أي لمن التّصرف والسّلطة اليوم، فيجاب من قبل الملائكة ومن قبل النّاس اعترافاً بأنّ الملك كلّه **(لله الواحد)** لاشريك له **(القهّار)** المنتقم ممّن كفر به أو أشرك أو عصي، ويجيب المؤمن هذا الجواب سروراً وتلذّذاً، والمجرم غمّاً وانقياداً وخضوعاً يوم لا يفيد الخضوع شيئاً **(اليوم تجزى)** أي يقال لهم أيضاً: **(اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت)** إن خيراً فخيراً وإن شرّاً فشراً **(لا ظلم اليوم)** لا ينقص شيء من عمل المرء ولا يجزى أحد غيره **(إنّ الله سريع الحساب)** والإحصاء لأعمال العباد فلا يصعب عليه حسابهم ولا يخفى عليه شيء من أعمالهم.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

(وأنذرهم) أي النّاس أيّها النّبيّ ويا كلّ داع إلى الله تعالى، أنذرهم عذاب **(يوم الأزفة)** أي يوم المصيبة القريبة وهو يوم القيامة، ووصف بالقرب لأنّه يقال: ما أبعد ما فات وما أقرب ماهو آت، فكلّ آت قريب، أو أنّ كلّ إنسان موته قريب، ومن مات فقد قامت قيامته. ثمّ ذكر الله تعالى حال النّاس في ذلك اليوم، فقال تعالى: **(إذ القلوب لدى الحناجر)** أي وقتما تكون قلوب النّاس **(لدي الحناجر)** جمع حنجرة، وهي في منتهى الحلق، فتبلغ أرواحهم إلى تلك الأماكن خوفاً من عذاب ذلك اليوم، فلا هي تعود إلى أماكنها ولا تخرج فيموتوا فيستريحوا **(كاظمين)** الغصص والهموم والأحزان ما أصيبوا **(ما للظّالمين)** أي المتجاوزين حدود الله بالكفر أو الشّرك أو المعاصي، فما لهؤلاء **(من حميم)** من قريب أو صديق ينفعه **(ولا شفيع)** يشفع لهم فتفيده الشّفاعة **(يطاع)** بأن تقبل شفاعته **(يَعْلَم)** الله تعالى **(خائنة الأعين)** أي الأعين الّتي خانت فنظرت إلى محارم الله تعالى **(وما تخفي الصّدور)** لمن عمل شرّاً أو اعتقد عقيدةً فاسدةً، أو روّجها بين النّاس

(والله يقضي) يحكم **(بالحقّ)** بالعدل في ذلك اليوم **(والّذين يدعون)** في الدّنيا من الأصنام والأشخاص فيستغيثون بهم ويرجون منهم إنقاذهم من مضارّ الدّنيا والآخرة **(من دونه)** من غير الله **(لا يقضون بشيء)** ولا يملكون شيئاً **(إنّ اللهَ هو السّميع)** بأقوال النّاس جميعاً **(البصير)** بأعمالهم وعقائدهم، فيقضي عليهم حسب علمه هذا وسمعه ذلك، ولا يخفى عليه شيء، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثمّ لمّا أنذر الله تعالى بعذاب الآخرة أنذرهم بعذاب الدّنيا فقال جلّ وعلا:

﴿۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾

(أولم يسيروا) الواو للعطف على مقدّر تقديره أولم يتّعظوا بالإنذارات **(أو لم يسيروا في الأرض)** للعبرة والاتّعاظ **(فينظروا)** ويروا **(كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم)** من الأُمم والأقوام **(كانوا هم أشدّ منهم قوةً وأثاراً)** وتعميراً **(في الأرض فأخذهم)** فعذّبهم **(الله)** وأهلكهم **(بذنوبهم)** بسبب ذنوبهم **(وما كان لهم من الله من واق)** أي وما كان لهم من واق من حافظ يحفظهم من عذاب الله وإهلاكه من هؤلاء الّذين عبدوهم طمعاً في إغاثتهم لهم يوم البلايا ومصائب الله تعالى **(ذلك)** أي كان إهلاكهم ذلك الإهلاك **(بأنّهم)** بسبب أنّهم **(كانت تأتيهم رسلهم)** من الله تعالى **(بالبيّنات)** بالمعجزات والدّلائل الّتي تدلّ على رسالتهم **(فكفروا)** بهم وبما جاؤوا به من شريعة الله تعالى **(فأخذهم الله)** فأهلكهم الله **(إنّه قويٌّ)** لا يقاومه أحد **(شديد العقاب)** إذا عاقب أحداً بما يستحقّه، فليخش هؤلاء المنكرون لشريعة رسول الله (ﷺ) والمنحرفون عنها أن يصيبهم ما أصاب الأمم الأخرى من الهلاك والدّمار، وليعتبروا بهم ويتّعظوا إن كانوا عاقلين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكرهم بقصّة موسى وفرعون إنذاراً لهم وتسلية للرّسول (ﷺ) والمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾

(و) أي بعزّتي **(لقد أرسلنا موسى)** ابن عمران (عليه السلام) **(بآياتنا)** أي بأحكامنا **(وسلطان مبين)** وبرهان واضح على نبوّته ورسالته وهي العصا والمعجزات الّتي كان يظهرها لهم. فأرسلناه هكذا **(إلى فرعون)** الملك في مصر **(وهامان)** وزير فرعون **(وقارون)** صاحب الكنز في مصر **(فقالوا)** بدل أن يؤمنوا به **(هذا ساحر كذّاب)** وليس برسول **(فلمّا جاءهم بالحقّ)** أي بالشّريعة **(من عندنا)** وأمرهم بها وباتّباعها وأظهر لهم المعجزات **(قالوا)** لمن تحت أمرهم **(اقتلوا أبناء الّذين آمنوا معه)** من الرّجال **(واستحيوا)** أي اتركوا على قيد الحياة ولا تقتلوا **(نساءهم)** ولكنّ فرعون ما نجح بذلك القرار بل خسر وضلّ **(وما كيد الكافرين)** أي قرارتهم ضدّ الرّسل والمؤمنين بهم **(إلّا في ضلال)** أي خسران وعدم النّجاح **(وقال فرعون ذروني أقتل موسى)** أي اتركوني فإن تركتموني ولم تمنعوني اقتل موسى **(وليدع ربّه)** لينجّيه أو ينزل عذابه، فإنّه لا قيمة لدعائه، فإنّه كاذب في أنّ له ربّاً حيث لا ربّ سواي، ثمّ علّل قتله حيث **(إنّي أخاف)** من موسى **(أن يبدّل دينكم)** فيتبعه النّاس **(أو أن يظهر في الأرض الفساد)** الخلاف والقتال بسبب دعوته لهذا الدّين، ولكن موسى لم يخف ولم يحزن من إنذارات فرعون، بل أجاب بكلّ هدوء وطمأنينة **(وقال موسى)** لهم بهذه الطّمأنينة والهدوء **(إنّي عذت)** أي حفظت نفسي **(بربّي وربّكم من)** ضرر أو قتل **(كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب)** من أمثال فرعون وأتباعهم.

هذا وفي خضم هذه المناقشة الشّديدة وإعلان فرعون أنّه يقتل موسى، قام رجل ودافع عن موسى (عليه السلام) ونصح فرعون ومن معه كما أخبرنا الله تعالى عن ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾

(وقال رجل من آل فرعون) من أتباعه أو من أقاربه وكان مؤمناً بموسى إلّا أنّه كان **(يكتم إيمانه)** من فرعون وأتباعه **(أتقتلون رجلاً)** وهو موسى (ﷺ) بدون ذنب ولمجرّد **(أن يقول ربّي الله)** وإنّ هذا ليس بذنب، بل هو الحقّ حيث أثبت دعواه **(وقد جاءكم بالبيّنات)** الدّالة على رسالته **(من ربّكم)** وهو الله تعالى، والاستفهام للإنكار، فالمعنى إنّ قصدكم وقراركم بقتله شيء منكر جدّاً، ولا داعي إلى قتله فإنّه لم يفعل شيئاً يوجب القتل إلّا أنّه ادّعى هذه الدّعوة من أنّه رسول **(وإن يك كاذباً)** في دعواه هذه **(فعليه كذبه)** أي أنّ كذبه هذا لا يضرّكم شيئاً بل إنّما يضرّه، فإنّ الّذي يدّعي الرّسالة كذباً يفضحه الله تعالى وينتقم منه فوراً ولا يمهله **(وإن يك صادقاً)** فالخسارة تكون عليكم لأنّه **(يصبكم)** على الأقل **(بعض الّذي يعدكم به)** من العذاب وأنتم لا تتحمّلون هذا الأقل من عذاب الله، فكيف بالكلّ أو الأكثر **(إنّ الله لا يهدي)** إلى التّوفيق ونيل المطالب **(من هو مسرف كذّاب)** فإن كان موسى ذلك المسرف فينتقم الله منه؛ فلا تقتلوه وانتظروا عقاب الله له، وإن كنتم أنتم ذلك المسرف فلا تقتلوه مخافة أن يصيبكم الهلاك والدّمار. ثمّ دام واستمرّ الرّجل المؤمن ومضى في نصيحته للقوم وقال: **(يا قوم لكم الملك)** أي السّيطرة والغلبة **(اليوم ظاهرين)** أقوياء في الأرض **(فمن ينصرنا من بأس الله)** أي عذاب الله **(إن جاءنا)** والاستفهام للإنكار، فالمعنى لا ينصرنا أحدٌ ولا يستطيع. ولمّا نصح الرّجل المؤمن هذه النّصيحة ومال البعض إلى الأخذ بنصيحته، أصرّ فرعون على رأيه كما أخبر عن ذلك قوله تعالى: **(قال فرعون)** للقوم ردّاً على نصيحة الرّجل المؤمن **(ما أريكم)** لا أبدي لكم رأياً **(إلّا ما أرى)** إلّا رأيي الّذي قلت وهو قتل موسى **(وما أهديكم)** برأيي هذا **(إلّا سبيل)** طريق **(الرّشاد)** أي الّذي يقتضيه

العقل والمصلحة. فلمّا أصرّ فرعون على رأيه هذا، كرّر الرّجل نصحه وأكدّه وخوّفهم بعذاب الدّنيا والآخرة كما أخبر تعالى عن نصحه هذا فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِى شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾

(وقال الّذي آمن) بموسى **(يا قوم إنّي أخاف عليكم)** أن ينزل بكم عذاب **(مثل)** عذاب **(يوم الأحزاب)** اليوم الّذي أهلكوا فيه، وبيّن الأحزاب بقوله: **(مثل)** عذاب نزل بسبب **(دأب قوم نوح)** عليهم حيث دأبوا واستمرّوا على الكفر والمعاصي **(وعادٍ وثمود والّذين من بعدهم)** من الأقوام الآخرين الّذين نزل بهم العذاب بدأبهم على الضّلال **(وما الله ظلماً للعباد)** بإهلاكهم نتيجة التّمرد وخوضهم بالمعاصي، بل إنّما يستحقّون ذلك بسبب أعمالهم وجرائمهم **(ويا قوم إنّي أخاف عليكم عذاب)** من عذاب **(يوم التّناد)** أي يوم القيامة سمّي يوم التّناد، لأنّه يدعى كلّ أناس بأمامهم، وينادي بعضهم بعضاً، فينادي أصحاب الجنّة أصحاب النّار، وينادي أصحاب النّار أصحاب الجنّة، فينادى فيه أيضاً بالسّخاوة والشّقاوة لأهلها، إلى غير ذلك من الأيات **(يوم تولّون)** تنصرفون عن موقف الحساب إلى النّار **(ما لكم من الله)** أي من عذاب الله **(من عاصم)** حافظ يحفظكم **(ومن يضلل الله تعالى فماله من هاد)** تقدّم تفسيره مراراً، ثمّ أشار لهم الرّجل المؤمن إلى أنّ عتوّهم وعنادهم وتكذيبهم للرّسول هو ديدنهم قديمة فقال **(ولقد)** أي والله لقد **(جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات)** المعجزات الباهرة الدّالة على رسالته **(فما زلتم في شكّ)** أي فما زال إسلامكم في شكّ **(فما جاءكم به)** من التّوحيد والأمر بترك عبادة

الأصنام **(حتّى إذا هلك)** توفّي ومات **(قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً)** وهكذا يبيّن للنّاس أنّهم حينما يأتيهم رسول لا يؤمنون به، وإذا ذهب ومات قلتم لن يأتي رسول، لتجعلوا ذلك حجّة في تكذيب الأنبياء دوماً **(كذلك يضلّ الله من هو مسرف)** متجاوز عن الحقّ **(مرتاب)** متشكّك ومشكّك للنّاس، لأنّهم هم اختاروا الضّلال مخالفة إلى الله تعالى. ثمّ فسّر لهم الله تعالى المسرفين والمرتابين بقوله: **(الّذين يجادلون في آيات الله)** أي في قراءته وأحكامه **(بغير سلطان)** أي بغير دليل **(آتاهم)** ظهر لهم **(كبر)** هذا العمل والجدال **(مقتاً)** أي غضباً، فالمعنى كبر غضب هذا الجدال **(عند الله)** تعالى **(وعند الّذين آمنوا)** بالله وبشريعته وأحكامه **(كذلك)** مثل ما نرى من حال هؤلاء المجادلين في أحكام الله **(يطبع الله)** أي يختم **(على كلّ قلب متكبّر جبار)** فلا يتفتّح لقبول الحقّ ولا يدخل فيه الإيمان لانحرافهم واستنكارهم للإيمان بسبب كبريائهم وجبروتهم.

هذا ثمّ لمّا دعى الرّجل المؤمن هذه الدّعوة الحسنة، وجادل بالّتى هي أحسن، خاف فرعون أن يؤثّر المؤمن في قلوب القوم، فأراد أن يقنع النّاس بالتّفتيش عن الإله الّذي يدعو إليه موسى، فإنّ وجده اتّبعه هو ومن معه، وإن لم يجده يتبيّن أنّ موسى كاذب لا يستحقّ أن يتّبعه أحد، فقال مخبراً عن مكيدة فرعون هذه فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

(وقال فرعون ياهامان ابن لي صرحاً) بناءً رفيعاً جدّاً لأصعد عليه **(لعلّي أبلغ الأسباب)** ثمّ بيّن الأسباب الّتي أرادها فقال: **(أسباب)** أي طريق **(السّماوات)** الّتي تؤدي إلى السّماء الأعلى **(فأطّلع إلى إله موسى)** الّذي يدّعي موسى وجوده، فإنّ وجدته فنتّبعه ونعبده جميعاً، وإلّا فيظهر كذب موسى **(وإنّي لأظنّه)** أي لأتيقّن واعتقد موسى كاذباً في دعواه، لأنّه لا إله غيري **(كذلك)** أي وكما وعلمت وسمعت **(زيّن لفرعون سوء عمله)** أي زيّن له الشّيطان سوء العمل لفرعون، فاعتقده حسناً **(وصدّ)** فرعون، صدّه الشّيطان بذلك التّزيين **(عن السّبيل)** سبيل الحقّ، سبيل الله الّذي جاء به موسى (عليه السلام) **(وما كيد فرعون)** أي وما حيلة فرعون ضدّ موسى وعمله السّوء الّذي يعمله **(إلّا في تباب)** أي في هلاك وخسران، حيث بنى ذلك الصّرح فهدمه الله تعالى. وروي أنّه صعد فرعون

على الصّرح ورمى بنشابة[١] إلى السّماء فرجعت متلطّخة بالدّم فقال: قد قتلت إله موسى، فجاء جبريل فضرب الصّرح بجناحه فقطعه ثلاث قطع، قطعة وقعت في البحر، وقطعة وقعت على جيش فرعون فأهلكت كثيراً منهم، وقطعة في الغرب، وهلك كلّ من عمل فيه، والله أعلم بصحّة الرّواية.

ثمّ لما قال فرعون مقالته هذه أعاد الرّجل المؤمن النّصح عليهم كما جاء في قوله جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَـٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّـٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾

(وقال الّذي آمن) من آل فرعون الّذي أظهر إيمانه بعد ما كان يكتم، حيث دعت الحاجة إلى إظهاره **(يا قوم اتّبعون)** أي اتّبعوني في الإيمان بموسى وعبادة الله تعالى، فإنّ تتّبعوني **(أهدكم سبيل الرّشاد)** طريق الهدى الّذي يوصلكم إلى الجنّة **(يا قوم إنّما هذه الحياة)** في **(الدّنيا)** أو هذه الدّنيا أي القربى **(متاع)** قليل ويزول **(وإنّ الآخرة)** أي الدّار الآخرة **(هي دار القرار)** والبقاء؛ فأنّها لا تزول ولا تفنى، فاعملوا لها ولا تبيعوها بمتاع تأخذونها من فرعون وطريق الضّلال. ثمّ بيّن حساب الله تعالى في الآخرة وجزاءه فيها فقال: **(من عمل)** خصلة **(سيئة فلا يجزى إلّا مثلها)** إلّا بقدرها **(ومن عمل)** عملاً صالحاً

(١) النشابة: السّهم.

حسناً حسّنه الشّرع ورضي به سواء كان العامل **(من ذكر أو أنثى فأولئك يدخلون)** بضمّ الياء على صيغة المجهول وبفتحها على صيغة المعلوم، قراءتان فيدخلون **(الجنّة يرزقون فيها بغير الحساب)** أي بدون عدّ لكثرته أو بدون أن يحاسبوا عليه، ويجوز أن يراد كلا المعنيين لأنّه لا تنافي بينهما، بل كلا المعنيين موجودان وصادقان **(يا قوم مالي أدعوكم إلى)** ما يوصل إلى **(النّجاة)** والتّخلص من عذاب الآخرة وهو الإيمان بالله وحده، واتّباع شريعته الّتي جاء بها موسى **(وتدعونني)** إلى ما يكون سبباً للدّخول في **(النّار)** وهو اتّباع فرعون والعمل بنظامه الباطل، وتصديقه في أنّه ربّكم الأعلى. ثمّ وضّح ما كانوا يدعون إليه ممّا هو سبب لدخول النّار فقال: **(تدعونني لأكفر بالله)** تعالى **(وأشرك به ما ليس لي به علم)** وهو فرعون، والمراد بقوله: ما ليس لي به علم، أنّ لي علماً ببطلانه، لأنّ العلم بالتّوحيد علم ببطلان غيره، إلّا أنّه صيغ بهذه الصيغة لئلا يثير غضبهم، فكأنه يقول: ليس دليل يثبت العلم بحقيقته، وفي ذلك إفهام لهم، حيث لا دليل لهم على ذلك **(وأنا أدعوكم إلى)** عبادة الله **(العزيز)** الغالب على أمره والمنتقم من كلّ من يشرك به **(الغفار)** لمن وحّده واتّبع شريعته ورسوله الّذي جاء بحكمه ودينه الحقّ **(لاجرم في)** لاشكّ في **(أنّما تدعونني إليه)** وهو فرعون **(ليس له دعوة)** شفاعة مستجابة لا **(في الدّنيا ولا في الآخرة وأ مردّنا)** مرجعنا **(إلى الله)** بعد الموت **(وأنّ المسرفين)** وهم الّذين يتجاوزون الحدّ والحقّ في العقيدة أو الأعمال **(هم)** كلّهم **(أصحاب النّار)** أي أهلها الّذين يدخلون فيها ويعذّبون بها، وهذه نصيحتي لكم ودعوتي لكم، فإن قبلتم نجوتم واهتديتم، وإن أبيتم **(فستذكرون)** حينما دخلتم نار جهنّم **(ما أقول لكم)** الآن وتندمون على عدم استجابة قولي واتّباعي، ولكن لا ينفع النّدم. وحينما علم بعد هذه النّصيحة وبسببه أنّ فرعون وأتباعه يحاولون الفتك به وقتله وتعذيبه فقال: **(وأفوّض أمري الى الله)** أي أسلم أمري كلّه إلى الله تعالى، وأرضى بكلّ ما يفعل هو بي **(إنّ الله بصير بالعباد)** فلا يخفي عليه شيء من عملهم وأخلاقهم. فيحفظ من يشاء ويترك من يشاء وفي كلّ ذلك حكمة، فإن حفظني فلحكمة وإن أقدركم عليّ فلحكمة، وأنا راضٍ بكلتا الحالتين، وأؤمن بكلا الحكمين، فحفظه الله تعالى منهم كما قال جلّ وعلا:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

(فوقاه) أي فوقى الله الرّجل المؤمن جميع **(سيّئآت ما)** العذاب الّذي **(مكروا)** دبّروا وتآمروا في حقّه، ولم يستطيعوا أن يصيبوه بأذى **(وحاق)** وأحاط **(بآل)** بأتباع **(فرعون سوء العذاب)** أي العذاب السيّئ أي الشّديد. ثمّ بيّن الّذي أحاط بهم فقال: **(النّار)** بعد الغرق **(يعرضون عليها)** يحرقون بها **(غدوًّا وعشيّاً)** أي في الغداة والمساء، أو المراد جميع الأوقات، لأنّه حينما يُذكر طرفا الشّيء، فالمراد به كلّه، والغدوّ والعشيّ طرفا الزّمان والوقت، عبّر به عن كلّ الأوقات، وهذا العذاب في القبر، ثمّ ذكر الله تعالى عذاب القيامة فقال **(ويوم تقوم السّاعة)** أي ساعة الآخرة، يقال للملائكة من قبل الله تعالى: **(ادخلوا آل فرعون)** أي هو وأتباعه **(أشدّ العذاب)** ويستدلّ بها من الآيتين على ثبوت عذاب القبر لأنّ قوله: يعرضون عليها ... الخ، المراد به عذاب القبر بقرينة قوله تعالى: **(ويوم تقوم السّاعة ادخلوا)** إذ لولا المراد كذلك، لكان الكلام تكراراً، ويجب أن ينزّه كلام الله تعالى عنه، وهكذا انتهى الحوار ونتيجته بين الرّجل المؤمن وفرعون وأتباعه، وهكذا يجب أن يقف كلّ مؤمن تجاه الطّغاة والمتّجبرّين. وهكذا ينجي الله عباده المخلصين ويعاقب الكفرة المبطلين في الدّنيا والآخرة.

ثمّ لمّا ذكر الله تعالى حال فرعون وأتباعه، أراد تعالى أن يذكر أنّ يوم القيامة يتخاصم الأتباع والمتبوعون حينما دخلوا جهنّم فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾

(و) أي واذكر أيّها المخاطب **(إذ يتحاجُّون)** أي أهل النّار بعضهم بعضاً وهم **(في النّار فيقول الضّعفاء)** أي الأتباع **(للّذين استكبروا)** عن الإيمان واتّباع الرّسل **(إنّا كنّا لكم تبعاً)** في الدّنيا وضللنا حيث أنتم أمرتمونا **(فهل أنتم مغنون)** دافعون **(عنّا نصيباً)** قسماً **(من النّار)** بدل ما كنّا ندافع عنكم في الدّنيا وكنّا لكم جنوداً مخلصين، والاستفهام للطّلب فالمعنى: ادفعوا عنّا بعض العذاب مقابل ما كنّا نقوم به من اتّباعكم، ولأنّكم أنتم أضللتمونا ومنعتمونا من الإيمان بالرّسل واتّباع ما جاؤوا به من الحقّ **(قال الّذين استكبروا)** في جواب الضّعفاء **(إنّا)** نحن وأنتم **(كلّ)** منّا **(فيها)** في النّار ولا يستطيع أحد أن يخفّف عن أحد **(قد حكم الله بين العباد)** وانتهى حكمه فلا رادّ لحكمه، ولا

يعذّب أحد مكان غيره. ثمّ بعد ما أيس الأتباع من المتبوعين وعلموا أنّهم لايستطيعون شيئاً، واستقرّ المتبوعون في جهنّم وذلّوا بعد استكبارهم توجّهوا إلى الملائكة يستشفعون بهم، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾

(وقال الّذين في النّار) من الأتباع والمتبوعين **(لخزنة جهنّم)** جمع خازن وهم الملائكة والموكّلون على جهنّم **(ادعوا ربّكم)** لنا فإنّه إن تدعوا أنتم أن يخفّف عنّا فإنّه **(يخفّف عنّا يوماً من العذاب)** الّذي نحن فيه فأجابهم الملائكة **(قالوا)** أي الملائكة في جوابهم **(أولم تك)** أصله تكن حذفت النّون للتّخفيف، وهكذا كلّما وجدت هذه الكلمة في القرآن فإنّه حذفت النّون **(تأتيكم رسلكم)** من الله تعالى فينذرونكم من هذا العذاب، وجاؤوا **(بالبيّنات)** الدّلائل الواضحة على صدقهم وحقّيّة ما يدعون إليه **(قالوا)** أي أهل النّار **(بلى)** قد جاءنا الرّسل فكفرنا بهم وكذبناهم **(قالوا)** أي الملائكة **(فادعوا)** أنتم لأنّنا لا نستطيع أن ندعو ونشفع لمن استحقّ العذاب، فادعوا أنتم ولكن لا يفيد دعاؤكم شيئاً حيث **(وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال)** أي في خسارة ولا يفيدهم شيئاً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه حفظ الرّجل المؤمن وموسى (عليه السلام) من كيد فرعون، وأنّه أحاط بفرعون وآله العذاب في الدّنيا والآخرة، ذكر أنّه ينجّي كلّ رسول من رسله كيد أعدائهم، وأنّه يذلّ أعداءهم في الدّنيا والآخرة، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾

(إنّا لننصر رسلنا) وهذا تسلية للرّسول (صلى الله عليه وسلم) ووعد له بالنّصر في الدّنيا والآخرة **(والذين آمنوا)** ووعد الّذين آمنوا بالنّصر إن عملوا وإن لم يعملوا، فالعتب كلّ العتب عليهم، فالله ينصر الرّسل وأتباعهم على أعدائهم إن جاهدوا **(في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد)** وهو يوم القيامة، والأشهاد جمع شاهد، فسمّي بذلك يوم القيامة، لأنّه يقوم

الأشهاد في ذلك اليوم فيشهدون على النّاس وعلى أعمالهم الّتى فعلوها في الدّنيا، والأشهاد أربعة الملائكة والنّبيون والمؤمنون وجوارح الإنسان نفسه، فكلّ هؤلاء يشهدون على الإنسان إن أنكر ما عمله من الخطايا والذّنوب **(يوم لا ينفع الظّالمين معذرتهم)** أي لا يفيدهم كلّ إعتذارهم.

سؤال: هذه الآية تفيد بأنّهم يعتذرون إلّا أنّ معذرتهم لا تفيد وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦)﴾ سورة المرسلات الآيتان/ ٣٥، ٣٦. ومعنى هذه الآية تفيد بأنّهم لايستطيعون الإعتذار، فكيف التّوفيق بين الآيتين؟

الج ـ واب: أجاب بعض النّاس بأنّ: نفي فائدة الإعتذار لا يستلزم وجود الإعتذار، بل يقال: لا يفيدهم الإعتذار لأنّه لا يمكن الإعتذار، لأنّه لا يوجد الإعتذار، وهذا الجواب ليس بسديد، لأنّ الإعتذار موجود، ويعتذرون بدليل قوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧)﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١٠٦. فهذه الآية تنصّ على أنّهم يعتذرون بجهلهم وغلبة الشّقاوة عليهم، وأنّهم لو ردّوا بعدما علموا وأُخرجوا إلى الدّنيا لما يرتكبون شيئاً من المعاصي إلّا أنّه لا يقبل منهم هذا الإعتذار، كما قال تعالى: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨)﴾ سورة المؤمنون الآية/ ١٠٨. فالجواب الصّحيح أنّ في القيامة مراحل، ففي مرحلة قيام الأشهاد لا يقبل منهم أن يعتذروا ولا إعتذار لهم، وبعد ثبوت الحجّة عليهم يعتذرون فلا يفيدهم الإعتذار، لأنّه قد أعذروا في الدّنيا وبيّن لهم كلّ شيء (وقد أعذر من أنذر) فلا تفيد الكافرين معذرتهم **(ولهم اللّعنة)** أي بالحرمان من رحمة الله تعالى **(ولهم سوء الدار)** أي الدّار السّيئة والمنزل السيّئ وهو جهنّم بدليل قوله تعالى: ﴿إنّها﴾ أي جهنّم ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٦٦.

ثمّ أكّد الله تعالى نصره للرّسل وأثبته، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ (٥٣) هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٤)﴾

(و) وبعزّتي **(لقد آتينا موسى الهدى)** وهي شريعة الله تعالى المرسلة إلى موسى في التّوراة والّتى بيّن فيها الحقّ والباطل والخير والشّر **(وأورثنا بني أسرائيل الكتاب)** وأبقينا بعد موسى في بني أسرائيل **(الكتاب)** التّوراة كميراث **(هدىً)** أي لأن يهتدوا به

(وذكرى لأولي الألباب) لأصحاب العقول السّليمة ليعلموا ويتّعظوا ويتذكّروا بهذا الكتاب العظيم.

ثمّ بعد أن وعد الله تعالى رسوله بنصره أمره بالصّبر وعدم الاستعجال بالنّصر فقال جلّ وعلا:

﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾﴾

(فاصبر) يا أيّها النّبيّ وتحمّل المشقّة وإيذاء الأعداء ولا تستعجل **(إنّ وعد الله)** بنصرك **(حقّ)** ثابت يأتي لا محالة **(واستغفر لذنبك)** والرّسول معصوم من الذّنوب، والأمر بالاستغفار هو للاستغفار لأمّته، أو بمعنى طلب بقاء عصمة الله له من الذّنوب أو من أمور ليست ذنباً في الحقيقة، إلّا أنّه لا يليق بذاته ومقامه الجليل، كما عبّر عن ذلك الرّسول (ﷺ) فقال: (استغفروا فإنّه يغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم مائة مرة)[1] (وسبّح) ودم على الاعتراف بأنّ الله نزيه عن أن يعجز عن نصرك، وليكن ذلك التّسبيح مصاحباً **(بحمد ربّك)** أي بحمدك لربّك أي الاعتراف بكمال ربّك، فدم على ذلك وأظهره بالقول: **(بالعشيّ والإبكار)** أي في جميع الأوقات، لأنّه من القاعدة إذا ذكر طرفا الشّيء فالمراد جميعه، والمراد المساء أو الصبح خاصّة لدلالة ذينك الوقتين على قدرة الله تعالى وتصرّفه في ملكه والله أعلم.

ثمّ تطرق الله تعالى إلى أولئك الّذين لا يؤمنون بآيات الله، ويجادلون فيها بغير علم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾

(إنّ الّذين يجادلون في آيات الله) المتعلّقة بالبحث والنّشر والحساب والجنّة

(١) صحيح مسلم ٤/٢٠٧٥ الحديث رقم ٢٧٠٢.

والنّار، فيكفرون بالإحياء بعد الموت **(بغير سلطان)** حجّةٍ وبرهانٍ **(أتاهم)** من النّقل والعقل **(إن في صدورهم)** أي ليس قي قلوبهم ما يمنعهم من الإيمان **(إلّا كبر)** حبّ الرّياسة والسّؤود **(ماهم ببالغيه)** أي ليس هم ببالغ مقتضى ذلك الكبر وهو الرّياسة والسّؤود على النّاس **(فاستعذ بالله)** من ذلك الكبر الّذي يمنعك عن اتّباع الحقّ أو الإيمان به والأمر بهذه الاستعاذة للمخاطبين لا للرّسول (ﷺ) لأنّ الرّسول معصوم عن هذا الكبر، وهكذا يؤوّل كثير من الأوامر الواردة في القرآن، والّتي يكون الرّسول متلبّساً بمقتضياتها قبل الورود، إلّا أنّ الخطاب يوجّه إليه باعتباره مبلغاً أو لتأكيد الأمر، وقصد أنّ الرّسول مع كونه متلّبساً بذلك الطّلب واتّباعه بمقتضى الأمر يؤمر بذلك فكيف بغيره، أو المراد دم على ما أنت عليه في امتثال ذلك الأمر تقول للقائم قم أو للقاعد أقعد أي دم على قيامك أو قعودك، أو المراد به فاستعذ بالله من شرّ هؤلاء المجادلين في الدّنيا **(إنّه هو السّميع)** بجميع الأقوال **(البصير)** بالأعمال لا يخفى عليه شيء، ويحاسب النّاس حسب ذلك العلم، ويجازيهم وفق ما يسمع ويبصر من أقوالهم وأفعالهم.

ثمّ أراد الله تعالى ذكر ما يرد من استبعاد النّاس للحياة بعد الموت فقال جلّ وعلا:

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾

(لخلق السماوات) والكواكب والنّجوم **(والأرض)** والجبال وما فيها من نبات وحيوان ومعدن ومياه وعيون **(أكبر من خلق الناس)** أي أعادة النّاس بعد موتهم، فمن قدر على خلق هذا الكون العظيم فعلى إعادة خلق الإنسان في الآخرة أقدر **(ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون)** ذلك لأنّهم لايتفكّرون للوصول إلى الحقّ ولا يريدون ذلك، ثمّ ذمّ الله تعالى جهل المقصّرين في تحصيل العلم بالحقّ ومدح السّاعين للعلم، فشبّه العالم بالبصير والجاهل بالأعمى فقال: **(وما يستوي الأعمى والبصير)** كذلك لا يستوي العلم والجهل والكافر والمؤمن **(والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** لايستوون غيرهم وهم المؤمنون الفاسقون **(ولا المسيء)** في أيّ شيء كان، لايستوي غيره وهو المحسن في ذلك الشّيء،

وهذا أعمّ لأنّه يدخل فيه المسيء في العقيدة والعمل والأخلاق وغير ذلك **(قليلاً ما يتذكّرون)** لفظ ما للتأكيد؛ فالمعنى قليلاً قليلاً جدّاً يتذكّرون، أو هو للنّفي فالتّقدير ما يتذكّرون قليلاً، قدّم قليلاً وهو مفعول يتذكّرون عليه لئلّا يتوهّم أنّ النّفي لنفي القلّة في الذّكر أو هو لنفي التفكّر وإن كان قليلاً. ثمّ لمّا ذكر الله تعالى الأدلّة على إمكان الإحياء بعد الموت وسهولته على الله أخبر بأنّ ذلك يكون، وإنّ يوم القيامة آت فقال عزّ وجلّ: **(إنّ السّاعة)** أي يوم القيامة **(لآتيةٌ)** حقّاً **(لاريب فيها)** أي لاشكّ في مجيئها لمن تذكّر في الدّلائل المثبتة لها **(ولكنّ أكثر النّاس لا يؤمنون)** لأنّهم لايتفكّرون فيما يثبتها.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ السّاعة تأتي، أراد أن يذكر ما يضرّ النّاس لذلك اليوم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾

(وقال ربّكم ادعوني أستجب لكم) ورد الدّعاء ومشتقّاته في القرآن الكريم لمعان شتّى، والّذي نريد أن نذكره هنا هو الدّعاء إذا تعلق بالله تعالى، فنقول إذا تعلّق الدّعاء ومشتقّاته بالله تعالى فله معنيان:

الأوّل: التّضرع إليه تعالى لجلب منفعة أو دفع مضرّة أورفعها، والآيات الّتي ورد فيها الدّعاء بهذا المعنى كثيرة نذكر منها ثلاثاً:

١- قال تعالى: ﴿هنالك دعا ذكريّا ربّه قال: ربّ هب لي من لدنك ذرية طيّبةً إنّك سميع الدّعاء﴾ سورة آل عمران الآية/ ٣٨.

٢- قال تعالى: ﴿أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه ويكشف السّوء﴾ سورة النمل الآية/ ٦٢.

٣- قال تعالى: ﴿فدعا ربّه أنّي مغلوب فانتصر﴾ سورة القمر الآية/ ١٠.

الثّاني: **العبادة** : فقد ورد الدّعاء ومشتقاته بمعنى العبادة في كثير من الآيات نذكر منها أيضاً ثلاثاً:

١- قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو﴾ أي أنعبد ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ سورة الأنعام الآية/ ٧١.

٢- قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ﴾ أي لن نعبد ﴿مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)﴾ سورة الكهف الآية/ ١٤.

٣- قال تعالى: ﴿أَتَدْعونَ﴾ أي أتعبدون ﴿بَعلاً﴾ وهو اسم صنم ﴿وتَذَرونَ أَحْسَنَ الخالقينْ﴾ سورة الصافات/ ١٢٥.

تبيّن من ذلك أنّ الدّعاء ومشتقّاته المتعلّق بالله تعالى يكون معناه التّضرع إليه لجلب منفعة أو دفع مضرّة أو رفعها، ويعرف المراد من أحد هذين المعنيين بقرينة السّياق والمقام أو بقرينة المقال، وفي هذه الآية الّتي نحن بصدد تفسيرها وجدت قرينة المعنيين فإنّ قوله: **(أستجب لكم)** قرينة على أنّ المراد بقوله: **(ادعوني)** تضرّعوا إليّ وأطلبوا حوائجكم منّي؛ لأنّ الإجابة والاستجابه تستعملان للدّعاء بهذا المعنى، وقوله: **(إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنّم داخرين)** قرينة على أنّ المراد بادعوني اعبدوني؛ فالّذي يظهر من قوله تعالى هنا: (ادعوني) استعمل في كلا المعنين لوجود قرينتيهما معاً، فالمعنى أدعوني واعبدوني أستجيب لكم الدّعاء وأقبل منكم العبادة، والّذين لا يعبدونني ويستكبرون عن عبادتي **(سيدخلون جهنّم داخرين)** أي صاغرين أذلّاء، فتفيد الآية: أنّ العبادة يجب أن تكون لله تعالى وحده، وإنّ طلب الحوائج أيضاً يجب أن يكون من الله تعالى وحده، فإنّ هذا الطلب وحده عبادة أيضاً بدليل قول الرّسولﷺ: (الدّعاء مخ العبادة)[1] فإذن كلّ من عبد غير الله تعالى أو دعا من غيره قضاء الحوائج فهو مشرك.

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٤٥٦ الحديث رقم ٣٣٧١.

سؤال: قال تعالى: ﴿أدعوني أستجب لكم﴾ وإنّنا كثيراً ما ندعو فلا يستجاب لنا، فكيف يخلف الله تعالى وعده هذا؟ وخلف الوعد من الله تعالى محال.

الجواب: إنّ الدعاء عبادة مثل الصّلاة، ولها شروط وآداب، فكما أنّ الصّلاة لا تصحّ ولا تقبل إذا لم تستوفي شروطها وآدابها، فكذلك الدّعاء لا يستجاب ما لم يكن مستوفياً للشروط والآداب، قيل للجنيد البغدادي [رحمه الله تعالى]: لماذا ندعو الله فلا يجيب لنا؟ قال: لأنّ الله دعانا فلم نستجب له، وهذا ماصرّح به القرآن حيث يقول: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٨٦. فقوله: فليستجيبوا ... الخ، بيان لشرط إجابته الدّعاء منّا، وقال تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلّا في ضلال﴾ سورة الرعد الآية/ ١٤. فكلّ دعاء لا يستجاب فذلك لفقد شرط أو ركن أو آداب في الدّعاء نفسه أو الدّاعي، فكلّ امرئ يقبل دعواته بقدر استجابته لله تعالى وعبادته له تعالى، وأجاب القرطبيّ أيضاً عن هذا السّؤال بأجوبة كثيرة أحسنها قوله: وقال قوم: إنّ الله تعالى يجيب كلّ دعاء، فإمّا أن تظهر الإجابة في الدّنيا، وإمّا أن يكفّر عنه، وإمّا أن يدّخر له في الآخرة، لما رواه أبو سعيد الخدري (ﷺ) قال: قال رسول الله (ﷺ): (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحم إلّا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إمّا أن يعجّل له دعوته، وإمّا أن يدّخر له، وإمّا أن يكفّ عنه من السّوء بمثلها، قالوا: إذاً نكثِر؟ قال: الله أكثر[1]. هذا ثمّ أراد الله أن يذكر من صفاته ما يستدلّ له على أنّه هو الحقيق بأنّ يدعى ويعبد، وأنّه يقتدر استجابة دعوات العباد وقبول عباداتهم، فقال: **(الله الّذي جعل)** أي خلق **(لكم اللّيل)** مظلماً لتسكنوا فيه وتستريحوا **(والنّهار مبصراً)** مضيئاً لتعملوا فيه وتشتغلوا **(إنّ الله لذو فضل)** أي صاحب نعمةٍ كثيرةٍ **(على النّاس)** كلّهم **(ولكنّ أكثر النّاس لا يشكرون)** الله تعالى على نعمه لأنّهم يكفرون به أو يشركون أو يعصون أوامره ويرتكبون مناهيه **(ذلكم الله)** الّذي خلق لكم نعم الدّنيا كلّها **(ربّكم)** لاربّ لكم سواه **(الخالق)** موجد **(كلّ شيء من العدم لا إله)** لايستحقّ أن يعبد ويطاع **(إلّا هو فأنّى تؤفكون)** فكيف تنصرفون عن عبادة هذا الخالق إلى عبادة غيره وعن طاعته إلى طاعة من سواه **(كذلك)** مثل ما تعلم وترى **(يؤفك)** يصرف **(الّذين كانوا بآياتنا يجحدون)** ينكرون ولا يؤمنون بها. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أموراً أخرى من

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٢٢ الحديث رقم ٢٩١٧٠.

دلائل عظمته وجلائل قدرته فقال جلّ وعلا: **(الله الّذي جعل لكم الأرض قراراً)** أي محل استقرار تستقرّون عليها **(والسّماء بناءً)** فوقكم **(وصوّركم فاحسن صوركم)** حيث خلقكم في أحسن تقويم **(ورزقكم من الطّيبات)** أي من المأكولات والمشروبات الطّيبة الّتي يستطيبها الّذوق والشّهيّة **(ذلكم الله)** أنعم عليكم بنعمة الاستقرار في الأرض وحسن التّصوير ورزق الطّيّبات **(ربّكم)** الّذي يربيكم ماديّاً ومعنويّاً، فالتزموا تربيته ولا تنحرفوا عنها فإنّ كلّ تربية غير تربية الله تعالى ضلالة، وصاحبها في النّار **(فتبارك)** أي فتعالى **(الله)** الّذي خلق هذه الأشياء وأنعم بهذه النّعم هو **(ربّ العالمين)** لا غيره **(هو الحيّ)** هو المتّصف بالحياة لا غيره، لأنّ حياته قديمةٌ أزليّةٌ وأبديّةٌ لا يعتريها الموت والفناء، وغيره من الأحياء كلّها حياتها حياة حادثة معرضة للزّوال كلّ آن ويعتريها الموت والفناء، فهذه الحياة لا تعدّ في الحقيقة حياةً كما قال الشّاعر:

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

(لا إله) أي لا معبود ولا مطاع يستحقّ العبادة والإطاعة **(إلّا هو)** وحده لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في أحكامه، فإذا كان هو بهذا الحال **(فادعوه)** ولا تدعوا غيره، فإنّه هو الّذي يستحقّ أن يدعى ويعبد فادعوه **(مخلصين)** وأخلصوا **(له الدّين)** من كلّ شائبة وأغراض سوى ابتغاء وجهه **(الحمد)** الكمال المطلق **(لله ربّ العالمين)** كلّهم فيربّي كلّ شيء حسب ما يليق به وحسب ما قدّر له. هذا ويظهر من سياق الآيات الكريمة أنّه حينما دعا رسول الله (ﷺ) النّاس إلى أن يدعوا الله ولا يدعوا غيره، وأن يعبدوه وحده، وبدأ لهم بذكر جليل صفاته وعظيم خلقه على أنّه هو الحقيق بالدّعاء والسّعادة، وأنّ غيره باطل لا يليق بشيء من ذلك، فيظهر أنّ النّاس طالبوا منه أن يعود إلى بعض دينهم تقليداً للآباء والأجداد وإرضاءً لهم، فأمره الله تعالى أن يصارحهم في الموضوع وأن يقطع أملهم في ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿۞قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾

(قل إنّي نهيت) نهاني الله تعالى من **(أن أعبد)** أعظم وأقدس أو أطيع **(الّذين تدعون)** هم تعظّمونهم أو تقدّسونهم أو تطيعونهم **(من دون)** من غير **(الله)** تعالى فنهيت

عن ذلك كلّه (**لمّا جاءني البيّنات من ربّي**) أي الدّلائل والبراهين الواضحة الّتي تدلّ على أنّ العبادة والإطاعة لغير الله، أو التّعظيم والتّقديس وطلب الحوائج من غيره باطلة وكفر وإلحاد (**وأمرت**) من قبل الله تعالى (**أن أسلم**) أنقاد كلّ الانقياد (**لربّ العالمين**) لا غيره فإنّه ربّ العالمين لا غيره، فهو الحقيق بالانقياد والتّعظيم والإطاعة لا ما سواه.

ثمّ أشار الله تعالى إلى ما يوجب هذا الانقياد لله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾

(**هو الّذي خلقكم**) أوجدكم من تراب لأنّ التّراب يصير نباتاً وحبوباً وهي تكون غذاءً (**ثمّ من نطفةٍ**) لأنّ الغذاء يصير نطفةً (**ثمّ من علقةٍ**) لانّ النّطفة بعد أن يقذف في الرّحم تصير علقة (**ثمّ**) بعد تمام مدّة الحمل (**يخرجكم طفلاً**) ضعيفاً لا قوّة لكم (**ثمّ**) بعد الضّعف (**لتبلغوا**) اللّام هنا وفيما يلي لام العاقبة أي تبلغون بعد الضّعف (**أشدّكم**) حالكم الأقوى (**ثمّ لتكونوا**) أي تصيرون (**شيوخاً**) ضعافاً، هذا إنّ أمد الله تعالى في عمركم فليس كلّ إنسان يرى هذه الأطوار بل (**ومنكم**) وبعض منكم (**من يتوفّى**) يموت (**من قبل**) أي من قبل هذه الأطوار، فمنكم من يموت قبل الخروج طفلاً فيقع سقطاً، ومنكم من يموت قبل بلوغه القوّة في وقت الصّبا أو المراهقة، ومنكم من يموت قبل الشّيخوخه (**ولتبلغوا**) أي والحال أنّ كلّ من يموت في طور من هذه الأطوار إنّما يموت حينما يبلغ (**أجلاً مسمىً**) أي أجلاً معيناً له من عند الله تعالى لا يتقدّم أجله هذا ولا يتأخّر عنه (**لعلّكم تعقلون**) خلقكم بهذه الأطوار، ولتعلموا أنّ هناك خالقاً عليماً قديراً مختاراً خلقكم هذا الخلق، وليس الإنسان من صنع التّطور أو الطّبيعة أو غير ذلك (**هو الّذي يحيي**) من يحيا (**ويميت**) من يموت لا يستطيع ذلك سواه (**فإذا قضى**) أي أراد (**أمراً**) أن يفعله قال له: (**كن فيكون**) ولا يحتاج إلى شيء آخر غير إرادته.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى هذه الدّلائل الواضحة وذكّر النّاس بما يدلّ على عظمته وجلاله ووفرة نعمته عمّا يوجب توحيده وعبادته، وترك ما هم عليه من عبادة الغير

والإنحراف عن منهج الله تعالى، وأصرّ الكفرة المشركون على ضلالهم واستكبارهم، أنذرهم بعذاب شديد فقال جلّ وعلا:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَـٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ وَٱلسَّلَـٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾

(ألم تر) أي ألم تنظر **(إلى الّذين يجادلون في آيات الله)** لتعرف حالتهم الشّنيعة وعقليّتهم السّخيفة من مجادلتهم في آيات ودلائل الله الواضحة الّتى تدلّ على عظمته وقدرته ووفير نعمته واستحقاقه للتّوحيد بالعبادة وإلانقياد له، والاستفهام للتّقدير، فالمعنى أنظرت إليهم وعلمت حالهم بل وتعجّبت منهم ومن أنّهم **(أنى يصرفون)** كيف ينصرفون من هذه الآيات ومن توحيد الله تعالى والإيمان برسوله والعمل بشريعته إلى الشّرك والإنكار أو الانحراف عن دين الله، والاستفهام للتّعجب فالمعنى يتعجّب من انحرافهم هذا وإبتعادهم عن الإيمان والتّوحيد واتّباع الرّسول بعد وضوح هذه الآيات والدّلائل والبراهين على ضلالهم والدّاعية إلى الإيمان واتّباع الرّسول. ثمّ بيّن كيفيّة صرفهم عن مقتضى الآيات والدّلائل فقال عزّ وجلّ: **(الّذين كذّبوا بالكتاب)** القرآن الّذي أنزل إليهم **(وبما أرسلنا به رسلنا)** كلّهم من وجوب توحيد الله تعالى بالعبادة والعمل بشريعته ودينه **(فسوف يعلمون)** عاقبة تكذيبهم هذا ومرارة عاقبته الوخيمة وذلك **(إذ الأغلال)** تشدّ **(في أعناقهم والسّلاسل)** تقيّد بها أيديهم وأرجلهم **(يسحبون)** على هذه الحالة **(في الحميم)** أي في ماء جهنّم الحار **(ثمّ)** بعد ذلك **(في النّار يسجرون)** يطرحون **(ثمّ)** بعد ذلك (قيل لهم) تهكّماً وتفريقاً **(أين ما كنتم تشركون)** أي تعبدون من دون الله فأين هم لينقذوكم من هذا العذاب كما اعتقدتم ذلك في الدّنيا وما أجبتم قول الدّعاة إلى توحيد

الله تعالى **(قالوا)** في شدّة من الحسرة والنّدامة **(ضلّوا عنّا)** غابوا عنّا ولم ينفعونا شيئاً **(بل)** أي لم يغيبوا عنّا فإنّهم في جهنّم معنا إلّا أنّه **(لم نكن ندعوا)** نعبد **(من قبل)** أي في الدّنيا **(شيئاً)** ينفعنا بل عبدنا ما يضرّنا عبادتهم، وهكذا اعترفوا ببطلان عبادة الأصنام وضلالهم في الدّنيا **(كذلك)** مثل ماعلمت **(يضلّ الله)** أي يظهر الله تعالى ويثبت ضلال **(الكافرين)** بحيث أنّهم يعترفون بضلالهم وبطلان آلهتم **(كذلك)** الضّلال الّذي ساقكم إلى هذا العذاب الّذي أصابكم **(بما كنتم تفرحون ىي الأرض بغير الحقّ)** فتفرحون بالباطل وتكرهون الحقّ **(وبما كنتم تمرحون)** تبطرون بأعمالكم الباطل، كلّ ذلك حبّاً للشّهوات واتّباعاً للنّفس والهوى وكلّ شيطان مريد من الإنس والجنّ، فلا تلوموا إلّا أنفسكم نتيجة لهذا الفرح بالباطل والمرح بالشّهوات وعقاباً على ذلك **(ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها)** من قبيل ركب القوم دوابهم، فالمعنى فليدخل منكم كلّ فريق من الباب الّذي عيّن له من أبواب جهنّم، وذلك حسب العقائد والأعمال، فللمشركين باب وللملحدين باب إلى غير ذلك من أنواع الكفر **(خالدين فيها)** في جهنّم **(فبئس مثوى المتكبّرين)** فبئس مثواكم إلّا أنّه وضع المتكبّرون موضعكم، إشارة إلى أنّ سبب كفرهم ودخولهم كان التكبر، وأنّ جهنّم مثوىً لكلّ متكبّر لا لهم فحسب. اللّهم أجرنا من الكبر ومن عاقبة الكبر آمين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(فاصبر) على الأذى والمشقّة والاستكبار الّذي تلاقيه من الكفرة والمشركين **(إنّ وعد الله)** بنصرك وهزيمتهم وعذابهم **(حقّ)** ثابت يأتي لا محالة **(فإمّا نرينّك بعض الّذي نعدهم)** من العذاب فنعذّبهم قبل وفاتك فترى عذابهم **(أو نتوفينّك)** قبل أن نعذّبهم، فالمعنى العذاب يأتي عليهم حتماً، إمّا قبل وفاتك أو بعده، أو المعنى بعضهم قبل وفاتك وبعضهم بعدما توفّيناك. وقد وقع هذا الوعد فإنّهم عذّبوا في حياته بالقتل والأسر

والإستيلاء، وبعضهم تمّ الإستيلاء عليهم بعد وفاته، وهذا العذاب في الدّنيا وأمّا بالنّسبة للآخرة **(فإلينا يرجعون)** فنعذّبهم هنالك حسبما يستحقّون **(ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك)** للأمم السّابقة وكلّهم لقوا ما لقيت من التّكذيب والاستهزاء والعداء من قبل المستهزئين بالدّين وهؤلاء الرّسل **(منهم من قصصنا عليك)** وعرفت ما لاقوا من الأذي، فصبروا إلى أن نصرهم الله تعالى **(ومنهم من لم نقصص عليك)** حيث لم تدع الحاجة إلى قصّتهم. ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) أحبّ أن يعطيه الله تعالى معجزة كبيرة يقنع بها قومه كما أراد قومه وطلبوا منه ذلك فقال تعالى: **(وما كان لرسول أن يأتي بآية)** أي بمعجزة **(إلّا بإذن الله)** له وأمره إيّاه، فدعهم إلى أن يأتي أمر الله تعالى **(فإذا جاء أمر الله)** بعذابهم كلّهم أو إسلامهم كلّهم أو إسلام بعض وإيمان بعض **(قُضي)** قضى الله **(بينهم)** حسب ما أراد **(وخسر هنالك المبطلون)** أي و خسر في ذلك الوقت المستمرّون على الباطل و المتمسّكون به.

ثمّ أراد الله تعالى بعد هذا الوعيد الشّديد أن يذكر لهم بعض ما أنعم به عليهم لعلّهم يشكرون تلك النّعم فيؤمنوا فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾

(الله الّذي جعل) سخّر **(لكم الأنعام)** جمع النّعم وهي الإبل و البقر و الضّأن والمعز **(لتركبوا منها)** أي لتركبوا بعض منها وهو الإبل **(ومنها)** ومن كلّ منها **(تأكلون)** اللّحم **(ولكم فيها)** في المجموع منها **(منافع)** كاللّحم واللّبن والصّوف والوبر والسّماد **(ولتبلغوا عليها)** أي على بعض منها، وهي الإبل فتبلغون بالرّكوب عليها **(حاجةً)** إلى حوائج **(في صدوركم)** لتقصد البلوغ عليها في البلاد الأخرى غير بلدتكم، مثل شراء أموال التّجارة ونقلها والزّيارة والسّياحة وغير ذلك ممّا يسافر إليه النّاس ويركب على الإبل لذلك **(وعليها)** وعلى بعض الأنعام وهو الإبل **(وعلى الفلك)** السّفن **(تحملون)** أنتم وحوائجكم **(ويريكم)** الله **(آياته)** الدّالّة على ألوهيّته واستحقاقه التّوحيد في الألوهيّة والعبادة، وتلك الآيات ترى مستمرّة في السّماء والأرض وفي الآفاق والأنفس، ونقول هنا إشارةٌ لطيفةٌ جدّاً وهي أنّ الله تعالى لمّا ذكر الإبل والفلك كنعمة للرّكوب والحمل

عليها، فقال تعالى: **(ويريكم آياته)** أي ويريكم نعمه ممّا تحملون عليه من غير الفلك والإبل على استمرار الزّمان، ففي كلّ الزّمان يوجد لكم مراكب جديدة كالقطارات والسّيارات والطّائرات، و ما ندري ماذا يرينا الله تعالى غير ذلك فيما بعد، والله يعلم وأنتم لا تعلمون[1] (فأيّ آيات الله) تعالى **(تنكرون)** والاستفهام للتّعجيز، معناه لا تستطيعون إنكارها فإنّها واضحة لا تتحمّل الإنكار إلّا من قبل مجنون ومعتوه.

ثمّ أمر الله تعالى السّير في الأرض والنّظر الى أحوال الأمم السّابقة وما جرى عليهم نتيجة الكفر والعناد والانحراف عن دين الله تعالى ومنهجه، وذلك للعبرة والإتّعاظ بهم، وعدم التّخلّق بأخلاقهم، وعدم السّير وراءهم في تكذيب الرّسول والانحراف عن الدّين فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾

(أفلم يسيروا في الأرض) الاستفهام للإنكار وإنكار النّفي إثبات، فالمعنى ليسيروا في الأرض **(فينظروا)** ويطّلعوا ويعلموا **(كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم)** من الأمم الّذين **(كانوا أكثر منهم)** عدداً **(وأشدّ قوّة وأثاراً)** أي تعميراً **(في الأرض فما أغنى عنهم)** أي فما دفع عنهم **(ما كانوا يكسبون)** من بناء وعمارات وما يعلمونه من أعمال وأخلاق، فما دفع عنهم كلّ ذلك شيئاً من العذاب حينما سلّط عليهم بل **(فلمّا جاءتهم رسلهم)** من قبلُ **(بالبيّنات)** بالدّلائل الواضحة والمعجزات الدّالة على صدقهم وحقيقة رسالتهم وما جاؤوا به فلم يؤمنوا بهم لأنّهم **(فرحوا)** اغترّوا **(بما عندهم من العلم)**

---

(١) وقد سبق قوله تعالى (ويخلق مالا تعلمون) الذي يدل على هذا المعنى أيضا.

بالبناء أو العمران، أو بما كانوا يعملون به من عادات وتقاليد وأعراف باطلة وأحكام وضعيّة وضعوها من عندهم لإدارة شؤون العباد فانتقم الله تعالى منهم **(وحاق بهم)** أي أحاط بهم **(ما كانوا)** عقوبة ما كانوا **(به يستهزئون)** ممّا جاء به الرّسل من الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل بشريعة الله ونظامه، وترك ماهم عليه من قوانين أرضيّة وأعراف وتقاليد باطلة، فأتاهم العذاب **(فلمّا رأوا بأسنا)** أي عذابنا ندموا من كفرهم وعنادهم للرّسول حيث **(قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنّا به مشركين)** من الأصنام والأوثان والأشخاص **(فلم يك ينفعهم إيمانهم)** هذا لأنّ الإيمان حين اليأس وبعد مجيء العذاب لا ينفع فلم ينفعهم إيمانهم **(لمّا رأوا بأسنا)** عذابنا، وهذا أي عدم قبول الإيمان ونفعه بعد معاينة العذاب **(سنّة الله الّتى قد خلت في عباده)** حيث لم ينفع كلّ الأمم الإيمان بعد معاينة العذاب إلّا قوم يونس، فهم قبل منهم الإيمان لأنّ رسولهم تركهم ولم يبق فيهم **(وخسر هنالك)** أي حين مجيء العذاب **(الكافرون)** فخسروا الدّنيا لأنّهم أهلكوا وخسروا الآخرة، لأنّهم لم يؤمنوا حينما كان ينفع الإيمان. هذا ماوصل إليه الفكر الفاتر والذّهن القاصر فنرجو من الله تعالى القبول وحسن الأعمال، والأجر الجزيل في الدّنيا والآخرة وهو أرحم الرّاحمين.

سورة فصّلت

(مكيّة، وآياتها أربع وخمسون، نزلت بعد سورة غافر، سمّيت سورة فصّلت لقوله تعالى: ﴿كتاب فصّلت آياته﴾، وتسمّى سورة المصابيح أيضاً، لما فيها من قوله تعالى: ﴿وزيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح﴾، وتسمّى سورة السّجدة أيضاً، لما فيها من آية السّجدة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾

(حم) مرّ تفسيره **(تنزيل)** خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا، أي ما يتلى عليك تنزيل أي منزّل **(من الرّحمن)** ذكر هذا الاسم للإشارة إلى أنّ الله تعالى نزّل هذا الكتاب رحمةً بالنّاس؛ فإنّ فيه ما يوجب سعادتهم في الدّنيا والآخرة من الأحكام العادلة والأخلاق الفاضلة والدّعوة إلى عبادة الله تعالى الّذي بيده كلّ شي، وعقّبه بـ **(الرّحيم)** إشارةً إلى أنّ رحمته للنّاس ليس لعلةٍ أو غرض أو حاجة إليهم، أو إلى عبادتهم، بل لأنّه رحيم من صفته الرّحمة ويحبّ الرّحمة، فلذلك رحم بهم، ونزّل لهم هذا الكتاب الّذي يهدي للّتي هي الأقوم **(كتاب)** بيان للمنزّل، كأنّه قيل: فما هو ذلك المنزّل؟ فقال: هو كتاب **(فصّلت)** بيّنت **(آياته)** من آيات الأحكام والأخلاق والعقائد والقصص والعبر

والوعد والوعيد **(قرآناً)** حال من آياته جيئ بها للتّعليل، فكأنّه قيل: كيف فصّلت آياته؟ فقال: لكونه قرآناً مقروءاً **(عربيّاً)** نزّل **(لقوم يعلمون)** العربيّة فلا يخفى عليهم معاني آياته **(بشيراً ونذيراً)** حالان من آياته أيضاً، أي مبشّرة تلك الآيات لمن آمن بها وعمل بها بالجنّة، ومنذرة لمن كفر بها أو انحرف عنها بالنّار **(فأعرض أكثرهم)** أي وكانت نتيجة هذا الإنذار والتّبشير أنّه أعرض عن القرآن أكثر هذا القوم **(فهم لا يسمعون)** تلك الآيات سماع تدبّر وتفكّر وسماع إيمان واتّباع، بل كفروا بها **(وقالوا)** للرّسول (ﷺ) حينما كان يبشّرهم وينذرهم عناداً واستكباراً **(قلوبنا في أكنةٍ)** في أغطية ومناعةٍ **(ممّا تدعونا إليه)** من الإيمان والتّوحيد واتّباع ما جئت به، وتصديقك في الرّسالة فلا تدع هذه الأكنّة أن يدخل ما تقول في قلوبنا فنصدّقه **(وفي آذاننا وقر)** أي ثقل يمنعها عن سماع ما تدعو إليه **(وبيننا وبينك حجاب)** وهو الاختلاف في العقيدة يمنعنا من اتّباعك **(فاعمل)** في دعوتك **(إنّنا عاملون)** في صدّ النّاس عنك ومعاداة دعوتك إلى أن يخسر وينهزم أحد الجانبين.

ثمّ علم الله تعالى كيفيّة الدّعوة والتّوابع واللّين فيها فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾

(قل انّما أنا بشر مثلكم) ولا أريد التّفضل والكبرياء عليكم، وأنّ الّذي أقول لكم ليس من عندي بل **(يوحى إليّ)** من الله تعالى أنّه **(إنّما إلهكم)** معبودكم الّذي يجب عبادته وطاعته والتّضرع إليه في الحوائج والملمّات **(إله واحد)** معبود واحد لا أكثر من ذلك، وهو الله تعالى وهو وكلّ ما سواه ممّا يعبده النّاس ويتضرّعون إليه باطل، ومن توجّه إليهم ضالّون **(فاستقيموا)** أي فتوجّهوا بالعبادة والاستغاثة مستقيماً **(إليه)** وحده **(واستغفروه)** ممّا صدر منكم من الإعوجاج فيما مضى **(وويلٌ)** وعذاب عظيمٌ أعدّ **(للمشركين)** جميعهم وبأي نوع من أنواع الشّرك شركهم **(الّذين لا يؤتون الزّكاة)** خصّ منهم الّذين لا يعطون الزّكاة، وقد أشكل تفسير هذه الفقرة لوجهين:

الأوّل: أنّ السّورة مكيّة وأنّ الزّكاة لم تفرض إلّا في السّنة الثّانية للهجرة، فكيف

لام المشركين على عدم إتيانهم لها وأنّها لم توجد بعد؟

الثاني: أنّ المشركين وكل كافر لم يلتزم بالإسلام ليس مكلّفاً بالفروع وواجبات الإسلام على الأصحّ.

وأجيب عن ذلك بوجوه:

الوجه الأوّل: أنّ الكافرين مكلّفون بالفروع والواجبات، وهذه الآية إحدى الأدّلة على ذلك، وهذا الجواب ضعيف وخطأ، لأنّه وإن كانوا مكلفين بالفروع فهذه الآية لا تكون دليلاً، لأنّها نزلت في مكّة والزّكاة لم تفرض بعد ليكونوا مكلّفين بها وملومين على عدم أدائها.

الوجه الثّاني: أنّ المراد بالزّكاة زكاة النّفس، فالمعنى الّذين لا يزكّون ولا يطهّرون أنفسهم من الكفر والشّرك، وهذا أيضاً غير سديد لأنّ الزّكاة بمعنى التّزكية والتّطهر لا يدخل تحت الإيتاء، فيقال: زكّى نفسه، ولا يقال: أدّى زكاة نفسه، قال تعالى: ﴿قد أفلح من زكّها﴾[١].

الوجه الثّالث: وهو الصّحيح الّذي لا غبار عليه أنّ الزّكاة كانت موجودة بين أهل مكّة والمشركين، وكانت خصلة باقية من دين سيّدنا إبراهيم واسماعيل (على نبّينا وعليهما الصّلاة والسّلام) قال تعالى: ﴿وأذكر في الكتاب اسماعيل إنّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيّاً. وكان يأمر أهله بالصّلاة والزّكاة وكان عند ربّه مرضيّاً﴾ سورة مريم الآية/ ٥٥، ٥٦. فالزّكاة فريضة قديمة في كلّ دين، ومعنى أنّه فرضت في ما بعد الهجرة أن أمدّ الإسلام فريضته ومدّد أنصبته ومقاديره من كلّ نوع من أنواع الأعمال[٢]. ثمّ علّل الله تعالى عدم أعطائهم الزّكاة بقوله: **(وهم بالآخرة هم الكافرون)** فمن لم يؤمن

(١) سورة الشمس الآية ـ ٩.

(٢) من المعروف أن أهل كل مبدأ ودين يصفون أنفسهم بخصال مقبولة لدى الناس للإستدلال بحسن العمل على حسن العقيدة، و من المتفق عليه بين الناس أن إعانة الفقراء والمحتاجين خصلة مقبولة وخلق حسن، لذلك نرى أن الله تعالى عيرهم بما هو متفق عليه وهو عدم اتصافهم بإعانة الفقراء والمحتاجين عن طريق الزكاة والتي كانت معروفة لدى جميع الأديان، كما عيرهم بالكفر الذي جاء القرآن لإزالته، للدلالة على أنه كما أنه خلقهم المتفق عليها باطلة فكذلك ما يعتقدونه باطل أيضا. وكثيرا ما يستدل بسوء الأعمال على سوء الفكر والإعتقاد لأن الأولى وليدة الثانية. والله تعالى أعلم.

بالآخرة والثّواب فيها على الزّكاة والعقاب على تركها لا يؤدّيها ولا يحمل نفسه هذه الخسارة حسب ظنّه. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى عاقبة الشّرك من العذاب الشّديد ترهيباً عن الشّرك ذكر ما للمؤمنين الموحّدين من الثّواب ترغيباً في الإيمان والإسلام فقال تعالى: **(إنّ الّذين آمنوا)** بالقرآن وبمن جاء به وهو الرّسول (ﷺ) وأعرض عن الكفر والشّرك **(وعملوا الصّالحات)** الّتي استحسنها الإسلام والرّسول **(لهم)** عند الله تعالى **(أجر غير ممنون)** غير مقطوع وغير منته في الآخرة وفي الدّنيا، فإنّ الإسلام وآدابه سبب لسعادة الدّارين لا لإحداهما فقط كما قرّر في موضعه.

ثمّ علم الله تعالى رسوله كيفيّة الاستدلال على حقيقة ما يدعو إليه من التّوجه إلى الله تعالى والاستغفار من الشّرك والكفر فقال في صورة الاستفهام المتضمّن معنى الإنكار والتّعجب من حالهم فقال جلّ وعلا:

﴿۞قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾

هذه الآية بيان وتفصيل لقوله تعالى: ﴿إنّ ربّكم الله الّذي خلق السّماوات والأرض في ستّة أيام﴾ سورة الأعراف الآية/ ١٥٥. فبيّن الله تعالى هنا أنّ خلق الأرض استغرق يومين كما قال: **(قل أإنّكم لتكفرون بالّذي خلق)** أي أوجد الأرض في يومين من تلك الأيام السّتّة، فهل تكفرون بهذا الخالق القدير الّذي خلق الأرض في هذه المدّة القصيرة **(وتجعلون له أنداداً)** جمع ند وهو الشّريك الضدّ، أي تجعلون له شركاءَ أضداداً له. وهذا ممّا يتعجّب منه لأنّ هذا القادر العظيم لاشيء يستطيع أن يكون له شريكاً أو ضدّاً، **(ذلك)** الّذي خلق الأرض هو **(الله ربّ العالمين)** أي مالك كلّ ما سواه، فكيف يكون مملوكه ضدّاً أو شريكاً له. ثمّ بيّن تعالى أنّ يومين آخرين من الأيام السّتّة خلق الله تعالى فيهما ما في الأرض وما عليها، فصارت الأيام الّتي خلق فيها الأرض وما

يتعلّق بها أربعة أيّام فقال: **(وجعل فيها)** أي في الأرض **(رواسي)** جمع راسية بمعنى ثابتة وراسخة، والمراد لها الجبال الرّاسخة والثّابتة الّتى تثبت الأرض وتحتها من الحركة والإضطراب. وتلك الرّواسي تقع **(من فوقها)** أي فوق الأرض. ففي قوله تعالى: **(وجعل فيها)** بمعنى على **(وبارك فيها)** أي وخلق البركة فيها من العيون والآبار والبنات والمعادن **(وقدّر فيها أقواتها)** أي خلق فيها أقوات الحيونات والإنسان بقدر ما يحتاجون إليها، وخلق تعالى كلّ هذه الأشياء **(في)** يومين من تتّمة **(أربعة أيام)**، وهذا الكلام مثل ما يقال: ذهب إلى بغداد في عشرة أيام وإلى البصرة في خمسة عشر يوما والمسافة كلّها خمسة عشر يوما، فالمعنى ذهب إلى بغداد في عشرة أيّام وإلى البصرة في خمسة أيّام تكملة خمسة عشر يوماً. فصار خلق الأرض في يومين وخلق ما فيها وما عليها في يومين، فالمجموع أربعة أيام، وبقي يومان لخلق السّماوات والنّجوم والكواكب والشّمس والأقمار **(سواء للسائلين)** أي مستوية هذه الأقوات للسّائلين عن الرّزق. بمعنى خلقها كافية لهم ومساوية بمقدار ما يحتاج السّائلون إليه والسّاعين له **(ثمّ)** بعد أن خلق الله الأرض وماعليه وفيها **(استوى)** توجّهت إرادته **(إلى السّماء)** خلق السّماوات **(وهي)** أي السّماوات قبل خلقها بهذه الهيئة **(دخان)** كانت كتلة من الدّخان فخلق من هذا الدّخان السّماوات كلّها في اليومين الباقيين في الأيام السّتة. وبعد خلق السّماوات والأرض خاطبها الله تعالى **(فقال لها)** للسماء **(وللأرض إئتيا)** أي انقادا واعملا حسب إرادتي **(طوعاً وكرهاً)** فلا مجال لكما إلّا الإطاعة والانقياد، أي أعملا حسب ما أريد **(فقالتا أتينا)** أي أطعنا أمرك **(طائعين)** مسرورين لهذا الانقياد لك ولا نكره ذلك **(فقضاهن)** أي فقسّم السّماء وجعلها **(سبع سماوات)** وجمع الضّمير في قضاهنّ باعتبار ما صارت إليه جمعاً وهو سبع سماوات، وخلق السّماوات السّبع كان في يومين من الأيّام السّتة.

(وأوحى) أي وعين وقدر **(في كلّ سماء)** من هذه السّماوات **(أمرها)** عملها المنوط بها والّذي أمرت السّماء بعمله وبالانقياد في أداء ذلك العمل حسبما أراد ربّها **(وزيّنا السّماء الدّنيا)** أي القريبة من الأرض وهو السّماء الأولى من جانب الأرض لمن يصعد إلى السّماوات فزيّنا هذه السّماء **(بمصابيح)** أي بكواكب مضيئةٍ نصبناها فيها أو أمامها لتكون زينة للسّماء **(حفظاً)** ولتكون حفظاً للسّماء من صعود الشّياطين إليها، إذ كلّ ما صعد شيطان إلى السّماء رمي بشهاب وهو شرارة تنفصل من الكوكب فتصيبه فتقتله أو تخبلّه قبل أن يصل إلى حيث يريد السّماء لاستراق السّمع **(ذلك)** الخلق العظيم كلّه **(تقدير العزيز)** الغالب القادر على ما يريد من الخلق **(العليم)** بكيفيّة الخلق.

فبهذه القدرة العظيمة وبهذا العلم اللّامتناهي خلق هذا الخلق العظيم وقدّره ونسقه حسبما أراد وكما نراه.

سؤال: ما هو المراد بهذه الأيام السّتة وكم هي مقاديرها؟

الجواب: لاشكّ أنّه ليس المراد بها أيّامنا هذه، لأنّ هذه الأيام تحدث بحركة الأرض حول الشّمس، وفي بدء الخلق لم يوجد الأرض ولا الشّمس، فلابد أن يكون المراد بها أيّاماً غير أيّامنا هذه، وقد ورد في مكانين من القرآن الكريم إطلاق اليوم على ما يزيد على يومنا بكثير، والمكانان هما:

الأوّل: قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ سورة الحج الآية/ ٤٧. فإن أريد باليوم من الأيّام السّتّة مثل هذا اليوم، فيكون خلق الأرض وما فيها وعليها في أربعة آلآف سنةٍ من سنواتنا، وخلق السّماوات وما يتبعها من الكواكب والنّجوم والشّمس والأقمار في ألفي سنةٍ من هذه السّنوات.

الثّاني: قال تعالى: ﴿تعرج الملائكة والرّوح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ سورة المعارج الآية/ ٤. فإن أريد هذا اليوم فيكون خلق الأرض وما يتبعها في مائتي ألف سنة، وخلق السّماوات وما معها في مائة ألف سنة، فإن قيل: لماذا لا يقال: إنّ المراد بقوله تعالى: (في ستّة أيّام) في مدّة معلومة عند الله تعالى تقدر بستّة أيّام من أيّامنا هذه؟ قلنا هذا يصبح بإعتبار العبادة والتّعبير العربي، إلّا أنّ علماء طبقات الأرض ونظريّاتهم واستكشافاتهم تقول: إنّ المدّة الّتي استقرت فيها الأرض كما هي صالحة للاستقرار والحياة عليها تزيد على نحو ألفي مليون سنة من سنواتنا، فإنّ صحّت نظرياتهم فتكون تلك زائدة على اليوم في سورة [الحج] واليوم في سورة [المعارج] أيضاً، ولعلّ أن تكون هذه الأيّام السّتة ستّة دورات لدوران العرش، والله أعلم ما هو المراد بهذه الأيّام، وكم كان مقدارها حيث لا نص فيها فيفوّض علمها إلى الله، لا سيّما لا يتعلّق بذلك حكم من أحكام الدّين، فلا حاجة إلى الخوض في هذا البحث أكثر من ذلك، وإذا أردت زيادة علم في الموضوع فعليك بالرّجوع إلى تفسير (في ظلال القرآن) للسّيد قطب (رحمة الله تعالى عليه) فيما يتعلّق بتفسير هذه الآية.

ثمّ بيّن الله تعالى للرّسول (ﷺ) أنّه ماذا يعمل إذا لم يسمع المنكرون هذه المواعظ الحسنة ولم يتفكّروا في هذه الدّلائل المقنعة واستمروا على الكفر والعتوّ والاستكبار فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾

(فان أعرضوا) عن هذه المواعظ ولم يتّعظوا بها وعن هذه الدّلائل فلم يقتنعوا بها، واستمروا على كفرهم وشركهم وعنادهم، فأنذرهم بالعذاب **(فقل)** إذا لم تؤمنوا **(أنذرتكم صاعقةً)** مصيبة وداهية مهلكة **(مثل صاعقة)** قوم **(عادٍ و)** وقوم **(ثمود)** الّتي أصابتهم فأهلكتهم. وها هنا رواية يستحسن ذكرها لأنّ فيها فائدة عظيمة وهي: أنّ الرّيان ابن حرملة قال: قال الملأ من قريش وأبو جهل: قد التبس علينا أمر محمّد، فلو إلتمستم رجلاً عالماً بالشّعر والكهانة والسّحر فكلّمه ثمّ أتانا ببيان أمره، فقال عتبة بن ربيعة: والله لقد سمعت الشّعر والكهانة والسّحر وعلمت من ذاك مالا يخفى عليّ إن كان كذلك. فقالوا: إئتيه وحدّثه، فأتى النّبيّ محمّد (ﷺ)، فقال له: يا محمّد أنت خير أم قصي بن كلاب؟ أنت خير أم هاشم؟ أنت خير أم عبدالمطلب؟ أنت خير أم عبدالله؟ فلم تشتم آلهتنا وتضلّل آباءنا وتسفّه أحلامنا وتذمّ ديننا؟ فإن كنت تريد رياستنا؟ عقدنا إليك ألويتنا فكنت رئيسنا ما بقيت، وإن كنت تريد الباءة زوّجناك عشر نسائنا من أيّ بنات قريش شئت، وإن كنت تريد مالاً؟ جمعنا لك ما تستغني به أنت وعقبك من بعدك، وإن كان هذا الّذي يأتيك رؤيا من الجنّ قد غلب عليك؟ بذلنا لك أموالنا في طلب ما تتداوى به أو نغلب فيك، والنّبيّ (ﷺ) ساكت، فلمّا فرغ قال: قد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، فقال (ﷺ): فأسمع منّي، قال: يا ابن أخي أسمع، فقرأ الرّسول (ﷺ): (حم (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣).... الى قوله: فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣)) فوثب عتبة ووضع يده على فم رسول الله (ﷺ) وناشد الله تعالى والرّحم ليسكتنّ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش، فجاءه أبو جهل فقال: أصبوت إلى محمّد أم أعجبك طعامه؟ فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلّم محمّداً أبداً، ثمّ قال: والله لقد تعلمون أنّي من أكثر قريش مالاً ولكنّي لما قصصت على محمّد القصّة أجابني بشيء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر، ثمّ تلا عليهم ما سمع منه إلى قوله: (مثل صاعقة قوم عاد وثمود) قال: فأمسكت على فمه وناشدته بالرّحم أن يكفّ، وقد علمتم أنّ محمّداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فو الله لقد خفت أن ينزل عليكم العذاب، يعني الصّاعقة، ثمّ قال: خلّوا محمّداً وشأنه واعتزلوه، فوالله ليكوننّ لما سمعت من كلامه نبأ. فإن أصابته العرب كفيتموه بأيدي غيركم، وإن كان ملكاً أو نبيّاً كنتم أسعد النّاس به، لأنّ ملكه

ملككم وشرفه شرفكم، فقالوا: هيهات سحرك محمّد يا أبا الوليد، فقال: هذا رأيي واصنعوا ما شئتم [القرطبي ج/ ١٥/ ص/٣٣٨].

ثمّ ذكر تعالى أحوال قوم عاد وقوم ثمود وما أصابهم فقال جل وعلا:

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾

(إذ جاءتهم الرّسل) في متعلّق إذ قولان:

الأوّل: أنّه متعلّق بأنذرتكم، وهذا غير صحيح لأنّه يكون المعنى: أنذرتكم وقتما جاءتهم الرّسل. وهذا غير صحيح لأنّ إنذاره لم يكن في ذلك الوقت.

الثّاني: أنّه متعلّق بـ (صاعقة) في قوله: (مثل صاعقة ... الخ)، وهذا ضعيف أيضاً لأنّه يكون المعنى: مثل صاعقة نزلت بهم وقتما جاءتهم الرّسل، ولا شكّ أنّ الصّاعقة تأخرت كثيراً عن مجيء الرّسل لأنّ الرّسل جاؤوهم وبشّروهم وبلّغوهم وأنذروهم، وبعد مدّة من محاولة الرّسل معهم وإصرارهم على الكفر واستهزائهم بالرّسل نزلت الصّاعقة عليهم. فالمعنى الصّحيح أنّ إذ للعلّة والسّبب، فيكون المعنى مثل صاعقة نزلت بعاد وثمود لأنّهم جاءتهم الرّسل **(من بين أيديهم ومن خلفهم)** أي جاءوهم من كلّ الجوانب وبكلّ الوسائل واستعملوا كلّ حيلة ومحاولة معهم قائلين لهم **(ألّا تعبدوا إلّا الله)** واتركوا عبادة الأصنام وتمسّكوا بشريعة الله تعالى فاستهزؤوا بهم وأنكروا رسالتهم **(قالوا لو شاء ربّنا)** أن يرسل إلينا ويبلّغنا بشريعته **(لأنزل ملائكةً)** لهذا التّبليغ وما أرسلكم فأنتم لستم إلّا بشراً مثلنا **(فإنّا بما أرسلتم به كافرون)** أي فحيث لم يرسل الله ملائكةً إنّا بما أرسلتم به كافرون لأنّكم بشر مثلنا لا تصلحون للرّسالة بين الله وبين

العباد. ثمّ ذكر الله تعالى طغيان عاد وثمود ومصيرهم بسبب ذلك الطّغيان فقال وعزّ من قائل: **(فأمّا عاد فاستكبروا)** وطغوا **(في الأرض)** واستهزؤوا بهود [عليه السّلام] وكان ذلك الاستهزاء **(بغير الحقّ)** دون وجه حقّ، ولم يخافوا عاقبة هذا الطّغيان والاستهزاء برسول الله **(وقالوا من أشدّ منّا قوّة)** فنخاف منه على هذا الاستكبار والطّغيان والسّخرية بهود وأتباعه المؤمنين، وأنّه يتعجّب من قولهم: **(من أشدّ منّا قوّة)** لأنّهم **(أولم يروا)** ألم يعلموا **(أنّ الله الّذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة)** فكيف اغترّوا هذا الغرور بقوّتهم ويقولون هذا القول ولم يخشوا من الله تعالى فاستهزؤوا برسوله، والاستفهام هنا للإنكار والتّعجب من حالهم فالمعنى: لم يعلموا ولم يعتقدوا ذلك لأنّهم **(وكانوا بآياتنا)** القوليّة المنزّلة إليهم وبآياتنا الكونيّة الّتي تدلّ على صدق الرّسول وعلى قدرتنا القاهرة كانوا بكلّ ذلك **(يجحدون)** ينكرون ولايصدّقون، وبسبب ذلك **(فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً)** باردة شديدة البرودة والصّوت **(في أيام نحسات)** هي ثمانية أيّام في آخر الشّتاء وتسمّى أيّام البرد العجوز، وأرسلنا عليكم تلك الرّياح **(لنذيقهم عذاب الخزي)** أي الذّل والهوان **(في الحياة الدّنيا)** قبل الآخرة **(ولعذاب الآخرة أخزى)** أشدّ تذليلاً وإهانة لهم **(وهم لا ينصرون)** من قبل آلهتهم الّتي كانوا يعتقدون فيهم أنّهم ينصرونهم وينجونهم من المهالك والموبقات، كما ولا ينصرون من قبل أحد غيرهم حيث لا أحد يستطيع أن ينقذ أحداً من عذاب الله تعالى إذا أراد به **(وأمّا ثمود فهديناهم)** أي أريناهم طريق الحقّ والرّشاد **(فاستحبّوا)** أي اختاروا **(العمى)** الضّلالة **(على الهدى)** أي سلوك سبيل الحقّ والصّراط المستقيم وهو عبادة الله تعالى وحده والتّمسك والعمل بشريعته **(فأخذتهم صاعقة العذاب)** أي صيحة العذاب **(الهون)** أي العذاب المهين والمذلّ والمهلك وذلك العذاب نزل بهم **(بما)** بسبب ما **(كانوا يكسبون)** من عبادة الأصنام والانحراف عن شريعة الله تعالى وتكذيبهم للرّسل [عليهم السلام]، **(ونجّينا الّذين آمنوا)** بصالح (عليه السلام) واتّبعوا شريعة الله تعالى **(وكانوا يتّقون)** المعاصي والذّنوب، وهذه بشارة للمؤمنين بنجاتهم من العذاب ووعيد للكافرين بالذّل والهوان في الدّنيا والآخرة، وإشارة إلى أنّ مجرّد الإيمان لا يكفي للنّجاة، بل لا بدّ مع الإيمان من العمل والتّقوى والإجتناب عن المعاصي، فإنّ كثيراً ما ينزل العذاب بسبب المعاصي والذّنوب، ولا يخفى أنّ فائدة الإيمان وثمرته هو العمل والتّقوى، فالإيمان الخالي عن ذلك لا ينجّي، كما أنّ الشّجرة الّتي لاتثمر لا تفيد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر مصير الكافرين يوم الحشر فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾

(ويوم يحشر أعداء الله) تعالى ليساقوا إلى النّار **(فهم يوزعون)** أي يجمعون ويرتّبون جماعات جماعات كلّ حسب درجتهم في الكفر وسوء الأعمال **(حتّى إذا ما جاؤوها)** أشرفوا على الدّخول في النّار أنكروا كفرهم وأعمالهم ليرجعوا بهم فلا يدخلوها وحينئذٍ **(شهد عليهم سمعهم)** على ما سمعوا من فحش القول والكفر والأشراك **(وأبصارهم)** على ما نظروا بها إلى ما حرّم الله تعالى **(وجلودهم)** على ما مسّوا بها ما لا يجوز مسّها، فشهد كلّ هذه الجوارح **(بما كانوا يعملون)** بها من المعاصي في دار الدّنيا **(وقالوا لجلودهم)** ولما ذكر معها من السّمع والأبصار **(لم شهدتّم علينا)** هذه الشّهادة **(قالوا)** لم نتمكّن من أن لا نشهد حيث **(أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء)** إن كان الإستغراق في كلّ شيء حقيقيّاً يفيد أنّ كلّ شيء له نطق، وإن كان غير حقيقيّ فلا، بل يكون المعنى أنطق كلّ شيء ينطق أي ووهب النّطق له **(وهو خلقكم أوّل مرّة)** فلا يصعب عليه وهو بهذه القدرة أن ينطق الجلود وغيرها **(وإليه ترجعون)** فيجازيكم على عملكم بعد الخلق في مدّة الحياة. قال القرطبيّ: وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: كنّا عند رسول الله (ﷺ) فضحك فقال: هل تدرون ممّ أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربّه، يقول يا ربّ ألم تجرني من الظّلم؟ قال: يقول: بلى، فيقول: وإنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهداً منّي. قال: يقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيختم على فيه فيقال لأركانه: أنطقي فتنطق بأعماله، قال: ثمّ يخلّى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بعداً، لكنّ وسحقاً؛ فعنكن كنت أناضل[١].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٢٨٠ الحديث رقم٢٩٦٩.

ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

(وما كنتم) في الدّنيا حينما **(تستترون)** من النّاس عند المعاصي والأعمال الفاحشة معتقدين **(أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم)** لأنّكم لو اعتقدتم ذلك لما تستّرتم حيث لم تكن يفيدكم ذلك الإستتار **(ولكن)** إستترتم عن النّاس وظننتم أنّ الجوارح لا تشهد **(وظننتم)** أيضاً **(أنّ الله لا يعلم كثيراً ممّا تعملون)** وذلك من الأعمال الّتي كنتم تعملونها سرّاً لكي لا يعلم به النّاس ولا الله تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً **(وذلكم)** أي أنّ الله يعلم ما عملتم في الخفاء هو **(ظنكم الّذي ظننتم بربّكم)** أو دمتم عليه وما رجعتم وما تبتم عنه **(أرداكم)** صلة أخرى للموصول بدون عطف أي ظنّكم الّذي أرداكم أي أهلككم **(وأصبحتم من الخاسرين)** الّذين خسروا الآخرة، ولا خسارة أكبر من هذه الخسارة، بل إنّ خسارات الدّنيا لا تعدّ خسارة **(فإن يصبروا)**على النّار **(فالنّار)** تبقى **(مثوىً)** لهم **(وإنّ يستعتبوا)** أي وإن جزعوا وطلبوا الخروج منها **(فماهم من المعتبين)** أي من الّذين يقبل عتابهم ويخرجون منها أبداً **(وقيّضنا لهم قرناء)** فيه تقديم وتأخير والأصل (وقيضنا قرناء لهم) أي أتينا بجماعة كانوا قرناء مقارنين وملازمين ومصاحبين لهم في الدّنيا **(فزيّنوا لهم ما بين أيديهم)** من المعاصي الّتي كانوا يفعلونها في الحال **(وما)** والمعاصي الّتي يريدون فعلها **(خلفهم)** أي من بعد. وهؤلاء القرناء كانوا من شياطين الإنس والجنّ الّذين يحثّون النّاس على المعاصي فجمعوا معهم **(وحقّ عليهم القول)** أي الحكم بالعذاب جميعاً **(في أمم)** أي مع أمم أو مثل أمم **(قد خلت من قبلهم)** واستحقّوا العذاب وكانت تلك أمم من الجنّ والإنس **(إنّهم كانوا)** أي لأنّهم كانوا في الدّنيا **(خاسرين)** خسروا أنفسهم بسبب الأعمال السّيئة والأخلاق الدّنيئة؟

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض الأعمال الّتي كان سيقوم بها الكافرون فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(وقال الّذين كفروا) بمحمّد (ﷺ) وبالقرآن الّذي جاء به قال بعضهم لبعض **(لاتسمعوا لهذا القرآن)** لأنّه باطل أو لئلا يؤثّر فيكم **(والغوا)** أي إعملوا اللّغو بالكلام والتّصفيق وغير ذلك **(فيه)** أي في وقت تلاوة القرآن **(لعلّكم تغلبون)** لكي تغلبوا بلَغوكم هذا على قراءة القرآن فلا يسمعها غيركم، فكان أبو جهل يقول: إذا قرأ محمّد فصيحوا في وجهه حتّى لا يدري ما يقول، فأنذرهم الله تعالى على ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(ولنذيقنّ الّذين كفروا) ويلغون في وقت تلاوة القرآن **(عذاباً شديداً وليجزينّهم أسوأ الّذي كانوا يعملون)** عقاب السّوء الّذي كانوا يعملونه وهو اللّغو في القرآن، وكفى ذلك زجراً لمن يلغو ويتكلّم وقت تلاوة القرآن ولا يشعر أنّه بهذا اللّغو قد امتثل أمر الكافرين وأبي جهل، وترك أمتثال أمر الله تعالى إذ يقول: (وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم ترحمون﴾ سورة الأعراف الآية/ ٢٠٤.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(ذلك) الجزاء شديد هو **(جزاء أعداء الله)** تعالى وهو النّار **(لهم منها)** أي في النّار **(دار خلد)** محلّ إقامة الخلد لاخروج منه، وجوزوا ذلك الجزاء **(جزاء بما كانوا)** أي سبب أنّهم **(بآياتنا)** وهو القرآن وسائر المعجزات **(يجحدون)** ينكرون ولا يصدّقون.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(وقال الّذين كفروا) حينما دخلوا جهنّم **(ربّنا أرنا الّذين أضلّانا)** عن الإسلام واتّباعه والعمل به **(من الجنّ)** وهو شيطان الجنّ **(والإنس)** وهو شيطان الإنس وهو القرين السّوء **(نجعلهما)** أي إن تريناهما نجعلهما كليهما **(تحت أقدامنا)** انتقاماً على إضلالهما لنا **(ليكونا من الأسفلين)** في النّار.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين وعذابهم أراد أن يذكر حال المؤمنين وثوابهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾﴾

(إنّ الّذين قالوا ربّنا الله) أشار به إلى أنّهم يؤمنون بأنّ الله تعالى هو المربّي تكويناً وتكليفاً، ويجب أن يأخذ الإنسان التّربية الأخلاقيّة والسلوكيّة ومنهج الحياة من شريعة الله تعالى وحده **(ثمّ استقاموا)** على هذه العقيدة ولم يعتنقوا تربية أخرى غير تربية الله تعالى في جميع نواحي الحياة الإقتصاديّة والإداريّة والأخلاقيّة، فهؤلاء **(تتنزّل عليهم الملائكة)** قائلين لهم: **(أن لا تخافوا ولا تحزنوا)** حيث نجوتم من عذاب جهنّم **(وأبشروا)** أي وأفرحوا **(بالجنّة الّتي كنتم توعدون)** في الدّنيا على لسان الرّسل والدّعاة إلى الإسلام، قال وكيع: هذه البشرة تكون في ثلاثة مواطن: عند الموت وفي القبر، وعند الإحياء بعد الموت، ويقول لهم الملائكه أيضاً: **(نحن أولياؤكم)** أحباؤكم وقرناؤكم الّذين كنّا معكم في الدّنيا فلا نفارقكم هنا **(ولكم فيها)** في الجنّة **(ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون)** ما تطلبون **(نزلاً)** أي تتنزّلون نزلاً، ومعناه ترزقون هذا رزقاً وضيافةً، فالنّزول في القرآن بمعنى الرّزق والضيافة، وتلك الضّيافة هي **(من غفور)** أي كثير المغفرة **(رحيم)** ومغفرته ناشئة من رحمة بالعباد لا من سبب آخر، فيغفر لمجرّد أنّه رحيم لا لحاجته إلى المغفرة ولا إلى المغفور له، ولا لإيجاب أحد أو شيءٍ عليه أن يغفر. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّه كما أنّ للكافرين قرناء السّوء من الشّياطين يوجّهونهم إلى الشّر، فكذلك للمؤمنين قرناء من الملائكة يوجّهونهم إلى الخير والإحسان وهم أولياؤهم وأحبّاؤهم.

هذا وبعد أن حثّ الله تعالى النّاس على الإيمان، حيث ذكر لهم هذا التّكريم، أراد أن يحثّ المؤمنين على الدّعوة إلى دين الله تعالى ونشر شريعته أيضاً، إشارة إلى أنّه لا يطلب من المرء إصلاح نفسه فقط، بل يجب عليه بعد إصلاح نفسه أن يسعى لإصلاح غيره فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى) عبادة **(الله)** ودينه ونشر الإسلام وشريعة الله تعالى في الأرض، والاستفهام للإنكار، فمعناه: لا يوجد قول أحسن من قول الدّعاة إلى الإسلام، ويدلّ هذا على أنّ الدّعوة واجبة لأنّ من الأقوال ماهو واجب. وإذا كان قول الدّعوة أحسن منه فلا بدّ أن يكون واجباً؛ لأنّ غير الواجب لا يكون أحسن من الواجب، فكل مسلم مسؤول عن الدّعوة حسب الاستطاعة. قال الرّسول (ﷺ): (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده) أي بقوّته (فمن لم يستطع فبلسانه) أي بالقول والوعظ والنّصيحة (فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1] (وعمل صالحا وقال إنّني من المسلمين) أي وأعلن إسلامه بين الكافرين والملحدين ولم يخف لومة لائم، وأعتزّ وافتخر بإسلامه، فالصّلاة الّتي يؤدّيها المسلم وهو بين الكافرين والفاسقين والمرتدّين مثلاً في عمله أفضل بكثير من الصّلاة الّتي تؤدّى بين المسلمين، لأنّ في هذا إرغاماً للكافرين وإعلاناً للإسلام واعتزازاً به. فيا أيّها الجندي المسلم أعلن إسلامك وصلاتك بين الجنود، ويا أيّها الضّابط أعلن صلاتك وإسلامك بين الضّباط، وأيّها الموظّف أعلن صلاتك وإسلامك بين الموظّفين وأيّها العامل أعلن صلاتك وإسلامك بين العمال، وأرغموا بذلك من يكرهها، فإنّ في ذلك أجراً أكثر وأكثر، هذا وحيث أنّ الدّاعي إلى الله تعالى وإلى الإسلام يلاقي صعوبات وأذى من النّاس ومشاكل كثيرةً وصّى الله تعالى الدّعاة بأن يقابلوا الأذى والمشقّة والمشاكل بطريقة حسنة توجب جلب القلوب وتنوير العقول، وأن لا يقابلوها بما يوجب النّفرة والتّباغض، فإنّ في ذلك ضرراً بالدّعوة والدّعاة فقال تعالى: **(ولا تستوي الحسنة ولا السّيئة أدفع بالّتي هي أحسن فإذا الّذي بينك وبينه عداوةٌ كأنّه ولي حميم)** فسّرت هذه الآية بوجوه ولكنّ أصوبها هو ما أفاده الإمام النّسفي في تفسيره: فالمعنى: ولا تستوي أفراد الحسنة بل منها حسنة ومنها

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٩ الحديث رقم ٤٩.

أحسن، وكذلك السّيئة لا تستوي أفرادها إذ منها سيّئة ومنها أسوأ، فإذا أعترضتك سيّئة من النّاس ادفع هذه السّيئة بالحسنة الّتي هي أحسن من أخواتها. فمثلاً إذا أساء إليك في سبيل الدّعوة إلى الإسلام شخص فأمامك ثلاث خصال كلّها حسنة:

الأولى: أن تقابله بالمثل لأنّ هذا عدل والعدل حسن.

الثّانية: أن تعفو عنه وتسامحه وذلك فضل والفضل حسنة.

الثّالثة: أن تحسن إليه وذلك أفضل.

فقابل النّاس وادفع سيئاتهم في سبيل الدّعوة بهذا الأفضل وأحسن إليهم، فإن فعلت ذلك **(فإذا الّذي بينك وبينه عداوة)** تصير **(كأنّه وليّ)** صديق **(حميم)** حار في الصّداقة، ولذا يقول الرّسول (ﷺ): (صِل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك)[١] وهذا طريق النّجاح في الحياة لكلّ أحد من الدّعاة وغيرهم.

حكـاية: يقال أنّ مالك بن دينار كان له جار يهوديّ، فكان الجار كلمّا ينظّف مرافقه ومراحيضه يلقي كلّ النّجاسة في صحن دار مالك، فيأتي مالك بعمّال وينظّف داره ولا يتعرّض لليهوديّ بشيء من الإنكار أو الزّجر. فمضى على ذلك وقت، وفي يوم من الأيّام قال اليهوديّ: يا إمام ألا ترى أنّي كلّما أنظّف المرافق أرمي بنجاساتها في صحن دارك ولم أر منك مقابلتي في ذلك العمل بإنكارٍ أو زجرٍ أو على الأقلّ بنصيحة فلماذا؟ قال مالك: لأنّ الرّسول (ﷺ) يقول: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتّى ظننت أنّه سيورّثه[٢]، فحينما رأى اليهوديّ أخلاق الإسلام هذه وسماحة الإسلام تلك، وخلق المسلمين كذلك أسلم وقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمّداً رسول الله، وأنّ دين الإسلام هو دين الله، فهكذا كان المسلمون الأوائل يجلبون القلوب الى الإسلام بأخلاقهم الحسنة وأعمالهم الطّيّبة، فما أجدر بك أيّها المسلم أن تتخلّق بهذه الأخلاق لتجلب النّاس إلى الإسلام، وإياك والأخلاق السّيئة فتنفر النّاس عن الإسلام وتشوّه الإسلام أمام عيونهم.

* * *

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ١٥٨ الحديث رقم ١٧٤٨٨.

(٢) صحيح البخاري ٥/ ٢٢٣٩ الحديث رقم ٥٦٦٩.

وحيث إنّ الإحسان الى المسيء صعب على النّفوس ويحتاج إلى صبر كثير، أمر الله تعالى بالصّبر فقال: **(وما يلقّاها)** أي وما يلقّى هذه الخصلة وهي دفع السّيئة بالحسنة **(إلّا الّذين صبروا)** فاصبر لتستطيع أن تحمّل النّفس هذه الخصلة العظيمة والصّعبة عليها **(وما يلقّاها إلّا ذو حظّ عظيم)** من التّقوى وامتثال أوامر الله تعالى واتّباع الأخلاق الحسنة والإتّصاف بها، رزقنا الله تعالى هذه الصّفات الحميدة والأخلاق المجيدة آمين يا أرحم الرّاحمين. ثمّ إنّ النّفس دائماً يميل إلى الانتقام ويصعب عليها الإحسان إلى المسيء، فوضع الله تعالى علاجاً لميل النّفس هذه وتسهيل الإنسان أمامها فقال جلّ وعلا: **(وإمّا ينزغنّك)** أي وإمّا يدفعنّك **(من الشّيطان نزغ)** دافع للانتقام ورد السّيئة بالسّيئة أو بالأسوأ وترك الإحسان إلى المسيء **(فاستعذ بالله)** فاذكر الله تعالى وحسن تأديبه وأمره بالإحسان وقل: أعوذ بالله تعالى من هذا الميل، فإن فعلت ذلك يسهّل الله تعالى عليك الأخر ويسوقك إلى الخير حيث **(إنّه هو السّميع)** يستجيب إعاذة المستعيذين به فيعيذهم **(العليم)** بحال المستعيذ فيسهّل عليه أمره ويحسّن حاله إن شاء.

ثمّ لمّا أمر الله تعالى المسلم بالدّعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده والقيام بأداء أوامره وتطبيق شريعته ذكر للدّعاة دلائل على استحقاق الله تعالى بالعبادة والتّوحيد والطّاعة وامتثال الأوامر، ليذكروا تلك الأدلّة للمدعوّين ويقنعوهم بها فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

(ومن آياته) الّتي تدل على قوة الله تعالى ووحدانيته **(اللّيل)** الّذي يأتي ويستر كلّ شيء بظلامه **(والنّهار)** الّذي يهجم فيزيل ظلام اللّيل ويضيء **(والشّمس والقمر)** اللّذان يعملان دؤوباً، فإنّ هذا الصّنع العجيب لا يمكن إلّا بإيجاد صانع قدير بلغت قدرته النّهاية وقهرت كلّ شيء، ولاشكّ أنّ من له هذه القدرة لايتّخذ ولا يقبل شريكاً، لأنّ الشّريك لايقبله ولا يتّخذه إلّا من كان عاجزاً عن عمله وتدبير أموره، ومن كان بهذه

القدرة وتنزّه عن الشّرك فهو اللّائق بالعبادة فإذن **(لا تسجدوا للشّمس ولا للقمر)** ولا لغيرهما من الموجودات مهما بلغ حسنه ومنافعه، فإنّ كلّ موجود من هذه الموجودات مظاهر قدرة الله تعالى خلقها ليعرف الإنسان بذلك قدرته وعظمته فيوحدّه بالعبادة والطّاعة والتّذلّل والانقياد **(واسجدوا)** جاءت بمعنى السّجدة المعروفة وبمعنى التّذلّل والانقياد والطّاعة، وهنا يناسبه السّجود المعروف لأنّه لا أوامر للشّمس والقمر ليطيعهما الإنسان وينقاد لهما، وإنّما بعض المشركين يسجدون لهما ويقدّسونهما، فالمعنى لاتسجدوا ولا تعظّموا ولا تقدّسوا الشّمس والقمر بل **(واسجدوا لله)** تعالى **(الّذي خلقهنّ)** فالخالق هو اللّائق بالعبادة لا المخلوق **(إن كنتم إيّاه)** إيّ الله تعالى **(تعبدون)** فإنّهم كانوا يعتقدون وجود الله تعالى ووجوب عبادته إلّا أنّهم كانوا يسجدون لغيره ويقولون إنّه لا مناسبة بيننا وبين الله تعالى لأنّا ناقصون بُعداء عنه، فنسجد لهؤلاء لتكون واسطة الإيصال والتّقريب بيننا وبين الله تعالى، كما قالوا: ﴿ما نعبُدُهُمْ إلّا لِيُقَرِّبونا إلى الله زلفى﴾ سورة الزمر الآية/٣. فنهاهم الله تعالى عن ذلك وعن اتّخاذ الوسائط بينهم وبين الله تعالى **(إن كنتم إيّاه تعبدون)** أي إن كنتم تعرفون الله تعالى وتعترفون بعظمته، فلا تسجدوا لغيره فإنّه لا يقبل الوسائط والسّجود والعبادة لغيره بأيّ وجه من الوجوه. ثمّ كان بعض المشركين لايهتدون إلى التّوحيد لأنّهم كانوا يستكبرون عن اتّباع الرّسول (ﷺ) أو عن ترك تقاليد موروثه عن آبائهم وأجدادهم فقال تعالى: **(فإن استكبروا)** عن قبول هذه الدّعوة فالله تعالى غنيّ عنهم حيث **(فالّذين عند ربّك)** من الملائكة المقرّبين **(يسبّحون)** يصلّون **(له)** ويسبّحون **(باللّيل والنّهار)** دائبين **(وهم لا يسأمون)** لايفترون ولا يستكبرون، فهم مع كونهم أعلى من هؤلاء لا يستكبرون عن عبادته فكيف بهؤلاء. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى آيات قدرته ووحدانيّته أراد أن يذكر آيات قدرته على إحياء الموتى يوم القيامة، فقال جلّ وعلا: **(ومن آياته)** الّتي تدلّ على قدرته على إحياء الموتى وحشرهم **(أنّك ترى الأرض)** بداهة ولا شكّ في ذلك، وأنّها تكون **(خاشعة)** جامدة ميّتة لا تنبت شيئاً **(فإذا أنزلنا عليها الماء)** بالمطر أو السّقي **(اهتزّت)** أي تحرّكت بالنّباتات وانتفخت وأنبتت، من تفكّر في حالة الأرض هذه اعترف وقال: **(إنّ الّذي أحياها)** أي هذه الأرض اليابسة الميتة هو **(لمحيي الموتى)** وقال: **(إنّ الله على كلّ شيء)** من الإحياء والإماتة **(قدير)** ذو قدرة عظيمة لا تعجز عن شيء.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الآيات الدّالة على قدرته ووحدته وعلى الإحياء بعد الموت، أنذر الّذين يعرضون عن هذه الآيات ولا يتفكّرون فيها فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

(**إنّ الّذين يلحدون**) اي يحيدون ويعرضون (**في آياتنا**) عن آياتنا الدّالة على قدرتنا ووحدانيّتنا، وإنّ الله لقدير على أن يحيي الموتى فلا يتفكّرون في هذه الآيات ويكفرون بما تدلّ عليه (**لا يخفون**) وهذا وعيد شديد أي لا يخفون علينا ونحن نعلم بهم وننتقم منهم. ثمّ بين الله تعالى نوعيّة الانتقام فقال: (**أفمن يلقى في النّار خير**) وهم المعرضون عن الآيات (**أم من يأتي آمناً**) من العذاب (**يوم القيامة**)، ثمّ أنذرهم الله تعالى بصيغة الأمر الوارد للتّخيير المتضمّن الوعد على الخبر والوعيد على الشّر فقال: (**اعملوا ما شئتم**) من خير وشرّ؛ فقد أعطيناكم القدرة على الخير والقدرة على الشّر وبيّنا الخير ومصير فاعله والشرّ وعاقبة مرتكبه، فاعملوا على اختياركم ولا جبر هنا (**إنّه**) أي الله تعالى (**بما تعملون بصير**) فيجازيكم حسب عملكم إنّ خيراً فبثواب الجنّة وإن شرّاً فبعذاب وبيل.

ثمّ بعد أن أنذر الله تعالى المعرضين عن آياته الكونيّة ولم يعملوا وفق مدلولاتها، أراد أن ينذر الّذين يعرضون عن القرآن المشتمل على الآيات الكونيّة والآيات القوليّة فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾﴾

(**إنّ الّذين كفروا بالذّكر**) وهو القرآن والخبر محذوف تقديره نعذّبهم، حذف بقرينة السّياق، ثمّ ذكر من أوصاف القرآن ما يدعو إلى الإيمان به ويدلّ على استحقاق من كفر به للعذاب والانتقام فقال: (**وإنّه لكتاب عزيز**) منيع من الإبطال والتّحريف والنّقد والاعتراض.

ثمّ ذكر الله تعالى وصف القرآن أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ

هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

(لا يأتيه الباطل) هذا بيان لقوله كتاب عزيز ومظهر لعزّة القرآن بأنّه **(لا يأتيه)** أي لا يظهر الباطل ولا يستطيع أحد أن يبطل ويكذّب ما فيه من القصص والأحكام والأخبار والأخلاق وغير ذلك من كلّ ما في القرآن **(من بين يديه)** أي حين وروده **(ولا من خلفه)** أي بعد وروده إلى يوم القيامة. بل كلّ ما فيه يصدّقه العقل والعلم والواقع يوماً فيوماً إلى يوم القيامة **(تنزيل من حكيم حميد)** هذا مثل الدّليل والعلّة على أنّه لا يأتيه الباطل فكأنّه قال: هو **(تنزيل)** أي منزل **(من حكيم)** من ذاته بلغت حكمته النّهاية **(حميد)** بلغ كماله فوق التّصور. فمن هذه ومن هذا كماله لا يتطرّق إلى كلامه الخلف والبطلان، كلّا وإنّ ذلك محال. ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله على ما يصيبه من أذى الكافرين فقال: **(ما يقال لك)** من قبل المنكرين **(إلّا ما قد قيل للرّسل من قبلك)** من أنّه كاذب أو ساحر أو...أو.. الى غير ذلك من الإتّهامات، وهذه سنّة الرّسل، يكذّبون ويؤذون إلّا أنّ العاقبة والنّصر لهم حيث **(إنّ ربّك لذو مغفرة)** للمؤمنين الّذين اتّبعوا الرّسل، يغفر لهم وينجّيهم في الدّنيا والآخرة وذو عقاب **(أليم)** مؤلم لمن كفر واستهزأ بالرّسل؛ وذلك في الدّنيا بخذلانهم ونصرة المؤمنين عليهم، وفي الآخرة بإلقائهم في جهنّم مع الشّياطين أجمعين، فاصبر فإنّ الصّبر من شيمة الرّسل وإنّ العاقبة لك. ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّهم لا عذر لهم في عدم الإيمان به، فإنّه كتاب عزيز وكلّ ما فيه حقّ لا يأتيه الباطل، وإنّهم يفهمونه لأنه نزل بلغتهم فلم يبق لهم أيّ عذر من الأعذار فقال جلّ وعلا: **(ولو جعلناه)** أي ولو جعلنا الكتاب المنزّل على محمّد **(قرآناً أعجمياً)** كتابا يقرأ بلغة العجم وهم غير العرب، **(لقالوا لولا فصّلت آياته)** أي لولا بيّنت آياته حسب ما نفهم ونعرفه **(أأعجمي)** أي كتاب أعجميّ يرسل إلى من لا يفهمه **(و)** هو **(عربي)** فكيف يكون ذلك. ولهذا السّبب أنزلناه عربيّاً ليفهموه، ولكي لا يبقى لهم عذر. ثمّ لمّا بيّن الله تعالى أنّ القرآن عزيز لا يأتيه الباطل وأنّه واضح لا خفاء فيه، حيث نزل بلغتهم لا بلغة غريبة عليهم، بيّن سبب عدم اتّباع النّاس له وعدم الإيمان والعمل به، وعدم تطبيقه في شؤونهم في نواحي الحياة، فقال: **(قل)** يا أيّها الدّاعي إلى الله تعالى والعمل بالقرآن **(هو)** أي القرآن **(هدىً)** إرشاد إلى سبيل الحقّ المستقيم **(وشفاء)** لأمراض القلوب إلّا أنّه ليس شفاء وهدى لكلّ أحد بل هو **(للّذين**

يؤمنون) أي يحبّون الهداية والشّفاء ويسعون للوصول إلى ما فيه الهدى والشّفاء **(والّذين لا يؤمنون)** لايحبّون الهداية والشّفاء لا يستفيدون من هذا القرآن لأنّهم **(في آذانهم وقرٌ)** أي ثقل يمنعهم عن سماع القرآن سماع تدبّر وتفكّر، وذلك الثّقل هو تقليد الآباء وحبّ الشّهوات والاستكبار عن اتّباع الرّسول وغير ذلك، فإنّ هذه الأسباب منعتهم عن سماع القرآن حقّ السّماع، فأصبحوا بهذه الأسباب كمن كان أذنه ثقيلةٌ لا تسمع شيئاً. **(وهو)** أي القرآن عليهم **(عمى)** أي غامض لا يفهمونه **(أولئك)** مثل الّذين هم **(ينادون من مكان بعيد)** فلا يسمعون القرآن. فإنّ كان مشغولاً بشيء ومنهمكاً فيه ومشغوفاً به لا يلتفت إلى غيره فلا يسمعه ولا يفهمه ولا يدري ما هو.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر لرسوله (ﷺ) أنّ كلّ كتاب نزل آمن به بعض النّاس ولم يؤمن به البعض الآخرون، فلا كتاب آمن به كلّ النّاس وذلك لكي لا يحزن الرّسول (ﷺ) بكفر من كفر فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾

(ولقد آتينا موسى الكتاب) وهو التّوراة **(فاختلف فيه)** أي أختلف النّاس في التّوراة فمنهم من آمن ومنهم من كفر بها **(ولولا كلمةٌ)** أي ولولا حكم من ربّك **(سبقت)** صدر سابقاً في الأزل وهو أنّ لكلّ أمّة أجل معيّن لا يتقدّمون عليه ولا يتأخّرون، فلولا هذا القضاء من الله تعالى **(لقضي)** لفصل النّزاع بين من آمن ومن كفر، وذلك بإهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين، إلّا أنّ الله تعالى يمهل كلّ أمّة إلى أن يستحقّوا العذاب ويأتي أجلهم فيقضي عليهم في ذلك الوقت، وكما أنّ قوم موسى اختلفوا في التّوراة فكذلك قومك اختلفوا **(وأنّهم)** أي قومك **(لفي شكّ منه)** أي من القرآن **(مريب)** شكّهم هذا أي شكّ شديد كلّ الشّدة، فاصبر إلى أن يأتي يومهم الّذي يوعدون. ثمّ نبّه الله تعالى الرّسول (ﷺ) على أنّ كفر الكافرين لايضرّه شيئاً، وإنّما يضرّهم أنفسهم فقال تعالى: **(من عمل صالحاً فلنفسه)** أي حيث يوجد هو على ذلك العمل لا غيره **(ومن أساء فعليها)** حيث هو يعاقب على ذلك العمل فكلّ يجزى حسب عمله **(وما ربّك بظلّام للعبيد)** أي أنّ الله ليس بظالم حينما يثيب المطيع ويعاقب

العاصي، لأنّ ذلك الجزاء صدر حسب عملهما وقد بلّغناه بعمل الخير والشّر وعاقبة كلّ منهما؛ فلم يبق اعتراض وليس هناك ظلم.

ســؤال: إنّ الرّسول (ﷺ) يقول: (من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنة سيّئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة)(١) فيدلّ الحديث على أنّ المرء ينتفع بعمل غيره إن كان خيراً ويتضرّر به إن كان شراً، فكيف التّوفيق بين هذه الآن وهذا الحديث؟

الجواب: إنّ من سنّ سنّة حسنة أو دلّ على خير أو دعا إلى عمل صالح يؤجر على تسبّبه ودلالته ودعوته لذلك العمل لا على نفس العمل، ويعاقب على تسبّبه لعمل الشرّ ودعوته إليه أو دلالته إليه لا على نفس ذلك العمل، فيكون انتفاعه وضرره من عمل نفسه وهو التّسبب لا من عمل غيره والله تعالى أعلم.

* * *

إنّه كان الرّسول (ﷺ) لا يزال يدعوهم إلى الإيمان والتّوحيد واتّباع شريعة الله تعالى وكان يستدلّ لهم بدلائل من الكون والآفاق والأنفس ويبشّرهم بالجنّة وينذرهم بالنّار يوم القيامة، فكانوا يقولون متى يوم القيامة؟ أخبرنا بوقته! فردّاً عليهم قال جلّ وعلا:

﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾

(إليه) إلى الله تعالى **(يرد)** يحال ويفوّض **(علم)** وقت مجيء السّاعة من قبل كلّ من يسأل عنه، لأنّهم لا يعلمون ذلك بأنّ هذا العلم مختصّ بالله تعالى **(وما تخرج)** ثمرة **(من ثمرات)** الأشجار والنّبات **(من أكمامها)** **من** أوعيتها **(وما تحمل)** واحدة **(من**

(١) صحيح مسلم ٢/٧٠٥ الحديث رقم ١٠١٨.

أنثى) من الحيوانات والإنسان **(ولا تضع)** ذلك الحمل إلّا بعلمه والسّاعة آتيةٌ بلا ريب **(فيوم يناديهم)** الله تعالى في ذلك اليوم **(أين شركائي)** أي أين الّذين اتّخذتموهم شركاء لي وعبدتّموهم دوني، فأتوا بهم لينقذوكم من العذاب كما ظننتم **(قالوا)** أي المشركون بالله تعالى **(آذنّاك)** أي اعترفنا لك أنّه لا شريك لك وأنّه **(مامنّا من شهيد)** من أحد يعتقد أنّ لك شريكاً، حيث تبيّن لنا ذلك وثبت **(وضلّ)** أي وغاب **(عنهم)** أي لم ينفعهم **(ما كانوا يدعون من قبل)** في الدّنيا من الله تعالى **(وظنّوا)** وأيقنوا وعلموا أنّه **(مالهم من محيص)** من قرار ونجاة من عذاب الله تعالى، ومن جهنّم وبئس المصير.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض صفات الإنسان غير المستقيم ليتجنّب عنها الإنسان المستقيم ويتهذّب منها لأنّ هذه الصّفات هي سبب عدم الاهتداء وسلوك طريق الحقّ والسّبيل المستقيم والإيمان بالقرآن؛ فقال جلّ وعلا:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾

(لا يسأم) أي لا يتعب الإنسان **(من دعاء الخير)** من طلب المال والنّعمة والرّزق ومنافع الدّنيا ولا يشبع منها **(وإن مسّه الشّر)** أي ضرر من المال أو نفس **(فيئوس قنوط)** وغير صابر وغير راضٍ بقضاء الله تعالى وقدره **(ولئن)** أذقناه نعمة **(منّا من بعد ضرّاء)** أي من بعد بلاء ومصيبة **(مسّته)** أصابته **(ليقولنّ هذا لي)** أي من استحقاقي، وقيّد ذلك بقوله: **(من بعد ضرّاء)** لأنّ التّجاهل عن كرم الله تعالى بعد الضّراء اشنع منه من قبل السّراء كما لا يخفى، وقال أيضاً **(وما أظنّ السّاعة قائمةً)** أي آتية **(ولئن رجعت إلى ربّي)** كما يعتقده المؤمنون **(إنّ لي عنده للحسنى)** أي النّعمة الأحسن من ما في الدّنيا لاستحقاقي ذلك ولشرفي **(فلننبّئنّ)** أي فلنخبرّن **(الّذين كفروا)** أي لنجزينّ الّذين كفروا **(بما عملوا)** بسبب ما عملوا في الدّنيا، ثمّ بيّن الجزاء بقوله: **(ولنذيقنّهم من عذاب غليظ)** شديد، وسياق العبارة أن يقال: **(فلننبّئنّهم بما عملوا)** لأنّ الكلام في

الإنسان الّذي مرّ ذكره وذكر صفاته. إلّا أنّه وضع **(الّذين كفروا)** موضع هم إشارة إلى أنّه يذاق العذاب لكفره، ثمّ أراد أن يذكر صفة أخرى للإنسان فقال: **(وإذا أنعمنا على الإنسان)** بنعمة المال أو الجاه أو الولد أو الصّحة أعرض عن شكر الله تعالى وإطاعة أوامره وطغى **(ونأى)** أي تحرّك **(بجانبه)** بعطفه أي تكبّر وتبختر **(وإذا مسّه الشّر فذو دعاء عريض)** وتضرّع إلى الله تعالى كثير، هذا ولصفات الإنسان هذه لا يهتدى ولا يؤمن ولا ينقاد للعمل بالقرآن، فأمر تعالى رسوله وكلّ داع إلى الله تعالى والإيمان بالقرآن، يقول لمثل هذا الإنسان ويذيقه مايأتي فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾

(قل) لمثل هذا الإنسان **(أرأيتم)** أعلمتم **(إن كان)** هذا القرآن **(من عند الله)** تعالى **(ثمّ كفرتم به)** فحينئذٍ **(من أضلّ ممّن هو في شقاق)** خلاف **(بعيد)** عن الحقّ والواقع أو شقاق كثير. والمراد من أضلّ منكم، إلّا أنّه وضع (ممّن هو) مكانه؛ ليعرف أن ضلالهم بسبب هذا الشّقاق المخالف للحقّ.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي الرّسول (ﷺ) فإنّه سيرى النّاس آيات ودلائل تثبت لهم حقيّة ما أرسل به فيؤمنون، إلّا من منعه العمى أو الجهل أو الحقد أو الحسد أو حبّ الرّياسة والسّلطان أو القيادة وحبّ التّقليد، أو من كتب الله تعالى عليه الضّلال فقال جلّ وعلا:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾

(سنريهم آياتنا) أي دلائل تدلّ على وحدتنا وحقيّة ما جئت به **(في الآفاق)** من الأرض وطبقاتها والجبال وما تحتها ومن السّماوات والكواكب والنّجوم **(وفي أنفسهم)** من كيّفيّة خلقهم وخلقتم **(حتّى يتبيّن)** يتّضح **(لهم أنّه)** أي ما جئت به هو الحقّ والواقع، وأنّه من الله تعالى، وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ العلوم الكونيّة والصحيّة والطّبيعيّة والأجتماعيّة تثبت حقيّة القرآن، وأنّه من الله تعالى وحقيّة الإسلام، حيث يكشف العلم يوماً فيوماً مالم يعلم به أحد، وقد نطق به القرآن قبل ذلك **(أولم يكف**

بربّك) أي أولم يكفهم ربّك ثمّ أبدل منه قوله: **(أنّه على كلّ شيء شهيد)** أي أولم يكفهم شهادة ربّك وعلمه بكّل شيء وأنّه شاهد ومطّلع على أعمالهم وعقائدهم كلّها فينتقم منهم على ذلك، وهذا وعيد للكافرين وتسلية لرسول اللهﷺ وللمؤمنين.

ثمّ أكّد الوعيد فقال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾

(ألا إنّهم في مريةٍ) أي في إنكارٍ **(من لقاء ربّهم)** في يوم القيامة والحشر والحساب **(ألا إنّه)** أي الله تعالى **(بكلّ شيء)** من أعمالهم وأقوالهم وعقائدهم **(محيط)** عالم علماً لا يخرج من علمه شيء من ذلك، وسيعاقبهم عليها، وما هو عليه بعزيز، والله على كلّ شيء قدير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم. سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الشّورى

(مكيّة إلّا الآية(١-٢٧) نزلت بعد سورة فصلت، آياتها ثلاث وخمسون آية، سميّت بالشّورى لما فيها من قوله تعالى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣﴾

(حم عسق) قد مرّ تفسير هذه الحروف المقطّعة مراراً **(كذلك)** مثل ماتحسن وتعلم **(يوحي)** يرسل بالملك الأحكام العادلة والعقائد الصّحيحة والأخبار الصّادقة والأخلاق الرّفيعة والشّريعة الواضحة والصّراط المستقيم **(إليك وإلى الّذين من قبلك)** أي الأنبياء والمرسلين الّذين خلوا قبل مجيئك **(الله)** فاعل يوحي، أي يوحي إليك وإليهم كما ترى **(الله العزيز)** الغالب على أمره والمقتدر على أن يختار من يشاء للإيحاء به، فلا شيء يمنعه من تنفيذ إرادته هذه وغيرها من الإرادات كلّها **(الحكيم)** أي ذو الحكمة الرّاسخة فلا يختار أحداً للرّسالة أو النّبوّة إلّا في ذلك، ذو حكمة بالغة ومصلحة كبيرة، ثمّ أراد تعالى أن يبيّن عزّته وحكمته، فقال جلّ وعلا:

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾

(له) كلّ **(ما في السّماوات)** من الكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار في السّماوات أنفسها **(و)** كلّ **(ما في الأرض)** من الجبال والعيون والأنهار والنّبات

والأشجار والحيوان والإنسان، فكلّ ذلك **(له)** مالكيّته وملكيّته، فهو ملكهم ومالكهم **(وهو العليّ)** حقيقة لاعليّ غيره إلّا هو أعلاه، ويكون علوّه مجازاً ومستعاراً من الله تعالى **(العظيم)** حقيقة فلا عظيم إلّا هو، وكلّ عظيم هو أعظم منه، فعظمة كلّ عظيم مجاز ومستعارة من عظمة الله تعالى جلّ وعلا يسلبها منهم حينما يريد **(تكاد السّماوات)** كلّها **(يتفطّرن)** يتشقّقن من هيبته وعظمته **(من فوقهنّ)** أي من جانب الفوق، ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مالكيّته وسيطرته على الجسمانيّات أراد أن يذكر سيطرته على الرّوحانيّات أيضاً؛ فقال جلّ وعلا: **(والملائكة)** كلّهم **(يسبّحون)** ينقادون لله ويعترفون بنزاهته من كلّ مايوهم النّقص والعيب، ويربطون ذلك التّسبيح **(بحمد ربّهم)** أي بالاعتراف بالصّفات الكماليّة كلّها لربّهم تعالى **(ويستغفرون لمن في الأرض)** من العباد **(ألا إنّ الله هو الغفور الرّحيم)** ولذلك يستغفرونه فيغفر الله تعالى لمن شاء، ومن لم يشأ فلا غفران له.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفاته هذه، وإنّ هذه الصّفات توجب أن لا يعبد غيره ولا يطاع سواه ولا يعظّم ولا يقدّس ولا يرجى ولا يدعى إلّاه، وكان الرّسول (ﷺ) يرى هؤلاء النّاس الّذين اتّخذوا من دون الله تعالى أولياء لأمورهم فيعبدونهم ويستغيثون بهم فثار غضب الرّسول (ﷺ) وأراد إهلاكهم من الله تعالى أو إثارة القتال معهم، فهدأ الله تعالى من عصبيّته وسلّاه فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾﴾

(والّذين اتّخذوا) اعتقدوا **(من دونه)** من دون الله تعالى **(أولياء)** يتولّون أمور النّاس فيجلبون لهم النّفع ويدفعون عنهم المكروه من في ظنّهم، فعبدوهم وطلبوا منهم قضاء الحوائج ودفع المضرّات ورفعها، هؤلاء **(الله حفيظ عليهم)** يحفظ أعمالهم وهو ينتقم منهم في الدّنيا وفي الآخرة أو فيهما **(وما أنت عليهم بوكيل)** بمسلّط عليهم فتأتي بهم إلى الإيمان جبراً، فإنّا لم نرسلك لذلك وإنّما أرسلناك مبشراً ونذيراً ومبلّغاً وما عليك إلّا البلاغ، وأمّا القتال فليس لك إلّا عندما آمرك به وبقدر ما نأذن لك فيه، ثمّ صرّح الله تعالى بذلك فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾

(كذلك) ومثل ما ترى وتعلم **(أوحينا إليك قرآناً عربيّاً)** ليفهمه أنت وتفهّمه للنّاس **(لتنذر أمّ القرى)** مكّة المكرّمة أي أهلها وأهل **(من حولها)** من البلاد والعباد، فهذه الآية تشير إلى أنّ دعوته عامّة لأنّ من **(حولها)** عام بحكم كرويّة الأرض، كلّ الدّنيا حول مكّة وقوله: **(لتنذر)** بيان لأنّ وظيفته الإنذار فقط، ثمّ بيّن ما ينذر به فقال: **(وتنذر يوم الجمع)** أي عذاب يوم جمع الله تعالى النّاس في الحشر للحساب، وفي ذلك اليوم ينقسم النّاس قسمين: **(فريق في الجنّة)** وهم المؤمنون المتّبعون لشريعة الله والعابدون لله وحده **(وفريق في السّعير)** وهم المنحرفون عن منهج الله والمشركون به بأيّ وجه من وجوه الإشراك.

ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) كان شديد الحرص على إيمان البشر، ويصعب عليه كفرهم وشركهم، كما قال تعالى: ﴿لقد جاءكُم رَسولٌ مِنْ أنفسِكُمْ عَزيزٌ عَليه ما عنتّم حريصٌ عليكُمْ بالمُؤْمنينَ رؤوفٌ رحيم﴾ سورة التوبة الآية/١٢٨. فكان حرصه هذا يتّعبه ويؤذيه ويحزنه، فأراد الله تعالى أن يريحه من تعبه وأن لا يتأسّف على كفر من كفر، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾

(ولو شاء الله) جعل النّاس أمّة واحدة جبراً **(لجعل النّاس أمّةً واحدةً)** وأجبرهم على الإيمان **(ولكن)** لم يجعل الله تعالى الجبر من عادته، بل أرشد النّاس إلى الخير، وبيّن لهم طريق الهدى والضّلال، ثمّ جعل الاختيار بيدهم، فمن أراد الهداية وسعى لها سعيها هداه الله تعالى، ومن سلك طريق الضّلال تركه الله تعالى على ضلاله كما قال: **(يدخل من يشاء)** وهو الّذي أراد الهداية وعمل لها **(في رحمته)** وهي الهداية اليوم والجنّة غداً **(والظّالمون)** الّذين أبوا إلّا الضّلال والتّعنّت على الكفر **(مالهم من وليّ)** يهديهم في الدّنيا **(ولا نصير)** ينصرهم يوم القيامة فيخرجهم من العذاب.

ثمّ أخبر الله تعالى أنّه هو الوليّ الّذي يتولّى أمور العباد في الدّنيا والآخرة، وبيده وحده الأمور كلّها، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾﴾

(أم اتّخذوا) أي فهل اتّخذوا واعتقدوا أنّ **(من دونه)** من دون الله تعالى أولياء يتولّون أمورهم من جلب الخير ودفع الشّرّ، والاستفهام للإنكار والتّعجب من هذا الإعتقاد، حيث لا ولاية لأحد بل **(فالله هو الوليّ)** الّذي يتولّى أمور العباد، وبيده كلّ الأمور لكلّ النّاس في الدّنيا والآخرة **(وهو يحيي)** من يحيا **(ويميت)** من يموت **(وهو على كلّ شيء قدير)** فلا تتّخذوا وليّاً من دونه، ولا تطلبوا من غيره النّفع أو الضّرر.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى وحدته في الإيجاد والتّصرف أخبر عن وحدته في الحكم والتّشريع فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾﴾

(وما اختلفتم فيه) من شيء من الأحكام هل واجب أو حرام أو جائز أو ممنوع أو مباح أو مكروه **(فحكمه)** يرجع إلى الله تعالى وليس لأحد أن يحكم في شيء ولا أن يشرع ويضع دستوراً للحياة إلّا لله تعالى **(ذلكم الله)** الّذي لا موجد إلّا هو، ولا مؤثّر إلّا هو، ولا متولّي للأمور إلّا هو، ولا حاكم ولا مشرّع إلّا هو، هو **(ربّي)** لا غيره وآخذ تربيتي الأخلاقيّة والأحكاميّة والإقتصاديّة والإجتماعيّة والسياسيّة منه لا من غيره **(عليه توكّلت)** في تولية أموري لا على غيره **(وإليه)** لا إلى غيره **(أنيب)** ارجع في كلّ الأمور، أمور الدّنيا والآخرة، وأمور التّكوين والتّشريع.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ على أنّه هو المتولّي والمؤثّر والموجد وهو المشّرع والمكلّف بقوله جلّ وعلا:

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

(فاطر السّماوات والأرض) أي موجدهما من العدم **(جعل لكم من أنفسكم أزواجاً)** نساء تتزاوجون معهنّ **(ومن الأنعام)** وجعل من الأنعام **(أزواجاً)** الذّكور والإناث فيتزاوج الذّكور مع الإناث **(يذرؤكم)** أي يكثركم **(فيه)** بهذا الجعل **(ليس كمثله شيء)** لا في ذاته لأنّه قديم قائم بنفسه، لا يحتاج إلى شيء، لا يفنى ولا يزول ولا يموت ولا

يعتريه ما يعتري على الذّوات من التّبدّل والتّغيير والزّيادة والنّقصان ولا في صفاته، فإنّها قديمة شاملة لا تتغيّر ولا تتبدّل ولا تزول ولا تفنى ولا في أفعاله، فإنّها متقنة بديعة مقرونة بالحكم والمصالح، ولا يعتريها الخلل والنّقصان **(وهو السّميع)** لجميع الأقوال والأصوات والهواجس **(البصير)** يرى كلّ شيء كيفما كان وأينما كان، فالذّرة تحت البحر وأكبر شيء فوق الجبال بالنّسبة إلى رؤيته سواء، ليس ذاك بأخفى ولا هذا بأظهر **(له مقاليد)** مفاتيح **(السّماوات والأرض)** فلا يفتح مخزون إلّا بإذنه ولا يوزّع فيه شيء إلّا بأمره **(يبسط)** يوسّع الرّزق **(لمن يشاء)** من عباده **(ويقدر)** ويضيّقه لمن يشاء **(إنّه بكلّ شيء عليم)** لا يخرج من علمه شيء يعلم خفايا النّيّات والخواطر والهواجس في القلوب، بل وقبل أن يصل إلى القلوب؛ ولذلك يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ سورة ق الآية/١٦. فمن كان هذا شأنه وهذه صفاته فهو الوليّ والمؤثّر والمتصرّف في الكون وما فيه، وهو المشرّع والمعين لدستور الحياة لكلّ من في توليته وتحت رعايته، وكلّ من يظنّ أنّ لغيره التّولية في الأمور أو له الحقّ في وضع الشّريعة والدّستور، فقد أشرك به ويستحقّ وينال يوم القيامة العذاب والهلاك والثّبور.

ثمّ بعد أن نبّه الله تعالى على أنّه هو المشرّع، وأنّ شريعته هي الحقيقة بالعمل والاتّباع، أراد أن يذكر ما شرّع لهم، وأنّ ما شرّع لهم ليس غريباً عنهم، فإنّه نفس ما شرّع للرّسل والأنبياء السّابقين، وما أمر به الأمم السّابقة، فشريعة الإسلام متحدّة مع الشّرائع السّابقة في الأصول والمبادئ والعقائد ومهمّات الأحكام، فقال جلّ وعلا:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾

(شرع) أي بيّن وسنّ لكم أيّها النّاس **(من الدّين)** من النّظام الّذي أمركم بالعمل به، ويدينكم أي ويجازيكم عليه **(ما وصّى به نوحاً)** شرعاً وصّى به نوحاً **(والّذي أوحينا**

إليك) يا محمّد فيما أوحينا إليك موافق لما وصّينا به نوحاً **(وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى)** (على نّبينا وعليهم الصّلاة والسّلام)، فدين الأنبياء والرّسل الّذين جاؤوا من قبلك واحد، والمراد بالدّين هنا العقائد والأصول والأحكام المهمّة، وإلّا فبعض الفروع مختلفة، وذلك أيضاً لقواعد متّفق عليها من أصل الدّين الموحّد، وشرع لكم أي أمركم **(أن أقيموا الدّين)** أي اجعلوه قيّماً على النّاس وافرضوا عليهم العمل به واتّباعه **(ولا تتفرّقوا فيه)** في ذلك الدّين، فإنّ التّفرق سبب النّزاع والخصومة، والنّزاع سبب لتفكّك الأمّة ووهنها، ويؤول ذلك إلى هلاكها ودمارها **(كبر)** صعب **(على المشركين)** اتّباع **(ماتدعوهم إليه)** من التّوحيد ونبذ الأصنام، وماهم عليه من تقاليد باطلة وعادات فاسدة، فلا تحزن على عدم متابعتهم لذلك؛ لأنّه ليس لك إجبارهم على هذا الدّين، وليس من وظيفتك بل **(الله يجتبي)** أي يقرّب إليه **(من يشاء)** منهم، وهم الّذين يختارون القرب إليه ويسعون له كما قال: **(ويهدي)** أي يوصل **(إليه)** إلى معرفته وسلوك الصّراط المستقيم **(من ينيب)** من يريد الرّجوع إلى الله تعالى ويرجع إليه. ثمّ بيّن الله تعالى أنّ أهل الكتاب لم يمتثلوا أمر الله تعالى، حيث تفرّقوا في الدّين بعد العلم به فقال تعالى: **(وما تفرّقوا)** أي الأمم السّابقة **(إلّا من بعد ما جاءهم العلم)** العلم بالدّين وشريعة الله تعالى، وكان سبب تفرّقهم **(بغياً بينهم)** حسداً بينهم، فأوّلوا النّصوص وحرّفوا القواعد، كلّ حسب ما يصلح لهم ويفيد أغراضهم الدّنيويّة ومذهبهم الّذي اتّخذوه وسيلة لجلب النّاس واستغلالهم في مصالحهم وأكل أموالهم بالباطل **(ولولا كلمة)** أي ولولا حكم **(سبقت من ربّك)** في الأزل من إرادة أنّه يؤخّر عذاب المضلّين **(إلى أجل مسمىّ)** إلى وقته المعلوم والمقدّر عنده، فلولا هذا الحكم **(لقضي)** لقضى الله تعالى بينهم قريباً وفصل النّزاع بينهم بإهلاك المضلّين وإنجاء المهتدين **(وإنّ الّذين أورثوا الكتاب)** أي التّوراة والأنجيل وصحف إبراهيم **(من بعدهم)** من بعد هؤلاء الرّسل [عليهم السّلام] وهم أهل الكتاب **(لفي شكّ)** أي إنكار وجحود **(منه)** أي لما في الكتاب **(مريب)** موقع في الشّك أي هم في إنكار فظيع ما فيه، وبالخاصّة أنكروا ما فيه من الأمر بالإيمان برسول الله (ﷺ) وبيان صفاته وعلاماته الدّالة على أنّه هو بلا ريب وخفاء.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٥﴾

(فلذلك) أي فلهذه الطّريقة الّتى أوحينا إليك ووصّينا بها الرّسل السّابقين **(فادع)** النّاس كلّهم إلى سلوكها واعتناقها **(واستقم)** على دعوتك هذه **(كما أمرت)** مثل ما أمرت، ولا تتّبع أهواءهم وعاداتهم وتقاليدهم الّتي ما أنزل الله بها من سلطان **(وقل آمنت بما أنزل من كتاب)** أي من كلّ كتاب الّذي أنزل عليّ وعلى الأنبياء من قبلي **(وأمرت لأعدل بينكم)** حين الحكم وفصل المخاصمات **(الله ربّنا وربكم)** فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً **(لنا أعمالنا)** ففائدتها لنا **(ولكم أعمالكم)** وتعود ثمرتها إليكم، أي ولا أدعوكم إلى عمل الخير إلّا لفائدتكم وانتفاعكم بها لا لانتفاعي؛ فإنّه لا ينتفع بالعمل إلّا عامله **(لا حجّة)** لا خصومة ولا نزاع ولا حرب **(بيننا وبينكم)** وإنّما هي الدّعوة إلى الحقّ من قبلها، فله وإلّا فالخسارة عليه **(الله يجمع بيننا)** فيجازي كلّاً على عمله وعقيدته **(وإليه المصير)** يوم القيامة فيميّز بين المحقّ والمبطل وبين المهتدي والمنحرفين عن الصّراط المستقيم، فادع هكذا واستقم، ولا تبال بحجج الكافرين فإنّ حججهم باطلة لا تؤثر ولا تقبل عند الله وعند ذوي العقول، كما قال جلّ وعلا:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾﴾

(والّذين يحاجون) أصله يحاججون أي يجادلون **(في الله)** أي في شأن الله من أنّ له شريكاً أو أنّ له ولداً وفي شريعته **(من بعد ما استجيب)** أي من بعد ما تبيّن الحقّ وقبله المحقّون واستجابوا لله ولدعوته، أولئك **(حجّتهم)** أدلّتهم **(داحضة)** باطلة غير مقبولة **(عند ربّهم)** وعند العقول السّليمة **(وعليهم غضب)** من الله تعالى **(ولهم عذاب شديد)** يوم القيامة عند الله تعالى، وقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾

(الله) هو الّذي أنزل الكتاب بالحقّ أي القرآن وسائر الكتب السّابقة وأنزل **(الميزان)** أي الشّريعة الّتي يجب أن يوزن بها الأشخاص والأعمال والأقوال والمعاملات والأحكام كلّها **(وما يدريك لعلّ السّاعة)** الّتي يحاسب فيها النّاس على مدى تمسّكهم

بالكتب والشّريعة وانحرافهم عنها **(قريب)** وهو يوم القيامة وأنّه قريب لأنّه كما قيل: [كلّ آت قريب ولو كان بعيداً] أو لأنّ قيامة كلّ أحد بموته، والموت قريب من كلّ أحد، كما قال الشّاعر:

كـلّ أمـرىء مـصـبـح فـي أهـلـه والـمـوت أدنـى مـن شـراك نـعـلـه[(١)]

(يستعجل بها الّذين لا يؤمنون بها) استهزاءً وسخريّةً **(والّذين آمنوا مشفقون منها)** خائفون منها **(ويعلمون أنّها الحقّ)** أي الثّابتة الواقعة الآتية بدون شكّ **(ألا إنّ الّذين يمارون)** يجادلون ويشكّون **(في السّاعة)** ومجيئها **(لفي ضلال بعيد)** عن الهداية والوصول إلى الحقّ.

وكأنّ هنا قائلاً يقول: فإذا كان الكافرون بالآخرة في ضلال بعيد، فلم ينعم الله تعالى عليهم بالرّزق ونعم الدّنيا؟ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾

(الله لطيف) في الدّنيا **(بعباده)** الكافرين والمؤمنين، ولطفه هو أنّه **(يرزق من يشاء)** دون فرق بين الكافر والمؤمن **(وهو القويّ)** على أنّ يرزق من يشاء **(العزيز)** الغالب على أمره الّذي لا يرزقه من تنفيذ إرادته ومشيئته أحد، وجعل الله تعالى فتح باب الرّزق وحقّ كسب العبد والسّعي له غالباً كما قال: **(من كان يريد حرث الآخرة)** العمل للآخرة وبلوغ رزقها **(نزد له في حرثه)** في طلبه، ويرزقه وفق عمله، وزيادة عليه لأنّ الله تعالى ربط المسبّبات بالأسباب، فمن اتّخذ أسباب الآخرة في الدّنيا خلق الله تعالى له المسبّب وهو الرّزق والفوز والجنّة فيها **(ومن كان يريد حرث الدّنيا)** وتوجّه إلى أسبابه واتّخذها **(نؤته منها)** إن شئنا لأنّ المسبّب يخلقه الله بعد السّبب إلّا نادراً **(وما له في الآخرة من نصيب)** أي من حظّ في النّعمة والرّزق، هذا لمن يريد الدّنيا فقط، ولم

---

(١) وهو من شعر الإمام أبي بكر الصديق ﵁ كان يردده أثناء وعكة أصابته بعد ما قدموا المدينة المنورة / أنظر صحيح البخاري ٢/٦٦٧ الحديث رقم ١٧٩٠.

يرد الآخرة ولم يؤمن بها ولم يعمل لها، وأمّا من عمل للدّنيا والآخرة فيؤتيه الله تعالى منها، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٢٠٢)﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٠١.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه أنزل الشّرائع على نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمّد (ﷺ)، وجعل هذه الشّرائع ميزاناً ليعمل بها النّاس، ومع ذلك انحرف النّاس فلم يعملوا ولم يؤمنوا بها، سألهم الله تعالى عن سبب انحرافهم، فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ (٢٢) ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣)﴾

(أم لهم) في الواقع آلهة **(شركاء)** لله تعالى **(شرعوا لهم من الدّين)** شريعة أخرى غير شريعة الله تعالى **(لم يأذن به الله)** ولذلك لا يتّبعون شريعة الله تعالى، والاستفهام للإنكار أي ليس هنا آلهة أخرى شرعوا لهم شيئاً، بل لا يؤمنون كفراً وعناداً واستكباراً **(ولولا كلمة الفصل)** أي ولولا حكم الفصل الّذي جعل موعده يوم القيامة **(لقضي بينهم)** بين المؤمنين والكافرين في الدّنيا، إلّا أنّ الله تعالى قضى أن يكون الفصل يوم القيامة فيفصل هناك **(وإنّ الظّالمين)** المنحرفين عن شريعة الله تعالى **(لهم)** في ذلك اليوم **(عذاب أليم)** شديد الايلام، ثمّ صوّر الله تعالى حال الظّالمين في ذلك اليوم فقال جلّ وعلا: **(ترى)** يا من له الرّؤية **(الظّالمين)** في ذلك اليوم **(مشفقين)** خائفين من عذاب **(ممّا كسبوا)** من الكفر والمعاصي **(وهو)** أي العذاب **(واقع بهم)** لامحالة **(والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات في روضات الجنّات لهم)** في تلك الرّوضات (ما **يشاءون)** من

اللّذائذ والنّعم **(عند ربّهم ذلك)** الجزاء والمآل **(هو الفضل الكبير)** من الله تعالى الّذي لا يدري وصفه إلّا الله تعالى **(ذلك)** الأجر الجزيل **(هو الّذي يبشّر الله عباده)** به، ثمّ بيّن عباده هؤلاء بقوله: **(الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات)** الأعمال الّتي اعتبرها الشّرع الشّريف صالحةً، إذ هي الميزان الّذي يدرك به الصّالح وغيره، ثمّ أمر الله تعالى رسوله أن يعلن للنّاس أنّه لا يريد وراء هذه الدّعوة منفعة ولا رياسة ولا أيّ أجر؛ فقال تعالى: **(قل)** يا أيّها النّبيّ للنّاس وأيّها الدّاعي **(لا اسألكم)** لا أطلب منكم **(عليه)** أي على هذا الدّين وتبليغه أجراً **(إلّا المودّة في القربى)** أي إلّا أنّ محبّتي لكم لقرابتي إليكم تحملني على أن أدعوكم إلى هذا الدّين، فإنّي أكره أن يهلك أو يضلّ أقربائي، أحبّ لهم الخير والهداية والفوز بالسّعادة في الدّنيا والآخرة، ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ الّذي يعتنق هذا الدّين هو الّذي يؤجر ويستفيد فقال جلّ وعلا: **(ومن يقترف حسنة)** أي ومن يؤمن ويكسب خصلة حسنة من خصال الإسلام **(نزد له فيها)** في مقابل تلك الحسنة **(حسناً)** حيث نجزيه بعشرة أمثالها أو أكثر إلى سبعمائة مثل ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة: ٢٦١. وقوله تعالى: **(إنّ الله غفور شكور)** أي في معنى العلّة أي يزيد الله تعالى له حسناً؛ لأنّ الله تعالى **(غفور)** كثير المغفرة **(شكور)** كثير الجزاء لمن أتى بالحسنات.

ثمّ لما أبطل الله تعالى أن يكون لهم شركاء شرعوا لهم ... الخ أراد أن يذكر سبباً آخر يمنعهم من اتّباع الشّريعة الّتي جاء بها محمّد (ﷺ)؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾

(أم يقولون افترى) محمّد في دعواه الرّسالة **(على الله كذباً)** وأنّه ليس برسول؛ ولذلك لا نتّبع ما جاء به، وهذا السّبب باطل وقولهم مردود، لأنّ الله تعالى يصبر على كلّ معصية إلّا معصية دعوى الرّسالة كذباً، فإنّه لو صبر على ذلك لاختلّت الرّسالة، فلو كنت مفترياً يا محمّد في رسالتك لانتقم الله تعالى منك فوراً بأي صورة من الانتقام أراد **(فإن يشأ)** أي يختم على قلبك فيمنعك من الكلام في هذه الدّعوى **(يختم على قلبك)** فتنسى كلّ شيء، فحيث لم ينتقم منك بهذه الصّورة ولا بصورة أخرى فأنت صادق لا مفترٍ، بل هم مفترون عليك لأنّه من سنّة الله تعالى أنّه ينتقم من كلّ من

يدّعي الرّسالة كذباً **(ويمح الله الباطل)** أي الإدعاء الباطل للرّسالة فوراً وبفضح صاحبه بالانتقام **(ويحقّ الحقّ)** ويثبت الإدّعاء الحقّ بالرّسالة **(بكلماته)** بتقديراته أو معجزاته **(إنّه عليم بذات الصّدور)** فلو كان عندك نيّة الافتراء على الله تعالى ولو بكلمةٍ واحدة لعلم الله تعالى به ولانتقم عنك وفضحك، وهذا مثل ما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧)﴾ سورة الحاقة الآيات/ ٤٤ ـ ٤٧. فحيث مضى الرّسول (ﷺ) في دعوته ونصره الله تعالى يوماً فيوماً وانتشرت دعوته في البلاد، ودامت إلى هذا الزّمان، وسيبقى إلى يوم القيامة، فهو محقّ وصادق في دعوى الرّسالة وغير مفترٍ، بل المنكرون له هم المفترون فيما ينسبون إليه (ﷺ).

ثمّ بعد أن ردّ الله تعالى زعم الكفّار وقولهم الباطل بوجود الشّركاء وبكون الرّسول مفترياً في دعوى الرّسالة، وأثبت أنّ رسالته حقّ أراد أن يرغّب الكافرين في الإيمان بالرّسول وفي اتّباعه فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾

(وهو) أي الله هو الّذي **(يقبل التّوبة عن عباده)** كلّهم فيقبل توبة الكافر بالإيمان والإسلام، ويغفر له كلّ ما سبق، فإنّ الإسلام يجبّ ما قبله، ويقبل توبة العصاة ويغفر لهم من الحقوق الّتي هي بين العبد وبين الله تعالى، والّتي لاحقّ للعباد فيها بالتّوبة بدون إستثناء وبدون التّوبة إن شاء، ويغفر عن حقوق العباد بالتّوبة بعد أداء حقوقهم أو سماحهم له، إلّا أن يتعذّر أو يتعسّر عليه الأداء والسّماح، فحينئذ يرضيهم الله عنه إن كانت توبته صادقة وخالصة **(ويغفر عن السّيئات)** أي عن المعاصي **(ويعلم ما تفعلون)** في السّر والعلن، ومن الصّغائر والكبائر والحسنات والسّيئات، ولا يخفى عليه شيء من ذلك **(ويستجيب)** ويقبل إيمان وعمل الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات **(ويزيدهم من فضله)** حيث يجزي على الحسنة بعشر أمثالها أو سبعمائة مثل أو أكثر **(والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)** أي يضاعف إلى أكثر من سبعمائة، وهو الّذي تتّسع رحمته لأكثر من ذلك، وعليم بمن يريد أن تشمله رحمته. **(والكافرون)** الثّابتون على الكفر إلى

أن يموتوا عليه **(لهم عذاب شديد)**. ثمّ إنّ الله تعالى ذكر سابقاً في الآية(١٩): ﴿اللهُ لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز﴾ فأفاد تعالى بهذه الآية إنّ الرّزق بيد الله تعالى يبسطه لمن يشاء ويقدّره على من يشاء، فكأنّ قائلاً يقول: فلماذا لا يبسط الله تعالى رزقه على كلّ النّاس؟ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾

(ولو بسط) أي ولو وسّع الله تعالى **(الرّزق لعباده)** كلّهم **(لبغوا)** لظلموا وأفسدوا **(في الأرض)** لأنّ الغنى سبب الطّغيان قال تعالى: ﴿كلّا إنّ الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾ سورة العلق الآية/٦.٧. **(ولكن ينزّل)** الرّزق أي ينزل الأمر والقضاء بالرّزق **(بقدر)** بمقدار معيّن **(ما يشاء)** من الرّزق فيرزق من يشاء ويجعله غنياً يمتحنهم بذلك هل يشكرون أم لا؟ ويرزق من يشاء قليلاً ليمتحنهم هل يصبرون أم لا؟ وليرى الغنيّ الفقراء فيشكر ويصرف ماله فيما ينفع المجتمع لفتح المشروعات والمعامل وما يستفيد ويشغل به الفقراء، وليعمل الفقراء فينتجوا وينفعوا، ولولا ذلك لتعطّلت أمور المجتمع والحياة، هذا وإنّ في كلّ من الغنى والفقر لحكمة من حكم الله تعالى، قال القرطبيّ (رحمة الله تعالى عليه): قال العلماء: أفعال الرّب سبحانه وتعالى لا تخلو عن مصالح، وإن لم يجب على الله تعالى الإستصلاح، فقد يعلم من حال عبد أنّه لو بسط عليه الرّزق قاده إلى الفسد فيزول عنه الدّنيا مصلحة له، فليس ضيق الرّزق هواناً ولا سعة الرّزق فضيلة لأنّه أعطى تعالى أقواماً، مع أنّه يعلم أنّهم يستعملونه في الفساد، ولو فعل بهم خلاف ما فعل لكانوا أقرب إلى الصّلاح، والأمر على الجملة مفوّض إلى مشيئته، ولا يمكن إلتزام مذهب الإستصلاح في كلّ فعل من أفعال الله تعالى. وروى أنس عن النّبيّ (ﷺ) فيما يرويه عن ربّه تبارك وتعالى قال: من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة، وإنّي لأسرع شيء إلى نصرة أوليائي وإنّي لأغضب لهم كما يغضب اللّيث الحَرَد[١]، وما تردّدت في شيء أنا فاعله تردّدي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره إساءته، ولا بدّ له منه. وما تقرّب إليّ عبدي المؤمن بمثل أداء ما

(١) الحَرَد هو الغضب.

افترضت عليه، وما يزال عبدي المؤمن يتقرّب إليّ بالنّوافل حتّى أحبّه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً ويداً ومؤيّداً، فإن سألني أعطيته وإن دعاني أجبته، وإنّ من عبادي المؤمنين من يسألني الباب من العبادة، وإنّي عليم لو أعطيته لدخله العجب فافسده، وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلّا الغنى، ولو أفقرته لأفسده الفقر. وإنّ من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلّا الفقر ولو أغنيته لأفسده الغنى، وإنّي لأدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم، فإنّي عليم خبير[1]. ثمّ قال أنس: ألّلهم إنّي من عبادك المؤمنين الّذين لا يصلحهم إلّا الغنى؛ فلا تفقرني برحمتك[2]. هذا فالله يعامل عباده حسبما يليق بهم (إنّه بعباده خبير بصير) فيعامله حسب علمه هذا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن السّبب الرّئيسي للرّزق على العموم وهو المطر وأنّه بيده ويأتي حسب ارادته ومشيئته فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾

(وهو الّذي ينزّل الغيث) تدريجاً كما يفيد ذلك صيغة ينزّل، لأنّ التّفعيل للتّدريج، ولو نزل المطر وهو الغيث دفعةً واحدة لأهلك الدّيار وأفسد الزّرع، فالله هو الّذي ينزّل الغيث كلّما نزل اعتياديّاً **(من بعد ما قنطوا)** أي يئسوا من نزوله، خصّ هذا الوقت بالذّكر لأنّه في هذه الحالة يشعر الإنسان أنّه ينزّل بأمر الله تعالى وإرادته، لأنّ أغلب النّاس لا يذكرون الله تعالى ونعمته إلّا في حال الشّدة **(وينشر رحمته)** وهو الرّزق بسبب المطر وظهور النّباتات وبقاء الأشجار بالمطر **(وهو وليّ)** المتوليّ لأمور العباد والمتصرّف فيها **(الحميد)** الّذي يثنى عليه بهذه التّولية والتّصرف، ويدلّ توليته هذه وتصرّفه على كمال ذاته وجمال صفاته وجلال إراداته.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر آياتٍ أخرى غير المطر تدلّ على كمال ذاته فقال جلّ وعلا:

---

(١) شرح السنة للإمام البغوي ٥/ ٢٢ الحديث رقم ١٢٤٩.

(٢) تفسير القرطبي ١٦ /٢٨.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

(ومن آياته) أي الدّلائل الدّالة على كمال ذاته وجلال وجمال صفاته **(خلق السّماوات والأرض)** وما يتعلّق بهما من الأجرام الأخرى، ومن الجبال والبحار **(وما بثّ فيهما)** أي وما خلق ونشر فيهما، أي في السّماوات والأرض **(من دابّة)** إن أريد بقوله فيهما في كلّ من السّموات والأرض من دابّةٍ، فتفيد الآية أنّ في السّماوات الدّواب والحيوانات والإنسان، وإن أريد بفيهما أي في مجموعهما فلا تفيد ذلك، لأنّ مافي الأرض من الدّواب هو في المجموع، والنّشر يقتضي العمل، والعمل يقتضي الجزاء لأصحاب العقول والمكلّفين، ولذلك قال **(وهو)** الله **(على جمعهم)** للحساب وفق أعمالهم إن خيراً فبثواب جزيل وإن شرّاً فبعذاب أليم **(إذا يشاء)** حينما يشاء **(قدير)** كثير القدرة، وإنّه يجمعهم كما يشير إلى ذلك بكلمة **(إذا)** لأنّ إذا لا تستعمل إلّا في الشّرط الّذي يتحقّق وقوعه، كما قرّر ذلك في معاني اللّغة العربيّة.

ثمّ بعد أن خوّفهم الله تعالى بالعذاب يوم القيامة بسبب المعاصي، أراد أن يخوّفهم بالعذاب بسبب المعاصي في الدّنيا أيضاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾

(وما أصابكم) في الدّنيا **(من مصيبة)** كالوجع والألم والمرض ونقص في الأموال والأنفس والثّمرات **(فبما)** أي تصيبكم تلك المصيبة بسبب **(فبما كسبت)** أي أنفسكم من المعاصي. فنزّل الله تعالى بكم تلك المصائب بسبب المعاصي **(ويعفو)** الله تعالى عن كثير من المعاصي فلا ينزل بسببها المصيبة عليكم، فالمصائب هي نتيجة المعاصي إلّا أنّها بالنّسبة للمؤمنين تكون كفارة للذّنوب، قال في الخازن وغيره من بعض التّفاسير: قال ابن عبّاس (رضي الله عنهما): لما نزلت هذه الآية قال رسول الله (ﷺ): والّذي نفسي بيده ما من خدش عودٍ ولا عثرة قدمٍ ولا اختلاج عرق إلّا بذنب، وما يعفو الله أكثر)[١]. وروي البغوي بإسناد الثعلبي عن أبي سحيلة قال: قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه): ألا

---

(١) كنز العمال ٣/ ٣٠٤ الحديث رقم ٨٦٧٠.

أخبركم بأفضل آيةٍ في كتاب الله حدثّنا بها رسول الله (ﷺ): (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠))، وسأفسّرها لكم ياعليّ (ما أصابكم من مصيبة) أي من مرض أو عقوبة أو بلاءٍ في الدّنيا (فبما كسبت أيديكم) والله أكرم من أن يثني أي يعيد عليكم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدّنيا، فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه. وقال عكرمة: ما من نكبةٍ أصابت عبداً فما فوقها إلّا بذنب لم يكن الله ليغفر له إلّا بها، أو درجة لم يكن الله ليرفعه إلّا بها. واتّفق الشّيخان على أنّه عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (ﷺ): لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلّا رفعه الله بها درجة وحطّ عنه بها خطيئة. **(وما أنتم بمعجزين)** الله **(في الأرض)** أي لا تستطيعون أن تمنعوه من أن يعاقبكم بالمصائب **(وما لكم من دون الله من وليّ)** يتولّى أمركم **(ولا نصير)** ينقذكم من ما قضى عليكم.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾

(ومن آياته) ومن دلائله الدّالة على قدرته تعالى **(الجوار)** جمع الجاري والمراد بها السّفن الجارية **(في البحر)** وعلى الماء وهو كبيرة وثقيلة **(كالأعلام)** جمع علم بمعنى جبل، أي هي كالأعلام في الثّقل والكبر مع أنّها تجري وتمشي على الماء الّذي لا يبقى أي شيء ثقيل عليه إلّا ويبلعه، فهذه السّفن وإن كانت من صنع البشر فهي من آيات الله تعالى بوجوه:

الأوّل: أنّ صناعة السّفن أوّل ما صنعت كانت بوحي وتعليم من الله تعالى، علّمها نوحاً (عليه السلام) كما قال تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾ ثمّ تعلّم النّاس من ذلك فأصبحت صناعة بين النّاس.

الثّاني: أنّ كلّ من يصنع السّفن ويعلم هذه الصّنعة فهو من تعليم الله تعالى وتوفيقه، وليس ذلك من ذاته، لأنّه لو كان من ذاته للزم أن يكون كلّ إنسان عالماً بهذه الصّنعة، لأنّ حقيقة أفراد الإنسان واحدة متماثلة لا يتميّز أحدها عن الآخر إلّا بعوارض يخلقها الله تعالى فيه، فتخصيص بعض أفراد الإنسان بعلوم وبعضها بأخرى وبعضها

بأمور وبعضها بأخرى لا يكون إلّا بإرادة خارجة عن ذات الإنسان وهي أرادة الله تعالى، فتخصيص من يشاء لما شاء ويعلم من يشاء ما يشاء فهو التّصرف في العباد وفي شؤونها وهو على كلّ شيء قدير.

الثّالث: إنّ هذه القوّة والخاصة الّتي يحصل من تركيب مواد السّفينة بحيث يجعلها ثابتة تمشي على الماء هي من جعل الله تعالى،ن فقد جعل الله تعالى خواص للمركبات متغايرة فيما يحصل لهذا المركب غير ما يحصل للآخر وهلم جرّاً.

الرّابع: إنّ الّذي يصنع السّفينة وهو الإنسان هو من خلق الله تعالى والفكر الّذي وهب للإنسان الّذي يصنع به السّفينة هو من خلق الله تعالى أيضاً، وبهذا يعود كلّ ما صنع الإنسان إلى خلق الله تبارك وتعالى، فالسّفن من نعم الله تعالى وكذا جريها وسيرها في البحر من نعمه لأنّه **(إن يشأ يسكن الرّيح)** أي لا يتحرّك الرّيح **(فيظللن)** أي فتصبح السّفن **(رواكد)** جمع راكدة أي واقفة أي يصبحن واقفات **(على ظهره)** أي على ظهر البحر **(إنّ في ذلك)** وهو جري السّفن وسيرها عند هبوب الرّياح الموافقة وسكونها عن وقوف الرّياح وهلاكها عند هبوب الرّياح المخالفة **(لآيات لكلّ صبّار شكور)** دلالات على عظمة الله تعالى وقدرته لأنّ كلّ ذلك من تقدير الله تعالى وتنظيمه وربط الأسباب بالمسبّبات **(أو)** أي إن **يشأ** الله تعالى **(يوبقهنّ)** أي يهلك السّفن ومن وما فيها **(بما)** بسبب ما **(كسبوا)** أي معاصي كسبها وعملها الرّكاب والكفّار **(ويعف)** الله تعالى **(عن كثير)** فتبقي السّفن سالمة واصلة إلى الشّاطىء بسلامة **(ويعلم الّذين يجادلون في آيات الله)** حينما تضطرب السّفن ويشرفون على الهلاك يعلمون في ذلك الوقت أنّه **(مالهم من محيص)** من ملجأ وجنح غير الله تعالى، فيتوجّهون إليه بالدّعاء والعويل والصّراخ بعد ما كانوا غافلين عنه بل كانوا ينكرون آياته وقدرته تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ كلّ شيء بيده، وأنّه يبسط الرّزق لمن يشاء ويقدر، ولا يخرج شيء عن علمه وقدرته وإرادته، قال جلّ وعلا:

﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(فما أوتيتم) المعنى أنّ كلّ شيء بيد الله تعالى فما أتاكم **(من شيء)** في الدّنيا **(فمتاع الحياة الدّنيا)** فهو ممّا يتمتّع به في الحياة القريبة الحاليّة وأنّه يزول ولا يبقى، ومهما كثر فهو متاع، أي قليل لأنّه زائل والزّائل مهما كثر فهو قليل فلا تغتروا به **(وما عند الله)** من ثوابه وكرمه ونعمته في الآخرة **(خير)** ممّا في الحياة الدّنيا **(وأبقى)** منه لأنّه لا يزول، فاصرفوا ما في الدّنيا لأن تحصلوا ما في الآخرة. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر من أعدّ الله تعالى له ما في الآخرة فذكّرهم بأوصافهم ليعلم أنّ كلّ من اتّصف بهذه الصّفات فله ما عند الله تعالى من النّعم، وليحثّ النّاس على أن يسعوا للإتّصاف بهذه الصّفات لينالوا ما أعدّ لهم في الآخرة، فقال عزّ وجل: **(للّذين آمنوا)** أي أنّ ما عند الله **(هو للّذين آمنوا)** بما جاء به الرّسول (ﷺ) **(وعلى ربّهم يتوكّلون)** في أمورهم وشؤونهم، ولا ينافي التّوكّل العمل والأخذ بالأسباب، بل إنّما التوكّل هو الإعتقاد بأنّ كلّ شيء بيد الله تعالى، وأنّ الأسباب ليست مؤثّرة ولا مفيدة إلّا إذا أراد الله تعالى، وإنّما يتّخذ بالأسباب لداعي الشّرع لا لأنّها تؤثّر، بل إنّ الله تعالى يستطيع أن لا يخلق المسبّب ولو اجتمعت جميع أسبابه، ويستطيع أن يخلقه بدون سبب إلّا أنّ عادته جرت بخلق المسبّب بعد السّبب إلّا نادراً وعدم خلقه بدون السّبب إلّا نادراً، فالأخذ بالأسباب لازم لأمر الله تعالى لا لذاتها **(والّذين يجتنبون كبائر الأثم)** أي الذّنوب الكبيرة، واختلف العلماء في تعريفها وتعدادها فقال البعض: إنّ كلّ الذّنوب كبيرة ولا توجد صغيرة، وعلّلوا ذلك فقالوا: كلّها كبيرة بالنّظر إلى من عصيت، وهذا القول خطأ لوجوه:

الأوّل: إنّ الله تعالى قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾ سورة النساء الآية/ ٣١. فجعل الله تعالى السّيئات مقابل الكبائر، فيكون المراد بالسّيئات الصّغائر.

الثّاني: لفظ الكبيرة من المتضايفات، ولا يوجد المتضايف إلّا بوجود المتضايف الآخر فمثلاً: لا يوجد الأب أي هذا الاسم بدون وجود الإبن، فلا توجد لفظ الكبيرة إلّا مع وجود الصّغيرة، وقد أوجدت الكبيرة في ضمن لفظ الكبائر، فلا بدّ أن تكون هناك صغائر أيضاً.

الثّالث: إنّ قولهم إنّ كلّ ذلك كبيرة بالنّسبة إلى من عصيت مردود؛ لأنّه يمكن للجانب المقابل أن يقول لا كبيرة، فإنّ كلّ ذنب صغيرة بالنّظر إلى لطف الله تعالى ورحمته الواسعة. فالحقّ أنّ هناك كبائر وأنّ الصّغائر معفوّة عند الإجتناب عن الكبائر،

وذلك بدليل قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر...الخ﴾ وإنّه: (لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار)[١].

وإنّ تعريف الكبيرة هو: كلّ ذنب توعّد عليه باللّعنة أو الغضب أو النّار أو العذاب وقد عدّها بعضهم إلى سبع وبعضهم إلى سبعين وبعضهم إلى سبعمائة ولكن القول بسبعمائة إفراط فإن الذنوب كلّها بما فيها الصغائر والكبائر لا تصير إلى سبعمائة وقال البعض: أنّها ثلاث وثلاثون.

قوله تعالى: **(والفواحش)** أي ويجتنبون الفواحش وهي ممّا قبح من الذّنوب، وهي الّتي تكون من شهوة الجنس، فهو من عطف الخاصّ على العامّ لشدّة الإهتمام به **(وإذا ما غضبوا)** على أحد مع قدرتهم عليه **(يغفرون)** له ويكظمون غيظهم ويسامحونهم **(والّذين استجابوا لربّهم)** أي استجابوا نداءه وأمرت آباهم بالإيمان وأداء الفرائض والواجبات البدنيّة والماليّة **(وأقاموا الصلاة)** أي وأدّوها وأمروا بها وجعلوها قائمة في المجتمع بالعقاب على من تركها إن استطاع **(وأمرهم)** أي وعملهم وإدارة الأمور وكيفيّة إدارتها فيما لا نقص فيه **(شورى بينهم)** فيتشاورون فيما بينهم للوصول إلى النّص الّذي ورد فيه من القرآن أو السّنة، فإذا لم يجدوا نصّاً يتّفقون على ما هو الأصلح وفيه المصلحة للنّاس، فقد كان الرّسول (ﷺ) يشاور أصحابه في شؤون الحرب، وقد كان الخلفاء سيّما عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يشاورون الأصحاب والعلماء فيما لم يكن عندهم نصّ، إلى أن يجدوا نصّاً عند أحدهم، وإذا يئسوا عملوا بما هو الأصلح ويتّفقون عليه، فقد تشاوروا في ميراث الجدّ وفي حدّ الخمر وعدده، وقال بعض العقلاء: [ما أخطأت قطّ لأنّه إذا حزّ بي أمر شاورت قومي ففعلت الّذي يرون، فإن أصبت فهم المصيبون، وإن أخطأت فهم المخطئون][٢] أقول وبذلك يخرج المرء من الملامة والنّدامة، فالمشورة شعيرة من شعائر الإسلام، أمر الله تعالى بها فقال جلّ وعلا للرّسول (ﷺ): ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ سورة آل عمران آلاية/ ١٥٦. وروى التّرمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): [إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاؤكم

---

(١) روي ذلك موقوفا عن ابن عباس كما روي مرفوعا من وجوه ضعيفة. أنظر / جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي، بتحقيق د.ماهر ياسين الفحل ٢٠ / ٧٢.

(٢) تفسير القرطبي ١٦ / ٣٧.

وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاؤكم وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير من ظهرها][1] **(وممّا رزقناهم)** من المال والقوّة والجاه والكلام الطّيّب **(ينفقون)** لإعانة المحتاجين إلى مالهم أو قوّتهم أو جاههم أو كلامهم **(والّذين إذا أصابهم)** اى إذا أصاب بعضهم **(البغي)** أي الظّلم **(هم ينتصرون)** أي ينصر بعضهم بعضاً، فينقذونه من الظّلم ويدفعونه عنهم ويعملون مثل ماورد في صحيح البخاري عن أنس (رضي الله عنه) قال قال رسول الله (ﷺ): (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقال رجل يا رسول الله انصره إذا كان مظلوماً، أفرأيت إذا كان ظالماً كيف انصره؟ قال تحجزه أو تمنعه من الظّلم؛ فإنّ ذلك نصره) أي من الظّلم أو كما قال.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى البغي وهو الّذي أراد أن يرشد المسلمين ويعلّمهم أنّهم كيف يقابلون الظّلم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾

(وجزاء سيّئةٍ سيّئة مثلها) فلا تزيد عليها، كأن لطمك أحد لطمة فتلطمه لطمة، ولا يجوز أن تلطمه أكثر، وسمّي جزاء السّيئة، وإن كان حسنة لأنّه عدل، والعدل حسنة لأنّ السّيئة هي الخصلة الّتي تسوء المقابل وتحزنه، والانتقام أيضاً خصلة تسوء وتحزن المقابل، فهي سيّئة بالنّسبة إليه في حدّ ذاته، فإنّه في حدّ ذاته حسنة لأنّه عدل **(فمن عفا)** عمّن أساء إليه فهو أفضل، لأنّه فضل، والفضل بأفضل من العدل، هذا إذا كان المسيء متندّماً ويتعلّم ويصلح بالعفو، وإلّا فالعدل أولى إن كان العفو يطغيه ويزيده في الإساءة والغرور، ولذلك قال تعالى: **(وأصلح)** أي أراد إصلاح المقابل بالعفو وصلح،

(١) سنن الترمذي ٥٢٩/٤ الحديث رقم ٢٢٦٦. وقال حديث غريب، وضعّفه.

وعلامة ذلك أنّه يتندّم ويلوم نفسه، فإذا كان الأمر كذلك **(فأجره)** أي أجر الّذي يعفو **(على الله)** فيكتب له عشر حسنات، وهو أكثر **(إنّه لا يحبّ الظّالمين)** وهم الّذين يزيدون في الانتقام فيضربون لطمات جزاء لطمة أو أكثر، والّذين يطغون بالعفو ويزيدون في البغي، فالله لايحبّهم ولا يحبّ العفو عنهم **(ولمن انتصر)** أي أخذ الانتقام بالمثل **(بعد ظلمه)** بعد أن ظلم منه **(فأولئك ما عليهم من سبيل)** إلى العقاب والإنتصار، لأنّ ذلك حقّه وقد استوفاه **(إنّما السّبيل)** إلى الإنتصار والعقوبة **(على الّذين يظلمون النّاس)** بدون حقّ أو الانتقام لأمر سابق **(ويبغون)** ويريدون التّعدي على أموال النّاس أو أنفسهم أو عرضهم **(بغير الحقّ)** أي بغير أن يكون داخلاً في حدود ما أباح الله تعالى لهم **(أولئك لهم عذاب اليم)** مؤلم في الآخرة، وفي الدّنيا يجب على من بيده الأمر أو المسلمين أن يعذّبوهم عذاباً مؤلماً إلى أن يتوبوا ويؤدّوا حقوق العباد **(ولمن صبر)** على تحمّل الظّلم **(وغفر)** عمّن ظلمه إذا كان نادماً **(إنّ ذلك)** الصّبر والمغفرة **(لمن عزم الأمور)** العزم بمعنى المعزوم، ومن إضافة الصّفة إلى الموصوف، أي من الأمور المعزومة أي المطلوبة في الدّين والّتي يحبّها الله تعالى إن صلح بذلك المغفور له، وإلّا فالانتقام أفضل وأولي ليرتدع ولا يغترّ ويطغى، وبهذا تندفع المنافاة بين مدح الله تعالى الإنتصار والانتقام في الآية السّابقة وبين مدح الله تعالى العفو في الآيات اللّاحقة، فالإنتصار والانتقام أولى بالنّسبة لمن طغى بالعفو، والعفو أولى بالنّسبة للنّادم ولمن صلح بالعفو وتاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى المستحقّين لما عند الله من أجر الآخرة، وذكّرهم بصفاتهم، وبيّن أجرهم، أراد أن يذكر من لا يتّصف بهذه الصّفات وعقابهم يوم الجزاء، فقال جلّ وعلا:

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

(ومن يضلل الله) تعالى لأنّه لم يتّصف بهذه الصّفات ولم يتخلّق بتلك الأخلاق

الّتي ذكرت للمؤمنين **(فما له)** أي ليس لذلك المعرض عن هذه الأخلاق **(من وليّ)** لينصره أو ينقذه من العذاب **(من بعده)** أي من دون الله تعالى، وأنّه لاينقذه لأنّه هو الّذي اختار هذه الأخلاق الّتي استحقّ بها هذا العذاب، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ سورة النحل الآية/ ١١٨. **(وترى الظّالمين)** يا من له الرّؤية تراهم **(لمّا رأو العذاب)** أي النّار الّتي يدخلونها يصرخون و **(يقولون هل إلى مردّ)** ورجوع إلى الدّنيا لنعمل فيها ما ينجينا من هذا العذاب **(من سبيل)** من طريق نرجع فيه؟ فيقولون: كلّا **(وتراهم)** أيّها الرّائي أيضاً **(يعرضون عليها)** على النّار **(خاشعين)** متذلّلين **(من الذّل)** الّذي أصابهم **(ينظرون)** إلى المؤمنين الّذين نجوا من هذا العذاب **(من طرف خفيّ)** حياء وخجلاً **(وقال الّذين آمنوا)** لهم حينما رأوهم بهذا الحال **(إنّ الخاسرين)** هم **(الّذين خسروا أنفسهم)** بالمعاصي **(وأهليهم)** بسوء تربيتهم فهم الخاسرون **(يوم القيامة)** لاغيرهم، ويقولون لهم هذه المقالة لأنّ الكافرين كانوا يقولون للمؤمنين في الدّنيا: هؤلاء سفهاء خاسرون خسروا حياتهم ولذائذهم في الدّنيا، فيقول المؤمنون لهم: أنتم الخاسرون لا نحن، لأنّا خسرنا الحياة الفانية المؤقّتة والنّعيم الفاني، وأنتم خسرتم الحياة الأبديّة والنّعيم الّذي لايفنى، وابتليتم بالعذاب علاوة على ذلك **(ألا إنّ الظّالمين)** الّذين عدلوا وانحرفوا عن أخلاق المؤمنين والإيمان **(في عذاب مقيم)** دائم لا يزول **(وما كان لهم من أولياء ينصرونهم)** وينقذونهم من هذا العذاب من الّذين كانوا يعتقدون فيهم أنّهم ينقذون من البلايا والمصائب في الدّنيا، ويشفعون لهم في الآخرة، فلم يستطيعوا هؤلاء أن ينصروهم **(من دون الله)** تعالى، وأنّ الله تعالى لا ينصرهم لأنّهم تسبّبوا في أن أضلّهم الله تعالى **(ومن يضلل الله فما له من سبيل)** إلى النّجاة من العذاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والكافرين، خاطب تعالى الكافرين وأمرهم أن يستجيبوا له كما استجاب المؤمنون، وأن يتخلّقوا بأخلاقهم فقال جلّ وعلا:

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾

(استجيبوا) أي قل يا أيّها الرّسول ويا كلّ داعية إلى الله تعالى، قل للكافرين **(استجيبوا لربّكم)** أي أجيبوه إلى مادعاكم إليه من الإيمان والأخلاق الفاضلة **(من قبل أن يأتي يوم)** أي من قبل أن يأتيكم عذاب يوم وهو يوم القيامة **(لا مردّ له)** أي لا مردّ لذلك العذاب **(من الله)** أي من طرف الله تعالى، فإنّه قضى به وما قضى به لايرّده **(ما لكم من ملجإٍ)** تلجؤن إليه وتصونون فيه أنفسكم من هذا العذاب **(وما لكم من نكير)** ينكر ذلك العذاب ويدافع عنكم، بل كلّ أحد يرى ذلك العذاب حقّاً؛ حيث انكشف الأمر وتحقّق الحقّ وظهر استحقاقكم له **(فإن أعرضوا)** ولم يتمثّلوا تبليغك ونصيحتك أيّها النّبيّ فلا تتعب نفسك وراءهم، ولاتحاول إقناعهم جبراً، ولا تتّخذ معهم سبيل العنف حيث **(فما أرسلناك)** لتكون **(عليهم حفيظاً)** مسجّلاً لأعمالهم ومنتقماً منهم عليها **(إن عليك إلّا البلاغ)** وقد أدّيته حقّ الأداء، وأمّا الانتقام، فهو يعود إلى الله تعالى فينتقم منهم إن أراد وحينما أراد. ثمّ بيّن الله تعالى سبب إعراض الإنسان غير المستقيم وغير العاقل عن استجابة دعوة الله التّي يبلّغها الرّسل والدّعاة إلى دين الله تعالى فقال: **(وإنّا إذا أذقنا الإنسان)** أي إذا وهبنا ذلك الانسان **(رحمة منّا)** من نعم الدّنيا كالمال أو القوّة أو الجاه **(فرح بها)** فرحاً ينسيه الانقياد لله تعالى، ويطغى بسبب ذلك فلا ينقاد للحقّ **(وإن تصبهم سيئة)** أي حادثة تسوؤهم وتحزنهم **(بما)** وإن كان الواقع أنّ المصيبة أصابتهم **(بما قدمت)** بسبب ما قدّمت أيديهم من أعمال الشّر **(فإنّ الإنسان)** غير المستقيم **(كفور)** يكفر بالنّعم السّابقة، ويعترض على الله، ويبارزه بالجزع وسوء الأدب. هذا حال الإنسان غير المستقيم، ولذلك يعرض عمّا دعاه الله تعالى إليه، ولكنّ الإنسان المستقيم إذا أنعم الله تعالى عليه شكره تعالى وانقاد لأمره، وإذا أصابته المصائب صبر وتاب ورجع واستغفر الله تعالى، وينقاد لدعوته حيث يعلم أنّ كلّ مايصيبه فلذنب صدر منه أو خطيئة ارتكبها وفعلها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر ما يدلّ على عظمته ويدعو إلى استجابته فقال جلّ وعلا:

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾

(لله ملك السّماوات والأرض) يتصرّف فيه كيف يشاء **(يخلق)** يوجد **(ما يشاء)** ومن الدّلائل الّتي تدل على أنّه مختار في الخلق وليس مقهوراً تحت العلل والأسباب أنّه **(يهب لمن يشاء)** من عباده من الأولاد **(إناثاً)** فقط **(ويهب لمن يشاء الذّكور)** فقط دون الإناث **(أو يزوّجهم)** أي أو يهب لم يشاء **(ذكراناً وإناثاً)** فيجمع له بينهما **(ويجعل من يشاء عقيماً)** لا يلد لا ذكراً ولا أنثى، فهذه الظّاهرة تدلّ على أنّ الله تعالى يعمل باختياره ولا تؤثر فيه الأسباب والعلل، وقد يقال أنّه قال النّبيّ (ﷺ): (إذا سبق ماء الرّجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرّجل نزعت)[١] فيقال له لماذا يسبق ماء الرّجل؟ أو لماذا يسبق ماء المرأة؟ وإذا قيل: لغلبة شهوة هذا تلك، فيقال: لماذا يغلب ذاك تلك؟ فكلّما ذكر سبب سئل لماذا؟ إلى أن تنتهي الأسباب، ويرجع إلى إرادة الله تعالى وحده، ولذلك قال الرّسول (ﷺ) حديثاً آخر غير هذا الحديث، وزاد فيه: (بإذن الله) فالحديثان مقيّدان بقوله: (بإذن الله تعالى) أحدهما نصّاً والآخر قياساً عليه.

هذا وكان وسط مناقشة الرّسول للكافرين وغلبته عليهم يقولون: لانؤمن لك حتّى تكلّم الله تعالى وتنظر إليه، كما كان موسى يتكلّم معه وينظر إليه، فافعل ذلك إن كنت نبيّاً، فردّ الله تعالى على قولهم: أنّ موسى كان يتكلّم مع الله تعالى وينظر إليه بهذه الآية فقال جلّ وعلا:

﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾

(وما كان) أي وما حصل لبشرٍ في الماضي لا لموسى ولا لغيره **(أن يكلّمه الله إلّا وحياً)** إلّا من طريق الوحي، والوحي هنا بمعنى الإلقاء في القلب بدون واسطة

(١) صحيح البخاري ١٣/ ٣٧٢ الحديث رقم ٣٧٦٩.

شيء، بقرينة قوله بعد أن يرسل رسولاً أي ملكاً **(أو من وراء حجاب)** كالشّجرة الّتي نودي منها موسى (عليه السلام) **(أو يرسل رسولاً)** أي ملكاً **(فيوحي)** فيتكلّم عن الله تعالى مع الرّسل **(بإذنه)** بإذن الله **(ما يشاء)** الله تعالى من الكلام: من الأوامر أو النّواهي أو الأخبار أو الوعد أو الوعيد، أو الأحكام الإعتقاديّة أو العمليّة الفرديّة أو الإجتماعيّة والماليّة أو البدنيّة أوغيرها ممّا ينقسم إليه كتاب الله تعالى و حديث رسوله (صلى الله عليه وسلم) **(إنّه)** أي الله تعالى **(عليّ)** أي أعلى من أن يتكلّم معه البشر بلا واسطة أو ينظر إليه **(حكيم)** له حكمة في إستعلائه عن هذا الأمر **(وكذلك)** أي ومثل ما أوحي إلى من قبلك بالإلقاء في القلوب أو من وراء حجاب أو بواسطة الملك **(وأوحينا إليك روحاً)** وهو القرآن سمّي روحاً لأنّ العمل له سبب الحياة الآخرة كالرّوح، وكذلك سبب لسعادة الدّنيا والحياة الطّيّبة في الدّنيا **(من أمرنا)** وكان نزول القرآن من إرادتنا **(ما كنت تدري)** قبل مجيء هذا الوحي **(ما الكتاب)** أي لم تكن عالماً بأيّ كتاب بل كنت أميّاً **(ولا الإيمان)** ولا أحكام العقائد **(ولكن)** نحن **(جعلناه)** أى هذا الوحي **(نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا)** الّذين يوفّقهم إلى الإيمان والانقياد للعمل بهذا الوحي **(وإنّك لتهدي)** بهذا الوحي وترشد النّاس كلّهم **(الى صراط مستقيم)** أي منهج صحيح قويم لا إعوجاج ولا خطأ فيه ولا إفراط ولا تفريط **(صراط الله)** أي دليل الله ومنهجه الّذي **(له ما في السّماوات وما في الأرض)** وهذا دليل على استقامه المنهج، فإنّ منهجاً وشريعةً يضعها من بهذه القدرة والعلم لا يكون منهج أقوى وأقوم منه، بل هو أقوم من كلّ منهج؛ بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ سورة الإسراء الآية/ ٩. وكلّ منهج سواه باطل وضلالة وصاحبها في النّار كما قال تعالى: **(ألا إلى الله تصير الأمور)** ترجع الأمور كلّها، فيعاقب من انحرف عن هذا المنهج ويثيب من اتّبعه وطبّقه في نواحي حياته وحياة من يعود إليه إدارته من العباد والبلاد.

تنبيه: قوله: **(ما كنت تدري ما الكتاب)** أي الأحكام العمليّة **(ولا الإيمان)** أي الأحكام الإعتقاديّة ليس معناه أنّه كان كافراً أو مشركاً، لأنّه كان معصوماً قبل النّبوّة، بل معناه كان لا يعرف تفاصيل الإيمان وأقسامها ولم يطّلع على صفات الباري والآخرة والنّبوّة والرّسالة والكتب وغير ذلك، بل كان على الفترة، وخالي الذّهن عن هذه الأمور وعن أضدادها، فعلّمه الله تعالى علماً ونوراً وإيماناً أيضاً.

* * *

هذا ما وفّقت على تحريره في هذه السّورة، فإن كان صحيحاً فمن الله تعالى وتوفيقه، وإلّا فهو منّي وأقول: (رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِيْنا أَو أَخْطَأْنا) سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

تمّ في ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٠٦هـ، في داري الواقعة في سبع أبكار الأعظمية ببغداد، والحمد لله في البدء وفي الختام.

سـورة الزّخرف

(مكيّة، إلّا الآية ٥٢ فمدنيّة، نزلت بعد الشّورى، وآياتها(٨٩))

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

(حم) مرّ تفسير هذه الحروف في سورة البقرة وسورة يس وسورة يوسف، فلا داعي للتّكرار **(والكتاب)** أي أقسم بالقرآن **(المبين)** الواضح في ألفاظه ومعانيه، فالمبين من أبان بمعنى بان، أو الموضح للأحكام العادلة والمواعظ البليغة والأخلاق الحميدة والأخبار الصّادقة والوعد والوعيد، فيكون المبين من أبان على أصله، وجواب القسم محذوف تقديره (إنّ هذا القرآن من الله تعالى، وليس من صنع البشر) وإنّ هذا الكلام وإن كان قسماً بالقرآن على أنّ القرآن من الله تعالى حسب الظاهر، إلّا أنّه في الحقيقة استدلال بالقرآن على أنّ القرآن من الله تعالى، فالمعنى، والله تعالى أعلم: أنّ هذا القرآن الموضّح للأخبار الماضية والوقائع المستقبلة وقصص الأمم الخالية حسب الواقع، وما في الكتب السّماوية السّابقة غير المعروفة، والمظهر لهذه الأحكام النّافعة والحكم النّاصعة والمسيّر إلى ما في الكون من أحوال النّجوم والكواكب والأرض والسّماوات والحيوانات والنّباتات، بما هو موافق العلم والكشوفات الّتي تحدث يوماً بعد يوم، إنّ هذا الكتاب العظيم إذ يأتي به محمّد وهو أمّي ليدل دلالة لا خفاء فيها، على أنّه من الله تعالى، وأنّ محمّداً رسول الله جلّ وعلا. وقال الإمام الرّازي (رَحِمَهُ اللَّهُ) أنّ هذا قسم

على أنّ القرآن أنزل عربيّاً فجواب القسم (**إنّا جعلناه قُرآناً عربيّاً**) ولكنّ هذا القول بعيد؛ لأنّه لم يكن هناك أيّ نزاع في أنّ القرآن عربّي حتّى يحتاج إلى القسم على كونه عربيّاً، بل كان النّزاع في أنّه من الله تعالى أو من محمّد أو غيره من البشر، فنفى القرآن ذلك وأثبت أنّه من الله تعالى، إلّا أن يريد الإمام (ﷺ) أنّ القسم مسلّط على قوله: (**إنّا جعلناه**) فقط دون التّقييد بالعربيّة أي أنّ إنزال القرآن هو من عندنا لا من عند أحد غيرنا، وهذا لا يوافق قواعد البلاغة، فإنّ القيد الأخير هو المقصود بصوغ الكلام، وهو محطّ الفائدة عند البلغاء، فلا يعدل بالقرآن إلى غير ذلك، وهو أبلغ كتاب وأفصح كلام (**إنّا جعلناه قرآناً** عربيّاً) وبلّغتكم أيّها العرب (**لعلّكم تعقلون**) لكي تعقلوه وتفهموه، لكي لايمكنكم الإعتذار من عدم الإيمان به بحجة عدم فهمه (**وإنه**) أي هذا القرآن (**في أمّ الكتاب لدينا**) وهو اللّوح المحفوظ أو علم الله تعالى (**لعليّ**) في الرّتبة والمنزلة فلا كتاب أفضل منه (**حكيم**) مملوء بالحكمة. ثمّ إنّ الكافرين حزنوا وما أحبّوا أن ينزل هذا القرآن المبطل لعقيدتهم وتقاليدهم وعاداتهم، فقال تعالى: (**أفنضرب عنكم الذّكر**) أي أفنضرب عنكم التّذكير والموعظة فلا نعظكم.؟ ونعرض عنكم (**صفحاً**) إعراضاً (**أن**) قرىء بفتح الهمزة أي لأن (**كنتم قوماً مسرفين**) متجاوزين الحقّ، وقرىء بكسر الهمزة فيكون شرطاً خبره محذوف وهو (**نضرب عنكم**) حذف بقرينة قوله أفنضرب فالتّقدير (أإن كنتم قوماً **مسرفين**) نعرض عنكم فلا نعظكم، ولكن صيغ بهذه الصّيغة للإثبات بالاستفهام للإنكار والتّوبيخ، أي كلّا، لا نعرض عن تذكيركم لإسرافكم، والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى أنّ الرّسالة والموعظة والتّذكير ليس شيئاً غريباً وجديداً، بل أنّه كان من الله تعالى منذ أن سكن البشر هذه الأرض، وأنّه كلمّا أفسد النّاس عقيدتهم وشريعتهم يرسل الله اليهم رسولاً ليذكّرهم ويعيدهم إلى العقيدة الصّحيحة من توحيد الله تعالى بالعبادة وإلى الشّريعة الصّحيحة شريعة الله تعالى، إلى أن ختم الله الرّسالة برسول الله (ﷺ)، وبعده يبعث الله المجدّدين فينظّفون الدّين ممّا التصق به من ضلالات المنحرفين، وأشار تعالى إلى ذلك مع وعيد شديد، فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾﴾

(وكم) أي وكثيراً **(أرسلنا من نبيّ)** يخبر عن العقيدة الصّحيحة ويدعو إلى توحيد الله تعالى بالعبادة والعمل بشريعة الله تعالى، ونبذ الأصنام والشّرائع الوضعيّة الباطلة **(في الأوّلين)** أي في أمم الأوّلين، وكان حالهم أنّهم ينكرون ويكذبون الأنبياء والمرسلين **(وما يأتيهم من نبيّ إلّا كانوا به)** بذلك النّبيّ **(يستهزئون)** ويسخرون منه ومن دعوته **(فأهلكنا)** هذه الأمم المكذّبة للرّسل وكان فيهم من كان **(أشدّ بطشاً)** أقوى جسداً وعدداً وعدّةً **(منهم)** من الّذين يكذّبون محمّداً (ﷺ) **(ومضى)** وتقدّم وذكر **(مثل الأوّلين)** في القرآن وفي التّوراة وفي كتب التّأريخ، فليعتبر هؤلاء بتلك الأمم ليؤمنوا ولا يكذّبوا الرّسول (ﷺ) ولاينحرفوا عن دينه وشريعته، مخافة أن يفعل الله تعالى بهم مافعل بالأمم السّابقة من الهلاك والدّمار أو إنزال نوع آخر من العذاب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سفاهة وسخافة وقلّة عقل المشركين حيث يعترفون بالله تعالى وقدرته القاهرة، وأنّه خالق الكون، وبعد هذا الاعتراف الّذي يدعو إلى توحيد الله بالعبادة والتّضرّع إليه، أصبحوا يعبدون غيره ويتضرّعون إليه، لدفع ورفع الملمّات وقضاء الحاجات؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

(ولئن سألتهم) أي سألت هؤلاء المشركين وقلت لهم: **(من خلق السّماوات والأرض ليقولنّ خلقهنّ العزبز)** أي القادر الّذي يغلب أمره كلّ شيء، وتعلو إرادته كلّ شيء، فلا يمنع تنفيذ إرادته شيء.

(العليم) الّذي لا يخرج عن فعله شيء من الأزل إلى الأبد، فبقدرته هذه وبعلمه

ذلك خلق السّماوات وما فيها من النّجوم والكواكب والشّموس والأقمار والأرض وما عليها، من تلول وجبال ونبات وأشجار وحيوان وإنسان ومياه وعيون وآبار وأنهار، وما فيها من معادن وكنائز لا يحصي عددها إلّا الواحد القهّار، والعجب من المشركين أنّهم مع اعترافهم بهذا الخالق يعبدون غيره، فالخالق الّذي يكون كلّ شيء من خلقه لا يليق بأن يعبد غيره أو أن يتوجّه النّاس إلى غيره بالدّعاء، أو أن يشرك به في التّكوين أو التّكليف. أقول وأعجب من هذا أنّ الملحدين اليوم لو سئلوا هذا السّؤال ليقولون خلقها الطّبيعة وما يعترفون بالله تعالى! فهم شرّ من المشركين بكثير، ولذلك يقال أنّ جاهلية القرن العشرين أسوأ من الجاهليّة الأولى بكثير، وما أصدق هذا القول، ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعضاً من صفاته وأفعاله ونعمه الّتي تدلّ على أنّه المستحقّ بالعبادة لاغيره، فذكر زيادةً على خلقه السّماوات والأرض فقال جلّ وعلا: **(الّذي جعل)** أي صيّر **(لكم الأرض مهداً)** أي فرشاً تسكنون عليه **(وجعل لكم فيها سبلاً)** أي طرقاً في السّهول والجبال والتّلول والوديان، وفي البحار والأنهار، ففي كلّ ذلك خلق الله تعالى أمكنةً يمكن العبور منه وفيه **(لعلكم تهتدون)** لكي لا تضلّوا من تلك السّبل، وفيها وإلى حيث تريدون للتّجارة أو الكسب أو الزّيارة أو السّياحة أو التّعرف على البلاد والعباد إلى غير ذلك من أهداف السّفر. فإن قيل: لمَ لمْ يجعل قوله: **(الّذي جعل لكم الأرض مهداً)** وما بعده من مقولة الّذين قالوا **(خلقهن العزيز العليم)**؟ الجواب: أنّه لو جعل كذلك فلا بدّ أن يبدّل كلّ الضّمائر الواردة لجميع المخاطبين بالضّمائر للمتكلّم مع الغير؛ فيقال: (لعلنا نهتدي) و (وكذلك نخرج) و(وجعل لنا من الفلك) (ما تركب) و(لتستووا على ظهوره) و(ثم نذكر نعمة ربّنا) و(نقول سبحان) ....الخ، **(والّذي نزّل)** أي أنزل تدريجاً **(من السّماء ماء)** مطراً وذلك لأنّ نزول المطر دفعة يفسد الأرض والزّرع **(بقدر)** أي بمقدار معيّن يكفي لسقي الأرض ولخزن المياه في الجبال الّتي تجري منه العيون والأنهار **(فأنشرنا به بلدةً ميتاً)** أي يابسةً، فأحييناها وحرّكنا به القوى الإنباتيّة، فخرجت النّباتات والأشجار من بذرها ونواتها الّتي تنبت تحت الأرض وتتفتّت **(كذلك)** أي مثل ما خرجت النّباتات من البذور النّتنة تحت الأرض والّتي رمت وتفتّتت **(تخرجون)** أنتم أيضاً من العظام الّتي بليت وتفتّتت في القبر تحت الأرض **(والّذي خلق الأزواج كلّها)** من الحيوانات والنّباتات والأشجار والإنسان من كلّ هذه الموجودات، وجعل تلقيح الأنثى من الذّكر وبذلك التّلقيح تلد الأنثى من الحيوانات وتثمر الأنثى من النّباتات والأشجار وتنتج **(وجعل لكم من الفلك)** أي السّفن **(والأنعام)** أي ومن بعض

الأنعام وهو الإبل جعل من هذين النّوعين **(ماتركبون)** عليه **(لتستووا على ظهوره)** أي لتعلوا على ظهور ما تركبون وتستقرّوا عليها **(ثمّ)** إذا استويتم عليها **(تذكروا نعمة ربّكم)** عليكم بخلق هذا المركب لكم **(وتقولوا)** بعد الركوب **(سبحان الّذي سخّر لنا هذا)** أي تنزّه الله الّذي سخّر ذلك لنا **(هذا)** الّذي ركبناه فتنزّه الله عن أن يعجز عن أن يخلق لنا هذا وسخرّه لنا **(وما كنّا)** نحن **(له)** أي لتسخير هذا المركب **(مقرنين)** مطيقين لولا أنّ الله تعالى سخّره لنا، فإنّ الإبل إذا شردت لا يطيقها صاحبها، والسّفينة إذا اضطربت لا يطيقها ربّانها **(وإنّا)** جميعنا **(إلى ربّنا لمنقلبون)** لراجعون يوم القيامة، فيجزي من شكر هذه النّعم بالثّواب والّذي لم يشكره بالعقاب.

مســألة: نفهم من هذه الآية أنّه يسنّ للمسلم حينما يركب مركباً من دابةٍ أو سيارةٍ أو قطارٍ أو طائرةٍ أن يتذكّر نعمة الله تعالى هذه، وأن يقول: (سبحان الّذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين * وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون). ذكر القرطبيّ أنّ عليّ بن ربيعة (رضي الله عنه) قال: شهدت عليّ ابن أبي طالب (رضي الله عنه) ركب دابةً يوماً، فلمّا وضع رحله في الرّكاب قال: بسم الله، فلمّا استوى قال: الحمد لله، ثمّ قال: (سبحان الّذي سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين * وإنّا الى ربّنا لمنقلبون)، ثمّ قال: الحمد لله والله أكبر ثلاثاً، اللّهم لا إله إلّا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنّه لا يغفر الذّنوب إلّا أنت، ثمّ ضحك، فقلت له: ما أضحكك؟ قال: رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال كما قلت ثمّ ضحك، فقلت له: ما يضحكك يـ رسول الله؟ قال: العبد (وقال عجباً لعبدٍ أن يقول: اللّهم لا إله إلّا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي فإنّه لا يغفر الذّنوب إلّا أنت، يعلم أنّه لا يغفر غيره)[1]. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى صفاته هذه وأفعاله تلك وإنعامه على عباده بما علمت أشار إلى كفران النّاس لهذه النّعم فقال: **(وجعلوا له من عباده جزءاً)** هذا الكلام فيه تقديم وتأخير وحاصله **(وجعلوا له من عباده)** أي من عباد الله تعالى **(جزءاً له)** تعالى كقولهم عيسى ابن الله أو عزير ابن الله أو الملائكة بنات الله تعالى، وهذا تعجّب منه، حيث أمروا بأنّ الله خالق السّماوات والأرض، وعلموا أنّه خالق كلّ شيء ممّا أنعم به عليهم، ثمّ يجعلون له ولداً أو شريكاً، والولد والشّريك لا يليق إلّا بمن كان محتاجاً، والله تعالى بهذه القدرة ليس محتاجاً إلى أيّ شيء من هذه الأشياء **(إنّ**

(١) المستدرك على الصحيحين ١٠٨/٢ الحديث رقم ٢٤٨٢.

(الإنسان) الّذي يجعل لله هذا الجعل ويعتقد أنّ له ولداً أو شريكاً **(لكفور)** أي جاحد لنعمة الله تعالى عليه غير شاكر له **(مبين)** مظهر كفرانه هذا.

ثمّ استفهم الله تعالى استفهام تضليل وتوبيخ؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

(أم اتّخذ) الله تعالى **(ممّا يخلق)** كالملائكة ويختارهم **(بناتٍ)** له **(وأصفاكم)** واختاركم **(بالبنين)** وأعطاكم البنين. فلو كان الله تعالى اختار الولد لاختار البنين أو جمع بينهما، وما اختار البنات لأنّ البنات مستحقرة عندكم، فهل تجعلون ما تستحقرونه لله وما تعتزّون به لأنفسكم فيفعلون ذلك مع أنّهم **(وإذا بُشر)** أي أخبر **(أحدهم بما ضرب)** أي بمثل ماضربه أي ذكره **(للرّحمان مثلاً)** أي ولداً يسمّى الولد مثلاً، لأنّ الولد يشابه الوالد أي فلو بشّر أحدهم بأنّه ولد له أنثي **(ظلّ وجهه مسودّاً)** من الحزن والغمّ **(وهو كظيم)** يبلع تحسره وتأسّفه على ما ولد له، لأنّه يتنفر من الأنثى، فإذن كيف ينسب إلى الله تعالى ما هو يتنفر منه فيرضى به لله، ولا يرضى به لنفسه إنّ هذا لضلال كبير، وليس معنى هذا أنّ الله تعالى يستحقر البنات بل إنّ الله تعالى يتكلّم ويحاجج معهم على عقيدتهم، فإنّهم كانوا يستحقرون البنات وينسبونها إلى الله تعالى، فكأنّه يقول: إذا افتريتم على الله فلا تفتروا عليه بما تستحقرونه ولا ترضون به لأنفسكم. فإنّ ذلك بخس بحقّ الله تعالى **(أومن يُنشّؤ)** أي يربّى ويعيش **(في الحِلية)** في الزّينة والتّزيّن بالحلي **(وهو في الخصام)** أي في النّزاع والمكالمة **(غير مبين)** غير قويّ وهي المرأة، فإنّها تحبّ الزّينة وفي المجادلة ضعيفة، أفمن كان كذلك تنسبونه إلى الله تعالى، فلو اختار الله الولد لاختار الإبن الخشن القويّ في الجدال والنّزاع والقتال، لأنّ الملوك لا يختارون إلّا القوي الجلد، والله تعالى ملك الملوك. وقيل المراد بـ (من ينشّؤ في الحلية) الأصنام لأنّها تزيّن بالحلي والحرير، ولا يستطيع الكلام فهي في الخصام غير مبين، فالمعنى أتجعلون من هذا وصفه وتنسبونه إلى الله تعالى وتجعلونه

شريكاً له، هذا ضلال كبير، وهذا المعنى أصحّ لأنّه لو كان المراد به الملائكة يكون في قوله **(وتجعلون الملائكة)** شبه تكرار. فيجعلون الملائكة **(الّذين هم عباد الرّحمان إناثاً)** وبنات الله تعالى مع أنّ العبوديّة والبنوّة متنافيتان، فجعلوهم إناثاً وبنات لله تعالى **(أشهدوا)** أي أحضروا **(خلقهم)** حينما خلقهم الله تعالى ورأوا أنّه خلقهم إناثاً؟ كلّا، فكيف يقولون ذلك **(ستكتب شهادتهم)** الباطلة هذه وهي قولهم: أنّ الملائكة إناث **(ويسئلون)** عن هذه الشّهادة فيعذّبون عليها يوم القيامة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أدلّتهم وأعذارهم عن عدم الإيمان والبقاء على شركهم وكفرهم، وأن يبطل تلك الأدلّة فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(وقالوا) لتصحيح ماهم عليه من عبادة الأصنام **(ولوشاء الرّحمان)** عدم عبادتنا لهم لما عبدناهم، لكن عبدناهم فيلزم أنّ الله تعالى لم يشأ عدم عبادتنا لهم، وإذا لم يشأ عدم عبادتنا لهم لزم أنّه شاء وأراد عبادتنا لهم، فثبت بذلك أنّ عبادتنا لهم هي مراد الله تعالى، وما كان مراد الله تعالى فهو حقّ؛ فعبادتنا لهم حقّ. فردّ الله تعالى على قولهم ودليلهم هذا بقوله: **(مالهم بذلك من علم)** أي بما يقولون من أنّ الله تعالى لم يرد عدم عبادتهم الأصنام **(إن هم)** في قولهم **(إلّا يخرصون)** إلّا يكذبون، أي ليسوا هم في قولهم هذا إلّا كاذبين؛ وذلك لأنّ الله تعالى أراد عبادتهم للأصنام لاختيارهم ذلك لا جبراً لهم، وإنّما يلزم عدم عبادتهم، لو أراد الله تعالى ذلك جبراً، ولا جبر بل إنّ الله تعالى خلق الإنسان وأعطاه العقل والتّفكير، ونصب له الأدلّة على وحدانيّته وحقيّة شريعته، ونبّه النّاس على ذلك، وأمرهم بالتّفكير في الأدلة وبالإيمان والتّوحيد، وبشّرهم على الإيمان والتّوحيد، وأنذرهم على انحرافهم عن ذلك، ثمّ جعل الاختيار بيدهم؛ فإنّ تفكّروا واختاروا الإيمان والتّوحيد أراده الله ويسّره لهم في الدّنيا، وأنعم عليهم بالجنّة في الآخرة، وإن اختاروا عدم التّفكير والنّظر في الأدلّة والبقاء على الشّرك، أبقاهم الله تعالى على حالهم في الدّنيا ولا يجبرهم على التّوحيد، ويعذّبهم عليه في الآخرة، لأنّه أنذرهم على ذلك وأخبرهم بنتيجة كلّ من التّوحيد والشّرك، وقد وضّح الله تعالى ذلك

في قوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)﴾ سورة الكهف الآيات ٢٩ ـ ٣١. وإلى غير ذلك من الآيات الموجودة في القرآن والّتي توضّح هذا الموضوع كما شرحنا. **(أم آتيناهم كتاباً من قبله)** يبيح لهم ما هم عليه من الشّرك وعبادة غير الله تعالى **(فهم به)** بهذا الكتاب **(مستمسكون)** يعملون به؟ كلّا، فإنّ كلّ كتاب جاء من عند الله تعالى ينهى عن الشّرك وعبادة غير الله تعالى **(بل)** أي ليس لهم كلّ حجّة من عبادة غير الله تعالى سوى أنّهم **(قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّة)** على عقيدة وعمل **(وإنّا على آثارهم مهتدون)** أي مقتدون وعاملون كما عملوا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله بأنّ هذا من سنّة كلّ الأمم مع رسلهم، يمنعهم التّقليد والاستكبار عن الإيمان بهم واتّباعهم، فلا تحزن، فإنّ العاقبة الحسنى للرّسل والنّدامة العظمى للمنحرفين عن سبيل الأنبياء وعن شريعة الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

(وكذلك) أي ومثل ما يقول لك قومك **(ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير)** أي رسول ينذرهم بالعذاب على الكفر والأشراك **(إلّا قال مترفوها)** أي أغنياؤها ورؤساؤها، خصّهم بالذّكر لأنّ الكلام والنّقاش معهم، لأنّ الأمر بيد هاتين الطّائفتين وهم يناقشون الرّسل ويعاندونهم، لأنّ الأديان كلّها تضرب مصالح الرّؤساء والأغنياء حين يمنع الإستغلال والإستبداد، ويأمر بالعدل والمساواة في الحقوق وهم يكرهون ذلك **(إنّا وجدنا آباءنا على أمّة)** على عقيدة وعادات وتقاليد **(وإنّا على آثارهم)** على

اتّباعهم **(مقتدون)** فنعمل كما عملوا **(قال)** في جوابهم: **(أو لو جئتكم)** بأمّة وشريعة هي **(بأهدى)** أرشد وأحسن **(ممّا وجدتم عليه آباءكم)** هل تبقون على ما وجدتم فتتركون الأحسن والأعلى للأدون **(قالوا)** أي الكافرون: **(إنّا بما أرسلتم به كافرون)** من أنّه أحسن وأهدى بما نحن عليه، وليس المراد بقوله: (أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم) أي ما وجدوا هو هداية أيضاً، إلّا أنّ ما جاء به هو أكثر هداية كما هو مقتضى أفعل التّفضيل، لأنّ هذه القاعدة ليست مطّردة حيث يقال: هو أفقه من الحمار، والحمار ليس عنده فقه، وأنطق من الجدار والجدار ليس له نطق، بل المراد هنا أهدى ممّا وجدتم، لأنّه ليس فيما وجدتم هداية أصلاً، وإنّما صيغ بهذه الصّيغة مجاملة، ولئلّا ينتظروا أوّل مرّة وليتفكّروا فيما هم فيه وما جاء به الرّسل؛ فيعلموا ما فيه الهداية وما لا هداية فيه، فيهتدوا إلى الحقّ المبين **(فانتقمنا منهم)** لإصرارهم على الكفر والإشراك بالله تعالى **(فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين)** من الهلاك والدّمار نتيجة تكذيبهم للرّسل، وسوف ننتقم من قومك على تكذيبهم لك، فاصبر فإنّ لكلّ أمّةٍ أجلاً وإنّ لكلّ أجلٍ كتاباً، فما أشدّ هذا الوعيد للمنحرفين عن الدّين، وما أحسن هذا الوعد للتّائبين والمستقيمين على ما يأمرهم ربّ العالمين من عقائد الإسلام وشريعته.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّر الرّسول (ﷺ) بنبذة من حال سيّدنا إبراهيم زيادة في تسليته وإيقاظاً لقومه ليتّبعوه، فإنّ دعوته دعوة سيّدنا إبراهيم وإنّه أبوهم لأنّ قريشاً كانوا يرجعون إلى سيّدنا اسماعيل، فليقتدوا وليتّبعوا محمّداً (ﷺ) فإنّه لم يأت إلّا بما دعا إليه جدّهم إبراهيم (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(وإذ قال إبراهيم) أي واذكر لهم قول إبراهيم (عليه السلام) وقتما قال **(لأبيه وقومه إنّني براء)** أي بريء **(ممّا تعبدون)** من الأصنام والآلهة **(إلّا الّذي فطرني)** أي أوجدني من العدم وهو الله، فإنّي لست بريئاً منه بل أعبده **(فإنّه سيهدين)** إلى الصّراط المستقيم أي الشّريعة الحقّة الّتي يحقّ العمل بها **(وجعلها)** أي وجعل ابراهيم (عليه السلام) هذه العقيدة عقيدة التّوحيد **(كلمة)** عقيدةً وحكماً **(باقيةً في عقبه)** في ذريته أي أوصاهم بالبقاء والحياة على هذه العقيدة؛ فوصّى من ذريّته الآباء أبناءهم بالبقاء والحياة على هذه

العقيدة، وقد ذكر الله تعالى هذه التّوصية في القرآن الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣)﴾ سورة البقرة الآية/ ١٣٠ -١٣٢. إلى غير ذلك من الآيات، فاذكر لهم حال إبراهيم وأولاده من التّوحيد والإسلام **(لعلّهم يرجعون)** أي لكي يرجعوا عن الشّرك إن صدقوا أنّهم مقتدون بآبائهم، فليقتدوا بإبراهيم وبنيه فإنّهم أشرف آبائهم فليوحّدوا وليتركوا الشّرك مثلهم، ويتّبعوك فإنّك لم تأت إلّا بما كان آباؤهم الأشرفون من ابراهيم وأولاده المرسلين والنّبيّين والمسلمين عليه.

ثمّ ذكر الله تعالى أنّه لا حجّة لهم في بقائهم على شركهم وكفرهم إلّا أنّهم طغوا بسبب ما أنعم الله عليهم، فبدّل أن يشكروا نعمته بتوحيده واتّباع شريعته كفروا فقال جلّ وعلا:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

(بل) أي لاحجّة لهم في البقاء على الكفر والإشراك إلّا أنّي **(متّعت)** أي أنعمت على **(هؤلاء وآباءهم)** المشركين، فطغوا وبغوا وكفروا وأشركوا بدل أن يشكروا نعمتنا فيوحّدوا ولا يشركوا ولا يكفروا، فبقوا على هذا الكفر والإشراك **(حتّى جاءهم الحقّ)** أي القرآن **(ورسول مبين)** مظهر رسالته بالحجج الباهرة والمعجزات القاهرة **(ولمّا جاءهم الحقّ)** هذا القرآن وهذا الرّسول العظيم **(قالوا هذا)** أي ما أتى به محمّد من المعجزات والقرآن الّذي هو أكبر معجزة **(سحر)** مبين أي سحر واضح **(وإنّا به كافرون)**

ولا نؤمن به، وكان من حججهم الباطلة أنّهم ظنّوا أنّ النّبيّ يجب أن يختاره الله تعالى من العظماء والصّناديد، وليس لله أن يختار للرّسالة من شاء **(وقالوا)** من جهلهم **(لولا نزّل هذا القرآن)** إن كان من عند الله **(على رجل من)** إحدى **(القريتين)** مكّة أو الطّائف **(عظيم)** أي لماذا لم ينزل على رجل عظيم من مكّة أو الطّائف ولم يعقلوا أنّ الله يختار لرسالته من يشاء قال: **(الله يعلم حيث يجعل رسالته)** ولم يعقلوا أيضاً أنّ العظمة ليست بالرّياسة الدّنيويّة، بل إنّها بالأخلاق الحسنة والأعمال الطّيّبة، وأنّ محمّداً كان أعظمهم في الأخلاق وأطيبهم في الأعمال وأصدقهم في المعاملات والأقوال وأوفاهم وأكثرهم أمانة وعفّة. ثمّ ردّ الله تعالى على اقتراحهم هذا فقال: **(أهم يقسمون رحمة ربّك)** فيختاروا هم للرّسالة والنّبوّة من شاؤوا، كلّا ليس لهم ذلك، بل قسمة الرّحمة تعود إلى الله تعالى، واستدلّ على ذلك بقوله: **(نحن قسمنا بينهم معيشتهم)** رزقهم ومناصبهم **(في الحياة الدّنيا)** فجعلنا بعضهم غنيّاً وبعضهم فقيراً وبعضهم متوسطاً إلى غير ذلك كما قال: **(ورفعنا بعضهم على بعض درجات)** من الرّزق والمال، ولم يكن هذا التّقسيم حسب اختيارهم، بل حسب اختيار الله تعالى وإرادته، فكما أنّ قسمة الحياة الدّنيويّة ليس باختيارهم فكذلك قسمة المناصب الدّنيويّة ليس باختيارهم، بل باختيارنا فقط، فاخترنا محمّداً دون غيره **(الله يعلم حيث يجعل رسالته)** وفي هذه الآية دليل على حجيّة القياس وحتميّة العمل به. ثمّ علّل الله تعالى وبيّن حكمته في جعل النّاس درجات في الرّزق وعدم جعل كلّهم في مستوى واحد فقال: **(ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً)** أي خادماً له، فيخدم الغنّي الفقير بالمال والنّقود، والفقير يخدم الغني بالعمل، والعالم يخدم الجاهل بالعلم، والصّانع يخدم النّاس بصنعته والنّاس يخدمونه بالشّراء أو إستئجاره في الصّنعة والزّارع يخدم النّاس بالحبوب، وأصحاب البساتين يخدمونهم بالثّمار وعلى هذا فقس، فكلّ طائفة يخدم الطّوائف الأخرى من جهة، وهم يخدمونهم من جهة أخرى كما قال الشّاعر:

النّاس للنّاس من بدوٍ ومن حضرٍ   بعض لبعضٍ وإن لم يشعروا خدم

فقسّم الله تعالى النّاس كذلك وسخّر كلّ إنسان في عمل لتكمّل الكلّ حاجة الكلّ، ولولا ذلك لتعطّلت الأمور، فلو سوّى الله تعالى بين الكلّ وفي جميع الأحوال لما خدم أحد أحداً، وحينئذٍ يقضي الأمر إلى الخراب للعالم وفساد الدّنيا وتعطيل الأمور **(ورحمة ربّك خير ممّا يجمعون)** أي ولا تتعجّبوا من غنى الأغنياء ولا تتأسّفوا

على فقر الفقراء، فإنّ هذه الأمور أمور دنيويّة لا قيمة لها وإنّما العبرة باطاعة الله تعالى وعبادته وتحصل الآخرة حيث **(ورحمة ربّك)** في الآخرة **(خير ممّا)** من كلّ ما **(يجمعون)** في الدّنيا لأنّ ما في الآخرة باق لا يزول وما في الدّنيا فانٍ ولا يدوم.

وحيث أشار الله تعالى هنا الى قلّة شرف الدّنيا، أراد أن يصرّح بأنّ الدّنيا لا شرف لها بالنسبة للآخرة، ولذلك يعطيها الله للكفار، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

(ولولا) أنّ حبّ النّاس للدّنيا موجود ومركوز في النّفوس، ويصير النّاس كلّهم كافرين إذا جعلت الدّنيا للكافرين، فاجتناباً من **(أن يكون)** أي يصير **(النّاس أمّة واحدة)** مجتمعة على الآخر كلّهم بسبب إعطاء النّعم الكثيرة للكافرين في الدّنيا **(لجعلنا لمن يكفر بالرّحمان لبيوتهم سقفاً)** جمع سقف **(من فضّة ومعارج)** من فضةٍ أيضاً، أي ومدارج وسلالم **(عليها)** على تلك المعارج **(يظهرون)** يصعدون إلى السّطح **(ولبيوتهم)** أي وجعلنا لبيوتهم أيضاً **(أبواباً)** من الفضّة **(وسرراً)** منها **(عليها يتكئون)** يجلسون عليها متّكئين مستريحين **(وزخرفاً)** أي وجعلنا لهم زخرفاً أي ما يزخرفون ويزخرف به بيوتهم من ما يتصوّر من أنواع الزّخرفة والزّينة حسب الزّمان والمكان **(وأن)** أي وليس **(كلّ ذلك)** ممّا ذكر من النّعم والزّينة والغنى **(لمّا)** إلّا هو **(متاع)** منفعة يتمتّع بها في **(الحياة الدّنيا)** لا قيمة لها، حيث لابقاء لها، بل تزول ولا تخلو من كراهةٍ ومرارةٍ وأتعاب **(والآخرة)** أي وحياة الآخرة الّتي لا تفنى ولا تزول، وهي خالية من كلّ مكروه هذه الحياة **(عند ربّك)** في الجنّة أعدّت **(للمتقين)** من الكفر والإشراك بالله تعالى.

فإنّ قيل: فلم لم يجعل الله تعالى هذه النّعم للمسلمين حتّى يصير النّاس كلّهم أمّةً واحدةً على الإسلام؟ فنقول يجاب على هذا السّؤال بنوعين:

الأوّل: لو جعل النّعم للإسلام وبسبب الإسلام، وصار النّاس كلّهم مسلمين لصار إسلامهم للدّنيا فلم يكن لله تعالى، ولا من دليل العقل والتّفكير والنّظر الصّحيح، فلا يكون لإيمانهم قيمة.

الثّاني: إنّه من طبيعة الإنسان غالباً أن يطغى بالغنى وكثرة الأموال، فيسيطر عليه الشّطان فيغويه عن الصّراط المستقيم، وهذا ما أشار إليه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(ومن يعش عن ذكر الرّحمان) أي ولم نجعل الدّنيا الكثيرة للمؤمنين لأنّه من طبيعة الإنسان غالباً أنّه يطغى بالغنى، كما قال: ﴿كلّا إنّ الإنسان ليطغى أن رآه أستغنى﴾ سورة العلق الآية/ ٦،٧. فلو أعطينا ما يريد لطغى وغفل وعشي أي عمي عن ذكر الرّحمان **(ومن يعش)** أي يغفل **(عن ذكر الرّحمان نقيض)** نجعل **(له شيطاناً فهو)** ذلك الشّيطان **(له قرين)** ملازم **(وأنّهم)** أي الشّياطين **(ليصدّونهم)** ليمنعون القرناء ويضلّونهم **(عن السّبيل)** المستقيم سبيل الله تعالى **(ويحسبون)** ويعتقدون **(أنّهم)** بهذا الانحراف والإبتعاد عن دين الله تعالى **(مهتدون)** وصلوا الحقّ وهم محقّون فيما يعملون على خلاف شرع الله تعالى، وهذه هي المصيبة العظمى، فإنّ العبد حينما ينحرف في عمله عن شريعة الله تعالى ورأى نفسه منحرفاً وعاصياً بذلك الانحراف، فالأمر هيّن لأنّه مادام معترفاً بخطئه فلا بدّ من يوم أن يرجع ويتوب فيغفر الله تعالى له. ولكنّ الّذين ينحرفون عن دين الله تعالى ويرون أنّهم مهتدون، وأنّ هذا هو الأحسن والأولى، فهؤلاء كفرة لأنّهم يفضّلون خلاف أمر الله تعالى على أمره، ويرون أحسن منه، وذلك كفر ولا أمل فيهم لأنّهم لا يشعرون بخطئهم ليتوبوا، فيبقون مستمرّين على الكفر إلى أن يساقوا إلى جهنّم وبئس المصير.

حكاية: يقال أنّه حينما نزل قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون﴾ سورة الأنفال الاية/ ٣٣. جمع إبليس جنوده من الشّياطين فعقد مؤتمراً وخطب بهم فقال: أنّه نزلت للمسلمين آية قصمت ظهرنا فإنّه كلّما حملنا مسلماً على معصيةٍ تذكّر ربّه فاستغفر فيغفر الله له، بذلك يذهب كلّ مساعينا ووساوسنا سدىً وبدون جدوى، فقال أحدهم: أرى هناك علاجاً، قال إبليس وما

ذلك؟ قال: نحملهم على المعصية وننسيهم أنّها معصية بل ونجعل المعصية عندهم حسنة فلا يتندم ولا يستغفر فلا يغفر الله له، فقبل إبليس وجهه وقال: ما أحسن هذا العلاج. أقول: وهذا هو ما نحن فيه اليوم فإنّ كثيراً من المعاصي فشت في بلادنا وكثيراً من أمور الإسلام بُدّلت وغُيّرت إلى ما يخالفها، ويحسب ذلك تقدّماً وتمدّناً وخلافه رجعيّة، وأصحابها المتمسّكون بها رجعيّين، والحقّ أنّ هذا ممّا يندى له الجبين فلا حول ولا قوّة الّا بالله العليّ العظيم وإنّا لله وإنّا اليه راجعون، فإنّ هذه ردّة ما فوقها من ردّة.

* * *

(حتّى إذا جاءنا) أي بقي هذا الّذي غفل عن ذكر الرّحمان وصّده الشّيطان من الإنس أو الجنّ عن السّبيل وداوم على هذا الحال **(حتّى إذا جاءنا)** يوم القيامة وعلم مصيره من العذاب ومكانه من جهنّم **(قال)** لقرينه الّذي أضلّه من الجنّ والإنس **(يا)** فلان **(ليت)** كان **(بيني وبينك)** بعد مثل **(بعد المشرقين)** قال بعضهم: أراد بعد المشرق عن المغرب فغلب مثل عمرين وقمرين، وقال بعضهم أراد مشرق أوّل السّرطان وأوّل الجدي، وأقول: إنّ النقطة الّتي يبدأ منها خط سير الشّمس وحركتها هي مشرق لنا ومغرب للجانب الآخر من الأرض، والنّقطة الّتي تغرب منها الشّمس عنّا مغرب لنا ومشرق للجانب الآخر، فالمشرقان هو النّقطتان نقطة طلوع الشّمس ونقطة غروبها لأنّها مشرق للآخرين، وهذا هو المراد بقوله في آية أخرى (ربذ المشرقين وربذ المغربين) ففهم فإنّه دقيق. **(فبئس القرين)** أنت كنت وتمنّى ذلك تندماً فيندم من الكفر واتّباع الشّياطين، فخاطبهم الله تعالى على لسان الملك قائلاً: **(ولن ينفعكم اليوم)** ندمكم وإيمانكم لأنّ الإيمان والتّوبة بعد معاينة العذاب وفي حال اليأس غير مقبول، فلا ينفعكم أي شيء **(إذ ظلمتم)** في الدّنيا وما تبتم فيها **(أنّكم)** أنتم وقرناؤكم السّوء **(في العذاب مشتركون)** وإن كان حصّة القرين والمضلّين أكثر من الضّالين لأنّ المضلّ يأثم على الضّلال والإضلال، والضّال على الضّلال فقط. ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) كان شديد الحرص على إيمان القوم، فكان دؤوباً في دعوتهم وإرشادهم ومحاججتهم، وهم أصرّوا على الكفر وصمّموا على الشّراك، فكان يحزن رسول الله (ﷺ) ويتعب روحاً وجسماً بذلك ويؤلمه كفرهم وضلالهم، فأراد الله أن يخفّف من تعبه ويسلّي من حزنه، فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

(أفانت) يا محمّد **(تسمع الصمّ)** الصمّ جمع الأصمّ، وهو الّذي لا سمع له أبداً، والاستفهام للإنكار أي لاتستطيع ذلك. وهؤلاء وإن كان لهم سمع إلّا أنّه حيث كانوا لا يسمعون به الحقّ أبداً، جُعلوا صمّاً لأنّ السّمع الّذي لا فائدة فيه وجوده كالعدم، بل العدم خير منه؛ لأنّه حينئذٍ معذور، وكذلك القول في العمي في قوله: **(أو تهدي العمي)** أي ترشد جمع العمي وهو من لا بصر له **(ومن كان في ضلال)** انحراف عن الطّريق **(مبين)** واضح ذلك الانحراف ومفرطٍ بحيث لا يريد صاحبه الاهتداء إلى الصّراط أبداً، أي لايستطيع ذلك؛ فلا تتعب نفسك أكثر ممّا كلّفت به وهو الإنذار والتّبشير ولا تحزن عليهم أبداً **(فأمّا)** أصله ما مركب من إن الشّرطية وما الزائدة، فالمعنى **(فإمّا نذهبنّ بك)** أي نتوفينك قبل إنزال العذاب عليهم **(فإنّا منهم منتقمون)** بعدك **(أو نرينّك)** في حياتك كبعض **(الّذي وعدناهم)** من الانتقام والعذاب **(فإنّا عليهم)** أي على عذابهم **(مقتدرون)** كثير القدرة، والحاصل أنّه ينزل عليهم العذاب إمّا في حياتك أو بعد وفاتك ولحوقك بالرفيق الأعلى **(فاستمسك)** فدم على التّمسك والإلتزام التّام **(بالّذي أنزل إليك)** وهو القرآن واعمل به، وأدع النّاس إليه ولا يثبّطنّك تكذيب المكذّبين وانحراف المنحرفين وكفر الكافرين، فدم على هذا الأمر حيث **(إنّك على صراط مستقيم)** وهو صراط الإسلام؛ فلا تنحرف عنه، وهذا أمر للمسلمين ولدعاة الإسلام، فإنّ الرّسول (ﷺ) كان ثابتاً لايزحزحه عن الحقّ أي مزحزح مهما كان من القوّة في الزخرفة والإبعاد، إلّا إنّه خوطب الرّسول (ﷺ) بذلك لأنّه المبلّغ **(وإنّه)** أي وإنّ ما أوحي إليك **(لذكر)** لموعظة وإرشاد إلى الحقّ والصّراط المستقيم **(لذكر لك ولقومك وسوف تسألون)** عن مدى تمسّك من تمسّك به، ومدى انحراف من انحرف عنه، ويثاب المتمسّك بثواب جزيل، ويعاقب المنحرف بعذاب وبيل **(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا)** لهم أن

يعبدوا **(من دون الرّحمان آلهة يعبدون)** أي لم نجعل لأحد ذلك، قيل: أنّه سألهم حينما اجتمع بهم ليلة الإسراء وصلّى بهم فأجابوه: كلّا، ولم يكن شيء من ذلك وقيل: معناه اسأل، فإنّه حينما نزلت هذه الآية قال الرّسول ﷺ: لا أسأل قد اكتفيت بكلامك، وقيل: معناه اسأل أمم من أرسلنا قبلك وهم أهل الكتاب. ثمّ أراد الله تعالى أن يذكّره بنبذة من حال سيّدنا موسى (عليه السلام) زيادة في تسليته (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(ولقد أرسلنا) الواو للقسم أي وبعزّتي أقسم لقد أرسلنا **(موسى)** ابن عمران (عليه السلام) **(بآياتنا)** بمعجزاتنا الدّالة على رسالته فأرسلناه **(إلى فرعون وملئه)** وجماعته **(فقال)** لهم موسى **(إنّي رسول ربّ العالمين)** أرسلنا إليكم لأدعوكم إلى عبادته والعمل بشريعته وترك عبادة ما تعبدون من دونه، فكذّبوه وقالوا له: لست مرسلاً من الله تعالى، فأظهر لهم المعجزات الّتي تدلّ على رسالته **(فلمّا جاءهم بآياتنا)** بالمعجزات الّتي أعطيناها أيّاه وأظهرها **(إذا هم منها)** من تلك المعجزات **(يضحكون)** سخريةً واستهزاءً بدل أن يؤمنوا بواسطتها **(وما نريهم من آية)** أي وكنّا ما نريهم من معجزة **(إلّا هي أكبر من أختها)** من قرينتها الّتي سبقتها، فلم يؤمنوا بواحدة منها؛ فانتقما منهم **(وأخذناهم)** وعذّبناهم **(بالعذاب الأليم)** أي المؤلم كالقحط والجراد والقمّل **(لعلّهم يرجعون)** أي فعلنا كلّ ذلك في حقّهم لكي يرجعوا عن الكفر والشّرك فلم يرجعوا **(وقالوا)** لموسى حينما نزل بهم العذاب **(يا أيّها السّاحر)** العظيم في السّحر **(أدع لنا ربّك بما عهد)** بما وعد أنّه إن آمنوا أكشف عنهم العذاب فادع حيث **(إنّنا لمهتدون)** أي لمؤمنون بك وبما جئت به من الأحكام والشّرائع وتوحيد الله تعالى بالعبادة، فدعا موسى فكشف الله تعالى عنهم العذاب **(فلمّا كشفنا)** أي أزلنا **(عنهم العذاب)** ونجوا ممّا أحاط بهم **(إذاهم ينكثون)** ينقضون العهد والإيمان، ورجعوا إلى الكفر والطّغيان.

ثمّ وصف الله تعالى لنا حالهم بعد نقضهم ذلك العهد فقال جلّ وعلا:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(ونادى فرعون في قومه) أي إنّهم نقضوا العهد والإيمان ورجعوا إلى الكفر لأنّ فرعون جمعهم وخطب فيهم وقال فرعون حينما خطب **(في قومه)** بين قومه **(يا قوم أليس لي ملك مصر)** أي السّيطرة على مصر **(وهذه الأنهار تجري من تحتي)** أي تحت تصرّفي **(أفلا تبصرون)** عظمتي؟ فكيف تعصونني وتطيعون موسى؟ **(أم أنا خير)** حذف معادل أم، والأصل أهو أي موسى خير منّي **(أم انا خير من هذا الّذي هو مهين)** أي خفي وهو موسى **(ولا يكاد يبين)** أي لا يفصح في التّكلم حيث كان في لسانه عقدة، وحذف المعادل لأنّه كان يستنكف أن يتلفّظ بخيريّة موسى عنه **(فلولا ألقي عليه)** من السّماء **(أسورة من ذهب)** إن كان صادقاً في أنّه رسول من الله تعالى **(أو جاء معه الملائكة مقترنين)** مصاحبين له ويؤيّدونه، أوهم قومه أنّ رسل الله كرسل الملوك يكون معهم حماية يحمونهم ويقوّونهم **(فاستخفّ قومه)** فوجد قومه خفيف العقول فدعاهم، فأطاعوه **(إنّهم كانوا قوماً فاسقين)** خارجين عن طاعة الله ومحبّين لشهوات الدّنيا والحياة البهيميّة وعدم التّقيّد بالقيم والأخلاق، ولذلك اتّبعوا فرعون **(فلمّا آسفونا)** أي أغضبونا بكفرهم وأعمالهم الفاسدة **(انتقمنا منهم فاغرقناهم)** في البحر **(أجمعين)** كلّهم ولم ينج منهم أحد **(فجعلناهم سلفاً)** سابقين ومتقدّمين في العذاب لمن بعدهم ومثلاً **(للآخرين)** للأقوام الآخرين الّذين يأتون بعدهم ليعتبروا ويتّعظوا بهم.

﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

(ولما ضرب ابن مريم مثلاً) بعد أن قال الله تعالى: **(وسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرّحمان آلهة يعبدون)** وسمع المشركون أنّ النّصارى يعبدون عيسى بن مريم وهم أهل الأديان أحتّجوا بذلك، وقالوا إنّ عيسى يعبده النّصارى زعماً منهم أنّ ذلك كان بأمر الله تعالى، فأراد الله تعالى أن يردّ عليهم فقال: **(وإذا ذكر)** أي وإذا ذكر ابن مريم **(مثلاً)** أي مثالاً لما كان يعبد من دون الله تعالى **(إذا قومك)** يا محمّد **(منه)** من هذا المثال ومن أن عيسى يعبده النّصارى **(يصدّون)** يفرحون حيث يزعمون أنّ ذلك من دينهم الّذي أمر بهم الله تعالى، وعارضوا به قوله تعالى: **(واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرّحمان آلهة يعبدون)** فقالوا: إنّ عيسى كان يعبده النّصارى من دون الله فإذاً نحن أيضاً نعبد آلهتنا من دون الله **(وقالوا آآلهتنا خير أم هو)** أي أم عيسى لأنّهم كانوا يعبدون الملائكة، وإنّما هذه الأصنام تماثيل الملائكة الّذين يعبدونهم، واستفهامهم للتّقرير أرادوا أنّ آلهتنا خير من عيسى، حيث كانوا يعتقدون أنّ الملائكة أفضل من عيسى وغيره من البشر، فحينما يعبد عيسى فكيف نحن نلام إذا عبدنا من هو خير منه **(ما ضربوه)** أي ما ذكروا هذا القول **(لك)** يا محمّد **(إلّا جدلاً)** إلّا احتجاجاً بحجّةٍ باطلة؛ لأنّ النّصارى ما كانوا يعبدون عيسى بأمر من الله تعالى ولا من عيسى، بل كانوا يعبدونه جهلاً وضلالاً **(بل هم قوم خصمون)** دأبهم الجدل واللّجاج والخصومة بدون حجّة صحيحة وبرهان يفيد. ثمّ بيّن الله تعالى أنّ عيسى لم يأمر الله تعالى بعبادته ولا وصّاهم عيسى بذلك، فقال جلّ وعلا: **(إن هو إلّا عبد)** لله تعالى ولم يكن إلهاً ولا شريكاً لله ولا إبناً له، لأنّ العبوديّة تنافي كلّ ذلك، فالعبد لله لا يكون إلهاً ولا إبناً لله ولا شريكاً له، فعيسى ليس إلّا عبدا أنعمنا عليه بالنّبوّة والرّسالة والمعجزات الّتي أظهرناها على يده، من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وكلّ ذلك كان بقدرة الله تعالى وإرادته **(وجعلناه)** أي عيسى **(مثلاً)** أي آيةً ومعجزةً تدلّ على قدرتنا وعبرة **(لبني إسرائيل)** ليعلموا به أنّ الله تعالى على كلّ شيء قدير، حيث خلقه بدون أب وجعله يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى وقدرته. ثمّ إنّ النّاس عبدوا عيسى لأنّه كان زاهداً عابداً تاركاً لشهوات الدّنيا ولذائذها، وكان يأتي بالمعجزات الباهرة فقال تعالى: **(ولو نشاء لجعلنا منكم)** أي لأولدنا منكم **(الملائكة)** أبعد وأنزه من عيسى عن شهوات الدّنيا وأقدر على الإثبات بالمعجزات **(يخلفون)** أي يخلفونكم فلا تعجبوا من خلقنا عيسى، ولا تقدّسوه فتجعلوه إلهاً أو أباً له، إنّما هو عبدنا ومن خلقنا ونستطيع أن نخلق أعجب منه، وما ذلك على الله بعزيز.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

(وأنّه لعلم) أي قل يا محمّد وأنّه أي عيسى وولادته بدون أب وإحياؤه الموتى وغير ذلك **(لعلم)** أي لدليل علم **(للسّاعة)** أي لمجيئها، فإنّ الله تعالى حينما يقدر على أن يخلف عيسى بدون أب، وأن يعطي القدرة لعيسى على أن يحيي الموتى، فهو أقدر على ذلك، وأنّه يحيي الموتى كلّهم يوم القيامة، وإنّ هذه السّاعة لآتية **(فلا تمترنّ)** أي فلا تترددوا في الإيمان **(بها)** بالسّاعة **(واتّبعون)** فيما جئت به من التوحيد وقيام السّاعة **(هذا)** الّذي جئت به **(صراط مستقيم)** لا اعوجاج فيه وحقّ لا شكّ فيه.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

(ولايصدّنكم) أي ولا تفسحوا المجال لأن يصدّكم **(الشّيطان)** أي يمنعكم من اتّباعي وسلوك هذا الصّراط المستقيم حيث **(إنّه لكم)** يا أبناء آدم **(عدوّ مبين)** واضح العداوة، لا يريد بكم إلّا الضّلال والضّرر في الدّنيا والآخرة، أو معناه أنّه أظهر عداوته لكم منذ خلق آدم وامتنع عن السّجود له وطرده الله تعالى على امتناعه عن السجود لآدم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ سورة ص الآيات/ ٧٥-٨٣.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال عيسى من حيث ذاته وهويّته أراد أن يذكر حاله حين الرّسالة فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾

(ولمّا جاء عيسى) بني إسرائيل **(بالبيّنات)** بالمعجزات الباهرة **(قال)** لهم **(قد جئتكم بالحكمة)** أي بالشّريعة الإلهيّة والرّسالة **(ولأبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه)** فإنّهم اختلفوا بعد موسى (عليه السلام) وغيّروا شريعته **(فاتّقوا الله)** وحده ولا تشركوا به **(وأطيعون)** أي وأطيعوني في بيان كيفيّة تقوى الله تعالى وفيما أبيّن لكم ما اختلفتم فيه، وفي هذه الآية دليل على أنّ حكم الله تعالى لا تعرف إلّا بواسطة الرّسالة، إذ العقول متباينة مع قصورها عن إدراك الحقائق والأمور الإلهيّة **(إنّ الله هو ربّي وربّكم)** لاربّ لنا سواه فيجب أن يؤخذ منه التّربية الأخلاقيّة والدّينيّة والإجتماعيّة والإقتصاديّة كلّها **(فاعبدوه هذا)** أي الرّجوع إلى الله تعالى في كلّ حكم وعقيدة وتربية وعبادته وحده **(صراط مستقيم)** لا يضلّ من سلكه، ومن أنحرف عنه فقد ضلّ ضلالاً مبيناً، فاختلف الأحزاب من بينهم في حقّ عيسى حين وجوده، فبعضهم آمن به وبعضهم كفر به وعاداه وحاولوا قتله وبعد وفاته أيضاً، حيث زعم البعض أنّه إله، وبعضهم أنّه ابنه، وبعضهم بقوا على الحقّ وقالوا: أنّه رسول كسائر الرّسل وبشر كسائر عباد الله تعالى **(فويل)** أي هلاك عظيم **(للّذين ظلموا)** بسبب الكفر بعيسى وعدم الإيمان به وكذلك قولهم فيه أنّه أو إبنه فويل لهم **(من عذاب يوم أليم)** مؤلم ذلك اليوم بعذابه وهلاكه، وهنا كأنّ سائلاً يسأل فيقول: فمتى ذلك اليوم فقال جلّ وعلا:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾

(هل ينظرون) لا ينتظرون لمجيء ذلك اليوم **(إلّا السّاعة)** إلّا القيامة ويومها **(أن تأتيهم)** بدل من السّاعة، فيكون المعنى لا ينظرون إلّا إتيان السّاعة **(بغتةً)** أي فجأةً **(وهم)** في حال **(لا يشعرون)** ولايتصوّرون مجيئها **(الأخلّاء)** الأحبّة كلّهم **(يومئذٍ)** يوم إذ قامت القيامة وجاءت السّاعة **(بعضهم لبعض عدوّ)** فهذا يقول لذلك: لعنك الله تعالى أنت الّذي أضللتني وتسبّبت في كفري ومعصيتي ودخولي في النّار؟، وذاك يقول: بل أنت لعنك الله حيث إنّي لم أجبرك على المعاصي بل أنت أحببت ذلك فتبعتني وصاحبتني فيها، فكلّ الأحبّة تصبح حالهم هكذا **(إلّا المتّقين)** الأحبّة الّذين تحاببوا على الإيمان والتّقوى وعبادة الله وعاون بعضهم بعضاً وصاحبه في عبادة الله تعالى وطاعته،

فهؤلاء يناديهم الله تعالى على لسان الملائكة ويقول لهم: **(ياعباد لا خوف عليكم اليوم)** من العذاب **(ولا أنتم تحزنون)** على خروجكم من الدّنيا وفواتها، وحينما ينادي الله هذا النّداء، يرفع أهل المحشر كلّهم رؤوسهم فيقول المنادي **(الّذين)** أي أعني بعبادي **(الّذين آمنوا بآياتنا)** أي بأحكامنا الإعتقاديّة والعملية كلّها **(وكانوا مسلمين)** منقادين لتلك الأحكام وعاملين بها ومطبّقين لها، فتفيد الآية أنّ مجرّد الإيمان لا يرفع الخوف والحزن في ذلك اليوم، بل لابدّ لذلك أن ينضمّ إليه العمل والتّطبيق فينكس غير المسلمين رؤوسهم يعتريهم الذّل والهوان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ أجر المسلمين ليس حصراً على عدم الخوف والحزن، بل يكرمون بالنّعيم المقيم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

(ادخلوا الجنّة أنتم وأزواجكم) أي اللّاتي متن على الإيمان والإسلام؛ لأنّ الكفر العارض يفسخ النّكاح فلا يبقين أزواجهم، والكتابيّات يخرجن بقيد الإسلام للآيات النّاطقة بأنّ أهل الكتاب هم أهل النّار **(تحبرون)** أي تكرمون في الجنّة. ثمّ فصّل تعالى كيفيّة إكرامهم فيها فقال: **(يطاف)** أي يدار **(عليهم)** وهم جالسون **(بصحاف)** بأواني **(من ذهب وأكوابٍ)** من ذهبٍ أيضاً **(وفيها)** وفي تلك الصّحاف والأكواب **(ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين)** أي أطعمة شهيّة تحبّها الأنفس وجميلةً جدّاً تقرّ الأعين برؤيتها، هذا وأنّ كلّ نعمةٍ لا تكون نعمةً إلّا إذا أمن المرء من زوالها، فإنّ الزّائل ليس بنعمةٍ، فلذا قيل لهم وهم في الجنّة ويتنعمّون بهذه النّعم **(وأنت فيها خالدون)** ماكثون فيها أبداً لا يخرجون ولا يُخرجون منها، وليطمئن قلبكم من زوال هذه النّعم **(وتلك الجنّة)** الّتي أنتم فيها **(أورثتموها)** أوتيتموها **(بما)** بسبب ما أي الأعمال الّتي **(كنتم تعملون)** في الدّنيا من الأعمال الصّالحات **(لكم فيها)** في الجنّة **(فاكهةُ كثيرة منها تأكلون)** دائماً ولا تنقطع.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المؤمن ونعمهم أراد أن يذكر حال العصاة والمجرمين وعذابهم، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون) ماكثون أبداً إن كانت جريمتهم الكفر، أو إلى أن يتطهّروا من الذّنوب إن كانت جريمتهم الفسق دون الكفر كعصاة المؤمنين **(لا يفتّر عنهم)** أي لا يخفّف عنهم **(وهم فيه)** أي في النّار **(مبلسون)** آيسون من الخروج إلى الأبد إن كانوا كفراً، وإلى أن ينتهي مدّتهم فيها إن كانوا عصاة **(وما ظلمناهم)** بعذابهم هذا **(ولكن كانوا هم الظّالمين)** أنفسهم؛ حيث عملوا أعمالاً استحقّوا بها لهذا العذاب، فلا يلومنّ إلّا أنفسهم كما يقال: [يداك أوكتا وفوك نفخ][1] **(ونادوا)** مالكاً وهو خزنة النّار وقالوا: **(يا مالك ليقض علينا ربّك)** أي فليمتنا ربّك لنستريح **(قال)** مالك لهم: كلّا، لا يموتون بل **(إنّكم ماكثون)** باقون في العذاب، ثمّ ذكر أهمّ سبب مكثهم هذا فقال: **(لقد جئناكم)** في الدّنيا **(بالحقّ)** فبلّغنا الرّسل بذلك، والرّسل بلّغوكم ودعوكم إلى الحقّ ذلك **(ولكنّ أكثرهم للحقّ كارهون)** فيما اتّبعتم الرّسل وما آمنتم بهم وماسلكتم سبيلهم، وهو سبيل الله تعالى والعمل بشريعته، ولذلك وقعتم فيها أنتم فيه، فأصبروا أو لا تصبروا لا تخرجون منه.

ثمّ استفهم الله تعالى للتّعجب والإنكار لحال الكافرين والمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

---

(١) أصله أن رجلا نفخ في زق ولم يوثق وكاءه فركبه ليعبر نهرا فلما توسط انحل الوكاء وخرجت الريح فغرق وحين غشيه الموت استغاث برجل فقال له ذلك وقيل أصله أن شابا انتهى إلى جوار يستقين بالقرب فكان يلاعبهن وينفخ في بعض القرب ثم يوكيه فقتله بعض إخوتهن غيرة وأخبر أخو المقتول بملاعبهن فقال ذلك يضرب للجاني على نفسه./ المستقصى في أمثال العرب ٢/ ٤١٠.

(أم) أي لماذا لا يؤمنون ولماذا يعصون **(أم)** أي هل **(أبرموا أمراً)** أي هل دبّروا كيداً وحيلةً للخلاص من العذاب يوم القيامة فيفعلون كلّ ما يشتهون ولا يخافون **(فإنّا مبرمون)** قد دبّرنا وقضينا بعذابهم ولا ينجون منه أبداً **(أم يحسبون)** أي هل يزعمون **(أنّا لا نسمع سرّهم)** أقوالهم الخفيفة **(ونجواهم)** والأخفى من السّر إذ يتناجون بتدبير الشّر ضدّ الإسلام وضدّ دعاته، وضدّ كلّ من دعوا إلى الله تعالى والعمل بشريعته **(بلى)** أي إنّا نسمع سرّهم ونجواهم وكلّ ما يقولون ويفعلون ضدّ الحقّ **(ورسلنا)** وهم الملائكة أي الكرام الكاتبين **(لديهم)** حاضرون عندهم ملازمون لهم **(يكتبون)** ويسجلّون كلّ أعمالهم وأقوالهم، ونحاسبهم حسب ذلك السّجل، ونعاقبهم على مافيه من أعمالهم الشّريرة وأقوالهم المنكرة ولا يخفى علينا شيء.

ثمّ إنّ حجّة المشركين في عبادة الأصنام أنّهم كانوا يعتقدون أنّ الملائكة بنات الله تعالى، وأنّ هذه الهياكل هي صور تلك البنات، فنحن نعبد بنات الله، وحيث لا نراهم؛ صوّرنا لهم هذه التّصاوير فنعبدها على أنّها بنات الله، فأمر الله تعالى رسوله أن يردّ عليهم بردّ جميل، فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

(قل) يا محمّد لهؤلاء المشركين الّذين يزعمون أنّ الملائكة بنات الله تعالى، وأنّ الأصنام صورهم فنعبدها بدلاً عن بنات الله تعالى، قل لهم: ليس لله ولد لا ذكر ولا أنثى وإنّه **(إن كان للرّحمان ولد فأنا أوّل العابدين)** لذلك الولد ولكن لا أعبد هذه الأصنام لأنّها ليست أولاداً لله ولا صوراً لأولاده، لأنّه لا ولد لله **(سبحان)** أي أنزّهه تنزيهاً **(ربّ السّماوات والأرض ربّ العرش)** أنزّهه واعترف بنزاهته **(عمّا يصفون)** به هذا الرّب من أنّه له بنات وهنّ الملائكة، وهذه الآية دليل على عدم وجود الولد لله تعالى، فإنّ من كان ربّ السّماوات والأرض والعرش لا يليق بأن يكون له ولد، لأنّ الولد من علامة الحاجة والحدوث، والله تعالى غنيّ عن ما سواه وقديم، ولم يكن له بداية ولا يأتي عليه نهاية، وفي وسط هذه المناقشة الحادّة بين الرّسول والمشركين غضب رسول الله (ﷺ) وكاد أن يعلن عليهم حرباً، فهدّأه الله تعالى فقال: **(فذرهم)** أي اتركهم

(يخوضوا) في كفرهم **(ويلعبوا)** في دنياهم، وهذا ليس دليل إباحة الخوض واللّعب، بل هذا تهديد ووعيد شديد بقرينة قوله تعالى: **(حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون)** فننتقم منهم في ذلك اليوم أشدّ الأنتقام.

ثمّ أراد الله أن يذكر أنّه الحقيق بالعبادة لاغيره، فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

(وهو الّذي في السّماء إله) يعبده الملائكة **(وفي الأرض إله)** يعبده النّاس فلا إله غيره **(وهو الحكيم)** الّذي لا يفعل شيئاً إلّا وفيه الحكمة البالغة **(العليم)** الّذي يعمل وفق العلم الّذي يشمل كلّ شيء ولا يخرج عنه شيء **(وتبارك)** وتعالى وتنزّه **(الّذي له ملك السّماوات والأرض وما بينهما)** عن أن يكون له شريك أو أن يكون له ولد، لأنّ الشّريك لا يتّخذه إلّا العاجز، والولد لا يريده إلّا المحتاج، ومن كان له ملك السّماوات والأرض وما بينهما ليس محتاجاً إلى شيء، بل كلّ شيء تحت تصرّفه ومقدرته ونحتاج إليه، فتعالى إذاً عن الشّريك والولد جميعاً.

وحيث إن الّذين يعبدون غير الله تعالى يقولون إنّا نعبدهم ليشفعوا لنا عند الله تعالى، وليقرّبونا إليه زلفى، فردّ الله تعالى عليهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

(لا يملك) أي ولا يستحقّ الّذين **(يدعون)** يعبدون **(من دونه)** من دون الله آلهة فهؤلاء لايستحقّون **(الشّفاعة)** أي أن يشفع لهم أحد **(إلّا)** ولكن وبل يستحقّ أن يشفع له **(من شهد بالحقّ)** وهو أنّه لا معبود إلّا الله تعالى ولا شريك له **(هم يعلمون)** معنى هذه الشّهادة ويؤمنون به. والحاصل أنّ الشّفاعة لا تقبل إلّا للموحّدين والمؤمنين المسلمين، ولا تقبل للمشركين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1].

---

(١) سورة غافر. ١٨.

ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى سخافة عقول المشركين وعدم تفكيرهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

(ولئن سألتهم) أي وإن سألت هؤلاء المشركين **(من خلقهم)** أوجدهم **(ليقولنّ الله)** خلقنا فإذا اعترفوا أنّ الله تعالى خالقهم **(فأنّى)** فكيف **(يؤفكون)** يصرفون عن عبادة الله إلى عبادة غيره، ألا يعلمون أنّ من خلق هو الّذي يعبد ويطاع ويتضرّع إليه، فإنّ من خلقك هو مالك، والمالك هو الحقيق بالطّاعة لاغيره.

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

(وقيله) القيل والقول والمقالة بمعنى واحد وهو الكلام، وقرىء بجرّ اللّام وبنصبه وبرفعه، فبالجرّ عطف على السّاعة في قوله: **(وعنده علم السّاعة)** فالمعنى يعلم الله تعالى وقت السّاعة ويعلم قوله أي محمّد **(ياربّ إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون)** وبالنّصب يكون مفعولاً لأذكر، أي واذكر قوله أنّ هؤلاء قوم، وبالرّفع مبتدأ خبره **(ياربّ إنّ هؤلاء)** فالمعنى أنّ محمّداً دعا ووعظ وأرشد وذكر ونصح فلم يتّعظوا ولم يؤمنوا، وقوله بعد هذا التّعب واليأس منهم **(ياربّ إنّ هؤلاء)** لرفع الشّكوى إليه أو للاستفسار عن عمله فإنّه قال إنّهم **(لا يؤمنون)** فماذا أفعل معهم؟ فأجابه الله تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَـٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

(فاصفح عنهم) أي فأعرض عنهم وليس المراد الإعراض عن الدّعوة والتّذكير والإرشاد، بل المراد الإعراض عن استعمال العنف معهم بقرينة **(وقل سلام)** وقل سلام بيننا ولا عداء، أو قل قولاً يفشي السّلام بينكم **(فسوف يعلمون)** نتيجة كفرهم وعدم إيمانهم من العذاب في الدّنيا والآخرة.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين وصحابتهم وأمّتهم أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

٦/ رجب/ ١٤٠٦

سورة الدّخان

(مكيّة إلّا الآية ١٥، وآياتها تسع وخمسون، نزلت بعد الزّخرف سمّيت بالدّخان لما فيها من قوله تعالى ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾

(حم) قد فصّلنا الكلام على هذه الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض السّور تفصيلًا تقرّ به العيون وتثلج به القلوب، وذلك في سورة البقرة وسورة يوسف وسورة يس (والكتاب المبين) مرّ تفسير ذلك في سورة الزّخرف وقد فصّلنا الكلام على القسم بالقرآن في مثل هذه السّور في تفسير سورة يس فراجعه.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾

(**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ**) أي أنزلنا القرآن إذ الضّمير عائد على الكتاب المبين، وهو القرآن (**فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**) وهي ليلة القدر الّتي تقع في رمضان وليست ليلة النّصف من شعبان كما قال البعض، لأنّ القرآن نزل في رمضان، فليلة القدر من رمضان، والأحاديث الواردة في فضل ليلة النّصف من شعبان كلّها ضعيفة لا يعمل بها، و قد حقّقنا أنّ اللّيلة المباركة هي ليلة القدر لا ليلة النّصف من شعبان في تفسير سورة

القدر فراجعه. والتّعبير بأنّا أنزلناه صيغة المتكلّم مع الغير دون أنّي أنزلته للمتكلّم وحده، وإن كان القرآن من الله تعالى لأنّ الملائكة ادخلوا في عمليّة الإنزال، هذا وقد ذكرت تفصيلاً مفيداً جدّاً في سورة يوسف، فيما أسند الى الله وحده أو إليه والى غيره من الأفعال، فراجعه عند قوله تعالى: ﴿إِنّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً......الخ﴾، ثمّ بيّن الله تعالى الحكمة في إنزال القرآن فقال: (**إنّا كنّا**) بإنزال القرآن (**منذرين**) الّذين أشركوا بالله وانحرفوا عن منهج الله تعالى في العمل والحياة فأنذرناهم بالقرآن بعذاب شديد إن لم يرجعوا إلى توحيد الله تعالى والعمل بشريعته، وفي التّعبير بقوله: (**إنّا كنّا**) إشارة إلى أنّه كان من عادة الله تعالى منذ أسكن البشر على هذه الأرض أنّه كلّما أفسدوا في عقيدتهم وشريعتهم أرسل الله تعالى إليهم منذراً رسولاً ينذرهم وكتاباً فيه إنذارهم على ما هم عليه، ويبشّرهم عند الرّجوع إلى الدّين الصّحيح، دين الله تعالى من حيث العقيدة والعمل (**فيها**) في ليلة القدر (**يفرق**) أي يحكم ويقضي به (**كلّ أمر حكيم**) كلّ شأن فيه الحكمة، أي حسب ما تقتضيه حكمة الله تعالى، قال القرطبيّ: قال أبن عبّاس (رضي الله عنهما): يحكم الله تعالى أمر الدّنيا في ليلة القدر إلى قابل من ليلة القدر الآتية، كلّ ما كان من حياة أو موت أو رزق أو غير ذلك من الأمور (**أمراً من عندنا**) يفرق ويعيّن كلّ أمر حكيم يوجد في السّنة القابلة (**أمراً**) من عندنا أي بأمر منّا نأمر به الملائكة أن يقوموا بهذه الأمور، ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة إنذاره الأمم؛ فقال جلّ وعلا: (**إنّا كنّا مرسلين**) إليهم بالإنذار فينذرونهم (**رحمة من ربّك**) إنّ إنذارنا وإرسالنا للرّسل كان رحمة من ربّك لأنّ الله تعالى لو لم يرسل الرّسل وينذر بهم النّاس لبغوا وطغوا وخرجوا عن العقيدة والشّريعة، فلا تبقى عبادة الله تعالى في الأرض، فيؤوّل ذلك إلى هدم الكون والقضاء على حياة الجميع، لأنّ الله تعالى إذا لم تبق العبادة لم تبق الحكمة في وجود الكون فيقضي عليه، هذا من جهة، و من جهة أخرى إنّ النّاس لا يعيشون بدون نظام، وإنّ نظام الله تعالى هو الحقّ، فإرسال الرّسل والنّظام رحمة بالنّاس، ثمّ أراد تعالى أن يذكر بعض أوصافه الّتي تتحقّق بها عظمته واستحقاقه للعبادة وأهليّته للإنذار والإرسال، حيث من كان له هذه الصّفات فله كلّ ذلك فقال جلّ وعلا: (**إنّه هو السّميع**) بكلّ الأقوال (**العليم**) بجميع الأعمال فيجازيكم عليها.

ثمّ بيّن الله تعالى أنّ ذلك هو سبب الإنذار وإرسال الرّسل؛ فقال جل وعلا:

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾

(ربّ) مالك **(السّماوات)** جميعها **(والأرض)** وما فيها وماعليها **(وما بينهما)** من الشّموس والأقمار والكواكب والغيوم، والمتصرّف في هذه الكائنات كلّها **(إن كنتم موقنين)** بأنّ الله تعالى مالك كلّ ذلك تؤمنوا بأنّه الحقيق بالعبادة وبالإنذار بإرسال الرّسل إلى النّاس، لأنّ المالك والمليك من شأنه أنّه يأمر وينهى، وأنّه يعذّب من لا يتمثل أمره ولا يجتنب ما ينهى عنه، وكان المشركون يعترفون بأنّ الله خالق ومالك هذا الكون كلّه كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ سورة الزخرف الآية/ ٩.**(لا إله)** لا يستحقّ العبادة والإطاعة **(إلّا هو يحيي)** من يحيا **(ويميت)** من يموت، فلا يحيا بدون إرادته حيّ، ولا يموت بدون تقديره حيّ، فمن كان هذا صفته وبيده الحيوة والموت فهو الحقيق بالعبادة لا غيره، وهو **(ربّكم وربّ آبائكم الأوّلين)** كلّهم؛ فهو خالقهم وخالقكم وملك الجميع، فهو الحقيق بالعبادة و يجب عبادته، ولذا أرسل تعالى رسلاً نبيّن كيفيّة عبادته.

وكأنّ سائلاً يسأل هل اقتنع الكافرون بهذه الأوّليّة وآمنوا بالرّسول (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢﴾

(بل هم) مع هذه الدّلائل والتّوضيحات الّتي تدلّ على حقيقة ما جاء بها الرّسول من التّوحيد والشّريعة **(في شكّ)** في إنكار لرسالتك يا محمّد (ﷺ) **(يلعبون)** يستهزئون بما تدعوهم إليه **(فارتقب)** فانظر عذابهم على هذا الإنكار والاستهزاء **(يوم)** يأتي عذابهم **(يوم تأتي السّماء بدخان مبين)** وفي معنى الدّخان قولان:

أحدهما: قول عليّ ابن أبي طالب و ابن عبّاس (رضي الله عنهم)أنّه الدّخان يكون قبل يوم القيامة، يصيب المؤمنين مثل الزّكام، و ينضج رؤوس الكفار والمنافقين، وهو من أشراط السّاعة، وروى حذيفة عن رسول الله (ﷺ) إنّ أوّل أشراط السّاعة الدّخان.

القول الثّاني: قول أبن مسعود (رضي الله عنه) إنّ الدّخان عبارة عمّا أصاب قريشاً حين دعا

عليهم رسول الله (ﷺ) بالجدب، فكان الرّجل يرى دخاناً بينه وبين السّماء من شدّة الجوع، قال ابن مسعود: خمس آيات مضين: الدّخان واللّزام وهو الّذي ذكره الله تعالى بقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾ سورة الفرقان الآية (٧٧) ـ لأنّ منكري الرّسول (ﷺ) في مكّة كلّهم أُلزموا باعتناق الأسلام؛ فآمن كلّهم بعد فتح مكّة إلزام ظهور الحقّ لا إلزام الإجبار حيث ﴿لا إكراه في الدّين﴾ سورة البقرة الآية/٢٥٦. والبطشة وهي بطشة يوم بدر الكبرى، والقمر أي أنشقاقه والرّوم في قوله تعالى: ﴿الم * غُلِبَتْ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ*﴾ سورة الروم الآيات/١ ـ ٣.

(يغشى) ذلك الدّخان **(النّاس)** ويقال لهم **(هذا عذاب أليم)** أي مؤلم، ورجّح قول أبن مسعود بما ورد في صحيح مسلم والبخاري والتّرمذي ما يؤيّد هذا القول: قال البخاري حدّثني يحيى قال: حدّثنا أبو معاوية عن الأعمش عن مسلم عن مسروق قال: قال عبدالله: إنّما كان (هذا) أي الدّخان لأنّ قريشاً لمّا أستعصت على النّبيّ (ﷺ) دعا عليهم بسنين كسنّي يوسف(عليه السلام) فأصابهم قحط وجدب حتّى أكلوا العظام، فجعل الرّجل ينظر إلى السّماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدّخان من الجهد، فأتى رسول الله (ﷺ)، فقيل يا رسول الله استسق الله لمضر فإنّها قد هلكت، قال: لمضر؟ إنّك لجريء، فاستسقى فسقوا، فلمّا أصابتهم الرّفاهية عادوا إلى حالهم من الكفر[1]، ورجح قول ابن مسعود قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ الدخان ١٥. لأنّ عذاب يوم القيامة حينما جاء لا يكشف لا قليلاً ولا كثيراً، هذا وحينما أصيبوا بالدّخان قالوا: **(ربّنا اكشف)** إرفع **(عنّا العذاب)** الّذي أنزلت علينا من الدّخان أو الجوع **(إنّا مؤمنون)** برسولك.

ولكنّ الله تعالى يخبر أنّهم كاذبون في إيمانهم، فقال جلّ وعلا:

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

(أنى) أي من أين أو كيف **(لهم الذّكرى)** الأتّعاظ والأيمان؟ فإنّهم رأوا أعجب من هذا حيث **(وقد جاءهم رسول مبين)** مثبت رسالته بالمعجزات الّتي هي أكبر من كشف العذاب فكذّبوه **(ثمّ تولّوا عنه)** ولم يؤمنوا به **(وقالوا)** في حقّه **(معلم)** علّمه الكهنة هذه المعجزات **(مجنون)** سيطر عليه الجنّ، فهذا هو ما يأتي به من الجنّ.

ثمّ مع ذلك وعد الله تعالى بكشف ذلك العذاب امتحاناً لهم، فقال جلّ وعلا:

(١) صحيح البخاري ١٨٢٣/٤ الحديث رقم ٤٥٤٤.

﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلاً ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

(إنا كاشفو العذاب) أي رافعوا **العذاب** عنكم **(قليلاً)** وقتاً قليلاً أختباراً لكم ولكنّكم لا تنجحون في هذا الأمتحان حيث **(إنّكم)** بعد كشف العذاب **(عائدون)** إلى الكفر والإشراك بالله تعالى، فكشف الله تعالى عنهم وأذهب عنهم الجوع، فعادوا بعد ذلك إلى كفرهم، هذا على قول أبن مسعود‌رضي الله عنه، وعلى قول عليّ وابن عبّاس (رضي الله عنهم)أنّ الكفّار حينما يأتي الدّخان يوم القيامة وهو أوّل أشراط السّاعة يدعون كشف العذاب فيرتفع الدّخان فيعودون إلى الكفر، ثمّ تأتي آية أخرى من أشراط السّاعة فيدّعون أيضاً فيكشف عنهم إلى أن يأتي يوم القيامة، فلا يكشف عنهم في ذلك اليوم.

ثمّ سلّى الله تعالى رسوله فقال لا تحزن على استمرارهم على الكفر واصبر فإنّه:

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

لمّا عاد الكفر بعد كشف العذاب حزن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسلّاه تعالى فقال لا تحزن **(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى)** وهي بطشة يوم بدر **(إِنَّا مُنتَقِمُونَ)** منهم انتقاماً شديداً، هذا على قول أبن مسعود (رضي الله عنه)، وأمّا على قول عليّ‌رضي الله عنه فالله تعالى يكشف عنهم العذاب في فترات تقع بين أشراط السّاعة، ولكن (يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى) وهو يوم القيامة (إِنَّا مُنتَقِمُونَ) منهم، ولا كشف في ذلك الوقت أبداً، ورجّح الرّازي وغيره قول الإمام عليّ بأنّ ما قاله ابن مسعود لم يكن دخّاناً حقيقيّاً بل تخيّلاً من الجوع، والألفاظ تطلق على الحقيقة دون المجاز ما أمكن، هذا يوضّح لنا أنّ هناك دخّانان والدّخانان حقّان ولكن إلى أيّ دخان أريد بهذا الدّخان في قوله تعالى: ﴿بدخان مبين﴾ الأرجح قول عليّ لأنّ الدّخان الّذي كان من الجوع لم تأت به السّماء، وإنّما تأتي السّماء بدخان مبين قبل يوم القيامة والله تعالى أعلم. ولكن **أقول**: لو أخذنا بقول أبن مسعود يكون الوعيد والآيات واردة في حقّ قريش خاصّة، وإن أخذنا بقول الإمام عليّ(رضي الله عنه) يكون الوعيد خاصّاً بالنّاس الموجودين قبل الدّخان ويأتي عليهم الدّخان كما لا يخفى من دعائهم الكشف ووقوع الكشف، ثمّ عودتهم بعد الكشف إلى ما هم عليه، و إنّ القرآن منهج عام يطبّق في كلّ جيل ووقت وزمان، فالّذي اختاره أنّه يوجد في كلّ يوم دعاة للأسلام وطغاة يقفون ضدّ الأسلام ويعادونه، والدّخان عبارة عن الدّخان الّذي يرى ويتوهّم في الجوع أو الدّخان الّذي يقع في حوادث الدّهر من الحروب أو

الصواعق أو غير ذلك، فالله تعالى يعبّر عن حال الكافرين سواء من زمان الرّسول أو زمان الدّعاة بعده إلى يوم القيامة، وإنّ في كلّ زمان تأتي السّماء أي أمر الله تعالى في السّماء بدخان مبين، ببلاء واضح على الفجرة فيدّعون من الله تعالى أن يكشف عنهم، فيكشف واحداً تلو الآخر، إلّا أنّهم يعودون لما هم فيه، ويعظ الله تعالى أن يرتقب كلّ داعية عذاب الله على المنحرفين وأن يصبر، كما أوعد هؤلاء المجرمين بأنّ الله تعالى وإن كشف كلّ ما يأتي عليهم من البلايا، فليس معناه أنّه يعفو عنهم، بل إذا بطشهم البطشة الكبرى وهو بطش يوم القيامة فإنّ الله تعالى منتقم منهم، ولا عفو ولا كشف في ذلك اليوم، وبهذا يصبح القرآن توجيهاً عامّاً لكلّ قوم ووعداً للمؤمنين ووعيداً للكافرين في كلّ زمان ومكان، وعليه فالأمر في وارتقب لكلّ مسلم وداع إلى الله تعالى من الرّسول ومن تبعه إلى يوم القيامة والله تعالى أعلم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي الرّسول والمؤمنين والدّعاة ويهدّد الكافرين والمنحرفين بذكر قصّة سيّدنا موسى مع فرعون، وأن يشير إلى أنّ النّصر دائماً لأتباع شريعة الله تعالى إن عملوا واستمرّوا وصبروا، وإنّ عاقبة السّوء على أعداء نظام الله تعالى والدّاعين إلى طمس شريعته فقال جلّ وعلا:

﴿ ۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ ﴾

(**ولقد فتنا**) ولقد امتحنا (**قبلهم**) قبل منكري الأسلام وأعداء الرّسول (ﷺ) وشريعته (**قوم فرعون**) أي فرعون وقومه (**وجاءهم رسول كريم**) ذو قدر ومنزلة عند الله تعالى وهو سيّدنا موسى (**على نبيّنا وعليه الصّلاة والسّلام**) وطلب منهم موسى قائلاً: (**أن أدّوا إليّ**) أن أسلموا (**إليّ عباد الله**) وهم بنو إسرائيل لنذهب بهم إلى فلسطين فتستريحوا منهم ويستريحوا منكم (**إنّي لكم رسول**) من الله تعالى لتؤمنوا به ولتسلّموا إليّ بني اسرائيل (**أمين**) لا أفتري على الله ولا أخون أمانته وهي الوحي (**وأن لا تعلوا**) ولا تتكبّروا (**على الله**) فتخالفوا أمره ولا تطيعوه ولا تؤمنوا ولا ترسلوا بني اسرائيل معنا (**إنّي آتيكم بسلطان**) بمعجزة (**مبين**) مثبت دعواه في أنّي رسول الله تعالى إليكم، فلم يقبلوا دعوته وهدّدوه بالقتل رغم أنّه أظهر لهم المعجزات فقال: (**وإنّي عذت بربّي وربّكم**) الّذي بيده

وتحت قدرته نحن وأنتم **(أن ترجمون)** أن تقتلوا فلا تستطيعون ذلك لأنّه يعيذني منكم وليس لكم في أن تقتلوني فإنّي ما عملت تجاهكم ما يوجب قتلى سوى أنّي دعوتكم إلى الله، فإن آمنتم بدعوتي فيها خير ونعمة لكم **(وإن لم تؤمنوا)** ولم تقبلوا دعوتي **(فاعتزلون)** اتركوني كفافاً لا لي ولا عليّ وأنا أعتزلكم إلى أن يحكم الله بيننا.

تنبيه: إمتنع فرعون أن يسلّمه بني إسرائيل لأمرين:

الأوّل: أنّه خاف أن يشكّلوا دولة في فلسطين ويحصلوا قوّة فيغيّروا عليه للقضاء على سلطانه.

الثّاني: أنّه لو سلّم إليه بني اسرائيل لقلّت الأيدي العاملة فيضرّ ذلك باقتصاديّات بلدته والله أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن دعا موسى ودعا ودعا وأظهر كلّ معجزاته لهم واستمرّوا على الكفر والاستهزاء به توجّه إلى الله تعالى ليريه ماذا يفعل فقال جلّ وعلا:

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾

(فدعا موسى ربّه) قائلاً: يارب **(إنّ هؤلاء قوم مجرمون)** لايهتدون فماذا أفعل وبماذا تأمرني؟ فأجابه الله تعالى فقال: حيث يئست منهم ومن إيمانهم **(فأسر بعبادي)** اذهب بعبادي وارتحلوا **(ليلاً)** وفي اللّيل إلى نحو فلسطين فإذا ارتحلتم **(إنّكم متّبعون)** يتّبعكم فرعون وجنوده ليقتلوكم أو يعيدوكم **(واترك البحر)** واجعل البحر **(رهواً)** طريقاً، أي ادخلوا فيه ولا تخافوا فإنّكم تنجون وتعبرون ويتّبعكم فرعون وجنوده فيدخلون وراءكم في البحر فلا ينجون بل **(إنّهم جند مغرقون)** كلّهم في البحر، فجعل ذلك موسى وتبعه فرعون بجنوده، وانشق البحر لموسى فعبر في الشّق هو وأتباعه، ودخل فرعون وجنوده بعدهم في الشّق، فانطبق الشّق عليهم فأغرقوا كلّهم.

ثمّ ذكر الله تعالى حالهم فقال جلّ وعلا:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

(**كم**) بمعنى كثيراً (**تركوا من جنّات**) بساتين ذات ثمار طيّبة (**وعيون**) ينابيع ماء جارية (**وزروع**) فيها أنواع الحبوب والخضروات (**ومقام كريم**) حسن الإقامة فيها (**ونعمة**) ما تنعم بها الإنسان (**كانوا فيها**) في تلك النّعمة (**فاكهين**) أي متلذّذين، وقرئ (**فكهين**) وهو بنفس المعنى إلّا أنّ فيه مبالغة أكثر لأنّ الصّفة المشبّهة أكثر مبالغة من اسم الفاعل (**وكذلك**) مثل ما ذكر كان حالهم (**وأورثناها**) تلك الحالة وأعطيناها (**قوماً آخرين**) جاؤوا من بعدهم (**فما بكت**) فما حزنت (**عليهم السّماء والأرض**) لكفرهم واستكبارهم على رسول الله موسى(ﷺ) وعدم الأمتثال والعمل بشريعته (**وما كانوا منظرين**) ممهلين أو مؤجّلين بل أخذوا بغتة ودون تأجيل، وبكاء السّماء والأرض جاء على عادة العرب حيث كانت تقول عند موت السّيد منهم بكت له السّماء والأرض، أي عمّت مصيبة الأشياء حتّى بكته السّماء والأرض والرّيح والبرق وبكته اللّيالي الشّاتيات، ويقال: أنّه وارد بمعنى أصله، لأنّ السّماء والأرض تبكيان على المؤمن، وقد ذكر القرطبيّ أخباراً تفيد ذلك، فإن صحت تلك الأخبار أخذ بها وإلّا فلا.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال بني اسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

(**وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ الْعَذَابِ الْمُهِينِ**) المذلّ والمخزي وهو الغرق وكذلك نجّيناهم (**من فرعون**) من عذابه حيث كان يستعبدهم ويقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم (**إنّه**) فرعون (**كان عالياً**) في الدّرجة العالية من درجات (**المسرفين**) بمعنى عالياً في الإسراف في الظّلم، حيث كان يقتل أبناء بني اسرائيل، وعالياً في الكفر حيث كان يدّعي الألوهيّة (**ولقد اخترناهم**) اخترنا بني اسرائيل للنّبوّة (**على علم**) بحكمة منّا على اختيارهم (**على العالمين**) الآخرين الموجودين في وقتهم (**وآتيناهم من الآيات**) من الأحكام (**ما**) مقداراً فيه (**بلاء مبين**) امتحان يظهر الصّالح من الفاسق ويميّزه، والمطيع من العاصي فنجح منهم من نجح ورسب من رسب وكلّ يعامل حسب نجاحه ورسوبه كما هو مقتضى الاختيار.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال موسى مع جنود فرعون وحاله مع بني اسرائيل، أراد الله تعالى أن يذكر حال محمّد (ﷺ) مع منكريه وأعدائه، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾

إنّ هؤلاء الكفرة المنكرين لرسالة محمّد (ﷺ) وشريعته **(ليقولون إن هي)** أي ليست القصّة **(إلّا موتتنا الأولى)** ولا شيء بعدها موجود **(وما نحن بمنشرين)** أي بمبعوثين للحشر والحساب **(فأتوا بآبائنا)** من قبورهم وأحيوهم **(إن كنتم صادقين)** في قولكم إنّه يوجد الحياة بعد الموت وإنّها لتأتي، ثمّ أنذرهم الله تعالى بالعذاب فقال جلّ وعلا: **(أهم خير أم قوم تبّع)** خير منهم **(والّذين من قبلهم)** مثل قوم فرعون وشدّاد وثمود وعاد. والاستفهام للإنكار أي ليسوا خيراً من هؤلاء الأقوام الّذين مضوا قبلهم ولا من قوم تبّع **(أهلكناهم)** أي أهلكنا قوم تبّع والّذين من قبلهم بسبب كفرهم وعدم إيمانهم حيث **(إنّهم كانوا قوماً مجرمين)** كافرين وكانوا يعادون الرّسل وشرائع الله تعالى، فقومك يا محمّد ليسوا خيراً منهم فلا يأمنوا أن نفعل بهم ما فعلنا بأولئك الأقوام الكافرين، وهذا قياس قاسه الله تعالى فيدلّ على صحّة القياس والعمل به، وتبّع هو لقب ملوك اليمن كما أنّ فرعون هو لقب لملوك مصر، وكسرى لملوك فرس وهرقل لملوك الرّوم وقيصر لملوك الرّوس، والمراد بتبّع أحد تبابعة اليمن الّذي كان يعرف أخباره وهلاكه أهل مكّة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يشير إلى دليل يثبت به حقيقة مجيء يوم القيامة والبعث والحشر والحساب فقال جلّ وعلا:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾

(وما خلقنا) هذه **(السّماوات)** العظام **(والأرض)** العجيبة في خلقها ومنافعها وما فيها وما عليها **(وما بينهما)** من الكواكب والنجوم والشموس والأقمار والهواء والأبخرة والغازات **(لاعبين)** غافلين عن حكمة خلقها كلّا، وهنا نقول للتّوضيح والبيان لو فرضنا

أنّ ملكاً بنى مدينة وأسكن فيها أناساً للحياة فيها ولم ينظّم لهم نظاماً ودستوراً يعمل أهل المدينة به ويعيشون عليه وينظّمون به علاقتهم الاجتماعيّة والاقتصاديّة، ويحسّنون سلوكهم وسيرتهم وأخلاقهم، فيعتبر الملك عابثا بهذا البناء لأنّ البناء والمجتمع بدون نظام يسري فيه الفوضى ويؤول إلى الخراب والدّمار، فالله تعالى وهو ملك الملوك حينما نظم خلق هذا الكون وأسكن فيه نوع الإنسان، إذا لم ينظّم لهم نظاماً ولم يرسل إليهم شريعةً يكون خلقه لهذا الكون لعباً وعبثاً يجب تنزيهه تعالى منه فيه، فقد وضع نظاماً وشريعة وأرسلها إليهم بالرّسل، وإنّ النّظام يقتضي أن يكون فيه ثواب لمطيعه وعقاب للمنحرف عنه، وحيث لا يوجد هذا الثّواب والعقاب في الدّنيا كلّها فلا بد أن يأتي يوم لذلك الثّواب والعقاب ولذلك قال تعالى: **(ما خلقناهما)** السّموات والأرض **(إلّا بالحقّ)** إلّا بالجدّ ولإقامة الحقّ والعدل في هذا الكون من توحيد الله وعبادته وتطبيق حكمه وشريعته **(ولكنّ أكثرهم)** أي أكثر النّاس **(لا يعلمون)** هذه الحكمة، حكمة خلق الكون وهي العمل بشريعة الله وعبادته وإطاعته في كلّ أمر، واللّوم على عدم العلم يراد به اللّوم على عدم السّعي للوصول إلى العلم أو على عدم العمل وفق العلم، أو المراد كلاهما، فإنّ من النّاس من لا يريد ولا يحاول أن يعلم، ومنهم من يعلم إلا أنّه لا يعمل وفق العلم، فالفريقان مسؤولان. ثمّ بعد أن أشار الله تعالى إلى دليل ثبوت الحشر والحساب جزم وأكّد الأخبار بوقوعه فقال جلّ وعلا: **(إنّ يوم الفصل)** يوم التّمييز بين الحقّ والباطل والصّالح والفاسق والصّحيح والفاسد **(كان ميقاتاً)** وقتاً محدوداً لحسابهم وجزائهم حسب أعمالهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن شدّة ذلك اليوم ومصير النّاس فيه، فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

(يَوْمَ لا يُغْنِي) لا يدفع **(مولى)** صديق أو حبيب أو قريب أو سيّد **(عن مولى شيئاً)** من العذاب **(ولا هم)** النّاس **(ينصرون)** من جانب آخر **(إلّا من رحم الله)** إيّاه فينصره وهو لا ينصر إلّا من يستحقّ النّصر من المؤمنين والموحّدين **(أنّه)** الله تعالى **(الغالب)** القادر الّذي يغلب إرادته كلّ الإرادات **(الرّحيم)** لمن أراد أن يرحمه **(إنّ**

شجرة الزّقوم) قال النّسفيّ هي على صورة أشجار الدّنيا لكنّها في أعلى النّار، والزّقوم ثمرها وهو كلّ طعام ثقيل كريه جدّاً، فثمرة هذه الشّجرة (**طعام الأثيم**) أي الفاجر العاصي، وطبيعة هذا الثّمر (**كالمهل**) كالزّيت المذاب في الحرارة وهو (**يغلي في البطون**) غلياناً (**كغلي الحميم**) الماء الحارّ.

ثمّ بعدما أكل الأثيم هذا الثّمر يقال للخزنة أن يكملوا معهم بقية العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(**خذوه**) أي خذوا هذا الأثيم بعدما أكل من الزّقوم (**فاعتلوه**) فجرّوه واسحبوه (**إلى سواء**) وسط (**الجحيم**) وهي جهنّم، والحاصل أنّه يؤتى به إلى الزّقوم ليأكل منه وهو في طبقة أعلى من الجحيم، ثمّ يرجعونه ويجرّونه إلى وسط الجحيم (**ثمّ**) بعدما وصل وسط الجحيم يقال للخزنة (**صبّوا**) أريقوا فوق رأسه من عذاب الحميم، وهو الماء شديد الحرارة ويقال له: (**ذق**) هذا العذاب (**إنّك أنت العزيز**) الغالب القويّ (**الكريم**) ذو قدر ومنزلة؛ ولذلك نكرمك هذا الإكرام، فيقال له هذا تهكّماً أو لأنّه كان يستنكف عن اتّباع الرّسل ودعاة الدّين لأنّه يعدّ نفسه عزيزاً كريماً، ويقال لهم أيضاً: (**إنّ هذا**) العذاب هو (**ما كنتم**) في الدّنيا (**به تمترون**) تكذّبون.

ثمّ وبعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين والعصاة أراد أن يذكر حال المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

(**إنّ المتّقين**) هو جمع متّق، اسم فاعل من وقى أي اجتنب، فالّذي اجتنب عن

المعاصي كلّها فهو في **(مقام أمين)** ولا يرى أيّ عذاب، والّذي اجتنب الكفر ولكن خلط الصّالح بالطّالح، فإن كانت أعماله الصّالحة أكثر أو مساوياً لأعماله غير الصّالحة فذلك أيضاً لا يرى عذاباً، لأنّ الحسنات يذهبن السّيئات وقد قال تعالى: (إنّ رحمتي سبقت) أي غلبت (غضبي) فهي أكثر منه، ومن زادت سيئاته على الحسنات يدخل النّار حتّى يتطهّر ثمّ يخرج إلى الجنّة إلّا أن يعفو الله تعالى عنه، ومن لم يتّق الكفر أو الإشراك فلا يوزن لأعماله وزن، ولا يدخل الجنّة أبداً بل يكون مخلّداً في النّار كما قال تعالى في سورة أخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ سورة النساء الآية/ ١١٦. وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً * ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً﴾ سورة الكهف الآيتان/ ١٠٥، ١٠٦. إلى غير ذلك من الآيات الّتي تصرّح بخلود الكافرين في النّار، فالمتّقين **(في مقام أمين)** من كلّ عذاب سواء عاجلاً لمن أتّقى كلّ المعاصي أو آجلاً لمن آمن، وكان عنده من الذنوب والمعاصي ما يزيد على حسناته **(في جنّات وعيون)** جمع عين وهي منبع الماء الجاري، وجمعها عيون، وأمّا العين بمعنى الباصرة فجمعها أعين وما هي بمعنى الشّريف أو النّقود فجمعها أعيان **(يلبسون)** في الجنّات **(من سندس وإستبرق)** ويجلسون **(متقابلين)** لا متكاتفين، لأنّ المقابلة ألذّ من التّكاتف، لأنّ التكاتف يحتاج إلى الالتفات إلى من يخاطبه حين التّكلم دون المتقابل **(كذلك)** حالهم مثل ما ذكر **(وزوّجناهم)** وقرنّاهم **(بحور)** جمع حوراء وهي المرأة البيضاء (عين) جمع عيناء أي واسعة العيون **(يدعون)** يطلبون فيها **(بكلّ فاكهة آمنين)** من كلّ مكروه **(لا يذوقون الموت إلّا الموتة الأولى)** أي لا يعتريهم الموت بعد الموتة الأولى الّتي خرجوا بها من الدّنيا إلى القبور، وأمّا عودة الرّوح إلى البدن للسّؤال في القبر ثمّ فراقها عنه فلا يسمّى ذلك لا حياةً ولا موتاً، بل هي حياة برزخيّة وموت برزخيّ تخالف الموت والحياة الحقيقيين **(ووقاهم)** ربّهم **(عذاب الجحيم)** عذاب النّار في جهنّم **(فضلاً)** أي كان هذا الثّواب والوقاية من العذاب **(فضلاً من ربّك)** لأنّ كلّ أعمال العبد لا تساوي ما أنعم الله تعالى به عليه في الدّنيا، وأنّها بتوفيقه تعالى فلا يستحقّ العبد بها الثّواب والوقاية من العذاب، فيكون ذلك بمجرّد فضل من الله تعالى عليه، ونرجو أن يشملنا الله تعالى ذلك فقط **(ذلك)** النّعيم والوقاية من الجحيم **(هو الفوز العظيم)** لأنّ كلّ فوز في الدّنيا حقير بالنّسبة إليه لزواله وعدم بقائه، وعدم خلوّه من المكاره والآلام.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

إعلم أنّ كلام الله تعالى النّفسيّ لا يمكن فهمه وسماعه والأطلاع عليه إلّا بعد إدخاله في الألفاظ حسب لغة من اللّغات، ويسمّى ذلك الإدخال في الألفاظ حسب لغة التّسيير على السّماع والفهم فقال الله تعالى: **(فإنّما يسّرناه)** القرآن الّذي كان كلاماً نفسيّاً **(بلسانك)** أدخلناه في الألفاظ حسب لغتك وهي العربيّة **(لعلّهم)** لكي يفهموه **(ويتذكّرون)** ويتّعظون به بعد فهمه، فإنّه لو أنزل بلغة أخرى لما فهموه، فما كان يمكنهم التّذكر إلّا أنّهم مع هذا التّسيير والتّسهيل لم يتذكّروا، بل قاوموها وعادوه وصدّوا عنه النّاس **(فارتقب)** فانظر عذابهم ونصرك عليهم وخذلانهم **(إنّهم مرتقبون)** ينتظرون موتك والقضاء على ما جئت به، وإنّ ما تنتظره واقع لا ما هم ينتظرونه.

خاتمة في بيان فضل هذه السّورة:

ذكر في التّاج / ج / ٢١ عن أبي هريرة (رضي الله عنه): عن النّبيّ (ﷺ): من قرأ: حم، الدّخان، في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك. وقال صاحب التّاج: والملائكة مطهّرون، فاستغفارهم مقبول وقال: روى هذا الحديث التّرمذي[1]. وعنه أيضاً عن النّبيّ (ﷺ) قال: من قرأ (حم) الدّخان في ليلة الجمعة غفر له[2]، وللطّبراني: من قرأ (حم، الدّخان) في ليلة جمعة أو يوم جمعة بنى الله له بيتاً في الجنّة[3]. قال صاحب التّاج: ظاهر هذا الحديث إنّه تعدّد البيوت بتعدّد القراءة، ولا حرج على فضل الله تعالى فإنّه واسع الفضل عظيم العطاء والله تعالى أعلم.

* * *

سبحانك ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين، وغفر الله تعالى لنا يوم الدّين آمين.

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ١٦٣ الحديث رقم ٢٨٨٨، وقال هذا حديث غريب،

(٢) سنن الترمذي ٥/ ١٦٣ الحديث رقم ٢٨٨٩.

(٣) المعجم الكبير للطبراني٨/ ٢٦٤ الحديث رقم ٨٠٢٥.

سورة الجاثية

(مكيّة إلّا الآية (١٣) فمدنيّة، وآياتها سبع وثلاثون، نزلت بعد سورة الدّخان، سمّيت بالجاثية لما فيها من قوله تعالى: ﴿وترى كلّ أمّة جاثية﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾

(حم) هذان حرفان مقطّعان من حروف التّهجّي وهما الحاء والميم، جيئ بهما للاستدلال على أنّ هذا القرآن من الله تعالى، نزل على محمّد(ﷺ) وليس من كلام البشر، وصورة الاستدلال بنوعين:

النّوع الأوّل: إنّ هذا القرآن مركّب ومؤلّف من هذه الحروف العربيّة والّتي يؤلّف الشّعراء والخطباء أشعارهم وخطبهم منها، وليست من حروف غريبة عليهم، وإنّ محمّداً (ﷺ) وهو أمّي لم يقرأ ولم يكتب ولم يمارس قطّ الخطابة والشّعر، وقد جاء بهذا القرآن، فلو لم يكن من الله تعالى لأتوا من هذه الحروف نفسها أيّها الشّعراء والخطباء والبلغاء بما هو مثل القرآن، ولو بمثل أقصر سورة منه فصاحة وبلاغة، فحيث عجزتم كلّكم عن معارضته مطلقاً ثبت أنّ هذا القرآن من الله تعالى وليس من البشر، لأنّ كلام البشر يستطيع البشر أن يعارضه.

النّوع الثّاني: إنّ كلّ إنسان يستطيع أن يتلفّظ بالحاء والميم، فكلّ إنسان يستطيع أن يقول حمد مثلاً، فحينما قال حمد فقد تلفّظ بالحاء والميم إلّا أنّ أسماء الحروف لا يعرفها إلّا الكاتب والقارئ، فكلّ من يقول (حمد) ليس شرطاً أن يعرف أنّ أوّل حمد (حاء) وثانيه (ميم)، فمحمّد وهو أمّي لم يعهد منه كلّ قراءة وكتابة ودراسة، يأتي ويذكر

أسماء الحروف فيدلّ ذلك أنّ هذا القرآن نزل على محمّد (ﷺ) من الله تعالى كما قال **(تنزيل الكتاب)** مبتدأ وقوله **(من الله العزيز الحكيم)** خبره والكتاب هو القرآن، فالمعنى تنزيل القرآن هو من الله تعالى لا من غيره **(العزيز)** الغالب ارادته فوق الإرادات وبهذه الإرادة نزل هذا الكتاب على محمّد (ﷺ) **(الحكيم)** الّذي لا يعمل عملاً إلّا وفيه حكمة باهرة، فبحكمته هذه خصّ محمّداً بتنزيل الكتاب عليه، وبهذا تقرّر مقصد من مقاصد الإسلام، وهو أنّ محمّداً (ﷺ) رسول الله وأنّ القرآن من الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبرهن على مقاصد أخرى من الدّين، وهي وجود الله تعالى وقدرته ووحدته وإمكان الإحياء بعد الموت ووقوعه، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

تنبيه: إنّ ما في هذه الآيات الثّلاث ذكر في آية واحدة من سورة البقرة إذ يقول فيها: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٦٤، إلّا أنّه هناك اختلاف لما بين الموضوعين ينحصر في أمور:

الأوّل: أنّه لم يذكر هناك (وفي خلقكم) كما ذكر هنا اكتفاء بقوله: وما بثّ فيها من دابّة؛ لأنّ الدّابة اسم لكلّ ما يدّب، أي يمشي، على الأرض فيشمل الإنسان وغيره، والسّبب في ذكره هنا هو أنّ الله تعالى يوجز أحياناً ويطنب أحياناً كلّ ذلك حسب المقام والمقتضى، فهنا قال: (وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ) بينما هناك (من ماء) أشارة إلى أنّ الماء ليس بنعمة إلّا لكونه سبب الإنبات، ولما فيه الرّزق من النّبات والأشجار، ولكونه رزقاً أيضاً؛ ولم يذكر هنا الفلك والسّحاب لأنّ السّحاب من الرّياح، فاكتفى بذكر الرّياح دون ذكرهما، كما وردت تصريف الرّياح بسبب لمجري الفلك في البحر أيضاً، فاستغنى عن ذكرها أيضاً. وذكر الله تعالى هذه الأمور في سورة البقرة في

آية واحدة، وهنا في ثلاث آيات؛ للإشارة إلى أنّ في كلّ هذه الفقرات آيات وفي مجموعها آيات، فلك أن تستدلّ بكلّ جزء من أجزاء هذا النّظام على وجود الله تعالى وقدرته ووحدته والإحياء بعد الموت كما قال الشّاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

* * *

و لنأت على تفسير الآيات الكريمة:

(إنّ في السّموات والأرض) أي في خلق السّماوات من السّماوات الطّباق والكواكب والنّجوم والشّموس والأقمار وغير ذلك ممّا يوجد في السّموات ممّا نعلم وممّا لا نعلم، وما اكتشف وممّا لم يكتشف إلى الآن **(لآيات)** أي لدلائل كثيرة على وجود الله وقدرته ووحدته وإحيائه الموتى بعد الفوت **(للمؤمنين)** معناه للّذين يريدون الوصول إلى الإيمان يتفكّرون في الدّلائل وأمّا غيرهم فكالأنعام، فالدّلائل هي دلائل الحقائق والموجودات، ولبيان كيفيّة كون السّماوات والأرض آيات على هذه الأمور نقول: إنّ هذه السّموات وما فيها وما عليها من منافع وخزائن وما يبهر الإنسان ويحيّره حينما يتفكّر فيها يعلم أنّ هذه الأمور وهذا البناء العظيم لا يمكن أن يأتي إلى الوجود بنفسه، لأنّ هذه الأجرام جامدة والجماد لا يأتي بنفسه ولا بغيره من الجمادات إلى الوجود، وكذلك الطّبيعة لا تستطيع أن توجد شيئاً؛ وذلك لأنّنا نرى ونعلم بالبداهة أنّ بيتاً أو داراً أو مصنوعاً لا يقدر على صنعه إلّا من له السّمع والبصر والعلم بالبناء والقدرة، وصانع بناء السّماوات والأرض لا بد أن يكون له سمع وبصر وقدرة بلغت النّهاية، ومعلوم أنّ الطّبيعة ليس لها سمع ولا بصر ولاعلم ولا قدرة، فكيف تستطيع أن تعمل وتصنع شيئاً؟، فإن قيل: إنّا نرى أنّ الطّبيعة تعمل أعمالاً عجيبة وذلك أنّ الماء يصعد من البحر ويصير سحاباً ثمّ ينزل مطراً، فكيف يقال إنّ الطبيعة لا تصنع شيئاً؟، قلنا: إنّ هذا النّظام وضعه الصّانع الحكيم وليس من صنع الطّبيعة، فالشّمس تضرب بأشعّتها البحر فيتسخّن الماء ويصعد بخاراً، ثمّ يصير سحاباً، فينتقل إلى حيث يشاء الله تعالى، فينزل منه المطر والمطر هو البخار الّذي ارتفع من البحر، فحينما يبرد يعود ماءً فيصير مطراً، وللمثال نقول: إنّ الّذي يصنع إناءً كبيراً ويملأه ماءً فيضع الإناء على النّار ويسدّ فوهة الإناء ويجعل له أنبوباً يأتي إلى إناء آخر فيغلي الماء ويصير بخاراً ويصعد ويأتي في الأنبوب إلى الإناء الآخر وبسبب التّبرد يصير ماء، وبهذه العمليّة يصنع النّاس

ماء الورد وتسمّى عمليّة التّقطير، فهل من المعقول أن نقول إنّ هذا صار بنفسه، كلاّ، بل يقال إنّ هذا من صنع الّذي نظّم هذا التّرتيب واستخرج بذلك الماء الصّافي أو ماء الورد أو شيئاً آخر، وهكذا نظّم الله عملية الإمطار، فإن قيل المراد بالطّبيعة شيء له سمع وبصر وعلم وقدرة، فنقول: إذن هذا هو الله وما اختلفنا إلّا في الاسم، غير أنّه لا يجوز اطلاق الطّبيعة على الله تعالى لأنّ اسماءه تعالى توقيفيّة، أي أنّ جواز إطلاق أيّ اسم عليه يتوقّف على السّماع والأذن من الشّرع، أي تكون موافقة للشّريعة، فثبت بذلك أنّ السّموات والأرض خلقها صانع حكيم وقدير وهو الله تعالى، وإذا ثبت هذا نقول: إنّ من له هذه القدرة لا شريك له لأنّ الشّريك لا يتّخذه إلّا العاجز عن عمله، وهو ليس بعاجز عن أي شيء، فثبت بذلك وحدته أيضاً، ثمّ نقول: إنّ من له هذه القدرة الّتي صنع وأوجد بها هذا الخلق العظيم لا يصعب عليه خلق الإنسان مرّة أخرى وإعادة الحياة إليه، ثمّ نقول إنّ الله تعالى قد خلق ذلك كلّه ليعيش فيه الإنسان ثمّ خلق الإنسان، ومن خلق ذلك الإنسان ليس بمعقول أن لا يضع لهم نظاماً، فثبت أنّ لله نظاماً هو الثّواب والعقاب كليّاً في الدّنيا، فلا بد من أن يأتي يوم ينال فيه كلّ مطيع ثوابه وكلّ عاص عقابه، ليتحقّق عدالة الله تعالى، وبذلك ثبت مجيء يوم القيامة أيضاً، ولذلك قال تعالى: **(إنّ في خلق السّموات والأرض لآيات للمؤمنين)** و**(وفي خلقكم)** أيّها النّاس **(وما يبث)** وفي خلق ما يدبّ أي ينتشر في الأرض **(من دابّة)** ممّا يدب على الأرض من الحيوانات والحشرات وكلّ ما له الحياة ويدخل فيه الطّيور لأنّها تمشي على الأرض أيضاً **(آيات)** على قدرة الله تعالى وعلى وحدته ووجوده وإمكان الأعادة بعد الموت ومجيء ذلك اليوم الّذي تكون فيه الأعادة **(لقوم يوقنون)** يريدون اليقين ويسعون له، وكيفيّة الاستدلال بوجود تلك الآيات كما سبق ذكره، وذلك بأن نقول: إنّ هذه الكائنات الحيّة لم توجد بنفسها وإنّما خلقها عالم قدير، ومن له هذه القدرة لا يقبل أي شريك، ومن بهذه القدرة يستطيع أن يحيي الموتى، ومن خلق هذه الأشياء لأنتفاع الإنسان به فلا شكّ أنّه وضع نظاماً للإنسان، وأنّ النّظام يوجب ثواباً وعقاباً وهو لا يوجد في الدّنيا كليّاً فلا بد أن يأتي يوم لأجراء ذلك الثّواب والعقاب، ولتحقيق عدالة الله تعالى **(واختلاف اللّيل والنّهار)** أي في اختلاف اللّيل والنّهار أي مجيء واحد خلف الآخر دائماً وبدون أنقطاع، **(وما أنزل الله من السّماء من رزقٍ)** أي من مطر سمّي المطر رزقاً لأنّه بسببه، وقد يسمّى المسبّب باسم السّبب مثل هذا، وقد يكون بالعكس مثل أمطرت السّماء نباتاً أي مطراً، وهذا في لغة أهل البلاغة والعربيّة شائع وفصيح،

(فأحيا به الأرض) فحرّك بالمطر قوى الأرض الإنباتيّة فتهيّجت وأنبتت **(بعد موتها)** أي ركود تلك القوى **(وتصريف الرّياح)** أي وفي تغيّرها من الجنوب إلى الشّمال ومن الشّمال إلى الجنوب ومن شرق إلى غرب وبالعكس، ومن شدّتها إلى خفّتها وبالعكس **(آيات)** كثيرة **(لقوم يعقلون)** والاستدلال بهذه الآيات كما سبق.

خاتمة: ذكر الله تعالى من الأجرام العلويّة والسّفليّة وهي السّموات والأرض، ثمّ ذكر الله تعالى من الأشياء الحيّة ممّا يدبّ على الأرض، فكأنّه تعالى يقول للإنسان: إنّ الله تعالى خلق هذه السّموات والأرض، وخلق الأحياء وسخّر السّموات في إحداث هذه الأمور: اللّيل والنّهار والمطر وغير ذلك من المنافع للإنسان، خلق كلّ ذلك لكم أفلا تشكرونه بالأيمان به وتوحيده والعمل بشريعته إنّ هذا لضلال بعيد أعاذنا الله تعالى.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

(تلك) الآيات الّتي ذكرت **(آيات الله)** أي حججه وبراهينه الدّالة على قدرته ووحدته **(نتلوها)** نقرؤها **(عليك)** يا أيّها النّبيّ ويا كلّ مسلم وكلّ مخاطب، **(بالحقّ)** وإنّها ملتبسة بالحقّ والصّدق **(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ)** أي بعد كلام الله **(وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)** والاستفهام للتّوبيخ والتّضليل، فالمعنى فأيّ حديث غير ذلك يؤمنون به فهم في ظلال وسيعاقبون عليه.

ثمّ أنذرهم الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

(ويل) أي عذاب وهلاك عظيم معدّ **(لكلّ أفاك)** أي لكلّ كذّاب **(أثيم)** مرتكب الذّنوب، ومن كذبه وأعظم آثامه أنّه **(يسمع آيات الله)** أي آيات القرآن الكريم **(تتلى عليه)** يفهمها **(ثمّ يصر)** على الكفر وعدم الإيمان لا لأنّه لم يدرك الحقّ بل لأنّه كان **(مستكبراً)** يستنكف عن اتّباع محمّدﷺ وعن ترك ما كان عليه آباؤه وأجداده، وأصبح

تجاه الآيات **(كأن لم يسمعها فبشّره)** أيّها السّامع **(بعذاب أليم)** وهذا إنذار وتسمية الإنذار تبشيراً تهكّم واستهزاء، ولأنّ الإنسان حينما يقال له أبشر يفتح قلبه كلّه ويفرح بذلك فرحاً ثمّ إذا قيل له **(بعذاب أليم)** مثلاً يدخل قلبه فوراً ويزيد بذلك حزناً وغيظاً، لأنّ المساءة بعد انتظار المسرّة أشدّ من المساءة ابتداءً **(وإذا علم من آياتنا)** سمع منها شيئاً **(اتّخذها هزواً)** يستهزأ بها، فكانوا يقولون حينما يسمعون قوله تعالى: **(إنّ شجرة الزّقوم طعام الأثيم)** هو الزّبد والتّمر وحينما يسمعون قوله تعالى: **(عليها تسعة عشر)** يقول أحدهم أنا ألقاهم وحدي، ويقول الآخر أنا أكفيكم عشراً، وعليكم بباقيهم وأنتم الشّجعان، إلى غير ذلك من استهزائهم بآيات القرآن الكريم **(أولئك)** الّذين يتّخذون آيات الله هزواً **(لهم عذاب مهين)** يذلّهم ويخزيهم في الدّنيا أو الآخرة أو فيهما، وهذا عامّ لكلّ زمان ومكان، فكلّ من استهزأ بآيات الله تعالى وأحكامه يشمله هذا الوعيد الشّديد، ويكون نصيبه الذّل والخزي والهوان **(من ورائهم)** أي وراء استهزائهم ومن نتيجته **(جهنّم)** يدخلونها **(ولا يغني)** ولا يدفع عنهم **(ما كسبوا)** من الأعمال الّتي كانوا يعتمدون عليها ويظنّون أنّها تنفعهم **(شيئاً)** من العذاب والهوان **(ولا ما اتّخذوا من دون الله أولياء)** واعتمدوا عليهم معتمدين أنّهم ينفعونهم ويشفعون لهم وينقذونهم من عذاب الله تعالى **(ولهم عذاب عظيم)** وفي هذه الآية دليل على أنّ حسنات وصدقات الكافرين تذهب سدى، ولا تنفعهم شيئاً لأنّها كانت مبنيّة على الباطل وهي العقيدة الباطلة والمبنى على الباطل باطل **(هذا)** القرآن وما تلي عليك **(هدى)** بيان لطريق الحقّ والسّبيل المستقيم **(والّذين كفروا بآيات ربّهم)** وهي هذا الهدى **(لهم عذاب)** نوعيّة ذلك العذاب هي **(من رجز أليم)** من عذاب مؤلم جدّاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يعدّ عليهم النّعم الّتي أنعم الله تعالى بها عليهم ليتذكّروها ويشكروها بالإيمان والتّوحيد فقال جلّ وعلا:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(**اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ**) جعل (**البحر**) مطواعاً لجري الفلك (**يجرى الفلك**) وتسير (**فيه**) عليه أو فيه لأنّ بعض السّفن تغوص في الماء (**و**) جعل ذلك لتسافروا عليها (**لتبتغوا**) لتطلبوا وتسعوا لأن تحصلوا (**من فضل الله**) من رزقه بالتّجارة ونقل الأموال من بلد إلى بلد آخر (**ولعلّكم تشكرون**) لكي تشكروا الله تعالى على هذه النّعمة (**وسخّر لكم**) وطوّع لكم (**ما في السّموات وما في الأرض جميعاً**) فكلّ ذلك يعمل لكم ولانتفاعكم به، فالشّمس تعمل لتضيء لكم، والقمر ينير لكم، والسّحاب يعمل ليمطر لكم، والشّجر تثمر لكم والنّبات يخرج الحبوب لكم، فكلّ ما في السّموات والأرض يعمل لتنتفعوا وتتنعّموا بفائده عمله وكلّ ذلك (**منه**) أي من أمر الله تعالى (**إنّ في ذلك**) المخلوقات وعملها وفوائدها (**لآيات**) لدلائل على كرم الله تعالى وإنعامه ووجوب طاعته وشكره بالعبادة والتّوحيد والعمل بشريعته، ولكن لا يشعر بهذه النّعم ولا تفيد هذه الآيات إلّا (**لقوم يتفكّرون**) في الأمور ويتدبّرون صنع الله تعالى في الكون. ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى دلائله هذه ونعمه تلك، وأمر الكفار على الاستهزاء به وبمن يؤمن بهذا الّذي يقوله الرّسول (ﷺ)، كان بعض المؤمنين تأخذهم الغيرة على الدّين وأحبّوا أن يقابلوا الكافرين بالشّدة والعنف فهدّأهم الله تعالى فقال جلّ وعلا: (**قل**) يا أيّها النّبيّ (**للّذين آمنوا يغفروا**) مجزوم بحذف النّون لأنّ جزاء الشّرط مقدّر وهو أن تقول لهم اغفروا (**يغفروا**) أي يتركوا ويسامحوا (**للّذين لا يرجون أيام الله**) لا يؤمنون بعذاب الله تعالى ونقمه (**ليجزي**) الله (**قوماً**) كلّ قوم (**بما**) مقابل ما كانوا (**يكسبون**) فيجزي المؤمنين خيراً على صبرهم وتحمّلهم أذى الكافرين في سبيل الإيمان، ويجزي الكافرين شرّاً على كفرهم وإيذائهم للمؤمنين، ثمّ فسّر الله تعالى هذا الجزاء فقال جلّ وعلا: (**من عمل صالحاً فلنفسه**) لأنّه هو الّذي ينتفع به، حيث يأخذ الجزاء الأحسن من الله تعالى (**ومن أساء**) أي العمل (**فعليها**) فعلى نفسه لأنّه هو الّذي يذوق عقابه كما قال: (**ثمّ إلى ربّكم ترجعون**) فيجزيكم حسب أعمالكم إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً. ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله والمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

(و) وبعزّتي **(لقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب)** وهو التّوراة **(والحكم)** بالتّوراة أي جعلنا لهم سلطاناً يحكمون بالتّوراة **(النّبوّة)** وبعثنا فيهم أنبياء كثيرين **(ورزقناهم من الطّيّبات)** من الأطعمة الّتي يستطيبها الأنفس المستقيمة **(وفضّلناهم على العالمين)** المعاصرين لهم **(وآتيناهم بيّنات)** دلائل واضحة **(من الأمر)** من الدّين بحيث كان لا يخفى عليهم الحقّ ولكنّهم مع ذلك اختلفوا، فمنهم من أصلح ومنهم من أفسد ومنهم من كفر، ومنهم من آمن واختلفوا على علم حيث **(فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم)** وكان سبب اختلافهم **(بغياً)** حسداً **(بينهم)** وصراعاً على الرّئاسة والمال وإنّ هذا الاختلاف له أثر كبير حيث **(إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)** فيجازي المحقّين بالثّواب والتّكريم والمبطلين بالإهانة والعذاب الأليم **(ثمّ جعلناك)** بعد موسى وعيسى **(على شريعة)** نظام من الله تعالى ودستور**(من الأمر)** من الدّين وبطبيعة الحال إنّ قومك يختلفون كما اختلف بنو اسرائيل، لأنّ هذا من طبيعة الأقوام والأمم، فمنهم من آمن بك ومنهم من كفر، فلا تحزن واثبت على دعوتك إلى الله تعالى وإلى الصّراط المستقيم سبيل الإسلام دين الله تعالى **(فاتّبعها)** أي اتّبع تلك الشّريعة ودم عليها **(ولا تتّبع أهواء الّذين لا يعلمون)** الحقّ مهما اشتّدت الظّروف وضقت بك الدّنيا، وهذه وصيّة الله وأمره لكلّ داعية إلى الأسلام، بل ولكلّ مسلم، فيجب على المسلم الثّبات على الدّين وأن لا يزحزحه الأطماع ولا الخوف عن التّمسك بدينه والدّعوة إليه **(إنّهم لن يغنوا عنك)** لن يدفعوا عنك إن اتّبعتهم **(من الله)** من عذاب الله **(شيئاً)** ولو قليلاً **(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)** أي ينصر بعضهم بعضاً ويؤيّد بعضهم بعضاً، ولا تخف من مناصرتهم فيما بينهم حيث **(وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ)** عن الكفر، فينصرهم ونصرة الله تعالى أقوى من نصرة العباد بعضهم لبعض، وهذا حثّ للمسلمين فكأنّه تعالى يقول: إنّ الكافرين ينصر بعضهم بعضاً، ومن العار عليكم أيّها المسلمون أن لا تتّفقوا ولا ينصر بعضكم بعضاً، ومن العار عليكم أن تتفرّقوا.

ثمّ إنّ بعض النّاس كانوا يعتقدون أو يقولون لئن دخل هؤلاء الجنّة فنحن ندخلها قبلهم، فردّ الله تعالى على قولهم هذا جلّ وعلا:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

(**أم**) بمعنى الهمزة تأتي للاستفهام، فالمعنى أحسب أي أزعم والزّعم يقال للاعتقاد الباطل أزعم الّذين (**اجْتَرَحُوا**) ارتكبوا السّيئات (**أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) في المعاملة معهم (**سواء**) فجعل سواء (**محياهم**) بمحياهم في الدّنيا حيث رزقنا الكلّ وأنعمنا عليهم (**ومماتهم**) ونجعل حال مماتهم مساوياً لمماتهم أيضاً، فننعم عليهم كما ننعم على من آمن، والاستفهام للإنكار أي فلا نجعل ذلك أبداً (**ساء ما يحكمون**) يحكمون بهذا الزّعم حكماً سيّئاً واستدلّ على ذلك بقوله (**وخلق الله السّموات والأرض**) وخلق الله تعالى هذا الكون كلّه (**بالحقّ**) أي مصاحباً للحقّ والمراد بالحقّ النّظام، فمعناه خلقنا الكون وأسكنّا فيه الإنسان، وجعلنا له نظاماً ليعيش على نظامنا هذا (**ولتجزى كلّ نفس بما**) مقابل (**ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**) فلو سوّى بين المؤمن والكافر والصّالح والفاسق لكان ظلماً، وتنزّه الله تعالى عنه.

ثمّ إنّ الرّسول (ﷺ) كان شديد الحرص على إيمان القوم، فكان يحزنه كفر من كفر، فهدّأ الله تعالى من حزنه وقلّل من حرصه فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(**أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ**) جعل (**إلهه**) معبوده ومطاعه (**هواه**) فيعمل كلّ ما يهويه ولا يخالف هواه (**وأضلّه الله**) تعالى بسبب إصراره على كفره هذا وعدم إرادته للهداية أبداً (**على علم**) من الله تعالى بحاله هذا (**وختم**) الله على سمعه فلا يسمع الحقّ سماع القبول (**وقلبه**) وختم على قلبه فلا يدخله الحقّ (**وجعل على بصره غشاوة**) غطاءً لا

يرى الحقّ رؤية الأتباع، وجواب أفرأيت محذوف تقديره (**يهتدي**) أفمن كان حاله هكذا يهتدي؟ والاستفهام للانكار أي لا يهتدي أبداً ويدلّ على ذلك قوله (**فمن يهديه**) بعد أن لا يريد الهداية أبداً، والله لا يجبر أحداً على الهداية بل فمن أرادها وسعى لها هداه، ومن امتنع عنها ولم يسمع لها أغواه، وذلك سنّة الله تعالى في العباد.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر بعض أقوال واعتقاد أمثال هؤلاء الّذين اتّخذوا هواهم إلهاً فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

(**وَقَالُوا مَا هِيَ**) ليست الحياة (**إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنيَا**) فلا حياة بعد حياة الدّنيا نموت حينما كنّا تراباً (**ونحيا**) حينما نأتي إلى الدّنيا حسب الطّبيعة (**ولا تهلكنا**) ولا يميتنا بعد الحياة (**إلّا الدّهر**) وهو الطّبيعة (**وما لهم بذلك**) بهذا القول (**من علم**) من دليل يثبت دعواهم هذه (**إنّ هم**) ليسوا هم (**إلّا يظّنون**) هذا الظنّ ولا دليل ولا يقين لهم (**وإذا تتلى عليهم آياتنا**) الّتي تدلّ على الإحياء بعد الموت (**ما كان حجّتهم**) دليلهم الّذي يعارضون به هذه الآيات (**إلّا أن قالوا** ائتوا **بآبائنا**) من القبور وأحيوهم (**إن كنتم صادقين**) في قولكم إنّه يوجد الحياة بعد الموت فأمر الله تعالى الرّسول (ﷺ) وكلّ مسلم أن يجيب من يقول هذا القول، وأن يقول لهم إنّ الحياة بعد الموت حقّ وأنّه ليس ذلك في وسعنا، بل هو في وسع الله تعالى فقط فقال: (**قل**) يا أيّها النّبيّ (**الله يحييكم**) في الدّنيا لا نحن (**ثمّ يميتكم**) هو لا نحن (**ثمّ**) يحييكم (**ويجمعكم**) إلى يوم القيامة للحساب، فهو يفعل ذلك ويقدر عليه لا نحن (**لا ريب**) لا شكّ (**فيه**) في مجيء يوم القيامة حين التّفكّر في الدّلائل والآيات الّتي ذكرها الله تعالى والبراهين الّتي أراها أيّانا (**ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون**) لا يريدون العلم بالحقّ ولا يسعون له، فلا يتفكّرون في الأدلّة فيجهلون ذلك أي الحقّ لا على عدم العلم. ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ

على مجيء يوم القيامة فقال جلّ وعلا: **(ولله ملك السّموات والأرض)** ومن له هذا الملك العظيم لا يتصوّر أن لا يكون له نظام، فإنّ أصغر ملك له نظام، فثبت أنّ لله نظاماً، ومن طبيعة النّظام ثواب المطيع وعقاب المنحرف عنه، وحيث لا يوجد هذا الثّواب والعقاب كليّاً في الدّنيا فلا بد من يوم يوجد هذا الثّواب والعقاب كليّاً في الدّنيا فلا بدّ من يوم يرى فيه ذلك الثّواب والعقاب، فإذن ثبت أنّ السّاعة تقوم **(ويوم تقوم السّاعة)** يومئذ بدل من يوم تقوم السّاعة أي يوم إذ تقوم السّاعة **(يخسر المبطلون)** الكافرون بالسّاعة والدّاعون إلى أبطال الإيمان بها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نبذة من حال النّاس في السّاعة فقال جلّ وعلا:

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

(وترى) كلّ من له الرّؤية **(كلّ أمّة جاثية)** مجتمعة ذليلة حيث **(كلّ أمّة تدعى)** تنادي **(إلى كتابها)** ليرى أعمالها فيه ويقال لهم **(اليوم تجزون ما كنتم تعملون)** في الدّنيا فالخير بالثّواب والشّر بالعقاب، فكأنّ النّاس يقولون في أنفسهم: كيف يعلم أحد ما عملنا في الدّنيا؟ فيقال لهم: **(هذا كتابنا)** الّذي كتبنا فيه أعمالكم **(ينطق عليكم)** يشهد على أعمالكم بالحقّ وفيه كلّ أعمالكم لأنّه **(إنّا كنّا نستنسخ)** نكتب كلّ **(ما كنتم تعملون)** ولم نترك منه شيئاً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر نتيجة ذلك الحساب ووفق الكتاب فذكر أولاً مصير المؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾

(فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا) إيماناً صحيحاً **(وَعَمِلُوا)** الأعمال **(الصَّالِحَاتِ)** كلّها **(فَيُدْخِلُهُمْ)** ربّهم الى رحمته في جنّته دون أن يروا أيّ عذاب، وكذلك من عمل الصّالحات بعضها وزادت على السّيئات أو ساوتها فيدخلها دون عذاب، وإن نقصت عن السّيئات فيدخلها بعد التّطهير بالعذاب إلّا أن يغفر له **(ذلك)** الدّخول في رحمة الله وجنّته **(هو الفوز**

المبين) أي الواضح لا غيره، فإنّ كلّ نعمة في الدّنيا لا تساوي لحظة حياة في الجنّة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المؤمنين أراد أن يذكر حال غيرهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) بالله أو باليوم الآخر أو بالرّسول (ﷺ) أو بغير ذلك من إنكار ما ثبت من الدّين بالضّرورة يقال لهم يوم الحشر **(أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي)** الّتي تخبركم بأمور الدّين والّتي تثبت لديكم ما جاءكم من عند المرسلين **(تتلى)** باستمرار **(عليكم)** والاستفهام للإنكار وإنكار النّفي إثبات، فالمعنى قد جاءتكم تلك الآيات **(فاستكبرتم)** عن الأخذ بها والعمل بموجبها **(وكنتم قوماً مجرمين)** نهاية الإجرام **(و)** كنتم **(إذا قيل لكم إنّ وعد الله)** بالحساب والجزاء وفق العمل **(حقّ)** ثابت **(والسّاعة)** يأتي لذلك الحساب وذلك الجزاء **(لاريب)** لا شكّ **(فيها)** من مجيئها **(قلتم)** إنكاراً واستهزاءً **(مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)** بها **(وبدا لهم)** وظهر لهم بعد هذه المحاورة جزاء **(سيّئات ما)** الأعمال الّتي عملوها وما كانوا يعدّونها سيّئات **(وحاق)** وأحاط بهم جزاء **(ما كانوا)** في الدّنيا **(يعملون)** من الكفر والانحراف عن شريعة الله تعالى **(وقيل)** لهم **(اليوم ننساكم)** نتركّكم في العذاب الّذي أحاط بكم **(كما نسيتم)** تركتم العمل الّذي يفيدكم عند **(لقاء يومكم هذا)** وهو يوم الحساب **(ومأواكم)** مرجعكم ومنزلكم **(النّار ومالكم من ناصرين)** ينصرونكم وينقذونكم أبداً **(ذلكم)** العذاب أحاط بكم **(بأنّكم)** بسبب أنّكم **(اتّخذتم آيات الله)** أحكامه من العقائد والفروع والأحكام الأخرى **(هزواً)** سبباً تافهاً لا يثبت إليه، واتّبعتم أحكاماً حسب هواكم لأنّكم طغيتم **(وغرّتكم الحياة الدّنيا)** وساقكم إلى هذا الطّغيان **(فاليوم لا تخرجون منها)** من النّار

(ولا هم يستعتبون) لا يقبل منهم كلّ اعتذار وكلّ تضرّع للعفو أو الإخراج.

ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّ في عذاب العصاة وثواب المطيع حكمة وعدلاً؛ فيكون ذلك صفة كمال الله تعالى، ويجب أن يحمد على ذلك؛ فقال جلّ وعلا:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

(فَلِلَّهِ الْحَمْدُ) على هذا الحساب وعلى هذا الجزاء من ثواب المطيع وعقاب العاصي، فإنّ ذلك حقّ وعدل **(رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ)** فمن كانت هذه صفته والكون كلّه ملكه فيستحقّ المنحرف عن أمره للعذاب والمطيع للثواب **(ربّ العالمين)** صاحبهم فيسوق كلّ أحد لما يستحقّه ولا يستطيع أحد أن يمنعه من ذلك لأنّه **(وله الكبرياء)** العظمة والسّلطة **(في السّموات والأرض)** فلا يعجزه أحد ولا يستطيع أن يعارضه أحد **(وهو العزيز)** الغالب إرادته على كلّ الإرادات فينفّذ إرادته فيما أراد **(الحكيم)** ذو الحكمة لا يريد شيئاً إلّا وفيه حكمة بالغة يفهمها من يفهم ويجهلها من يجهل. فسبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين، وغفر الله تعالى لنا ولوالدينا ولأخواننا ولأولادنا وأهلنا وأحبائنا وللمؤمنين والمؤمنات جميعاً آمين أنّه أرحم الرّاحمين.

سورة الأحقاف

(مكيّة وآياتها خمس وثلاثون، نزلت بعد الجاثية، سمّيت بسورة الأحقاف لما فيها من قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حم ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾

(حم) مر تفسيره مراراً **(تَنْزِيلُ الْكِتَابِ)** مبتدأ وخبره **(مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيم)** أي أن تنزيل الكتاب وهو القرآن على محمّد (ﷺ) هو من الله العزيز أي الغالب إرادته على كلّ الإرادات، فبإرادته هذه نزل هذا الكتاب على محمّد (ﷺ) وإن كره ذلك المتكبرّون والحاسدون **(الحكيم)** ذو الحكمة فلا يعمل عملاً بدون حكمة، ولحكمة عظيمة خصّ محمّداً بهذا الفضل العظيم، فنزل عليه هذا الكتاب العظيم وجعله من المرسلين. واعلم أنّ الله تعالى أثبت كون القرآن منه وأنّ محمّداً رسوله بقوله **(حم)** فإنّ هذه الحروف المقطّعة جيئ بها في أوائل بعض السّور للاستدلال بها على أنّ القرآن من الله تعالى لا من البشر، وكيفيّة الاستدلال تكون بوجهين:

الأوّل: إنّ هذا القرآن مركّب ومؤلّف من هذه الحروف العربيّة والّتي يؤلّف الشّعراء والخطباء أشعارهم وخطبهم منها، وليست من حروف غريبة عليهم، فلو لم يكن من الله تعالى فأْتوا من هذه الحروف نفسها أيّها الشّعراء والخطباء والبلغاء بما هو مثل القرآن ولو بمثل أقصر سورة منه فصاحة وبلاغة ورونقاً وجمالاً في البيان والتّعبير، فحينما عجز كلّهم عن ذلك مع حرصهم عليه فمعناه أنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسوله.

الثّاني: إنّ اسماء الحروف لا يعلمها ولا يعرفها إلّا الشّعراء أو الكاتبون أو الدّارسون وكلّ النّاس كانوا يعرفون أنّ محمّداً (ﷺ) أميّ لم يمارس قطّ درساً ولا قراءة ولا كتابة ولا شعراً ولا خطابة، فحينما يأتي وبعد أربعين سنة من عمره ويتلّفظ ويتكلّم بهذه الحروف ويقرأ هذا القرآن المعجز فلا شكّ أنّ ذلك يدلّ على أنّ هذا القرآن من الله تعالى علّمه محمّداً وأنّه رسول منه.

ثمّ بعد أن أثبت الله تعالى أنّ هذا القرآن من الله تعالى وأنّ محمّداً رسول منه، أراد أن يثبت مجيء يوم القيامة فقال جلّ وعلا:

﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾

(**مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا**) من الكواكب والنّجوم وغيرهما من الهواء والغازات (**إِلَّا بِالْحَقِّ**) أي إلّا بالحقّ ولأقامة الحقّ والعمل فيها من عبادة الله تعالى وتوحيده والعمل بشريعته، فالباء في بالحقّ بمعنى اللّام أي لأقامة الحقّ (**وأجل**) ولوقت معلوم يجري فيها الحساب فيثاب من تمسّك بشريعته ويعاقب من انحرف عليها، وهذا الأجل (**مسمّى**) معيّن عند الله تعالى (**والّذين كفروا**) بهذا الحقّ والشّريعة(**عمّا أنذروا**) عن عاقبة ما أنذروا به على انحرافهم عن الدّين (**معرضون**) غافلون حيث لم يؤمنوا بذلك الإنذار، وهنا استدلّ الله تعالى بخلق هذا الكون على مجيء ذلك الأجل،وذلك لأنّ من خلق هذا الكون العظيم لا يعقل أن يترك النّاس دون نظام، وأنّ النّظام يقتضي الثّواب والعقاب، وهو لا يوجد في الدّنيا فلا بد من يوم يتحقّق ذلك فيه وهو الأجل المسمّى.

ثمّ بعد أن أثبت الله تعالى رسالة الرّسول ومجيء يوم القيامة أراد أن يثبت وحدته فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾.

(قل أرأيتم) قل يا محمّد ويا كلّ مسلم في إبطال مذهب المشركين وفي دليل على بطلان آلهتهم **(أرأيتم)** أعلمتم، وهذا استفهام يؤتى به للتّشبّه ولإيقاظ الضّمير ليتمكّن ويعلم الحقّ أي تيقّظوا واعلموا **(ما تدعون من دون الله)** فتعبدونهم وتتضرّعون إليهم في دفع المهلكات ورفعها، وجلب المنافع وإيصالها إليكم تفكّروا فيهم و**(أروني ماذا خلقوا** من) شيء من الأرض أي في العالم السّفلي، والاستفهام للإنكار، أي لم يخلقوا شيئاً وهو معلوم بداهة ومعترف به عندنا وعندهم **(أم لهم شرك)** إشراك **(في)** خلق **(السّموات)** أي في العالم العلويّ كلّا، فكيف تتّخذونهم ألهة، ومعنى الإله ومن شرطه أن يكون خالقاً أي موجوداً للشّيء من العدم، ولما أثبت تعالى بطلان الآلهة دون الله تعالى، بدليل العقل من أنّه ليس من المعقول أن يكون الإله إلّا من له الخلق وبيده الإيجاد، وهذه الألهة لا خلق لهم بتاتاً فليسوا بآلهة، لمّا أثبت هذا أراد أن يثبت بطلانهم بدليل النّقل أيضاً فقال: **(ائتوني بكتاب)** نزل **(من قبل هذا)** القرآن ينطق بحقيّة هذه الآلهة دون الله تعالى، والأمر لله تعالى حسب أنّ كلّ كتاب نزل من عند الله تعالى يأمر بتوحيد الله تعالى ويندّد بالشّرك والمشركين ويلعنهم **(أو أثارة)** وفي قراءة **(أو أثرة)** وكلاهما بمعنى واحد أي بأثر، يروي عن السّلف الصّالحين فيه تجويز عبادة غير الله، ولا يوجد ذلك أيضاً أو يقال المراد **(بأثارة من علم)** ما أثر من علم نبيّ من الأنبياء وهو الرّمل، أي استعملوا الرّمل فهل ينطق بحقيّة ما تعبدون من دون الله تعالى، والرّمل كان عبارة عن خطّ تخطّه العربّي لمعرفة أشياء خفية، وقد ورد في الحديث المشهور عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: كان نبيّ من الأنبياء يخطّ فمن وافق خطّه فذاك، ولهذا الحديث قال بعضهم بجواز استعمال علم الرّمل قالوا: حيث قال (ﷺ): فمن وافق خطّه فذاك، وحرّمه البعض قالوا: لأنّ خطّ ذلك النّبيّ اندرس، ومن الّذي يعرف خطّه أو موافقة خطّه، والّذي يظهر أنّه لا خلاف بين الفريقين لأنّهما متّفقان على أنّه إن عرف خطّه والموافقة فإنّه جائز، إلّا أنّ الخلاف في أنّه هل يعرف الخطّ والموافقة أو لا ؟ قال المحرّمون: لا يعرف. والحاصل أنّه لو وجد كتاب صحيح فيه ذلك العلم الصّحيح جاز العمل به وإلّا فلا. وذكر القرطبيّ (رحمه الله) مسألة يجدر بنا أن ننقلها هنا فقال: المسألة الثّانية: قال ابن العربيّ: إنّ الله تعالى لم يبق من الأسباب الدّالة على الغيب الّتي أذن في التّعلق بها والاستدلال منها إلّا الرّؤيا، فإنّه أذن فيها وأخبر أنّها جزء من النّبوّة، وكذلك الفأل، وأمّا الطّيرة والزّجر فإنّه نهى عنهما، والفأل هو الاستدلال بما يسمع من الكلام على حسب ما يريد، كأن خرج للسّفر فصادف أوّل من صادف فسأله عن اسمه؟

فقال: سالم، أو سمع ينادي واحد يا رابح أو يا سالم، وإن سمع ما يكره، كأن سأل واحداً عن اسمه؟ فقال: ضرار أو ما شابه به ذلك فيكون طيرة، وأمر الشّرع بأن يفرّح المرء بالفأل ويمضي على أثره مسروراً، وإن سمع ما يتطيّر به أعرض ولم يتطيّر به حيث قال (ﷺ): (اللّهم لا طير إلّا طيرك ولا خير إلّا خيرك ولا إله إلّا غيرك)[1]، وقال الشّاعر:

الفأل والزّجر والكهّان كلّهم مضلّلون دون الغيب أفعال

وهذا الكلام صحيح إلّا في الفأل، فإنّ الشّرع استثناه وأمر به، فلا يقبل منه هذا الشّاعر إبطال ما أجازه الشّرع.

تنبيه: حينما يقال أنّه يستدلّ بالرّؤيا والفأل ليس معناه يستدلّ بها في الأحكام الشّرعية أو في الحكم بثبوت شيء أو نفيه، وإنّما المراد أنّه بشارة يسرّ بها الشّخص ويعمل بها لنفسه في ما كان موافقاً للشّرع وإلّا فهو من الشّيطان ولا يعمل به أبداً.

* * *

(إن كنتم صادقين) في قولكم هذه آلهة أو شفعاء يجوز عبادتهم ائتوني بكتاب أو أثارة من العلم يصدّقكم في ذلك ولا شيء من ذلك موجود، فأنتم إذن كاذبون، وأنتم أضلّ النّاس بسبب دعاء غير الله تعالى أو عبادته كما قال تعالى في ضلالهم وفي نتيجة هذا الضّلال:

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾

(وَمَنْ أَضَلُّ) ومن أكبر ضلالاً **(مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ)**

(١) مجمع الزوائد ٥/ ١٠٥ وضعفه.

والاستفهام للإنكار، أي لا يوجد أحد أكبر ضلالاً ممّن يدعو.... الخ، فهو أكثر ضلالاً من كلّ أحد وقوله (**ممّن يدعو**) جاء الدّعاء بمعنى العبادة وبمعنى التّضرع إلى أحد، لدفع الملمّات أو رفعها أو جلب المصالح وتحصيلها، فينصرف إلى أحد المعنيين بالقرينة، وحيث يوجد هنا قرينة المعنيين لأنّ قوله: لا يستجيب قرينة للدّعاء بمعنى التّضرع، وقوله: وكانوا بعبادتهم كافرين قرينة على إرادة العبادة، فعلى هذا يحمل (**يدعو**) على المعنيين، فالمعنى يتضرّع في دفع المضرّات أو رفعها وجلب المصالح أو تحصيلها (**من لا يستجيب**) أي لا يحصل (**له**) شيئاً (**إلى يوم القيامة**) ويعبده (**وهم**) الّذين يدعونهم ويعبدونهم (**عن دعائهم**) إيّاهم وعبادتهم لهم (**غافلون**) لا يدرون به لأنّهم لا يسمعون ولا يبصرون ذلك (**وإذا حشر النّاس**) يوم القيامة (**كانوا**) الّذين اتّخذوهم هؤلاء آلهة فعبدوهم من دون الله تعالى (**لهم**) لهؤلاء العابدين والتّابعين لهم (**أعداء**) فيتبرّؤون منهم ويلعنونهم (**وكانوا بعبادتهم**) لهم كافرين منكرين.

سؤال: لقد ثبت أنّ هؤلاء كانوا يعبدونهم، وفي ذلك اليوم لا سبيل لإنكار شيء، ومن بين المعبودين عيسى وعزير والملائكة، فكيف ينكرون عبادتهم لهم وهو الواقع الّذي لا ينكر ويكون إنكاره كذباً؟

الجواب: إنّ المراد بقوله تعالى: (**بعبادتهم لهم كافرين**) أي منكرين بمعنى الكراهة وعدم الرّضا به أو بمعنى أنّهم أنكروا أن يكون عبادتهم لهم برضاهم وبأمرهم بذلك.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أنّ هؤلاء لا يرجعون عن ضلالهم هذا، وإن ظهر لهم الحقّ فقال جلّ وعلا: (**وإذا تتلى عليهم آياتنا**) دلائلنا الدّالة على وحدة الله تعالى وبطلان ما هم عليه من الشّرك وعبادة غير الله تعالى وكانت الآيات (**بينات**) واضحات في الدّلالة على ذلك (**قال الّذين كفروا**) وهم المشركون العابدون غير الله تعالى أو المطيعون لأمر غير أمره (**للحقّ**) أي قالوا للحقّ وهو الآيات المثبتة لحقيّة التّوحيد وبطلان الشّرك والمعجزات الدّالة على رسالة رسول الله (ﷺ) (**لما جاءهم**) وظهر لهم (**هذا سحر مبين**) سحر واضح (**أم**) استفهام لتقرير وتثبيت ما هو أشنع من قبل فيكون المعنى: بل (**يقولون**) أشنع من ذلك لأنّهم يقولون (**افتراه**) إفترى محمّد القرآن ودعوى الرّسالة، وهذا كلام شنيع جدّاً، لأنّ الله تعالى يصبر على كلّ معصية إلّا معصية دعوى الرّسالة كذباً، فإنّ ذلك لا يصبر عليه بل ينتقم ممّن ادعى ذلك فوراً، ويفضحه لكي لا

يختلّ أمر الرّسالة كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ*﴾ سورة الحاقة الآيات/ ٤٤ ـ ٤٦. ولذلك قال تعالى: **(قل)** قل يا أيّها النّبيّ **(إن افتريته)** أي القرآن ودعوى الرّسالة فالله ينتقم منّي **(فلا تملكون لي من)** رفع عذاب **(الله)** وانتقامه منّي **(شيئاً هو أعلم بما)** بالكلام الباطل الّذي **(تفيضون)** تخوضون **(منه)** وينتقم منكم على هذه التّهمة الّتي تنسبونها إليّ **(كفى به)** كفى بالله **(شهيداً]** على ما **(بيني وبينكم)** من الخلاف وإنّه يعلم الصّادق فيثيبه ويعلم الكاذب فينتقم منه **(وهو الغفور)** لمن تاب منكم ورجع عن كفره **(الرّحيم)** فينشأ مغفرته من رحمته لا من باعث آخر، كحاجته إليكم أو وجوب المغفرة عليه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثمّ إنّ الكافرين كانوا يعترضون على الرّسول بأنّه بشر مثلهم يأكل الطّعام ويمشي في الأسواق، أرادوا أن يكون الرّسول من غير البشر أو بشراً مجرّداً من صفات البشر من الأكل والشّرب وغيرهما، وكذلك أرادوا أن يظهر لهم المعجزات الكونيّة حسب اقتراحهم، فأمر الله تعالى أن يجيبهم فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ **(ما كنت بدعاً)** شيئاً جديداً لم يسبق له مثال **(من الرّسل)** بل قد جاء قبلي رسل كثيرون وكلّهم كانوا يأكلون الطّعام ويمشون في الأسواق، فلا يقدح ذلك في الرّسالة **(وما أدري ما يفعل بي)** في الدّنيا من المصائب والمتاعب **(ولا بكم)** أراد بذلك أنّه لا يعلم الغيب، فيأتي لهم بمعجزات من الأخبار بالمغيبات في الكون **(إن أتبع إلّا ما يوحى إليّ)** فاعمل به وأبلّغكم **(وما أنا إلّا نذير مبين)** جئت لأن أنذركم وليس في وسعي إلّا ذلك، وما جئت لأظهر لكم الخوارق من المعجزات حسبما تريدونه وتختارونه **(قل أرأيتم إن كان)** هذا القرآن **(من عند الله)** تعالى نزل عليّ وكنت رسولاً من عنده جلّ وعلا **(وكفرتم به)** والحال أنّه **(وشهد شاهد من بني إسرائيل على**

مثله) على مثل ما ينطق به القرآن من التّوحيد وإبطال الشّركاء **(فآمن)** ذلك الشاهد من بني إسرائيل بالقرآن وبرسالتي. وجواب إن كان من عند الله ... الخ، محذوف تقديره ألستم أضلّ من كلّ النّاس حيث كفرتم به، والشّاهد الّذي من بني إسرائيل قيل هو موسى، وهذا بعيد، وقيل هو عبد الله بن سلام، وهو بعيد أيضاً لأنّ السّورة مكيّة وعبدالله آمن بعد الهجرة بزمان، والأصحّ أنّه كان رجلاً من بني إسرائيل يسكن مكّة عالماً بالتّوراة فلمّا بعث الرّسول (ﷺ) آمن به واتّبعه **(واستكبرتم)** أنتم فلم تؤمنوا استكباراً **(إنّ الله لا يهدي القوم الظّالمين)** جبراً بل جعل الاختيار بأيديهم، فإن اختاروا الهدى هداهم وإلّا فلا، والأصل أنّ الله لا يهدهم إلّا أنّه جعل مكانه القوم الظّالمين لإفادة أنّ الله لا يهديهم لأنّهم قوم ظالمون.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر شبهة من شبهاتهم الّتي تسبّبت في عدم إيمانهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(وقال الّذين كفروا) وهم الأغنياء والأقوياء من صناديد قريش **(للّذين آمنوا)** من العبيد كصهيب وبلال ومن غيرهم من الفقراء والضّعفاء **(لو كان)** ما جاء به محمّد **(خيراً ما سبقونا إليه)** وهم فقراء وضعفاء فإنّنا أقوياء ودائماً يحوز بالخير والمنافع الأقوياء والأغنياء قبل الفقراء، وكانت حجّتهم هذه باطلة لأنّ هذا بالنّسبة للدّنيا ومنافعها، وأمّا بالنّسبة للمنافع الرّوحية والعلميّة ومعرفة الحقّ، فالفقراء يسبقون الأغنياء لأنّ هؤلاء مغرورون بعنادهم وقوّتهم، ومشغولون بدنياهم فلا يدركون ولا يصلون إلى معرفة الحقّ وإدراكه سيّما إذا كان الحقّ يضرّ بمصالحهم، فالفقراء أدركوا حقّيّة الإسلام لأنّ الإسلام لم يضرّ بمصالحهم، بل كان يفيدهم ولكن الأغنياء رأوا أنّ الإسلام يساوي بينهم وبين الفقراء في الحقوق والواجبات ويمنع الاستغلال

والاستبداد؛ فلذلك تأخّروا عن أعتناقه وسبقهم الفقراء والضّعفاء **(وإن لم يهتدوا به)** بهذا القرآن **(فسيقولون هذا** افك **قديم)** حكايات كاذبة وقديمة، هذا والتّاريخ يعيد نفسه فإنّ كثيراً ممّن يعادون الإسلام حتّى ومن بعض المسلمين يسمّون الإسلام خرافة ورجعيّة، فعادت الجهالة والجاهليّة إلى نفوس النّاس في هذا القرن قرن العشرين **(ومن قبله)** خبر مقدّم و**(كتاب موسى)** مبتدأ مؤخّر فالتّقدير وكتاب موسى كان **(من قبله)** قبل القرآن **(إماماً)** يقتدى به **(ورحمة)** لما فيه من بيان أحكام الله تعالى والبشارة برسالة محمّد وذكر صفاته وعلاماته **(وهذا)** القرآن **(كتاب)** عظيم **(مصدّق)** لما في التّوراة من الأمر بالتّوحيد ولما فيها من الأحكام المهمّة ولما فيها من علامات الرّسول والبشارة بمجيئه وبعثته **(لساناً عربيّاً)** منصوب بنزع الخافض أي يصدّق ما قبله من التّوراة بلسان عربيّ لا يخفى عليكم معانيه ومفاهيمه **(لينذر)** القرآن **(الّذين ظلموا)** بالشّرك والانحراف عن شريعة الله تعالى (وبشرى **للمحسنين)**، ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن من هم المحسنون وما هي بشراهم، فقال جلّ وعلا: **(إنّ الّذين قالوا ربّنا الله)** وحده لا شريك له وتمسّكوا بتربية الله تعالى وتعاليمه في الأخلاق والأعمال وفي جميع نواحي الحياة الفرديّة والاجتماعيّة **(ثمّ استقاموا)** على هذه العقيدة ولم ينحرفوا عن شريعة الله تعالى **(فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب**الجنّة) داخلون فيها ويبقون **(خالدين فيها)** دون خروج وتحوّل عنها أبداً ووجود ذلك **(جزاء بما)** مقابل **(ما كانوا يعملون)** في الدّنيا من التّمسك بشريعة الله تعالى وتطبيقها على أنفسهم وعلى من تحت رعايتهم. ثمّ إنّ تربية الله تعالى وشريعته وكلّ ما فيها من أوامر ونواهي وواجبات ومحرّمات يعود إلى أمرين:

الأمر الأوّل: تحسين الصّلة مع الله تعالى.

الأمر الثّاني: تحسين الصّلة مع النّاس، فأراد الله تعالى أن يذكر للعبرة والاتّعاظ مظهرين من مظاهر الإنسان:

المظهر الأوّل: مظهر الإنسان المستقيم والمتمسّك بتربية الله تعالى وشريعته.

المظهر الثّاني: مظهر الإنسان المنحرف عن الإلتزام بذلك، وحيث أنّ أولى النّاس بتحسين الصّلة هما الوالدان خصّصهما بالذّكر في المظهرين فقال تعالى مقدّماً المظهر الأوّل لشرفه:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

(ووصّينا الإنسان) وأمرنا كلّ إنسان أن يحسن **(بوالديه إحساناً)** يليق بالوالدين والولديّة ويكافئ إحسانهما إليه، ثمّ خصّ الوالدة بالذّكر مرّة أخرى موصوفة بالصّفة الّتي تستحقّ بسببها زيادة الرّعاية والخدمة. ولأنّه حسب العادة تكون الأمّ وهي الأنثى أحوج إلى الاحسان من الولد الرّجل فقال جلّ وعلا: **(حملته أمّه)** في الرّحم **(كرهاً)** بمشقّة **(ووضعته كرهاً)** بمشقّة أيضاً **(وحمله وفصاله)** ومدّة حمله ورعايته إلى فصاله وفطامه من الرّضاع **(ثلاثون شهراً)** أربعة وعشرون شهراً للرّضاع بدليل قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ سورة البقرة الآية/ ٢٣٣ ـ فيبقى ستّة أشهر لمدّة الحمل فتكون هذه الآية مع آية البقرة دليلاً على أنّ أقلّ مدّة الحمل ستّة أشهر، ولذلك حينما أراد عثمان بن عفّان (رضي الله عنه) أن يقيم الحدّ على امرأة ولدت لأقلّ من تسعة أشهر بعد الزّواج قال له عليّ (كرّم الله وجهه): ليس لك هذا ! فإنّ الله تعالى بيّن أنّ مدّة الحمل والرّضاع ثلاثون شهراً في آية الأحقاف، وبيّن أنّ مدّة الرّضاع أربعة وعشرون شهراً في آية البقرة، فتبقى لمدّة الحمل ستّة أشهر، فستّة أشهر تكون أقلّ مدّة الحمل، ويمكن الوضع بعدها، فأعرض عثمان عن حكمه، وأمّا أغلب مدّة الحمل فتسعة أشهر، وأمّا أكثره فلم يعيّنه القرآن الكريم، نقل عن الإمام الرّازي عن الشّفاء لابن سينا أنّه قال: بلغني من حيث وثقت به كلّ الثّقة أم امرأة وضعت بعد الرّابع من سنّي الحمل، وتراه قد نبتت أسنانه وعاش، فعلى هذا يكون أكثر مدّة الحمل إلى أربع سنين، وبهذا قال الشّافعي (رضي الله عنه)، هذا ويتعلّق ببيان مدّة الحمل ومدّة الرّضاع أحكام:

الحكم الأوّل: إنّ المرأة بعد ما نكحت إن جاءت بولد لسّتة أشهر فهو من زوجها الثّاني، وإن لأقل من ستّة أشهر فليس منه، فإن كانت متزوّجة من قبل ولم يمض على

فراق زوجها الأوّل أربع سنين فالولد لزوجها الأوّل، ويتبيّن فسخ نكاح الثّاني من ظهور الحمل لوقوعه في العدّة، وإن مضى على فراقها أربع سنين فهو ليس من زوجها الأوّل ولا الثّاني ... الخ.

الحكم الثّاني: لو ارتضع ولد من امرأة وعمره أقلّ من سنتين يثبت له حكم الرّضاع ويحرم عليه كما يحرم بالنّسب، ولو أرتضع منها بعد اكمال سنتين لا يحرم عليه ممّا يحرم بالرّضاع (**حتّى إذا بلغ**) وعاش الإنسان وأحسن إلى والديه (**حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة**) توجّه إلى الله تعالى ودعا لنفسه ولوالديه (**قال ربّ أوزعني**) ألهمني ووفّقني على (**أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ**) ممّا لا يدخل تحت العدد والإحصاء من النّعم (**وأن أعمل صالحاً ترضاه**) من الأعمال الصّالحة والّذي يرضاه هو العمل الصّالح وفق الشّرع الّذي يكون لوجه الله تعالى وحده ولا يدخله غرض آخر (**وأصلح لي في ذريّتى**) واجعل ذريّتى ومن يلد من الصّالحين (**إنّي تبت إليك**) من سوء الأعمال ورجعت إليك طالباً من فضلك الأنعام والأفضل (**إنّني من المسلمين**) المنقادين لأمرك والعاملين على مقتضى أمرك ووفق نهجك وشريعتك وهذا عهد لا أخبار (**أولئك**) المقصودين بهذه الصّفات والمحسنين على الآباء والأمّهات من وقت الشّباب والكهولة ومادياً بالخدمة ومعنوياً بالدّعوات (**أولئك**) هم (**الّذين تتقبّل منهم**) هذا العمل وهو برّ الوالدين وكان هذا العمل (**أحسن ما عملوا**) فإنّ برّ الوالدين أحسن الأعمال سوى الإيمان، وإنّ الإيمان ليس عملاً بل هو كيفيّة تحصل في القلب والوجدان والضّمير، وإذا قبل منهم الأحسن من الأعمال فيقبل منهم ما هو حسن أيضاً وبطريق التّبعيّة، أو الأحسن بمعنى الحسن فيدخل الكلّ (**ويتجاوز عن سيّئاتهم**) آثامهم وذنوبهم فإنّ الحسنات يذهبن السّيئات (**في أصحاب الجنّة**) في زمرة أصحاب الجنّة إذ هو منهم (**وعد الصّدق**) وتنفيذاً لوعد الصّدق (**الّذي كانوا يوعدون**) في الدّنيا على لسان الرّسل والدّعاة جازيناهم هذا الجزاء وأكرمناهم هذا التّكريم، وهذا ما بيّنه الله تعالى من مظهر الإنسان المستقيم الّذي أحسن صلته مع الله تعالى ومع النّاس.

سؤال مهم: ما هو الأشدّ وما هو بلوغه ومتى يكون ذلك؟

الجواب: الّذي يفهم من كلام الإمام الرّازي، وهو الأصحّ، أنّ بلوغ الأشدّ عبارة عن اكتمال قوّته الجسديّة، ويكون ذلك بالبلوغ، وهو حين الاحتلام أو بلوغه خمس عشرة سنة عند الشّافعي وثماني عشرة سنة عند الحنفيّ، والمراد ببلوغه أربعين سنة

اكتمال قوّته العقليّة، فالمعنى أنّه أحسن إلى والديه في الشّباب والكهولة بالمادّة وبالمعنويّات، وهي الدّعاء لهما، وقد حقّقت معنى بلوغه الأشدّ في تفسير سورة يوسف، عند قوله تعالى: ﴿ولمّا بلغ أشدّه أتيناه حكماً وعلماً﴾ تحقيقاً مقيّداً وهذا نصّه:

قال في روح المعاني: ومعنى بلغ أشدّه بلغ زمان انتهاء جسمه وقوّته وهو سنّ الوقوف عن النّمو المعتدّ به، أعني به ما بين الثّلاثين والأربعين، وسئل القاضي النّحوي مهذّب الدّين الخيمي فقال: هو خمس وثلاثون سنة وتمامه أربعون، وقال الزّجاج: هو سبعة عشرة عاماً إلى نحو الأربعين، وعن مجاهد وقتادة ورواه ابن جبير عن ابن عبّاس (رضي الله عنهما): أنّه ثلاث وثلاثون سنة أو ثلاثون أو إحدى وعشرون سنة، وقال الضّحاك: عشرون، وحكى ابن قتيبة: أنّه ثمان وثلاثون، وقال الحسن: أربعون، هذا وفي باقي التّفاسير ما يشبه هذا، ولم ينصّ أحد على بيان حدّ بلوغ الرّشد بل إنّما سردوا أقوالاً وبيان روايات،وإذا أردنا إلى تحقيق ذلك فلابد أن ينظر إلى ما ورد في القرآن الكريم من هذه الجملة (بلغ أشدّه) ثمّ نستنتج من الكلّ حدّاً يطمئنّ به البال، فنقول: قد ورد في القرآن الكريم هذه الجملة في ثمان آيات: فوردت في قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ سورة الأنعام الآية/ ١٥٢. وفي سورة يوسف تلك الآية الّتي ذكرناها الآن، وفي قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ سورة الإسراء الآية/ ٣٤. وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ سورة الكهف الآية/ ٨٢. وقوله تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ سورة الحج الآية/ ٥٠، وفي قوله تعالى بشأن سيّدنا موسى (عليه السلام): (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ سورة القصص الآية/ ٢٢. وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾ سورة الأحقاف الآية/ ١٥. وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً﴾ سورة غافر الآية/ ٦٧، هذا ما ورد في القرآن الكريم فيما يخصّ بلوغ الأشدّ، وإذا نظرنا إلى آية القصص وآية الأحقاف نرى أنّ

هناك درجات ثلاث: بلوغ الأشدّ، والاستواء، وبلوغ أربعين سنة، فالاستواء أقلّ من أربعين سنة لأنّ سيّدنا موسى كما في آية القصص بلغ الاستواء في مصر لأنّه بعد قوله أستوى يأتي: (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ سورة القصص الآية/ ١٥. فتدّل هذه الآية على أنّ موسى في ذلك الوقت أستوى ولم يبلغ أربعين سنة، لأنّه لم يكن نبيّاً في ذلك الوقت، بل بعد ذلك بسنين ولم يصرّ موسى نبيّاً إلّا بعد أربعين سنة بالأتّفاق. وبلوغ الأشدّ قبل الاستواء وقد فسّر بلوغ الأشدّ في آية الأنعام والأسراء والكهف والحجّ والمؤمن بالبلوغ، وقد قدّر العلماء ذلك بخمسة عشر عاماً عند البعض وبثمانية عشر عن البعض الآخر، حيث لا يوقف اليتيم عن التّصرف إلى أربعين سنة من عمره، ولا إلى ثلاثين ولا أكثر من عشرين سنة، فبلوغ الأشدّ يكون بين خمس عشرة وثماني عشرة سنة، والاستواء ثلاثين وبعد هذه الكمال وهو أربعون وهو حدّ الرّسالة والتّوجّه إلى الله تعالى، والإبتعاد عن أعمال الصّبا والشّباب، ومحلّ ثقة النّاس والاعتماد عليه غالباً، وقال في مختار الصّحاح: وقوله تعالى: ﴿حتّى يبلغ أشدّه﴾ بلغ قوّته وهو ما بين ثماني عشرة إلى ثلاثين سنة، هذا ما يبدؤ في هذا المقام والله أعلم، فبلوغ الأشدّ هنا معناه البلوغ والله أعلم.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر المظهر الثّاني من مظاهر الإنسان الّذي يحسن صلته مع الله تعالى ولا مع النّاس فقال جلّ وعلا:

﴿وَالَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾

(**والذي قال لوالديه أفٍ**) قذارة وقبح (**لكما**) وأتضجر منكما (**أتعدانني**) أتخوفانني بيوم القيامة و(**أن أخرج**) من القبر وأبعث فأعذب على عدم الإيمان، والاستفهام هنا للتضليل فمراده أن هذا التخويف وهذا البعث والحياة بعد الموت باطل حيث (**وقد خلت القرون من قبلي**) وقد مضت أهل القرون قبلي ولم يرجع ولم يبعث أحد منهم (**وهما**) الوالدان (**يَسْتَغِيثَانِ اللَّه**) يناديان الله ويقولان له (**ويلك**) هلاك لك على هذا الكفر (**آمن**) بالبعث وبما جاء به الرّسول لتنجو من هذا الهلاك (**إنّ وعد الله**) ليس ما تقولان (**إلّا أساطير الأوّلين**) والأساطير جمع أسطورة وهي الحكاية أي حكايات الأوّلين ممّا لا أصل له، وما يقال من أنّ الأوّل نزل في حقّ أبي بكر (ﷺ)، والثّاني نزل في حقّ ابنه عبدالرّحمن قبل إيمانه، لا ينافي أن يكون الأوّل مظهر الإنسان المستقيم، والثّاني مظهر الإنسان غير مستقيم مطلقاً، لأنّ مورد النّزول وسببه لا يخصّص، فهما عامّان لكلّ إنسان مستقيم وغير مستقيم، كما ويردّ هذا القول قوله تعالى: ﴿أولئك الّذين حقّ عليهم القول﴾ من وجهين:

الأوّل: أنّه لو كان المراد عبد الرحمن لقال ذلك الّذي حقّ عليه القول لأنّه مفرد.

الوجه الثّاني: أنّ عبدالرحمن لم يحقّ عليه القول بالعذاب لأنّه آمن بعد ذلك وأصبح من الصّحابة الكرام، كما ولو كان هو لقال تعالى: ذلك نتقبّل منه أحسن الّذي عمل، ونتجاوز عن سيئاته، وما قال أولئك الّذين نتقبّل منهم أحسن الّذي عملوا، ونتجاوز عن سيّئاتهم لأنّه مفرد أيضاً (**أولئك**) الّذين لا يؤمنون بالآخرة ويقولون لمن يذكرها ما هي إلّا أساطير الأولين فأولئك هم (**الّذين حقّ عليهم**) ثبت عليهم (**القول**) بالعذاب والحكم به من الله تعالى (**في أمم قد خلت**) قد مضت (**من قبلهم**) وكانوا ينكرون يوم القيامة والحشر وهو (**من الجنّ والأنس**) ومن كان يعتقد هذا الإعتقاد الباطل (**إنّهم كانوا خاسرين**) أمّا بيان للقول الّذي حقّ عليه فمعناه إنّ الحكم الّذي صدر في حقّهم هو (إنّهم كانوا) أصبحوا (خاسرين) حيث خسروا الجنّة ونعيمها، أو علّة لثبوت الحكم بعذابهم، أي حكم عليهم بالعذاب حيث إنّهم كانوا في الدّنيا خاسرين في أعمالهم في الدّنيا لأنّهم لم يعملوا عملاً يستفيدون منه في يوم القيامة (**ولكلّ**) من المؤمنين والكافرين (**درجات**) في الجنّة بالنّسبة للمؤمنين وفي النّار للكافرين وهذه الدّرجات كانت (**ممّا عملوا**) أي ناشئة حسب الأعمال كما قال (**وليوفّيهم**) الله تعالى (**أعمالهم**) وفق أعمالهم تماماً (**وهم لا يظلمون**) فلا يعذّب أحد بدون ما يوجب عذابه أبداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الكافرين فقال جلّ وعلا:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

(**ويوم**) منصوب بفعل مقدّر يأتي ذكره (**يعرض الّذين كفروا على النّار**) يكشف لهم ويوقفون في مكان يشرفون عليها (**ويقال**) يقال لهم في ذلك اليوم، ويقال هو الفعل المقدر الّذي نصب به (**ويوم**)، فيقال لهم: (**أذهبتم**) ضيّعتم (**طيّباتكم**) في الآخرة حينما كنتم في (**حياتكم الدّنيا واستمتعتم بها**) بالحياة الدّنيا فقط، وما تزوّدتم لهذا اليوم شيئاً (**فاليوم تجزون عذاب الهون**) الإهانة والخزي (**بما كنتم**) ما مصدريّة تقلب ما دخل عليه مصدراً فالمعنى تجزون ذلك العذاب بسبب كونكم (**تستكبرون**) **على** النّاس (**في الأرض بغير الحقّ**) وتظلمونهم، أو تستكبرون عن اتّباع الحقّ والإيمان بالرّسل والعمل بشريعة الله تعالى، وما كان يحقّ لكم ذلك و(**بما كنتم تفسقون**) بسبب كونكم تفسقون أي تخرجون عن الحقّ والصّلاح وأمر الله تعالى في الدّنيا، وترتكبون ما نهى الله تعالى عنه.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر للرّسول حال هود مع قومه، ليتسلّى بذلك ويقتدي به في الصّبر، وليكون إنذاراً لقومه الكفرة وبشارة بالنّصر للمؤمنين فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(**واذكر**) أيّها النّبيّ (**أخا عاد**) وهو هود عليه السّلام (**إذ أنذر**) خوّف قومه بالعذاب إن لم يؤمنوا بالله وحده ولم يتركوا عبادة الأصنام ولم يتّبعوا شريعة الله تعالى ورسوله، فأنذرهم وهم يسكنون (**بالأحقاف**) جمع حقف، قال الغرناطي: والحقف هو الكدس المرتفع من الرّمل، واختلف في مكان تلك الأحقاف فقيل بالشّام وقيل بين عمان وجدّة وقيل بين عمان وحضرموت، والصّحيح أنّ بلاد عاد كان باليمن وقوله تعالى: (**وقد خلت النّذر من بين يديه ومن خلفه**) جملة معترضة وقعت بين قوله تعالى: (**إذ أنذر قومه**) وقوله: (ألّا تعبدوا إلّا الله ...الخ) لأنّ قوله: ألّا تعبدوا إلّا الله ... الخ بيان لإنذاره، فالمعنى أنّه أنذرهم وقال لهم: ألّا تعبدوا إلّا الله ... الخ، وجيء بهذه الجملة المعترضة لإفادة أنّ هود لم يكن أوّل الرّسل، فلم تكن الرّسالة غير متعارفة بين القوم فينكروه، لذلك ولا آخر الرّسل، فينكرون الّذين جاؤوا من بعده بل (**وقد خلت**) مضت وجاءت (**النّذر**) جمع نذير وهو الرّسل (**من بين يديه**) من قبله، فلم تكن الرّسالة غير متعارفة بين النّاس (**ومن خلفه**) فلم تختم الرّسالة به، فينكرون رسالة الرّسول، لذلك جاءت الرّسل من بعده، وكان دعوة كلّ الرّسل أن قالوا لقومهم: (**أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**) عذابه إن بقيتم على عبادة غير الله تعالى ولم ترجعوا وتتوبوا من ذلك، فلمّا جاء هود عاداً وقال لهم هذا القول مثل سائر الرّسالات (**قالوا**) لهود (**أجئتنا لتأفكنا**) لتصرفنا (**عن**) عبادة (**آلهتنا**) والاستفهام للاستبعاد والإنكار، فالمعنى من البعيد أن تصرفنا عن عبادتهم، فلا نترك عبادتهم ولا نؤمن بك ولا بما جئت به من التّوحيد (**فأتنا بما تعدنا**) بما تخوّفنا به من العذاب (**إن كنت من الصّادقين**) في قولك إنّ العذاب ينزل بنا إن لم نترك عبادة آلهتنا ولم نؤمن بك وبشريعتك (**قال**) هود في جوابهم: إنّ الإتيان بالعذاب ليس في علمي بل (**إنّما العلم**) بوقته والقدرة على الإتيان به (**عند الله**) تعالى وليس عندي علم بوقته ولا القدرة على الإتيان به، وإنّي لم أرسل لأعلّمكم بوقت العذاب أو لأن آتي به، بل إنّما جئتكم رسولاً (**وأبلّغكم ما أرسلت به**) فهذا هو واجبي وقد فعلت ذلك (**ولكنّي أراكم قوماً تجهلون**) معنى الرّسالة وتعتقدون أنّ الرّسول يستطيع فعل كلّ شيء هذا من جهة، ومن جهة أخرى تجهلون في عدم الإيمان والاستعجال بالعذاب استهزاء وسخريّة منّي ومن إنذاري.

وفي هذه الآية دليل على أنّ كلّ من يعتقد في أيّ شخص أنّه يعلم الغيب أو يستطيع أن يضرّ أو ينفع فهذه العقيدة عقيدة الجاهلين بالدّين والمشركين بالله تعالى.

ثمّ لم يزل هود يعظهم وينصحهم ويرشدهم إلى الحقّ وشريعة الله تعالى ودينه، إلّا أنّهم لم يتّعظوا ولم يسترشدوا، بل أصرّوا على الكفر والإشراك إلى أن استحقّوا العذاب وجاءهم ما فيه العذاب **(فلمّا رأوه)** ما فيه عذابهم وكان **(عارضاً)** سحاباً **(مستقبل أوديتهم)** استبشروا وفرحوا ونادى بعضهم **(قالوا هذا عارض)** سحاب **(ممطرنا)** لأنّهم كانوا تأخّر عنهم المطر وينتظرونه فقال هود لهم: **(بل هو)** أي الّذي ترونه **(ما استعجلتم به)** من العذاب وهو **(ريح فيها عذاب أليم)** مؤلم جدّاً حيث إنّها **(تدمّر كلّ شيء)** مرت عليه، وأراد الله تعالى تدمر لا كلّ شيء عموماً، وكانت تدمر **(بأمر الله)** ممّا أمر الله تعالى بتدميره دمّرته وما لا فلا، فأهلكت تلك الرّيح كلّ من يتنفّس منهم، فلم يبق منهم أحد إلّا وقع تحت الرّمل هالكاً **(فأصبحوا لا يرى)** من قبل من ينظر إليهم **(إلّا مساكنهم)** خالية من السّكان وقرئ: **(لا ترى)** أي لا ترى يا محمّد لو كنت موجودا هناك ونظرت إليهم، ولا ترى أيّها الرّائي إلّا مساكنهم **(كذلك)** قيل ذلك الجزاء والعقاب **(تجزي)** تعاقب **(القوم المجرمين)** الطّاغين على النّاس والباغين المنحرفين عن دين الله تعالى وشريعته، فاخشوا أيّها الكافرون بمحمّد والمنحرفون عن شريعته أن نعاقبكم بعقاب مثل عقابهم أو بنوع آخر، فإنّكم لستم بأقوى منهم بل هم كانوا أقوى منكم، وفعلنا ما فعلنا ولذا قال تعالى: **(ولقد مكنّاهم)** أي وبعد وهبناهم أي قوم عاد المكنة والسّعة **(فيما)** أي في شيء من القوّة والمال والجسم **(إنّ)** بمعنى النّفي فالمعنى ما **(مكنّاكم فيه)** أي في شيء من القوّة والمال والجسم **(إن)** بمعنى ما للنّفي فالمعنى ما **(مكنّاكم فيه)** في ذلك الشّئ بمقدارهم، بل أنتم أقلّ منهم قوّةً وجسماً وأموالاً، فأهلكوا ولم يستطيعوا شيئاً، فكيف تجهلون عذابنا وانتقامنا **(وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة)** جمع فؤاد **(فما أغنى)** أي فما دفع **(عنهم سمعهم وأبصارهم وأفئدتهم من شيء)** من العذاب، أي فلم يسمعوا صوتا تدلّهم على طريق ينجون فيه من العذاب ولا رأوا مخرجاً ومنفذاً للفرار من ذلكن وما أتاهم تفكير يريهم طريق النّجاة بل أهلكوا كلّهم **(إذ كانوا)** لأنّهم كانوا **(يجحدون بآيات الله)** ينكرونها **(وحاق بهم)** أحاط بهم **(ما)** العذاب الّذي **(كانوا به يستهزئون)** حينما ينذرهم به هود (عليه السلام) فكانوا يقولون باستهزاء: **(فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصّادقين)** في وعيدك بالعذاب.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قرية قوم عاد وهم كانوا بعيدين عنهم، فلم يتّعظوا بهم، أراد أن يذكّرهم بإهلاك أقوام كانوا قريبين منهم، وكانت أخبارهم متواترة لديهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

(**وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا**) ودمّرنا (**مَا حَوْلَكُم مِنَ الْقُرَى**) كقرية حجر وثمود ولوط، وأخبارهم معلومة عندكم أهلناكهم لأنّهم كذّبوا رسولهم (**وصرّفنا الآيات**) لهم يعنى أريناهم الدّلائل والمعجزات الدّالة على صدق رسولهم (**لعلّهم يرجعون**) لكي يرجعوا بسبب هذه الآيات، فلم يرجعوا، وأصرّوا على الكفر واستكبروا عن الحقّ؛ فحقّ عليهم العذاب فأهلكناهم (**فلولا نصرهم**) أي فلماذا لم ينصروهم (**الّذين اتّخذوا**) ايّاهم (**قرباناً**) للتّقرب إلى الله وبحجّة أنّهم يقرّبونهم إلى الله زلفى اتّخذوهم آلهة (**بل ضلّوا**) تلك الآلهة (**عنهم**) فلم يفيدوهم شيئاً (**وذلك**) الهلاك (**إفكهم**) عاقبة إفكهم وكذبهم في أنّ هذه الآلهة تقرّبهم إلى الله وتشفع لهم وتنجيهم من المكاره والملمّات وعاقبة (**ما يفترون**) فيقولون ما يقولون كذباً لترويج آلهتهم الباطلة وعبادتهم لهم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يسلّي رسوله بحادثة أخرى وكأنّه يقول له: لا تحزن فأنّك حينما يكذّبك النّاس ولا يؤمنون بك، فإنّ الجنّ قد سمعوا قراءتك فآمنوا ورجعوا إلى قومهم دعاة إلى التّمسك بذلك والإيمان بك؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

تمهيد: واعلم أنّ في هذه الآيات تضليل وتجهيل لأهل مكّة وغيرهم ممّن كفر بالرّسول (ﷺ)، فكأنّه تعالى يقول: إنّ الجنّ آمنوا بهذا الرّسول وبما أنزل عليه، وأنتم ما

زلتم تكفرون به فما أجهلكم وما أقبح ضلالكم، هذا وقبل أن نبدأ بتفسير الآيات الكريمة ننقل قصّة حضور الجنّ قراءة النّبيّ (ﷺ) وإيمانهم بالقرآن فنقول: ذكر المفسرون وأصحاب السّير وقالوا: لمّا مات أبوطالب عمّ الرّسول (ﷺ) وكان في حياته يحوطه وينصره ويمنعه ممّن يؤذيه، فلمّا مات وجد رسول الله (ﷺ) وحشة من قومه فخرج إلى الطّائف يلتمس من ثقيف النّصرة له والمنعة من قومه، فلمّا انتهى إلى الطّائف عمد إلى نفر من ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة عبد اللّيل ومسعود وحبيب بنو عمرو، وعندهم امرأة من قريش من بني جمح، فجلس إليهم الرّسول (ﷺ) فدعاهم إلى الله وكلّمهم بما جاء له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، فقال له أحدهم: هو يمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك، وقال الآخر مستهزئاً: أما وجد الله أحداً غيرك يرسله؟ وقال الثّالث: لا أكلّمك كلمة أبداً لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله فما ينبغي أن أكلّمك، فقام الرّسول (ﷺ) من عندهم وقد يئس منهم، فقال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عليّ، لأنّه كره أن يعلم بذلك قومه فيزيد ذلك في تجرّئهم عليه، فلم يفعلوا بل أغرّوا سفهاءهم وعبيدهم، فجعلوا يسبّونه ويصيحون به حتّى اجتمع إليه النّاس وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه، فرجع عنه سفهاء ثقيف ومن كان تبعه منهم، فعمد إلى جعلة من عنب فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء ثقيف، وقد لقي الرّسول (ﷺ) تلك المرأة فقال لها: ماذا لقينا من أحمائك؟ فلمّا اطمأن الرّسول (ﷺ) قال: اللّهم إنّي أشكو إليك ضعف قوّتي وقلة حيلتي وهواني على النّاس، فأنت رؤوف وأنت أرحم الرّاحمين، وأنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهّمني أو إلى عبد ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الّذي أشرقت له الظّلمات وصلح عليه أمر الدّنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتّى ترضى ولا حول ولا قوّة إلّا بك، فلمّا رأى إبنا ربيعة ما لقي تحرّكت له رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانيّاً يقال له: عداس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطّبق ثمّ اذهب به إلى ذلك الرّجل وقل له يأكل منه، ففعل عداس ذلك فأقبل بالطّبق حتّى وضعه بين يديه وقال له: كل، فلمّا رفع رسول الله (ﷺ) يده قال: بسم الله ثمّ أكل، فنظر عداس إلى وجهه ثمّ قال: والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة، قال له رسول الله (ﷺ): من أهل أي البلاد أنت يا عداس؟

وما دينك؟ قال: أنا نصرانيّ وأنا رجل من أهل نينوى، فقال له رسول الله (ﷺ): أمن قرية الرّجل الصّالح يونس بن متّى؟ قال له: وما يدريك ما يونس بن متّى؟ قال رسول الله (ﷺ): ذاك أخي كان نبيّاً وأنا نبيّ، فأكبّ عداس على رسول الله (ﷺ) فقبّل رأسه ويديه ورجليه، فقال أحد ابني ربيعة لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك، فلمّا جاءهما عداس قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبّل رأس هذا الرّجل ويديه وقدميه، قال: يا سيّدي ما في هذه الأرض خير من هذا الرّجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلّا نبيّ، فقالا له: ويحك يا عداس لا يصرفنّك عن دينك فإنّ دينك خير من دينه، ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) انصرف من الطّائف راجعاً إلى مكّة حين يئس من خبر ثقيف، حتّى إذا كان ببطن نخلة قام من جوف اللّيل يصلّي فمرّ به نفر من جنّ نصيبين قاصدين اليمن وذلك حين منعوا من استراق السّمع من السّماء ورموا بالشّهب فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين وقد آمنوا وأجابوا لما سمعوا القرآن فقصّ الله تعالى خبرهم عليه.

* * *

فقال جلّ وعلا: (**وإذ صرفنا**) أي واذكر إذ صرفنا أي بعثنا (**إليك نفراً من الجنّ**) فلمّا حضروا النّبيّ (ﷺ) وهو يقرأ القرآن (**قالوا**) قال بعضهم لبعض (**أنصتوا**) أسكتوا لنسمع هذا القرآن ونفهمه (**فلمّا قضي**) بضمّ القاف وكسر الضّاد لبناء المجهول، ومعناه فلمّا أنهى القراءة من قبل النّبيّ (ﷺ) (**ولّوا**) رجعوا إلى (**قومهم منذرين**) إيّاهم بالعذاب إذا لم يؤمنوا وقرئ (**فلمّا قضى**) بفتح القاف والضّاد على البناء للفاعل، أي فلمّا أنهى النّبيّ (ﷺ) القراءة (**ولّوا إلى قومهم منذرين**) مبشّرين أيضاً بالجنّة إن آمنوا، إلّا أنّه اكتفى بذكر الإنذار عن ذكر التّبشير، لأنّهما متلازمان، ولم يعكس لأنّ الإنذار والتّخويف أدعى إلى الاستجبة عادة، ثمّ بيّن الله تعالى كيفيّة إنذارهم وتبشيرهم فقال جلّ وعلا: (**وقالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى**) من بعد كتاب موسى وهو التّوراة، ولم يقل بعد عيسى لأنّهم إمّا كانوا يهوداً ولم يعتنقوا النّصرانية، وإمّا لأنّ النّصارى أيضاً يتّبعون التّوراة في الأحكام، وإنّ الأنجيل ليس فيه إلّا الأذكار والعبر (**مصدّقاً**) يصدّق هذا الكتاب الجديد (**لما**) للكتب الّتي جاءت (**بين يديه**) من قبله من العقائد ومهمّات الأحكام (**يهدي**) كلّ من سمعه ويرشد (**إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم**) فما سواه من الفرق كلّها معوجّة غير مستقيمة لا يهتدي سالكها إلى الفوز والفلاح، ثمّ بدأوا بتبشيرهم

وقالوا: **(يا قومنا أجيبوا داعي الله)** وهو الرّسول (ﷺ) **(وآمنوا به)** وهذا دليل على أنّ الرّسول مبعوث إلى الجنّ والأنس، فإن تؤمنوا بداعي الله **(يغفر)** الله تعالى **(لكم ذنوبكم)** جميع ذنوبكم الّتي قمتم بها سابقاً، لأنّ الإسلام يجبّ أي يمحو ما قبله من السّيئات للتّبعيض بل للبيان **(ويجركم)** يحفظكم **(من عذاب أليم)** مؤلم في الدّنيا والآخرة، ثمّ بدأوا بالإنذار وقالوا: **(ومن)** وكلّ من **(لا يجب داعي الله)** فلم يؤمن به **(فليس)** هو **(بمعجز)** لله تعالى ومانع له من العذاب **(في الأرض)** في الدّنيا **(وليس له من دونه)** من دون الله **(أولياء)** جمع وليّ، وهو هنا بمعنى ناصر، أي ليس له من دون الله أحد يستطيع أن ينصره من عذاب الله وينقذه منه **(أولئك)** الّذين لا يؤمنون بالرّسول (ﷺ) **(في ضلال مبين)** واضح في الدّنيا والآخرة، أي ضلّوا عن السّبيل المستقيم في الدّنيا وعن النّعيم المقيم في الآخرة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ على مجيء يوم الحساب فقال جلّ وعلا:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

(أولم يروا) كيف يستبعدون الإحياء بعد الموت ومجيء يوم القيامة **(أولم يروا)** أولم يعلموا **(أنّ الله الّذي خلق السّموات والأرض)** وقدر على ذلك **(ولم يعي)** ولم يعجز **(بخلقهن)** بإيجادهنّ، أليس هذا الخالق العظيم **(بقادر على أن يحيي الموتى)** ويقيم القيامة **(بلى إنّه على كلّ شيء قدير)** ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الكافرين يوم القيامة فقال جلّ وعلا: **(ويوم)** منصوب بفعل مقدّر يأتي ذكره **(يعرض الّذين كفروا)** يوقفون في مكان مشرف على النّار **(يقال)** لهم، وهذا هو الفعل النّاصب ليوم، أي يقال لهم يوم يعرضون على النّار ويرونها **(أليس هذا بالحقّ)** فأنكرتموه في الدّنيا وكفرتم به **(قالوا بلى)** هو الحقّ والثّابت **(وربّنا)** ونقسم بربّنا على حقيقته **(قال)** الّذي عرضهم على النّار فادخلوها **(فذوقوا العذاب بما كنتم)** بسبب كونكم في الدّنيا تكفرون بهذا العذاب

(فاصبر) يا أيّها النّبيّ وتحمّل أذاهم وتكذيبهم لك **(كما صبر أولو العزم)** أي أهل الثّبات والتّحمل **(من الرّسل)** السّابقين كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى **(وَلا تَسْتَعْجِلْ)** بالعذاب **(لهم)** فإنّ وقت عذابهم قريب ومدّتهم في الدّنيا قليلة **(كأنّهم)** لاعتبارهم مدّة الحياة في الدّنيا قليلة **(يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ)** من الحشر وعند الموت **(لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ)** هذا بلاغ **(فهل يهلك)** الاستفهام للإنكار أي فلا يهلك في ذلك اليوم **(إلّا القوم الفاسقون)** الخارجون عن عقيدة الإسلام وعن أحكامه مستنكرين إياه.

سؤال: قال تعالى: (إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ) وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ سورة النازعات الآية/ ٤٦. أي نصف نهار. وقال: ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْراً﴾ سورة طه الآية/ ١٠٣. أي عشر ساعات فكيف التّوفيق بين هذه الآيات؟

الجواب: الاختلاف بالأشخاص والأفراد فبعضهم يظنّ مدّة بقائهم في الدّنيا ساعة وبعضهم نصف نهار أمّا العشيّة أو الضّحى أي الغداة، وبعضهم عشر ساعات بقرينة قوله تعالى: ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلّا يوماً﴾ سورة طه الآية/ ١٠٤، أي في تقدير مدّة مكثهم في الدّنيا (إذ يقول أمثلهم إن لبثتم إلّا يوما) كاملاً فالأمثل يقول يوماً ومن دونه يقول عشر ساعات، ومن دونه نصف نهار ومن دونه ساعة واحدة ولا يوجد من يزيد على يوم واحد.

هذا ما وفقنا الله عليه في كتابة تفسير هذه السّورة الكريمة فسبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الفتح

(مدنيّة، آياتها تسع وعشرون، نزلت بعد سورة الجمعة سمّيت بالفتح لقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

(**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**) نقل القرطبيّ عن صحيح مسلم عن قتادة عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) أنّه حدّثهم قال: لما نزلت (إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيماً ...... إلى قوله: فوزاً عظيماً) مرجعه (أي بعد مرجع رسول الله (ﷺ) من الحديبيّة) وهم (أي الأصحاب) يخالطهم الحزن والكآبة (حيث رجعوا دون أن يعتمروا ومنعتهم قريش من الدّخول في مكّة وإكمال عمرتهم) وقد نحر الرّسول (ﷺ) الهدى بالحديبيّة فقال: لقد أنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدّنيا جميعاً[1]. فدلّ هذا الحديث على أنّ هذه السورة نزلت بعد صلح الحديبيّة فقوله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً) فالمراد بالفتح إن كان صلح الحديبيّة فهو إخبار عن ما مضى، وإنّ هذا الصّلح هو الفتح لأمور:

الأوّل: أنّ هذا الصّلح كان سبب فتح المكّة ومقدمّته.

الثّاني: أنّ المشركين كانوا لا يعترفون بقوّة المسلمين والإسلام، ولا يعدّونه شيئاً،

(١) صحيح مسلم ٣/ ١٤١٣ الحديث رقم ١٧٨٦.

وبهذا الصّلح أثبت الإسلام مكانته ووجوده، وأنّه قوّة تهابها قريش.

الثّالث: أنّه فتح أمام النّاس طريق الحريّة، فمن دخل في عهد محمّد (ﷺ) دخل، ومن دخل في عهد قريش دخل، وفتح باب لأهل مكّة وأطرافها للدّخول في الإسلام أو في عهد محمّد رسول الإسلام وقائد المسلمين، وبتعبير هذا العصر أصبح الإسلام دولة معترفاً بها حتّى من قبل ألدّ أعدائه وهم أهل مكّة، قال الزّهري: لقد كان صلح الحديبيّة أعظم فتح، لأنّ النّبيّ (ﷺ) جاء إلى الحديبيّة في ألف وأربعمائة شخص، وبهذا الصّلح انفتح باب الدّخول في الإسلام، فما مضت سنتان إلّا والمسلمون قد جاؤوا إلى مكّة في عشرة آلاف. هذا وإن كان المراد في الآية فتح مكّة فتكون الآية بشارة بفتح مكّة فيما يستقبل وعبّر عنه بالماضي لتحقيق وقوعه، فالمراد إنّا قدّرنا لك فتحاً مبيناً. والأوّل وهو أن يكون المراد بالفتح صلح الحديبيّة أصحّ لما ذكر عن عمر (رضي الله عنه) أنّه قال: (أو فتح هو) أي صلح الحديبيّة (يا رسول الله)؟ قال (ﷺ): (نعم والّذي نفسي بيده أنّه الفتح)[1].

(**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ**) أي الذّنب السّابق (**وَمَا تَأَخَّرَ**) منه وهو الذّنب فيما يستقبل.

سؤال: لقد ثبت أنّ الرّسول (ﷺ) معصوم من الذّنوب فكيف قال تعالى: ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر مثبتاً له الذّنب في الماضي والمستقبل؟

الجواب: أقول للإجابة على هذا السّؤال أجوبة كثيرة لا تخلو عن إثبات نقص لرسول الله (ﷺ) لا يليق به، والحقّ الّذي يظهر لي أنّ المعنى (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) يعصمك الله تعالى عن الوقوع في الذّنب فيما تقدّم من إنشاء القتال في الحرم الشّريف، لأنّه لولا هذا الصّلح لوقع القتال هناك، وفيما يستقبل وهو إيقاع القتال في الحرم أيضاً، فإذن صلح الحديبيّة أصبح سبباً لفتح مكّة دون قتال، وبهذا المعنى يستقيم الكلام مع قوله: (**ويتمّ نعمته عليك**) بفتح مكّة دون قتال (**ويهديك**) أي دليل رشدك ويسلك بك لفتح مكّة (**صراطاً**) طريقاً (**مستقيماً**) وهو أنّه بسبب صلح الحديبيّة كثر عدد المسلمين إلى حدّ أنّه لم يكن في وسع أهل مكّة مقاومتهم ومقاتلتهم فدخلها الرّسول (ﷺ) والمؤمنون وفتحوها دون قتال (**وينصرك الله**) ويؤيّدك فتغلب على

---

(١) مسند أبي عوانة ٤/ ٢٩٦ الحديث رقم ٦٨٠١.

أهل مكّة (**نصراً**) تأييداً (**عزيزاً**) منيعاً لا يستطيع أحد أن يقوم أو يدافع أو يقاتل منهم، وقد حصل الأمر كذلك فيما بعد، وفتحت مكّة بدون قتال، وهنا يجدر بنا أن نتذكر قصّة الحديبيّة وصلحها لتكون على معنى الآيات السّابقة واللّاحقة على بصيرة.

* * *

أصل القصّة: قال ابن هشام في السّيرة: خرج رسول الله (ﷺ) في ذي القعدة معتمراً لا يريد حرباً واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يعرضوا له بحرب أو يصدّوه عن البيت، فأبطأ عنه كثير من الأعراب وخرج رسول الله (ﷺ) بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب وساق معه الهدي، والهدي حيوان يساق ليذبح في الحرم ويتصدّق بلحمه من قبل الحاج أو المعتمر، وأحرم بالعمرة ليأمن النّاس من حربه وليعلموا أنّه إنّما خرج زائراً لهذا البيت ومعظّماً له، وكان من معه ألف وأربعمائة رجل، فمشى حتّى إذا نزل بعسفان، وهو موضع بينه وبين مكّة مرحلتان، لقيه بشر بن سفيان الكعبي: فقال يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بمسيرك فخرجوا معهم العوذ المطافيل، والعوذ جمع عائذ وهي الإبل الحديثة النّتاج، والمطافيل الّتي معها أولادها، أراد بذلك خرج ومعه النّساء والصّبيان، وقد لبسوا جلود النّمر، وقد نزلوا بذي طوى يعاهدون الله تعالى لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم، فقال رسول الله (ﷺ): ياويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الّذي أرادوا، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوّة، فما تظنّ قريش فوالله لا أزال أجاهد على الّذي بعثني الله به حتّى يظهره الله أو تنفرد هذه السّالفة، ثمّ قال: من رجل يخرج بنا عن طريقهم؟ فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقا وعراً بين شعاب، فلمّا خرجوا منه وأفضوا إلى أرض عند منقطع الوادي قال رسول الله (ﷺ) للنّاس: قولوا نستغفر الله ونتوب إليه، فقالوا: ذلك، فقال الرّسول (ﷺ) والله إنّها للحطّة الّتي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها، فأمر رسول الله (ﷺ) النّاس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش في طريق تخرجه على ثنية المرار مهبط الحديبيّة من أسفل مكّة، فسلك الجيش ذلك الطّريق فلمّا رأت خيل قريش سواد الجيش وغباره وقد خالفوا طريقهم رجعوا راكضين إلى قريش، وخرج رسول الله (ﷺ) حتّى إذا سلك في ثنية المرار بركت ناقته، فقال النّاس: خلأت الناقة، قال ما

خلأت وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل عن مكّة، لا تدعوني قريش اليوم إلى خطّة يسألونني فيها صلة الرّحم إلّا أعطيتهم إيّاها، ثمّ قال للنّاس: إنزلوا، قيل له: يا رسول الله ما بالوادي من ماء ننزل عليه، فأخرج سهماً من كنانته فأعطاه رجلاً من أصحابه فنزل به في قليب من تلك القلب فغرزه في جوفه فجاش بالرّواء حتّى ضرب النّاس عنه بعطن، فلمّا استقرّ رسول الله أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فكلّموه وسألوه ما الّذي جاء به؟ فأخبرهم: أنّه لم يأت يريد حرباً وإنّما جاء زائراً للبيت ومعظّما لحرمته، فرجعوا إلى قريش فقالوا: يا معشر قريش إنّكم تعجّلون على محمّد وإنّ محمّداً لم يأت لقتال وإنّما جاء زائراً هذا البيت ومعظّماً لحرمته، فاتّهموهم وجبنوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبداً ولا تختلف بذلك عنّا العرب. ثمّ بعث قريش إلى رسول الله (ﷺ) مكرز بن حفص بن الأحنف، فلمّا رآه رسول الله (ﷺ) مقبلاً قال: هذا رجل غادر، فلمّا انتهى إلى رسول الله (ﷺ) وكلّمه قال له رسول الله (ﷺ) مثل ما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله (ﷺ)، ثمّ بعثوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيّد الأحبيش، فلمّا رآه رسول الله (ﷺ) قال: إنّ هذا من قوم يتألّهون، فابعثوا الهدي في وجهه حتّى يراه، فلمّا رأى الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله (ﷺ) إعظاماً لما رأى فقال لقريش ما رأى، فقالوا له: إجلس فإنّما أنت أعرابي لا علم لك، فغضب حليس وقال يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أيصدّ عن بيت الله من جاء معظّما له، والّذي نفس الحليس بيده لتخلّن بين محمّد وبين ما جاء له أو لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مه كفّ عنّا ياحليس حتّى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به، ثمّ بعثوا إلى رسول الله (ﷺ) عروة بن مسعود الثّقفي فخرج حتّى أتى رسول الله (ﷺ) فجلس بين يديه ثمّ قال: يا محمّد أجمعت أوباش النّاس ثمّ جئت بهم إلى بيضتك لتقصّها بهم، إنّها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل قد لبسوا جلود النّمور يعاهدون الله تعالى لا تدخلها عليها عنوة أبداً، فأجابه رسول الله (ﷺ) بنحو ممّا كلّم به أصحابه وأخبره أنّه لم يأت يريد حرباً، فقام من عند رسول الله (ﷺ) وقد رأى ما يصنع به أصحابه لا يتوضّأ إلّا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلّا ابتدروه ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه، فرجع إلى قريش فقال: يا معشر قريش إنّي قد جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنّجاشي في ملكه، وإنّي والله

ما رأيت ملكاً في قوم قطّ مثل محمّد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلّمونه لشيء أبدا فروا رأيكم، ثمّ إنّ رسول الله (ﷺ) دعا خراش بن أميّة الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكّة وحمله على بعير له يقال له: الثّعلب ليبلّغهم ما جاء له الرّسول (ﷺ)، فعقروا به جمل رسول الله (ﷺ) وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش فخلّوا سبيله حتّى أتى رسول الله (ﷺ) وأخبره الخبر. وعن ابن عبّاس أنّ قريشاً كانوا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين رجلاً، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله (ﷺ) ليصيبوا لهم أحداً من أصحابه، فقبض المسلمون عليهم فأتي بهم رسول الله (ﷺ) فعفا عنهم وخلّى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله (ﷺ) بالحجارة والنّبل.

إعتذار عمر رضي الله عنه عن بعثه إلى قريش وإرسال عثمان:

ثمّ دعا عمر بن الخطّاب ليبعثه إلى مكّة فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال: يا رسول الله إنّي أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكّة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إيّاها وغلظتي عليها، ولكنّي أدلّك على رجل أعزّ بها منّي عثمان بن عفان. فدعا رسول الله (ﷺ) عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأت لحرب وإنّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت ومعظّما لحرمته.

إشاعة مقتل عثمان: قال ابن اسحاق: فخرج عثمان إلى مكّة فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكّة أو قبل أن يدخلها، فحمله بين يديه ثمّ أجاره حتّى بلّغ رسالة رسول الله (ﷺ)، فانطلق عثمان حتّى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلّغهم عن رسول الله (ﷺ) ما أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله (ﷺ) إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول الله (ﷺ) واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله (ﷺ) والمسلمين أنّ عثمان بن عفان قد قتل، وإنّ رسول الله (ﷺ) قال حين بلغه أنّ عثمان قد قتل: لا نبرح حتّى نناجز القوم، فدعا رسول الله (ﷺ) النّاس إلى البيعة فكانت بيعة الرّضوان تحت الشّجرة، فبايع النّاس رسول الله (ﷺ) أن لا يفرّوا ويقاتلوا حتّى النّصر أو الموت، ولم يتخلّف عن هذه البيعة أحد من المسلمين الحاضرين إلّا الجدّ بن قيس أخو بني سلمة، فكان جابر بن عبدالله يقول: والله لكأني انظر إليه لاصقاً بإبط ناقته قد ضبا إليها يستتر بها من النّاس، ثمّ أتى الخبر إلى رسول الله (ﷺ) أنّ خبر مقتل عثمان باطل، ثمّ بعثت قريش سهيل

ابن عمرو إلى رسول الله (ﷺ) وقالوا له: ائت محمّدا فصالحه ولا يكن في صلحه إلّا أن يرجع عنّا عامه هذا، فوالله لا تحدّث العرب عنّا أنّه دخلها عنوة أبداً، فأتاه سهيل ابن عمرو فلمّا رآه رسول الله (ﷺ) مقبلاً قال: قد أراد القوم الصّلح حين بعثوا هذا الرّجل. فلمّا انتهى سهيل إلى رسول الله (ﷺ) تكلّم فأطال الكلام وتراجعا ثمّ جرى بينهما الصّلح.

عمر يستنكر الصّلح ويتوب بعد ذلك:

فلمّا التأم الأمر ولم يبق إلّا الكتاب وثب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه فأتى أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا أبا بكر أليس هو برسول الله؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدّنيّة في ديننا؟ قال أبو بكر رضي الله عنه: يا عمر إلزم أمره فإنّي أشهد أنّه رسول الله، قال عمر رضي الله عنه: وأنا أشهد أنّه رسول الله، ثمّ أتى رسول الله (ﷺ) فقال: يا رسول الله ألست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدّنيّة في ديننا؟ قال: أنا عبدالله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيّعني. فكان عمر رضي الله عنه يقول: ما زلت أتصدّق وأصوم وأصلّي وأعتق من الّذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الّذي تكلّمت به حتّى رجوت أن يكون خيراً.

المفاوضة على شروط الصّلح:

ثمّ دعا رسول الله (ﷺ) عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال له: اكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم، فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللّهم، فقال رسول الله (ﷺ) اكتب باسمك اللّهم فكتبها، ثمّ قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله سهيل بن عمرو، فقال سهيل: لو شهدت أنّك رسول الله لم أقاتلك ولكن اكتب اسمك واسم أبيك. فقال رسول (ﷺ) اكتب هذا ما صالح عليه محمّد بن عبدالله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن النّاس عشر سنين، يأمن فيهنّ النّاس ويكف بعضهم عن بعض على أنّه من أتى محمّداً من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم ومن جاء قريشاً ممّن مع محمّد لم يردّوه عليه، وإنّ بيننا عيبة مكفوفة وأنّه لا إسلال ولا إغلال، وأنّه من أحبّ أن يدخل في عقد محمّد وعهده دخل فيه ومن أحبّ أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثب بنو خزاعة فقالوا نحن في عقد محمّد

وعهده، وتواثب بنو بكر وقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم، وإنّك يا محمّد ترجع عنّا هذا العام، فلا تدخل علينا مكّة وإنّه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً معك سلاح الرّاكب السّيوف في القراب لا تدخلها بغيرها.

أمر أبي جندل بن سهيل: فبينما رسول الله (ﷺ) يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله (ﷺ) فلمّا رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتلبيبه ثمّ قال: يا محمّد قد لجّت القضيّة بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال: صدقت، فجعل ينتره بتلبيبه ويجرّه ليردّه إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأردّ إلى المشركين يفتنوني في ديني، فزاد ذلك المسلمين ما بهم من الحزن لما رأوا أنّ هذا تنازل فظيع للمشركين، فقال رسول الله (ﷺ): يا أبا جندل اصبر واحتسب فإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، وإنّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله تعالى وإنّا لا نغدر بهم، فلمّا فرغ رسول الله (ﷺ) تقدّم إلى هديه فنحره ثمّ جلس وحلق رأسه وتبعه النّاس فنحروا هديهم وحلقوا رؤوسهم وقصّر بعضهم، ولمّا رأى المسلمون ما رأوا من الصّلح والرّجوع عن العمرة دخل على النّاس أمر عظيم حتّى كادوا يهلكون، ثمّ انصرف رسول اللّه (ﷺ) من وجهه قافلاً إلى المدينة حتّى إذا كان بين مكّة والمدينة نزلت هذه الآيات: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً .... الى: نَصْراً عَزِيزاً) فلمّا سمع المسلمون هذه الآيات وقال لهم الرّسول (ﷺ) من قبل أنّ هذا هو الفتح وإنّ الله تعالى أمره بهذا الصّلح زال ما تحمّلوا من الحزن والكراهيّة لهذا الصّلح الّذي كان فيه تنازل فظيع حسب الظّاهر واطمأنّت قلوبهم لمّا فعل رسول الله (ﷺ) وآمنوا بأنّ ذلك الصّلح خير وحقّ.

* * *

وهذا معنى قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

(هو) أي الله (**الّذي أنزل السّكينة**) الطّمأنينة والاستقرار والرّضا بما فعل رسول الله

(ﷺ) فأنزل كلّ ذلك (**في قلب المؤمنين**) فثبت قلوبهم وانقادت لفعل رسول الله (ﷺ)، وقد انقادت قلوبهم ورضيت بذلك بمجرّد أن قال رسول الله (ﷺ) إنّ هذا فتح وإنّ هذا أمر الله تعالى به (**ليزدادوا إيماناً**) اللّام للعاقبة فالمعنى أنّ العاقبة كانت أنّه ازداد إيمانهم بأنّ هذا الصّلح كان خيراً وفتحاً، حيث رأوا بعد الصّلح منافع كثيرة وازدياد قوّة يوماً فيوماً إلى أن فتحوا مكّة نتيجة هذا الصّلح، فازداد هذا الإيمان بخيريّة الصّلح وأنّه من الله وانضمّ (**مع إيمانهم**) السّابق الّذي حصل لهم بمجرد أنّ هذا هو الفتح (**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) كلّها فكان بوسعه أن يفتح مكّة وغيرها من البلاد ويجعلها تحت راية الإسلام إلّا أنّه لم يفعل ذلك دون أن يرى المؤمنون تعباً ومشقّة وجهداً في ذلك حيث (**وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً**) بأحوال النّاس كلّهم وبعلمه هذا علم حكمة عظيمة في فتح البلاد بالجهاد وما يلاقي المؤمنين في ذلك، ولهذه الحكمة فعل ذلك لأنّه كان ولا يزال (**حكيماً**) لا يفعل إلّا وفق الحكمة الّتي يراها ويعلمها وحده ولعلّ هذه الحكمة هي ما بينه في قوله جلّ وعلا:

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

(**ليدخل**) أي فتح الله تعالى هذا الفتح وقدر هذا الصّلح المؤدّي إلى فتح مكّة وغيره (**لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**) بسبب إيمانهم ورضائهم بما فعل الرّسولﷺ وأثبتوا بسبب هذا الإيمان العميق (**جنّات**) بساتين يوم القيامة (**تجري من تحتها**) من تحت أشجارها (**الأنهار**) لسقيها أو تجري أنّهار من الماء واللّبن والحليب والعسل المصفّى ليغتنم بها المؤمنون والمؤمنات (**خالدين فيها**) لا يخرجون ولا يخرجون منها (**ويكفر**) الله تعالى (**عنهم سيّئاتهم**) ذنوبهم (**وكان ذلك**) الجزاء الحاصل (**عند الله**) تعالى (**فوزاً**) نيلاً للمحبوب وحفظاً عن المكاره (**عظيماً**) ذلك الفوز جدّاً (**ويعذّب**) الله تعالى (**المنافقين والمنافقات**) والمنافق من يظهر الإيمان ويبطن الكفر والعداء لأهل

الإيمان (**وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ**) أي ظنّاً سيّئاً، فكان ظنّ المشركين أنّ الرّسول لا ينتصر عليهم أبداً، وكان ظنّ المنافقين أنّ الرّسول وأصحابه لا يرجعون من الحديبيّة إلى أهلهم بل يستأصلهم أهل مكّة ويبيدونهم جميعاً (**عليهم**) تتحوّل عليهم (**دَائِرَةُ السَّوْءِ**) والدّائرة بمعنى الحادثة والسّوء بمعنى السيّئ، فالمعنى تنزل عليهم الحادثة السّيئة، وهذا ما أخبرهم الله تعالى بأنّه سيدور بهم دائرة سيّئة أو دعاء، وعلى كلا التّقديرين حصل المضمون وأصابهم الذّل في الدّنيا والعذاب في الآخرة إلّا من آمن وصدّق في إيمانه منهم (**وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ**) الغضب هو ثوران الدّم حينما يريد المرء الانتقام، وإذا أسند إلى الله تعالى فالمراد به الانتقام فقط، فالمعنى ينتقم الله منهم وذكر بلفظ الماضي لتحقيق الوقوع (**وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ**) وهيأ لهم (**جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ**) جهنم (**مَصِيراً**) مثوىً ومنزلاً يرجع إليه المنافقون والمشركون. وبعد أن ذكر الله تعالى أنّه يكرم المؤمنين والمؤمنات بإدخالهم الجنّة وتكفير سيّئاتهم ويعذّب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات في الدّنيا والآخرة أراد تعالى أن يذكر أنّه يقتدر على تنفيذ ما وعد للمؤمنين وإيقاع ما أنذر به الكافرين فقال: (**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) فبهم يستطيع أن يكرم المؤمنين في الدّنيا بالنّصر وفي الآخرة بالأجر ويعذّب الكافرين في الدّنيا بالذّل وفي الآخرة بالنّار (**وكان الله**) من الأزل ولا يزال (**عزيزاً**) غالباً إرادته فوق كلّ الإرادات لا يمنعه من تنفيذ ما أراده شيء (**حكيماً**) ذو حكمة لا يعمل عملاً إلّا وفيه الحكمة والإتقان.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر سبب ما سبق من تكريمه المؤمنين وتعذيبه الكافرين وسبب ما ياتي من أنّ الّذين يبايعون محمّداً (ﷺ) فإنّما يبايعون الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

(**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ**) يامحمّد (**شَاهِداً**) على وجود الله تعالى ووحدته وحقيّة نظامه وشريعته (**وَمُبَشِّراً**) من يؤمن به ويوحده ويطبّق شريعته بسعادة الدّنيا والدّين (**وَنَذِيراً**) ومخوفاً من يكفر أو يشرك به أو يعرض عن شريعته بالعذاب في الدّارين، ثمّ بين الله تعالى فائدة إرساله وما يجب أن يكون موقف النّاس تجاهه فقال جلّ وعلا: (**لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ**) من أنّ الله موجود ولا شريك له وأنّه يستحق العبادة وحده (**وَرَسُولِهِ**) أي لتؤمنوا

برسله لأنّ عبادة الله تعالى من إطاعة أوامره والإجتناب عن ما نهى عنه وكيفيّة شريعته ونظامه لا يعلم ولا يعرف إلّا بواسطة الرّسول فمن لم يؤمن بالرّسول فمن أين يعرف شريعة الله تعالى ليطّبقها **(وَتُعَزِّرُوهُ)** وتعظّموه **(وَتُوَقِّرُوهُ)** وتسوّدوه **(وَتُسَبِّحُوهُ)** وتنزّهوه عن كلّ نقص وعيب **(بُكْرَةً)** في الصّباح **(وَأَصِيلاً)** في المساء والصّباح طرف اللّيل والنّهار وذكر طرفي الشيء كناية عن الشيء كلّه أي تفعلون ذلك دائماً، والضّمائر في تعزيره وتوقيره راجعة إلى الله تعالى أو في الأوّلين راجع إلى الرّسول وفي تسبّحوه إلى الله تعالى، فمحمّد الّذي أرسلناه من قبل بهذا الوصف حقيق أن يكرم المؤمن به ويهان المكذّب به، وكذلك تكون البيعة معه بيعة مع الله تعالى، ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ) بالحديبيّة وغيرها على الإسلام والجهاد وفي سبيل نشره وإعلائه، وذكر بالمضارع إشارة إلى أنّ مبايعة الرّسول مستمرّة أمد الدّهر فكلّ من اعتنق الإسلام فقد بايع الرّسول (ﷺ) على أن يجاهد من عادى دينه إن صدق في إسلامه، وكلّ هؤلاء الّذين يبايعون الرّسول (ﷺ) **(إنّما يبايعون الله)** تعالى فإنّ الرّسول (ﷺ) خليفته في أرضه لنشر دينه وشريعته ودعوة النّاس إلى عبادته وطاعته، فبيعته لله لا لنفسه، وحيث إنّ العادة أنّه حينما تؤخذ البيعة يضع من يأخذ البيعة يده فوق يد المبايع وقد بايع الرّسول (ﷺ) الأصحاب كذلك، فلذلك قال تعالى: **(يد الله فوق أيديهم)** وهذا من التّشبيه البليغ مثل ما يقال عندك أسد أي عندك رجل كالأسد، فالمعنى أنّ يد الرّسول كيد الله في أخذ البيعة، لأنّ البيعة لله تعالى، وكأنّها يد الله تعالى فوق أيديهم حين البيعة **(فمن نكث)** أي نقض المبايعة والعهد مع الله بعد انعقادها **(فإنّما ينكث)** ينقض **(على نفسه)** أي يلحق الضّرر بنفسه فقط، فإنّه يحرم لنفسه بالنقض من نصر المسلمين الّذي وعدهم الله تعالى في الدّنيا وثواب الله الّذي أعدّه الله لهم بالجنّة يوم القيامة **(ومن أوفى)** قام واستقام وعمل **(بما عاهد عليه الله)** تعالى وضمير عليه يقرأ بالضّم كناية عن رسوخ وثبوته على العمل بالعهد لأنّ الضّم علامة العزم في الأفعال، وقرئ بالكسر أيضاً على الأصل **(فسيؤتيه)** بالياء وقرئ بالنّون أيضاً، فعلى الأوّل ضمير يؤتيه يعود على الله تعالى وعلى الثّاني التفات من الغيبة إلى التّكلّم والكلّ بليغ **(أجراً)** ثواباً **(عظيماً)** لا يدرك كنهه إلّا من وصله.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أهل بيعة الرّضوان ومدحهم وبشّرهم بثواب عظيم، أراد أن يلوم الّذين تخلّفوا عن رسول الله (ﷺ) من الأعراب الّذين استنفرهم الرّسول حينما ذهب للعمرة فلم يلحقوا به فقال تعالى:

﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢) وَمَن لَّمْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٤)﴾

(**سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ الأَعْرَابِ**) وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأسلم وأشجع والدّيل. فكانوا حول المدينة فتخلّفوا عن رسول الله (ﷺ) حينما ذهب إلى العمرة واستنفرهم فلم يلحقوا به خوفاً من قريش، فهم سيأتون ويقولون للإعتذارعن التّخلف عنك (**شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا**) عن اللّحوق بك (**فَاسْتَغْفِرْ لَنَا**) عن هذا الذّنب والتّخلف وكانوا (**يقولون**) هذا القول (**بألسنتهم**) فقط، حيث إنّ هذا القول كان (**ما ليس في قلوبهم**) حيث كانوا منافقين وماكانوا مؤمنين بالرّسول (ﷺ) قلباً وما كانوا يريدون استغفاره حقيقة، فأمر الله تعالى أن لا يستغفر لهم فقال: (**قل**) يا أيّها النّبيّ بدل الاستغفار لهم إنّكم اعتقدتم أنّه لو لحقتم بنا لأصاب أهلكم وأموالكم الضّرر، ولذلك شغلتكم أي منعتكم الأموال والأهلون عن الإلتحاق بنا، كما تدّعون وهذا الإعتقاد باطل حيث (**فمن يملك**) فمن يستطيع أن يعمل (**لكم من الله**) أن يدفع من قدر الله تعالى (**شيئاً**) ولو قليلاً جدّاً (**إن أراد**) تعالى (**ضرّاً أو أراد بكم نفعاً**) فبقاؤكم عند أهلكم وأموالكم ليس ممّا يدفع الضّر إن كان الله تعالى أراده، ولا ممّا يجلب نفعاً إن لم يردّه الله تعالى، ثمّ أراد الله تعالى أن يكذّبهم في قولهم أنّهم تخلّفوا لأجل حماية أموالهم وأهليهم ورعايتهم فقال (**بل**) ليس الأمر كما تقولون حيث (**كان الله**) تعالى (**بما

تعملون) من التّخلف وسببه **(خبيراً)** ثمّ بيّن سبب التّخلف، ونصّ عليه بقوله **(بل)** لم تخلّفوا لأجل الأهل والأموال ولكن **(ظننتم أن لن ينقلب)** أن الشّأن هو أنّه لن ينقلب أي لن يرجع الرّسول **(المؤمنون إلى أهليهم)** والمدينة **(أبداً)** لأنّ أهل مكّة يبدّدونهم جميعاً ولا يرجع منهم أحد **(وزيّن)** الشّيطان والمنافقون الآخرون **(ذلك)** عدم رجوعهم في قلوبهم **(ظننتم ظنّ السّوء)** ظنّاً سيّئاً حيث قلتم إنّ الله لا ينصر هؤلاء **(وكنتم)** بسبب هذا الظنّ **(قوماً بوراً)** جمع بائر أي ما سدّ به قوماً فاسدين، ثمّ أنذرهم الله تعالى على عملهم هذا وعلى عقيدتهم فقال جلّ وعلا: **(وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ)** حقّ الإيمان وهو التّوحيد **(وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا)** هيّأنا **(لِلْكَافِرِينَ)** لهم **(سَعِيراً)** وإنّما قال للكافرين دون لهم للإشارة إلى أنّ سبب عذابهم الكفر، فإذا آمنوا صدقاً فيغفر الله تعالى لهم، ولذلك قال: **(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ)** كلّها تصرّفاً وسيطرة وإستيلاء **(وَالأَرْضِ)** كذلك وبهذه المالكيّة والملكيّة وبهذه القدرة **(يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ)** وهو آمن وتاب **(وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ)** وهو من مات كافراً أو عاصياً ولم يؤمن ولم يتب، ثمّ أكّد بالمغفرة إن آمنوا صدقاً وتابوا، فقال: **(وَكَانَ اللَّهُ)** ولم يزل **(غفوراً)** كثير المغفرة **(رَحِيماً)** يغفر لمجرّد أنّه رحيم يرحم من يغفر له لا لباعث آخر يدفعه إلى ذلك، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يخبر عن حالة أخرى تأتي على المخلّفين وفي طيّ ذلك بشّر المؤمنين بأنّهم سيفتحون قريباً بلدة أخرى بدل مكّة ويأخذون هناك مغانم كثيرة، وأنّه لا يجوز أن يعطى شيء من تلك الغنائم لهؤلاء المخلّفين ولا أن يسمح لهؤلاء في الذّهاب معهم إلى قتال تلك البلدة، فقال تعالى إلّا بشرط عدم أخذ الغنيمة:

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

(سيقول المخلّفون) هؤلاء بعد قليل وذلك **(إذا انطلقتم)** تحرّكتم وخرجتم إلى فتح بلدة **(وإلى مغانم)** كثيرة في تلك البلدة **(لتأخذوها)** بعد الفتح، وكان المخلّفون يعلمون أنّ المؤمنين ينتصرون على هذه البلدة بقرائن كثيرة، فلذلك كانوا يقولون للمؤمنين **(ذرونا)** أي اتركونا واسمحوا لنا **(نتّبعكم)** في هذا القتال، ولم يكن قصدهم الجهاد والقتال بل كانوا **(يريدون أن يبدّلوا كلام الله)** أي وعده للمؤمنين بأن تكون هذه

المغانم لهم خاصّة ممّن حضروا الحديبية **(قل)** يا أيّها النّبيّ لهم **(لن تتّبعونا)** خبر بمعنى النّهي أي لن تتّبعوننا إلّا بشرط أن يكون لكم سهم في الغنيمة **(كذلكم)** مثل ما قلت لكم **(قال الله)** تعالى حيث جعل غنائم هذه البلدة لأهل الحديبيّة خاصّة **(قالوا)** أي المخلّفون لم يقل الله ذلك **(بل تحسدوننا)** ولذلك لا تشركوننا في تلك الغنائم، فردّ الله تعالى عليهم، فقال ليس هذا حسداً من المؤمنين **(بل)** إنّهم **(لا يفقهون)** من الأمور **(إلّا قليلاً)** منها، وهي بعض أمور الدّنيا وأمّا أمور الآخرة فلا فهم لهم بها.

ثمّ قال الله تعالى لرسوله أن يقول إن صدقتم أنّكم تريدون الجهاد معنا فستدعون بعد هذه المعركة إلى القتال، فأطيعوا في ذلك الوقت فقال جلّ وعلا:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ **(لِلْمُخَلَّفِينَ مِنْ الأعْرَابِ)** إن صدقتم أنّكم تحبّون القتال والجهاد في سبيل الله تعالى فإنّكم **(سَتُدْعَوْنَ)** بعد هذه المعركة **(إِلَى)** قتال **(قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ)** جنس يشمل القليل والكثير، وقد دعوا بعد ذلك إلى قتال أقوام، فقد دعوا بعد ذلك إلى قتال الرّوم في مؤتة وإلى فتح مكّة وإلى قتال ثقيف وهوازن **(تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ)** فقد قاتلوا الرّوم في مؤتة، لمّا أسلم أهل مكّة، وقاتلوا أهل ثقيف وهوازن، فإن صدقتم أنّكم تحبّون القتال فأطيعوا حينما تدعون في ذلك الوقت **(فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمْ اللَّهُ)** تعالى **(أَجْراً حَسَناً)** جدّاً **(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا)** تعرضوا عن القتال في ذلك اليوم **(كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ)** حينما دعيتم إلى مكّة للعمرة **(يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً)** مؤلماً جدّا.

وبهذه الآية أصبح الجهاد فرضاً على كلّ أحد إلّا ما استثناه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قال القرطبيّ: قال ابن عبّاس: لما نزلت **(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ**

عَذَاباً أَلِيماً) قال أهل الزّمانة: فكيف بنا يارسول الله (ﷺ) فنزلت (**لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ**) أي إثم في عدم حضور الجهاد (**وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ**) الّذي لا يستطيع الجهاد (**حَرَجٌ**) إثم في عدم الجهاد (**وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ**) بامتثال أمره بالحضور للقتال، وحيث أنّ أمر الله تعالى لا يعلم إلّا من الرّسول قال: (**وَرَسُولَهُ**) فإطاعة الله في إطاعة الرّسول لأنّه هو المبلّغ عن الله تعالى أوامره (**يُدْخِلْهُ**) يوم القيامة (**جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ**) يعرض عن أمر الله تعالى لم يشترك في القتال (**يُعَذِّبْهُ**) الله تعالى (**عَذَاباً أَلِيماً**) مؤلماً جدّا، هذا والآية وردت في الجهاد إلّا أنّها عامّ في كلّ شيء، ففي أمر من يطع الرّسول فله الجنّة ومن حاد عن أمره وخرج عن حكمه يعذّبه الله تعالى عذاباً أليماً.

تنبيهان:

الأوّل: المخلّفون هم الّذين تخلّفوا عن الرّسول (ﷺ) ولم يذهبوا إلى مكّة للعمرة بعدما استنفرهم الرّسول (ﷺ)، فكان الظّاهر أن يقول: المتخلّفين أو المخلِّفين بكسر اللّام من خلَفَ بمعنى إلّا أنّهم سمّوا المخلّفين لأنّهم تخلّفوا فخلّفهم الله تعالى أو خلّفهم الرّسول أو خلّفهم عقيدتهم ونفاقهم.

الثّاني: أنّ في هذه الآيات معجزتان:

الأولى: أنّه (سيقول لك المخلّفون شغلتنا... الخ) وقد وقع كذلك فإنّه بعد ما رجع رسول الله (ﷺ) من الحديبيّة أتوا إليه واعتذروا وقالوا شغلتنا ... الخ وهذا إخبار عن المستقبل كما وقع فيكون معجزة.

الثّانية: أنّه قال: (سيقول لك المخلّفون إذا انطلقتم) ووقع كذلك فإنّه حينما تجهّز الرّسول (ﷺ) للذّهاب إلى خيبر علم المخلّفون أنّ هذه المعركة فيها مغانم كثيرة، فأتوا رسول الله (ﷺ) وقالوا: (ذرونا نتّبعكم...) وهذا أيضاً إخبار عن المستقبل كما وقع فيكون معجزة.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى الّذين يبايعون الرّسول عامّة وبيّن ثوابهم وأجرهم أراد أن يذكر الّذين بايعوه في الحديبيّة خاصّة ووعدهم ثواب الدّنيا والآخرة فقال جلّ وعلا:

﴿۞لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

(**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ**) لام قد جواب قسم محذوف، تقديره وبعزّتي لقد رضي الله تعالى (**عَنْ الْمُؤْمِنِينَ**) حيث ولأنّه (**إِذْ يُبَايِعُونَكَ**) في الحديبيّة (**تَحْتَ الشَّجَرَةِ**) بيعة الفداء والنّضال في سبيل القتال في سبيل الله تعالى حتّى النّصر أو الموت (**فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ**) في الصّدق والإخلاص لدين الله ورسوله وبسبب ذلك (**فَأَنْزَلَ**) الله تعالى (**السَّكِينَةَ**) الطّمأنينة والثّبات والرّضا بما يفعله الرّسول (**عَلَيْهِمْ**) على قلوبهم (**وَأَثَابَهُمْ**) أي جزاهم بسبب هذه البيعة ثمّ الرّضا بصلح رسول الله (ﷺ) (**فَتْحاً**) لبلدة أخرى (**قَرِيباً**) أجره ووقته وهو فتح خيبر (**وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً**) أي أثابهم وفي قراءة أتاهم بدل فتح مكّة ورجوعهم عنها مغانم كثيرة من أهل خيبر (**يَأْخُذُونَهَا**) بعدما انتصروا عليهم (**وَكَانَ اللَّهُ**) تعالى (**عَزِيزاً**) غالباً ينفّذ إرادته فيما أراد لا يمنعه في ذلك كلّ الإرادات (**حَكِيماً**) ولا يريد شيئاً إلّا وفيه حكمة عظيمة، ثمّ خاطبهم خطاب لطف وتكريم فقال: (**وَعَدَكُمْ اللَّهُ**) تعالى أن يؤتيكم (**مَغَانِمَ كَثِيرَةً**) غير ما في خيبر (**تَأْخُذُونَهَا**) فيما يستقبل، وهذا وعد لهم بالنّصر وفتح بلاد أخرى ونصب راية الإسلام فيها (**فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ**) أي وهبكم مغانم خيبر هذه على العجل (**وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ**) وهم الّذين كانوا يريدون أن ينصروا أهل خيبر، فألقى الله تعالى في قلوبهم الرّعب فانصرفوا عن إرادتهم هذه (**وَلِتَكُونَ**) هذا الفتح وهذه الغنائم وكفّ النّاس عن نصرة خيبر (**آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**) على أنّ الله تعالى ينصرهم (**وَيَهْدِيَكُمْ**) ويثبّتكم بتلك الآيات (**صِرَاطاً مُسْتَقِيماً**) على الإسلام الّذي هو الصّراط المستقيم لا غيره (**وَأُخْرَى**) ويثيبكم مغانم أخرى حاولتم أخذها ولكن (**لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا**) ما استطعتم أن تأخذوها، والمراد بهذه الغنائم الّتي حاولوها هي فتح مكّة فلم يستطيعوا، لأنّ الله تعالى حفظها عنهم كما قال جلّ وعلا: (**قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا**) فلم تستطيعوا أن تفتحوها، بل ساقكم إلى الصّلح وستفتحونها وتأخذون مغانم بعدها

من هوازن وثقيف **(وَكَانَ اللَّهُ)** تعالى ولم يزل ولا يزال **(عَلَى كُلِّ شَيْءٍ)** من منعكم عن فتح مكّة أو بالحرب، ففتحها لكم بعد بدون حرب **(قَدِيراً)** لا يعجز عن ذلك، ثمّ أشار الله تعالى إلى أنّه لو لم يحفظ الله مكّة وأهلها بإلهام الصّلح في قلب الرّسول الله (ﷺ) لانهزم المشركون ولانتصر المسلمون، ولكنّ الله تعالى أراد غير ذلك لكي لا يعبث الفساد من الحرب في مكّة.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر أن صلح المسلمين في الحديبيّة لم يكن لضعف المسلمين بل لأمر آخر أراده الله تعالى، ويذكر فيما بعد القتال فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

(وَلَوْ قَاتَلَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا) من أهل مكّة أيّها المؤمنون **(لَوَلَّوْا الأَدْبَارَ)** أي لانهزموا **(ثُمَّ)** بعد الإنهزام **(لا يَجِدُونَ وَلِيّاً)** يواليهم **(وَلا نَصِيراً)** ينصرهم**(سُنَّةَ اللَّهِ)** أي كان هذا الأمر من هزيمة الكفرين سنّة الله أي عادة الله تعالى **(الَّتِي)** جرت **(قَدْ خَلَتْ)** مضت **(مِنْ قَبْلُ)** من نصره لأوليائه على أعدائه **(وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ)** طريقته وعادته **(تَبْدِيلاً)** فهذه السنّة جارية إلى يوم القيامة، فالحروب الّتي تقع بين المسلمين والكافرين ولا يكون النّصر للمسلمين ليس إلّا لأنّهم ليسوا مسلمين صادقين، ولا يحاربون لنصرة دين الله تعالى فحسب، بل لأغراض أخرى، أو يحاربون باسماء أخرى نراها اليوم غير دين الله.

ثمّ صرح الله تعالى بأنّه لماذا لم تقع القتال بينهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

(وَهُوَ) أي الله تعالى **(الَّذِي كَفَّ)** منع **(أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ)** فلم ينشئوا القتال معكم **(وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ)** فما أنشأتم القتال **(بِبَطْنِ مَكَّةَ)** أي بأسفل من مكّة وهي الحديبيّة فمنعكم من القتال **(مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ)** أي أقدركم **(عَلَيْهِمْ)** وعلى قتالهم لكثرة عددكم وقوّتكم **(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً)** من محاولة بعض للصّلح وبعض للقتال والمفاوضات الّتي حدثت بينكم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن أنّه لماذا منع الطّرفين من إنشاء القتال، فقال جلّ وعلا:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

(**هُمْ**) أهل مكّة (**الَّذِينَ كَفَرُوا**) بالإسلام ورسوله ووحدانيّة الله تعالى (**وَصَدُّوكُمْ**) ومنعوكم (**عَنْ**) زيارة (**الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**) وإتمام عمرتكم (**وَالْهَدْيَ**) ومنعوا الهدي (**مَعْكُوفاً**) محسوماً فمنعوه (**أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ**) محلّ الذّبح وهو الحرم، فيذبح هناك كما هو الواجب في المهدي من أن يذبح في الحرم فصفاتهم هذه كلّها كانت ممّا يوجب أن تقاتلوهم إلّا أنّ الله تعالى منعكم من القتال لأمور:

الأوّل: أنّه كان في مكّة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات، ماكان المسلمون يعرفون أنّهم آمنوا، فلو وقع القتال لقتلهم المؤمنون ولأصابهم ما لا يتحمّل وهذا يفيده قوله تعالى: (**وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ**) موجودون في مكّة (**وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ**) موجودات (**لَمْ تَعْلَمُوهُمْ**) أنّهم مؤمنون فتتجنّبوا (**أَنْ تَطَئُوهُمْ**) بالقتل والإيقاع بهم (**فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ**) شيء مكروه بسبب قتلهم والشّيء المكروه هنا قيل: كان يصيبهم وجوب كفّارة القتل الخطأ لأنّ قتل المؤمن في دار الحرب يوجب الكفارة عند هذا القائل، وقيل: هو الإثم، وقيل: غمّ وحزن بسبب قتلهم، والأصحّ: أنّ المراد هنا العيب فإنّه كان الكافرون يقولون إنّهم قتلوا إخوانهم المؤمنين، فلولا هذا الأمر لما منعكم الله تعالى من القتال.

الأمر الثّاني: كان الله تعالى يعلم أنّ هؤلاء القوم يؤمنون بعد الفتح صلحاً فأراد أن يكون فتح مكّة مسلّحاً ليدخل من يشاء في رحمته وهو دينه دين الإسلام، ولذلك منعكم من القتال أيضاً، وهذا ما أفاده الله تعالى بقوله: (**بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ**) منهم بأن يؤمنوا ويسلموا (**لَوْ تَزَيَّلُوا**) لو تميّزوا الرّجال المؤمنون والنّساء المؤمنات والّذين أراد الله تعالى دخولهم في الرّحمة وتفرّقوا فعرفوا من

الكافرين (**لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**) بالسّيف والقتل إلّا أنّهم لم يتميّزوا فلم نأذن للقتال حماية لهؤلاء ورحمة بهم منّا (**إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْحَمِيَّةَ**) قوله: إذ إمّا ظرف لقوله: لعذّبنا أي لعذّبنا الّذين كفروا وقتما جعلوا في قلوبهم الحميّة، أو هي للتّعليل، فمعناه لعذّبنا الّذين كفروا عذاباً أليماً لأنّهم جعلوا في قلوبهم الحميّة الأنفة ورفع العار (**حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ**) لم تكن حميّتهم ممّا تحمد لأنّها كانت حميّة جاهليّة وهي الحميّة الّتي يرفض بسببها الحقّ استكباراً وأنفة (**فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ**) فلم تسقهم هذه الحميّة من الكفار إلى إنشاء القتال (**وَأَلْزَمَهُمْ**) المؤمنين (**كَلِمَةَ التَّقْوَى**) حكم التّحرّز من القتال وقبول الصّلح (**وَكَانُوا**) أي المؤمنين (**أَحَقَّ بِهَا**) بهذه الكلمة (**وَأَهْلَهَا**) لأنّهم هم الّذين يعملون وفق ما أمر الله تعالى به (**وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**) من حميّة الكفار وصبر المؤمنين وقبولهم الصّلح وترك القتال اتّقاء لإراقة الدّماء في بلد الله الحرام، هذا وبهذه الآيات الكريمة دفع الله تعالى كلّ شكّ وريب يختلج بقلب المؤمنين ممّا حصل من صلح الحديبيّة إلّا أنّه بقي شكّ أخر وهو أنّه كان رسول الله ﷺ رأى رؤيا أن يدخل مكّة آمنين محلّقين رؤوسهم ومقصّرين، وقصّ رؤياه هذه على المؤمنين، فلمّا صالح قريشاً ولم يدخل مكّة محلّقاً ولا مقصّراً داخل بعض الشّيء في قلوب النّاس، ولذلك ودفعاً لهذا الشّك قال جلّ وعلا:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾

(**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ**) أي لقد أرى الله تعالى رسوله الرّؤيا صدقاً بالثّبوت والوقوع، وإنّ الرّؤيا تقع كما رأى لأنّ رؤيا الأنبياء وحي لا شكّ فيها، وتلك الرّؤيا هي أنّه بشره بأنّه (**لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**) للعمرة (**إِنْ شَاءَ اللَّهُ**) تعالى، وقد تكلّم العلماء على قوله: إن شاء الله فإنّ ما وعد الله لا إستثناء منه فقيل: إنّه جرى على سياق مخاطبة النّاس، وقيل: تعليم للنّاس بأن يستثنوا في الأقوال والوعد، وقيل: غير ذلك، ولكنّ الأصحّ هنا: أنّ إنّ هنا هي المخفّفة من الثّقيلة، فتهمل في ضمير الشّأن المقدّر فيكون المعنى: أنّه أي أنّ هذا الأمر قد شاء الله تعالى وقوعه فتدخلون (**آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ**) حرباً ولا قتالاً ولا منعاً (**فَعَلِمَ**) تعالى

(**مَا لَمْ تَعْلَمُوا**) من وقت وقوع الرؤيا (**فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ**) أي من قبل ذلك الدّخول (**فَتْحاً قَرِيباً**) سهّل لكم الدّخول بهذه الكيفيّة وذلك الفتح هو صلح الحديبيّة، فإنّه شرط فيها أنّهم في العام القادم يرجعون ويعتمرون ولا يتعرّض لهم أحد كما سبق ذلك، فالحاصل: أنّ هذه الرّؤيا لم تكن مؤقّتة بهذا العام، بل بالمستقبل وحينما أراد الله تعالى وقد وقعت في السّنة الّتي تلت صلح الحديبيّة كما رآها الرّسول (ﷺ).

ثمّ بعد أن وعد الله تعالى المؤمنين فتوحات كثيرة ومغانم أراد أن يؤكّد ويثبت هذا الوعد فقال جلّ وعلا:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

(**هُوَ**) أي أنّ الله هو (**الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ**) محمّد (ﷺ) (**بِالْهُدَى**) بما فيه الهداية والإرشاد إلى الصّراط المستقيم (**وَدِينِ الْحَقِّ**) وهو الإسلام حيث أنّ ما سواه من كلّ مبدأ وعقيدة ونظام باطل وصاحبه في النّار (**لِيُظْهِرَهُ**) ليعلي هذا الدّين (**عَلَى الدِّينِ**) على الأديان كلّها ولا يكون ذلك إلّا بتأييده ونصره وفتح البلاد على يديه وعلى أيدي المؤمنين، وقد حصل ذلك؛ فإنّ الإسلام علا وفاق وسيطر على أكثر المعمورة، واستعلى على كلّ الأديان، ولولا تفرّق المسلمين وعدم ثباتهم على خطّة الرّسول الأعظم محمّدﷺ لما بقي دين على الأرض سوى الإسلام (**كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّه**) وكفى الله (**شَهِيداً**) على أنّه ينصر رسوله ويعلي دينه.

ثمّ نصّ على اسم رسوله تمييزاً له وإشادة به وبمن معه من الصّحابة الكرام فقال جلّ وعلا:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

(**مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**) إلى النّاس كافّة بشيراً ونذيراً (**وَالَّذِينَ مَعَهُ**) من الصّحابة الكرام

(**أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ**) كلّهم لكفرهم لا لأشخاصهم (**رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**) متحابّين متوادّين على الحقّ (**تَرَاهُمْ**) يا من نظر إليهم (**رُكَّعاً**) جمع راكع (**سُجَّداً**) جمع ساجد كناية عن كثرة صلاتهم باللّيل والنّهار (**يَبْتَغُونَ**) بشدّتهم على الكفّار والتّراحم بينهم وكثرة ركوعهم وسجودهم (**فَضْلاً مِنْ اللَّهِ**) تعالى يوم القيامة (**وَرِضْوَاناً**) وأن يرضى عنهم الله تعالى (**سِيمَاهُمْ**) علامتهم موجودة (**فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود**) وهو النّضارة الّتي يخلقها الله تعالى في وجوه الصّالحين (**ذَلِكَ**) الّذي ذكر من أوصافهم هو (**مَثَلُهُمْ**) وصفهم الّذي وصفهم الله تعالى به (**فِي التَّوْرَاةِ**) وأمّا مثلهم في الإنجيل كما قال: (**وَمَثَلُهُمْ**) ووصفهم في (**الإِنْجِيلِ**) فهم (**كَزَرْعٍ**) كنبات (**أَخْرَجَ شَطْأَهُ**) فروعه وسنابله (**فَآزَرَهُ**) فقوى الفروع أي الشّطأ (**فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى**) ماعند (**عَلَى سُوقِهِ**) جمع ساق (**يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ**) في جودته ونضارته وقوّته وكثرة فروعه وسنابله، فأصحاب الرّسول مثل هذا الزّرع وجعلهم الله تعالى كذلك (**لِيَغِيظَ**) ليتحسّر(**بِهِمْ**) بقوّتهم ونصرتهم (**الْكُفَّارَ**) جميعاً (**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**) من هؤلاء الكفّار لإيمانهم (**وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**) ولأنّهم قاموا بعد الإيمان بالأعمال الصّالحة وعدهم (**مِنْهُمْ مَغْفِرَةً**) عن ما مضى من ذنوبهم (**وَأَجْراً عَظِيماً**) يوم القيامة على أعمالهم وإيمانهم.

وهنا بحثان:

الأوّل: إنّ الله تعالى يقول في وصف الصّحابة: (رحماء بينهم) فكيف وقد أصبحوا أعداء يضرب بعضهم رقاب بعض؟

الجواب على هذا البحث بوجهين:

الوجه الأوّل: أنّ الرّحم معناه إيصال النّفع إلى من ترحمه وانقاذه ممّا يضرّه، فليس الرّحم تلبية ما طلبه المرحوم به، فإنّ الطفل إذا أراد أن يأخذ جمرة ويلتقطها فليس من الرّحم عليه أن نتركه لذلك فتحرق الجمرة يده، بل الرّحم أن تمنعه وإن لم يرض وأسخطه ذلك وبكى، وان عمل ابنك عملا يوجب الحدّ فليس من الرّحم أن تخلّصه من إقامة الحدّ عليه، بل من الأهمّ أن تنفّذ عليه إقامة الحدّ ليتطهّر ليوم القيامة، ومن هذا القبيل قال رسول الله (ﷺ): (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) قالوا: علمنا كيف نصر المظلوم فكيف ننصر الظّالم؟ قال: أن تأخذ على يديه فتمنعه من الظّلم[1] وهذا هو

(١) سنن البيهقي ٦/ ٩٤ الحديث رقم ١١٢٨٩. ونص الحديث: ثنا حميد قال قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصر أخاك ظالما أو مظلوما قيل يا رسول الله نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما قال تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه.

الرّحم والاحسان إليه، فالأصحاب حينما شجر بينهم ما شجر فإنّما شجر لأنّ كلّ طائفة ترى الجانب الآخر ظالماً، فأراد أن يخرجه من هذا الظّلم رحمة بهم، فسيّدنا علي (ﷺ) وأصحابه كانوا يرون معاوية وأصحابه ظالمين لأنّهم خرجوا على الإمام ولم يطيعوه، فأرادوا إنقاذهم من هذا الظّلم رحمة بهم، ومعاوية (ﷺ) وأصحابه كانوا يرون صاحب الإمام ظالماً لأنّهم أحتفظوا بقتلة سيّدنا عثمان (ﷺ) وما قتلهم قصاصاً، فأرادوا إنقاذهم من هذا الظّلم رحمة بهم، وأخذ القتلة منهم وإجراء القصاص عليهم، فكلّ جانب كان يريد الخير للجانب الآخر وهو سلامته من الظّلم على عقيدته، فهم رحماء بينهم وإن قاتلوا لأنّ القتال كان للتّراحم، وهذا مذهب أهل السّنة والجماعة، فعندهم كلّ طائفة مثاب لأنّه كان يقاتل للحقذ حسب أجتهاده، ولا ينافي هذا فضلهم؛ لأنّ قتالهم كان جميعاً على الحقّ، فإنّ كلّ جانب يرى الحقّ معه والجانب الآخر مبطلاً، فكان يريد إرجاعه إلى الحقّ امتثالاً لقول الرّسولﷺ: (من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده "بالقوة" فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)[1] فكلّ كان يعمل للحقّ حسب اجتهاده، وكلّ مثاب، ولهم الفضل والأجر من الله تعالى.

الوجه الثّاني: أن يقال: أنّ هذه الآية نزلت بعد رجوع الرّسولﷺ من الحديبيّة بمن معه الّذين كانوا معه في الحديبيّة الّذين تخلّفوا في المدينة بإذنه وأمره، فتكون من معه هم الأصحاب الموجودون في ذلك الوقت، فهؤلاء كانوا ولم يزالوا رحماء بينهم إلى أن التحقوا بربّهم، وأمّا الّذين آمنوا بعد صلح الحديبيّة وأصبحوا أصحاباً، فلا تشملهم الآية الكريمة، فلا يلزم أن يكون كلّهم رحماء بينهم، بل منهم رحماء ومنهم لا، ومع ذلك ففضل صحبة الرّسولﷺ أفضل من كلّ شيء، ولذلك نذكر البحث الثّاني.

البحث الثّاني: في بيان فضائل الأصحاب رضوان الله تعالى عليهم وعلينا أجمعين:

١) عن عمران بن حصين (ﷺ) عن النّبيّ (ﷺ) قال: خير أمّتي قرني ثمّ الّذين يلونهم ثمّ الّذين يلونهم، قال عمران: لا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة، ثمّ إنّ

(١) صحيح مسلم ١/ ٦٩ الحديث رقم٤٩.

بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون ويخونون ولا يؤتمنون وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السّمن[١]. رواه الأربعة كما قال في التّاج.

٢) قالت عائشة (رضي الله عنها) سئل رسول الله (ﷺ) أي النّاس خير؟ قال القرن الّذي أنا فيه، ثمّ الثّاني ثمّ الثّالث. رواه مسلم[٢].

٣) عن جابر أنّ عبداً لحاطب جاء لرسول الله (ﷺ) يشكو حاطب فقال: يا رسول الله ليدخلنّ حاطب النّار، فقال (ﷺ): كذبت لا يدخلها فإنّه شهد بدراً والحديبيّة. رواه مسلم والتّرمذي[٣] كما في التّاج، وهذا يؤيّد قولي: إنّ المراد بمن معه هم الموجودون وقت نزول الآية.

٤) عن جابر أيضاً أنّ النّبي (ﷺ) قال عند حفصة: لا يدخل النّار إن شاء الله أحد من أصحاب الشّجرة الّذين بايعوا تحتها، قالت: بلى يا رسول الله، فانتهرها، فقالت: قال الله تعالى: ﴿وإنّ منكُم إلّا واردُها﴾، قال النّبيّ (ﷺ) قال الله تعالى بعدها: ﴿ثمّ ننجي الّذين اتّقوا ونذر الظّالمين فيها جثيّا﴾. رواه مسلم[٤]، كما قال في التّاج.

٥) عن جابر أيضاً عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: لا تمسّ النّار مسلماً رآني أو رأى من رآني[٥].

٦) عن بريدة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: ما من أحد من أصحابي يموت بأرض إلّا بعث قائداً ونوراً لهم يوم القيامة[٦]، قال في التّاج: روى هذين الحديثين التّرمذي الأوّل بسند حسن والثّاني بسند غريب.

هذا ما ورد في فضل الأصحاب على العموم، وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل

---

(١) صحيح البخاري ٣/ ١٣٣٥. صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٤ الحديث رقم ٢٥٣٥. سنن أبي داود ٤/ ٢١٤ الحديث رقم ٤٦٥٧، سنن النسائي ٣/ ١٣٥ الحديث رقم٤٧٥١.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٥ الحديث رقم٢٥٣٦.

(٣) صحيح مسلم ٤/ ١٩٤٢ الحديث رقم٢٤٩٥، سنن الترمذي ٥/ ٦٩٧ الحديث رقم٣٨٦٤.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ١٩٤٢ الحديث رقم ٢٤٩٦،

(٥) سنن الترمذي ٥/ ٦٩٤ الحديث رقم ٣٨٥٨.

(٦) سنن الترمذي ٥/ ٦٩٧ الحديث رقم ٣٨٦٥.

كثير من أفرادهم خاصّة كالخلفاء الأربعة والعشرة المبشرة وأزواج النّبيّ الطّاهرات، وغير هؤلاء من الصّحابة ممّا يطول ذكره، وتجده إن أردت في التّاج[١]، ج٣ / ٣٠٣ فراجعه، فالحاصل أنّ الصحابة على العموم أهل فضل، وإنّ بغضهم وسبّهم معصية كبيرة وجريمة عظيمة حفظنا الله تعالى منها آمين.

١- عن عبدالله بن مغفل (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) قال: الله الله في أصحابي لا تتّخذوهم غرضا بعدي، فمن أحبّهم أحبّني ومن أبغضهم أبغضني، ومن آذاهم آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه، رواه التّرمذي[٢] كما في التّاج.

٢- عن أبي سعيد (رضي الله عنه) قال: كان بين خالد وبين عبدالرّحمن شيء فسبّه خالد فقال رسول الله (ﷺ): لا تسبّوا أصحابي فإنّ أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك قدر أحدهم ولا نصيفه[٣]، رواه الأربعة في التّاج وللتّرمذي: (إذا رأيتم الّذين يسبّون أصحابي فقولوا لعنة الله على شرّكم)[٤].

* * *

هذا ما استطعت أن أكتبه في تفسير هذه السّورة الكريمة ولا تكلّف نفس إلّا وسعها، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون، وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين، وغفر الله تعالى لنا يوم الدّين آمين...

محمّد الباليساني
٢٩/ رجب الحرام/ ١٤٠٦
بغداد - سبع أبكار

---

(١) تاج الاصول في احاديث الرسول.

(٢) سنن الترمذي ٥/٦٩٦ الحديث رقم

(٣) صحيح البخاري ٣/١٣٤٣ الحديث رقم ٣٤٧٠.

(٤) سنن الترمذي ٥/٦٩٧ الحديث رقم ٣٨٦٦ وقال هذا حديث منكر.

سورة الحجرات

(مدنيّة، آياتها ثماني عشرة، نزلت بعد سورة الجمعة، وسمّيت بالحجرات لما فيها من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في هذه السّورة آداب وأخلاق إسلاميّة يجب على كلّ مسلم أن يتأدّب ويتخلّق بها، ففيها ذكر عشرون أدباً، لو كان المسلمون استقاموا عليه دولة وشعباً لبقت سيادتهم على الأرض، وما آل أمرهم إلى ما نراه اليوم من التّفرق والشّتات واستيلاء الأجانب عليهم، ولنشرح لك تلك الآداب على ترتيب ما ورد في السّورة الكريمة إن شاء الله تعالى:

الأدب الأوّل: أن لا يقول قولاً ولا يحكم حكماً في شيء قبل أن يعلم قول الله تعالى ورسوله فيه، فحينئذ نترك كلّ حكم وكلّ قول، ونحكم بما حكم الله ورسوله فيه، وذلك ما أفاده تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ ﴾

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) بالرّسول وبما جاء به من عند الله تعالى إن صدقتم في إيمانكم **(لا تُقَدِّمُوا)** قولاً أو حكماً في شيء **(بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)** قبل العلم بحكم الله تعالى، وذكر **(ورسوله)** إشارة إلى أنّ كلّ أحكام الرّسول (ﷺ) هي من الله تعالى، فإنّه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى *﴾ سورة النجم الآيتان/ ٤ ـ ٥،

وإلى أنّ حكم الله تعالى لا يعرف إلّا من الرّسول، فإنّه المبلّغ لأحكامه والموحى إليه دينه وشريعته، وحينما علمتم بحكمهما فلا انحراف عنه، فقد استحقّ عذاب الله تعالى: **(وَاتَّقُوا اللَّهَ)** واتّقوا عذاب الله تعالى بسبب الانحراف عن حكمه أو العمل بخلاف ما حكم به **(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ)** بأقوالكم **(عَلِيمٌ)** بأعمالكم وأحكامكم فينتقم منكم ويعذّبكم حينما انحرفتم عن أقواله وأحكامه تعالى؛ ولذلك قال الرّسول ﷺ: (القضاة ثلاثة: واحد في الجنّة واثنان في النّار)[1] أو كما قال. ثمّ فسّر ذلك بقوله: فمن علم حكم الله وحكم بما جاء فهو في الجنّة، ومن علم حكم الله ولم يعمل به فهو في النّار، ومن لم يعلم حكمه فعمل ولو طابق حكمه فيها فهو في النّار، فلا يجوز العمل بخلاف الكتاب والسّنة والإجماع والقياس الرّاجعان إليها، ومن فعل ذلك فهو في النّار لأنّه إمّا كافر إن رأى حكمه أحسن من حكم الله تعالى، أو فاسق إذا رأى حكم الله تعالى أحسن إلّا أنّه عدل عنه لشهوة أو طمع أو منفعة من منافع الدّنيا الزائلة، وهذا الأدب جارٍ إلى يوم القيامة؛ لأنّ حكم الله تعالى يبقى ويدوم إلى الأبد، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ سورة الحجر الآية/ ٩.

الأدب الثّاني: أن لا ترفع صوتك فوق صوت النّبي (ﷺ) وأن لا تتكلّم وتجهر بكلّ قول، فلا تتكلّمون عنده إلّا بقدر الحاجة، وفيما تحتاجون إليه من طلب أو سؤال دون أن تقعدوا، فتفيضوا في حكايات وأقوال وتحدثوا عنده ضجيجاً بالأقوال، وهذان أفادهما الله تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢﴾

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا) لا تعلوا **(أَصْوَاتَكُمْ)** حين المخاطبة والمكالمة **(فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)** حينما تتكلّمون معه، هذا هو الأدب الثّاني، وهو أيضاً جار إلى يوم القيامة، فإنّه حينما يقرؤون القرآن أو يذكر ويقرأ العلماء أحاديث الرّسول (ﷺ)، فصوت القرآن وصوت الحديث هو صوت النّبيّ (ﷺ)، فيجب على المسلم أن ينصت ويسمع إليه ولا يعلو ولا يغفل عمّا في القرآن الكريم وأحاديث الرّسول الأمين من أوامر فيتّبعها

---

(١) سنن أبي داود ٣/ ٢٩٩ الحديث رقم ٣٥٧٣.

ونواهي فيجتنبها، وطباع فيهتدي بها، وأخلاق فيتخلّق بها، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ سورة الأعراف الآية/ ٢٠٤، فقد ربط الله تعالى هنا الرّحم باستماع القرآن والإنصات حين ما يتلى ويقرأ، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ سورة فصلت الآية/ ٢٦، فاللّغو عند تلاوة القرآن من صفات الكافرين وممّا يرضيهم، ولذلك أنذرهم الله تعالى فقال بعد هذه الآية: (فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَاباً شَدِيداً) النّاس الّذين يأمرون باللّغو عند تلاوة القرآن والّذين يلغون وقتئذ (عَذَاباً شَدِيداً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ سورة فصلت الآية/ ٢٧، فكيف يليق بالمسلم أن يلغو حينما يتلى القرآن أو يرفع صوته حينئذ أو حينما تتلى أحاديث الرّسول (ﷺ)، وهي بمنزلة القرآن لأنّه وحي من الله تعالى أيضاً: (وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ سورة النجم الآيتان/ ٣،٤. وهذه المعصية موجودة. فإنّ القرآن يتلى في مجالس التّعزية ويلغوا النّاس ويدخّنون ويشربون. فوا عجباً للمسلمين كيف نسوا دينهم وتركوا آداب الإسلام الشّريفة.

الأدب الثّالث: أفاده الله تعالى بقوله: (**وَلا تَجْهَرُوا لَه**) أي ولا تكلّموه (**بِالْقَوْلِ**) بكلّ قول تريدون (**كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ**) بالأقوال والأحاديث وليكن حضوركم عنده بسكون وهدوء، ولا تتكلّموا عنده إلّا فيما يحتاج إليه من سؤال عنه أو جواب له إذا سألكم، وهذا الأدب جار أيضاً إلى يوم القيامة، فإنّ العلماء العاملين والدّعاة المخلصين هم وكلاء الرّسول، فيجب التأدّب في مجلسهم ولزوم حسن الصّمت لديهم، وكونوا كما كان الأصحاب عند رسول الله (ﷺ)، بعد نزول هذه الآية، تنزل الطّير عليهم حيث يظنّ أنّهم أحجار لعدم تحرّكهم وعدم نطقهم، ولصمتهم عند رسول الله (ﷺ) فيجب أن يكون النّاس عند العلماء العاملين كذلك، ليستفيدوا ما ينفعهم في الدّين (**أَنْ تَحْبَطَ**) لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النّبيّ (ﷺ) ولا تجهروا له بالقول .. الخ مخافة (**أن تحبط أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ**) فإنّ في رفع الصّوت عنده والجهر بالقول إحباط للعمل عند الله تعالى.

الأدب الرابع: أن تخفض صوتك عندما تكلّم الرسول ولا تظهره أكثر ممّا يحتاج إليه، وأفاد ذلك بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾

(**إنّ الّذين يغضّون**) يخفضون (**أصواتهم عند**) مكالمة رسول الله (ﷺ) (**أولئك**) هم (**الّذين امتحن الله**) اختار الله تعالى (**قلوبهم للتّقوى**) فقذفها فيها، لأنّ الامتحان يجري لاختيار المتفوّقين لتعيينهم فيما يختبرون، فأريد هنا نتيجة الاختبار وهو الاختيار فقط، لأنّ الامتحان على حقيقة لا يليق بالله لأنّه لا يخفى عليه شيء، ثمّ ذكر جزاءهم هذا فقال: (**لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ**) وهذا الأدب أيضاً جار، لأنّ التّلميذ عند الأستاذ والمسلمين عند العلماء العاملين والدّعاة الصّالحين يجب أن يكونوا كذلك، فإنّهم وكلاء الرّسول في تبليغ هذا الدّين.

الأدب الخامس: عدم ندائه من بعيد أو من وراء الجدر أو الحجب أو الحجرات، بل إذا أردت مكالمته فادخل عليه بعد الاستئذان، وتكلّم معه بصوت خافض وبأدب وخشوع، وهذا الأدب أفاده تعالى بقوله جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾

نزلت في قوم جاؤوا إلى رسول الله (ﷺ) وكان في بيته وقت القيلولة فنادوه يا محمّد اخرج إلينا، فأدّبهم الله تعالى ولغيرهم (**إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ**) آداب المراجعة والزّيارات والمحاورات (**وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا**) ولم يستعجلوا ولم يزعجوك (**حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ**) حسب العادة دون إزعاج منهم (**لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ**) في الدّنيا لأنّ المحافظة على الآداب الحسنة تجلب القلوب وتورث المحبّة بين النّاس وفي الآخرة أيضاً، لأنّ توقير الرّسول (ﷺ) يوجب الأجر والثّواب (**وَاللَّهُ غَفُورٌ**) غفر لهم لأنّهم فعلوا ذلك جهلاً (**رَحِيمٌ**) ولوفور رحمته غفر لهم لا لشيء آخر. وهذه الآداب يجب أن يلتزم بها الطّالب مع أستاذه، والتّلميذ مع معلّمه، والأمّيّ مع العالم، والمأموم مع الإمام، والصّغير مع الكبير، وهكذا حسب الدّرجات والمراتب.

الأدب السّادس: أن لا تعتمد على خبر أو قول أو دعاية أو إشاعة حتّى تتحقّق ذلك ويتبيّن لك صدقه، وأفاد تعالى هذا بقوله جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾

(**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) إن أردتم السّلامة من الأخطاء والحذر من التّعرض والتّصدي على النّاس بدون حقّ فكونوا (**إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ**) بخبر (**فَتَبَيَّنُوا**) هذا الخبر وحقّقوا عنه إلى أن تثبت عندكم صدقه، وذلك مخافة (**أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ**) بخطأ وبدون حقّ (**فَتُصْبِحُوا**) بعد ذلك حينما تبيّن لكم الخطأ (**عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**) من هذه الإصابة والتّعرض، ولا ينفعكم النّدم، حينئذ فكم من نفوس بريئة ذهبت ضحيّة الدّعايات الكاذبة وما افتري عليها فأبيدت بدون تحقيق وتبيين، وكم من أقوام قضي عليها نتيجة إشاعة كاذبة لم يكن لها من الصّحة أساس، فلو طبّق هذا الأدب لحقن كثير من الدّماء البريئة ولحوفظ على كرامة كثير من الأشخاص، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وهذا الأدب ساري المفعول إلى يوم القيامة أيضاً، ومن واجب الأمّة والأفراد تطبيقه لكي لا يقع في الخطأ.

الأدب السّابع: هذا الأدب مرتبط بما قبله من الأدب، حيث يجب التحقّق من كلّ شيء حتى تعلم رأي رسول الله فيه فتطيعه بعد ذلك، ولا تحاول لأن يطيعك الرّسول هو في رأيك. وقد أفاد الله تعالى ذلك في قوله جلّ وعلا:

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

(**وَاعْلَمُوا**) وتنبّهوا ولا تغفلوا عن (**أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ**) تعالى فأطيعوه وانتظروا أمره، ثمّ افعلوا حيث أمر ولا تحاولوا أن يطيعكم هو فإنّه (**لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ**) لهلكتم لأنّكم لا تعلمون عواقب الأمور، والرّسولﷺ يلهم من الله تعالى حسن الأمور وعواقبها، ثمّ خاطب الله تعالى الأصحاب فقال جلّ وعلا: (**وَلَكِنَّ اللَّهَ**) تعالى (**حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الإِيمَانَ**) وإطاعة الرّسول (ﷺ) فلذلك لم تهلكوا (**وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ**) وبذلك عصمكم الله تعالى من المهالك حيث تعملون وفق إرشادات الرّسول (ﷺ) وأوامره (**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ**) والخروج من أمر رسول الله (ﷺ) (**وَالْعِصْيَانَ**) ومخالفته في الأمور (**أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ**) في الدّنيا والآخرة، وقد حبّب الله تعالى إليكم الإيمان وكره إليكم الكفر (**فضلاً من الله**) تعالى لا لحاجته إليكم وإنّما لمجرّد إفضاله عليكم فضلاً منه (**ونعمة**) منه عليكم (**والله عليم**) يعلّم النّاس كلّهم (**حكيم**) لا

يعمل إلّا بحكمة، فبعلمه وحكمته اختاركم، لهذا الفضل وهذه النّعمة، وهذا الأدب جار إلى يوم القيامة، فإنّ إطاعة الرّسول (ﷺ) لم تكن لشخصه، ولأنّه من قريش أو من بني عبد المطلب، بل لأنّه رسول ويعمل بوحي الله وشريعته، وشريعته باقية إلى يوم القيامة، فمن اتّبعها فقد اهتدى ورشد كما قال (ﷺ): (إنّي تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي أبداً كتاب الله وسنّتي)[1] وإنّ كلّ من انحرف عن هذه الشّريعة وعمل برأيه وهواه فقد ضلّ وقد قال (ﷺ): (لن يؤمن أحدكم حتّى يكون هواه تابعاً لما جئت به)[2]. وهذه الآداب الّتي مرّت آداب وقائيّة للوقاية من الشّر والفساد في المعصية والدّخول فيها.

الأدب الثّامن: ويأتي بعد ذلك أدبان آخران هما من الآداب العلاجيّة للتّخلّص من الشّر والقضاء عليه حينما يقع فيما أفاده الله بقوله جلّ وعلا:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

(**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**) خطاب للطّوائف الأخرى، فيجب عليهم أن يجدوا ويحاولوا الصّلح بينهما وإزالة الحرب والشّقاق، وهذا الخطاب خطاب إيجاب، فان لم يفعل المسلمون ذلك أثموا كلّهم ويستحقّوا عذاب الله تعالى في الدّنيا بالذلّ والهوان وفي الآخرة بالدّخول في جهنّم (**فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا**) امتنعت إحداهما عن الصّلح وتعدّت (**عَلَى الأُخْرَى**) فقوموا كلّكم (**فَقَاتِلُوا**) الطّائفة (**الَّتِي تَبْغِي**) تتعدّى على الأخرى (**حَتَّى تَفِيءَ**) ترجع (**إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**) تعالى وهو الصّلح (**فَإِنْ فَاءَتْ**) رجعت إلى أمر الله وقبلت الصّلح (**فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ**) فلا تميلوا إلى جانب ولا تظلموا الجانب الآخر بهضم حقّه (**وَأَقْسِطُوا**) واعدلوا في الأمور كلّها (**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**) العادلين في كلّ شيء وبالنّسبة إلى كلٍّ، فقد ذكر ابن كثير (رحمه الله) وابن عمر (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ) أنّه قال: (المقسطون عند الله على منابر من نور على يمين

---

(١) المستدرك على الصحيحين ١/ ١٧٢ الحديث رقم ٣١٩.

(٢) الأربعين النووية ١/ ٥١ الحديث رقم ٩.

العرش، الّذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما وَلّوا) رواه مسلم والنّسائي من حديث سفيان بن عيينة[(١)].

تنبيه: في هذه الآية إشارات:

الأولى: إنّ المؤمنين يجب أن يكونوا بعيدين كلّ البعد عن الخلاف والشّقاق والقتال بعضهم مع بعض، وأن تكون نسبة القتال فيما بينهم إليهم من المظنون والمشكوك فيه والنّادر وقوعه جدّا، كما عبّر تعالى عن هذا بقوله: (وإنْ) فإنّ لفظ (إنْ) لا يقال إلّا فيما ندر وقلّ جدّاً، ويكون وقوعه مشكوكاً فيه.

الثّانية: إنّ قتال المؤمن للمؤمن لا يخرجه عن الإيمان ولا يجعله كافراً بل يكون المؤمن بقتل المؤمن فاسقاً، وأشار الله تعالى إلى ذلك حين وصفهم بالإيمان في حين المقاتلة، وأمّا قوله (ﷺ): (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)[(٢)] فالمراد به قتاله لأنّه مسلم ولأنّه يعدي الإسلام، كما يفيد ذلك قاعدة: إنّ تعليق الحكم بالمشتقّ يدلّ على غلبة ما اشتق منه، أي قتال المسلم لإسلامه كفر، أو يقال يراد بالكفر هنا كفر مقابل للإسلام لا كفر مقابل الأيمان، فالكفر مقابل الإسلام زوال العمل بالإسلام والكفر مقابل الأيمان هو زوال العقيدة، أعاذنا الله تعالى منها آمين.

الثّالثة: إنّ الباغي هو المانع من الصّلح، وعن إعطاء الحقّ والخضوع له لا الخارج على الإمام مطلقاً، فإنّه لو خرج جماعة على الإمام طالبين حقّا من حقوقهم وحين محاولة الصّلح امتنع الإمام عن إعطاء ما يستحقّونه، فالإمام باغ لا هم، وإن كانوا يريدون ما لا يستحقّونه فهم بغاة.

* * *

الأدب التّاسع: أنّه إذا تشاجر مؤمنان فيجب على الأخرين السّعي والعمل لأزالة الخلاف بينهما، لئلا ينتشر الشّر فيهما إلى المجتمع، وأفاد الله تعالى ذلك بقوله جلّ وعلا:

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٤٥٨الحديث رقم ١٨٢٧.سنن النسائي ١٠/ ٨٧ الحديث رقم ١٩٩٤٩.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٧ الحديث رقم ٤٨.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

(**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**) في العقيدة والأيمان، ويجب أن تحملهم هذه الأخوّة على التّحابب والتّعاطف والتّعاون والتّكاتف وحبّ الخير فيما بينهم، وأنّه لو حصل شيء يوجب التّناحر بين المؤمنين أو أكثر؛ فيجب على الباقي تداركه وإزالة ذلك التّنافر لئلّا ينتشر ذلك التّنافر إلى المجتمع، ولذلك (**فَأَصْلِحُوا**) أيّها المؤمنون (**بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**) المتنافرين ومن لم يفعل ذلك ولم يحاول الأصلاح فإنّه آثم (**وَاتَّقُوا**) عذاب (**اللَّه**) الّذي يصيبكم نتيجة عدم الإصلاح في الدّنيا بسبب انتشار الخلاف بين أفراد الأمّة وتفكّكها ووهنها وإستيلاء الأجانب عليها بعد ذلك، وفي الآخرة بعذاب النّار نتيجة ترك هذا الواجب الاجتماعي، وهذا الأدب الوقائي فأصلحوا (**لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**) لكي ترحموا في الدّنيا لخلق الأخوّة والإتّفاق والإتّحاد بينكم وفي الآخرة بنعيم الجنّة وجنّة النّعيم مقابل هذا الإخاء والوداد والوفاق الّذي جاء الإسلام لأجله، والفرق بين هذا الأدب والأدب الّذي قبله هو أنّ هذا أمر بالصّلح بين الأفراد، وذاك أمر بالصّلح بين الطّوائف والمجتمعات والقبائل.

تنبيه: في هذه الآية أمور:

الأوّل: أنّ المؤمن أخ المؤمن في العقيدة والأيمان والإسلام، وأنّ هذه الأخوّة أوثق وأعلى من أخوّة النّسب، فالأخ الكافر لا يرث من أخيه المسلم وبالعكس، وكذا كلّ وارث مختلف العقيدة مع مورّثه لا يرث منه ولو كان والداً أو ولداً أو غير ذلك، بل ينتقل أرثه إلى أهل عقيدته إن لم يكن له وارث آخر متّفق العقيدة.

الثّاني: إنّ الصّلح بين كلّ مؤمنين أو أكثر يقع فيها نزاع وشقاق فرض كفاية، فإذا قام به البعض سقط الطّلب من الباقين، ويكمل الثّواب لمن قام به، وإن لم يقم به أحد أثم الكلّ فالإصلاح فريضة كبيرة في الإسلام.

الثّالث: هو أنّ الله تعالى ربط رحمة الله بالإصلاح والتّجنب من تركه فيفيد أنّ المسلمين حينما تركوا هذا الواجب ولم يقوموا بإصلاح ذات البين، فإنّه تعالى لا يرحمهم في الدّنيا بل يهينهم ويذلّهم ولا في الآخرة بل يعذّبهم عذاباً أليماً.

* * *

خاتمة: فيما يجب على المسلم تجاه أخيه المسلم في الصّحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (ﷺ): (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تجسّسوا ولا تحسّسوا ولا تناجشوا، وكونوا عباد الله إخوانا)[١]، وفي رواية: (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله اخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التّقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاثاً، حسب أمرئ من الشّر أن يحقر أخاه المسلم، كلّ المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)[٢] واللفظ لمسلم، وفي غير مسلم والبخاري من الصّحاح عن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النّبيّ (ﷺ): (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الرّيح إلّا بإذنه، ولا يؤذيه باحتقار قدره إلّا أن يغرف غرفة، ولا يشترى لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره، ولا تطعمونهم منها ثمّ قال النّبيّ (ﷺ): احفظوا ولا يحفظ منكم إلّا قليل)[٣] القرطبي ج ١٦/ ٢٣٣.

* * *

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر آداباً وقائيّة أخرى ثلاثة يقي المؤمنون بها وقوع التّنافر فيما بينهم وهي:

الأدب العاشر: أن لا يحقر قوم قوماً ولا يسخر منه، بل يجب على المسلم احترام كلّ الأقوام ويراعي شعورهم وحقوقهم، ولا يريد أن يتعاظم عليهم.

الأدب الحادي عشر: أن لا يعيب بعض المسلمين بعضاً.

الأدب الثّاني عشر: هو أن لا يسمّي بعضهم بعضاً باسماء فيها ما يفيد النّقص والعيب أو ما يكرهه، بل يسمّي بأحبّ اسمائه إليه. وقد أفاد هذه الآداب الثّلاثة في قوله جلّ وعلا:

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ١٩٨٥ الحديث رقم ٢٥٦٣.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ١٩٨٦ الحديث رقم ٢٥٦٤.

(٣) تخريج الأحاديث والآثار ٣/ ٣٣٦ بلفظ مختلف.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ**) لا يقلّل (**قوم مِنْ**) من قيمة (**قَوْمٍ**) فيسخر ويستهزئ به أو يهضم حقوقه أو يتعاظم عليه، فإنّ ذلك يؤدّي إلى التّنافر بين القومين وإنشاء القتال بينهم، فيؤدّي إلى وهن المؤمنين، ثمّ إنّ الفضل كلّ الفضل والشّرف كلّ الشّرف هو ما كان للمرء عند الله تعالى، وإنّ ذلك مجهول فإنّه (**عَسَى أَنْ يَكُونُوا**) القوم الّذين يحقرّونهم ويستهزئ بهم (**خَيْراً**) عند الله تعالى (**مِنْهُمْ**) أو يكونوا للدّفاع عن الإسلام ورفع رايته أقوى وأعزّ منكم في الدّنيا (**وَلا**) يسخر (**نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ**) فإنّه (**عَسَى أَنْ يَكُنَّ**) عند الله تعالى (**خَيْراً مِنْهُنَّ**) وذكر النّساء بعد القوم فإنّ القوم خاصّ بالرّجال لأنّهم سمّوا قوماً لمقاومتهم في الشّدائد والقتال، لذا قال الشّاعر:

ومـــا أدري وســـوف أخـــال أدري أقـــوم آل حـــصـــن أم نـــســـاء

وفي هذه الآية حرّم الله تعالى التّمييز العنصري والتّفرقة العنصريّة الّتي أدّت إلى تنافر الأقوام بعضهم البعض، وأدّى ذلك التّنافر إلى حروب أودت بأرواح كثيرة دون حقّ وفي سبيل الشّيطان والاستعمار فقط، فإنّ الاستعمار لم يستطع أن يستولي على بلاد الإسلام إلّا بسبب هذه النّعرات القوميّة والدّعوات العنصريّة الّتي أذاعها أعداء الإسلام وعملاء الاستعمار بين المسلمين، ففرّقت وحدتهم وصدق عليهم قوله تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾.

وهذا هو الأدب العاشر، أمّا الأدب الحادي عشر فجاء في قوله: (**وَلا تَلْمِزُوا**) أي لا تعيبوا (**أَنفُسَكُمْ**) بعضكم بعضاً، وقال: أنفسكم ليعلم أنّ من عاب أخاه المسلم فقد أعاب نفسه؛ لأنّ المسلم أخو المسلم وكعضو منه، وإنّ من واجب المسلم أن يستر عيب أخيه المسلم وينصحه في الخلوة ويذكّره بها لكي يتركه وليتطهّر منه فالدّين النّصيحة.

(**وَلا تَنَابَزُوا**) ولا يسمّي ويلقّب بعضكم بعضاً (**بالألْقَابِ**) السّيئة الّتي تشير إلى وصف يكره أن يذكر به، وإن كان ذلك الوصف موجوداً فيه كالأعرج والأقرع مثلاً، فإنّ

ذلك حرام إلّا في حال لا يعرف إلّا به، فحينئذ يجوز للضّرورة (**بِئْسَ**) فعل و(**الإِسْمُ**) فاعل وقوله: (**الْفُسُوقُ**) مخصوص بالذّم فالمعنى وبئس الاسم الّذي هو فسوق أي يكون سبباً لفسق النّاطق به، أي بئس الاسم الّذي تسمّيه شخصاً فتفسّق به، لأنّ الشّخص يكرهه إذ فيه ما يعيبه (**بَعْدَ الإِيمَانِ**) لا يليق بالمرء بعد أن كان مؤمناً أن يسمّي النّاس باسماء غير حسنة (**وَمَنْ لَمْ يَتُبْ**) عن هذه الأوصاف من سخريّة الأقوام ولمز النّاس ونبزهم بالألقاب (**فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) المتجاوزون آداباً يحبّها الله تعالى وأخلاقاً إسلاميّة وتاركون لها.

أمّا الأدب الثّالث عشر والرّابع عشر والخامس عشر فقد ذكرها الله تعالى في قوله جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

الأدب الثّالث عشر: ذكره الله تعالى في قوله: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنْ الظَّنِّ**) فلا تتعرّضوا إلى النّاس ولا تعتدوا عليهم، ولا تعاقبوهم بمجرّد أن تظنّ أنّهم فعلوا كذا وكذا حيث (**إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ**) خطأ لا يجوز الأعتماد عليه حتّى يتحقّق ويتيقّن لك الموضوع.

الأدب الرّابع عشر: ذكره الله تعالى بقوله: (**وَلا تَجَسَّسُوا**) أي ولا تفتشوا عن أحوال النّاس، فإنّ أيّ إنسان لا يخلو عن عيب فاتركوهم على سترهم و لا تفتّشوا عنهم فتفضحوهم، فإنّ الله ستّار يحبّ السّتر وهذا فيما لم يكن التّجسس لمصلحة عامّة ولكشف من يريد بالإسلام مكيدة و بالمسلمين ظلماً وعداءً، ويقوم بعمالة للكافرين ضدّ الإسلام، فإنّ ذلك واجب يعتبر من باب الحذر والوقاية والحيطة.

الأدب الخامس عشر: ذكره الله تعالى في قوله: (**وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً**) والغيبة أن تذكر أخاك المسلم بما يكره بدليل ما جاء في صحيح مسلم (رحمه الله) عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (أتدرون ما الغيبة قالوا: الله ورسوله أعلم، قال ذكرك أخاك بما يكره، قيل أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: إن كان فيه ما تقول فقد

اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهتّه)[١]. ثمّ أراد الله تعالى أن ينفّر النّاس عن الغيبة بتشبيهه بما يتنفّر النّاس عنه؛ فقال جلّ وعلا: (**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً**) وهذا الاستفهام للإنكار، فمعناه أنّه لا يحبّ أحدكم أن ياكل لحم أخيه وهو ميّت كما قرّر الله تعالى هذا المعنى، بقوله جلّ وعلا: (**فَكَرِهْتُمُوهُ**) فإذاً كما تكرهون أكل لحم الأخ الميت فاكرهوا الغيبة فإنّها مثله، وإنّما شبّه الغيبة بأكل لحم الأخ الميت لأنّ الإنسان يعيش بأمرين: المادّة والمعنى، فالمادّة هي الجسم والمعنى هو الشّرف، فكما أنّ أصل اللّحم ينتقص من جسم الإنسان فكذلك غيبته تقلّل من شرفه، فكانت الغيبة كأكل اللّحم، وحيث إنّ كلّ مسلم أخو المسلم فكانت كأكل لحم الأخ، وحيث إنّ الغيبة تكون في حال غيبة الإنسان وعدم حضوره والغائب كالميت من عدم استطاعته الدّفاع عن نفسه، فكانت كأكل لحم الأخ الميت (**وَاتَّقُوا اللَّهَ**) عذاب الله تعالى على ما تعملون من الغيبة (**إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ**) لمن تاب ورجع وترك الغيبة (**رَحِيمٌ**) يقبل التّوبة لرحمه لا لأمر آخر، ولا خلاف في أنّ الغيبة من الكبائر، ولكن هل هي حقّ الله تعالى فتزول بالاستغفار أو هي حقّ النّاس أيضاً؟ والأصحّ: الأوّل، وعلى الثّاني: كفّارتها، فالأستغفار لمن اغتابه، ولا حاجة إلى الاستحلال من المغتاب، وقيل يجب الاستحلال، وفرّق البعض فقالوا: إن وصلت إلى المغتاب فهو حقّ النّاس وإلّا فهو بينه وبين الله تعالى فقط، ويزول بالاستغفار.

تنبيه: إنّ الغيبة مع كونها بهذه الشّناعة وإنّها من الكبائر إلّا أنّها تجوز في مواضع:

الأوّل: الفاسق المجاهر بالفسق، فإنّ من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له وقال (ﷺ): (اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره النّاس)[٢].

الثّاني: أهل البدع وهم الّذين يزيدون في الدّين ما لم يرد به الكتاب ولا السّنة، روى الربيع عن الحسن (رضي الله عنه) قال: ليس لأهل البدع غيبة.

الثّالث: قول المشتكي عند القاضي فلان ظلمني أو غصبني خانني أو قذفني أو أساء إليّ فإنّ الرّسول (ﷺ) قال: (إنّ لصاحب الحقّ مقالا)[٣].

---

(١) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٠١ الحديث رقم ٢٥٨٩.

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٤/ ٣٣٩ الحديث رقم ٤٣٧٢ بلفظ: خطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال حتى متى ترعون عن ذكر الفاسق هتكوه حتى يحذره الناس.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ٨٠٩ الحديث رقم ٢١٨٣ ورد بألفاظ مختلفة منها: عن أبي هريرة أن رجلا أتى النبي يتقاضاه، فأغلظ فهم به أصحابه فقال رسول الله: دعوه فإنّ لصاحب الحقّ مقالا، ثم قال أعطوه سنّا مثل سنّه، قالوا يا رسول الله لا نجد إلّا أمثل من سنه، فقال أعطوه فإنّ من خيركم أحسنكم قضاء.

الرّابع: قول المستفتي للمفتي فلان كذا فما حكمه؟ كقول هند لرسول الله (ﷺ): (إنّ أبا سفيان شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، أفآخذ من غير علمه؟ فقال النّبيّ (ﷺ): نعم خذي)[1]، فذكرته بالشحّ والظّلم فلم ينهها رسول الله (ﷺ) بل أجابها بالفتيا لها.

الخامس: في الاستشارة فقد ذكر الرّسول (ﷺ) ذلك في قوله: (إذا استشير أحدكم في خاطب فليذكر مساويه)[2] فيعمّ كل استشارة كأن يستشيرك أحدهم في أحد ليدرّس عنده أو ليصاحبه أو ليشاركه أو ليعالج مرضه عنده إلى غير ذلك صوناً للنّاس عن التّضرر بغيرهم.

السّادس: كأن تذكر شخصاً لأحد ولا يعرفه إلّا بوصف فيه نقص، كأن تقول فلان الأعرج والأقرع أو غير ذلك.

السّابع: أن تأتي إلى جماعة وتقول إنّ فلاناً يفعل كذا وكذا، فتعاونوا معي لمنعه من هذا المنكر. و قد نظّم أحد العلماء هذه الأمور فقال:

القدح ليس بغيبة في ستّة   متظلّم ومعرّف ومحذّر
ولمظهر فسقاً ومستفتٍ ومن   طلب الإعانة في إزالة منكر

ولم يذكر الشّاعر المبتدع لأنّه داخل في قوله: ولمظهر فسقاً، لأنّ البدعة فسق، بل إنّها كفر إن ادّعى التّشريع لنفسه.

* * *

---

(١) صحيح البخاري ٥/ ٢٠٥٢ الحديث رقم ٥٠٤٩ ونصه: عن عائشة أنّ هند بنت عتبة قالت يا رسول الله! إنّ أبا سفيان رجل شحّيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي إلّا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف.

(٢) لم أجده بهذا اللّفظ، وهو قول الفقهاء ظنّه الشّيخ الوالد رحمه الله تعالى حديثا، ولكن رأيت ما يؤيّده ففي كنز العمال ج٣/ ص٣١٧ الحديث رقم ٨٧٧١ عن المسّيب بن نجبة أنّ الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر أتوه يخطبون إليه ابنته، فقال مكانكم حتّى أعود إليكم، فأتى عليّا فقال: إنّي خلفت في المنزل الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر يخطبون إليّ وأتيت أمير المؤمنين لأشاوره، فقال أمّا الحسن فمطلاق ولا تحظى النّساء عنده، وأمّا الحسين فملق، ولكن زوج ابن جعفر فزوج ابن جعفر، فقالا له منعتنا وزوجت ابن جعفر، فقال أشار عليّ أمير المؤمنين فأتياه، فقالا وضعت منّا يا أمير المؤمنين، فقال سمعت رسول الله يقول المستشار مؤتمن، فإذا استشير أحدكم فليشر بما هو صانع لنفسه.

الأدب السّادس عشر: أن تتحابب وتتعارف وتحسن إلى جميع النّاس دون فرق بين أنّ هذا من شعب وذاك من شعب آخر، بل تنظر إلى جميع الشّعوب بالتّساوي ولا تميّز بين هذا وذاك، وأفاد الله تعالى هذا الأدب بقوله جلّ وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

(**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى**) وهي آدم وحواء فلا تفاضل بينكم في أصل الخلقة وفي الماهيّة والحقيقة فكلّكم من آدم وآدم من تراب (**وَجَعَلْنَاكُمْ**) بسبب التّناسل والتّكاثر (**شُعُوباً**) كثيرة (**وَقَبَائِلَ**) متعدّدة وكثركم هذا التكثير وجعل منكم هذه الشّعوب (**لِتَعَارَفُوا**) لتحاببوا وتتعاونوا في تعمير هذه الأرض وأداء خلافة الله تعالى فيها والحكم بما أنزله إليكم، ولا فضل لأحد على أحد ولا لشعب على شعب ولا لشخص على شخص في أصل الخلقة والنّسب، وإنّما التّفاضل يحصل لبعض على بعض بسبب إطاعته لله تعالى والتّقوى من المعاصي حيث (**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**) أكثركم تقوىً لله تعالى في كلّ أمر سيّما في التّعارف والتّحابب بين الشّعوب، فلا يميل ولا يحيد عن الحقّ بسبب العنصريّة أو القبليّة أو القوميّة أو القرابة أو العرف، بل ينظر إلى كلّ شعب بالتّساوي وعدم الإمتياز.

خاتمة: قال القرطبيّ: قد أخرج الطّبري في كتاب آداب النّفوس، وحدثني يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا اسماعيل قال حدثنا سعيد الجريري عن أبي نضرة قال: حدثني أو حدثنا من شهد خطبة رسول الله (ﷺ) بمنى في وسط أيام التّشريق وهو على بعير فقال: (يا أيّها النّاس ألا إنّ ربّكم واحد وإنّ أباكم واحد ألا لا فضل لعربيّ على عجميّ ولا لعجميّ على عربيّ ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلّا بالتّقوى، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلّغ الشّاهد الغائب[1]. وفيه عن مالك الأشعري قال: قال رسول الله (ﷺ): إنّ الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلب صالح تحنّن الله عليه، وإنّما أنتم بنو آدم وأحبّكم إليه أتقاكم)[2]. ولعليّ (رضي الله عنه) في هذا المعنى وهو مشهور من شعره:

---

(١) مسند الإمام أحمد ٥/٤١١ الحديث رقم ٢٣٥٣٦.

(٢) المعجم الكبير ٣/٢٩٧ الحديث رقم٣٤٥٦.

النّاس من جهة التّمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأمّ حوّاء
نفس كنفس وأرواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطّين والماء
والفضل إلّا لأهل العلم إنّهم	على الهدى لمن استهدى أدلّاء
وقدر كلّ امرئ ما كان يحسنه	وللرّجال على الأفعال سيماء
وضدّ كلّ امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم أعداء

الأدب السّابع العشر: أن يكون الإنسان موافقاً لسانه لما في قلبه، وأن لا يقول ما لا يصدّق به، فإنّ ذلك هو النّفاق، وإنّ النّفاق شرّ الخصال، وقد أشار الله تعالى إلى هذا الأدب في قوله جلّ وعلا:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

في مورد نزول هذه الآية أقوال: وخلاصتها أنّ بعض الأعراب لم يؤمنوا بقلبهم وأظهروا إيمانهم عند رسول الله (ﷺ) خوفاً وطمعاً؛ فكشفهم الله تعالى لرسوله؛ فقال جلّ وعلا: (**قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا**) بما جئت به يا رسول الله (**قُلْ**) يا أيّها النّبيّ لهم (**لَمْ تُؤْمِنُوا**) بل تكذبون في قولكم آمنّا (**وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا**) انقدنا لك خوف القتل والسّبي، أو طمعاً في أخذ الصّدقات من بيت المال (**ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم**) لأنّ الإيمان الصّدق والصّحيح هو الإيمان بالقلب لا باللّسان (**وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ**) بالأيمان الصّادق والتزام أحكام الإسلام (**لا يَلِتْكُمْ**) لا ينقصكم الله تعالى (**مِنْ أَعْمَالِكُمْ**) الّتي تعرفونها فيما يستقبل (**شَيْئاً إنّ الله غفور رحيم**) بل يجزيكم عليه في الدّنيا فتعاملون معاملة المؤمنين الصّادقين، وفي الآخرة أيضاً، فينجيكم من عذاب أليم ويسكنكم جنّات النّعيم.

الأدب الثّامن عشر: أن يكون المرء صادقاً في إيمانه وجازماً فيه غير متردّد أو مشكّك.

الأدب التّاسع عشر: أن يجاهد المرء في سبيل إعلاء دينه وإسلامه وكلمة الله تعالى في الأرض بماله ونفسه، وأن يتّصف بنكران الذّات في خدمة هذا الدّين وامتثال أوامر الله تعالى ربّ العالمين، وقد أشار الله تعالى إلى هذين الأدبين في قوله جلّ وعلا:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾

(إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله) المتأدّبون بهذين الأدبين والمتخلّقون بهذين الخلقين: الأوّل: إنّهم آمنوا بالله ورسوله **(ثمّ لم يرتابوا)** لم يتشكّكوا ولم يتردّدوا في هذا الإيمان، بل كان في القلب ومتمكّناً فيه، والثّاني: **(وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم)** الجهاد بالنّفس والمال والتّضحية بهما في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض **(أولئك)** المتأدّبون بهذين الأدبين والمتخلّقين بهذين الخلقين**(هم الصّادقون)** لا الّذين يقولون آمنّا دون التّصديق بالقلب ودون المؤمنين الّذين يتمسّكون بالدّين الّذين يعيشون عليه ويحسّونه مهنة تنفعهم، فإذا آل الدّين بالضّرر على مالهم أو أنفسهم فهم أبعد شيء عنه، فإنّ أولئك هم الكاذبون في دينهم وإيمانهم، وهم المنافقون حقّاً وهم الّذين يبيعون دينهم بالدّنيا بل وبدنيا غيرهم لمصلحة تجلب، وكانت تلك الأعراب كذلك وما أكثرهم هؤلاء اليوم فنعوذ بالله من أن يجعلنا منهم آمين وهو أرحم الرّاحمين.

ثمّ بعد أن نزلت هذه الآية وتلاها رسول الله (ﷺ) على هؤلاء الأعراب فحلفوا أحلافاً أنّهم مؤمنون، وقد كذبوا أيضاً تجاه الله تعالى فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

(قُلْ) لهم يا أيّها النّبيّ على وجه التّقريع والتّكبيت **(أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ)** تعالى **(بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)** كلّها، فلا يغيب عنه شيء **(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)** وبعلمه هذا يعلم أنّكم كاذبون، وقد أعلمنا الله تعالى بذلك.

الأدب العشرون: هو أن لا يتظاهر المرء بالإسلام والعمل الصّالح ولا يمتنّ على أحد، فإنّ الإسلام ينفعه في الدّنيا والآخرة، فيجب أن يمتنّ هو بالإسلام ويشكر الله

تعالى على هدايته إليه، وأشار تعالى إلى هذا الأدب فقال جلّ وعلا:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾

(**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ**) يا أيّها النّبيّ هؤلاء الأعراب (**أَنْ أَسْلَمُوا**) فيقولون أسلمنا وما حاربناك وما قاتلناك (**قُلْ**) في جوابهم (**لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ**) فإنّه كان لانتفاعكم به في الدّنيا من أن تقتلوا وفي الآخرة بالثّواب الّذي تأخذونه (**بَلْ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ**) حيث (**أَنْ**) أن الله (**هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**) فيه، فيجب عليكم أن تشكروا الله تعالى ورسوله على هدايتكم لهذا الدّين؛ لأنّ الله ليس بحاجة إليكم، بل أنتم المحتاجون إلى الهداية وسلوك السّبيل المستقيم، سلوك الإسلام الّذي حقنتم به دماء الدّنيا وحصلتم به ثوابكم في الآخرة، إن كان إيمانكم صادقاً وتوافق فيه القلب واللّسان.

هذه هي الآداب الّتي علّمها الله تعالى المسلمين، وقد تمسّكوا بها ففتحوا البلاد، ودان لهم العباد، وسلمت الدّنيا إليهم مفاتيحها والشّعوب قيادتها، وبعد أن ابتعدنا عن هذه الآداب رجعنا قهقريّاً فخسرنا السّيادة والعزّة والقيادة وأصبحنا كما ترى يلعب بنا الأعداء وأصبحوا علينا أوصياء، وهذا هو الخسران المبين، ولذلك قال الله تعالى وعيداً على إهمالنا لهذه الآداب وتركنا التّمسك بها فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

(**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**) كلّها ولا يخفى عليه، فهو الّذي يعلم بماذا تسود الأمم وتسعد وتذلّ وتفسد، فعلّمكم آداب تسودون وتسعدون بها (**وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**) من الأفعال والآداب والآخلاق، فإذا انحرفتم عن آدابنا هذه وما تمسّكتم بها، فإنّ الله تعالى يسلّط عليكم الهوان، وقد حقّق الله تعالى وعيده هذا فينا، فإنّه قد انحرفنا عن هذه الآداب فوقعنا فيما هو من الذّل والهوان والرّضوخ للمستعمر الكافر الّذي لا يخشى من الله تعالى ولا يستحي من النّاس ولا يرحمنا، فعلينا العودة والإنابة ليعيد الله إلينا العزّة والسّعادة في الدّارين.

اللّهم ارجعنا إلى آدابك و أخرجنا من هذه المهالك، فإنّك على كلّ شيء قدير، سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين، وعلى آلهم وأممهم أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين، وغفر الله تعالى لنا يوم الدّين آمين.

سورة ق

(مكيّة، آياتها خمس وأربعون، نزلت بعد سورة المرسلات، سمّيت بسورة قاف لتصدّرها بقوله تعالى: ﴿ق﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

(ق) حرف من حروف الهجاء، ومعناه وما صدق عليه هو أوّل الحرف من قال مثلاً، وجيء به في أوّل هذه السّورة للتّحدي، وللإعلان بأنّ هذا القرآن من حروف عربيّة معلومة، فلو لم يكن من الله تعالى لما عجز العرب كلّهم عن الإتيان بمثله ولو بمثل أقصر سورة منه في البلاغة وحسن البيان، وقد فصّلنا ذلك الكلام في سورة يس ونون ويوسف (ﷺ)، **(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)** ذو الشّرف والمنزلة، وجواب القسم محذوف تقديره أنّ هذا القرآن المجيد هو من الله تعالى، وأنّ محمّداً رسول الله، هذا في الظّاهر، وأمّا في الحقيقة فإنّ ذلك استدلال بهذا القرآن المجيد على أنّ محمّداً رسول الله تعالى، فالمعنى والله تعالى أعلم أنّ هذا القرآن يدلّ ويشهد بمجده هذا وعظمته وفصاحته وبلاغته وجماله وروعته وأحكامه وحكمه وأخباره وقصصه وعلومه ومعارفه وسلاسته وفصاحته وحلاوته، يشهد بكلّ ذلك على أنّه من الله تعالى، وأنّ محمّداً رسول الله تعالى، وأنه منذر للكافرين إلا أنهم عجبوا أن جاءهم منذر منهم معتقدين أنه يجب أن يأتي الرسول والمنذر من الملائكة فلذلك كفروا وكذبوا الرسول حينما أنذرهم بمجيئ الحشر والحساب وبالحياة بعد الموت والحساب بعد الفوت فقال إن هذا الخبر

لشيء عجيب، فدلالة القرآن على أنّه من الله تعالى وأنّ محمّداً رسول الله واضحة، فلم يكن عدم إيمانهم لخفاء كون القرآن من الله تعالى (**بَلْ عَجِبُوا**) واستنكفوا واستكبروا عن الإيمان (**أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ**) فكانوا يريدون أن يأتي المنذر من الملائكة (**فَقَالَ الْكَافِرُونَ**) الّذين لم يؤمنوا نتيجة لكفرهم (**هَذَا**) هذا الإنذار من أنّه نحيا بعد الموت وندخل جهنّم إن لم نؤمن بهذا الرّسول ولم نترك عبادة الآلهة الّتي كنّا نعبدهم إلى الآن (**شَيْءٌ عَجِيبٌ**) جدّا. ثمّ ذكروا سبب إستعجابهم ممّا أنذروا به فقالوا: (**أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا**) وأصبحنا (**تُرَاباً**) فنبعث بعد ذلك ونحاسب (**ذَلِكَ**) الرّجع الّذي يقوله محمّد (**رَجْعٌ بَعِيدٌ**) عن العقل ومحال لا يمكن، هذا وكان استبعادهم للبعث لأمرين:

الأمر الأوّل: كيف يمكن إحصاء هذه الأنفس الهائلة والأشخاص الكثيرة اللّا معدودة من آدم إلى ما يقال له يوم القيامة، وكيف يمكن جمع أجزاء الإنسان المبعثرة، فمنها ما أكلته الأرض وبليت وما تفرّقت وتبعثرت، فقال جلّ وعلا:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾

(**قَدْ عَلِمْنَا**) علماً لا ينسى معه شيء فعلمنا بهذا العلم (**مَا**) الأجزاء الّتي (**تَنْقُصُ**) تأكل (**الأَرْضُ مِنْهُمْ**) والأجزاء الّتي لم تأكلها ممّا تفرّقت وما لم تتفرّق من أجزائهم (**وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ**) فيه اسماؤهم وأشخاصهم وأجزاؤهم ومكان أجزائهم المتفرّقة، وغير المتفرّقة، فبهذا العلم وبهذا الكتاب نجمعهم ونحييهم ولا ننسى أحداً منهم، ولا شيئاً من أجزائهم، فليس هذا الأمر صعباً ولا محالاً ولا سبيل إلى استبعادهم له (**بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ**) بما هو حقّ (**فَهُمْ فِي أَمْرٍ**) من هذا الإنكار والتّكذيب (**مَرِيجٍ**) منكر ذلك الأمر لأنّهم أنكروا ما هو حقّ.

الأمر الثّاني: هو أنّ الإنسان إذا مات وأصبح تراباً فكيف تعود الحياة إليه ويخرج إنساناً كما كان من قبل، فقال تعالى في دفع هذا الاستبعاد:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً

وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾

(**أَفَلَمْ يَنْظُرُوا**) نظر تفكّر واستدلال (**إلى السّماء**) الّتي تقع فوقهم، والاستفهام هنا للأمر أي فلينظروا إلى السّماء (**كيف بنيناها**) والاستفهام هنا للإعجاب أي بنيناها بناء عجيباً (**وزيّناها**) تزيننا عظيماً (**وما لها من فروج**) من شقوق أي اختلال في الخلق والتّرتيب والصّنع، فكما لم يكن خلق هذه السّماء محالاً فإعادة خلق الإنسان مرّة أخرى وأجزائه ليس محالاً ولا صعباً، بل أسهل حسب عقول النّاس لأنّ السّهولة والصّعوبة لا تقالان بالنّسبة إلى قدرة الله تعالى، فكلّ شيء بالنّسبة إليها سواء (**وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا**) فرشناها (**وَأَلْقَيْنَا**) وجعلنا (**فِيهَا**) في الأرض (**رَوَاسِيَ**) جمع راسية، وهي ما ترسي السّفينة وتحفظها من الأضطراب والميلان، والمراد بالرّواسي هنا الجبال، سمّيت رواسي لأنّها تمنع الأرض من الميلان كما تمنع الرّاسية السّفن، ففي الآية أيضاً تشبيه الأرض بالسّفن لأنّها واقفة على ما يوقفها وهو الهواء، كما أنّ السّفن واقفة على الماء، فكما احتاجت السّفن للرّاسيات، كذلك احتاجت الأرض إليها (**وَأَنْبَتْنَا فِيهَا**) في الأرض (**مِنْ كُلِّ زَوْجٍ**) صنف من النّبات والأشجار والورود والأزهار (**بَهِيجٍ**) جميل جدّاً، ذلك الصّنف يسرّ النّاظرين إليه (**تَبْصِرَةً**) جعلنا هذه الأشياء كذلك تبصرة إراءة لعظمة خلقنا وكمال قدرتنا، وليستدلّ كلّ ناظر على أنّ من خلق هذا الخلق العجيب فلا يصعب عليه الإحياء بعد الموت، بل إنّه سهل عليه جدّاً (**وَذِكْرَى**) وليتذكّر النّاظر إليه بأنّ من خلق هذا الخلق لم يخلقه عبثاً بل جعل له نظاماً وثواباً وعقاباً وفق النّظام، ولابدّ أن يأتي يوم للمحاسبة وفق هذا النّظام، ولينال المطيع ثوابه والعاصي عقابه تحقيقاً لعدالة الله تعالى فهو ذكرى (**لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ**) إلى الله راجع إلى الحقّ ويسعى ويحاول العلم به لا لكلّ أحد، فإنّ من لا يريد الحقّ ولا يحبّ العلم به لا يصل إليه فهو كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً (**وَنَزَّلْنَا**) لم يقل أنزلنا لأنّ المطر ينزل تدريجيّاً لا دفعة واحدة، ولو نزل دفعة واحدة لأفسد الزّرع والنّسل ولقضي على كثير من الأشياء (**مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً**) وهو المطر ووصفه بالمبارك لما فيه من مادة للإنبات والنّمو والزّيادة للنّبات والأشجار (**فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ**) بساتين كثيرة من الأشجار والثّمار (**وَحَبَّ الْحَصِيدِ**) وحبّ النّبات الّذي

يحصد كالحنطة والشّعير وكلّ ما يتقوّت به الإنسان **(وَالنَّخْلَ)** وأنبتنا بالماء النّخيل خصّصها بالذّكر مع أنّها ذكرت ضمن جنّات لكثرة فوائدها، لأنّها فاكهة وقوت أيضاً، وإنّ كلّ ما في النّخيل له فائدة فليس فيها شيء غير مفيد **(بَاسِقَاتٍ)** عاليات **(لَهَا طَلْعٌ)** الطّلع للنّخيل كالعنقود للكرم والعنب **(نَضِيدٌ)** متّصل حبّاته بعضها ببعض وخلقنا كلّ ما ذكر من الثّمرات **(رِزْقاً لِلْعِبَادِ)** ليكون رزقاً للعباد **(وَأَحْيَيْنَا بِهِ)** بالماء والمطر **(بَلْدَةً مَيْتاً)** لا نبات فيها فأحييناها، فظهرت فيها النّباتات والأشجار **(كَذَلِكَ)** مثل ما ترى من إحياء البلد الميّت بعد موتها وإحياء النّباتات بعد موتها والأشجار بعد يبسها، وغير ذلك ممّا يبهر العقول من هذا الكون العظيم والخلق العجيب، فكذلك **(الْخُرُوجُ)** من الإعادة بعد الإحالة والظّهور بعد الفناء والرّجوع بعد الزّوال.

ثمّ بعد أن نبّههم على هذه الأدلة ليستدلّوا بها على مجيء يوم القيامة وسهولة الإحياء بعد الموت فزادوا عتوّاً ونفوراً، أراد تعالى أن ينذرهم بالعذاب إذا استمرّوا على هذا الكفر والاستكبار، فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾

(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ) قبل قومك يا محمّد **(قَوْمُ نُوحٍ)** فذاقوا عذابهم **(وَأَصْحَابُ الرَّسِّ)** كذّبت بينهم فأهلكوا، والرّسّ البئر، كانوا مقيمين على بئر ومواشيهم، يعبدون الأصنام ونبيّهم قيل حنظلة وقيل غيره **(وَثَمُودُ)** وكذّبت ثمود نبيّهم صالحاً فأهلكوا **(وَعَادٌ)** وقوم عاد كذّبوا رسولهم هوداً فأهلكوا **(وَفِرْعَوْنُ)** وقوم فرعون كذّبوا رسولهم موسى فأهلكوا **(وَإِخْوَانُ لُوطٍ)** كذّبوا لوطاً فأهلكوا **(وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ)** أصحاب البساتين الملتفّة أشجارها بعضها ببعض، وهم قوم شعيب كذّبوا شعيباً فأهلكوا **(وَقَوْمُ تُبَّعٍ)** وهو ملك باليمن آمن فكذّبه قومه فأهلكوا **(كُلٌّ)** واحد من هذه الأقوام **(كَذَّبَ الرُّسُلَ)** أي كذّب كلّ قوم رسولهم. ولكن قال: الرّسل؛ لأنّ من كذّب رسولاً فقد كذّب كلّ الرّسل، لأنّ دعوتهم واحدة **(فَحَقَّ وَعِيدِ)** وعيدي وحقّ بمعنى ثبت ووقع، فمعناه وقع عليهم عاقبة وعيدي إيّاهم، وهو الهلاك والدّمار والعذاب، فلا تحزن يا رسول الله، فإنّ قومك مثلهم يوماً يلاقون فيه ما يستحقّونه من العذاب الأليم:

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾

(**أَفَعَيِينَا**) أفصعب علينا وعجزنا (**بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ**) وهو خلقهم أولاً، فيصعب علينا خلقهم ثانية يوم القيامة، والاستفهام للإنكار أي لم يصعب علينا خلقهم أوّلاً فلا يصعب علينا إعادتهم وخلقهم مرّة أخرى يوم القيامة (**بَلْ هُمْ**) ولكنّهم مع ظهور الأدّلة على سهولة الإحياء بعد الموت (**فِي لَبْسٍ**) في إنكار وحيرة (**مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**) يأتي عليهم بعد ما ماتوا، ويوم القيامة فينكرونه جهلاً وعناداً ولحيرتهم فيه.

فائدة: من المعاني اللّطيفة لقوله تعالى: (بل هم في لبس من خلق جديد) ما قاله شيخي وشقيقي الشّيخ عمر الباليساني حفظه الله تعالى برعايته: أنّ مذهب أهل السّنة والجماعة على أنّ أجزاء الجسم من جواهره وأعراضه لا تبقى آنين، بل في كلّ آن تذهب أجزاؤه وتفنى وتأتي مثلها مكانها، وذلك مثل ما ترى من ماء الشّط فإنّ الشّط واقف كما ترى إلّا أنّه لا ثبات لأيّ جزء من أجزائه بل يذهب الماء فيه ويأتي مثله، وأنت لا تشعر بذلك إلّا في منحدر من الشّط فقوله تعالى: (بل) ليس لهم إعادة في يوم القيامة فقط (بل هم) في كلّ آن (في لبس) تلبس (من خلق جديد) لهم فإنّهم في كلّ آن يزولون ويتجدّدون بتجدّد الأمثال، ففي كلّ وقت هم في فناء وإعادة وذهاب ورجوع، فكيف يتعجّبون من الإعادة في يوم القيامة ويستبعدونها وهم بهذا الحال من فناء واعادة دائما، أقول وقد أثبت العلم الحديث قول أهل السّنة هذا.

* * *

ثمّ أراد تعالى الله أن يذكر قدرته على الإنسان وعلمه به، ليعلم الإنسان أنّ هذا القادر العليم لا يعجز عن إحيائه بعد الموت وحسابه على أعماله؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾

(**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ**) أوجدناه من العدم بقدرتنا (**وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ**) ما تحدّث (**بِهِ نَفْسُهُ**) من خير أو شر (**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ**) علماً بحاله وأعماله ونياته (**مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد**) وهو عرق معلّق بالقلب، أي ونحن أعلم به من قلبه فإنّ القلب لا يدري بشيء حتّى يأتي إليه ويدخل فيه، ولكنّ الله تعالى يعلم بأمور القلب قبل أن يدخل فيه، فنحن أعلم به (**إِذْ**) وقتما (**يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ**) وهو الملكان الموكّلان بتسجيل أعماله، فنحن أعلم به

منهما إلّا أنّه وكّلناهما به لإلزام الحجّة بتسجيل أعماله، وليكونا شاهدين عليه وسمّيا (**الْمُتَلَقِّيَانِ**) المتلقّيان دائما لأنّهما متلازمان في ملازمته لا يفترقان عنه فأحدهما (**عَنْ الْيَمِينِ**) قعيد والآخر (**وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ**) فالّذي عن اليمين اسمه عتيد يكتب الحسنات والّذي عن الشّمال اسمه رقيب ويكتب السّيئات (**مَا يَلْفِظُ**) ما يتكلّم (**مِنْ قَوْلٍ**) من كلام (**إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ**) يراقبه فيكتبه إن كان سيّئاً و(**عَتِيدٌ**) فيكتبه إن كان قولاً حسناً، وسمّي من عن الشّمال رقيباً لمراقبته السّيئات وكتابتها ومن عن اليمين عتيداً أي شاهداً، لأنّه يشهد له بالحسنات يوم القيامة كما كتبها.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الإنسان بعد الموت فقال جلّ وعلا:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

(**وَجَاءَتْ**) بعد ما انتهى أجل حياته جاءته (**سَكْرَةُ الْمَوْتِ**) غمرته وشدّته، فجاءته وأتت عليه (**بِالْحَقِّ**) بمعاينة الحقّ وظهوره، وقيل له: (**ذَلِكَ**) الموت (**مَا كُنْتَ مِنْهُ**) في الدّنيا (**تَحِيدُ**) تفرّ وتخاف (**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ**) للبعث وللإحياء بعد الموت وأعلن يوم القيامة والحساب، وقيل له: (**ذَلِكَ**) الّذي تراه ووقع هو (**يَوْمُ**) وقت تنفيذ (**الْوَعِيدِ**) على المعاصي وهو يوم القيامة (**وَجَاءَتْ**) إلى ساحة الحساب (**كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ**) قال القرطبيّ في معنى هذه الفقرة من الآية: إنّ في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: إنّ ابن آدم لفي غفلة عمّا خلقه الله عزّ وجلّ له، إنّ الله لا إله غيره إذا أراد خلقه قال للملك اكتب رزقه وأثره وأجله، واكتبه شقيّاً أو سعيداً، ثمّ يرتفع ذلك الملك ويبعث الله ملكاً آخر فيحفظه حتّى يدرك، ثمّ يبعث الله ملكين يكتبان حسناته وسيّئاته، فإذا جاءه الموت ارتفع ذلك الملكان أو ذانك الملكان ثمّ جاءه ملك الموت فيقبض روحه، فإذا أدخل حفرته ردّ الرّوح في جسده، ثمّ يرتفع ملك الموت، ثمّ جاءه ملكا القبر فامتحناه ثمّ يرتفعان، فإذا قامت السّاعة انحطّ عليه ملك الحسنات وملك السّيئات فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثمّ حضرا معه واحد سائق والآخر شهيد، ثمّ يقال له: (**لقد كنت**) في الدّنيا (**في غفلة من هذا**) الحشر والحساب (**فكشفنا عنك**) أزلنا عن قلبك وعيونك (**غطاءك**) الّذي غفلت به عن هذا الموقف،

والغطاء هو الاستكبار والشّهوات والتّقاليد (**فبصرك اليوم حديد**) شديد الرّؤية يرى كلّ شيء وبعناية.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر حال الكافرين والعصاة في ذلك اليوم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾

إعلم أنّ كلّ إنسان له قرينان، قرين يأمره بالخير ويدعوه إليه، وقرين يزيّن له الشّر ويأمره به، فحينما يساق المجرم إلى ساحة الحشر أحضرا (**وقال قرينه**) الّذي كان يأمره بالخير وهو الملك (**هذا**) الشّخص (**ما**) كان (**لديّ**) ووكلّت به (**عتيد**) مهيّئ وحاضر هنا (**ألقيا**) أيّها السّائق والشّهيد (**في جهنّم كلّ كفّار**) كافر بنعم الله تعالى (**عنيد**) لشريعته وأوامره ورسوله (**منّاع للخير**) وهو مطلق فيحمل على كلّ ما هو خير وأهمّها اتّباع شريعة الله تعالى (**معتد**) ظالم نفسه أو غيره (**مريب**) يشكّك النّاس في دين الله تعالى وشريعته، ويدعوهم إلى ما يخالف منهج الإسلام والمسلمين (**فألقياه**) بسبب هذه الصّفات بعد إلقائه في جهنّم (**في العذاب الشّديد**) لشدّة كفره وعتوه وعناده، وهنا خاف قرينه الّذي كان يأمره بالشّر أن يلقى معه في العذاب ولذلك (**قال قرينه**) السّوء (**ربّنا ما أطغيته**) أنا أي ما أضللته (**ولكن**) هو بنفسه (**كان في ضلال بعيد**) عن الحقّ (**قال**) الله تعالى في جواب الكفّار والقرناء السّوء (**لا تختصموا لديّ**) فإنّه لا يفيدكم الإختصام شيئاً لأنّه (**وقد قدّمت إليكم**) في الدّنيا (**بالوعيد**) بالإنذار وبيان سبيل الخير والشّر وعاقبتهما في إدخال الأشرار جهنّم (**ما يبدّل القول**) الحكم (**لديّ**) وهو أنّ الأبرار لفي نعيم وأنّ الفجّار لفي جحيم (**وما أنا بظلّام**) في إدخال الأشرار جهنّم (**للعبيد**) الّذين يستحقّونها لأنّهم هم سلكوا سبيلاً يؤدّيهم إلى جهنّم، وقد أنذرناهم عنه فلم يلتفتوا إلى إنذارنا، فلست أنا بظلّام (**يوم**) ندخل هؤلاء جهنّم ثمّ (**نقول لجهنّم هل امتلأت**) من الأعداء لي ولديني (**وتقول هل**) يوجد (**من مزيد**) من زيادة في إطعامهم، فإنّي بعد أريد بلعهم وهضمهم.

فائدة: قال القرطبيّ (ﷺ): وفي صحيح مسلم والبخاريّ والتّرمذيّ عن أنس بن مالك (ﷺ) عن النّبيّ (ﷺ) قال: (لا تزال جهنّم يلقى فيها، وتقول هل من مزيد حتّى يضع ربّ العزّة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول قطّ قطّ بعزّتك وكرمك، ولا يزال في الجنّة فضل حتّى ينشئ الله لها خلقاً فيسكنهم فضل الجنّة)[1] واللّفظ لمسلم، وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: (وأمّا النّار فلا تمتلئ حتّى يضع الله عليها رجله ويقول لها: قطّ قطّ، فهنالك تمتليء وينزوي بعضها إلى بعض، فلا يظلم الله واحداً من خلقه أحداً، وأمّا الجنّة فإنّ الله ينشئ لها خلقاً آخر)[2]، قال علماؤنا (رحمهم الله): في معنى القدم أنّه قوم يقدّمهم الله تعالى إلى النّار، وقد سبق في علمه أنّهم من أهل النّار، وكذلك الرّجل يقال: رأيت رجلاً من جراد ورجلاً من النّاس وهو العدد الكثير من النّاس وغيرهم، ولكنّ تفسير القدم والرّجل بهذا المعنى لا يناسب إضافتها إلى الله تعالى، والّذي يجب أن يقال أنّ هذا الحديث من الأحاديث المتشابهة، فحكمها حكم الآيات المتشابهة، فعلى مذهب التّفويضي وهو مذهب السّلف يجب أن نقول أنّ لله قدماً ولا ندري كيف قدمه ورجله، وليس كمثله شيء آمنّا به كلّ من عند ربّنا. وعلى مذهب التّأويل نقول: إنّ اليد يراد بها القدرة والعزّة فالقدم والرّجل يراد بها العجز والذّلة، فجهنّم تطغى وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الله تعالى العجز والذّلة فيها، فتقول قطّ قطّ أي بس بس، هذا والله تعالى أعلم.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين أراد أن يذكر حال المؤمنين؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) صحيح البخاري ٦/ ٢٦٨٩ الحديث رقم ٦٩٤٩، الحديث رقم ٦٢٨٤، صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٨ الحديث رقم ٢٨٤٨.

(٢) صحيح مسلم ٤/ ٢١٨٨ الحديث رقم ٢٨٤٨.

(وَأُزْلِفَتْ) وقرّبت (الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) من الكفر والمعاصي فكانت (غَيْرَ بَعِيدٍ) عنهم ويقال لهم (هَذَا) الّذي ترونه (مَا تُوعَدُونَ) من قبل الله تعالى على لسان الرّسل، وهي مهيّئة (لِكُلِّ أَوَّابٍ) رجّاع إلى الله تعالى وتوّاب إليه، وهو الّذي يذكر ذنوبه فيستغفر منها (حَفِيظٍ) يحفظ نفسه عن المعاصي، قال عبيد بن عمر: كنّا نحدّث أنّ الأوّاب الحفيظ هو الّذي إذا قام من مجلسه قال سبحان الله وبحمده، اللّهم إنّي أستغفرك ممّا أصبت في مجلسي هذا، وفي الحديث من قال إذا قام من مجلسه: سبحانك اللّهم وبحمدك لا إله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك، غفر الله ما كان في المجلس. ثمّ بيّن الله تعالى الأوّاب الحفيظ فقال جلّ وعلا: (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) في الغيب معناه لا يعصي الله تعالى، وإن كان في مكان لا يدري به أحد وهم غائبون عنه، أو معناه بالقلب فإنّ القلب غيب لأنّه مستور، وقال خشي الرّحمن إشارة إلى أنّه لا تغرّه رحمانيّته، فتعصي متوكّلاً على رحمته وعفوه (وَجَاءَ) ويقبل على الطّاعة (بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) راجع إلى الله تعالى ليشعر بعظمته وجلال هيبته، فهؤلاء يقال لهم (ادْخُلُوهَا) أي ادخلوا الجنّة (بِسَلامٍ) ملتبسين بالسّلامة من كلّ مكروه (ذَلِكَ) اليوم الّذي يدخلون الجنّة هو (يَوْمُ الْخُلُودِ) يوم الحياة الّتي لا موت بعدها ولا فناء، فهي حياة أبديّة خالدة (لَهُمْ) لأهل الجنّة (مَا يَشَاءُونَ فيها) في الجنّة من الأطعمة والأشربة والفواكه والحور (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) من النّعم لهم، وهي النّعم الرّوحية كالعلم بالله تعالى ورؤيته وإدراك الحقائق على ما هي عليها، وهذه أعظم النّعم. قال الزركشي (ﷺ) في آخر رسالته الموسومة بـ (لقطة العجلان): (واتّفق أهل الحقّ على انحصار اللّذات في العلوم والمعارف وما عداها دفع للآلام).

ثمّ بعد ذكر الله تعالى الدّلائل في الآفاق والأنفس، وذكر هذا الوعد والوعيد الشّديد وأصرّ الكفرة على الإنكار والتّكذيب تألّم، من ذلك قلب رسول الله ﷺ فسلّاه الله تعالى وأنذر الكافرين، فقال جلّ وعلا:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُواْ فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

(**وَكَمْ**) وكثيراً (**أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ**) قبل الكافرين بك يا محمّد (**مِنْ قَرْنٍ**) من أهل قرن كانوا (**هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً**) قوّة من قومك (**فَنَقَّبُوا**) ففتّشوا (**فِي الْبِلادِ**) في بلادهم سائلين (**هَلْ مِنْ مَحِيصٍ**) من منج من هذا العذاب، فلم يجدوا منجّياً ولا مهرباً ممّا أصابهم من الهلاك (**إِنَّ فِي ذَلِكَ**) الّذي تلي عليهم من الدّلائل والوعد والوعيد والتّذكير بأحوال الأمم (**لَذِكْرَى**) لموعظة كافية رادعة (**لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ**) عقل (**أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ**) فاستمع استماع العبرة (**وَهُوَ شَهِيدٌ**) حاضر قلبه فارغ من الأنانيّة والاستكبار والتّقاليد والأطماع الدّنيوية، فإنّ كلّ هذه الإشياء تمنع الإنسان عن فهم الحقّ واتّباعه وتجعل القلب مغلقاً عن نفوذ الحقّ فيه. ثمّ بيّن الله تعالى قدرته على إهلاك هؤلاء الكافرين قبل من قبلهم فقال (**وَلَقَدْ خَلَقْنَا**) أخرجنا من العدم إلى الوجود (**السَّمَوَاتِ**) العالم العلويّ كلّه (**وَالأَرْضَ**) والعالم السّفلي (**وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ**) جميعه (**وَمَا مَسَّنَا**) وما أصابنا في خلقها شيء (**مِنْ لُغُوبٍ**) من تعب وإعياء ومشقّة، فمن كانت قدرته هذه فلا يعجز عن إهلاك هؤلاء الكافرين، وهم أضعف ممّن أهلكناهم من قبلهم. ثمّ أمر الله تعالى نبيّه بالصّبر والعبادة، فإنّ ذلك يسلّي القلب ويجلب النّصر والظّفر بالأعداء، فقال تعالى تثبيتاً له ومنعاً له من القتال معهم إلى أن يأتي يوم القتال:

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

(**فَاصْبِرْ**) يامحمّد (**عَلَى مَا يَقُولُونَ**) هؤلاء الكفرة من تكذيبك والاستهزاء بك، فإنّ لهم يوماً، فاصبر إلى أن يأتي أجلهم وموعد عذابهم (**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**) وداوم على تسبيح الله تعالى وحمده (**قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ**) وهو ما بين الفجر الصّادق إلى طلوع الشّمس لأنّ هذا الوقت مبارك ويسنّ إحياؤه بالعبادة من التّسبيح والحمد وتلاوة القرآن، أو غير ذلك (**وَقَبْلَ الْغُرُوبِ**) وقبل غروب الشّمس، وهو وقت صلاة العصر إلى إن تغرب الشّمس (**وَمِنْ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ**) وسبّحه بعد الصّلوات المكتوبة، فالتّسبيح والحمد والذّكر بعد الصّلوات المكتوبة أفضل وأقرب إلى الاستجابة، وقد أمر الرّسولﷺ بها، وذكر في التّاج عن مسلم: (من سبّح الله دبر كلّ صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمده ثلاثاً وثلاثين، وكبّر الله ثلاثاً وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال: تمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، غفرت

له خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)[١] ثمّ أوعد الله تعالى بعذابهم في الدّنيا فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

(**وَاسْتَمِعْ**) اصبر يا محمّد إلى أن يأتي يومهم، فإذا أتى يومهم (**واستمع**) في ذلك اليوم صيحتهم وصراخهم، ثمّ شرح ذلك اليوم؛ فقال جلّ وعلا: (**يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ**) منهم للحرب (**ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ**) للحرب والقتال، وفي ذلك يلقون عذابهم في الدّنيا، وهذا كان يوم بدر الكبرى الّذي أهين وأذلّ فيه المشركون، ثمّ أنذرهم بعذاب الآخرة أيضاً، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

(**إِنَّا نَحْنُ**) لا غيرنا (**نُحْيِي**) كلّ من حيّ (**وَنُمِيتُ**) كلّ من مات (**وَإِلَيْنَا**) لا إلى غيرنا (**الْمَصِيرُ**) مصيرهم، فنحاسبهم على ما يقولون وعلى ما يفعلون، ونعاقبهم على ذلك كلّه، ويكون مصيرهم إلينا (**يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ**) فيخرجون منها ويقدّمون علينا (**سِرَاعاً**) مسرعين (**ذَلِكَ**) الخروج من القبر والقدوم علينا هو (**حَشْرٌ**) حشرهم وحشر النّاس جميعاً وذلك الحشر وجمعهم وحسابهم (**عَلَيْنَا يَسِيرٌ**) سهل علينا لا صعوبة فيه (**نَحْنُ أَعْلَمُ**) منك (**بِمَا يَقُولُونَ**) فيك من التّكذيب والاستهزاء، وفينا من نسبة الشّريك إلينا والبنات، فنحن ننتقم منهم لا أنت (**وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ**) وما أنت بمسلّط عليهم، فما أمرناك بجبرهم على الإيمان وقتلهم، إن لم يؤمنوا، وليس ذلك من وظيفتك وإنّما وظيفتك التّبليغ والإنذار فقط (**فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ**) بما فيه من الوعد والوعيد والأحكام والتّوحيد، فذكّر وعظ به كلّ (**مَنْ يَخَافُ وَعِيد**) يخاف وعيدي فيترك الشّرك والكفر خوفاً من عذابي بعد الذّكر به والإنذار.

---

(١) صحيح مسلم ٤١٨/١ الحديث رقم ٥٩٧.

سؤالان: السّؤال الأول: فإذا كان الرّسول (ﷺ) لم يكن من وظيفته إلّا التّبليغ والإنذار، ولم يؤمر بجبر النّاس على الإيمان، فلماذا قام (ﷺ) بهذه الحروب واستمرّ المسلمون بعده على قتال الشّعوب والأقوام؟

الجواب: يتضمّن الجواب شقّين:

أوّلاً: إنّ الرّسول لم يقم بالحرب لجبر النّاس على الإيمان، وإنّما كان النّاس يستعدّون ويتهيأون للهجوم عليه والقضاء على دينه، فكان يدافع ويقيم القتال دفاعاً عن النّفس وعن العقيدة، فكانت حروبه (ﷺ) كلّها دفاعيّة لا هجوميّة.

ثانياً: إنّه كان ممنوعاً من القتال وقت نزول هذه الآية مطلقاً، سواء كانت الحروب دفاعيّة أو هجوميّة، ثمّ أذن له في القتال دفاعاً، ولردّ العدوان عليهم أو على العقيدة، أو جبراً ما ظلم من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ سورة الحج الآية /٣٩، أو كان يشتكي شعب من إستعباد الظّلمة لهم وتسخيرهم تحت نيرهم، فقام هو أو المسلمون بعده لتحريرهم من ربقة الظّلم والعبوديّة للطّغاة الظّالمين.

السّؤال الثّاني: هو أنّ التّذكير عامّ فكيف قال تعالى: (فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد) وإلى أنّ الخائف من الوعيد لا يعرف إلّا بعد التّذكير العام، فحينئذ يتبيّن الخائف من غيره؟

الجواب: إنّ المعنى فذكّر التّذكير المفيد لمن خاف وعيدي، فالتّذكير عامّ ولكنّ الفائدة خاصّة، فالمعنى فذكّر كلّهم ليفيد التّذكير من يخاف وعيدي، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فذكّر إن نفعت الذّكرى﴾ أي أنّه تنفع الذّكرى، أو نقول: إنّ قوم الرّسول ومن كان في أطرافه كلّهم كانوا يعرفون الله تعالى ويخافون وعيده وعذابه، ويرجون رحمته إلّا أنّهم كانوا يشركون به ولا يعملون بشريعته، فيحنما قال (فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) يشمل كلّهم إلّا أنّ الّذين لم يؤمنوا لم يصدّقوا بالرّسول، وبأنّ هذا الإنذار من الله تعالى وأنّه رسوله، فأنكروا رسالته لا ألوهيّة الله تعالى وقدرته، فإنّه تعالى يقول: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ سورة الزخرف الآية/ ٩.

هذا آخر ما وفقنا الله لتحريره في هذه السّورة الكريمة، فنرجو من الله تعالى القبول والثواب عليه، وأن يرزقنا التّوبة والإنابة إليه إنّه نعم المولى ونعم المعين.

سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين، والحمد لله ربّ العالمين.

٨/ شعبان/ ١٤٠٦ = ١٧/ نيسان/ ١٩٨٦.

سورة الذّاريات

(مكيّة، نزلت بعد سورة الأحقاف وآياتها ستّون، سمّيت بالذّاريات لقوله تعالى: ﴿والذّاريات ذرواً﴾).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾

ذكر المفسّرون لهذه الآيات الكريمة عدّة معان أصحّها وأليقها بالقبول كما قال الإمام الرّازي ما نقول: **(والذّاريات)** والرّياح الّتي تنشر أجزاء البخار المتصاعدة **(ذرواً)** نشراً وبذلك تنشيء السّحاب **(فالحاملات)** فالرّياح الّتي تحمل **(وقراً)** أي سحاباً ثقيلاً بالمياه الّتي توجد فيه، فتتقطّر وتنزل مطراً كثيراً **(فالجاريات)** فالرّياح أو السّحب الجاريات من الجوّ من قطر إلى قطر ومن بلد إلى بلد **(يسراً)** بسهولة **(فالمقسمات)** فالرّياح المقسّمة **(أمراً)** من أمور الأمطار بإذن الله تعالى، فتسوق السّحب من جانب إلى آخر، وبذلك تقسّم المطر وتوزّعه على الأقطار. أقسم الله تعالى بهذه الرّياح على حقيقة ما أخبر به من قوله: **(إنّ ما توعدون)** من مجيء يوم القيامة **(لصادق)** لخبر صادق، وإنّه ليأتي بدون شكٍ **(وأنّ الدّين)** وأنّ جزاء الإنسان على عمله إن خيراً فبخير وإن شرّاً فبعذاب أليم **(لواقع)** ليقع ويوجد في ذلك اليوم. وأقول: أقسم الله تعالى بهذه الأمور بحسب الظّاهر على مجيء يوم القيامة ووجود الجزاء فيه، إلّا أنّه تعالى استدلّ بهذه الأمور في الحقيقة وبرهن بها على مجيء ذلك اليوم والجزاء فيه، وتصوّر الدّليل هكذا: إنّكم ترون بأمّ أعينكم هذه الرّياح الّتي تنشر الأجزاء البخاريّة وتبثّها بثّاً في هذا الجوّ

الممتد، ثمّ تجعلها سحباً مليئة بالمياه بحيث تثقل هذه السّحب، ثمّ تجري تلك السّحب جرياً سهلاً ومقسّماً إلى حيث أراد الله تعالى، فتقسّم الأمطار على البقاع والبلاد والعباد، ففي هذه التّعريفات دليل واضح على أنّ الإحياء بعد الموت أمر ممكن ولا إستحالة فيه، وذلك لأنّ تحويل الإنسان إلى أجزاء ترابيّة بعد الموت ثمّ إعادتها إلى أجزاء الإنسان الحيّ مرّة أخرى ليس إلّا كتحويل الأجزاء المائيّة إلى البخار الّذي يصعد إلى السّماء، ثمّ جعلها سحاباً، ثمّ إعادتهما إلى أجزاء مائيّة كما كانت، فتنزل أمطاراً، وإنّ الّذي يقدر على هذا النّظام البديع نظام السّحب والأمطار، وعلى هذا الصّنع العجيب لقادر أيضاً على جمع أجزاء الإنسان وإعادتهما إلى الحياة مرّة أخرى. وأنّ ما توعدون من هذه الإعادة لواقع؛ لأنّ من وضع هذا الصّنع للإنسان ولأن يعيش ويحيا بذلك على الأرض، لا يعقل أن يترك الإنسان بدون نظام تكليفيّ يوجب عليهم العمل به، وأنّ كلّ نظام يوجب ثواباً وتقديراً لمن أطاعه وعقاباً على من خالفه، وحيث لا يوجد الثّواب والعقاب في الدّنيا كلّيّاً يجب أن يأتي يوم يجري فيه ذلك الثّواب والعقاب، ليتحقّق عدالة الله تعالى.

﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾

(والسّماء ذات الحبك) ذات النّجوم والكواكب الكثيرة والّتي تشكّل تنظيمها وسيرها مدارات ومسارات فيها كالطّرق في الأرض **(إنّكم)** أيّها النّاس في أمر الآخرة **(لفي قول مختلف)** فمنكم من يقول به ويؤمن ومنكم من لا يؤمن به ويكفر. وهذه الآية أيضاً قسم ظاهراً ولكنّها دليل على مجيء ذلك اليوم والجزاء فيه، فالمعنى والله تعالى أعلم: أنّ خلق الله تعالى لهذه السّموات الّتي خلق فيها هذه النّجوم الحسان، وتلك البروج العظام، والمنازل العجيبة والدّرجات المتعدّدة والمدارات المستقيمة، لدليل واضح على أنّ من قدر على هذا الخلق العظيم وإيجاد هذا الصّنع العجيب لقادر على أن يعيد إلى الإنسان الحيوة بعد الموت، وأنّكم مختلفون في القول بهذه الإعادة بين مؤمن بها وكافر، وهذا الاختلاف يشهد على إمكان ذلك، فإنّ المستحيل لا يقع فيه الخلاف، وأنّ من وضع هذا النّظام التكويني لا يعقل أن لا يضع نظاماً تكليفيّاً يوجب الثّواب والعقاب، فيأتي لهذا الجزاء حتماً يوم ينفذان فيه تحقيقاً لعدالة الله تعالى **(يؤفك)** يصرف **(عنه)** عن الإيمان بما توعدون من مجيء هذا اليوم والجزاء فيه **(من أفك)** من صرف فلم يؤمن به حيث صرف من الحقّ والتّفكير الصّحيح.

ثمّ يذكر الله تعالى حال هؤلاء غير مؤمنين وقلقهم في الدّنيا؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(قتل) أصله دعاء بالقتل ولكنّ الدّعاء لا يليق بذات الله تعالى، فلذلك يحمل على الذّم فالمعنى لعن **(الخراصّون)** الكذّابون وهم القائلون في الأمور بالتّخمين والظّن دون تفكير صحيح وتدبير سليم **(الّذين هم)** وقعوا **(في غمرة)** في غفلةٍ عن الحقّ وجهالة بالأمور ولهذه الغفلة الّتي نشأت عن العتو والاستكبار هم **(ساهون)** تاركون السّعي للوصول إلى الحقّ والإيمان به **(يسألون)** إنكاراً واستهزاءً ويقولون: **(أيّان)** متّى يأتي **(يوم الدّين)** يوم الجزاء الّذي تقولون به أيّها المسلمون؟ فيجيبهم الله تعالى جواباً كلّه إهانة وتحقير فيقول: **(يوم)** يأتي يوم الجزاء **(هم على النّار)** في نار جهنّم **(يفتنون)** يحرقون ويعذبون، ويقال لهم حين العذاب **(ذوقوا)** أيّها الكفرة **(فتنتكم)** عذابكم **(هذا الّذي)** هذا هو العذاب الّذي **(كنتم)** في الدّنيا **(به تستعجلون)** أي تستعجلون به وتقولون: متى يأتي؟ ولم لا يأتي؟ وتقولون ذلك كفراً واستهزاءً بالمؤمنين به.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مصير الكفّار في ذلك اليوم وعذابهم أراد الله تعالى أن يذكر حال المؤمنين وثوابهم فيه، فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

(إنّ المتّقين في جنّات وعيون) هذه بشارة بدخول المؤمنين إلى الجنّات الّتي تتكاثر فيها عيون الماء **(آخذين ما آتاهم)** مستلمين ما أعطاهم **(ربّهم)** من ما في الجنّة ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر ببال أحد من النّعيم والعزّ والتّكريم، ثمّ علّل الله تعالى هذا العطاء فقال **(إنّهم كانوا)** في الدّنيا **(قبل ذلك)** الوقت **(محسنين)** يقومون بالإحسان والمراد بالإحسان إمّا الإحسان اللّغوي فيكون المعنى أنّهم كانوا محسنين ويحسنون إلى النّاس فأحسن الله تعالى جزاءهم وعطاءهم، أو المراد به الإحسان الإصطلاحي وهو ما قال الرّسول (ﷺ) فيما معناه: (أن تعبد الله كأنّك تراه

فإنّ لم تكن تراه فإنّه يراك)[١] والثّاني مستلزم للأوّل وليس العكس. أو المراد كلا المعنيين ويؤيد ذلك الآيات التّالية، فإنّها تدلّ على وجود كلا المعنيين فيهم فإنّ قوله جلّ وعلا:

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

(كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون) معناه كانوا في جزء قليل من اللّيل ما ينامون بل يعبدون الله تعالى في ذلك الجزء أو معناه كانوا **(ما)** أي الوقت الّذي يهجعون ينامون فيه من اللّيل كان قليلاً أي كانوا يقومون أكثر اللّيل، وعلى كلا التّقديرين تكون هذه الآية معبرة عن إحسانهم بالمعنى الإصطلاحي لأنّ هذا المعنى يحثّ المسلم على قيام اللّيل والعبادة فيه وأنّ قوله تعالى: **(وبالأسحار)** فإنّ معناه وفي الأسحار **(هم يستغفرون)** أي يطلبون المغفرة من الله تعالى والأسحار جمع سحر وهو آخر اللّيل وهذا الوصف أيضاً من مستلزمات الإحسان الإصطلاحي، وقوله تعالى: **(وفي أموالهم حقّ معلوم للسّائل والمحروم)** يدلّ على الإحسان بالمعنى اللّغوي فإنّ معنى الآية ويخصّصون **(من أموالهم)** جزءاً يعتقدون أنّه **(حقّ)** واجب عطاؤه فيعطونه **(للسّائل)** للفقير الّذي يستجدي ويطلب **(والمحروم)** الّذي أصابته آفة قضت على ما له فأصبح محتاجاً بعدما كان غنيّاً إلّا أنّه لا يسأل إستحياءً. وهذه الصّفة وهي بذل المال للفقراء يناسب الإحسان بالمعنى اللّغوي، فهذه الآيات دلّت على وجود الإحسان فيهم بالمعنيين والله تعالى أعلم. وفي هذه الآية دليل على وجوب صرف المال للمستحقّين زيادة على الزّكاة إذا دعت الحاجة إليه وتوجد آيات كثيرة تدلّ على ذلك.

---

(١) صحيح البخاري ١/٢٧ الحديث رقم ٥٠ ونصه: عن أبي هريرة قال كان النبي (ﷺ) بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال ما الإيمان قال أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث قال ما الإسلام قال الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان قال ما الإحسان قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك قال متى الساعة قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل وسأخبرك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها وإذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان في خمس لا يعلمهن إلى الله ثم تلا النبي (ﷺ) إن الله عنده علم الساعة... الآية، ثم أدبر فقال: ردوه فلم يروا شيئا، فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم.

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾

(وفي الأرض آيات) أي وفي الأرض دلائل وبراهين كثيرة على الإحياء بعد الموت؛ فإنّ كلّ ما في الأرض هو إخراج بعد الموت ثمّ إماتة ثمّ إحياء، فالنّبات يخرج من البذرة بعدما جيفت وتفتّتت في ظلمة الأرض ثمّ ينمو شيئاً فشيئاً، ثمّ يصير هشيماً تذروه الرّياح ثمّ يعود وينبت من بذرته المدفونة والبالية في الأرض، والشّجر ينبت من النّواة الّتي تفتّتت وبليت تحت الأرض ثمّ بعد ذلك ينمو ثمّ يجفّ ويموت ثمّ ينبت من نواتها مرّة أخرى إلى غير ذلك، فكلّ ما ترى في الأرض هو فناء بعد وجود وإعادة بعد فناء. فهذه الحالات الموجودة في ما في الأرض كلّها آيات تدلّ على صحّة الإحياء بعد الموت إلّا أنّها آيات **(للموقنين)** الّذين يريدون اليقين والعلم والوصول إلى الحقّ بالتّفكير الصّحيح في الموجودات، وأمّا غير هؤلاء فكالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً، فلا يصلون إلى معرفة شيء **(وفي أنفسكم)** وفي ذواتكم أيضاً آيات، فإنّ الإنسان حينما تفكّر في نفسه من أنّه كان في الأصل تراباً، فأصبح التّراب نباتاً، وأصبح النّبات غذاءً، والغذاء دماً، والدّم نطفة والنّطفة علقةً والعلقة مضغةً، ويربّى هكذا في ظلمات البطن، فإذا تفكّر في حالاته هذه لا يستبعد الإحياء بعد الموت. وحينما صار تراباً فإنّ من أوجده أوّلاً من التّراب وبهذه الأطوار لا تصعب عليه إعادته حيّاً بعد الممات والتّحول إلى تراب. وإنّ الإنسان كلّ يوم يصيبه ما يماثل الموت وهو النّوم، ثمّ يعود إليه شعوره وروحه المدركة، ولاشكّ أنّ من حكم خلق النّوم هو الإيمان بالحياة بعد الموت، ففي ذات الإنسان توجد آيات ودلائل على صحّة الإحياء بعد الموت **(أفلا تبصرون)** أنفسكم وتتفكّرون فيه فتعرفوا بذلك أنّ الحياة بعد الموت حقّ ولا شكّ فيها. ثمّ إنّ كثيراً من النّاس يسلكون سبيل الباطل ولا يؤمنون مع ظهور الأدلّة على حقية ما يكفرون به، كلّ ذلك للحصول على الرّزق والحفاظ على منافعهم ومناصبهم، فلذلك نرى أنّ الله تعالى بعدما ذكر الآيات في الأرض وفي الأنفس على صدق ما أخبر به القرآن يقول: **(وفي السّماء رزقكم)** وفي السّماء وبيد الله تعالى رزقكم **(وما توعدون)** من المناصب والمراتب فلا تخافوا الفقر حينما تدعون إلى الحقّ، ولا تخافوا الخسارة في المال والمنصب، فإنّ كلّ ذلك بيد الله تعالى لا بيد المضلّين والمبطلين.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى آيات ودلائل على حقيّة يوم القيامة وألّفت أنظارهم إلى تلك الآيات، فلم يؤمنوا بل أصرّوا على كفرهم وعنادهم، أكدّ الله تعالى مجيء يوم القيامة بالقسم واليمين، فقال جلّ وعلا:

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

(فوربّ السّماء والأرض إنّه) إى مجيء يوم القيامة **(لحقّ)** لآتٍ وثابت **(مثل ما أنّكم)** أيّها المنكرون **(تنطقون)** فلا تشكّون في نطقكم، فكذلك لا تشكّوا في القيامة ومجيئها.

تمهيد: ذكر الله تعالى للكافرين آيات تدلّ على قدرته الظّاهرة والقاهرة وعظمته الباهرة، وعلى مجيء يوم القيامة وحسابهم فيه وجزائهم حسبما عملوا، فلم يسمعوا لذلك كلّه بل أصرّوا على كفرهم وتكذيبهم للرّسول(ﷺ)، وأثّر ذلك في قلب الرّسول وأوجد فيه حزناً فسلّاه الله تعالى بذكر حال الرّسل السّابقين، وأنّهم لقوا ما لقي من التّكذيب والإنكار، وفي طيّ ذلك إنكار الكافرين بذكر تدمير تلك الأمم المكذّبة لرسلها ومقابلتهم لهم بالسّخرية والاستهزاء نتيجة الكفر والتّكذيب والتّولي عن الإيمان برسلهم، فليحذر الّذين يتولّون عن اتّباع محمّد (ﷺ) والتّولي عن دينه وتطبيق شريعته أن يصيبهم مثل ما أصاب تلك الأمم من العذاب والتّنكيل فقال جلّ وعلا:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾

(هل أتاك) الاستفهام للتّقرير فالمعنى قد أتاك **(حديث)** خبر **(ضيف إبراهيم)** فتسلّ بهذا الخبر ولا تحزن، فإنّ النّصر لك والهزيمة لأعدائك، وهكذا يكون حال المرسلين يلاقون الأذى والسّخرية والتّكذيب، ثمّ يكون لهم ولدينهم الغلبة والسّلطان **(المكرمين)** صفة ضيف، لأنّ الضّيف جنس يشمل الكثيرين، والمراد بهم الملائكة، فإنّهم مكرمون عند الله وقد أكرمهم سيدّنا إبراهيم (عليه السلام) فأحسن ضيافتهم **(إذ دخلوا)** اذكر إذ دخل الضّيف **(عليه)** على إبراهيم (عليه السلام) **(فقالوا)** لإبراهيم **(سلاماً)** أي نسلّم عليك سلاماً **(قال)** إبراهيم **(سلام)** أي سلام عليكم **(قوم)** أنّكم قوم **(منكرون)** مجهولون لا نعرفكم، وهنا يظهر أنّ السّلام هو تحيّة الملائكة والأنبياء والمرسلين، وتحيّة

المسلمين وشعارهم في أوّل ما نزل آدم إلى الأرض إلى يومنا هذا، فمن عدل عنه فقد عدل عن شعار الملائكة والأنبياء والمسلمين، وكفى بذلك الملامة والتّكدير.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾

(فراغ) فمال وذهب إبراهيم **(إلى أهله)** أهل بيته **(فجاء بعجل سمين)** بعجل سمين مشويّ لهم ليأكلوه **(فقربه إليهم)** ووضع العجل بين أيديهم قريباً، فرآهم أنّهم لا يأكلون ولا يمدّون أيديهم إليه **(فقال ألا تأكلون)** الاستفهام للتّعجب لماذا لا تأكلون؟ **(فأوجس منهم خيفةً)** فلمّا رأى إبراهيم أنّهم لا يأكلون **(أوجس)** أضمر **(منهم خيفة)** منهم لأنّ من العادة أن الضّيف إذا أراد شرّاً بالمضيف فلا يأكل طعامه **(قالوا لا تخف)** فإنّا رسل ربّك وملائكته، وليس من شأننا الأكل **(وبشرّوه بغلام عليم)** بأنّه سيولد له ابن ويكون عليماً أي نبيّاً، وكانت امرأته **(سارة)** عقيمة فلم يكن لهما ولد. ويفهم من هذه الآية شيئان:

الأوّل: أنّ الملائكة يتشكّلون بأشكال الآدميين.

الثّاني: حينما يتشكّلون بأشكال الغير لا يتّصفون بصفاتهم وخصائصهم، بل يبقون على جبلتهم من عدم الأكل والشّرب والجنس.

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ﴿٢٩﴾﴾

(فأقبلت امرأته) فلمّا سمعت امرأته هذه البشارة أقبلت وجاءت إلى الملائكة **(في صرّة)** في حالة من الصّيحة صياح تعجّب **(فصكّت)** ولطمت وضربت **(وجهها)** بيديها على عادة النّساء من أنّهنّ إذا سمعن أو علمن شيئاً عجيباً يضربن على وجههنّ ويلطمن **(وقالت عجوز عقيم)** أي أنا عجوز عقيم ولا يتصوّر أن تلد مثل هذه العجوز فكيف ألد.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

(قالوا كذلك قال ربّك) أي إنّ الأمر مثل ما قلت من أنّك عجوز عقيم لا يتصور منها أن تلد، إلّا أنّه حكم ربّك بذلك بأن تلدي ولداً، وما حكم الله به فإنّه يكون حيث

(إنّه) الله **(هو الحكيم)** الّذي لا يحكم بشيء ولا يأمر بشأن إلّا وفيه الحكمة المتقنة والمصلحة الحسنة **(العليم)** الّذي يعلم كيف يخلق.

ثمّ بعد ذلك علم إبراهيم (عليه السلام) أنّ الملائكة لم يأتوا إلّا لأمر خطير وشأن كبير، فسألهم كما يخبرنا الله جلّ وعلا:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

(قال) إبراهيم للملائكة **(فما خطبكم)** فما أمركم الخطير الّذي جئتم لأجله إلى الأرض **(أيّها المرسلون)** أيّها الملائكة المرسلون من عند الله تعالى، ولماذا أرسلكم الله **(قالوا إنّا أرسلنا إلى قوم مجرمين)** هم قوم لوط أجرموا بالكفر وبالانحراف والشّذوذ الجنسي بإتيانهم الذّكور دون الإناث **(لنرسل)** لننزل ونمطر **(عليهم حجارة)** مطبوخة بالنّار **(من طين مسوّمة)** معلّمة فإنّه كان على كلّ حجارة اسم من يرقى بها إليه، وقد كتبت هذه العلامة **(عند ربّك)** يا إبراهيم، وعيّنت تلك الحجارة **(للمسرفين)** للخارجين عن أمر الله تعالى بالكفر وعن مقتضى الطّبيعة بإتيان الذّكور. ثمّ قبل أن يرمي الملائكة ذلك القوم أمروا لوطاً بأن يخرج هم ومن معه من المؤمنين قبل الرّمي كما قال تعالى: **(فأخرجنا من كان فيها)** فأمرنا بإخراج من كان في القرية **(من المؤمنين)** قبل رمي القوم بالحجارة وإهلاكهم وإهلاك القرية وتدميرها إلّا أنّه لم يوجد إلّا أهل بيت من المسلمين، وهو بيت لوط الّذي كان فيه لوط وإبنتان فقط، وذلك كما قال تعالى: **(فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)** أي غير أهل بيت من المسلمين الّذين آمنوا بالله وبلوط، وانقادوا لأمر الله تعالى وهم لوط وابنتاه **(وتركنا فيها)** في القرية بعد إهلاك أهلها **(آية)** عبرة ليعتبر بها الأجيال اللّاحقة فلا يعصون الله تعالى ولا يكفرون به، وإنّ هذه الآية وغيرها من الآيات لا تنفع إلّا **(للّذين يخافون العذاب الأليم)** وهم المؤمنون بالله وبوخامة عاقبة الكفر والمعاصي، ولذلك خصّوا بالذّكر وإلّا فهذه العلامة علامة لكلّ النّاس، ولا تزال باقية ويراها من يمرّ بديار لوط من الحجارة السّوداء المتراكمة

الّتي جعلت الأرض قاحلة لا تنبت ولا تثمر، وتقع بين الشّام والحجاز.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى قصّة سيّدنا إبراهيم عليه السلام بدأ بذكر قصّة سيّدنا موسى (عليه السلام) فقال جلّ وعلا:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

(وفي موسى) وتركنا في قصّة موسى آية للعالمين **(إذ أرسلناه إلى فرعون)** ليبلّغه شريعة الله ويهديه إلى عبادة الله ويعظه وينصحه، وجاء إليه **(بسلطان)** بدليل **(مبين)** واضح على رسالته أو موضّح رسالته، وهي المعجزات الّتي أظهرها له، إلّا أنّ فرعون طغى ولم يؤمن، كما قال جلّ وعلا:

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

(فتولّى) أعرض فرعون عن الإيمان **(بركنه)** مع ركنه وهو الجيش، أو معناه تولّى بسبب ركنه أي غلبته وقوّته الّتي كانت له **(وقال)** في حقّ موسى هو **(ساحر)** وإنّ هذه الخوارق الّتي يأتي بها سحر يسحر بها النّاس بسبب علم السّحر **(أو مجنون)** أي تسلّط عليه الجنّ فيعلّمونه هذه الخوارق ويسوقونه إلى الإتيان بها ليضلّكم عن طريقتكم. وليس معنى المجنون هنا من اختلّ عقله، فإنّه بهذا المعنى لا يستطيع السّحر ولا يعلمه فيقع التّناقض في الكلام **(فأخذناه)** فعاقبناه **(وجنوده)** مع جنوده **(فنبذناهم)** فطرحناهم **(في اليمّ)** في البحر **(وهو)** فرعون **(مليم)** آت بما يلام ويستحقّ اللّوم عليه وهو الكفر وإدعاء الألوهيّة وعدم اتّباع رسول الله تعالى وهو موسى (عليه السلام).

ثمّ ذكر الله تعالى قصّة عاد فقال جلّ وعلا:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

(وفي عاد) أي وتركنا في قوم عاد آية للعالمين **(إذ أرسلنا)** أي وتلك الآية كانت حينما **(أرسلنا عليهم الرّيح العقيم)** الرّيح الّتي لا تمطر ولا تلقّح ولا تنفع بل تضرّ.

وكان من صفة تلك الرّيح أنّها **(ما تذر)** ما تترك **(من شيء أتت عليه إلّا جعلته كالرميم)** كالبالي المتفتّت، سواء كان ذلك الشّيء نفساً أو مالاً إلّا ما أراد الله تعالى أن لا تهلكه، هذا وقد ذكرنا قصّة عاد في تفسير سورة الفجر بتفصيل مفيد لمن أراد الاستزادة.

ثمّ بدأ الله تعالى بذكر قصّة ثمود فقال جلّ وعلا:

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(وفي ثمود) أي وتركنا في قوم ثمود آية **(إذ قيل لهم)** من قبل رسولهم بعد أن عقروا النّاقة وخالفوا أمر الله تعالى **(تمتّعوا)** عيشوا **(إلى حين)** وهو مدّة ثلاثة أيّام. ذكر المفسرون هنا معنيين:

الأوّل: أنّه قال لهم رسولهم صالح أوّل ما جاء: تمتّعوا إلى حين انتهاء آجالكم بسعادة أن تؤمنوا **(فعتوا)** ستكبروا وخرجوا عن إطاعة أمر ربّهم **(فأخذتهم)** فبسبب ذلك ونزلت عليهم **(الصّاعقة وهم ينظرون)** إليها ويرونها فأهلكتهم، وهذا المعنى لا يلائم قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ (٦٤) فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ سورة هود الآية (٦٤-٦٥)، لأنّ الظّاهر من هاتين الآيتين أنّه قيل لهم تمتّعوا على ثلاثة أيّام بعد عقر النّاقة.

الثّاني: إنّ رسولهم قال لهم بعد عقر النّاقة تمتّعوا ثلاثة أيام، وبعد ذلك ينزل عليكم العذاب، وهذا المعنى أيضاً لا يستقيم؛ فإنّه لا يترتب عليه قوله: **(فعتوا عن أمر ربّهم)** لأنّ الأمر قد انتهى وقد عقرت النّاقة، وعندي أنّ صالحاً(ﷺ) قال لهم بعد عقر النّاقة وحقّت عليكم كلمة العذاب فتمتّعوا في داركم ثلاثة أيام، فإن تبتم إلى الله وآمنتم وأصلحتم حالكم فيغفر لكم وإلّا فينزل عليكم العذاب بعد ثلاثة أيام **(فعتوا عن أمر ربّهم)** هذا ولم يتوبوا بل قصدوا أن يقتلوا صالحاً حيث هدّدهم بالعذاب **(فأخذتهم)** الصّاعقة بعد الأيّام الثّلاثة **(وهم ينظرون)** إليها **(فما استطاعوا من قيام)** ونهوض وحركة، بل خمدت أنفسهم كلّهم كما تخمد النّار **(وما كانوا منتصرين)** من قبل آلهتهم الّتي عبدوها ويزعمون أنّهم ينفعونهم ويضرّون.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

(وقوم نوح) فيه قراءتان:

الأولى: بنصب **(قوم)** فيكون مفعولاً لفعل مقدّر وأهلكنا قوم نوح.

الثّانية: بجرّ **(قوم)** فيكون معطوفاً على ثمود، فالمعنى وتركنا في **(قوم نوح)** آية بهلاكهم حيث **(إنّهم كانوا قوماً فاسقين)** أي خارجين عن إطاعة الله تعالى والإيمان به.

تمهيد: قد سبق أن برهن الله تعالى على حقيّة ومجيء يوم القيامة بالرّياح والأمطار بقوله: (والذّاريات... الخ) ثمّ عقّب ذلك بالوعيد الشّديد لمن كفر بذلك اليوم بقوله: (قتل الخرّاصون..الخ) ثمّ وعد المتّقين المؤمنين بذلك اليوم والعاملين بما ينفعهم فيه بقوله (إنّ المتّقين..الخ) ثمّ ألفت الأنظار إلى ما يدلّ على حقيّة ذلك اليوم من الآفاق والأنفس، ثمّ ذكر الله تعالى حال الأقوام الماضية وأنّ كلّهم أهلكوا نتيجة الكفر والعصيان.

ثمّ أعاد الاستدلال بالسّماء والأرض وما فيها من أزواج النّبات والشّجر والحيوان كما هو عادة القرآن، يستدلّ أوّلاً ثمّ ينذر ويبشّر ثمّ يذكر العبر والقصص، ثمّ يعود ويستدلّ مرّة أخرى؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

(والسّماء) مفعول لفعل محذوف تقديره: وبنينا السّماء، ويفسّر هذا الفعل قوله: **(بنيناها بأيدٍ)** أي بقدرات قاهرات، وفائدة الإبهام ثمّ التّفسير أنّ الشّيء إذا ذكر مبهماً فقيل والسّماء مثلاً يفتح السّامع كلّ أذنيه ويتشوّق على فهمه وتفسيره، فحينما فسّر يقع في النّفس وقعاً لا يغفل عنه السّامع **(وإنّا لموسعون)** أي وإنّا لموسعون للسّماء بحيث تسع النّجوم والكواكب والأرض كلّها **(والأرض فرشناها فنعم الماهدون)** والأرض مفعول لفعل يفسّره **(فرشناها)** جعلناها فرشاً يسكن عليها النّاس **(فنعم الماهدون)** أي نحن نعم الماهدون **(ومن كلّ شيء خلقنا زوجين)** أي الذّكر والأنثى، فهذا بالنّسبة إلى الحيوان واضح، وكذا بالنّسبة إلى النّباتات والأشجار، فإنّ كلّ نبات أو شجر فيه الذّكر والأنثى

وتتلقّح الأنثى من الذّكر فتثمر، ويكون اللّقاح بالرّياح الّتي توصل بذر الذّكر إلى الأنثى، وأمّا بالنّسبة للجمادات كالشّمس والقمر والنّجوم والكواكب والحجر والحديد وغير ذلك ممّا ليس بحيّ، فقد أثبت العلم أنّ كلّ شيء متكوّن من ذرّات وكلّ ذرّة تتكوّن من ألكترونات وبروتونات، تحمل الألكترونات الشّحنات السّالبة والبروتونات تحمل الشّحنات الموجبة فتتعادل جاذبيّة مجموعتي الشّحنات ممّا يحافظ على تكوين الذّرة الّتي تدخل في تكوين الأجسام بمختلف حالاتها السّائلة والصّلبة والغازية، فصدق العلم قوله تعالى: **(ومن كلّ شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكّرون)** أي لتتذكّروا وتتفكّروا في هذا الصّنع العجيب والكون العظيم والنّظام البديع، فتستدلّوا به على وجود الله ووحدته وقدرته على إحياء الموتى للحساب ووقوع ذلك، فإنّ من تفكّر في هذا الكون وهذه المخلوقات يعلم ويتيقّن أنّ هذا الصّنع العجيب العظيم والبديع لا يمكن أن يوجد بنفسه، بل إنّما يوجد بإيجاد صانع عليم قدير وهو الله تعالى، ثمّ يتفكّر ويتيقّن أنّ من له هذه القدرة القاهرة وصنع هذا الكون العظيم لا شريك له، فإنّ الشّريك إنّما يكون لمن عجز عن عمله ومن له هذه القدرة لا يعجز عن شيء. ثمّ يتفكّر فيتيقّن أن من يقدر على خلق هذا النّظام العجيب لا يصعب عليه إحياء الموتى، ثمّ يتفكّر فيتيقّن أنّ من خلق هذا الخلق وخلق هذا الإنسان ليس من المعقول أن لا يصنع لهذا الإنسان نظاماً ويفرض عليهم العمل به في أمورهم الفرديّة والإجتماعيّة، فيؤمن بنظام الله تعالى وأنّ كلّ نظام يقتضي ثواباً لمن اتّبعه وعقاباً على من انحرف عنه، ويرى أنّ هذا الثّواب والعقاب لا يوجدان كليّاً في الدّنيا، فكثير من المجرمين يموتون دون عذاب وكثير من المحسنين يموتون دون ثواب، فيتيقّن أنّه لا بد من أن يأتي يوم يبعث فيه الأموات ويحاسبون، لينال كلّ ذي صلاح ثمرة صلاحه وكلّ ذي فساد عقوبة فساده فتتحقّق عدالة الله تعالى.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى ما جرى على الأمم السّابقة نتيجة كفرهم وذكر ما يدلّ على مجيء يوم القيامة والثّواب والعقاب فيه، التفت الله تعالى إلى رسوله (ﷺ) وأمره بأن يحذّر أمّته ويقول لهم:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾﴾

(ففرّوا) فقل يا أيّها النّبيّ لأمّتك: لقد علمتم بحال تلك الأمم وبمجيء يوم الحساب **(ففرّوا إلى الله)** ففرّوا من عذاب الدّنيا والآخرة إلى الله بالإيمان به وتوحيده وطاعته وعبادته وتطبيق شريعته **(إنّي لكم منه نذير مبين)** موضّح طريق الخير لتسلكوه وسبيل الشّر لتجتنبوه **(ولا تجعلوا مع الله إلهاً)** معبوداً ومطاعاً آخر، وكلّ من خالفت أوامر الله لأمره فقد جعلته إلهاً آخر مع الله بدليل قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ سورة الفرقان الآية/ ٤٣. **(إنّي لكم منه)** من الله تعالى **(نذير)** أنذركم عذابه في الدّنيا والآخرة أو فيهما على الإشراك به ومخالفة أمره **(مبين)** موضّح إنذاري ولا أخفي منه شيئاً، أو معناه أنّ إنذاري ورسالتي واضح بسبب المعجزات الّتي أظهرتها لكم.

وبعد هذه المناقشة الطّويلة والإنذارات البليغة ووضوح نبوّة الرّسول (ﷺ) استمرّ الكافرون على كفرهم وسخروا بالرّسول (ﷺ) وكانوا يقولون له ساحر أو مجنون إلى غير ذلك فسلّى الله تعالى رسوله فقال جلّ وعلا:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

(كذلك) إنّ الأمر كما ترى يا محمّد فلا تحزن فإنّه **(ما أتى الّذين من قبلهم)** أي من قبل أمّتك وقومك **(من رسول إلّا)** كفروا واستهزؤوا به وإنّهم **(قالوا)** في حقّه هو **(ساحر)** يظهر هذه الخوارق والمعجزات بسحره **(أو مجنون)** إلتفّ حوله الجنّ فيعملون له هذه الأمور، ثمّ يستفهم تعالى استفهام إنكار وتعجّب من توافق قول الكفرة ودعايتهم ضدّ المرسلين وكيف توافقوا فقال: **(أتواصوا به)** أي أتواصى بهذا القول وهذه الدّعاية الأوّلون للآخرين فتعلم اللّاحقون من السّابقين؟ كلّا، لأنّهم لم يجمعهم زمان ولا مكان **(بل هم)** الأوّلون والآخرون من أهل الكفر والضّلال **(قوم طاغون)** وأنّ لسان أهل

الطّغيان ولغتهم واحدة متى كانوا وأين ما كانوا. ألا ترى يا أخي في زماننا هذا أيضاً يتّهم الفجرة والكفرة وأهل الطّغيان والشّهوات الإسلام بالرّجعية والخرافة والتّأخر عن ركب الحياة، وهكذا تتّحد لغة أهل الكفر والضّلال في كلّ زمان ومكان **(فتولّ عنهم)** وهنا اشتدّ غضب الرّسول (ﷺ) فكاد أن يقيم حرباً على المنكرين والكافرين، فهدّأه الله تعالى فقال: **(فتولّ عنهم)** أعرض عنهم ولا تقم قتالاً ولا تخاصمهم خصاماً يؤدّي إلى القتال والحرب **(فما أنت بملوم)** أي بمقصّر، فلا لوم عليك فإنّك أدّيت رسالتك كما هي، وما عليك إلّا ذلك، وأمّا هدايتهم فبيد الله تعالى، وأمّا قتالهم فلم يأت وقته، هذا وليس المراد فتولّ عن الإنذار والتّبشير بدليل قوله تعالى: **(وذكّر)** ودم على إنذارك وتبشيرك ولا تيأس **(فإنّ الذّكرى)** أي الموعظة وبيان طريق الحقّ **(تنفع المؤمنين)** أي الّذين يحبّون الهداية إلى الحقّ، وخلق الله في قلوبهم فطرة الإيمان وحبّ الوصول إلى الحقّ والتّمسك به، ولولا هذه الآية لتولّى الرّسول عن الدّعوة أيضاً، وهذا أمر لكلّ المسلمين بأن لا ييأسوا من نشر الإسلام ومن قبول النّاس له، وليستقيموا على دعوتهم وإرشادهم، فإنّ هناك قلوباً كثيرة يحبّون الوصول إلى الحقّ والإيمان به، فاستقم أيّها المسلم على دعوتك، وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين **(وما خلقت الجنّ والإنس)** قدّم الجنّ على الإنس لأنّ خلقهم كان قبل خلق الإنس **(إلّا ليعبدون)** هذه الجملة مشكلة جداً، وقد أطال المفسّرون الكلام فيها وذكروا لها معاني وتأويلات كلّها لم تدخل في قلبي، حيث إنّهم يجعلون اللّام للغاية، ولا يليق بالله أن يعمل شيئاً للغايات والأغراض سيّما وينزّه تعالى أن لا يحصل غايته في خلقه للشّيء، فاضطر هؤلاء أن يخصّصوا الجنّ والإنس بالمؤمنين منهم، فإذاً ولماذا خلق غيرهم، وبعضهم جعلوا اللّام للعاقبة فاضطرّوا أيضاً إلى التّخصيص حيث لم توجد هذه العاقبة من الكلّ. فالّذي أراه هو أنّ المعنى وما خلقت الجنّ والأنس **(إلّا ليعبدون)** أي إلّا وقد خلقت فيهم فطرة العبوديّة لله تعالى، وجب إدراك الحقّ والوصول إليه للإيمان به، إلّا أنّه سترت هذه الفكرة الشّهوات والغفلة عن الحقّ ولذائذ الدّنيا والخوض فيها ستراً كاد أن يقضي على هذه الفطرة، فلو وجدت الدّعوة الصّحيحة وصدق الدّعاة في دعوتهم وأخلصوا وعرفوا كيفيّة الدّعوة وطرق تأثيرها، لانتبهت الضّمائر ولتحرّكت هذه الفطرة وتيقّظت إلى ما ركّز فيها من الإيمان والإتقان وحبّ الحقّ والوصول إليه، وآمن الجنّ والإنس إلّا من انطمست بصائرهم وعميت قلوبهم وقضيت على فطرتهم المناصب والمنافع؛ فلا يؤمنون خوفاً من ضياعها، أو التّقاليد للآباء والأجداد فلا يعدلون عنها، أو غير ذلك ممّا يدعو إلى الكفر

مع العلم بالحقّ، فاليوم حينما نرى الضّلال فاشياً والبعد عن الحقّ متعمّماً فإنّما ذلك لعدم الدّعوة والدّعاة، أو لعدم علمهم بكيفيّة الدّعوة، أو لعدم صحّة الدّعوة ووجود التّشويه فيها، أو لعدم إخلاص الدّعاة، أو جهلهم بحقيقة الإسلام، أو عرضه على وجه لا يتقبلّه العقول وأولو الألباب، هذا، وعلى هذا المعنى تكون هذه الآية دليلاً على أنّ الذّكرى تنفع حيث توقظ الفطرة وتهدي القلوب المحبّة للحقّ إلى الإيمان. ثمّ بعد أن أمر الله تعالى بالذّكرى وأخبر بأنّه خلق في نفس الإنسان فطرة الإيمان بالله والعبادة له وحبّ الحقّ والإذعان له، أعلن استغناءه عن عبادة النّاس وأنّ منفعة العبادة والإيمان والعمل بشريعة الله إنّما تعود إليهم، فهم المستفيدون في ذلك في استقامة سلوك الأفراد والمجتمعات فقال تعالى: **(ما أريد منهم)** من النّاس **(من رزق)** لي ولا لغيري **(وما أريد أن يطعمون)** أصله (أن يطعمونني) حذف نون الجمع بأنّ النّاصبة لانّ نصب يفعلون بحذف النّون ثمّ حذفت الياء لرعاية الفاصلة، والفرق بين الرّزق والإطعام هو: أنّ الرّزق هو تحصيل ما ينتفع به، والإطعام هو إحضاره وتهيئته لمن ينتفع به، كالطّبخ له وتقديمه إليه. ثمّ علل عدم إرادته الرّزق والإطعام منهم بقوله: **(إنّ الله هو الرّزاق ذو القوّة المتين)** ومن البداهة أنّ الّذي يرزق لا يطلب الرّزق من أحد ولا يحتاج إليه. ثمّ علّل الله تعالى أمره بالتّولّي عن الكافرين وعدم إنشاء القتال معهم والإكتفاء بالدّعوة فقط فقال: أي أعرض عنهم ولا تعذّبهم بالقتال اليوم **(فإنّ للّذين ظلموا)** بسبب كفرهم وعدم الإيمان ونسبته السّحر ومصاحبة الجنّ إليك أنّ لهم **(ذنوباً)** نصباً من العذاب **(مثل ذنوب)** أي قتل نصب عذاب **(أصحابهم)** وهم الأقوام السّابقون الّذين نزل لهم العذاب لتكذيبهم الرّسل واستهزائهم به **(فلا يستعجلون)** أصله يستعجلونني، حذفت نون الجمع للجزم بلا النّاهية، لأنّ جزم يفعلون بحذف النّون كالنّصب، ثمّ حذفت الياء للفاصلة، كان الكفار يقولون: اللّهم إن كان ما يقول محمدّ حقّاً فأنزل علينا عذاباً فقال تعالى: إنّ العذاب سيقع عليكم فلا تستعجلونني به، فإنّه لم يأت وقته، وإذا جاء وقته فلا ناصر لكم منه **(فويل)** فعذاب شديد يأتي **(للّذين كفروا من)** في **(يومهم الّذي يوعدون)** وهو يوم القيامة إن أُخّر عذابهم إلى الآخرة، أو يوم هلاكهم في الدّنيا إذا قدّم عذابهم أو كلاهما لمن قدّر لهم العذاب في الدّنيا والآخرة، وقد أصابهم ذلك الويل في الدّنيا في معركة بدر ويوم الفتح، ويصيب الّذين بقوا على الكفر يوم القيامة أيضاً. رزقنا الله تعالى حسن الختام ووقانا من عذاب الدّنيا والآخرة آمين.

سورة الطّور

(مكيّة، آياتها تسع وأربعون آية، نزلت بعد سورة السّجدة، سمّيت بالطّور لما صدرت به من قوله تعالى: ﴿والطّور﴾ ....الخ).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾

أقسم الله تعالى ظاهراً بهذه الأشياء على ما أخبر به في قوله: **(إنّ عذاب ربّك لواقع • ماله من دافع)** إلّا أنّه في الحقيقة برهن الله تعالى واستدلّ بها على هذا الخبر، وصورة الدّليل هكذا، والله تعالى أعلم أنّ الكتاب الّذي أنزل على موسى (عليه السلام) في جبل الطّور، والكتاب الّذي كتب في الأوراق المفتوحة من الكتب السّماوية كلّها، والبيت المعمور بالملائكة في السّماء وفي الأرض بالعباد والحجاج، والسّماء الّتي بنيت فوق الأرض فأصبحت كالسّقف لها، والبحار المملوءة بالماء ليشهد ويدلّ كلّ ذلك على **(إنّ عذاب ربّك لواقع • ماله من دافع)** أمّا شهادة ما أوحي إلى موسى وشهادة الكتب السّماوية بذلك فهي بأن أخبر الله تعالى في تلك الكتب كلّها بأنّ القيامة تقوم، وأمّا شهادة البيت المعمور والسّماء والبحار، فهي أن نقول: إنّ الله تعالى خلق هذه الأشياء من السّموات والكواكب والنّجوم والبحار كلّها ليعيش بها الإنسان ويحيا على هذه الأرض، وليس من المعقول أن يخلق الله تعالى هذا الإنسان وينشره على هذه الأرض ويخلق ويسخّر له هذا الكون العظيم أن يتركه دون نظام ودون أمر ونهي وشريعة يفصل

بها ما من شأنه أن يقع بين أفراده من التّنازع والتّخاصم، وإنّ من شأن كلّ نظام أن يكرم ويثاب المطيع ويهان ويعاقب العاصي والمنحرف عنه، ونرى أنّ هذا الجزاء قد لا يحصل في الدّنيا، فإنّ كثيراً من النّاس يتّبع هواه ويترك هدى الله تعالى وشريعته، ويعيش في الدّنيا سعيداً كما يريد ولا يناله أي عقاب إلى أن يموت، وكثير من النّاس من يلتزم بأمر الله تعالى ويطبّق شريعته كأحسن ما يرام ثمّ يموت دون أن يرى ثواباً في هذه الدّنيا. فلو ذهب هذان النّوعان دون إحياء بعد الموت، ودون أن يصل كلّ منهما إلى عاقبة ما عمل في الدّنيا، فمعناه أنّ الله تعالى لم يعدل وحاشاه عن ذلك، فيجب أن يأتي يوم ينال فيه المطيع ثواب طاعته والعاصي عقاب عصيانه وجرائمه. وإنّ من قدر على خلق هذا الكون العظيم لقادر على الإحياء بعد الموت والإعادة بعد الموت وهو على كلّ شيء قدير. هذا وكأنّ قائلاً يقول متى يقع هذا العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾

(**يوم**) منصوب بفعل مقدّر تقديره يقع عذاب ربّك (**يوم تمور**) تضطرب وتتحرّك (**السّماء موراً**) إضطراباً شديداً فتتشقّق وتضطرّ (**وتسير الجبال سيراً**) فتصير هباءً منثوراً (**فويل**) فعذاب شديد في ذلك اليوم (**للمكذّبين**) في الدّنيا به وبمجيئه. ثمّ وصف المكذّبين بقوله (**الّذين هم في خوض**) في باطل (**يلعبون**) يشتغلون.

ثمّ وصف الله تعالى ذلك اليوم بما يقع فيه من إهانة المكذّبين فقال جلّ وعلا:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

(**يوم**) عطف بيان لـ (**يوم**) الأوّل فالمعنى يقع عذاب ربّك (**يوم يدعون**) أي يدفعون بعنف وشدّة إلى نار جهنّم (**دعّاً**) دفعاً شديداً، ويقال لهم إهانةً وتبكيتاً (**هذه النّار الّتي كنتم**) في الدّنيا (**بها تكذّبون**) وتستهزئون بمن ينذركم بها من الرّسل والدّعاة إلى الله (**أفسحر هذا**) مثل ما كنتم تقولون لمن أوفى إليه خبر هذه النّار وينذركم بها،

إنّ هذا لسحر **(أم أنتم)** لا تبصرون هذه النّار، وإنّها أوهام وخيالات كما كنتم في الدّنيا، تقولون كما يقول بها الرّسل والدّعاة إنّها أوهام وخيالات وأساطير الأوّلين **(اصلوها)** ادخلوها وبعد الدّخول **(فاصبروا)** على عذابها **(أو لا تصبروا)** عليها بأنّ تجزعوا أو تصرخوا **(سواء عليكم)** الصّبر وعدمه، لا يخرجكم كلّ ذلك منها، وإنّكم تستحقّون هذا العذاب حيث **(إنّما تجزون)** اليوم جزاء **(ما كنتم)** في الدّنيا تعملونه.

ثمّ إنّ من عادة الله تعالى في القرآن أن يأتي بذكر الوعد بعد الوعيد أو بالعكس، وبذكر حال الكافرين بعد المؤمنين أو بالعكس، وحينما ذكر حال الكفّار وعذابهم أراد أن يذكر حال المؤمنين وثوابهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

(إنّ المتّقين) جمع متّق، من الوقاية أصله أوتقى قلبت الواو تاءً فأدغمت فيها، فالمتقي بمعنى المجتنب، وحيث وقع هنا مقابل الكافرين والمكذّبين؛ فمعناه إنّ المجتنبين عن الكفر والتّكذيب هم **(في جنّات)** أي في بساتين **(ونعيم)** وما يتنعّمون بها من اللّذائذ والمشتهيات **(فاكهين)** متلذّذين **(بما آتاهم)** أعطاهم **(ربّهم)** من النّعيم **(ووقاهم)** وحفظهم **(ربّهم عذاب الجحيم)** وهي جهنّم. ويقال لهم من قبل الملائكة تشريفاً وتكريماً **(كلوا)** من هذه الأطعمة اللّذيذة **(واشربوا)** من هذه الأشربة الطّيبة **(هنيئاً)** أكلاً وشرباً لا غصّة فيه وذلك **(بما)** بسبب ما **(كنتم تعملون)** في الدّنيا من الأعمال الصّالحات **(متّكئين)** مضطجعين **(على سرر)** عليها نمارق **(مصفوفة)** يتّكئون عليه **(وزوّجناهم بحور عين)** الحور جمع حوراء أي بيضاء، والعين جمع العيناء، أي واسعت العيون وكبيراتها دون إفراط يؤدي إلى التّشويه، فالمراد بها حسان العيون، فحاصل المعنى وزوّجناهم بنساء بيض حسان الجسم والعيون.

سؤال: إنّ التّقسيم هنا دار بين فريقين فقط، المكذّبين الكافرين والمتّقين المؤمنين، وقد أوعد الله المكذّبين بعذاب جهنّم ووعد المؤمنين بالجنّات والنّعيم، فيفيد أنّ عصاة المؤمنين لا يعذّبون، وهو خلاف ماعليه أهل السّنة والجماعة والآيات الواردة بشأن عذابهم، فكيف التّوفيق؟

الجواب على نوعين: الأوّل: أنّ هذه السّورة مكيّة وإنّ المعركة في مكّة كانت دائرة بين الكفر والإيمان فقط، ولم يكن هناك عصاة المؤمنين، حيث لم تنزل الأحكام بعد، وإنّما نزلت الأحكام في المدينة وحكمهم مذكور في سورها.

الثّاني: أنّ الله تعالى حينما يقول: إنّ المتّقين عن الكفر والتّكذيب في جنّات.. الخ، معناه دون أن يروا العذاب إن لم تكن لهم معاصي، وإن كانت فبعد أن يتطهّروا بالعذاب أو بالمغفرة، فالمؤمنون في جنّات إمّا عاجلاً أو آجلاً، والله تعالى أعلم.

والجواب الثّاني أصحّ، لأنّه كان في مكّة أيضاً بعض الأعمال واجبة وبعضها حراماً بقرينة قوله (وما ألتنا من عملهم من شيء).

* * *

ثمّ ذكر الله تعالى نعماً أخرى، ومن أوّلها أنّه يجمع بينهم وبين أولادهم ليتمّ السّرور وتقرّ بهم أعينهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

(والّذين آمنوا واتّبعتهم ذريّتهم بإيمان) فآمنوا كما آمن آباؤهم **(ألحقنا بهم)** في الجنّة **(ذريّتهم)** وأوصلناهم إلى منازلهم وإن لم تكن أعمالهم تبلغهم مبلغ استحقاق تلك المنازل، وذلك تكريماً لآبائهم ولتقرّ عيونهم بهم، وورد أنّ رسول الله (ﷺ) قال: (إنّ الله يرفع ذريّة المؤمن في درجته في الجنّة وإن كانوا دونه في العمل لتقرّ بهم عينه)[1]. وقيل: المراد الأولاد الصّغار، ويرد ذلك قوله: (بإيمان) لأنّ الصّغار ليسوا من أهل التّكليف بالإيمان، وأنّهم يلحقون بهم دون شرط الإيمان، ويفهم من الآية أنّ الذّرية الكافرة تبقى في محلّ عذابها ولا ينفعها درجات آبائها مهما بلغت في العلوّ لأنّ شرط دخول الجنّة الإيمان فلا يدخلها من لا إيمان له أبداً.

---

(١) عمدة القاري ١٩/ ١٩٤.

سؤال: تفيد هذه الآية الكريمة أنّ ذريّة المؤمن إن كانت مؤمنة ترفع درجتها إلى أن تجتمع مع الآباء تكريماً للآباء، وهذا إذا كان درجة الآباء أعلى منهم، وأمّا إذا كان درجة الأبناء أعلى من الآباء فهل يلحق الآباء بالأبناء أم لا؟.

الجواب: قال في حاشية الجلالين للجمل: الذّرية هنا تصدق على الآباء والأبناء، فالمؤمن إذا كان عمله كثيراً ألحق به من هو دونه في العمل أباً كان أو إبناً، وهذا منقول عن ابن عبّاس (رضي الله عنه) أنّ النّبيّ (ﷺ) قال: (إذا دخل أهل الجنّة الجنّة سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده فيقال لهم: إنّهم لم يدركوا ما أدركت فيقول: ياربّ إنّي عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به)(١).

* * *

(وما ألتناهم) وما نقصناهم بسبب إلحاق ذريّتهم لهم **(من عملهم من شيء)** وقال تعالى: هذا لئلا يتوهّم أنّه ينقص من أعمالهم **شيء**، ويضاف إلى عمل ذريّاتهم ليتساووا فيلحقوا ويجمع بينهم في مكان يليق بعملهما. وهنا يتوهّم بعض النّاس أنّ أهل النّار أيضاً يلحق بعضهم ببعض، فقال تعالى: **(كلّ امرئ بما كسب رهين)** أي رهين بما كسب وبمقداره فلا يلحق بعض ببعض، وكلّ يبقى في مكانه الّذي يليق به حسب عمله. حيث لا تزر وازرة وزر أخرى **(وأمددناهم)** وزوّدناهم فوق النّعم الّتي ذكرت فأنعمنا عليهم **(بفاكهة ولحم ممّا يشتهون)** من الفواكه واللّحوم حسب اختيارهم ورغبتهم **(يتنازعون)** يتعاطون **(فيها)** في الجنّة **(كأساً)** من الخمر ولكن ليست هي كخمر الدّنيا فإنّ هذه الخمر **(لا لغو فيها)** لا سكر فيها ولا هذيان ولا تأثير على العقل **(ولا تأثيم)** ولا ذنب في شربها بخلاف خمر الدّنيا فإنّها تستر العقل، فيأثم الشّارب لذلك، وفائدة لذّة الخمر في الجنّة محصورة في الإنبساط والفرح **(ويطوف عليهم)** على أهل الجنّة فيأتون بالطّعام والشّراب لهم **(غلمان كأنّهم اللّؤلؤ المكنون)** المستور في الصّدف في الحسن والصّفاء والجمال. وهؤلاء الغلمان قيل: هم أولادهم الصّغار. وقيل: هم أولاد الكفّار يستخدمون في خدمة المؤمنين، ولكن يردّ هذين القولين أنّ أيّ إنسان لا يدخل الجنّة إلّا للتكريم، سواء كانوا صغاراً أو كباراً، فلا يلائم التّكريم الاستخدام، فالأصحّ هو ما قيل من أنّهم غلمان يخلقهم الله تعالى في الجنّة لخدمة أهلها، وإنّ لذّتهم في

---

(١) المعجم الكبير ١١/ ٤٤٠.

الخدمة كما إنّ الملائكة خلقوا للعبادة المحضة ولا يتلذّذون إلّا بالعبادة وهؤلاء الغلمان لا ذكورة فيهم ولا أنوثة وأنّهم لا يصيبهم الهرم.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر محاورة أهل الجنّة فيما بينهم، وفي طيّ ذلك يظهر سبب تكريمهم هذا فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

(وأقبل) توجّه **(بعضهم على بعض يتساءلون)** يسأل بعضهم بعضاً ويقول بماذا أنعم الله تعالى علينا هذه النّعم، وأكرمنا هذا التّكريم، وأنزلنا هذه المنزلة **(قالوا)** قال بعضهم لبعض **(إنّا كنّا قبل)** في دار الدّنيا **(في أهلنا)** بين أهلنا **(مشفقين)** خائفين من عذاب هذا اليوم وكنّا مؤمنين، وعملنا بقدر طاقتنا لينجينا من العذاب، ولأن يورثنا الثّواب ولذلك **(فمنَّ)** أنعم **(الله)** تعالى **(علينا)** بهذه النّعم **(ووقانا)** وحفظنا من **(عذاب السّموم)** عذاب جهنّم بل وريحها الحارّة **(إنّا كنّا)** في الدّنيا. **(ندعوه)** نتضرّع إلى الله تعالى ونسأله الجنّة، وأن يقينا من جهنّم فاستجاب دعواتنا **(إنّه)** لأنّه **(هو البرّ)** يفعل البرّ بعباده لا لحاجة إليهم أو إلى البرّ بل لأنّه **(الرّحيم)** من صفته الرّحمة والإنعام على عباده.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال الكافرين وقبح مآلهم وحال المؤمنين وحسن مصيرهم، التفت إلى الرّسول (ﷺ) فقال جلّ وعلا:

﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

(فـ) بعد أن علمت حال الكافرين ومصير المؤمنين **(ذكّر)** أيّها النّبيّ جميع

النّاس بذلك؛ لينتهوا عن الكفر والمعاصي مخافة هذه العاقبة الوخيمة، وليؤمنوا ويتّبعوا دعوة الله تعالى ليفوزوا بهذا الفوز العظيم. ثمّ أراد الله تعالى أن يردّ على الكافرين في نسبتهم صفات غير لائقة بالرّسول (ﷺ) فقال: **(فما أنت)** يا محمدّ حال كونك ملتبّساً **(بنعمة ربّك)** وهي النّبوّة والرسالة **(بكاهن ولا مجنون)** كما يصفك الكفّار بذلك. فإنّ عقبة بن معيط كان يقول: هو مجنون، وشيبة بن ربيعة كان يقول: إنّه ساحر، وغيرهما كانوا يقولون: هو كاهن. فاستفهم الله تعالى استفهامات على سبيل الإنكار والتّعجب من عدم إيمانهم بالرّسول، فكأنّه يقول تعالى: لماذا لا يؤمنون أيقولون إنّ محمّداً كاهن أو مجنون؟ كلّا، فإنّهم يعرفون جيّداً أنّ محمّداً ليس بكاهن، حيث علموا أنّه لم يشتغل يوماً ما بالكهانة، وإنّ ما جاء به ليس من قبيل الكهانة، أم يقولون إنّه مجنون؟ كلّا، فإنّهم كانوا يؤمنون برجاحة عقله وصواب رأيه في الأمور **(أم يقولون شاعر نتربّص به)** ننتظر أن يلحق به **(ريب المنون)** مصيبة الموت، فيموت كما مات الشّعراء، فيموت دينه فنستريح منه. كلّا، إنّه ليس بشاعر لأنّهم علموا أنّ محمّداً لم يمارس الشّعر قطّ، وإنّ ما جاء به لا يدخل تحت أيّ بحر من بحور الشّعر المتداولة والمعروفة حسب علم العروض **(قل)** يا محمّد **(فتربّصوا)** فانتظروا أن يصيبني الموت، فإنّ انتظاركم هذا لا يفيد، فإنّ ما جئت به ليس بشعر يموت بموتي، بل إنّه دين الله تعالى ويبقى إلى يوم القيامة ولا يموت بموتي **(فإنّي معكم من المتربّصين)** من المنتظرين أن ينزل بكم عذاب من الله تعالى، فوقع بهم ما انتظر الرّسول (ﷺ) فعذّبوا ودارت عليهم الدّوائر **(أم تأمرهم أحلامهم)** عقولهم بهذا بأنّ يفتروا على محمّد هذه الصّفات، كلّا، لأنّهم كانوا في قرارة عقولهم يعرفون أنّ محمّداً رسول، وأنّ ما جاء به هو كلام الله تعالى **(بل هم قوم طاغون)** بل لم يمنعهم من الإيمان بمحمّد إلّا الطّغيان والاستكبار **(أم يقولون تقوّله)** تقوّل محمّد هذا القرآن من عنده ونسبه إلى الله تعالى افتراءً ثمّ ذكر تعالى ما يردّ على أقوالهم السّابقة كلّها فيقول: **(فليأتوا بحديث)** بكلام مثل ما أتى به محمّد **(إن كانوا صادقين)** فيما يقولون، فإنّه لو كان كهانة واتّصالاً بالجنّ فعندهم الكهنة فليعارضوه وليأتوا بمثله، وإن كان شاعراً فعندهم الشّعراء والبلغاء فليعارضوه وليأتوا بمثله، وإن كان متقوّلاً فعندهم الخطباء والفصحاء فليعارضوه وليأتوا بمثله، فحيث لم يستطيعوا معارضته من كلّ وجه ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله مع شدّة حرصهم على ذلك، فقد ثبت أنّ ما جاء به هو من عند الله تعالى لا من البشر، لأنّ البشر يستطيع أن يعارض ما يأتي به البشر. والدّليل على أنّهم كانوا يعلمون في قرارة أنفسهم أنّ محمّداً ليس بكاهن ولا

مجنون ولا شاعر ولا ساحر ولا متقوّل، وإنّ ما جاء به هو من الله تعالى، وإنّ الّذي منعهم من الإيمان به هو الطّغيان والاستكبار. ما جاء في السّير والتّواريخ والتّفاسير أنّه: لمّا نزل قوله تعالى: ﴿حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصير﴾ سورة غافر الآية/١، ٢. سمعه الوليد بن المغيرة يقرؤها الرّسول (ﷺ) فقال: والله لقد سمعت منه كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجنّ، وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق، وإنّه ليعلو ولا يعلى عليه، وما يقول هذا بشر. فقالت قريش: صبأ الوليد، والله لتصبونّ قريش كلّها. وكان يقال للوليد ريحانة قريش، فقال أبو جهل: أنا أكفيكموه، فمضى إليه حزيناً، فقال له: مالي أراك حزيناً؟ فقال: ومالي لا أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك بها على كبر سنّك ويزعمون أنّك زيّنت كلام محمّد وتدخل على ابن أبي كبشة وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهما. فغضب الوليد وتكبّر وقال: أنا احتاج إلى كسر محمّد وصاحبه! فأنتم تعرفون قدر مالي، واللّات والعزّى مالي حاجة إلى ذلك، وإنّما أنتم تزعمون أن محمّداً مجنون، فهل رأيتموه قطّ يختنق؟ قالوا: لا والله. قال: وتزعمون أنّه شاعر، فهل رأيتموه نطق بشعر قطّ؟، قالوا لا والله، قال: وتزعمون أنّه كذّاب، فهل جرّبتم عليه كذباً قطّ؟ قالوا: لا والله. قال: فتزعمون أنّه كاهن، فهل رأيتموه تكهّن قط؟ قالوا: لا والله. ولقد رأينا للكهنة إسجاعاً وتخالجاً، فهل رأيتموه كذلك؟ قالوا: لا والله. وكان النّبيّ محمّد (ﷺ) يسمّى الصّادق الأمين من كثرة صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ ففكّر في نفسه ثمّ نظر ثمّ عبس فقال: ما هو إلّا ساحر، أما رأيتموه يفرّق بين المرء وأهله ومواليه، وقال هذا إرضاءً لقومه فقط.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى استفهامات للإنكار على عدم إيمانهم بالرّسول وعلى افتراءاتهم عليه، أراد أن يذكر استفهامات على سبيل الإنكار أيضاً على عدم إطاعتهم لله وعدم عبادتهم له وعدم توحيده بالألوهية والرّبوبية ،فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾

(أم خلقوا) أم هنا بمعنى الهمزة للاستفهام، فالمعنى أخلقوا وأوجدوا من غير

خالق؟ ولذلك لا يعرفون الخالق ولا يعبدونه، وهذا باطل لأنّ كلّ شيء سبقه العدم فهو ممكن، والممكن يستوي بالنّسبة إلى ذاته الوجود والعدم، فلا يمكن وجود الممكن المعدوم إلّا بإرادة موجد يرجّح جانب الوجود على جانب العدم، وإلّا لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بدون مرجّح، وذلك باطل باتّفاق العقلاء، فلابد أن يكون لهم خالق، فإذا بطل وجودهم بدون خالق وثبت أنّ لهم خالقاً فمن هو الخالق فاستفهم بقوله: **(أم هم الخالقون)** لأنفسهم ولذلك لا يعرفون الله ولا يعبدونه وإنّ هذا باطل أيضاً لأنّه لا يمكن أن يكون الشّيء موجداً لنفسه ولك؛ لأنّه يلزم اتّحاد الفاعل والمفعول وذلك محال بالبداهة **(أم خلقوا السّموات والأرض)** فيتكبّرون لذلك ولا يعرفون الله ولا يؤمنون به ولا يعبدونه. وهذا باطل بداهة لأنّ كلّ إنسان يعلم ويعترف بأنّه وجد بعد خلق السّماوات والأرض فلا يكون هو خالقاً لها، وأنّ الإنسان عاجز عن خلق أيّ شيء، فليس عدم إيمانهم بذلك **(بل لا يوقنون)** بل هم لا يريدون الانقياد للحقّ للاستكبار والعناد فقط **(أم عندهم خزائن ربّك)** خزائن رزق ربّك وبينهم الرّزق فاستغنوا بذلك عن الإيمان بالله وعبادته **(أم هم المصيطرون)** بقوّتهم على كلّ شيء، فطغوا بذلك فلا يعبدون الله تعالى **(أم لهم سلّم)** وهو ما يرتقي عليه الإنسان إلى العلوّ، فارتقوا في ذلك السلّم إلى مكان **(يستمعون فيه)** إنّهم على حقّ **(فليأت مستمعهم)** الّذي سمع ذلك **(بسلطان)** بدليل **(مبين)** موضّح ومثبت لما يقول، كما أتى الرّسول (ﷺ) بالمعجزات الباهرة والدّالّة على صدق ما جاء به من الله تعالى؛ فلم يستطيعوا أن يأتوا بأيّ دليل لدعواهم وليس لشيء آخر.

ثمّ عقب الله تعالى تلك الاستفهامات باستفهامات أخرى كلّها يثير الإنكار والتّعجب ممّا هم فيه من زيغ العقيدة وسفاهة الآراء؛ فقال جلّ وعلا:

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

(أم له) لله **(البنات)** كما يدّعون ويعبدون أصناماً ويقولون نعبدها لأنّها بنات الله، فينسبون إلى الله البنات مع أنّهم كانوا يستحقرونها، فهل لله ما تستحقرونها وهي البنات فقط **(ولكم)** ما تحبّونه وهم **(البنون)** فالله ليس له بنات ولا البنون، لأنّه لم يلد ولم

يولد ولم يكن له كفواً احد **(أم تسألهم أجراً)** ومالاً مقابل الإيمان بالله والدّعوة إليه **(فهم من مغرم مثقلون)** فهم أثقل كاهلهم ذلك المغرم فلذلك لا يؤمنون؟ كلّا، فإنّ الرّسول (ﷺ) كان يعلن لهم ويقول: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ سورة ص الآيتان/ ٨٦، ٨٧، (أم عندهم الغيب) أم عندهم الوحي بأمر آخر فيؤمنون بوحيهم ولا يؤمنون بوحي محمّد **(فهم يكتبون)** ذلك الوحي ويسجّلونه دون وحيك يا محمّد؟ كلّا، ليس لهم وحي وإنّما هم يتّبعون ما يوسوس به إليهم الشّيطان الرّجيم **(أم يريدون كيداً)** في معنى هذه الآية قولان:

الأوّل: أم تريد الكفّار كيداً ومحاولة لإمحاء هذا الدّين، ولقتل وإهلاك داعيه محمّد (ﷺ)؟ فلا تحزن حيث **(فالّذين كفروا)** من أعدائك وأعداء دينك يا محمّد **(هم المكيدون)** المهلكون ولا يبقى لهم أثر، ويبقى لك ولدينك الغلبة والسّلطان. فكان كما أخبر، وهذا إخبار عن الغيب كما يقع، فيكون معجزة للقرآن الكريم ومحمّد (ﷺ).

الثّاني: **(أم يريدون)** من إصرارهم على الكفر وعدائهم لهذا الدّين وللرّسول (ﷺ) **(كيداً)** عذاباً ينزل بهم؟ فلا يستعجلوا فإنّه سينزل **(فالكافرون)** المصرّون على الكفر **(هم المكيدون)** المعذّبون وذلك سنّة الله تعالى إلّا أنّ لهم أجلاً، فإذا جاء لا يؤخر والله على كلّ شيء قدير **(أم لهم إله غير الله)** توكّلوا عليه في أن ينقذهم من المصائب ويحفظهم من العذاب **(سبحان)** أي تنزّه **(الله عما يشركون)** به فلا شريك له ولا إله غيره.

تمهيد: لما ذكر الله تعالى الأقوال الكاذبة الّتي كان يقولها الكفّار ضدّ الرّسول من أنّه كاهن أو شاعر أو غير ذلك ممّا كان ضمن الاستفهامات الّتي سبقت، وبين افتراءاتهم عليه، ودلّت هذه الأقوال والافتراءات على سوء نيّتهم وخبث طويّتهم إلى حدّ أنّهم لا يؤمنون، وإنّ يروا كلّ آيات الصّدق أو آيات الإنذار فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

أي بلغ عنادهم وتعنّتهم إلى حدّ أنّه **(وإن يروا)** بأمّ أعينهم **(كسفاً)** قطعاً **(من السّماء ساقطاً)** عليهم لعذابهم لا يعتقدون أنّه من الله، وإنّه يعذّبهم على كفرهم فيؤمنوا ويرجعوا عليهم بل **(يقولوا)** هذا **(سحاب مركوم)** مجتمع بعضه على بعض إلى أن

تصلب كالحديد فنزل، أي يفسرّونه تفسيراً مادياً وطبيعيّاً كما هو الحال اليوم، كلمّا يقع شيء يفسّر بتفسير مادّي بعيد عن المعنويّات والرّوحيّات والأمور الإلهيّة لبعد النّاس عن الإيمان بالله وتفشّي الإلحاد بين النّاس. ويحتمل أن يقال في معنى الآية أنّ الله تعالى لما ذكر للرّسول (ﷺ) صفاتهم وأقوالهم ممّا يدلّ على تعنّتهم وعنادهم واستمرارهم على الكفر تمنّى الرّسول (ﷺ) أن يريهم شيئاً من العذاب لا ليهلكهم بل ليخوّفهم به، فلعلّهم يرجعون عن غيّهم وعتوّهم فيؤمنوا، فقال تعالى له: (وإن يروا..الخ) أي فلا تتمنّ فإنّه ولو أرسلنا عليهم العذاب لا يؤمنون بل إنّهم يحملونه على سبب آخر لا على أنّهم عذّبوا لكفرهم. وهنا إحتمال ثالث وهو أنّ الكفّار قالوا للرّسول (ﷺ) أموراً ذكرها الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ سورة الإسراء الآيات/ (٩١ ـ ٩٣). فردّ الله تعالى عليهم بقوله: (وإن يروا كسفاً...الخ) أي ولو رأيناهم هذه الآيات كلّها لا يؤمنون، فاقطع يامحمّد أملك عنهم ولا تطمع في إيمانهم أبداً.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٤٦)﴾

(فذرهم) إذا علمت حالهم يا أيها النّبيّ فذرهم واتركهم **(حتّى يلاقوا يومهم الّذي فيه يصعقون)** أي يهلكون، وذلك في الآخرة بقرينة قوله تعالى الآتي: **(يوم لا يغني)** لا يدفع **(عنهم كيدهم)** كيدهم الّذي كانوا يكيدون ضدّ الإسلام معتقدين أنّ ذلك ينفعهم، أو معناه لا يغنيهم كلّ أعمالهم ولا يدفع عنهم **(شيئاً)** من عذاب الله تعالى **(ولا هم ينصرون)** من قبل أصنامهم وما عبدوه وأطاعوه حيث لا يستطيعون شيئاً ولا يقدرون. وكان هذا إعلاماً بعذابهم في الآخرة.

ثمّ علّم الله تعالى بعذابهم في الدّنيا أيضاً؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٧)﴾

(وإنّ للّذين ظلموا) بعدم إيمانهم واتّباعهم الرّسول **(عذاباً دون)** قبل **(ذلك)** العذاب الّذي في الآخرة وهو عذابهم في الدّنيا **(ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون)** أنّ الكفر والمعاصي تجلب العذاب في الدّنيا والآخرة لا في إحداهما فقط.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ هؤلاء الكفرة لا يؤمنون، طمأن رسول الله (ﷺ) من أنّهم لا يستطيعون أن يضرّوه شيئاً فقال، في معرض أمره بالثّبات على الدّعوة، جلّ وعلا:

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

(واصبر) على ما تلقى من أذاهم لك بالتّكذيب **(لحكم ربّك)** إلى أن يأتي حكم ربّك بعذابهم ولا تخف منهم **(فإنّك بأعيننا)** محفوف برعايتنا وحفظنا؛ فنعصمك منهم، ودم على دعوتك وإنذارك وتبشيرك **(وسبّح)** مقترناً **(بحمد ربّك)** قل سبحان الله والحمد لله عن إيمان وعقيدة، قل ذلك **(حين تقوم)** من مجلسك، وقيل: من منامك، ويؤيد المعنى الأوّل ما وردت من أحاديث تقوّي بعضها بعضاً، فمن ذلك ما ذكره ابن كثير [رحمه الله تعالى] عن ابن جرير عن أبي صالح عن أبي هريرة عن النّبيّ (ﷺ): (من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك)[1]. ولو حملناه على كلا المعنيين أي في نومك ومن مجلسك كان أفيد وأشمل، لأنّ النّوم والمجلس كلاهما من أسباب الغفلة، وإن الحديث ليس فيه تخصيصه بالمجلس سيّما وورد عنه الأحاديث بالتّسبيح، حيث القيام من النّوم أيضاً، فعن الإمام أحمد (رضي الله عنه) أنّه قال: حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعي حدثنا جنادة بن أبي أميّة حدثنا عبادة بن الصّامت عن رسول الله (ﷺ) قال: (من تعارَّ من اللّيل فقال: لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوّة إلّا بالله، ثمّ قال: ربّ اغفر لي، أو قال: ثمّ دعا أستجيب له فإن عزم فتوضّأ ثمّ صلّى قبلت صلاته). وقال ابن كثير: أخرجه البجاري في صحيحه[2]. فإذاً نقول: وسبّح بحمد ربّك حيث تقوم من النّوم ومن المجلس **(ومن اللّيل)** وسبّح من ابتداء اللّيل أيضاً **(وإدبار النّجوم)** وفي وقت إدبار النّجوم، وذلك حينما يبقى جزء من اللّيل وهو وقت السّحر، فسبحان الله والحمد لله

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٤٩٤ الحديث رقم ٣٤٣٣.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٣٨٧ الحديث رقم ١١٠٣ مسند الإمام أحمد ٥/ ٣١٣ الحديث رقم٢٢٧٢٥.

ولا إله إلا الله وحده ولا شريك له، له الملك وله الحمد يحي ويميت بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وأستغفر الله وأتوب إليه إنّه توّاب رحيم. وصلّى الله على المولى محمّد وآله وصحبه أجمعين إلى يوم الدّين آمين.

سورة النّجم

(مكيّة، إلّا الآية ٣٢ فمدنيّة، وآياتها إثنتان وستّون، نزلت بعد سورة الإخلاص، سمّيت بسورة النّجم لأنّها صدرت بقوله تعالى: والنّجم).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾

(والنّجم) فيه ثلاثة أقوال:

الأوّل: أنّ المراد به الثّريّا لأنّها كانت تسمّى بالنّجم بين سائر النّجوم، و **(إذا هوى)** معناه إذا غرب أو انتشر يوم القيامة.

الثّاني: المراد به مطلق النّجم؛ فيعمّ كلّ النّجوم، و **(إذا هوى)** معناه غربت أو انقضت لرجم الشّياطين.

الثّالث: أنّ المراد به نجوم القرآن، وهي الجمل الّتي تنزل حسب الوقائع والحوادث والمقتضيات.

و **(إذا هوى)** معناه نزلت، وهذا هو الأصحّ، فالمعنى والله تعالى أعلم: أنّ نزول القرآن ووروده حسب الوقائع وأسئلة النّاس، ومقنعاً للسّائلين ومبيّناً حكم الوقائع حكماً لائقاً وموافقاً للفطرة والعقل السّليم، وموافقاً للكتب السّماوية غير المحرّفة في أخبار الأمم الماضية وللواقع والعلم في الأمور الكونيّة وللعقل السّليم في التّكليف. لدليل واضح وبرهان ساطع على أنّه **(ما ضلّ)** عن الحقّ **(صاحبكم)** وهو محمّد (ﷺ) **(وما**

غوى) وما جهل **(إن)** ليس **(هو)** الّذي أتى به وهو القرآن **(إلّا وحي)** من الله تعالى **(يوحى)** إليه. فإنّ محمّداً الّذي كان أميّاً ونشأ في أمّة أمّيّة، ولم يمارس يوماً ما قراءة ولا كتابة ولا شعراً ولا خطابة، ثمّ يأتي بعد أربعين سنة بهذا الكتاب العظيم وهذه الأمور والمعارف والأحكام، فلو لم يكن من الله تعالى ووحياً أوحي إليه فمن أين له هذا؛ فثبت أنّه وحي من الله وأنّه رسول الله تعالى.

ثمّ بيّن تعالى أنّه كيف أوحى إليه هذا الوحي، فقال جلّ وعلا:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

في هذه الآيات تفسيران:

الأوّل: (علّمه) علّم محمّداً هذا القرآن **(شديد القوى)** شديد القدرات في العلم **(ذو مرّةٍ)** قوّة في الجسم أو بالعكس، رأيان للرّازي وللبيضاوي. ثمّ بيّن الله تعالى أوّل كيفيّة جاء فيها جبريل على النّبيّ (ﷺ) فقال تعالى: **(فاستوى)** فاستقرّ جبريل على صورته الأصليّة عالياً **(وهو بالأفق الأعلى)** أفق السّماء الّذي تطلع منه الشّمس **(ثمّ دنا)** أراد أن يقرب من الرّسول (ﷺ) **(فتدلّى)** فنزل شيئاً فشيئاً وقرب من النّبيّ قرباً كثيراً **(فكان)** بعد محمّد من جبريل مقدار **(قاب قوسين أو أدنى)** من ذلك، بمعنى أن الإنسان إن نظر إليهما وهما مجتمعان يُشكّ هل بينهما قاب قوسين أو أدنى منه، أو المعنى: بل أدنى من قاب قوسين **(فأوحى)** جبريل **(إلى عبده)** إلى عبد الله وهو محمّد (ﷺ) **(ما أوحى)**. أو المعنى: **(فأوحى)** الله **(إلى عبده ما أوحى)** بواسطة جبريل، وعلى لسانه وهو الأصح **(ما كذب الفؤاد)** ما كذب فؤاد محمّد **(ما رأى)** ما رآه بعينه، بل صدّقه وعلم أنّه حقّ، وأنّ هذا جبريل جاء ليوحي إليه، فإنّ كثيراً من النّاس يرى بعض الأشياء إلّا أنّه لا يصدّق بقلبه ولا يطمئنّ له فؤاده، ولكنّ محمّداً وافق قلبه عينه فيما رآه وتيقّنه واطمأن له **(أفتمارونه)** أفتجحدونه وتجادلونه **(على ما يرى)** من جبريل وإيحائه إليه، والاستفهام للتّوبيخ والتّقريع،

فإنّ ما أتى به واضح في أنّه من الله تعالى بواسطة الملك. **(ولقد رآه)** أي والله لقد رأى الرّسول (ﷺ) جبريل (عليه السلام) **(نزلة)** مرّةً **(أخرى)** غير هذه المرّة وعلى صورته الأصليّة، فإنّ رؤيته له على غير صورته كانت كثيراً لا تحصى، وأكثر ما يراه كان على صورة شخص يدعى دحية **(عند سدرة المنتهى)** رآه هذه المرّة عند سدرة المنتهى، والسّدرة شجر النّبق، أضيف على المنتهى لأنّه نابت وهناك، والمنتهى هو السّماء السّابعة لأنّها منتهى السّماوات وفوقها الكرسي والعرش **(عندها)** **عند** السّدرة **(جنّة المأوى)** الجنّة الّتي ترجع وتأوي إليها أرواح الشّهداء والمؤمنين، فرأى الرّسول جبريل هناك **(إذ)** أي في وقت **(يغشى السّدرة)** يحيط بالسّدرة ويسترها **(ما يغشى)** ما يغشاها ممّا لا يوصف ولا يدركه إلّا من رآه ووصل إليه **(ما زاغ البصر)** ما مال ولا عدل بصر رسول الله (ﷺ) عن ما أمر به وأذن له في رؤيته، فرآه كلّه **(وما طغى)** وما تجاوز بصر الرّسول (ﷺ) عن الحدّ الّذي أجيز له النّظر إليه، فلا فرط ولا أفرط بل عدل واقتصد، وهكذا آداب الضّيف لا يجوز له أن ينظر إلى ما لا يجوز له النّظر إليه ممّا في بيت مضيفه **(لقد رأى)** وبعزّتي لقد رأى محمّد (ﷺ) **(من آيات ربّه)** أي من العلامات الدّالة على عظمة ربّه وجمال ملكه وملكوته وجمال ذاته وجلال جبروته **(الكبرى)** الآية الكبرى، وإذا رأى الكبرى فكيف بالباقيات، فقد رآها بالطّريق الأولى. فالكبرى صفة لمحذوف كما قدرناه، وهي الآية وليست صفة للآيات، لأنّها لو كانت صفة لها لقال: الكبريات، كما وأنّ الكبرى من كلّ الآيات لا تكون إلّا واحدة. ثمّ إنّ هذه الآية الكبرى الّتي رآها رسول الله (ﷺ) لم تبيّن ما هي، ولعلّ أنّه رأى الله تعالى وتقدّس والله أعلم.

الثّاني: لهذه الآيات تركته لأنّ الأوّل أصحّ؛ إذ هو الّذي مشى عليه جمهور المفسّرين، والثّاني يحتاج إلى تفكيك كثير بين الضّمائر وإلى نسبة ما لا نفهمه إلى الله تبارك وتعالى، هذا والنّزلة هنا بمعنى المرّة كما في المختار لا بمعنى النّزول، فلا حاجة إلى إطالة الكلام في كيفيّة النّزول وتأويلاته.

ثمّ بعد أن ذكر تعالى أنّ الرّسول (ﷺ) ما ضلّ وما غوى، وأنّ ما يدعو إليه هو وحي يوحى إليه من الله تعالى، وكان دعوة الرّسول (ﷺ) إلى التّوحيد ونبذ عبادة الأصنام، أشار تعالى إلى ضلالهم وجهلهم في عبادة الأصنام، فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾

(أفرأيتم اللّات) وهي صنم قريش كان يعبدها ثقيف **(والعزّى)** وهي صنم قريش كانوا يعبدونها **(ومناة)** وهي صنم كان بنو هلال يعبدونها **(الثّالثة)** المناة الّتي وقعت في المرتبة الثّالثة من هذه الآلهة **(الأخرى)** أي المغايرة للسّابقين، لأنّها كانت أعظم منهما في عقيدتهم، والاستفهام للإنكار والتّوبيخ، ومعناه أرأيتم هذه الآلهة الباطلة تنفعكم أو تضرّكم شيئاً، أو معناه أرأيتم واعتقدتم أنّ هذه آلهة وشركاء لله تعالى؟ فما أكثر جهلكم وما أقبح قولكم. ثمّ أنّهم كانوا يقولون إنّ هذه الأصنام بنات الله ولذلك نعبدها، فردّ الله تعالى عليهم فقال: **(ألكم الذّكر)** من الأولاد **(وله)** ولله **(الأنثى)** البنات في حين أنّكم تستحقرون البنات ولا تحبّونها **(تلك)** هذه القسمة وهي جعل البنات لله والذّكور لكم **(قسمة ضيزى)** قسمة جائرة خارجة عن الصّواب، فإنّ الله لو اختار لنفسه الأولاد لاختار الذّكور أو اختار النّوعين، وما كان يقتصر على البنات إلّا أنّه منزّه عن الولد، فقسمتهم ضيزى من وجهين:

الأوّل: أنّهم يجعلون الولد له وهو منزّه عنه فإنّه لم يلد ولم يولد.

الثّاني: يخصّونه بالبنات وهنّ مستحقرات عندهم فما أحقر من نسب إلى الله ما لا يرضى به لنفسه.

ثمّ صرّح الله تعالى بأنّ هذه الأوثان باطلة وليس لهم أيّ دليل في عبادتهم فقال جلّ وعلا:

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

(إن) ليست **(هي)** اللّات والعزّى والمناة وغير ذلك من الأصنام **(إلّا اسماء)** لمسمّيات **(سمّيتموها)** آلهة **(أنتم)** من عندكم **(وآباؤكم)** سمّوها أيضاً من عندهم بدون حجّة وبرهان على ذلك، لا منكم ولا من آبائكم **(ما أنزل الله بها)** بهذه التّسمية **(من سلطان)** من شيء تحتجّون به فتسميتكم هذه ووصفكم هذه الأشياء بالألوهيّة باطل. ثمّ أعرض تعالى عن خطابهم وذكرهم بصيغة الغائب إشارة إلى أنّهم بسبب هذه التّسمية لا يليقون بشرف الخطاب فقال: **(إن يتّبعون)** هؤلاء شيئاً **(إلّا الظّن)** في تسمية الأصنام آلهة وفي تسمية الملائكة بنات الله في ادعاء الشّفاعة للأصنام **(وما تهوى الأنفس)** وما تميل إليه النّفس لا العقل والظّن، ولا يجوز العمل به عند وجود ما يفيد اليقين، وقد كان

عندهم ما يفيد اليقين حيث **(ولقد جاءهم من ربّهم الهدى)** حيث أرسل لهم رسولاً بيّن لهم الحقّ ونبّههم على الأدلّة عليه وأظهر المعجزات وحذّرهم من الباطل وذكر البراهين على بطلانه.

تنبيه: إنّ الله تعالى ردّ على عقائد المشركين في أنّ هذه الأوثان لا تنفع ولا تضرّ، وأنّها ليست بنات الله إلى قوله: ولقد جاءهم.. الخ، ولم يذكر دليلاً على ذلك ولا برهاناً، ولم يؤكّد أيضاً بالقسم أو غير ذلك؛ وذلك لأنّ هذه الأمور أمور مسلّمة عند العقل، وغنيّ عن البرهان والحجّة والتّأكيد، بل يكفي مجرّد التّنبيه والإيقاظ للضّمائر والشّعور والقلب الحيّ، فإنّ كلّ عاقل يعرف أنّ الجامد الميت الّذي لا روح فيه لا يستطيع النّفع ولا الضّر، بل إنّ أبسط إنسان يستطيع أن ينسف ويكسر تلك الآلهة، فكيف تكون إلهاً، وإنّ كلّ عاقل يعرف أنّ الله تعالى لو اختار الولد لنفسه لاختار الذّكور لا الإناث، وإنّ كلّ عاقل يعرف أنّ الله تعالى لم يجعل شيئاً شريكاً له لأنّ الشّريك إنّما يحتاج إليه العاجز في عمله، والإله يجب أن يكون قادراً على كلّ شيء فلا يتّخذ شريكاً له.

﴿أَمْ لِلْإِنسَـٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْـَٔاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾

بعد أن فنّد الله تعالى مزاعم المشركين السّابقة ردّ على زعم آخر وهو أنّ للإنسان أن يعمل حسب ما يشتهي ويتخيّل ويظنّ، وأنّ هذا العمل يفيده كما يدار على لسان بعض الدّراويش الجهلة قولهم: (من اعتقد حجراً ينفعه) فقال تعالى: **(أم للإنسان ما تمنّى)** واعتقد بدون حجّة ويقين كلّا **(فللّه الآخرة والأولى)** وجعل من عادته أنّه لا يعطي منافع الآخرة إلّا لمن سلك السّبيل الّذي يؤدي إليها، وذلك هو سبيل الأنبياء والمرسلين من عبادة الله تعالى وتوحيده والعمل بشريعته ودستوره، فليس الأمر بالتّمني ولا بالإتّكال بل الأمر بالعمل الصّحيح في أمور الدّنيا والآخرة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ هؤلاء الأصنام لا تنفع أحداً شيئاً أشار إلى الدّليل على ذلك فقال جلّ وعلا:

﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

(وكم من ملك) أي وكثيراً من الملائكة الموجودين **(في السّماوات)** ذكر ملائكة السّماوات لأنّهم أفضل من ملائكة الأرض **(لا تغني)** لا تفيد ولا تنفع شهادتهم لأحد **(شيئاً)** ولو قليلاً **(إلّا من بعد أن يأذن الله)** أن يشفعوا، وذلك بشرط أن تكون الشّفاعة **(لمن يشاء)** الله أن يشفع له **(ويرضى)** وهم المؤمنون الموحّدون، فإذا لم تفد شفاعة هؤلاء الملائكة مع أنّهم لا يغفلون طرفة عين عن عبادة الله تعالى إلّا بإذنه، وإذنه ليس إلّا لمن آمن به وحده، فكيف تنفع شفاعة تلك الأصنام الّذين لا عبادة لهم، لأنّهم جمادات ليست من أهل العبادة، ولم يأذن الله بشفاعتهم لأحد سيّما للمشركين، ومن هنا يتبيّن أنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ آلهتهم لهم حقّ الشّفاعة دون إذن الله تعالى، لأنّهم شركاء له، فظهر الفرق بين عقيدتنا وإيماننا بشفاعة الأنبياء والصّالحين وإيمان المشركين بشفاعة أصنامهم، فإنّ شفاعة الأنبياء والصّالحين في عقيدتنا ليست حقّاً لهم أو لشراكتهم مع الله تعالى، بل لأنّهم عباد الله المطيعون لله فيكرمهم الله تعالى بالإذن في الشّفاعة لمن رضي الله تعالى أن يشفعوا له، فشتّان ما بين العقيدتين.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر زعماً آخر يزعمه الكافرون ويستنكر ذلك الزعم ويردّ عليه فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾

(إنّ الّذين لا يؤمنون) لا يصدّقون **(بالآخرة)** بالحياة الآخرة بعد الموت في يوم القيامة **(يسمّون الملائكة تسمية الأنثى)** ويقولون هنّ بنات الله تعالى، كما كانوا يقولون إنّ هذه الأصنام هنّ بنات الله، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً **(ومالهم به)** بهذا القول ومضمونه **(من علم)** ناشيء عن دليل موجب للعلم، بل إنّما يقولون ذلك جهلاً وتقليداً **(إن يتّبعون إلّا الظّنّ)** أي التّقليد دون تتبّع الدّلائل **(وإنّ الظّن لا يغني)** لا يفيد **(من الحقّ شيئاً)**.

سؤال: قد دلّت الآية أنّ هذا القول ناشيء عن الجهل وعدم العلم، فكيف إذاً يلامون عليه فإنّ الجاهل معذور؟

الجواب: إنّهم يلامون على التقليد وعدم محاولة العلم والتّفكر في إدراك الحقّ، فإنّ السّعي والنّظر والفكر للوصول إلى الحقّ واجب في الدّين، ويلام المرء عليه،

ووردت آيات كثيرة تذمّ النّاس على عدم النّظر والفكر لإدراك الحقائق وصدق العقيدة وبطلانها، وبوسعك أن تخرج هذه الآيات في مادّة (نظر وفكّر) في مرشد القرآن الكريم، فعليك بالإطلاع عليها وليطمئنّ قلبك.

* * *

وفي الآية الآتية دليل على ذلك:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾

(فأعرض عمّن تولّى) فاترك مجادلة ومحاججة **(من تولّى)** أي أعرض **(عن ذكرنا)** عن التّذكر والتّفكر والنّظر في الدّلائل الموصلة إلى الإيمان بوجودنا ووحدتنا وقدرتنا على كلّ شيء، وأنّه لا شريك لنا. قال الإمام الرّازي (رحمه الله): هم قالوا: نحن لا نتفكّر في آلاء الله لعدم تعلّقنا بالله، وإنّما أمرنا مع من خلقنا وهم الملائكة أو الدّهر أو الطّبيعة على اختلاف أقاويلهم الباطلة **(ولم يرد إلّا الحياة الدّنيا)** فتفكّر فيها فقط وحصر همّه فيها وكما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ سورة الكهف الآيتان/ ١٠٣، ١٠٤. فانظر كيف ذمّهم الله تعالى على تركهم التّفكّر في الدّلائل الموصلة إلى أمور الدّنيا وحصر الهمم في الأمور الموصلة إلى منافع الدّنيا، فثبت أنّ النّظر الموجب للعلم واجب وتركه يعذّب المرء ويلام عليه.

فائدة: قال الإمام الرّازي (رحمه الله تعالى): يقول أكثر المفسّرين بأنّ كلّ ما في القرآن من الآيات الّتي تأمر بالإعراض عن الكافرين منسوخ بآية القتال، وهو باطل، فإنّ الأمر بالإعراض موافق لآية القتال فكيف تنسخ به، وذلك لأنّ النّبيّ (ﷺ) كان مأموراً بالدّعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فلمّا عارضوه قيل له: ﴿وجادلهم بالّتي هي أحسن﴾[1] فأمر بالمجادلة بالدّلائل، ثمّ لمّا لم تنفع المجادلة أيضاً قال تعالى له: فأعرض عنهم ولا تقابلهم بالدّليل والبرهان، فإنّهم لا يتّبعون الحقّ، واترك المجادلة وابدأ بالقتال، فكيف يكون منسوخاً وإنّما هو التّدرج في الدّعوة من مرحلة إلى أخرى.

---

(١) النحل . ١٢٥ .

وأقول: رحم الله الإمام الرّازي، فإنّ أكثر ما يقال فيه أنّه منسوخ من هذا القبيل أي التّدرج أو المراحل أو أمور أخرى غير النّسخ، والقول بالنّسخ في القرآن يجب أن لا يصار إليه إلّا عند عدم وجود محمل للتّوفيق بين الآيتين المتعارضتين ظاهراً. وفي قوله تعالى: فأعرض...الخ. استحقار لهؤلاء الكفرة، فإنّ المعنى اتركهم فإنّهم لا يليقون بالمحاورة وإدارة الكلام والجدال معهم، لحقارتهم وحماقتهم وتفاهتهم وصفاتهم.

* * *

ثمّ بعد أن قال الله تعالى: فأعرض، يتوهّم المتوهّم أنّهم يتركون ولا شيء عليهم، فدفع الله تعالى هذا التّوهم فقال جلّ وعلا:

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

(ذلك مبلغهم من العلم) أي يجهلون ما سوى ذلك **(إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ)** انحرف **(عن سبيله)** عن دينه وشريعته فيعذّبه عذاباً أليماً **(وهو أعلم بمن اهتدى)** فيثيبهم ثواباً جزيلاً، فلا تذهب نفسك حسرات عليهم يانبيّ الله ويا كلّ من يدعو إلى الله تعالى.

ثمّ أظهر الله تعالى استغناءه عن طاعة عباده وإيمانهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾

(ولله ما في السّموات وما في الأرض) ملكاً، بضم الميم، وملكاً بكسره، فلا يحتاج إلى عبادة العباد ولا تنفعه طاعتهم ولا تضرّ معصيتهم **(ليجزي)** اللّام هنا للعاقبة، فالمعنى إنّ مالكيّة وملكيّة الله لما في السّموات وما في الأرض عاقبته أنّه يجزي **(الّذين أساؤوا)** في أعمالهم وأخلاقهم وعقائدهم **(بما عملوا)** بمثل ما عملوا وهو الجزاء السّوء

وهو العذاب **(ويجزي الّذين أحسنوا)** في أعمالهم وأخلاقهم وعقائدهم **(بالحسنى)** بالعاقبة الّتي هي أحسن من ما عملوا، أي العشرة مقابل واحد إلى سبعمائة ضعف، إلى ما شاء الله ممّا يتفضّل به على بعض عباده والله ذو الفضل العظيم. ثمّ بيّن الله تعالى أنّ الّذين أحسنوا من هم؟ فقال: **(الّذين يجتنبون كبائر الإثم)** الذّنوب الكبيرة وهي الشّرك وكلّ كبيرة تتعلّق بالنّفس أو المال **(والفواحش)** فواحش الإثم وهي الّتي تتعلّق بالعرض **(إلّا اللّمم)** دون الصغائر من الفواحش فإنّها معفو عنها **(إنّ ربّك واسع المغفرة)** فيغفر عن الكبائر بالتّوبة والاستغفار، إن كان حقّ الله تعالى فقط، وبالتّوبة ورد المظلمة إن استطاع إن كان فيه حقّ النّاس، ونغفر عن الصّغائر بدون توبة بشرط الإجتناب عن الكبائر قال تعالى ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (٣١)﴾ سورة النساء الآية/ ٣٠، وبعد ما ذكر الله تعالى أنّ للّذين أحسنوا العاقبة الحسنى، وعرّف الّذين أحسنوا بأنّهم الّذين يجتنبون كبائر الإثم وفواحشها إلّا اللّمم، علم الله تعالى أنّ بعض النّاس يعجبون بأنفسهم فيقعون في الأمن، والأمن يجرّ إلى الهلاك، أراد أن يبقوا بين الخوف والرّجاء فقال: **(هو أعلم بكم)** من أنفسكم فالله يعلم بكم **(إذ أنشأكم)** أوجدكم من الأرض، لأنّ الإنسان يوجد من النّطفة والنّطفة من الغذاء والغذاء من النّباتات والأشجار وهي من الأرض، فكلّ إنسان يرجع نشأته إلى الأرض، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥)﴾ سورة طه الآية/ ٥٥ .**(وإذ أنتم أجنّة)** جمع جنين فعيل بمعنى مفعول أي مجنون، والمجنون بمعنى المستور، سمّي الولد جنيناً لأنّه مستور **(في بطون أمّهاتكم)** في ظلمات الرّحم وهو أعلم بكم في كلّ حال بكم منكم **(فلا تزكّوا أنفسكم)** لا تنسبوا أنفسكم إلى الصّلاح والتّقوى، فلعلّ صدر منكم ما يوجب سخط الله تعالى وأنتم لا تدرون به **(هو)** أي الله **(أعلم)** بكم منكم **(بمن اتّقى)** تقوى أي اتّقى مقته وغضبه، فربّ تقوى لا تعدّ عنده تقوى لخلطها بما يبطلها.

تنبيه: قلنا إنّ عاقبة مالكيّة وملكيّة الله تعالى لما في السّموات وما في الأرض أن يجزي الّذين أساؤوا بالعذاب والّذين أحسنوا بالحسنى، أي العاقبة الحسنى؛ وذلك لأنّ كلّ ملك لا يمكن أن لا يكون له نظام فكيف يملك الملوك ولا يملك مالك الملك كلّه، فلا شكّ أنّ له نظاماً وشريعة أنزلها إلى الرّسل ليبلّغوا النّاس فيعملوا بها ويطبّقوها، وأنّ النّظام يوجب ثواباً للمطيع وعقاباً للعاصي، وحيث لا يوجد هذا العقاب والثّواب كليّاً في الدّنيا، حيث يموت كثير من المستحقّين للعذاب دون عذاب، وكثير من

المستحقّين للثّواب دون ثواب، فلو لم يأت يوم يجد فيه المطيع ثوابه فيه وينال المجرم عذابه، فلا تتحقّق عدالة الله تعالى، وهذا محال، فيجب أن يأتي ذلك اليوم، وبذلك تكون العاقبة الثّواب والعقاب، والله تعالى أعلم.

* * *

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾

بعد أن ذكر الله تعالى حال المشركين عامّة من أقوالهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة، أراد أن يذكر حال واحد منهم خاصّة وهو الوليد بن المغيرة، كان قد اتّبع النّبيّ (ﷺ) على دينه فعيّره بعض المشركين وقالوا له: أتركت دين الأشياخ وضللت؟ قال: إنّي خشيت عذاب الله تعالى. فضمن الّذي عاتبه أن أعطاه بعض الّذي ضمن له من المال، وإن رجع إلى الشّرك أن يتحمّل عنه عذاب الله فرجع إلى الشّرك. وأعطى للّذي عيّره بعض الّذي ضمن له من المال ومنعه تمام ما ضمن له، فأنزل تعالى: **(أفرأيت الّذي تولى)** أعرض عن الإيمان ورجع إلى الشّرك **(وأعطى قليلاً)** ممّا ضمن من المال **(وأكدى)** ومنع الباقي فلم يعطه **(أعنده علم الغيب)** عنده علم أحوال القيامة وحساب الله تعالى **(فهو يرى)** يعتقد بأنّه يصلح أن يتحمّل شخص عذاب شخص؟ والاستفهام للإنكار فمعناه: أنّه ليس عنده هذا العلم، وإنّ هذه العقيدة باطلة فلا يتحمّل أحد عذاب أحد بل كلّ نفس بما كسبت رهين. وهذه الآية وإن نزلت في حقّ الوليد أو في أبي جهل، على قول، أو في العاص بن وائل في رواية أخرى، فهي عامّة في كلّ من يعتقد هذا الاعتقاد، ولذلك عقبها باستفهامات تؤكّد هذا وتوضّح مسائل أخرى عامّة من مسائل الإسلام. فقال جلّ علا:

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾

(أم لم ينبّأ) أم لم يخبر؟ الاستفهام للتّقرير فالمعنى أنّه لم يخبر ولم يعلم **(بما**

في صحف موسى) من التّوراة وغيرها من صحف، أنزلت عليه **(وإبراهيم)** ولم يخبر بما في صحف إبراهيم (ﷺ) **(الّذي وفّى)** أدى أمره تعالى وافياً، فنحن نخبر ونعلم بما فيهما وهو **(أن)** أن مخفّفة من الثّقيلة اسمه ضمير الشّأن المقدّر فالمعنى **(إنّه)** أنّ الشّأن هو **(ألّا تزر)** لا تحمل **(وازرة)** نفس **(وزر)** عمل نفس **(أخرى)** فلا يحمل أحد إثم أحد ولا يعذّب بدله، فكيف تحمل هذا عذاب الوليد أو غيره، وكيف هو رضي واقتنع بهذا الإدعاء للتّحمل **(وأن)** وأنّه **(ليس للإنسان إلّا ما سعى)** لا يفيد الإنسان إلّا سعيه وعمله لا سعي غيره وعمل من سواه **(وأنّ سعيه)** وأنّ عمله **(سوف يرى)** سوف يعرض عليه ويكشف له في كتاب أعماله وفي الميزان **(ثمّ يجزاه)** ثمّ يجزى العبد **(الجزاء الأوفى)** الأتمّ، فمقابل الواحد عشرة على الأقل، ويزاد إلى السّبعمائة ضعف أو أكثر والله واسع عليم **(وأنّ إلى ربّك)** لا إلى غيره **(المنتهى)** مصدر ميمي بمعنى الانتهاء والرّجوع، فإلى الله الرّجوع لا إلى غيره ولهذا معنيان:

الأوّل: أنّه لما ذكر الله تعالى أنّه لا يعذب أحد مكان أحد ولا يفيد أحداً إلّا سعيه وعمله، وأنّ كلّ إنسان يرى عمله ويجزى الجزاء الأوفى والأتمّ، فكأنّ قائلاً يقول: فمتى هذا الجزاء؟ فقال تعالى: (وإنّ إلى ربّك المنتهى) والرّجوع يوم القيامة وهناك العذاب والثّواب والجزاء.

الثّاني: إنّ كلّ شيء إذا حلّلته وحقّقت فيه فإنّه يرجع إلى الله تعالى وإلى خلقه؛ **فإنّك** حينما نظرت إلى أيّ شيء وسألت ممّ حصل هذا؟ يذكر لك سبب فوقه، وهكذا وهلمّ جرّا إلى أن تنتهي الأسباب ويعجز العقل فيضطرّ إلى أن يعترف بأنّه خلقه مسبّب الأسباب وموجدها، فبهذا يصل المرء إلى الاعتراف بالله، ويجوز أن يراد كلا المعنيين حيث لا تنافي بينهما، فإنّه إلى ربّك المنتهى في المبدأ والميعاد، والخطاب للرّسول إلّا أنّه أريد به كلّ المخاطبين.

سؤال مهم: إنّ هذه الآية تفيد بأنّ الإنسان لا ينتفع بعمل غيره، وهناك أحاديث صحيحة وأخبار كثيرة بأنّه يصحّ الحجّ عن الغير والصّوم عنه والصّدقة عنه، وإنّ إهداء ثواب القراءة له ينفعه، وإنّ الصّلاة عنه تفيده، فكيف التّوفيق بين هذه الآية وهذه الأحاديث، وقد جرى عمل الأمّة على وفق الأحاديث؟

الجواب: بوجوه:

الأوّل: إنّ هذه الآية مخصوصة خصّت بهذه الأخبار.

الثّاني: إنّه ليس للإنسان إلّا ما سعى حسب عدل الله تعالى، وأمّا الانتفاع بها فمن فضل الله تعالى يتفضّل به على عباده.

الثّالث: إنّ كلّ عمل يعمله الغير عن الميت فإنّما يعمله لعمل عمله الميت في حياته، كخدمة للّذي يعمل أو إحسان إليه، أو لأنّه كان مؤمناً، فكان هذا العمل من ثمرة عمله، وثمرة العمل عمل فكان من سعيه، وعمله هذا وقد فصّلنا الكلام على هذا الموضوع في تفسير سورة (يس) تفصيلاً وافياً والحمد لله.

* * *

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾

إنّ الكافرين كانوا يستبعدون الحياة بعد الموت لأنّ في ذلك وروداً للضّدّ وهي الحياة على الضّدّ وهي الأجزاء الرّميمة والبالية الّتي أصبحت تراباً من الإنسان، كما ذكر تعالى حكاية عن قولهم: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ سورة (يس) الآيتان/ ٧٧، ٧٨.

وقال أبو العلاء المعري:

والّذي حارت البريّة فيه حيوان مستحدث من رماد

فلذلك أراد الله تعالى أن يذكر أشياء كلّها توارد الضّدين على محلّ واحد ومجيء واحد تلو الآخر، فقال: **(وإنّه)** أي إنّ الله تعالى **(أضحك وأبكى)** خلق الضّحك والبكاء والحزن والسّرور، وهي امتداد وفي محل واحد هو القلب، ويأتي واحد تلو الآخر. فلعمري إنّ الضّحك والبكاء من أظهر الدّلائل على قدرة الله تعالى، فإنّك كثيراً ما تحاول الضّحك ولا يأتيك أو البكاء فلا تستطيعه، وربّما يأتي هذا في وقت لا تريده، وذاك في حال لا ترغب فيه، فدلّ ذلك على أنّ الأحوال ليس في يد المرء بل في يد خالقه ومدبّره **(وإنّه أمات وأحيا)** وإنّ الله تعالى خلق الموت والحياة، وهما يتواردان على محلّ واحد وهو الحيوان، وإنّهما ضدّان وكلّ حيوان ميّت معدوم فيحييه الله تعالى

ثمّ يميته تعالى وهو حيّ **(وأنّه)** إنّ الله تعالى **(خلق الزّوجين الذّكر والأنثى)** وهما متضادّان في شيء واحد بينه بقوله: **(من نطفة)** وهو المنيّ **(إذا تمنى)** أي تقذف في الرّحم **(وإنّ عليه)** على الله تعالى وبيده **(النّشأة)** الحياة **(الأخرى)** في يوم القيامة، وأنّه حينما قدر على خلق ما خلق ممّا ذكر لقادر على أن يعيد الحياة إلى الإنسان بعد ما مات وهو على كلّ شيء قدير **(وأنّه)** وانّ الله تعالى **(هو أغنى وأقنى)** خلق الغنى والفقر وهما متضادّان ويردان على محلّ واحد، وهو شخص واحد يكون فقيراً ثمّ يغنيه الله تعالى، أو غنيّاً فيفقره، فالشّخص هو هو لم يتغيّر عقله ولا كسبه، فيوماً يربح ويوماً يخسر ويوماً يفقر ويوماً يغنى، فلا يكون ذلك من تدبّره وإنّما هو من تدبير مدبره وهو الله تعالى. بل وترى كثيراً من العقلاء يقصمه الفقر، وكثيراً من البلهاء مترفهاً ومتنعّماً بالغنى وكثرة الأموال، فيدلّ ذلك على أنّ الفقر والغنى لا يعودان إلى تدبير الإنسان، بل إلى تدبير الله الّذي يبسط لمن يشاء ويقدر وإليه ترجع الامور كلّها. فهذا وإنّ كثيراً من الكافرين يعتقدون بأنّ الفقر والغنى يعودان إلى الطّالع وهو النّجم، فيقولون له طالع سعيد أو طالع نحس، فردّ تعالى على زعمهم ذلك بأنّه هو خالق النّجوم فقال: **(وأنّه هو ربّ الشّعرى)** فذكر بين كلّ النّجوم الشّعرى لأمرين:

الأوّل: إنّ الشّعرى نجم كبير جدّاً، فإنّه أثقل من الشّمس بعشرين مرّة ونورها خمسون ضعف نور الشّمس عنّا، فإذا كان الله ربّ الشّعرى فهو ربّ سائر النّجوم بالطّريق الأولى.

الثّاني: إنّ بعض النّاس كانوا يعبدون الشّعرى واتّخذوها إلهاً لهم.

لقد ذكر الله تعالى هذه الأدلّة على قدرته على الأحياء بعد الموت، وعلى أنّه لا شريك له، فإنّ من له هذه القدرة لا يحتاج إلى شريك فإنّه لا يتّخذ الشّريك إلّا من كان عاجزاً عن عمله.

ثمّ بعد ذلك خوّف الكافرين من أن يصيبهم ما أصاب الأقوام السّابقة بسبب كفرهم وتكذيبهم للرّسل من الهلاك والدّمار وما نزل بهم من العذاب في الدّنيا فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾

(وأنّه) وإنّ الله تعالى **(أهلك عاداً الأولى)** وعاد اسم قبيلة كانت تسكن بين حضرموت والرّبع الخالي وعمّان، وتسمّى بأرض الأحقاف، وكانت تعبد الأصنام، فأرسل الله تعالى إليهم هوداً فكذّبوه واستهزؤوا به، فخوّفهم وأخبرهم بأنّ عذاب الله ينزل بهم إن لم يؤمنوا فأصرّوا على كفرهم، فأرسل الله تعالى عليهم ريحاً فأهلكتهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧)﴾ سورة الحاقة الآيتان/ ٦، ٧. وانتقل هود ومن تبعه قبل نزول العذاب إلى حضرموت وسمّيت هذه بعاد الأولى حيث كانت قبيلة أخرى تسمّى بعاد تسكن اليمن، وهذه كانت قبل عاد يمن وأقدم منها. وذكرنا القصّة مفصّلة في سورة الفجر **(وثمود)** وأهلك قوم ثمود وهم قوم صالح (ﷺ) أهلكهم بالصّيحة **(فما أبقى منهم)** أحداً وقد ذكرنا قصّتهم في سورة الشّمس **(وقوم نوح)** أي وأهلك تعالى قوم نوح **(من قبل)** من قبل عاد وثمود **(إنّهم)** أي إنّ قوم نوح كانوا **(أظلم)** من عاد وثمود **(وأطغى)** منهم **(والمؤتفكة)** وأهلك تعالى سكان القرى المؤتفكة وهم قوم لوط سمّيت مؤتفكة بمعنى المنقلبة لأنّ القرى انقلبت عليهم، وجعل تعالى عاليها سافلها حال كونها **(أهوى)** أهوى بها جبريل رفعها ثمّ أسقطها على الأرض، وبعد ذلك أمطر الله تعالى عليها حجارة من السّماء **(فغشّاها)** أي غطى القرى **(ما غشى)** من الحجارة. وإلى هنا هو ما في الصّحف الأولى. وفي هذه الآيات الّتي تخبر عن أحوال الأمم السّالفة وعد للرّسول (ﷺ) وتسلية له، فكأنّه تعالى يقول: لا تحزن يا محمّد فإنّ الرّسل قبلك كلّهم قد كذّبوا وأوذوا، وإنّ الله تعالى نصرهم وأهلك أعداءهم، وإنّ مثل قومك مثلهم، وفي عين الوقت إنذار للمشركين ولمنكري الرّسول الأعظم بأنّ يعذّبهم ويلحقهم بهؤلاء الأقوام الّتي مضت، فيخسرون الدّنيا والآخرة، إن لم يؤمنوا ويتّبعوا شريعة محمّد (ﷺ) ولم يطبّقوه في شؤون حياتهم كلّها؛ ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ (٥٦) أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ (٦١) فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ (٦٢)﴾

(هذا) الّذي ذكر ممّا في الصّحف الأولى من قوله تعالى: **(أم لم ينبّأ)** إلى قوله:

(فغشّاها ما غشّى) فهو: **(نذير من النّذر الأولى)** من الإنذارات الموجودة في الكتب للأمم السّابقة، ولكم أيّها المدّعوّون إلى اتّباع محمّد (ﷺ)، فإنّ أطعتم واتّعظتم بذلك واتّبعتم الرّسول (ﷺ) أفلحتم وإلّا يحلّ بكم ماحلّ بالأمم السّابقة، والّذين كذّبوا رسلهم فلم يتّبعوهم. ثمّ أنذرهم الله تعالى بالعذاب القريب فقال: **(أزفت)** قربت منكم **(الآزفة)** المصيبة القريبة من عذاب الدّنيا وقد نزل بهم الجدب والقحط والحروب، أو من عذاب القيامة فإنّ القيامة قريب، لأنّ كلّ آت قريب، ولأنّ عمر الإنسان قليل ومن مات قامت قيامته **(ليس لها)** ليس للمصيبة الّتي تستقبلكم **(من دون الله)** من عند غير الله **(كاشفة)** اسم فاعل بمعنى المصدر، أي **ليس** لها كشفها وإزالتها وردّها من عند غير الله تعالى من قوّتكم المادّيّة أو آلهتكم الباطلة، وأنّ الله تعالى لا يردّها إلّا أن تؤمنوا وتتّبعوا رسوله الكريم **(أفمن هذا الحديث)** حديث الإنذار **(تعجبون * وتضحكون)** استهزاءً وتكذيباً له **(ولا تبكون)** تزجّراً وخوفاً فترجعوا عن ضلالكم **(وأنتم سامدون)** لاهون غافلون معرضون عن الحقّ؟ فبئس ما تفعلونه فتوبوا وارجعوا إلى الحقّ **(فاسجدوا لله)** فانقادوا لأمر الله تعالى واتّبعوا رسوله **(واعبدوا)** ربّكم فاعملوا بشريعته وطبّقوها في شؤون حياتكم كلّها وبذلك تفلحوا وتفوزوا فوزاً عظيماً في الدّنيا والآخرة.

هذا وسبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين وعلى أممهم أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

سورة القمر

(مكيّة، إلّا الآيات (٤٤، ٤٥، ٤٦) فمدنيّة، نزلت بعد سورة الطّارق، وآياتها خمس وخمسون، سمّيت بالقمر لقوله تعالى: ﴿وانشقّ القمر﴾)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾

(اقتربت السّاعة) قربت القيامة، ومعنى قربها أنّ ما بقي من الدّنيا إلى القيامة أقلّ ممّا مضى، سواء كانت النّسبة بينهما كثيرة أو قليلة **(وانشقّ القمر)** وهذا إخبار بما جرى، وذلك أنّ قريشاً سألوا رسول الله (ﷺ) أن يظهر لهم معجزة كبيرة، فأشار الرّسول (ﷺ) إلى القمر فانشقّ وأصبح فلقتين، فلقة وراء الجبل وأخرى دونه، ووردت بالإخبار عن هذه المعجزة وانشقاق القمر روايات كثيرة بلغت حدّاً لا ينكر، واتّفقت الأمّة على وقوعه وعلى تفسير الآية بذلك، ونقل الإمام الرّازي قول من قال: إنّ هذا الأمر هائل جدّاً ولو وقع لنقل بالتّواتر ولعمّ وجه الأرض كلّه، ولم ينقل تواتراً ولم يعمّ؛ فدلّ ذلك على أنّه لم يقع، فقال في جواب: أنّه لم ينقل تواتراً ولم يعمّ وجه الأرض لأمور:

الأوّل: أنّ النّبيّ (ﷺ) كان يتحدّى بالقرآن، وقد عجز النّاس عن معارضته، فأصبح القرآن معجزة خالدة، ولذلك لم يتمسّك العلماء بالمعجزات الأخرى، فلم ينقلها العلماء بحيث يبلغ حد التّواتر.

الثّاني: إنّ المؤرّخين يغلب عليهم التّمسك بالطّبيعة فيفسّرون كثيراً من الأشياء تفسيراً ماديّاً، فحينما رأوا هذا الإنشقاق فسّروه بأنّه خسوف نصفيّ حدث للقمر، أو أنّه ظهور شيء على شكل نصف القمر في الجوّ، ولذلك لم ينقلوه كمعجزة.

الثّالث: كان الفلاسفة في ذلك الزّمان يستحيلون حدوث الخرق والإلتيام على الأجرام السّماوية، فاستبعدوا ذلك وأوّلوه بشيء آخر كالمؤرخين.

الرّابع: إنّ الحادثة كانت في اللّيل، ولذا لم يتنبّه له النّاس إلّا قليلاً، ولذا لم يذكر تواتراً.

سؤال: ما هي المناسبة بين قرب السّاعة وإنشقاق القمر، فذكرا في آية واحدة؟

الجواب: إنّه كان في الكتب السّماوية القديمة أنّ خاتم النّبيين يأتي قرب السّاعة، ومن علاماته أنّه ينشقّ القمر معجزة له، فقال تعالى: (إقتربت السّاعة) وعلى ذلك أنّه (إنشقّ القمر) فآمِنوا بمحمّد وصدّقوا لأنّه ظهر منه ما ثبت في الكتب من علامته.

* * *

إلّا أنّهم لم يؤمنوا وطغوا بل **(وإن يروا آية)** أي وإن يروا كلّ آية يعرضوا عنها، وصدّوا استكباراً وقابلوها بالإنكار **(ويقولوا)** هذا الّذي فعل محمّد **(سحر مستمرّ)** منه ليسحر النّاس به وليس معجزة أو معناه **(سحر مستمرّ)** قويّ مشتقّ من المرّة أي القوّة **(وكذّبوا)** الرّسول فيما جاء به **(واتّبعوا أهواءهم)** ولذلك يكذبون بالحقّ، والهوى من أقوى ما يضلّ النّاس **(وكلّ شيء)** أي مثبت في الكتاب، وهذا وعد ووعيد فالمعنى: كلّ شيء من العقائد الصّحيحة والباطلة والأعمال الصّالحة والفاسدة **(مستقرّ)** أي مسجلّة على صاحبها ومثبّتة في كتاب الأعمال وسجلّاتها **(ولقد جاءهم)** وبعزّتي لقد جاءهم **(من الأنباء)** من أخبار الأمم الّتي قبلهم **(ما)** مقدار كاف **(فيه مزدجر)** فيه الزّجر والموعظة إن اتّعظوا وانزجروا. ومزدجر أصله من ازتجر، مزيد زجر مصدر ميمي بمعنى الزّجر، فقلبت التّاء دالاً فصار مزدجر، فإنّ القاعدة القانونيّة الصّرفية أنّ تاء افتعل تقلب دالاً إذا وقعت بعد الدّال والذّال والزّاي، هذا وإنّ ما جاء من هذه الأنباء **(حكمة بالغة)** عظيمة تامّة إلّا أنّ حالهم أصبحت بحيث لا يؤثّر فيهم كلّ شيء، ولذلك **(فما تغن)** فما تفيدهم **(النّذر)** محلّها والحكم وإن بلغت غايتها، ولذلك قال جلّ وعلا:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

(فتولّ عنهم) أعرض عنهم ولا تشتدّ في مخاصمتهم، ولا تهتمّ بهم فإنّا نكفيكهم ونعذّبهم **(يوم يدع الدّاع)** يوم منصوب بنعذّبهم لمفهوم من قوله تعالى: **(فتولّ عنهم)** فإنّ هذا يقال للوعيد، أي لا تشغل بالك بخصامهم ولا تمل إلى عذابهم فإنّا نعذّبهم **(يوم يدع)** ينادي **(الدّاع)** أي المنادي **(إلى شيء نكر)** وهو الحساب، ثمّ العذاب وفق الحساب **(خشّعاً)** ذليلة **(أبصارهم)** حال من فاعل ينكرون المستفاد من قوله: **(إلى شيء نكر)** لأنّ المعنى إلى شيء ينكرونه ويكرهونه لما يعلمون من مصيرهم السيّئ وحينذاك **(يخرجون من الأجداث)** جمع جدث وهو القبر **(كأنّهم جراد منتشر)** شبّهوا بالجراد المنتشر في الكثرة والحيرة **(مهطعين)** مسرعين **(إلى الدّاع)** لا اختياراً بل سوقاً ودفعاً لذلك **(يقول الكافر)** تحسّراً وندامة وإخباراً عن سوء مصيره **(هذا يوم عسر)** عليه لا على المؤمن فإنّ ذلك اليوم أطيب أيّام المؤمن، حيث يجني فيه ثمرة إيمانه وأعماله إن شاء الله تعالى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يذكر الأنباء الّتي جاءتهم والّتي فيها الكفاية في الزّجر والإتّعاظ لمن ألقى السّمع وهو شهيد؛ فقال جلّ وعلا:

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾

(كذّبت قبلهم) قبل الّذين كذّبوك يا أيّها النّبيّ **(قوم نوح)** نوحاً ثمّ فصّل تكذيبهم فقال: **(فكذّبوا عبدنا)** وهو نوح **(وقالوا)** في حقّ نوح ووصفه **(مجنون)** أي هو مجنون **(وازدجر)** أصله وازتجر قلبت التّاء دالاً لما سبق، أي وزجر نوح من قبل القوم بالشّتم والوعيد حيث قالوا له ﴿لئن لم تنته يا نوح لتكوننّ من المرجومين﴾ سورة الشعراء الآية/١١٦. أي من المقتولين. فلمّا يئس من إيمانهم وعلم أنّ هلاكهم خير من بقائهم

اشتكى إلى الله تعالى **(فدعا ربّه)** ناداه قائلاً ربّ **(أنّي مغلوب)** غلبني قومي بقوّتهم وكثرتهم وتمرّدوا عليّ **(فانتصر)** فانتقم منهم نصراً لي ولدينك **(ففتحنا أبواب السّماء)** إستجبنا دعاءه ففتحنا أبواب السّماء أي السّحاب **(بماء منهمر)** منصبّ بكثرة **(وفجّرنا الأرض)** وجعلنا الأرض كلّها **(عيوناً)** يخرج منها الماء **(فالتقى)** التقى ماء الأرض بماء السّماء **(على أمر)** على مقدار **(قد قدر)** وعيّن في علم الله تعالى، فلم يزد عن ذلك المقدار شيئاً، فأغرقنا القوم كلّهم ونجّينا نوحاً والّذين آمنوا معه، وبيّن كيفيّة إنجائه فقال: **(وحملناه)** نوحاً ومن معه **(على)** سفينة **(ذات ألواح)** من الخشب **(ودسر)** ومسامير شدّت الأخشاب بعضها ببعض **(تجري)** تلك السّفينة على الماء **(بأعيننا)** برعايتنا وحفظنا وفعلنا ذلك **(جزاءً لمن كان كفر)** إن قرئ بضمّ الكاف وكسر الفاء على صيغة المجهول، فجمعناه جزاءً لمن كان كُذّب وأوذي وهو نوح، وإن قرئ بفتح الكاف والفاء فمعناه عقاباً لمن كان كفر بنوح، وهم قومه، ووردت القراءتان فأفادت المعنيين **(ولقد تركناها)** ولقد تركنا هذه الحادثة في النّاس فكانت تتلى وينقل البعض للبعض وجعلناها **(آية)** عبرة ليعتبر ويتّعظ بها النّاس فلا يكذّبوا رسل الله ولكن **(فهل)** يوجد **(من مدّكر)** من متذكّر ومتّعظ يتّعظ بها وبأمثالها، أي لا يوجد مدّكر إلّا قليلاً، ومدّكر أصله مذتكر، قلبت تاؤه دالاً وأدغم الذّال في الدّال حسب قواعد علم الصّرف **(فكيف)** فانظر كيف كان **(عذابي)** لقوم نوح **(ونذر)** وعاقبة نذري أي إنذاراتي إليهم بعد أن لم يتّعظوا **(ولقد يسّرنا القرآن)** ولقد سهّلنا فهم القرآن للإتّعاظ به، حيث أنزل بلسان عربيّ مبين **(فهل من مدّكر)** فهل من مذتكر ومتّعظ به، كلّا إلّا قليلاً.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾

(كذّبت عاد) وهو قوم هود فكذّبوا هوداً (عليه السلام) **(فكيف كان)** فانظر كيف كان عذابي وهذا كناية عن شدّة العذاب، وأنّه كان يتعجّب منه **(ونذر)** ونذري أي عاقبة إنذاراتي لهم الّتي لم يتّعظوا بها ولم يخافوا منها، ثمّ بيّن كيفيّة عذابه لهم فقال: **(إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً)** شديدة البرد **(في يوم نحس)** إبتداء مجيء الرّيح في يوم

نحس شؤم لهم، وهو يوم الأربعاء (**مستمرّ**) وصف لليوم أي يوم شديد شآمته، فاستمرّ العذاب إلى يوم الأربعاء القادم، وكانت صفة تلك الرّيح وشدّتها أنّها (**تنزع النّاس**) أي تقلع النّاس من الأرض فترفعهم وتسقطهم على الأرض، فيموتون وتبقى جثثهم ولكبر أجسامهم (**كأنّهم أعجاز نخل منقعر**) فيقلع من الأرض وواقع على الأرض، ذكر وصف النّخل مذكّراً باعتبار اللّفظ، وأنث في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ سورة الحاقة الآية/٧. باعتبار المعنى وهي الشّجرة، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن الكريم (**فكيف كان عذابي ونذر**) تقدّم تفسيره (**ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل مدّكر**) تقدّم تفسيره أيضاً، وأعيد هنا قوله: (**فكيف كان عذابي ونذر**) لأنّ الأوّل كان بالنّسبة للدّنيا وهذا بالنّسبة للآخرة فلا تكرار.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾

(**كذّبت ثمود**) وهم قوم صالح (ﷺ) فكذّبت (**بالنّذر**) بالإنذارات الّتي أنذرهم بها سيّدنا صالح، فلم يؤمنوا به بل كذّبوه (**فقالوا**) جهلاً أو عناداً (**أبشراً**) لا ملَكاً؟ أرادوا أن يأتي الرّسول من الملائكة لا من البشر (**منّا**) من قبيلتنا فنعرف ما يعرفه ونعلم بحاله، أرادوا بهذا القول أنّه لو جاءهم واحد غريب رسولاً لربّما كان عنده ما لم يعلموا به فيمكن اتّباعه، ولكنّ هذا من بلدتهم وعشيرتهم، ظنّوا أنّه ليس عنده ما لا يطّلعون عليه، ومن جهة أخرى أنّ كثيراً من النّاس يحبّون اتّباع الغرباء لا الأقارب وأهل العشيرة، لأنّه يوجد بين أهل العشيرة حزازات لا توجد بينهم وبين الغرباء (**واحداً**) ليس له قوّة من جيش وخدم، أرادوا أنّه من الضّعفاء وليس من أكابر القوم (**إنّا إذاً**) أي إذا نتّبعه وهو بهذا الحال (**لفي ضلال وسعر**) جنون (**أألقي الذّكر عليه**) وهو شريعة الله (**من بيننا**) اختصّ من دوننا بهذه المنقبة والرّسالة وهو ليس من سادتنا، واستفهامهم للإنكار فالمعنى كلّا لم يلق عليه الذّكر (**بل هو كذّاب**) كثير الكذب والافتراء في هذه الدّعوى (**أشر**) فتكبّر وبطر. ثمّ ردّ الله تعالى عليهم فقال: (**سيعلمون غداً**) يوم القيامة تسمى غداً، لأنّ الكون يومان يوم هو الدّنيا ويوم هو يوم الآخرة. أو حيث هو يأتي بعد الدّنيا سمّي غداً، أو لأنّ الآخرة قريبة فهي كالغد لأنّ كلّ آت قريب، ولذلك يقال: ما أبعد ما

فات وما أقرب ما هو آت. أو لأنّ قيامة كلّ إنسان بموته، فمن مات قامت قيامته والموت قريب جدّاً. **(من الكذّاب الأشر)** يعلمون حينما ينكشف لهم الأمر من الكذّاب الأشرّ هم لا صالح (عليه السلام).

ثمّ طلبوا من صالح أن يأتي لهم بمعجزة وأرادوا أن يخرج لهم من الصّخرة ناقة يحلبونها ؛فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

(إنّا مرسلو النّاقة) قال تعالى إنّنا نخرج النّاقة من الصّخرة لتكون **(فتنة)** امتحاناً **(لهم)** لثمود **(فارتقبهم واصطبر)** هل يراعون حقّ النّاقة أم لا؟ وهل يؤمنون بعد ذلك أم لا؟ **(ونبّئهم)** وأخبرهم **(أنّ الماء قسمة)** مقسومة بينهم وبين النّاقة، للنّاقة يوم ترد فيه الماء ويوم لهم يأخذون ما يكفيهم من الماء **(كلّ شرب)** كلّ قسم من الشرب **(محتضر)** يحضره صاحبه لا غيره. وهذا كان امتحاناً لهم هل يصبرون على هذه القسمة؟ أو يظلمون النّاقة؟ حيث كان يصيبهم شحّة في الماء لهذه القسمة. فلم يصبروا على هذه القسمة **(فنادوا صاحبهم)** وطلبوا منه أن يعقر النّاقة ويخلّصهم فيها ليبقى الماء كلّه لهم **(فتعاطى)** تناول العقر **(فعقر)** النّاقة **(فكيف كان عذابي)** لهم **(ونذر)** أي عاقبة إنذاراتي، ثمّ بيّن نوعيّة العذاب فقال جلّ وعلا: **(إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة)** صاح بها عليهم جبرائيل عليه السلام **(فكانوا)** نتيجة الصّيحة **(كهشيم المحتظر)** كالحشيش الّذي يعمل حظيره لغنمه فيجمع الحشيش، أي أصبحوا يابسين كمثل ذلك الحشيش وميّتين لا حراك لهم. هذا وقد ذكرنا قصّتهم في سورة الشّمس بتفصيل مفيد.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ

صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

(**كذّبت قوم لوط بالنّذر**) بإنذاراتنا فلم يؤمنوا بلوط وكذّبوه؛ ولذلك (**إنا أرسلنا عليهم حاصباً**) ريحاً شديدة تثير الحصى والحجارة فترميها عليهم فأهلكناهم كلّهم (**إلّا آل لوط**) فلم يهلكهم بل (**نجّيناهم**) وأمرنا بخروجهم من القرية (**بسحر**) في أوّل الصّباح وقبل أن يأتي ريح العذاب فأنجينا آل لوط (**نعمة من عندنا**) أنعمنا بها عليهم (**كذلك**) مثل ما جازينا لوطاً من إنجائه وإهلاك أعدائه (**نجزي**) كلّ (**من شكر**) الله تعالى فآمن برسوله وعمل بشريعته، وإنّا لم نهلكهم فجأة دون تبليغ بل (**ولقد أنذرهم**) لوط (**بطشتنا**) بعذابنا لهم إن لم يتوبوا (**فتماروا**) فشكّكوا ولم يؤمنوا (**بالنّذر**) الّتي أنذرهم بها لوط (عليه السلام) (**ولقد راودوه**) أي وبعزّتي لقد راودوا لوطاً (**عن ضيفه**) أن يسلّمهم ضيفه فيفعلوا بهم الفاحشة، وضيفه كانوا ملائكة جاؤوا في أجمل صورة المردان (**فطمسنا أعينهم**) جعلنا عيونهم مطموسة. يروى أنّ جبريل (عليه السلام) ضربهم بجناحه فعموا ولم يبصروا، فقلنا لهم: (**فذوقوا عذابي ونذر**) هذا العذاب وعاقبة إنذاراتي هذه (**ولقد صبّحهم بكرة**) ولقد جاءهم في الصباح المبكر (**عذاب مستقرّ**) استقرّ فيهم إلى أن قضي عليهم، وقلنا لهم: (**فذوقوا عذابي**) هذا (**ونذر**) ونذري أي وعاقبة إنذاراتي الّتي لم تصدّقوها وكفرتم بها (**ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر**) مرّ تفسيرها.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

(**ولقد جاء آل فرعون**) آل فرعون وأتباعه جاءهم (**النّذر**) إنذارات الله تعالى على لسان موسى وهرون (عليهما السلام) فلم يؤمنوا بل (**كذّبوا بآياتنا**) بمعجزاتنا الّتي أريناهم (**كلّها**) جميعها (**فأخذناهم**) عاقبناهم (**أخذ**) عقاب (**عزيز**) غالب على أمره لا يردّ أمره شيء (**مقتدر**) على الأخذ والعفو وهو الله تعالى حيث أغرقهم كلّهم في البحر.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أحوال هذه الأمم لمنكري رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إنذاراً وتهديداً لهم بإهلاكهم مثل ما أهلك تلك الأمم إن أصرّوا على الكفر ومعصية الرّسول أقبل عليهم وخاطبهم، فقال جلّ وعلا:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

(أكفّاركم) يا أمّة محمّد (ﷺ) **(خير من أولئكم)** الكفّار الّذين مضوا بكفرهم وتكذيبهم الرّسل وتولّيهم عن شريعة الله تعالى؟ والاستفهام للإنكار فمعناه: لستم بخير منهم، وإنّ ما أصابهم سيصيبكم إن لم تؤمنوا **(أم لكم براءة)** من الله تعالى من العذاب كتب لكم **(في الزّبر)** في الكتب السّماوية الّتي أنزلت على الأنبياء كلّا ليس لكم ذلك أيضاً **(أم يقولون نحن جميع)** جماعة ذو قوّة وكثرة في العدد **(منتصر)** بقوّته وكثرة عدده فلا يقولوا ذلك ولا يغترّوا بكثرتهم وقولهم حيث **(سيهزم الجمع)** أي يهزم جمعكم **(ويولّون الدّبر)** أي يولّي الجمع الدّبر، وفي قراءة تولّون الدّبر والمآل واحد. وهذا من معجزات القرآن حيث أخبر بهزيمتهم فكانت كما أخبر، وهذا بالنّسبة للدّنيا وإنّ عذابهم ليس مقصوراً على ما في الدّنيا **(بل السّاعة)** بل عذاب السّاعة وهي القيامة **(أدهى)** أعظم **(وأمرّ)** أكثر مرارة ممّا لحقهم في الدّنيا من هزيمتهم وقتلهم يوم بدر وغيرها.

ثمّ بيّن الله تعالى عذاب السّاعة الّتي قال في حقّها (أدهى وأمر) فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾

(إنّ المجرمين في ضلال) في بعد عن طريق السّعادة والجنّة **(وسعر)** وفي طبقات من نار جهنّم **(يوم)** يكونون في ضلال وسعر **(يوم يسحبون)** يجرّون **(في النّار على وجوههم)** ويقال لهم زجراً وتبكيتاً **(ذوقوا مسّ سقر)** عذاب جهنّم.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾

تمهيد: إنّ لله تعالى طريقين في إيجاد الأشياء: الخلق والأمر، فالخلق عبارة عن ربط المسبّبات بالأسباب وإيجاد الله تعالى لها عند وجود الأسباب وسمّي ذلك بخلق الله، وعادة الله تعالى أنّه لا يخالف الله تعالى ذلك الخلق سبباً إلّا ويوجد مسبّبه عند وجوده إلّا إذا أراد معجزة لرسول أو كرامة لوليّ مثل ما وجد سبب الإحتراق لإبراهيم

(عَلَيْهِ السَّلَامُ) حينما ألقوه في النّار ولم يخلق الله المسبّب وهو الإحتراق؛ فلم يحترق وكما ولد عيسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) بدون سبب وهو الوالد، وكما وجد الطّعام لمريم بدون سبب. والأمر عبارة عن إيجاد الله تعالى الشّيء بمجرّد أمر كن فيكون.

* * *

وهنا حينما ذكر الأقوام الأولى وهلاكهم وذكر دخول المجرمين يوم القيامة في النّار، كأنّ قائلاً يقول: ولماذا إهلاكهم ودخولهم في النّار؟ فأجاب تعالى بقوله: **(إنّا كلّ شيء خلقناه)** ملتبس **(بقدر)** بربط الأسباب والمسبّبات، وهم تناولوا أسباب الهلاك فأهلكوا، وتناولوا ما يسبّب دخول النّار من المعاصي فادخلوا. **(وما أمرنا)** لشيء إذا أردناه **(إلّا واحدة)** إرادة واحدة فجأة لوجود الشّيء سريعة **(كلمح بالبصر)** أي إشارة بالبصر، بل هو أسرع من ذلك إلّا أنّه لا يفهم الإنسان سرعة أكثر من هذا، فشبّه به للتقريب من الأذهان، ونزول العذاب كان من عالم الأمر فلم يحتج إلى ترتيب المقدّمات بل صيحة من ملك أو صاعقة أو غير ذلك.

ثمّ بيّن كيفيّة إيجاد الله تعالى للأشياء بالأمر وهو أمر **(كن فيكون)** الّذي لا يتوقّف على سبب ولا على مرور زمان، فقال جلّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾

(ولقد أهلكنا) أي وبعزّتي لقد أهلكنا ودمّرنا **(أشياعكم)** أمثالكم من الأمم في الكفر وتكذيب الرّسل **(فهل من مدّكر)** فيكم يتذكّر ويتّعظ بهم فلا يكفر ولا يكذب؟ والاستفهام للإنكار أي لا يوجد إلّا قليلاً **(وكلّ شيء فعلوه)** ضدّ الرّسل والمؤمنين مسجّل **(في الزّبر)** في كتب أعمالهم **(وكلّ صغير وكبير)** من أعمالهم الأخرى القبيحة **(مستطر)** مسطور في دفاتر أعمالهم فنعاقبهم وفق ذلك يوم القيامة.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى حال المجرمين ومصيرهم السيّئ أراد أن يذكر حال المؤمنين وعاقبتهم الحسنى فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾

(إنّ المتّقين) الّذين يتّقون أي يجتنبون الكفر ومعصية الله يسكنون يوم القيامة **(في جنّات)** في بساتين مثمرة مظلّلة **(ونُهر)** أي وأنهار من عسل ولبن وماء وخمر طهور **(في مقعد)** في مجلس **(صدق)** لا لغو فيه ولا تأثيم، أو في مجلس جلسوه نتيجة صدقهم في العقيدة والقول والعمل **(عند)** قرب **(مليكٍ مقتدر)** وهو الله تعالى، قرب الرّتبة والمحبّة والرّعاية والمنزلة والتّكريم.

أجلسنا الله تعالى هذا المجلس وخصّنا بنعمته وحفظنا من ما يبعدنا عن هذا المقعد وهذا التّكريم وما ذلك عليه بعزيز، وإنّه أرحم الرّاحمين آمين، وصلّى الله على المولى محمّد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الرّحمن

(مكيّة، نزلت بعد الرّعد، وآياتها ثمان وسبعون، سمّيت بالرّحمان لتصديرها بقوله تعالى: الرّحمن).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾

تمهيد: إنّ الإنسان يعبد الله تعالى إمّا لخوف نقمته وعذابه، أو لشكر نعمه وثوابه، فبعد أن ذكر الله تعالى في السّورة السّابقة نقمه وعذابه الّذي عذّب به الأمم السّابقة ليخاف منكرو هذه الأمّة فيؤمنوا ويعبدوا الله تعالى ويعملوا بشريعته خوف العذاب، عقّب ذلك بهذه السّورة وذكر فيها نعمه ليشكروا الله تعالى بالإيمان والتّوحيد واتّباع الرّسول والحكم بما جاء به من عند الله تعالى؛ شكراً لنعمه هذه في الدّنيا وطمعاً في ثوابه في الآخرة، فقال جلّ جلاله: **(الرّحمن)** صدّر السّورة بهذا الاسم الّذي يدلّ على أنّه يفيض نعمه وينعم على النّاس كثيراً ودائماً، إشارة إلى أنّ مصدر هذه النّعم وسببه هو أنّه يتّصف بالرّحمة، فلرحمته هذه ينعم على عباده لا لحاجته إلى الإنعام ولا إلى المنعم عليه **(علّم القرآن)** قدّم ذكر نعمة القرآن إشارة إلى أنّها أكبر النّعم؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يستقيم أمره ولا تحلو حياته إلّا إذا كان هناك نظام صالح يضمن حياة الفرد والجماعة، ويتكفّل لهم سعادتهم في الدّنيا والآخرة، ولا يوجد نظام يؤمّن حياة الفرد والجماعة مثل القرآن وشريعة الإسلام، ويتكفّل السّعادة لهم في الدّنيا والآخرة ﴿إنّ هذا القرآن يهدي للّتي هي أقوم ويبشّر المؤمنين الّذين يعملون الصّالحات أنّ لهم أجراً كبيراً﴾ سورة الإسراء الآية/ ٩، فالقرآن أساس كلّ نعمة وسبب كلّ سعادة، ولذلك جعله تعالى أوّل النّعم، وإنّ هذه النّعم كلّها كما تدلّ على إحسان الله تعالى وإنعامه على

عباده فإنّها تدلّ في عين الوقت على قدرته القاهرة وعظمته الباهرة. فمن أوّل نعمه أنّه علّم القرآن الّذي يدلّ على كمال قدرة الله تعالى، فإنّ محمّداً الّذي كان أميّاً وعاش بين أمّة أميّة إلى أن بلغ أربعين سنة لا صلة له بالقراءة والكتابة والعلم والخطابة والشّعر، يأتي بهذا الكتاب العظيم الّذي لو اجتمعت الجنّ والإنس على أن يأتوا بمثله لا يأتون به ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وبالكتاب الّذي تحدّى جميع الفصحاء والبلغاء أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه بلاغة وروعة في البيان والتّعبير، فما استطاعوا ذلك، فدلّ ذلك على أنّ الله على كلّ شيء قدير. ومن نعمه أنّه **(خلق الإنسان)** الإنسان الّذي يدلّ خلقه على عظمة خالقه وكمال قدرته، فإنّ العلماء والحكماء والفلاسفة إلى الآن متحيّرون، وتأخذهم الدّهشة حينما يرون ويطّلعون على ما في الإنسان من عجائب الخلق وبدائع الصّنع الّتي تدلّ على عظمة خالقه وكمال قدرته. ومن نعمه أنّ الله تعالى حينما خلق الإنسان **(علّمه البيان)** علّمه المنطق والفكر والتّفكير وملكة الإدارة والتّدبير، وميّزه بذلك عن سائر خلقه، وجعله سلطان المخلوقات بعده وخليفته في الأرض.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نعمه ودلائل قدرته في داخل الإنسان وفي حقيقته وتركيب ماهيّته، أراد أن يذكر النّعم ودلائل القدرة في الآفاق من العلوّ ومن السّفل، فقدّم ما في العلوّ لأنّه أهمّ فقال جلّ وعلا:

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾

أي ومن نعمه ودلائل قدرته **(الشمس والقمر)** اللّذان يجريان دؤوباً **(بحسبان)** بحساب دقيق وتنظيم بديع وحركة منسّقة، وبهما يتكوّن اللّيل والنّهار والفصول الأربعة، وتنبت النّباتات والأشجار، ويكون المدّ والجزر في البحار، وتتكوّن الأبخرة فيتكوّن فيها الأمطار، ومنها العيون والأنهار **(والنّجم والشّجر يسجدان)** ومن نعمه النّجم وهو النّبات الّذي ليس له ساق يبقى في الفصول الأربعة، بل ويزول كلّه ثمّ يعود وينبت على بذرة **(والشّجر)** وهو النّبات الّذي له ساق يبقى فيورق ويثمر في وقته على هذا السّباق، ثمّ تسقط ثمراته وأوراقه، ويبقى السّاق إلى أن يورق ويثمر مرّة أخرى، وهكذا دواليك **(يسجدان)** ينقادان لأمر الله التّكويني ويسجدان السّجدة المعروفة لله تعالى أيضاً، إلّا أنّنا لا ندرك ذلك ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ سورة الإسراء الآية/ ٤٤، فلولا الشّمس والقمر لما وجد النّبات، ولولا النّبات لما وجدت الحياة، فتدلّ هذه الأشياء على نعم الله تعالى، ويدلّ أيضاً

على كمال قدرته وبديع صنعه وعجائب خلقه، ممّا يدلّ على وجوده ووحدته وقدرته على كلّ شيء.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾

(والسّماء رفعها) ومن نعم الله تعالى أنّه رفع السّماء أي خلقها مرفوعة عالية على الأرض **(ووضع الميزان)** أي وضع السّماء وما فيها من الأجرام الّتي تزيد على ملايين ملايين كوكبٍ ضخمٍ ميزانٍ أي قوّة تتعادل بها هذه الأجرام، فلا تصطدم واحد من هذه الأجرام بالآخر، بل يعمل ويتحرّك كلّ في مكانه لا يتقدّم أحدها على الآخر ﴿لا الشّمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اللّيل سابق النّهار وكلّ في فلك يسبحون﴾ سورة يس الآية/ ٤٠. وهكذا كلّ السّموات وكلّ النّجوم وكلّ الكواكب لها ميزان خاصّ واعتدال مخصوص لو اختلّ هذا الميزان لاصطدم البعض بالبعض ولانهدم هذا الكون، وإنّ هذا الميزان والإعتدال في الكون والأجرام خلق لأجل أن يعيش الإنسان في ظلّه، وكما أنّ الكون بقاؤه بالميزان والاعتدال فكذلك بقاء الحياة البشريّة بالعدل والميزان، فإذا اختلّ العدل اختلّ المجتمع،ويكون مآله إلى الإصطدام والزّوال، فكان خلق الإعتدال التّكويني في الكون ووضع الميزان له وجعله بحيث إذا اختلّ هذا الإعتدال اختلّ الكون وانهدم العالم عبرة للإنسان، وليعلم أنّ قوام المجتمع وحياته أيضاً بالعدل والميزان بين الأفراد والشّعوب، فإذا اختلّ العدل اختلّ المجتمع وحياته ولذلك قال تعالى: **(ألّا تطغوا في الميزان)** إنّ الله تعالى خلق السّموات وجعل بقاءها بالعدل لكي تعلموا أنّ بقاء كلّ شيء بالعدل، وأن لا تطغوا في الميزان أي في العدل فيما بينكم **(وأقيموا الوزن بالقسط)** أي وأدّوا الحقوق بالعدل **(ولا تخسروا الميزان)** فيما بينكم، فإنّ في ذلك فساد الأمّة وفساد المجتمع وفساد الحياة، فلكلّ شيء ميزان إذا زيد عليه أو نقص منه يفسد ويضيع، فيجب على الإنسان أن يراعي ذلك الميزان في كلّ شيء وإلّا فلا ينتفع به ولا يستفيد منه شيئاً.

﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾

(و) ومن نعم الله تعالى على عباده ومن دلائل قدرته **(الأرض وضعها للأنام)** للإنسان ليعيش عليها، والأرض هي نعمة كبيرة وفي طيّها نعم أخرى ذكرها بقوله: **(فيها فاكهة)** المراد بها الجنس، فتعمّ كلّ ما يسمّى فاكهة **(والنّخل ذات الأكمام)** جمع كم بالكسر، وهو وعاء الطّلع خصّ النّخل بالذّكر مع اشتمال الفاكهة عليها لزيادة فائدتها على باقي الفواكه لأنّها تتّخذ فاكهة وقوتاً أيضاً **(و)** ومن نعم الله تعالى ودلائل قدرته أيضاً **(الحبّ)** جنس يراد به كلّ الحبوب **(ذو العصف)** وهو التّبن ليكون علفاً للبهائم والأنعام **(والرّيحان)** أي واللّب ليكون قوتاً للإنسان **(فبأيّ آلاء)** جمع إلْي بكسر الهمزة مثل معي أو بفتحها مثل حصى بمعنى النّعمة، والخطاب للثّقلين وهما الجنّ والإنس، والاستفهام للتّقرير لأنّه لا يكذب أحد بوجود هذه النّعم لأنّ وجودها بديهي، وأمّا كونها من الله تعالى فيعرف بالدّليل بالنّظر والفكر الصّحيح، وقد أعيدت هذه الآية في هذه السّورة إحدى وثلاثين مرّة، وفي كلّ موضع تذكير بالنّعم الّتي ذكرت بعدها فلا يكون تكراراً.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾

(خلق الإنسان) ومن نعمه ودلائل قدرته أنّه خلق الإنسان **(من صلصال)** من طين يابس له صلصلة وصوت **(كالفخّار)** كالكوز.

تنبيه: يقول الله تعالى في بعض الآيات خلق الإنسان من صلصال كالفخّار كما في الآية المذكورة، وقال: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ سورة الحجر الآية/ ٣٣، وقال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ سورة الصّافات الآية/ ١١، وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ سورة آل عمران الآية/ ٥٩، والمراد بأمثال هذه الآيات هو آدم، ولا منافاة، والمآل واحد فإنّه كان تراباً ثمّ أصبح طيناً ثمّ أصبح حمأً مسنوناً ثمّ صلصالاً، وفي كلّ مقام ذكر طوراً يلائم ذلك المقام، وفي بعض الآيات يقول من تراب وفي بعض من نطفة وفي بعض من علقة، والمراد به أولاد آدم ولا منافاة لأنّ المآل واحد، لأنّ أصل الإنسان تراب فيكون نباتاً، ثمّ غذاء ثمّ يصير نطفة ثمّ يقذف النّطفة في الرّحم فيصير علقة ثمّ يصير مضغة غير مخلّقة ثمّ مضغة مخلّقة ثمّ ينفخ فيه الرّوح ثمّ

يخرج من بطن أمّه فيأتي إلى الدّنيا إلّا أنّه ذكر في كلّ مقام طوراً يلائم ذلك المقام **(وخلق الجانّ)** أبو الجنّ **(من مارج)** من خالص **(من نّار)** وهو لهيب النّار.

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾

اعلم أنّ الشّمس والقمر يتحرّكان في مسافة محدودة من مدار السّرطان شمالاً إلى مدار الجدي جنوباً، وبينهما مائة وثمانون مداراً، ويرجعان من الجدل جنوباً إلى السّرطان شمالاً، وبهاتين الحركتين للشّمس والقمر لهاتين الجولتين ثلاثمائة وستّون مداراً، ولكلّ مدار مغرب ومشرق، فحينما يقول تعالى: ﴿ربّ المشارق وربّ المغارب﴾ فالمراد مشارق المدارات ومغاربها، وحينما يقول: **(ربّ المشرقين وربّ المغربين)** فالمراد بهما مشرق مدار السّرطان ومغربه ومشرق مدار الجدي ومغربه، باعتبار أنّهما منتهى حركة الشّمس وجولتها جنوباً وشمالاً. أو يقول: إنّ مشرقنا مغرب للجانب المقابل من الأرض ومغربنا مشرق لهم، وبذلك يحدث مشرقان أحدهما لنا والآخر لهم، ومغربان كذلك، وهذا معنى: ربّ المشرقين ... إلخ. **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من حركة الشّمس والقمر وغيرهما من النّجوم والكواكب، وما أنيط بهذه الحركات بين هذين الحدّين من تشكيل الفصول الأربعة وتأثيرات في الأرض وفي نباتها وأشجارها وحيوانها ومعادنها ممّا يعلمه علماء الطّبيعة وممّا لا يحيط به إلّا علم الله تعالى، فكلّ ذلك من نعم الله الّتي أنعم بها على عباده، ومن دلائل قدرته وعجيب صنعه فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾

(مرج البحرين) البحر هو كلّ متّسع عميق مملوء ماء، فيشمل البحر والأنهار والشّط والعيون، وإنّ ماء العيون والأنهار والشّط عذب وحلو وماء البحر مالح، وإنّ العيون تشكّل الأنهار وبالتقاء الأنهار يتشكّل الشّط أي النّهر الكبير جدّاً كالنّيل والفرات وشطّ العرب، فحينما يتّصل النّيل أو الشّط بالبحر يكونان سطحاً واحداً مستوياً في ملتقاهما، ويكون بينهما **(برزخ)** حاجز يمنع الشّط من أن يؤثّر في البحر ويجعله حلواً. ويمنع البحر أيضاً من أن يطغى على الشّط فيحوّله مالحاً، والحاجز ليس إلّا خطاً وهميّاً بينهما وهذا معنى قوله: **(مرج)** خلّط الله تعالى **(البحرين)** ماء الأرض الّذي تجري ويجتمع ويصير شطّاً وماء البحر الّذي يدخل ويتّصل به ماء الشّط حينما **(يلتقيان)** ويكون بينهما **(برزخ)** حاجز خلقه الله تعالى وهو خطّ وهميّ وبسبب ذلك الحاجز **(لا**

بغيان) لا يطغى الشّط على البحر فيجعله حلواً، ولا يطغى البحر على الشّط أيضاً فيجعله مالحاً أو مرّاً **(فبأيّ آلاء)** بأيّ نعم **(ربّكما)** من هذه النّعم الّتي تحصل من البحر المالح ومن الماء العذب، والّتي لا تحصى ولا يدركها كلّها إلّا الله تعالى **(تكذّبان)** تنكران أيّها الثّقلان، أي لا تستطيعان الإنكار، فإنّ ذلك بديهي لا ينكر.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾

(يخرج منهما) من البحر المالح **(اللؤلؤ والمرجان)** إلّا أنّه قال منهما لأنّ للعذب أيضاً دخل في تكوين اللّؤلؤ، فالمعنى يخرج اللّؤلؤ والمرجان النّاشئان والمحدثان من إلتقائهما، ويقال: إنّ لماء المطر وهو عذب دخلاً في شأنهما، وقيل: إنّه إذا اتّصل شيئان وكان في أحدهما شيء يصحّ أن يقال: هو فيهما لأنّه بعد الإتصال صارا مجموعة واحدة. وإليك ما يلي لتعرف معجزة القرآن الكريم ومعنى هذه الآيات الكريمة:

نشرت مجلة التّربية الإسلاميّة الّتي تصدر في بغداد في عددها الثّامن الصّادر في شعبان سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م مقالاً بعنوان: (آراء وأخبار عن المسلمين في العالم) جاء فيه: أنّه صار جاك كوستو مسلماً موحّداً نتيجة علمه وإكتشافاته. فكوستو هو بحّار قديم منذ ١٩٢٨، ومرّ بتجارب علميّة هزّت نفسه وحرّكت وجدانه، فأخذ يبحث عن الحقيقة، فلاحظ في تجاربه البحرية أنّ الكائنات الحيّة من نبات وحيوان والّتي تعيش في البحر الأبيض المتوسط تختلف في دقائق تركيبها عن شبيهاتها في المحيط الأطلسي المجاور له، ولامتحان هذه الحقيقة أبحر كوستو تصحبه بعثته العلميّة إلى مضيق جبل طارق حيث البرزخ وهو الحدّ الفاصل بين البحرين، فأصبح ينادي أنّ الحقائق الأوليّة الّتي وصلنا إليها تشير إلى أمور أثارت دهشتي، حيث تحقّقنا أنّه يوجد جريان سيل مائي يفصل بين مياه البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، فلا يدع أحدهما يطغى على الآخر أو يختلط به، ويقول كوستو: لقد سبقتنا بعثة مائيّة في علوم البحار إلى ملاحظة مماثلة تنصبّ على الحدّ الفاصل بين البحر الأحمر والمحيط الهندي، وذلك في موضع مضيق باب المندب، حيث يقوم تيّار مائي آخر يمنع اختلاط مياه أحد البحرين بالآخر، ويترك لكلّ منهما كيانه الخاصّ به وبما يحتوي عليه من نبات وحيوان، ووصل كوستو إلى أنّه تيقّن أنّ مياه البحار والمحيطات لها تراكيب مختلفة لا يختلط بعضها ببعض أبداً، وذلك لوجود حاجز مائي يمنع ذلك، وذكر كوستو أنّه تحدّث بذلك لصديقه موريث بوكيل فقال بوكيل: إذا أردت معرفة هذه الحقيقة فعليك بالكتاب المقدّس عند المسلمين

(القرآن) الّذي يقصّ علينا هذا النّبأ قبل ألف وأربعمائة عام، فقال كوستو: فأسرعت إلى القرآن المترجم بالإنكليزيّة والفرنسيّة فوجدت ضالّتي فيه وفي الآيات: (مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان*) وتفسيرها يقول: إنّ الله تعالى أرسل البحر المالح والبحر العذب يتجاوران ولا يمتزجان، فكلّ منهما محتفظ بخصائصه ومكوّناته الكيمياويّة ولا يطغى أحدهما على الآخر، حيث أنّ بينهما برزخاً وهو الحدّ الحاجز الفاصل من مياه المضيق يمنع أن يطغى أحدهما على الآخر أو يختلط به، ثمّ وجدت آية أخرى يقول فيها الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)﴾ سورة الفرقان الآية/ ٥٣. وفي النّتيجة قال كوستو: الآن أشهد واعتقد يقيناً أنّ القرآن هو وحي من الله تعالى، وأنّ محمّداً نبيّ الله ورسوله، وأنّ العلم المعاصر يحبو في أثر ما جاء به في أناة وقبل أربعة عشر قرناً، وأسلم كوستو وأنشأ حياة جديدة في الإسلام والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ (٢٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥)﴾

(**وله**) ولله تعالى خلقاً وإيجاداً (**الجوار**) السّفن الجواري (**المنشآت**) المحدثات والّتي تجري (**في البحر**) وهي (**كالأعلام**) جمع علم وهو الجبل، فإنّ السّفن كبيرات ومرتفعات كالجبل (**فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان**) من النّعم الّتي تحصلون عليها بسبب السّفن من السّيحة والتّجارة وتداول الأموال بين البلاد. وقد ذكرنا دليل كون السّفن لله تعالى وإن كانت من صنع العبد في سورة (يس).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨)﴾

(**كلّ من عليها**) على الأرض (**فان**) سيفنى ويزول ويموت (**ويبقى وجه**) ذات (**ربّك ذو الجلال والإكرام**) وهو الله تعالى، وفي هذه الآية إشارات:

الأولى: إنّ كلّ أحد غير الله تعالى يفنى وأنت تفنى أيضاً أيّها المخاطب، فلا تغتر بالمال؛ فإنّك تفنى وتتركه. ولا تتوكّل على غير الله تعالى فإنّه يموت ويبقى الله، ولا تطع أحداً يخالف أمر الله فإنّه يزول والله هو الباقي.

الثّانية: إنّ الإنسان يفنى ويموت وبقاؤه في الدّنيا أمر مؤقت، وما بعد الموت مؤبّد، فليصرف المرء همّته ووسعه للتّزوّد لما بعد الموت، ولا تفوت هذه الفرصة، كما قال (ﷺ): (إغتنم خمساً قبل خمس، حياتك قبل موتك، وشبابك قبل شيبك، وصحّتك قبل مرضك، وغناك قبل فقرك)[1]. أو كما قال، وقال العقلاء: (الدّنيا ساعة فاجعلها طاعة) أي أنّ الماضي ذهب والمستقبل لم يأت، فلم يبق للحياة إلّا ساعة فاجعلها طاعة.

الثّالثة: قال (وجه ربّك) ولم يقل وجه الله كما في آية ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قصص ٨٨. لأنّ المقام مقام التّذكير بالنّعم ومناسبة النّعم للرّب أظهر، لأنّ الإنعامات من التّربية.

الرّابعة: أشار تعالى بقوله: ﴿ذو الجلال) إلى جميع صفات الجلال والقهر وبقوله: (والإكرام) إلى جميع صفات الجمال والرّحمة، وجميع صفاته من هذين القسمين، ولذلك يذكر بالنّعم الّتي صدرت من صفات الرّحمة فقال: (فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان) فأيّ نعمة لم ينعم بها عليكم؟ ألم يخلقكم؟ ألم يرزقكم؟ ألم؟ ألم؟ ألم؟....ألم؟ إلى آخر الإنعامات الّتي تصدر عن صفات جماله، وكذا الإنعامات الّتي تصدر من صفات جلاله، كإهلاك عدوّ أو إزالة ظالم، وغير ذلك من مصالح أنيطت بصفات القهر والّتي تظهر عند التأمّل والتّدقيق.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

(يسأله من في السّموات) من الملائكة **(والأرض)** من الجنّ والإنس وقت بقائهم في الدّنيا. فيطلب كلّ طائفة ما يليق بها وتريدها. وهذا بالنّسبة للمؤمن ظاهر، وأمّا بالنّسبة للكافر، فإنّه يتبع الأسباب ويرجو وراءها حصول المسبّبات الّتي يريدها، والأسباب كلّها من خلق الله تعالى، وبذلك فقد سأل من الله تعالى وإن لم يشعر بذلك. فالمعنى: كلّ يسأله في الحقيقة وإن كان البعض لا يشعرون بذلك ولا يؤمنون، وأمّا بعد فنائهم وفي يوم القيامة فيسأله الكلّ العفو والمغفرة لنفسه أو لغيره **(كلّ يوم**

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٣٤١ الحديث رقم ٧٨٤٦. ونصه:عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله (ﷺ) لرجل وهو يعظه اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناءك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك.

هو في شأن) معناه أنّ الدّهر كلّه يومان، يوم الدّنيا ويوم الآخرة، فشأنه في يوم الدّنيا التّكليف والاختبار والإبتلاء والإحياء والإماتة، وغير ذلك ممّا يجري في الدّنيا، وفي يوم الآخرة فشأنه الحساب والثّواب والعقاب وما يجري هناك. وفي معنى هذه الآية أقوال كثيرة غير هذا، ولكنّ هذا أحسن في نظري. ومن هذه المعاني ما حكي: أنّ أحد الأمراء سأل وزيره عن معنى هذه الآية؟ فلم يعرف معناه، واستمهله إلى غد فانصرف كئيباً، فقال له غلام له أسود: ما شأنك؟ فأخبره، فقال: إذهب بي إلى الأمير فإنّي أفسرها، فذهب به إليه، فقال: أيّها الأمير شأنه أن يولج اللّيل في النّهار ويولج النّهار في اللّيل، ويخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ، ويشفي سقيماً ويسقم سليماً ويبتلي معافياً ويعافي مبتلياً، ويعزّ ذليلاً ويذلّ عزيزاً ويغني فقيراً ويفقر غنيّاً. فقال له الأمير: فرّجت عنّي فرّج الله تعالى عنك، ثمّ أمر بخلع ثياب الوزير وكساها الغلام، فقال: يا مولاي هذا أيضاً شأن من شأن الله تعالى، ولكنّ المعنى الأوّل أحسن. **(فبأيّ آلاء ربّكما)** من آلائه في الدّنيا والآخرة **(تكذّبان)** وتنكرانها، هذا وإنّ نعم الآخرة وإن لم تأت إلّا أنّها مثبتة عقلاً وشرعاً، فأصبحت كأنّها واقعة، فإنّ ما تحقّق وقوعه يعبّر عنه الواقع كثيراً.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى نعمه وأنّ هناك من يشكر نعمه فيؤمن به ويعبده، ومن لا يشكر فيكفر ويفسق، وعد المؤمنين بالثّواب والكافرين بالعذاب؛ فقال جلّ وعلا:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾

(سنفرغ لكم) لحسابكم وثوابكم وعقابكم حسب أعمالكم **(أيها الثّقلان)** وهما الجنّ والإنس، لأنّهما ثقيلان على هذه الأرض بقرينة قوله تعالى: ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ سورة الزلزلة الآية/ ٢. أي أمواتها المدفونة فيها من الجنّ والإنس، وقيل غير ذلك في وجه التّسمية، وهذا تمثيل، فمعناه تهتمّ بحسابكم كإهتمام من يفرغ عن كلّ عمل لإجراء عمل يهتمّ به كثيراً، أو معناه سنفرغ لكم الملائكة عن كلّ عمل لحسابكم، ويؤيّد هذا المعنى أنّه قرئ (سيفرغ لكم) بضمّ الياء وفتح الرّاء على صيغة المجهول. وحينما ينتهي الحساب يقال للمؤمنين: **(فبأيّ آلاء ربّكما)** ممّا وهب لكم من الثّواب **(تكذّبان)** يا مؤمن الجنّ والإنس، ويقال نفس الكلام لكفّار الفريقين تهكّماً، أي فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان وقد انكشف لكم الأمر وتبيّن كلّ شيء.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّه يهتمّ بحساب الجنّ والإنس يوم القيامة إهتماماً كثيراً أعلمهم بأنّهم لا يستطيعون الخروج من قبضة الله تعالى، ولا التفلّت من عذابه، فقال جلّ وعلا:

﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾

(يا معشر الجنّ والإنس إن استطعتم أن تنفذوا) تخرجوا **(من)** ملكي وما تحت تصرّفي وهو **(أقطار السّموات)** جميع أقطار السّماوات **(والأرض)** هرباً من عذابي **(فانفذوا)** فاخرجوا وانقذوا أنفسكم من عذابي ولكن لا تستطيعون ذلك حيث **(لا تنفذون)** لا تستطيعون الخروج من ملكي **(إلّا بسلطان)** يغلبني، ولا سلطان يغلبني وينقذكم من عذابي **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من إمهالي وعدم استعجالي بعذابكم وتنبيهي وتخويفي لكم.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

(يرسل عليكما) إن أردتم النّفوذ **(شواظ)** لهب **(من نار ونحاس فلا تنتصران)** فلا ينتصر بعضكم بعضاً حيث لا يستطيع ذلك هذا. فإن كان المراد في الدّنيا، فمعناه من نفذ في أقطار السّموات والأرض يصل إلى مكان يجد هناك ناراً يرمى بها إليه ونحاس، فلا يستطيع أحد غير الله أن ينصره، وإن كان في الآخرة فمعناه يرسل إليكم يوم القيامة نار ونحاس فلا تنتصران من هذا العذاب أبداً **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم وهي نعمة الإنذار والتّخويف وبيان وخامة العاقبة والتّنبيه على الضّلال وقبول التّوبة إن تبتم.

ثمّ بعد أن أنذر الله بيوم الحساب أراد أن يذكر بعض ما يجري في ذلك اليوم، فقال جلّ وعلا:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾﴾

(فإذا انشقّت السّماء) فإذا تفطّرت السّماء وانشقت **(فكانت وردةً)** كالوردة في الحمرة وأصبحت في الذّوبان **(كالدّهان)** كالزّيت المذاب **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** ممّا ينعم به في ذلك اليوم على المؤمنين الصّالحين أو بإمهالكم وعدم إنشقاق السّماء عليكم اليوم **(فيومئذ)** فيوم أن صارت السّماء كما ذكر وجاء يوم الحساب لا يسأل عن ذنبه أحد غيره من الإنس والجان وإنّما يسأل هو عن ذنبه ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ سورة الإسراء الآية/ ١٥ .**(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** ومن نعمته أنّك لا تؤخذ بذنب أحد ولا تضرّك معصية غيرك وإن كان من أقرب النّاس إليك قرابةً أو حبّاً وصلة.. ويقال معناه لا يسئل أحد عن ذنبه بل يعرف ذنبه دون السّؤال عنه، ويؤيّده قوله تعالى:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾

(يعرف المجرمون بسيماهم) بمنظرهم من سواد الوجه **(فيؤخذ)** المجرمون **(بالنّواصي والأقدام)** بنواصيهم وأقدامهم كالخشب الممدود الّذي يؤخذ بطرفيه فيطرح على هذه الحالة في النّار، أو معناه يجرّ بعضهم بالنّاصية إلى النّار وبعضهم بالأقدام إلى جهنّم **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** وأيّ نعمة أحسن من العدل وأن يرى المؤمن عدوّه ينال عقابه، وحينما يصلون إلى النّار يقال لهم من قبل الملائكة.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾

(هذه) يقال لهم حين الطّرح **(هذه جهنّم الّتي يكذّب بها المجرمون)** وهم أنتم **(يطوفون)** يتجوّلون **(بينها)** بين جهنّم **(وبين حميم)** ماء حارّ **(آن)** بالغ في الحرارة نهايتها **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من عدل الحساب وأخذ كلّ عامل وفق عمله.

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أحوال المجرمين أراد أن يبيّن حال المطيعين لله تعالى، جمعاً بين الوعد والوعيد فقال جلّ وعلا:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾

(ولمن) أي وأعدّ الله تعالى لمن **(خاف مقام)** القيام بين يدي **(ربّه)** تعالى

للحساب فاجتنب معاصيه وأدّى ما وجب عليه **(جنّتان)** بستانان، بستان لأجل تركه المعاصي، وبستان لأدائه الواجبات كما كان للمجرم جهنّم لإرتكابه المعاصي، وحميم آن لتركه الواجبات.

﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾

وصف الجنّتين بقوله: **(ذواتا)** صاحبتا **(أفنان)** جمع فنن وهو الغصن الّذي يثمر ويورق فيعطي الظّل والثّمرة، أو معناه صاحبتا أنواع الطّعام والفواكه، كما ذكر تعالى ذلك بقوله الآتي: فيهما فاكهة...الخ، **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من نعم الجنّة الّتي أنعم بها على عباده المؤمنين.

﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾

(فيهما عينان تجريان) بالماء الصّافي إحداهما بالتّسنيم والأخرى بالسّلسبيل **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾

(فيهما) في كلّ جنّة منهما **(من كلّ فاكهة زوجان)** نوعان رطب ويابس، أو التّنوع بحسب اللّون كالعنب الأبيض والأسود، أو بالطّعم كالحلو والمرّ والله تعالى أعلم **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

(متكئين) حال من فاعل متعلّق **(ولمن خاف)** أي ثبت لمن خاف مقام ربّه جنّتان حال كونهم **(متكئين)** أي متمدّدين **(على فرش)** جمع فرش وهو ما يفرش **(بطائنها من استبرق)** وهو ما غلظ من الدّيباج **(وجنى الجنتين)** معناه ما يجنى في الجنّتين من الثّمار **(ودانٍ)** قريب تتناوله الأيدي دون مشقّة **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم الّتي ينالها الخائفون من حساب الله تعالى.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾

(فيهن) على تلك الفرش عبّر بفي كما في قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ سورة طه الآية/ ٧١، أي على جذوعها، لأنّ من كان على الفراش يكون فيها، وأنّ من على الجذع يكون بين أغصانها **(قاصرات الطّرف)** على الفرش نساء قصرن نظرهنّ على أزواجهنّ لا ينظرن إلى غيرهم **(لم يطمثهنّ)** والطّمث إزالة البكارة فتفيد أن نساء الجنّة أبكار، وإنّ كنّ ثيّبات، فإنّهن يرجعن أبكاراً **(إنس)** لم يقربهنّ إنسان **(قبلهم ولا جانّ)** ولا جنّي **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه الآلاء والنّعم.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾

أي أنّ تلك النّساء **(كأنّهن الياقوت والمرجان)** في صفائهنّ وبياضهنّ وحسنهنّ **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم، وكأنّ قائلاً يقول ومن أين رزقوا هذا النّعيم؟ ولماذا؟ فيقول جلّ وعلا:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

(هل جزاء الإحسان) والاستفهام للإنكار، وإنكار المثبت نفي، فالمعنى: ما جزاء الإحسان الّذي قام به العبد من طاعة الله واتّباع شريعته؟ **(إلّا الإحسان)** من الله تعالى بتكريمه والإسبال عليه من أنواع كرمه ونعمته **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم. هذا وإنّ هاتين الجنّتين اللّتين ذكرنا وما وراءهما من النّعم كانت للمقرّبين، وذكر ما أعدّ لأصحاب اليمين فقال جلّ وعلا:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾

(ومن دونهما) ومن غير هاتين الجنّتين جنّتان لأصحاب اليمين **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم **(مُدهامتان)** خضراوان لكثرة أشجارها الخضر **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾

(فيهما) في هاتين الجنّتين **(عينان نضّاختان)** فوّارتان **(فبأي آلاء ربّكما تكذّبان)** من تلك النّعم **(فيهما فاكهة)** جنس يشمل كلّ الفواكه، وخصّ بالذّكر نوعين بقوله: **(ونخل ورمان)** بفضلهما **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾

(فيهنّ) في الجنّتين وما فيهما من الخيام **(خيرات حسان)** وفسّرهنّ بقوله: **(حور)** نساء بيض كبيرة العيون دون إفراط **(مقصورات)** محبوسات **(في الخيام)** لا يخرجن فيراهنّ الغير **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من هذه النّعم **(لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جانّ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** تقدّم تفسيرهما **(متكئين على رفرف)** فرش رفيعة **(خضر)** جمع خضراء **(وعبقريّ)** نسبة إلى (عبقر) قرية كانت تصنع فيها الفرش الثّمينة والعجيبة، ثمّ جعل العبقري لكلّ شيء عجيب وعظيم، حتّى يقال للرّجل هو عبقري في كذا أي متقن فيه **(حسان)** جمع حسن **(فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان)** من النّعم الّتي ذكرت قبل.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

(تبارك) عظم **(اسم ربّك)** قدرته، فيقتدر بقدرته هذه على مثل ذلك من عذاب المجرمين وتكريم المؤمنين **(ذو الجلال)** متّصف بصفات الجلال والقهر، ومنها ينشأ عذاب من يشاء **(والإكرام)** وله صفات الجمال والرّحمة، ومنها ينشأ ويصدر تنعيم المؤمنين وتكريم المتّقين.

جعلنا الله تعالى منهم أجمعين إنّه أرحم الرّاحمين، ومتّعنا بنعمه وتكريمه وهو على ذلك قدير، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله على المولى محمّد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

سورة الواقعة

(مكيّة، إلّا الآيتين ٨١، ٨٢، فمدنيّتان، نزلت بعد سورة طه، وآياتها ستّ وتسعون، سمّيت بالواقعة لما فيها من أخبار الواقعة أي القيامة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣)﴾

روى ابن مسعود (رضي الله عنه) أنّ رسول الله (ﷺ) قال: من قرأ سورة الواقعة كلّ ليلة لم تصبه فاقة أبداً. ولمّا حضرت ابن مسعود الوفاة قيل له: ما تركت لبناتك؟ قال: تركت لهنّ سورة الواقعة.

(إذا وقعت) إذا قامت **(الواقعة)** القيامة سمّيت واقعة لشدّة هولها، فكأنّها لشدّة هولها لا تليق أيّة حادثة أن تسمّى بالواقعة غيرها، فإذا وقعت **(ليس لوقعتها)** لمجيئها **(كاذبة)** نفس تكذب بها، بل الكلّ يؤمن بها إيمان مشاهدة وعيان، كما قال تعالى: ﴿ونفخ في الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون• قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، هذا ما وعد الرّحمن وصدق المرسلون﴾ سورة (يس) الآيتان/ ٥١ ـ ٥٢. **(خافضة)** هي تخفض أهل الكفر والمعاصي إلى جهنّم **(رافعة)** وترفع أهل الإيمان والطّاعات إلى جنّة النّعيم.

ثمّ بيّن الله تعالى ما يقع في ذلك اليوم وما يؤول إليه أحوال النّاس فيه، فقال جلّ وعلا:

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧)﴾

(إذا رجّت) إذا حرّكت **(الأرض رجّاً)** تحريكاً شديداً **(وبسّت)** فتّتت **(الجبال بسّاً)** تفتيتاً كثيراً **(فكانت)** فأصبحت الجبال بذلك التّفتت **(هباءً)** غباراً **(منبثّاً)** منتشراً **(وكنتم)** وأصبحتم أيّها النّاس في ذلك اليوم **(أزواجاً)** أصنافاً **(ثلاثة)** لا رابع لهم.

ثمّ بيّن الله تعالى هذه الأصناف الثّلاثة فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

(فأصحاب الميمنة) فصنف منهم يسمّون أصحاب الميمنة لأنّهم يستلمون كتب أعمالهم باليمين **(ما أصحاب الميمنة)**؟ الاستفهام للتّعجب، أي ما أحسن أحوال أصحاب الميمنة وما أحسن مصيرهم **(وأصحاب المشئمة)** وصنف يسمّون أصحاب المشأمة لشؤم حالهم، وهم الّذين يأخذون كتاب أعمالهم بالشّمال **(ما أصحاب المشئمة)**؟ الاستفهام أيضاً للتّعجّب أي ما أشأم حال أصحاب المشأمة وما أقبح مصيرهم **(والسّابقون)** وصنف منهم يسمّون السّابقون لأنّهم كانوا في الدّنيا يسابقون إلى الخيرات **(السّابقون)** إلى الجنّات، فالسّابقون الأوّل مبتدأ، والثّاني خبره **(أولئك)** السّابقون **(المقرّبون)** من الله تعالى وأحبّائه وأوليائه. ويظهر من هذا التّقسيم ومن تعريف أصحاب الميمنة بأنّهم الّذين يستلمون كتبهم باليمين، وأنّ أصحاب المشأمة هم الّذين يأخذون الكتب بالشّمال ويظهر أنّ السّابقين لا يستلمون الكتب بل إنّهم يدخلون الجنّة بغير حساب.

ثمّ أراد الله تعالى أن يبيّن مصير كلّ صنف من هؤلاء الأصناف، وقدّم ما للسّابقين لشرفهم وزيادة فضلهم، فقال جلّ وعلا:

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

(في جنّات) هم في جنّات **(النّعيم)** خلقت للتّنعّم فقط ليس فيها همّ ولا غمّ ولا غصص ولا كدر من كدورات الدّنيا (ثلّة) أي أنّ السّابقين (ثلّة) جماعة كثيرة **(من الأوّلين)** من اتّباع الرّسل الأوّلين والّذين سبقوا إلى الإيمان بهم بدون تلعثم، وإلى الطّاعات بدون كسل وتردّد **(وقليل من الآخرين)** من الأتباع المتأخّرين والّذين جاؤوا من بعد الرّسل من أتباعهم، فهم لبعدهم عن معين النّبوّة يدخل في قلوبهم القسوة والجفوة، ويقلّ صفاؤهم فيقلّ فيهم السّابقون **(على سرر موصونة)** منسوجة بأحسن ما تنسج به السّرر **(متّكئين)** حال كونهم متّكئين عليها **(متقابلين)** جالسين وجهاً لوجه لا متكاتفين، لأنّ التّقابل أروح من التّكاتف في المجالس، حيث لا تحتاج إلى الإلتفاتات حين المخاطبة والتّكلّم مع الجلساء **(ويطوف عليهم)** للخدمة **(ولدان)** جمع ولد وهم الغلمان **(مخلّدون)** قيل: معناه لا يموتون، وهذا غير مفيد، لأنّ أهل الجنّة كلّهم لا يموتون، وقيل: معناه لا يهرمون، وهذا أيضاً لا يفيد شيئاً زائداً، فإنّ أهل الجنّة كلّهم لا يهرمون، فالأولى تفسيره بمؤدّبون حيث جاء المخلّد بمعنى المؤدّب، ومن هم هؤلاء الولدان قيل: هم صغار أولاد المؤمنين، وقيل: أولاد الكافرين، وكلا القولين غير مرضٍ؛ لأنّه لا يدخل الجنّة من بني آدم أحد إلّا للتّكريم، والتّكريم ينافي الاستخدام، فالأصحّ أنّهم ولدان خلقوا في الجنّة بأمر كن للخدمة، وليس فيهم شهوة الجنس يلتذّون بالخدمة كالملائكة، فإنّهم خلقوا للعبادة ويلتذّون بها **(بأكواب)** جمع كوب وهو قدح لا عروة له **(وأباريق)** جمع إبريق وهو ماله عروة وخرطوم **(وكأس)** إناء فيها الخمر **(من معين)** من عين خمر جارية والفرق بينها وبين خمر الدّنيا أنّهم **(لا يصدّعون)** لا يصابون بوجع الرأس **(عنها)** عن شربها **(ولا ينزفون)** من أنزف الشّارب إذا ذهب عقله، أي لا يذهب عقلهم بشربها فلا يسكرون **(وفاكهة)** ويطوف الولدان عليهم بفاكهة **(ممّا يتخيّرون)** من أي نوع من الفواكه يختارونه **(ولحم طير)** ويطوفون عليهم بلحم طير **(ممّا يشتهون)** من أي نوع من الطّيور يشتهونها **(وحور)** مبتدأ خبره محذوف تقديره وحور لهم، والحور جمع حوراء أي شديدة البياض **(عين)** جمع عيناء بمعنى واسعة العيون، والمراد حور حسناوات ذات حسن وجمال، هكذا قالوا في إعراب **(وحور)**، وإنّي أقول: وحور معطوف على ولدان فالتّقدير يطوف عليهم ولدان بالشّراب والفواكه واللّحوم وتطوف عليهم حور عين ليتمتّعوا بهن، وهذه الحور هي نساء الدّنيا اللّاتي يدخلن الجنّة مع أزواجهن من زوجتهم أو يزوّجن هناك من أهل الجنّة إن متن دون زواج، وسيأتي زيادة تفصيل في معنى الحور فيما بعد عند ذكرنا لأصحاب اليمين **(كأمثال اللّؤلؤ المكنون)**

أي المستور في الصّدف في صفائهنّ وبياضهنّ وحسنهنّ وسترهنّ **(جزاء)** أي جوّزوا هذه النّعم جزاء **(بما)** بسبب ما **(كانوا يعملون)** في الدّنيا من الأعمال الصّالحات والاجتناب عن المحارم والمنهيّات **(لا يسمعون فيها)** في الجنّات **(لغواً)** كلاماً فارغاً لا فائدة فيها **(ولا تأثيماً)** ولا كلاماً يوجب الإثم، وربّما يتوهّم هذا أنّهم لا يستمعون الكلام مطلقاً، ولا كلام في الجنّة، فدفعاً لهذا الوهم قال تعالى: **(إلّا سلاماً)** لكن يسمعون فيها قولاً **(سلاماً)** سالماً من الإثم.

تنبيه: قد ذكر ما للسّابقين من النّعم واللّذائذ والتّكريم وحسن المنزلة عند الله تعالى. ويليق بنا أن نعرف أخلاق السّابقين وأعمالهم الّتي كانوا يعملونها، وبها استحقّوا هذا التّكريم والتّقدير من الله تعالى ليتسنّى لمن وفّقه الله تعالى أن يقتدي بهم في أعمالهم هذه، فيكون من السّابقين فيفوز بهذا الفوز العظيم. فنقول: إنّ معنى السّابقين مجملاً الّذين يسبقون غيرهم للخيرات ويمتثلون أمر الله تعالى إذ يقول: (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة البقرة الآية/ ١٤٨. فهم الّذين يسبقون النّاس في عمل الخير وخير الأعمال، ثمّ ذكر تعالى بعض صفاتهم فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)﴾ سورة المؤمنون الآية /٥٧ - ٦١. وقد تبيّن من هذه الآية أنّ السّابقين هم الّذين يسارعون في الخيرات، ثمّ تبيّن أنّ المسارعين في الخيرات هم المتّقون حيث يقول: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها السّموات والأرض أعدّت للمتّقين﴾ سورة آل عمران/ **الآية ١٣٣**، فإنّ من سارع في الخيرات سارع إلى المغفرة، والمسارع إلى المغفرة مسارع إلى الجنّة الّتي أعدّت للمتّقين، فهو من المتّقين، والمسارع في الخيرات هم السّابقون لها بحكم آيات قد ذكر فيها وصف المتّقين بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥)﴾ سورة آل عمران الآيتان/ ١٣٤، ١٣٥.

فتبيّن من هذه الآيات أنّ السّابقين هم المتّصفون بهذه الصّفات:

١- لا يشركون بالله تعالى.

٢ ـ يخشون الله عزّ وجلّ.

٣ ـ يؤمنون بآيات ربّهم.

٤ ـ يؤدّون حقوق الله تعالى وحقوق النّاس خوفاً من لقاء الله تعالى وحسابه.

٥ ـ يتصدّقون وينفقون أموالهم في الخيرات وإسعاف المحتاجين في السّراء والضّراء.

٦ ـ يكظمون غيظهم ويعفون عن النّاس فلا ينتقمون منهم ولا يردّون السّيئة بالمثل بل بالعفو والمسامحة.

٧ ـ إذا ابتلوا بذنب ذكروا الله فوراً وتابوا إليه واستغفروه ولم يصرّوا على الذّنب وعدم التوبة.

فهؤلاء الموصوفون بهذه الصّفات هم السّابقون الّذين يدخلون الجنّة بغير حساب. وغيرهم صنفان أصحاب اليمين وهم الّذين خلطوا الأعمال الصّالحة بالسّيئات ويحاسبون على ذلك، ويؤتون الكتاب باليمين إشارة إلى أنّهم يؤمنون، وأصحاب الشّمال وهم الكافرون كما يأتي ذلك في سرد صفاتهم، وهؤلاء يؤتون كتابهم بشمالهم إشارة إلى أنّهم كفرة.

سؤال: لقد ذكرت أن أصحاب اليمين هم الذين خلطوا بين الأعمال الصالحة والفاسدة ويأتي أن أصحاب اليمين في الجنة فمعنى ذلك أن عصاة المؤمنين لا يعذبون وهذا مخالف للآيات والأحاديث التي تصرح بعذاب الفساق، فكيف التوفيق بينهما؟

الجواب: إنّ المراد بأصحاب اليمين هم في الجنّة عاجلاً أو آجلاً، حيث من كانت حسنته زائدة على السّيئات أو مساوية لها فيدخل الجنّة دون عذاب، ومن كانت سيّئاته تزيد على حسناته يدخل الجنّة بعد تطهّره من السّيئات بعذاب جهنّم إن لم يغفر له الله تعالى.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى مصير السّابقين وثوابهم أراد أن يذكر أصحاب اليمين ومآلهم فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

(**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين**) وأصحاب اليمين عظيم، أصحاب اليمين وما أحسن حالهم. ثمّ بيّن تعالى مآلهم الحسن فقال: (**في سدرٍ**) هم في سدر أي بين أشجار سدر وهو النّبق (**مخضودٍ**) مقطوع أشواكه (**وطلحٍ**) وفي شجر الطّلح وهو الموز (**منضودٍ**) تصل ثمره بعضه ببعض وركب بعضه بعضاً (**وظلٍّ ممدودٍ**) لا يقربه الحرّ (**وماءٍ مسكوبٍ**) ماء جارٍ دائماً (**وفاكهةٍ كثيرةٍ**) تشمل جميع الفواكه (**لا مقطوعةٍ**) لا تنتهي ولا تنقطع، فهي موجودة في كلّ وقت (**ولا ممنوعة**) قطعها وأكلها عليهم (**وفرش مرفوعة**) عالية في القدر والرّتبة أو في المكان أو فيهما. هذا وأنّه من العادة أنّه إذا ذكر الفرش تنبّه الإنسان لمن عليها من النّساء، فعلم أنّ على هذه الفرش نساءً فقال: (**إنّا أنشأناهن إنشاءً**) أعدنا خلقهنّ إعادة حسنة. ثمّ بيّن كيفيّة الإعادة فقال: (**فجعلناهنّ أبكاراً**) وإن كنّ في الدّنيا ثيّبات (**عرباً**) جمع عروب وهي المحبّة لزوجها (**أتراباً**) مساوية في السّن لأزواجها، وفعلنا كلّ ذلك (**لأصحاب اليمين ثلّة**) وهم جماعة كثيرة من (**الأوّلين**) من أتباع الرّسل (**وثلّة**) جماعة كثيرة أيضاً (**من الآخرين**) من أتباع الرّسل، وقيل: المراد هنا حور العين وهنّ نساء غير نساء الدّنيا يخلقهن الله تعالى لأهل الجنّة، وهذا المعنى ضعيف لوجهين:

الأوّل: إنّ نساء الدّنيا اللّاتي يدخلنّ الجنّة كثيرأت، فلا حاجة إلى خلق نساء أخريات تسمّي بحور العين.

الثّاني: إنّ أمّ سلمة سألت رسول الله (ﷺ) عن معنى هذه الآية: فقال: يا أمّ سلمة هنّ اللّواتي قبضن في دار الدّنيا عجائز شمطاً رمضاً جعلهنّ الله بعد الكبر أتراباً على ميلاد واحد في الاستواء، كلّما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكاراً. فلمّا سمعت عائشة رسول الله (ﷺ) يقول ذلك قالت: واوجعاه. فقال رسول الله (ﷺ): ليس هناك وجع. قال الجمل في حاشيته على الجلالين: فتلخّص من الآية ومن الحديث: أنّ نساء الدّنيا

يخلقهنّ الله تعالى في القيامة خلقاً جديداً من غير توسّط ولادة، خلقاً يناسب البقاء والدّوام. أقول وهنّ المسمّيات بحور العين لأنّ معنى الحور البيض ومعنى العين كبيرات العيون ويعيدهنّ الله تعالى كذلك.

تنبيه: ينبغي لنا أن نعرف صفات أصحاب اليمين وأعمالهم الّتي بها استحقّوا هذه النّعمة والتّكريم من الله تعالى، فلعلّنا أن نقتدي بهم في أعمالهم لنكون منهم إن شاء الله تعالى. فنقول: ورد تعريف أصحاب اليمين في سورة واحدة في القرآن الكريم وهي سورة البلد، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)﴾ سورة البلد الآيات/ ١٢-١٨. فظهر من هذه الآيات أنّ أصحاب اليمين هم المؤمنون الصّابرون والرّاحمون غيرهم، وأنّهم ينفقون على المحتاجين ويواسون الفقراء والمساكين، ويأمرون النّاس بالمعروف ويحثّونهم عليه. جعلنا الله تعالى منهم آمين.

* * *

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أحوال السّابقين وأحوال أصحاب اليمين ومصيرهم يوم القيامة، أراد أن يذكر أصحاب الشّمال وعاقبتهم وسوء مصيرهم؛ فقال جلّ وعلا:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤)﴾

(**وأصحاب الشّمال ما أصحاب الشّمال**) ما أعظم سوء حالهم، ثمّ بيّن الله تعالى حالهم ومصيرهم فقال تعالى: (**في سموم**) هم داخلون في سموم وهو الرّيح الحارّة الّتي تنفّذ في مسامات أجسامهم (**وحميم**) وماء شديد الحرارة يقطع أمعاءهم (**وظلّ من يحموم**) وهو دخان جهنّم شديد السّواد (**لا بارد**) ذلك الظلّ (**ولا كريم**) ولا خير فيه.

ثمّ ذكر الله تعالى سبب دخولهم في هذا العذاب فقال جلّ وعلا:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨)﴾.

(إنّهم) استحقّوا هذا العذاب ودخلوا فيه حيث أنّهم **(كانوا قبل ذلك)** في الدّنيا **(مترفين)** متنعمّين ولا يُتعبون أنفسهم في العبادات والطّاعات، بل كانوا يعرضون عنها **(وكانوا يصرّون)** يستمرّون **(على الحنث العظيم)** وهو الكفر بالله أو الشّرك به، لأنّ ذلك من أكبر الكبائر **(وكانوا)** لا يؤمنون بيوم القيامة بل يستهزئون به حيث **(يقولون)** استهزاءً **(أإذا كنّا تراباً وعظاماً)** أي صرنا عظاماً بالية وتراباً **(أإنّا لمبعوثون)** استفهموا إنكاراً واستبعاداً، لذلك **(أو آباؤنا الأوّلون)** الّذين لم يبق لهم كلّ أثر، فأجابهم الله تعالى وأمر رسوله أن يبلّغهم الجواب؛ فقال جلّ وعلا:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

(قل) يا أيّها النّبيّ في جوابهم **(إنّ الأوّلين)** من الآباء إلى آدم **(والآخرين)** ممّن يأتي إلى يوم القيامة من أبناء آدم كلّهم **(لمجموعون)** في الحشر ويومه **(إلى ميقات يوم معلوم)** محدّد للحساب **(ثمّ إنّكم أيّها الضّالون)** المنحرفون عن الطّريق الحقّ **(المكذّبون)** بيوم القيامة **(لآكلون من شجر من زقّوم)** من شجر الزقّوم وهو شجر مرّ للغاية **(فمالئون منها البطون)** بطونهم **(فشاربون عليه)** من العطش **(من الحميم)** من الماء الحارّ الّذي يقطع الأمعاء بحرارته **(فشاربون)** من ذلك الماء **(شرب الهيم)** مثل شرب الإبل الّتي أصابها داء العطش **(هذا)** إلى ما ذكر من الطّعام والشّراب **(نزلهم)** ضيافتهم **(يوم الدّين)** يوم الجزاء وهذا تهكّم واستهزاء بهم لأنّ الضّيافة تقال لما يعد للضّيف من اللّذائذ، فإذا استعملت في غير اللّذائذ فهو تهكّم واستهزاء.

تنبيه: ينبغي هنا أن نعرف صفات أهل الشّمال وأعمالهم لنجتنب عنها فنقول: قد ذكر الله تعالى من صفاتهم هنا أنّهم متنعّمون وأغفلتهم النّعمة عن عبادة الله تعالى **(وأنّهم يصرّون على الحنث العظيم)** وهو الشّرك بالله تعالى وأنّهم لا يؤمنون بيوم القيامة والحساب بعد الموت. وقد ذكر الله تعالى في سورة البلد أنّهم يكفرون بآيات الله فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ سورة البلد الآية/ ١٩، وفي سورة الحاقّة قال في حقّهم: (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ سورة الحاقة الآيتان/ ٣٣، ٣٤. فدلّت هذه الآيات والأوصاف الّتي ذكرها الله

تعالى على أنّ أصحاب الشّمال هم الكافرون، وأنّ المؤمنين كلّهم إمّا سابقون أو أصحاب اليمين، وقد مرّ أنّ السّابقين لا يستلمون الكتاب بل هم يدخلون الجنّة بغير حساب، وأمّا أصحاب اليمين فيستلمون كتابهم بيمينهم ثمّ يحاسبون، فمن كانت حسناته زائدة على سيّئاته أو مساوية لها فهم يدخلون الجنّة بدون عذاب، وإن زادت سيّئاتهم على الحسنات فيعذّبون بقدر سيّئاتهم إن لم يغفر الله لهم، ثمّ يدخلون الجنّة، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ....إلخ﴾ إنّ أصحاب اليمين هم أهل الجنّة إن عاجلاً دون عذاب أو آجلاً، وبعد التّطهّر من العذاب، فالإيمان أساس السّعادة ورأس كلّ خير وأفضل الأعمال، فليحرص المؤمن على إيمانه بالإجتناب عن المعاصي، وإنّ المعاصي لا سمح الله تعالى تزيل الإيمان وتؤدّي إلى الكفر، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سورة المطّففين الآية/ ١٤، وقيل إنّ المعاصي تزيد الكفر أعاذنا الله تعالى من كلّ ما يكره آمين. عن أبي هريرة (ﷺ) عن النّبيّ (ﷺ) قال: إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتّى تعلو قلبه، وهو الرّان الّذي قال الله: (بل ران على قلوبهم) أخرجه التّرمذي وقال حديث حسن صحيح[١].

ثمّ بعد أن ذكر الله تعالى أنّ أصحاب الشّمال يشركون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر، أراد أن يوقظ ضمائرهم بذكر دلائل تدلّ على إمكان الحياة بعد الموت، وقد جاء بالدّلائل من نفس الإنسان وذاته، وممّا يحيط ويعيش معه دائماً، وفي كلّ الأوقات وقدّم ما هو من ذاته لأنّه أقرب إليه، فقال جلّ وعلا:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾

(نحن خلقناكم) من العدم إذ كنتم تراباً، فالتّراب أصبح نباتاً والنّبات غذاءً والغذاء نطفةً والنّطفة علقةً والعلقة مضغةً والمضغة إنساناً **(فلو لا تصدّقون)** أي فبعدما علمتم من كيفيّة خلقنا لكم هذا **(لولا)** لماذا لا تصدّقون الإحياء بعد الموت؛ فإنّ من خلقكم

(١) سنن الترمذي ٥/ ٤٣٤ الحديث رقم ٣٣٣٤.

بهذه الكيفيّة لقادر على أن يعيدكم بكيفيّة أخرى **(أفرأيتم ما تمنون)** ما تقدّمونه في رحم نسائكم من النّطفة **(أأنتم تخلقونه)** فتجعلونه إنساناً في الرّحم ثمّ يخرج؟ والاستفهام للإنكار، أي لستم بخالقين له وهذا أمر بديهي **(أم نحن الخالقون)**؟ وهذا الاستفهام للتّقرير، بمعنى: بل نحن الخالقون له، فحينما قدرنا على ذلك فنقدّر على خلقكم وإعادتكم بعد الموت أيضاً **(نحن قدّرنا بينكم الموت)** نحن خلقنا الموت بينكم كما خلقنا لكم الحياة، فمن قدر على خلق الموت بعد الحياة لقادر على خلق الحياة بعد الموت أيضاً، لأنّ كليهما من الممكنات، فمن قدر على ممكن يقدر على ضدّ الممكن أيضاً **(وما نحن بمسبوقين)** بمغلوبين وعاجزين **(على أن نبدّل أمثالكم)** بعد الموت فنحييكم على صور تستعدّ للبقاء الأبدي **(وننشأكم)** ونوجدكم مرّةً أخرى **(فيما)** في حالة لا تعلمونها من كيفيتها إلّا بقدر ما نخبركم به **(ولقد علمتم النشأة الأولى)** الإيجاد الأوّل **(فلولا)** فلماذا؟ **(لا تذكّرون)** تلك النشأة من تراب إلى وإلى وإلى أن يصير إنساناً يخرج من بطن أمّه، وإنّ من أوجد الإنسان بهذه الكيفيّة لقدير أن يعيده بعد الموت بكيفيّة أخرى.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ بما يحيط بالإنسان ويعيش الإنسان معه دائماً وهي النّباتات والأشجار الّتي بني عليها مدار حياة الإنسان ومعيشته فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(أفرأيتم ما تحرثون) تطرحون بذره ونواته في الأرض، وبعد ذلك تعرضون عنه **(أأنتم تزرعونه)** تنبتونه **(أم نحن الزّارعون)** المنبتون له؟ والاستفهام في الأوّل للإنكار وفي الثّاني للتّقرير كما سبق، فالمعنى: نحن ننبته لا أنتم، فكما نحن نقدّر أن ننبت هذه النّباتات من البذرة البالية المتفتّتة تحت الأرض، ومن هذه النّواة البالية جوف التّراب فتخرج حيّة إلى الأرض، وتبقى إلى أن تجفّ ويتبيّن ثمّ تعود فتموت ثمّ تنبت مرّة أخرى من هذه البذرة والنّواة وهلمّ جرّاً، فكذلك نقدر على أن نحييكم من بذرتكم وعظامكم البالية تحت الأرض مرّة أخرى وما ذلك على الله بعزيز **(لو نشاء لجعلناه)** أي لجعلنا ما تحرثون **(حطاماً)** حشيشاً لا حبّ فيه **(فظلتم)** فأصبحتم **(تفكّهون)** تتعجّبون وتتحسّرون وتقولون: **(إنّا لمغرمون)** لخاسرون بعض الشّيء **(بل نحن**

محرومون) حرمنا من كلّ ما حرثنا، فلم نستفد منه شيئاً. وذكر هذا لإثبات أنّ الإنبات ليس في قدرة العبد، إذ لو كان في يده لما خرج النّبات والمزروعات دون حبّ والأشجار دون ثمر في بعض السّنين، ولمّا حرم الإنسان من ريعهن، وفيه أيضاً إمتنان بنعمة من الله تعالى حيث يحافظ على حبّ النّبات من الفساد وعلى ثمر الأشجار إلّا قليلاً، وذلك للعبرة وللعلم بأنّ ذلك من إرادة الخالق لا المخلوق.

ثمّ أراد الله تعالى الاستدلال بالمياه والأمطار فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

(أفرأيتم الماء الّذي تشربون) أنتم وأنعامكم ودوابّكم ومزروعاتكم، قيّد الماء بالّذي تشربون لأنّ النّعمة فيه أظهر من غيره، وأنّه هو الّذي ينزل من المزن **(أأنتم)** يا أبناء آدم **(أنزلتموه من المزن)** من السّحاب **(أم نحن المنزلون)**؟ نحن المنزلون من السّماء لا أنتم، فإنّ الله تعالى خلق البحر فتضرب الشّمس بأشعّتها على البحر، فيتكوّن منه بخار يصعد إلى السّماء فيصير سحاباً ثمّ يبرد البخار فيعود ماءً وينزل مطراً، ومن المطر تتكوّن العيون والأنهار وجميع القنوات والآبار **(لو نشاء لجعلناه أجاجاً)** مرّاً ومالحاً كأصله وهو ماء البحر، لكنّ الله تعالى كما خلق هذا التّحوّل تحوّل ماء البحر إلى البخار ثمّ إلى السّحاب ثمّ تقطره ماءً ونزوله مطراً، جعله أيضاً سبباً لجعل الماء المالح والمرّ ماء عذباً وفراتاً **(فلولا تشكرون)** الله تعالى على هذه النّعمة نعمة المطر، وجعل الماء حلواً والشّكر هو أن تتفكّر في أنّ الماء يصير بخاراً سحاباً، والسّحاب مطراً، وهكذا على الإستمرار، وهذا كلّه إعادة بعد الفناء وتحوّل بعد تحوّل، وبسبب هذا التّفكّر تؤمن بأنّ إعادة الإنسان بعد الموت ليس إلّا شيئاً من هذا القبيل، فحينما يرى هذا ولا ينكره فلماذا ينكر ذلك، إن هذا إلّا تفرقة دون فارق.

ثمّ أراد الله تعالى الاستدلال بالنّار فقال جلّ وعلا:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾

(أفرأيتم النّار الّتي تورون) توقدونها **(أأنتم أنشأتم)** خلقتم **(شجرتها أم نحن المنشئون)** الخالقون لها، أراد هنا أنّه هو الّذي أنشأها لا أنتم. والمراد بشجرة النّار

(المرخ والعفار) شجرتان تأخذ من كلّ واحدة منهما عوداً فتضرب بإحداهما على الأخرى فتوري وتتّقد النّار، ومنها يأخذ النّاس النّار. فمن قدر أن يخلق مثل هذا لا يصعب عليه الإحياء بعد الممات.

ثمّ بيّن الله تعالى حكمة خلق النّار فقال جلّ وعلا:

﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾

(نحن جعلناها تذكرة) موعظة يتّعظ بها الإنسان فيتذكّر نار الآخرة فيخاف منها فلا يرتكب ما يسبّب دخوله فيها **(ومتاعاً للمقوين)** للمتمتّعين بها بالطّبخ والدّفء وغير ذلك ممّا يحتاج إليه الإنسان ولا يحصل إلّا بالنّار، ككثير من الصّنائع لا يمكن صنعها إلّا والنّار لابد منها لها.

خاتمة: ذكر الله تعالى هنا أربعة أنظمة، نظام خلق الإنسان، ونظام خلق النّباتات والأشجار، ونظام خلق المياه والأمطار، ونظام خلق النّار، وإنّ كلّ نظام من هذه الأنظمة يدلّ على وجود الله تعالى ووحدته وعلى إمكان الحياة بعد الموت وعلى وقوعها ومجيء يوم القيامة. فإنّ كلّ نظام من هذه الأنظمة إذا تفكّر الإنسان فيه ودقّق في وجوده وتنسيقه علم أنّ هذا النّظام لا يمكن أن يوجد نفسه بنفسه وهذا بديهي. وعلم أنّ هذا النّظام الدّقيق والخلق العجيب ليس من صنع الطّبيعة، فإنّ هذا النّظام لا يستطيع أن يصنعه إلّا من له علم وقدرة وحياة وإرادة، فإنّ كلّ صنعة لا يصنعها إلّا قادر عالم ومريد، وبهذا يعترف أنّ لهذا النّظام مبدعاً حيّاً عالماً قادراً مريداً، وليس ذلك هو الإنسان بداهة، فلا ملجأ إلّا أن يقول هو الله تعالى، وحينما علم أنّ هذا النّظام خلقه الله تعالى علم أنّ من خلق هذا الخلق العظيم لقادر على الإحياء بعد الموت، فإنّ كلّ نظام فيه الإحالة والتّبديل والإبداء ثمّ الإعادة، وفي كلّ نظام من هذه الأنظمة ما ليس الإحياء بعد الموت أصعب وأعجب منه، فيعترف بأنّ الحياة بعد الموت ممكن. ثمّ حينما تفكّر أنّ الله تعالى خلق الإنسان وخلق هذا النّظام لأجله، وأسكن الإنسان ليعمّر الأرض، فلا يعقل وهو أحكم الحاكمين أن لا يضع نظاماً تكليفيّاً يكلّف النّاس بالحياة على وفقه وحلّ المشاكل والأمور على ضوئه، فيؤمن بنظام الله تعالى وهو شريعته، وأنّ الشّريعة تحكم باستحقاق المطيع للثّواب واستحقاق العاصي للعقاب، وحيث لا يوجد الثّواب والعقاب في الدّنيا كليّاً حيث يموت كثير من الصّلحاء دون ثواب وكثير من

الفاسقين دون عقاب، فلو لم يأت يوم يبعث فيه النّاس وينال الصّالح ثوابه والطّالح عقابه لما تحققت عدالة الله تعالى وهو محال، فبذلك يعترف بأنّ مجيء ذلك اليوم ونحيئة بعد الموت يقتضيه العقل كما اعترف به النّقل، وكذلك يعلم أنّ من له القدرة على خلق هذا النّظام واحد لا شريك له لأنّ الشّريك إنّما يكون للعاجز، وقد دلّت أنظمته على قدرته الّتي بلغت النّهاية فلا يحتاج إلى شريك ولا شريك له، ولذلك قال الشاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنّه الواحد

* * *

ولذلك أيضاً قال جلّ وعلا:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

(ف) أي فبعد ما رأيت هذه الأنظمة وكلّ نظام منها يدلّ على قدرة الله القاهرة، والّتي تقدر الإحياء بعد الموت **(سبّح)** نزّه واعترف نزاهة **(باسم)** قدرة **(ربّك العظيم)** عن أن يعجز من إحياء الموتى والحشر والحساب، وآمن بأنّ ذلك عليه ليسير جداً.

ثمّ أراد الله تعالى أن يستدلّ على حقيّة يوم القيامة بطريقة أخرى، فقال جلّ وعلا:

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾

(فلا أقسم بمواقع النّجوم) بجمل القرآن الّتي نزلت منسجمة حسب الوقائع والحوادث. وهذا قسم في الظّاهر إلّا أنّه في الحقيقة والمعنى استدلال بمواقع نجوم القرآن على أنّ ما أتى به رسول الله (ﷺ) هو من الله تعالى **(إنّه لقرآن كريم)** ومعنى كريم ذو قدر وشرف ومنزلة **(في كتاب مكنون)** في كتاب مستور ومحفوظ من الجنّ والشّياطين فلا يصلون إليه وهو اللّوح المحفوظ، وصورة الاستدلال هي: أنّ ما

أتى به محمّد (ﷺ) والّذي يخبر عن مجيء يوم القيامة يدلّ وروده حسب الوقائع والحوادث مبيّناً الأحكام الصّحيحة الموافقة للعقول السّليمة والعادلة الّتي لا يدانيها أحكام أهل الأرض، وذاكراً أخبار الأمم حسب ما ورد في الكتب السّماوية غير المحرّفة، وآمراً بأخلاق حسنة ليس فوقها أحسن منها، والنّاهي عن رذائل ينكرها كلّ عقل صحيح، وباحثاً عن أمور كونيّة سماويّة وأرضيّة وجباليّة ونباتيّة وحيوانيّة وغير ذلك موافقاً للكشوفات العلميّة والتّجريبات اليقينيّة، فورود هذا الكتاب كذلك من رجل أميّ عاش بين أمّة أميّة لا دراية لهم بالكتب ولا العلوم، لدليل واضح ينادي ويقول: **(إنّه)** الّذي جاء به الرّسول والّذي يخبر عن مجيء يوم القيامة ويحيا فيه النّاس كلّهم ويحاسبون وفق أعمالهم فيثابون أو يعاقبون **(لقرآن كريم)** ذو قدر ومنزلة **(في كتاب مكنون)** وهو اللّوح المحفوظ من التّبديل والتّغيير ووصول الشّياطين إليه فهو محفوظ **(حيث لا يمسّه)** لا يصل إليه ولا يطّلع على ما فيه **(إلّا المطهّرون)** من الملائكة الكرام الّذين هم رسل الله الملك العلّام إلى الأنبياء والمرسلين، فيأتون فيه إليهم بما يأمرهم الله تعالى به دون زيادة ونقصان، ودون تبديل وتحريف وخلط من كلام الغير كما يفعله الجنّ الّذين كانوا يأتون من خبر السّماء إلى الكهنة، فيخلطون به أكاذيب ومفتريات، إلّا أنّ القرآن جاء محفوظاً من كلّ ما يخالفه كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ سورة عبس الآيات/ ١١-١٦. وقد مرّ تفسير هذه الآيات في تفسير سورة عبس، فعلى هذا إنّ الضّمير في لا يمسّه راجع إلى الكتاب المكنون وهو اللّوح المحفوظ، فلا يصحّ التّمسك به لتحريم مسّ المصحف على المحدث، بل إنّ تحريم مسّ المصحف للمحدث الحدث الأكبر أو الأصغر مستفاد من أحاديث الرّسول الكريم (ﷺ)[1] وإن أردت الإطّلاع على هذه المسألة فعليك بالمجموع للنّووي والمحلّى لإبن حزم وسبل السّلام للصنعاني، فإنّ فيها شفاء الغليل **(تنزيل)** مصدر بمعنى المفعول، أي منزّل، خبر ثالث لقوله: **(إنّه لقرآن)** فالمعنى: أنّه أي القرآن منزّل **(من ربّ العالمين)** بدون شكّ وريب **(أفـ)** بعد وضوح هذه الأدلّة على مجيء يوم القيامة **(بهذا الحديث)** الّذي يخبر عن مجيئه **(أنتم)** أيّها

(١) منها قول النبي في كتاب بعثه إلى أهل اليمن، وفيه: (لا يمس هذا القرآن إلا طاهر)/ سنن الدارقطني ٢/ ٢٨٥ الحديث رقم ٢٢٢.

الكفرة (**مدهنون**) منكرون، فما أعجب حالكم وما أضلّكم حيث تنكرون هذا (**وتجعلون رزقكم**) نصيبكم من هذا الحديث (**أنّكم تكذّبون**) به وتنكرونه، إن هذا إلّا ضلال مبين، حيث كان من حقّكم أن تؤمنوا وتصدّقوا لوضوح الدّلائل وقوّة البراهين على ذلك.

تمهيد: قد ذكر الله تعالى قبل بأنّ الله تعالى بيده خلق الإنسان، فقال (نحن خلقناكم فلولا تصدّقون)، ثمّ ذكر أنّه قادر على أن يبدّله بخلق فيميته ويعيده، ثمّ ذكر الدّلائل على قدرته على كلّ شيء، فيجب على الإنسان أن يخضع ويتواضع لأمره، وأن يشكر نعمه ويعبده فلا يشرك به شيئاً، ولكنّ الإنسان يطغى وينسى أوّل خلقه وآخره، ويعتقد ويظنّ أنّه بيده الضرّ والمنفعة والخير والشرّ. فذكّره الله تعالى بعجزه وذلّه وذلّ كلّ من يعتمد عليه ويثق به ماديّاً او معنويّاً، فقال جلّ وعلا:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾

(**فلولا إذا بلغت**) الرّوح (**الحلقوم**) وقت الموت (**وأنتم**) وأعوانكم (**حينئذ تنظرون**) إليه بكلّ حسرة وأسف، وتريدون أن ترجعوا روحه بكلّ ما يمكن من الوسائل (**ونحن**) إي وملائكتنا (**أقرب إليه منكم**) ينتظرون خروج روحه فيصعدوا بها إلى السّماء والرّحمة إن كان من أهل الإيمان والصّلاح، أو إلى العذاب إن كان غير ذلك (**فلو لا إنّ كنتم غير مدينين**) غير مقهورين وغير أذلّاء وإنّ بيدكم أو آلهتكم شيئاً (**ترجعونها**) ترجعون هذه الرّوح الّتي تحبّونها إلى الجسد فتعيش بينكم (**إن كنتم صادقين**) في أنّ بيد غير الله شيء، أو أنّ الآلهة يستطيعون شيئاً وأنّ بيدكم النّفع والضرّ وصادقين في طغيانكم ونسيانكم ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب، فلم لا ترجعونها أنتم أو من كنتم تثقون به ماديّاً أو معنويّاً، فحيث لا تستطيعون ذلك فاعلموا أنّ كلّ شيء بيد الله ربّ العالمين. وأنّ ما اتّخذتموه من غيره باطل وأنّكم أذلّاء تحت قدرته، وأنّ بيده حياتكم وموتكم وبعثكم يوم النّشور. فاعبدوه إذن ولا تشركوا به واتّبعوا ما أنزل على رسوله وخافوا عقابه الشّديد.

ثمّ ذكر الله تعالى مصير الّذي يموت فلا يستطيع إرجاع الرّوح إليه وبيّن حاله فيما بعد الموت، فقال جلّ وعلا:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

(فأمّا إن كان من المقرّبين) فبعد الموت إن كان الميت من المقرّبين وهم السّابقون **(فـ)** فجزاؤه **(روح)** فراحة واطمئنان **(وريحان)** ورزق حسن طيّب **(وجنّة نعيم)** وبستان مملوء بالنّعم وليس فيها غير النّعمة، فكلّ ما فيها نعم **(وأمّا إن كان من أصحاب اليمين)** وقد عرفتهم وصفاتهم **(فسلام لك)** أيّها المؤمن **(من أصحاب اليمين)** من الملائكة الّذين يراعون أصحاب اليمين وسلامهم بشارة منهم بأمر الله تعالى بأنّهم آمنون من كلّ كدر وغمّ وحزن ومكروه وألم، وكلّ ما يضرّ بصفوة الحياة والحياة الصّافية **(وأمّا إن كان من المكذّبين)** بدين الله والمنحرفين عن شريعته والمنكرين لثوابه وعقابه **(فنزل)** فجزاؤهم ضيافة **(من حميم)** الماء البالغ من الحرارة أشدّها **(وتصلية جحيم)** وإدخالهم وإلقاؤهم في جهنّم **(إنّ هذا)** الموقف من الحساب ونتيجته من الثّواب والعقاب **(لهو حقّ اليقين)** ليقين وقوعه وحقّ ثبوته **(فسبح باسم ربّك العظيم)** نزّه قدرة الله تعالى عن أن لا يعذّب الكافر أو لا يثيب المؤمن، فإنّ في ذلك خلاف العدل والوعد وهو منزّه عن ذلك.

متّعنا الله تعالى بالرّوح والرّيحان والنّعيم في الجنان، وحمانا في الدّنيا والآخرة من كلّ مكروه، ووقانا ممّا لا يحبّ ولا يرضى، ورزقنا الخير والتّوفيق في البدء والختام، إنّه على ذلك لقدير ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وصلّى الله تعالى على المولى محمّد وعلى آله والصّحابة آمين، والحمد لله ربّ العالمين.